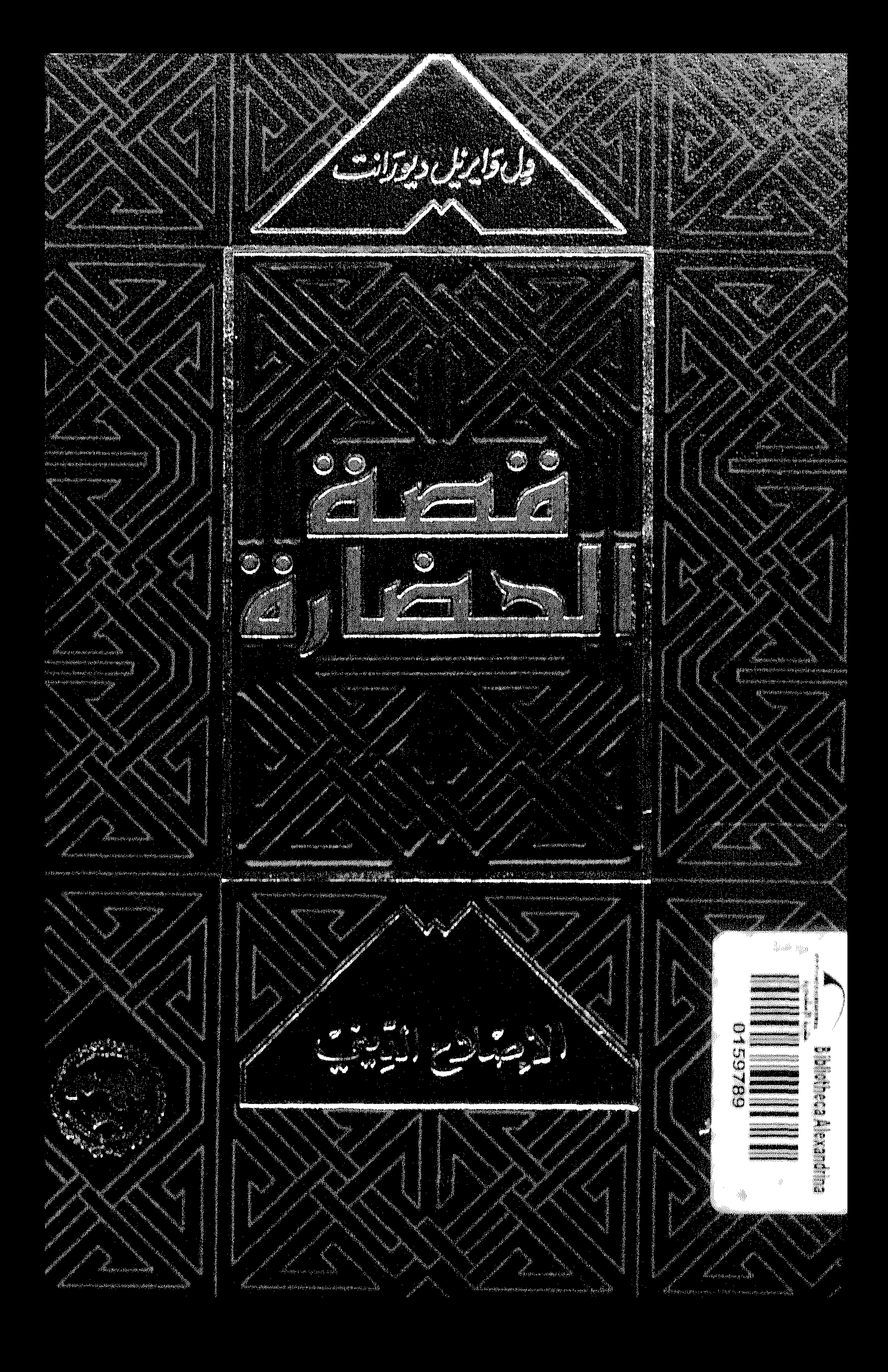
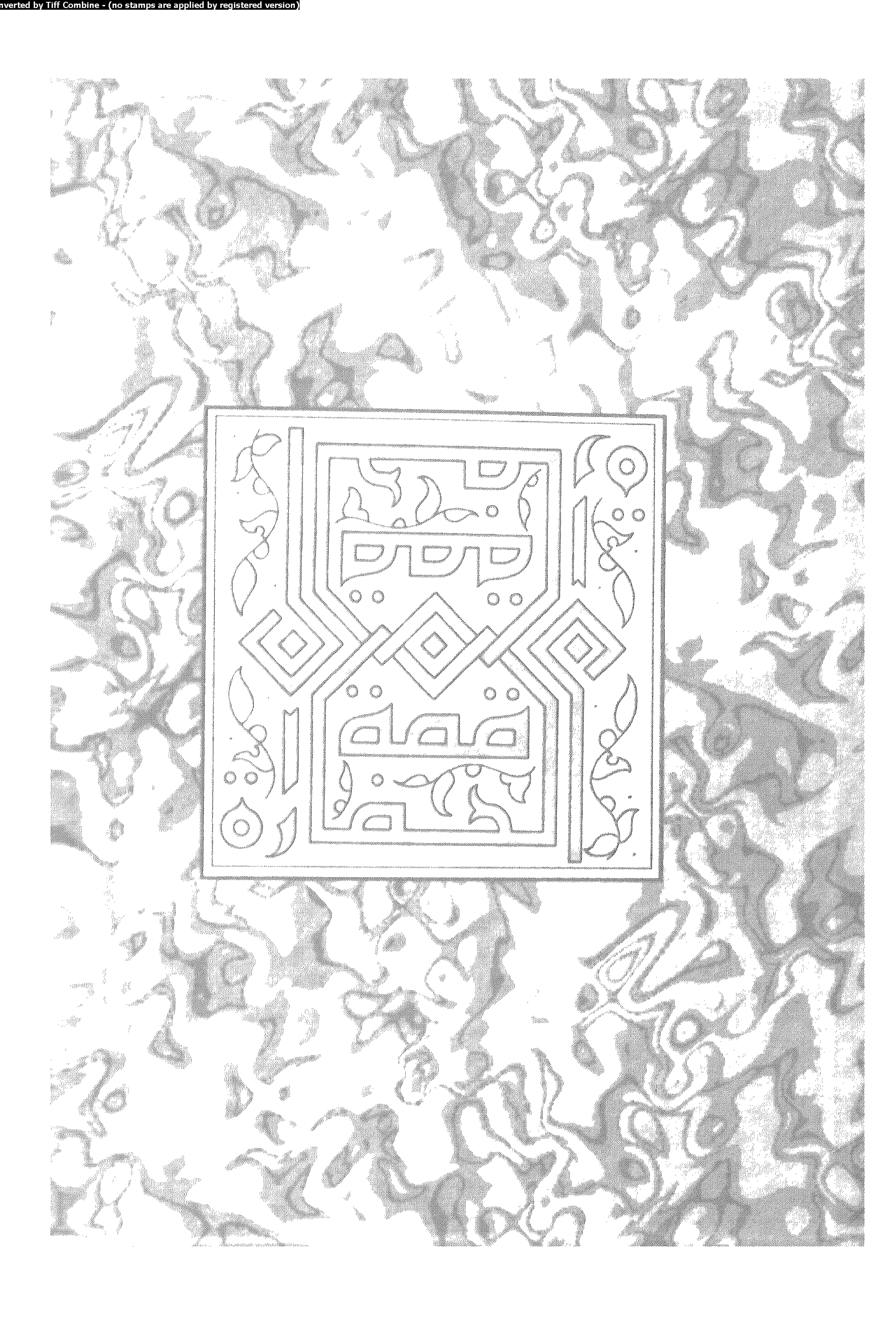
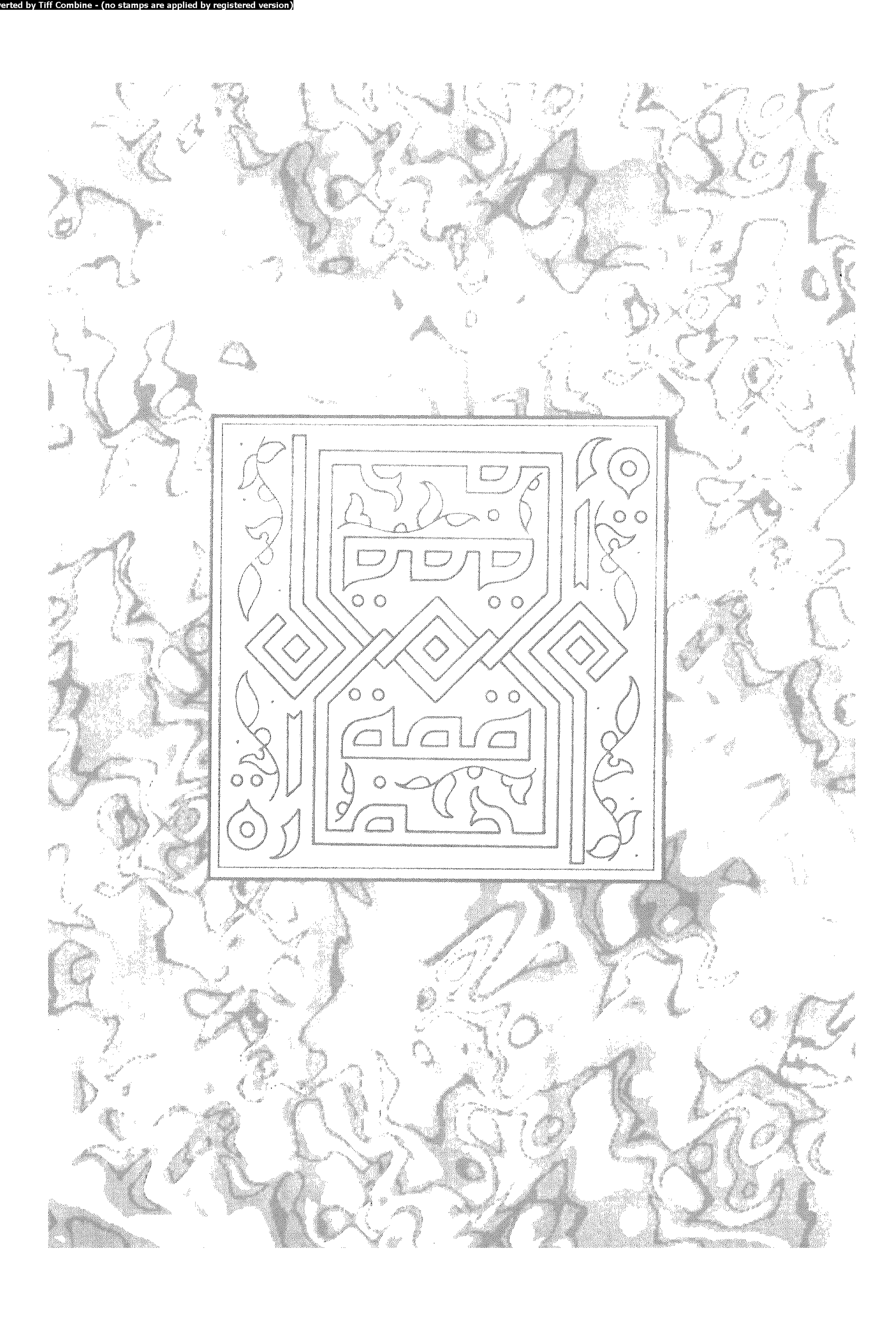

ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
الإصلاح الديني
Bibliotheca Alexandrina
0159789







قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الدّيني

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

مراجعة
الأستاذ علي أدهم

الجزء الرّابع من المجلّد السّادس

(٢٥)





تونس
بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس

صفحة

صفحة

صفحة



الفصل الثاني والعشرون

فرانسيس الأول والإصلاح الديني في فرنسا

١٥١٥ – ٥٩

١ – الملك الأنف الكبير

ولد تحت شجرة في كونياك في اليوم الثاني عشر من سبتمبر عام ١٤٩٤ ؛ وجده هو شارل أورليان الشاعر ، وربما كان الغناء وحب الجمال في دمه ؛ وأبوه شارل أمير فالوا وأورليان ، كونت أنجوليم ، الذي مات بعد أن اقترف الكثير من الآثام، وكان فرانسيس لم يتجاوز بعد العام الثالث من عمره . وأمه لويز أميرة سافوى ، وهي امرأة على جمال واقتدار وطموح ، تتعشق الثراء والسلطة . وقد ترملت في السابعة عشرة من عمرها ، وأبت الزواج من هنرى السابع ملك إنجلترا ، ووقفت جهدها – إذا استثنينا بعض العلاقات المحرمة – على إعداد ابنها ليكون ملكاً على فرنسا ؛ ولم تشعر بالأسى عندما وضعت آن أميرة بريتاني ، زوجة لويس الثاني عشر ، ولداً ميتاً ، وتركت لفرانسيس ولاية العهد . وعين لويس ، وقلبه مفعم بالحزن ، فرانسيس دوقا لفالوا، ورتب له المربين لتلقينه فن تدبير الملك . وأسبغت عليه لويز ، وكذلك أخته مرجريت ، من عاطفة الأمومة ما وصل إلى درجة الوله ؛ وأعداه ليكون ملكاً على قلوب النساء . وكانت لويز تناديه « مليكي » مولاى ، قيصرى ؛ وغذته بقصص الفروسية وتباهت بمغامراته الغرامية ، وكان يغمى عليها عندما ترى الضربات تنكال

له فى المبارزات التى شغف بها . وكان شاباً وسيما مرحاً أنيساً شجاعاً ، يواجه الأخطار بصدر رحب وكأنه رولان أو أماديس ، وعندما أفلت خنزير برى من قفصه ، وانطلق يعيث فساداً فى فناء قصر فرانسيس ، واجه الأمير الوحش ، وذبحه فى بطولة رائعة ، فى الوقت الذى فرّ فيه الآخرون لا يلوون على شيء .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (١٥٠٦) خطبوا له كلود أميرة فرنسا ، ابنة لويس الثانى عشر ، البالغة من العمر سبع سنوات . وكانت موعودة بأن تكون خطيبة للصبى الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، إلا أن الخطبة فسخت لكى تتجنب فرنسا الوقوع فى براثن أسبانيا ، وكان هذا موضوعاً واحداً من مئات موضوعات الاستفزاز التى حفزت إلى الصراع بين بيتى هابسبورج وفالوا من الفتوة إلى الموت . وعندما بلغ فرانسيس الرابعة عشرة من عمره ، أمر بأن يهجر والدته وأن ينضم إلى لويس فى شينون ، وتزوج كلود عندما بلغ العشرين ، وكانت فتاة بدينة بليدة عرجاء ، ولودا صالحة ، وأنجبت منـــه أطفالا فى أعوام ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ و ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ وماتت عام ١٥٢٤ .

وفى غضون ذلك أصبح ملكاً (أول يناير عام ١٥١٥) ، وغمرت السعادة قلوب الجميع ، وعلى رأسهم أمه التى أنعم عليها بدوقيتى أنجوليم وأنجو . وكونتيتى ماين وبوفور ، وبارونية أمبواز . بيد أنه لم يكن أقل كرماً مع الآخرين — النبلاء والفنانين والشعراء والوصفاء العشيقات . وكان صوته المرح ودماثته وهدوء طبعه وحيويته المتدفقة وجاذبيته ، وجمعه بين سمات الفروسية ومزايا عصر النهضة كل ذلك جعله أثيراً لدى أبناء جلدته ، بل وحاشيته . واغتبطت فرنسا وعلقت عليه آمالا عريضة . كما حدث فى إنجلترا إبان تلك السنوات التى حكم فيها هنرى الثامن ، وفى الإمبراطورية إبان عهد شارل الخامس ، وبدا العالم فتياً من جديد منتعشاً

بشباب الملك . وصمم فرانسس ، وكان فى تصميمه أقوى من ليو العاشر ، على أن ينعم بعرشه .

ترى ماذا كان فى الواقع ذلك الرجل الذى يجمع بين صفات آرثر ولانسلوت ؟ إنه كان رائع التكوين من الناحية البدنية ، لو لم يكن أنفه كبيراً على ذلك النحو . وقد أطلق عليه بعض معاصريه الذين يفتقرون إلى الاحترام لقب « الملك الأنف الكبير » . وكان فارع القامة ، طوله ست أقدام ، عريض المنكبين ، خفيف الحركة قوى البنية . وكان فى وسعه أن يجرى ويقفز ، ويصارع ويبارز أمهر الخصوم ، وكان يستطيع أن يستعمل سيفاً بمقبضين أو رمحاً ثقيلا . وكانت لحيته الخفيفة وشاربه الرفيع لا يخفيان شبابه ، فقد كان فى الحادية والعشرين عندما توج ملكاً . وكانت عيناه الضيقتان تنمان على التيقظ وخفة الروح ، وإن كانتا لا تدلان على الدهاء أو العمق . وإذا كان أنفه يدل على الفحولة ، فإنه كان يطابق شهرته . وقد كتب برانتوم ، الذى لا يعد كتابه « نسوة عاشقات » مصنفاً تاريخياً ، فى ذلك الوقت يقول : « لقد عشق الملك فرانسس الكثيرات ، وأحب الكثيرات إلى حد الإفراط ، ولما كان شاباً فتياً حراً فقد كان يحتضن الواحدة حيناً ، والأخرى أحياناً بلا اكتراث . . . ومن أجل ذلك أصيب بمرض الجدرى الذى عجل بنهايته »(١) . ويروى أن أم الملك قالت إنه لقى جزاءه حيث اقترف خطيئته(*) . وربما بالغ التاريخ فى تنوع غرامياته . ومهما كان عددها ، فإنه ظل وفياً مخلصاً فى الظاهر أولا لفرانسواز دى فوا ، كونتيسة دى شاتوبريان ، ثم لآن دى بسليو التى أنعم عليها بلقب دوقة ديتامت ، وذلك من عام ١٥٢٦ إلى أن قضى نحبه ونشرت عنه

(*) ومما هو أقرب إلى الأسطورة ، قصة المحامى الذى وقع الاختيار على زوجته لابل فرونيير (بياعة الأدوات الحديدية الجميلة) للمخدع الملكى ، فما كان منه إلا أن أصاب نفسه بعدوى المرض فنقل إليها مرض الزهرى حتى تصيب به الملك .

الشائعات الباطلة مئات من الحكايات التي تدور حول مغامراته الغرامية — وأنه حاصر ميلان لا حباً فى ميلان ، ولكن من أجل سواد عينى فتاة لا تنسى ، رآها هناك[٣] ، أو لأن امرأة لعوبا فى بافيا أغرته وقادته إلى محور مأساته[٤] . ولا يسعنا على أية حال إلا أن يخالجنا شيء من العطف على ملك مرهف الحس إلى هذا الحد ، لقد كان قادراً على الحنان والوله إلى درجة الخبال : وعندما رأى أن يطلق ابنه من كاترين دي مديتشى بعد ان ثبت أنها عاقر أثنته دموعها عن عزمه[٥] . وفى هذا قال أرازموس « لا يمكن أن يتخيل امرؤ وجود شخص أرق عاطفة من فرانسيس[٦] . » وإذا كان قد قال ذلك بسبب العطف لبعد المسافة ، فإن بودس عالم الإنسانيات المتخصص فى شئون فرانسيس وصفه بأنه « مهذب رقيق من السهل الحصول على رضاه[٧] » .

وكان معجباً بنفسه لدرجة لا تنتظر من رجل . وكان ينافس هنرى الثامن فى فخامة ثيابه الملكية وفى إهمال فراء قلنسوته . واتخذ السمندل رمزاً له ، مما يدل على الإصرار على البعث من كل احتراق ، بيد أن الحياة لسعته مع ذلك بشواظها . وكان يحب أن يقابل بمظاهر التبجيل والامتياز والتملق ، ويضيق ذرعاً بالنقد . وأمر بجلد ممثل لأنه هجا الحاشية ، وقد واجه لويس الثانى عشر لذعات نفس الملاحظات الساخرة فاكتفى بالابتسام[٨] . وكان جاحداً للجميل ، كما حدث مع آن دى مونمورنسى ، وظالما كما كان مع شارل البوربونى ، وقاسيا كما كان مع سمبلانساى ، ولكنه كان على الجملة معروفا بالصفح والكرم . وكان الإيطاليون يتعجبون من سخائه[٩] . ولم يظهر فى التاريخ حاكم يفوقه فى الرفق بالفنانين ، وكان يعشق الجمال عشقا يتسم بالقوة والفطنة ، وكان على استعداد لأن ينفق على الفن كما ينفق على الحرب ، وقدم نصف ما أنفق من مال فى عصر النهضة الفرنسية .

ولم تكن قدرته الذهنية تضارع جاذبية شخصيته ، وكان يعرف القليل من

اللاتينية ، ولا يعرف شيئا من اليونانية ، بيد أنه أدهش الكثيرين بتنوع معارفه ودقتها عن الزراعة والصيد والجغرافية والعلوم الحربية والأدب والفن ، وكانت الفلسفة تلذ له عندما لا تتعارض مع الحب أو الحرب ؟ وكان شديد التهور والاندفاع إلى درجة لا يصلح معها قائداً عظيما ، خفيف الروح يعشق المتعة إلى حد لا يصلح معه لأن يكون سياسياً كبيراً ، وكانت تسحره المظاهر فلا ينفذ إلى جوهر الأمور . ويتأثر فى لطف بالخلان والحظايا فلا يستطيع أن يختار أصلح من لديه من القادة والوزراء ، وكان شديد الصراحة لا يخفى أمراً إلى حد لا يصلح معه لأن يكون دبلوماسياً قديراً . وحزنت أخته مرجريت بسبب عجزه عن الحكم ، وتنبأت بأن الإمبراطور الداهية العنيد سوف يزيحه عن فرسه فى مقارعتهما التى دامت مدى الحياة . أما لويس الثانى عشر الذى كان يعجب به « بوصفه شاباً شهماً رقيقاً » . فقد رأى فى توجس إفراط خلفه فى الملذات . وقال : « لا فائدة من كل ما نعمل ، إن هذا الولد العظيم سوف يفسد كل شىء »[١٠] .

٢ ــ فرنسا فى عام ١٥١٥

كانت فرنسا وقتذاك تنعم برخاء تجود به تربة سخية ، ويتحقق على يد شعب ماهر يحسن التدبير وحكم خير . وكان عدد السكان زهاء ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى مقابل ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى إنجلترا و ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى أسبانيا . وكانت باريس بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة تعد أكبر مدينة فى أوروبا بعد القسطنطينية . وكان البناء الاجتماعى نصف إقطاعى : فكل الفلاحين تقريباً كانوا يملكون الأرض التى يفلحونها ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها عادة فى إقطاع من الأرض ــ وكانوا يدفعون مكوسا أو يؤدون خدمات ــ لسادة وفرسان مهمتهم تنظيم الزراعة وتقديم الحماية العسكرية لإقليمهم وللأمة . وأدى التضخم الناتج من تكرار خفض العملات والتعدين

أو استيراد المعادن الثمينة إلى تيسير دفع المكوس المالية التقليدية ، وأتاحت للفلاحين إمكان شراء الأرض رخيصة من الملاك الأثرياء والنبلاء الفقراء ، ومن ثم انتشر فى الريف رخاء أشاع المرح فى نفس الفلاح الفرنسى وجعله يتشبث بعقيدته الكاثوليكية ، بينما كان الفلاح الألمانى يقوم بثورة اقتصادية ودينية . وحفزت الملكية الطاقة الفرنسية فجنت من الأرض أفضل أنواع القمح والكروم فى أوروبا ، وسمنت الماشية وتضاعف عددها ، وكان اللبن والزبد والجبن يقدم على كل مائدة ، والدجاج وغيره من الدواجن تربى فى كل فناء تقريباً ، وتقبل الفلاح الرائحة المنبعثة من حظيرة خنازيره كما لو كانت شذى مباركاً من أعراف الحياة .

أما العامل فى المدينة — وهو فى الغالب صانع ماهر يعمل فى حانوته — فلم يكن له نسبياً نصيب من هذا الرخاء . لقد أدى التضخم إلى سرعة ارتفاع الأسعار بصورة تفوق زيادة الأجور ، وساعدت التعريفات الجمركية التى فرضت لحماية السلع المحلية والاحتكارات الملكية ، مثل استخراج الملح ، على ارتفاع نفقات المعيشة . وأضرب العمال المتذمرون ، ولكنهم جميعاً ، على وجه التقريب ، لم يظفروا إلا بالفشل والخيبة . وحرم القانون على العمال الاتحاد لأغراض اقتصادية . وكانت القوافل التجارية تنتقل متراخية على طول الأنهار الفياضة وتسير بصعوبة على طول الطرق السيئة ، وتدفع لكل سيد ضريبة للمرور فى أملاكه . وكانت ليون التى تلتقى فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط القادمة صعوداً من الرون بسيل البضائع القادمة من سويسرة وألمانيا ، تعد ثانى مدينة بعد باريس فى الصناعة الفرنسية . والثالية بعد انتورب باعتبارها سوقاً للأوراق المالية أو مركزاً للاستثمار والتمويل . وكانت التجارة تنطلق من مارسيليا ، وتجوب البحر الأبيض المتوسط ، وتجنى الربح بفضل العلاقات الودية التى جرؤ فرانسيس على الاحتفاظ بها مع سليمان والأتراك .

وغنم فرانسيس من هذا الاقتصاد ، على غرار ما كانت تفعله الحكومات ، دخولا وصلت إلى الحد الذى يدفعه إلى التسامح . وكانت ضريبة الملك أو السيد ، التى تفرض على الرءوس والأموال ، تثقل كاهل الجميع ، ما عدا النبلاء ورجال الدين ، وكان الأخيرون يدفعون للملك ضرائب عشور ومنحا كنسية ، أما النبلاء فكانوا يقدمون الفرسان ويجهزونهم ، وكان هؤلاء الفرسان لا يزالون عماد الجيوش الفرنسية وقوتها الضاربة . وتلقى فرانسيس درساً من البابوات فباع — وأنشأ للبيع — ألقاباً للنبلاء ومناصب سياسية . وبهذا كون الأغنياء الجدد على الأيام طبقة أرستقراطية جديدة (كما حدث فى إنجلترا) ، وأسس المحامون بشرائهم للمناصب ، بيروقراطية قوية كانت تدير حكومة فرنسا — وأحياناً بغير علم الملك .

ولم يجد الملك بسبب انهماكه فى الملذات وقتاً كافياً يدير فيه شئون الحكم ، فأناب عنه فى تولى مهامه ، حتى فى رسم سياساتها ، رجالا مثل أمير البحر بونيفيه وآن دى مونمورنسى والكردينالين دوبرا ودى تورنون والفيكونت دى لوتريك . وكانت هناك ثلاثة مجالس تعاون هؤلاء الرجال والملك وتشير عليهم بالرأى ، وهى : مجلس خاص من النبلاء ، ومجلس أخص للشئون ، ومجلس موسع ينظر فى طلبات الاسترحام المقدمة إلى الملك . وفيما عدا هذا كان المجلس النيابى فى باريس ، ويتألف من ٢٠٠ عضو من العلمانيين ورجال الدين ، يعينهم الملك مدى الحياة ، بمثابة محكمة عليا . وكان له الحق فى الاعتراض عليه عندما يرى أن مراسيمه تتعارض مع قوانين فرنسا الأساسية ، وكانت مراسيمه تظل تفتقر إلى قوة القانون إلى أن تقوم هذه الهيئة القديمة بـ « تسجيلها » — بل بالتصديق عليها فى واقع الأمر .

ولما كان المحامون والشيوخ يغلبون على المجلس النيابى فى باريس ، فقد أصبح الجهاز القومى السياسى للطبقات الوسطى وأضحى — بعد السوربون —

أكبر هيئة محافظة فى فرنسا . وكانت المجالس النيابية المحلية والمحافظون الذين يعينهم الملك ، يديرون شئون الحكم فى المقاطعات ، وتجاهل الجميع حينا مجلس الطبقات ، وحلت جباية الضرائب محل المنح التى تقدم على سبيل المساعدة ، وتضاءل دور طبقة النبلاء فى الحكومة .

وكان النبلاء يقومون بوظيفة مزدوجة : تنظيم الجيش وخدمة الملك فى البلاط . وكانت الحاشية التى تتألف من الرؤساء الإداريين ورؤوس النبلاء وزوجاتهم وأبناء الأسرة وأصفياء الملك ، قد أصبحت وقتذاك على رأس فرنسا وفى الصدر منها ، ومرآة تعكس البدع والمهرجان الملكى الدائم المتحرك ، وعلى قمة هذه الدورة كان مدير قصر الملك الذى كان ينظم كل شىء ويرعى البروتوكول ، ثم الحاجب المكلف بغرفة نوم الملك ، ثم أربعة من السادة الموكلين بمخدع الملك ، أو كبار الوصفاء الذين كانوا دائماً رهن إشارة الملك لتلبية رغباته ، وكان هؤلاء الرجال يستبدل بهم آخرون كل ثلاثة أشهر ، وذلك لمنح غيرهم من النبلاء فرصة يحل فيها الدور عليهم للقربى البهيجة من الذات الملكية . ولكيلا يتعرض أحد للإغفال كان هناك عدد من السادة يتراوح بين عشرين وأربعة وخمسين لمخدع الملك يخدمون الأربعة الكبار ، يضاف إلى هؤلاء اثنا عشر وصيفاً للمخدع ، وأربعة حجاب للمخدع ، وكانت أجنحة نوم الملك تلقى العناية المناسبة ، وكان هناك عشرون سيداً يعملون مشرفين على مطبخ الملك ، وينظمون أعمال جماعة تتألف من خمسة وأربعين رجلا وخمسة وعشرين من سقاة الخمر . وكان هناك نحو ثلاثين غلاماً من وصفاء الشرف — أولاد لهم نسب جليل — يعملون وصفاء للملك ، ويتألقون فى زى مفضض خاص ، وجمع من أمناء السر يضاعفون من طاقة الملك على التدوين والتذكر . وكان القس الأكبر للكنيسة الملكية كردينالا ، ويشرف أسقف على المحراب أو المصلى ، وسمح لخمسين من الأساقفة الأبروشيين بإسباغ البركة على البلاط ، وبذلك

يزدادون شهرة . وأنشئت مناصب شرف مثل : « خدم الغرفة الخاصة بمرتب قدره ٢٤٠ جنيهاً ، وقد منحت للقيام بمهام مختلفة ، كالتي أنعم بها على علماء مثل بوديه وشعراء مثل مارو . ولا يفوتنا أن نذكر سبعة أطباء وسبعة جراحين وأربعة حلاقين وسبعة مرتلين وثمانية صناع ماهرين وثمانية كتبة للطبخ وثمانية حجاب بقاعة الاجتماعات . وكان لكل ولد من أبناء الملك خدمه الخاصون به » . . مشرفون وكتاب سر ومربون ووصفاء وخدم ؛ وكان لكل واحدة من الملكتين في البلاط — كلود ومرجريت — بطانة خاصة تتألف من خمس عشرة سيدة أو عشر سيدات يعملن وصيفات وست عشرة أو ثمان من وصيفات الشرف — آنسات . ومن أعظم ما اشتهر به فرانسيس أنه جعل للنساء مكانة عليا في بلاطه ، وأنه كان يغمز بعين الخبير إلى علاقاتهن غير الشرعية ، ويشجع ويستمتع باستعراض حليهن ومفاتنهن الرقيقة . وقال : « أي بلاط يخلو من السيدات حديقة مجردة من الأزهار[11] » ؛ ولعل النساء — اللاتي وهبن جمال الفن ، الذي لا تلحقه الشيخوخة — هن اللاتي أضفين على بلاط فرانسيس الأول رونقاً جميلا وحافزاً على البهجة لا نظير لهما حتى في القصور الإمبراطورية بروما . وكان كل الحكام في أوروبا يفرضون المكوس على شعوبهم ليهيئوا لأنفسهم صورة مصغرة لهذا الحلم الباريسي .

وتحت هذا السطح المصقول كانت هناك قاعدة عريضة من الخدم : أربعة من الطهاة ، وستة من مساعدى الطهاة ، وطهاة متخصصون في أطباق الحساء أو المرق المتبل أو الشواء ، وعدد لا يحصى من الأشخاص ، لتقديم الطعام إلى الملك وخدمته على المائدة ، وفي المطبخ المشترك للحاشية ، وتلبية احتياجات السيدات والسادة والسهر على راحتهم ، وكان هناك موسيقيو البلاط يقودهم أشهر المغنين والملحنين والعازفين على الآلات في أوروبا خارج روما ؛ ويشرف على الحظائر الملكية مدرب للخيل ، وخمسة وعشرون من

من رؤساء الركائب النبلاء ، وحشد من الحوذية والسواس ، وهناك رؤساء يشرفون على الصيد ، ومائة كلب و ٣٠٠ صقر يدربها ويعنى بها مائة مدرب للصقور تحت إشراف كبير مدربى الصقور . وتألف حرس الملك من أربعمائة من الرماة ، يضيئون البلاط بأزيائهم الملونة .

ولم يكن هناك مبنى فى باريس يكفى لمآدب البلاط وحفلاته الراقصة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية . وكان قصر اللوفر وقتذاك حصناً كئيباً ، فانصرف عنه فرانسس إلى القصور المنسقة المعروفة باسم ليه تورنل (الأبراج الصغيرة) قرب الباستيل ، أو إلى القصر الفسيح الذى اعتاد المجلس النيابى أن ينعقد فيه ، ومع أنه كان لا يزال يعشق الصيد فقد انتقل إلى فونتنباو أو إلى قصوره الممتدة على نهر اللوار فى بلوا أو شامبور أو امبواز أو تور — ساحباً معه نصف الحاشـــية وثروة فرنسا . وقد وصف شلينى بمبالغته المعهودة ولى نعمته الملك بأنه كان يسافر ومعه بطانة مكونة من ١٨٫٠٠٠ شخص و ١٢٫٠٠٠ جواداً[١٢] . واحتج السفراء الأجانب على ما يتكبدونه من نفقات ومشقة ، فى سبيل لقاء الملك أو مسايرته ، وإذا وجدوه فإنه يكون على الأرجح ، نائماً فى فراشه حتى الظهر ، يفيق من المتع التى نعم بها فى الليلة الماضية ، أو منصرفاً إلى ما يلزم لرحلة صيد أو مباراة للفروسية . وكانت نفقات هذا المجد الطواف باهظة ، وكانت الخزانة دائماً على شفا الإفلاس ، والضرائب ترتفع على الدوام ، والمصرفيون فى ليون يُكرهون على تقديم قروض للملك ، يتعرضون فيها للمخاطر . وعندما أدرك الملك عام ١٥٢٣ أن نفقاته تتجاوز موارده ، وعد بوضع حد لإشباع رغباته الشخصية « وهى لا تشمل على أية حال المطلب العادى لاحتياجاتنا ومتعنا القليلة[١٣] » . وكان يلتمس لنفسه عذراً فى تبذيره بحاجته إلى التأثير فى المبعوثين والتغلب على النبلاء الطموحين ، وإدخال البهجة على قلوب العامة ، ورأى أن الباريسيين يتعطشون للعروض ، وأن إعجابهم بأبهة ملكهم يفوق استياءهم منه .

وأصبحت حكومة فرنسا آنذاك مزدوجة الجنس . فكان فرانسس يحكم في الظاهر حكماً مطلقاً ، بيد أنه كان يعشق النساء إلى درجة جعلته يخضع لأمه وشقيقته بل وزوجته . ولا بد أنه كان يحب كلود إلى حد ما لأنها ظلت على الدوام حاملا منه ، وقد تزوجها لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، وشعر بأن من حقه أن يقدر نساء أخريات خلقن في صورة فنية أجمل منها . وحذت الحاشية حذو الملك في ممارسة فن فحش ظريف . ووطن رجال الدين أنفسهم على قبول هذا الوضع بعد إبداء الاعتراض المناسب ، أما الشعب فلم يبد أي اعتراض ، ولكنه قلد شاكراً سنة الحاشية الدمثة — ما عدا فتاة واحـــدة ، قيل لنا إنها شوهت جمالها عمداً لتنجو من الفسق الملكي (١٥٢٤)[١٤] .

وكانت أقوى النساء نفوذاً في البلاط والدة الملك ، وقالت لويز أميرة سافوى إلى قاصد رسولي : « وجه خطابك لي ، وسوف نسير في طريقنا ، وإذا شكا الملك فإننا سنتركه يتكلم كما يشاء[١٥] » ، وكثيراً ما كانت على صواب في نصيحتها . وعندما تولت الحكم كنائبة للملك ، أصبحت البلاد خيراً مما كانت عليه بين يديه المتراخيتين . ولكن أطماعها دفعت دوق بوربون إلى خيانة الوطن ، وأدت إلى هلاك جيش فرنسي جوعاً في إيطاليا . وغفر لها ابنها كل شيء ، وشعر بالشكر لأنها جعلت منه إلها .

٣ — مرجريت أميرة نافار

ولعله كان يحب شقيقته حباً لا يفوقه إلا حبه لأمه ، وإن كان يزيد على حبه لعشيقاته — وقد منحته مؤازرتها شيئاً أقل خلوداً وعمقاً من تمجيدها المجرد من الأنانية . وكانت لا تعيش إلا للحب — حب أمها وشقيقها وزوجها ، وهو حب أفلاطوني وحب ديني صوفي . وثمة حكاية لطيفة تقول : « لقـــد ولدت وهي تبتسم ، وتمد يدها الصغيرة لكل

قادم(١٦) » ، وقد أطلقت على أمها وشقيقها ونفسها اسم « ثالوثنا » ، وقنعت بأن تكون « الزاوية الصغرى » فى ذلك « المثلث المتساوى الأضلاع(١٧) » .
وكانت بحكم مولدها مرجريت أميرة أنجوليم وأورليان وقالوا . وتكبر فرانسس بعامين ، فأسهمت فى تنشئته وشاركته ألعاب الطفولة ،وكانت بمثابة « أمه وعشيقته وزوجته الصغيرة(١٨) » . وسهرت عليه فى كلف شديد كما لو كان إلهاً مخلصاً قد تحول إلى إنسان ، وعندما وجدت أنه كان مسرفاً فى شهواته الجنسية مثل « الساطير » تقبلت ذلك التصرف منه باعتباره حقا لإله من آلهة الإغريق ، على الرغم من أنها بالذات لم تلحقها أى لوثة من بيئتها . وقد فاقت فرانسيس فى الدراسات ، ولكنها لم تضارعه قط فى تقدير الفن بعين خبيرة . وتعلمت الإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية وبعض العبرية ، وأحاطت نفسها وقد تملكتها رغبة جامحة ، بالأدباء والشعراء وعلماء اللاهوت والفلاسفة ، ومع ذلك فإنها كانت تتحول يوما بعد يوم إلى امرأة جذابة ، ولم تكن جميلة الجسد إذ كان لها ذلك الأنف الطويل الذى اشتهر به آل ڤالوا ، ولكنها كانت ذات سحر أخاذ بفضل مفاتن شخصيتها وذكائها . وكانت عطوفا ، لطيفة كريمة حنونا ، وكثيراً ما كانت تندفع فى مجون مرح . وكانت تعد من أبرع الشواعر فى هذا العصر ، وكان بلاطها فى نراك أوبو من أعظم المراكز الأدبية تألقا فى أوروبا ، وكان كل إنسان يحبها ويود أن يكون بقربها ، وأطلق عليها أهل ذلك العصر الرومانسى الساحر لقب لؤلؤة آل ڤالوا — لأن مرجريتا Margarita باللاتينية معناه لؤلؤة ، وانتشرت أسطورة جميلة تقول إن لويز أميرة سافوى حملت بها بعد أن ابتلعت لؤلؤة .

وتعد رسائلها لأخيها من أجمل وأرق ما كتب فى الأدب . ولا بد أنه كان يطوى جوانحه على الكثير من الخير ، ليفتزع منها مثل هذا الإخلاص . وكانت غرامياتها الأخرى تتفاوت مداً وجزراً وتتأجج أو تفتر ، أما هذه

العاطفة الطاهرة فقد استمرت خمسين عاماً وكانت قوية على الدوام : وإن نسمات ذلك الحب كادت تطهر هواء ذلك العصر المعطر .

وقد أثار جاستون دى فوا ، ابن أخى لويس الثانى عشر ، أول مشاعر غرامها ، ثم انطلق إلى إيطاليا ليغزو ويقضى نحبه فى رافنا (١٥١٢) ، وسقط جيوم دى بونيفيه صريع هواها ، ولكنه وجد أن قلبها لا يزال مشغولا بجاستون ، فتزوج إحدى وصيفاتها ، ليكون بالقرب منها ، وزفت فى السابعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) إلى شارل ، دوق أنسون ، وكان بدوره سليلا لأسرة ملكية . وقد دعا فرانسيس إلى هذا الزواج توثيقا لأواصر المصاهرة بين أسر متنافسة إلى درجة مزعجة ، بيد أن مرجريت وجدت أن من العسير عليها أن تحب هذا الشاب ، وعرض عليها بونيفيه أن تلتمس السلوى عن ذلك بالخنا ، فشوهت وجهها بحجر حاد لتخمد سحر فتنتها له ، وذهب كل من لنسون وبونيفيه إلى إيطاليا للقتال من أجل فرانسيس ، ومات بونيفيه ميتة الأبطال فى بافيا ، أما لنسون فيقال إنه فر وقت تأزم المعركة ، وعاد إلى ليون ، ليجد نفسه موضع الاحتقار من الجميع ، وانتهرته لويز أميرة سافوى ، ووصفته بأنه جبان ، فسقط مريضا بداء ذات الجنب ، وصفحت عنه مرجريت ، وسهرت على تمريضه فى حنان ولكنه مات (١٥٢٥) .

وبعد عامين من ترمل مرجريت ، تزوجت ، وكانت وقتذاك فى الخامسة والثلاثين ، من هنرى دلبريه ، الملقب بملك نافار ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولما كان هنرى مبعداً عن إمارته بسبب مطالبة فرديناند الثانى وشارل الخامس بنافار ، فإن فرانسيس نصب هنرى حاكما على غينا ، وأنشأ بلاطاً مصغراً فى نيراك وأحياناً فى بو فى جنوب غربى فرنسا ، وعامل مرجريت معاملة الأم بل الحماة تقريباً ، ولم يجد حلموها فى إخلاصها لعهود الزواج ، واضطرت إلى أن تلتمس لنفسها السلوى بالقيام

بدور المضيفة والحامية لكتّاب وفلاسفة ولاجئين من البروتستانت . وأنجبت عام ١٥٢٨ ابنة لهنرى هى جان دلبريه ، التى قدر لها أن تحظى بالشهرة باعتبارها أم هنرى الرابع ، وبعد عامين أنجبت ابنا مات فى مرحلة الطفولة ، ومنذ ذلك لم تلبس إلا ثياب الحداد . وكتب لها فرانسيس رسالة تفيض ورعا وحنانا كأى رسالة يمكن أن نتوقعها من يراعها . ومهما يكن من شيء فإنه سرعان ما أمرها هى وهنرى بتسليم جان له ، لتنشأ بالقرب من البلاط الملكى . فقد خشى أن يخطبها هنرى لفيليب الثانى ملك أسبانيا ، أو أن تشب بروتستانتية . وكان هذا الفراق أشد النوائب الكثيرة التى أصابت مرجريت قبل وفاة الملك ولكنه لم يصدها عن الإخلاص له . وإنه لأمر يدعو إلى الأسى ، وإن كان هذا ضروريا أن نروى ما حدث عندما أمر فرانسيس جين بالزواج من الدوق دى كليف ، ورفضت جين ، فأيدت مرجريت الملك إلى حد أنها أصدرت تعليماتها لمربية جين بجلدها إلى أن تذعن . وضربت جين مراراً عديدة ، ولكن جين الشجاعة — وكانت فتاة فى الثانية عشرة من عمرها — أصدرت وثيقة موقعة منها نصت على أنها إذا أكرهت على الزواج فإنها سوف تعتبره لاغيا » ومع ذلك فقد أعدت الترتيبات للزفاف على أساس نظرية تقول إن حاجات الدولة هى القانون الأعلى ، وقاومت جين حتى آخر لحظة ، وكان لا بد من حملها إلى الكنيسة حملا . وما أن انتهت مراسيم الحفل حتى فرت ، وذهبت لتعيش مع أبويها فى بو حيث كاد تبذيرها فى الإنفاق على الثياب والبطانة وإسرافها فى التبرعات يؤدى بها إلى الخراب .

وكانت مرجريت نفسها المثال المجسم للإحسان . وكانت تسير دون أن يرافقها حارس فى شوارع بو « مثل أى فتاة بسيطة » ، وتسمح لكل من يريد بمقابلتها ، وتستمع مباشرة إلى أشجان شعبها وقالت : « ينبغى ألا ينصرف أحد حزينا أو مغموما من حضرة أمير ، لأن الملوك هم رعاة الفقراء . . . والفقراء عيال الله »(١٩) . وأطلقت على نفسها لقب « رئيس

وزراء الفقراء » وكانت تزورهم فى دورهم وتبعث إليهم بالأطباء من حاشيتها ، وشارك هنرى تماما فى هذا لأنه كان حاكما ممتازاً ، بقدر ما كان زوجا مقصراً ، وكانت الأشغال العامة التى أدارها تصلح أنموذجا لفرنسا ، فقد مول هو ومرجريت تعليم عدد كبير من الطلبة الفقراء من بينهم أميو الذى ترجم فيما بعد كتاب بلوتارخ ، وقدمت مرجريت المأوى والأمان لمارو ورابليه وديبرييه وليفيفر ديتابل وكالفن ولكثيرين غيرهم ، إلى حد أن أحد من أسبغت عليهم حمايتها قارنها بـ « دجاجة تتعهد أفراخها بعناية وترفرف عليهم بجناحيها[٢٠] » .

وإلى جانب ما كانت تقوم به من أعمال البر كانت تهتم بثلاثة أمور غلبت على حياتها فى نيراك وبو وهى : الأدب والحب الأفلاطونى واللاهوت الصوفى الذى وجد متسعا للكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، وتسامح حتى مع الفكر الحر . وكان من عادتها أن تدعو الشعراء ليقرأوا عليها أشعارهم وهى تتلهى بالتطريز ، وكانت تنظم أشعاراً تستحق بعض التقدير ، يمتزج فيها الحب البشرى بالحب الإلهى فى وجد واحد مبهم . ونشرت إبان حياتها عدة مجلدات فى الشعر والدراما ، ليست فى جودة رسائلها التى لم تطبع إلا عام ١٨٤١ . ويعرف العالم بأسره كتابها الأيام السبعة ، بسبب ما اشتهر به من حكايات بذيئة . ولكن أنصار الأدب المكشوف سوف يخيب ظنهم فيها . فهذه الحكايات رويت بأسلوب العصر ، الذى وجد أعظم فكاهة فى الخدع والأعمال ، التى تتسم بالشذوذ وتقلبات الحب ، وانحرافات الرهبان عن عهودهم ، والحكايات نفسها تروى بتحفظ . وهذه الحكايات هى التى رواها الرجال والنساء من حاشية مرجريت ، أو من حاشية فرانسيس ، وقد دونتها بنفسها أو دونت لها (١٥٤٤ — ٤٨) ، ولكنها لم تنشرها قط . وظهرت مطبوعة بعد وفاتها بعشر سنوات . وكانت تعتزم أن تؤلف بها مجموعة قصص أخرى على غرار « الأيام العشرة » ، ولكن لما كان الكتاب قد توقف

فى اليوم السابع من رواية الحكايات ، فإن الناشر أطلق عليه اسم الأيام السبعة ، ويبدو أن كثيراً من القصص الواردة فيه واقعية ، أخفيت شخصياتها بتغيير أسمائهم ؛ ويقول لنا برانتوم إن أمه ، وكانت إحدى رواة القصص ، تعرف حقيقة الأشخاص الذين تخفوا بأسماء مستعارة فى الحكايات ، ويؤكد لنا مثلا أن الحكاية الرابعة من اليوم الخامس هى قصة محاولات بونيفيه مع مرجريت نفسها[٢١] ؛

ويجب التسليم بأن ذوق عصرنا ، المعترف به ، سوف يكره على الإحساس بالخجل أمام قصص الإغراء التى رواها السادة والسيدات من الفرنسيين ، الذين كانوا يتلهون ويقضون أيامهم فى التلهى انتظاراً لفيضان يهبط عليهم ويسمح لهم بالعودة من حمامات كوتيريه ؛ وتثير بعض الملاحظات العارضة الذعر : « أتريد إذن أن تقول إن كل شىء مباح لمن يعشقون بشرط ألا يعرف أحد ؟

أجل ، فى الحقيقة ، إن الأغبياء فقط هم الذين يكتشف أمرهم[٢٢] » . وإن الفلسفة العامة للكتاب لتجد ما يعبر عنها فى جملة لها مغزاها ، وردت فى الحكاية الخامسة : « ما أتعس السيدة التى لا تحرص على الحفاظ على كنزها ، الذى يمنحها الحفاظ التام عليه الكثير من الشرف ، والذى يجللها بالكثير من العار إن ظلت حريصة عليه[٢٣] » .

ويتخلل الحكايات كثير من العبارات الساخرة المرحة تشيع فيها البهجة ، من ذلك أننا نسمع عن صيدلى ورع من بو « لم يكن له شأن مع زوجته إلا فى أسبوع الآلام على سبيل التفكير »[٢٤] وكما هو الحال فى كتاب بوكاشيو فإن نصف ما فى كتابها من فكاهة يعتمد على لهو الرهبان . وتقول شخصية فى الحكاية الخامسة : « إن هؤلاء الآباء الصالحين يعظوننا بالتزام العفة وهم يريدون أن يدنسوا شرف زوجاتنا » . ويوافق على هذا زوج

انتهك شرفه ويقول : « إنهم لا يتجاسرون على لمس المال ولكنهم على استعداد لأن يمسكوا بأفخاذ النساء وهى أخطر بكثير » . ولا بد أن يضاف إلى هذا كله أن رواة الحكايات المرحة يستمعون إلى القداس كل صباح ويطهرون كل صفحة يقلبونها بعد ذلك بأناشيد التقوى .

والقول بأن مرجريت قد استمتعت بهذه الحكايات أو جمعتها يشير إلى مزاج العصر ، ويدفعنا إلى الحذر من تصورها قديسة ، وأنها ظلت كذلك حتى سنوات ذبولها . ومع ما يبدو من أنها هى بالذات كانت مثابرة على أن تحتفظ بطهارتها ، إلا أنها كانت تبيح لغيرها الانحلال ، ولم تكن تبدى اعتراضات مدونة على توزيع الملك لسلطاته واستمرت بينها وبين عشيقاته الواحدة إثر الأخرى ، علاقة صداقة حميمة . والظاهر أن الرجال ومعظم النساء كانوا يفكرون فى تبادل الحب بين الجنسين بألفاظ جنسية لا تعرف الاحتشام . وشاعت بين الفرنسيات عادة جذابة إبان ذلك العهد الطروب ، هى تقديم هدايا من أربطة سيقانهن لرجال لا وجود لهم إلا فى الخيال(٢٥) . وكانت مرجريت ترى أن الرغبة الجسدية من الأمور التى يمكن أن يترخص فيها ، إلا أنها هى نفسها أفسحت فى قلبها مجالا للحب الأفلاطونى والدينى . وقد انتقلت عبادة الحب الأفلاطونى بين « نوادى الحب » فى القرون الوسطى ، وتدعمت بأناشيد إيطالية مثل أنشودة بمبو فى نهاية قصة « رجل البلاط » . وشعرت مرجريت بأن من الخير أن تقبل النساء ، بالإضافة إلى العاطفة الجنسية المعتادة ، ولاء رجال لا ينالون من الجزاء إلا صداقة دقيقة وبعض صلات الود التى لا ضرر منها ، وأن هذا الارتباط قمين بترويض الحساسية الجمالية فى الذكر وتهذيب سلوكه ، وتعليمه الالتزام بقواعد الأخلاق ، ومن ثم فإن المرأة تقوم بتهذيب الرجل . ولكن كان فى فلسفة مرجريت حب أرفع من الحب الجنسى أو الأفلاطونى هو حب الخير أو الجمال أو أى كمال ، ومن ثم كان فوقها جميعاً حب الله . ولكن لكى يحب المرء الله لا بد

له اولا من أن يحب مخلوقاً بشرياً حباً تاماً[٢٦] » ، وكانت عقيدتها الدينية معقدة ومبلبلة مثل مفهومها عن الحب . وكما أن ألانية أخيها لم تكدر ولاءها له فإن ما تعرضت له حياتها من مآس وأحداث قاسية تركت عقيدتها الدينية خالصة متحمسة وغير محافظة على أية حال ، وكانت تمر بها لحظات يراودها فيها الشك ، فقد اعترفت فى كتاب : « مرآة الروح الخاطئة » بأنها قد شكت فى بعض الأوقات فى الكتاب المقدس وفى الرب على السواء ، واتهمت الرب بالقسوة ، وتساءلت هل هو حقاً الذى أنزل الكتاب المقدس ؟[٢٧] . وفى عام ١٥٣٣ استدعتها السوربون لتجيب على اتهام بالهرطقة ، فتجاهلت الاستدعاء ، وقال راهب لجمهور أبرشيته إنها تستحق أن توضع فى جوال ويخاط عليها وتلقى فى نهر السين[٢٨] ، ولكن الملك أبلغ السوربون والرهبان بأن يتركوا شقيقته وشأنها ، ولم يصدق ما وجه إليها من اتهام وقال : « إنها تحبنى كثيراً إلى حد أنها لا تؤمن إلا بما أومن به[٢٩] » . وكانت سعادته بالغة وثقته بنفسه لا حد لها إلى درجة جعلته يحلم بأنه من الهوجنوت . ولكن مرجريت استطاعت أن تفعل ذلك ، وكان لديها إحساس بالإثم ، وصنعت من هفواتها قنن جبال . وكانت تحتقر الهيئات الدينية وترى أنها تافهة لا جدوى منها . ولا هم لها إلا الإسراف فى ارتكاب الخطايا ، وشعرت بأن الإصلاح قد فات أوانه من عهد طويل . وقرأت طرفاً من الأدب اللوثرى واستحسنت هجماته على فجور رجال الدين وجشعهم ، ودهش فرانسيس عندما وجدها تصلى يوماً مع فرويل[٣٠] — وهو يوحنا المعمدان — عند كالفن . وبينما كانت لا تنقطع عن الصلاة للعذراء فى نيراك وبو فى ورع الواثق بنفسه ، فإنها أسبغت حمايتها على اللاجئين من البروتستانت ومنهم كالفن نفسه . ومهما يكن من شىء فإن كالفن ساءه كثيراً أن يجد فى بلاطها مفكرين أحراراً مثل إتيين دوليه ، بونافنتير ديبرييه وعنفها على تساهلها ولكنها استمرت فيه . ولكم كان يسرها لو أنها صاغت مرسوم

نانت لحفيدها ؛ ولقد اجتمعت فى مرجريت فى لحظة من اللحظات خصائص عصر النهضة وعهد الإصلاح الدينى(٣١) .

وانتشر تأثيرها فى فرنسا وكانت كل نفس حرة تتطلع إليها باعتبارها حامية لها ومثالا للحرية . وقد أهدى إليها رابليه كتابه Gargantua . وكان رونسار ويواقيم دى بلاى يحذوان حذوها بين آن وآخر فى صوفيتها الأفلاطونية والأفلوطينية . وإن ترجمات مارو للمزامير لتفوح منها أنفاس روحها نصف الهيجونوتية . وترنم بايل فى القرن الثامن عشر بنشيد لها فى معجمه ؛ وفى القرن التاسع عشر قدم لها ميشليه البروتستانتى فى المخطوطة الشعرية المطولة الرائعة التى لا يمل الناس سماعها والمسماة « تاريخ فرنسا » ما يعبر عن شكره بقوله : « فلنتذكر دائماً ملكة نافار الرقيقة ، هذه الملكة التى وجد قومنا الهاربون من السجن أو المحرقة فى أحضانها الأمان والاحترام والصداقة . إننا نعبر عن شكرنا لك أيتها الأم الحبيبة لنهضتنا . لقد كان بيتك دار قديسينا وكان قلبك عشاً لحريتنا(٣٢) » .

٤ — الفرنسيون البروتستانت

لم يحاول أحد البحث فى أن الحاجة ماسة لإصلاح دينى ، وظهر هنا رجل الدين الصالح والشرير كما ظهر فى أى مكان آخر : قساوسة مخلصون ورهبان متبتلون وراهبات قديسات . وظهر هنا وهناك أسقف نذر نفسه للدين أكثر مما نذرها للسياسة ، وقساوسة جهلة أو خائرو العزيمة . ورهبان كسالى وفاسقون ورهبان ينبشون عن المال ويتظاهرون بالفقر . وأخوات ضعيفات فى الأديان وأساقفة يؤثرون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة . وبينما ارتفع شأن التعلم هوى الإيمان ، وبينما كان لرجال الدين النصيب الأكبر فى التعليم فإنهم أظهروا بسلوكهم أنهم لم يعودوا يتأثرون بفلسفة الحشر والنشر المروعة ، التى أملتها عليهم يوما عقيدتهم الرسمية . وخص بعض

الأساقفة أنفسهم بعدد وافر من المناصب والكراسى الأسقفية ، وعلى هذا احتفظ جين دى لورين وتمتع بإيرادات من أسقفيات متز ونول وفردان وأبرشيات ريمس وليون وناربون وألبى وماكون وآجن ونانت وأديار جورز وفيكامب وكلونى ومارموتيين وسالنا — أورين وسان ده لاون وسان جرميه وسان مدار ده سواسون وسان — مانس دى تول[٣٣] . ولم تكف هذه لتلبية احتياجاته وشكا من الفقر[٣٤] . ونلد الرهبان بتكالب الأساقفة على عرض الدنيا ، ونلد القساوسة بالرهبان ، ويستشهد برانتوم بعبارة شاعت فى فرنسا وقتذاك وهى : « إنه شحيح أو فاسق كأنه قسيس وراهب[٣٥] » . وأول جملة فى الأيام السبعة تصف أسقف سيس بأنه يتلهف على إغراء امرأة متزوجة . وهناك اثنتا عشرة قصة فى الكتاب تروى بالتفصيل الأعمال المماثلة لرهبان مختلفين ،وتقول إحدى الشخصيات : « عندما تقع عيناى على راهب يتملكنى رعب شديد ، إلى حد أنى لا أستطيع حتى أن اعترف لهم ، لأنى أعتقد أنهم أسوأ من كل الرجال الآخرين[٣٦] » . وتسلم وازيل — وهو الاسم الذى أطلقته مرجريت على أمها فى الأيام السبعة — بأن بينهم رجالا صالحين ولكن هذه السيدة نفسها لويز أميرة سافوى كتبت فى يومياتها تقول : « فى عام ١٥٢٢ . . . بدأنا أنا وابنى ، بنعمة الروح القدس نعرف المنافقين ، الأبيض والأسود والأشهب والقاتم . ومن كل الألوان أولئك الذين يحفظنا الرب برحمته الواسعة منهم ويدفع عنا أذاهم ، لأنه إذا لم يكن المسيح كاذبا فليس بين كل أبناء البشرية جيل أخطر منهم[٣٧] » .

ومع ذلك فإن جشع لويز وتعدد نساء ابنها وأخلاق حاشيتها النزاعة إلى الفوضوية لم تكن نموذجاً يحتذيه رجال الدين الذين كانوا خاضعين للملك إلى حد كبير . وفى عام ١٥١٦ حصل فرانسيس من ليو العاشر على اتفاقية بابوية تخوله الحق فى تعيين أساقفة فرنسا ورهبانها ، ولكنه لما أسرف

فى هذا التعيين الذى لجأ إليه لمكافأة من أدوا له خدمات سياسية ، تأكدت الصفة الدنيوية للأسقفية . ونصت الاتفاقية البابوية السارية المفعول على أن تكون الكنيسة الجاليقية مستقلة عن البابوية وتابعة للدولة . وبهذه الوسيلة حقق فرانسيس قبل أن ينشر لوثر رسائله بعام ، فى الواقع ، وإن لم يبد ذلك لحسن الحظ فى الشكل ، ما كان قميناً بأن يكسبه الأمراء الألمان وهنرى الثامن بالحرب أو الثورة ألا وهو تأميم المسيحية . وماذا كان فى وسع الفرنسيين البروتستانت أن يقدموه لملك فرنسا أكثر من هذا ؟

لقد سبق أولهم لوثر . ففى عام ١٥١٢ قام جاك ليفيفر ، المولود فى أتابل فى بيكاردى والذى قام بالتدريس فى جامعة باريس بعد ذلك ، بنشر ترجمة لاتينية لرسائل بولس مع شرح يفسر ، بين هرطقات أخرى ، اثنتين منها ، كانتا حريتين بأن تكونا بعد عشر سنوات متفقتين فى الأساس مع لوثر وهما : « إن الناس يمكنهم أن يظفروا بالخلاص لا بالأعمال الصالحات ، ولكن بالإيمان برحمة الله التى ينالونها بتضحية المسيح للتكفير عن خطايا البشر ، وإن المسيح موجود فى القربان المقدس بفعله وإرادته الطيبة ، لا بأى تجسيد كهنوتى للخبز والنبيذ . وطالب ليفيفر مثل لوثر بالعودة إلى الإنجيل ، وسعى مثل أرازموس إلى استعادة النص الصحيح للعهد الجديد ، وتوضيحه كوسيلة لتطهير المسيحية من أساطير القرون الوسطى والزيادات الكهنوتية . وأصدر عام ١٥٢٣ ترجمة فرنسية للتوراة وللمزامير بعد ذلك بعام . وقال فى إحدى تعليقاته : « ما أشد خزينا عندما نرى أسقفاً يطلب من الناس فى إلحاح أن يشربوا معه ، لا هم له إلا المقامرة . . . والصيد باستمرار . . . والتردد على البيوت سيئة السمعة[٣٨] » وأدانته السربون وقضت بأنه هرطيق ففر إلى شتراسبورج (١٥٢٥) ، وتشفعت له مرجريت فاستدعاه فرانسيس وعينه أميناً للمكتبة الملكية فى بلوا ومربياً لأطفاله . وفى عام ١٥٣١ عندما أغضبت أعمال البروتستانت التى تجاوزوا

فيها الحد الملك ، لجأ ليفيفر إلى مرجريت فى جنوبى فرنسا وعاش هناك حتى وفاته بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً (١٥٣٧) .

وشرع تلميذه جيوم بريسونيه الذى عين أسقفا لمو (١٥١٦) فى إصلاح الأسقفية بروح أستاذه ، وبعد اربع سنوات من العمل الحماسى شعر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يقدم على ابتداع تغييرات لاهوتية . فعين للإشراف على الصدقات مصلحين معروفين من أمثال ليفيفر وفاريل ولوى ده بركان وجيرار روسل وفرانسوا فاتابل وشجعهم على أن ينادوا فى عظاتهم بـ « العودة إلى الإنجيل » . وأثنت عليه مرجريت وعينته موجهاً روحياً لها . ولكن عندما أعلنت السوربون مدرسة اللاهوت التى تسيطر الآن على جامعة باريس — أدانتها للوثر (١٥٢١) أمر بريسوفيه زملاءه بمسالمة الكنيسة فقد كانت وحدة الكنيسة فى نظره ، مثله فى هذا مثل أرازموس ومرجريت ، أهم من الإصلاح .

ولم تستطع السوربون أن توقف تدفق الأفكار اللوثرية عبر نهر الراين ، فقد كان الطلبة والتجار يجلبون مؤلفات لوثر من ألمانيا باعتبار أنها تمثل أعظم الأخبار إثارة وقتذاك ، وأرسل فروبن نسخاً من بازيل لتباع فى فرنسا . وتلقف العمال الساخطون العهد الجديد واعتبروه وثيقة ثورية واستمعوا بابتهاج إلى مبشرين استخلصوا من الإنجيل مدينة فاضلة تتحقق فيها المساواة الاجتماعية .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه عام ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صكوك الغفران مزقه جان لكلير ، وكان يعمل فى تمشيط الصوف فى مو ووضع مكانها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته (١٥٢٥) بناء على أمر المجلس النيابى لباريس . فانتقل إلى ميتز وهناك حطم التماثيل الدينية ، التى كان من المقرر

أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور . وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه ، وانتزعت حلمتا ثدييه بملقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحمى إلى درجة الأحمرار . وأحرق حياً (١٥٢٦)[٣٩] . وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة فى باريس بتهمة « التجديف » أو لإنكارهم ما للعذراء والقديسين من تفويض فى الشفاعة (١٥٢٦ — ٢٧) .

وكان شعب فرنسا يؤيد بوجه عام عمليات الإعدام هذه[٤٠] وكان يحب عقيدته الدينية ويرى أنها وحى من لدن الله ومن قوله ، ويمقت الهراطقة لأنهم يسلبون من الفقراء أعظم عزاء عندهم ولم يظهر فى فرنسا رجل مثل لوثر . يثير الطبقة الوسطى ضد طغيان البابا ، فقد كانت الاتفاقية البابوية تمنع استغاثة مثل هذه ولم يكن كالفن قد وصل بعد إلى الشهرة الجنيفية التى تتيح له أن يبعث بدعوته الصارمة للإصلاح . ووجد الثائرون بعض التأييد بين طبقة الأرستقراطية بيد أن السادة والسيدات كانوا قليلى الاهتمام إلى درجة أنهم لم يتشبثوا بالأفكار الجديدة إلى الحد الذى يخل بعقيدة الشعب أو يقض مضاجع الحاشية ، وقد تسامح فرانسس نفسه مع الدعاية اللوثرية ما دامت غير منطوية على أى تهديد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية ، وكانت له بدوره شكوكه الخاصة — فى سلطات البابا وبيع صكوك الغفران ووجود المطهر[٤١] ، ولعله رأى أن يستخدم تسامحه مع البروتستانتية سلاحاً يشهره ضد بابا يميل كثيراً إلى الانحياز لشارل الخامس . وكان يعجب بارازموس وسعى إليه لتعيينه فى الكلية الملكية الجديدة ، وكان يؤمن معه بتشجيع التعليم والإصلاح الكهنوتى — ولكن بخطوات لا تقسم للشعب إلى نصفين متحاربين أو تضعف تأثير الخدمات التى تقدمها الكنيسة لتهذيب أخلاق الأفراد والنظام الاجتماعى[٤٢] . وكتبت مرجريت إلى بريسونيه عام ١٥٢١ تقول : « إن الملك والسيدة (لويز أميرة سافوى) على أهبة الآن أكثر من أى وقت مضى لإصلاح الكنيسة[٤٣] » ، وعندما قبضت

السوربون على لوى ده بركان لقيامه بترجمة بعض مصنفات لوثر (١٥٢٣) أطلق سراحه بفضل تشفع مرجويت له عند الملك . ولكن فرانسيس أفزعته ثورة الفلاحين فى ألمانيا التى يبدو أنها نشبت نتيجة الدعاية البرتستانتية ، وقبل أن يرحل ليلقى الهزيمة فى بافيا أمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية فى فرنسا .

وبينما كان الملك أسيراً فى مدريد ، سجن بركان مرة أخرى ولكن مرجريت حصلت ثانية على أمر بإطلاق سراحه . وعندما فك إسار فرانسيس نفسه انهمك فى يوبيل للتحرر ، ولعله فعل هذا إقراراً بفضل شقيقته التى سعت كثيراً ، لتحريره ، فاستدعى ليفيفر وروسل من المنفى وشعرت مرجريت بأن الحركة من أجل الإصلاح الدينى قد ظفرت بيومها الموعود .

ووقع حادثان دفعا الملك إلى العودة لعقيدة المحافظين . فقد كان فى حاجة للمال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته . ووافق رجال الدين على منحه ١٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ولكنهم أرفقوا بالمنحة التماساً بوقفة أكثر حزماً مع الهرطقة ، فوافق (١٦ ديسمبر سنة ١٥٢٧) ، وفى يوم ٣١ مايو سنة ١٥٢٨ هاله أن يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن فى تمثال لهما خارج كنيسة فى أبرشية سان جرمان أثناء الليل . وصاح الناس يطالبون بالانتقام ، وعرض فرانسيس ألف كراون مكافأة لمن يعثر على المخربين وقاد موكباً حزيناً من الأساقفة وموظفى الدولة والنبلاء وعامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة . وانتهزت السوربون فرصة رد الفعل لسجن بركان مرة أخرى وبينما كان فرانسيس غائباً فى بلوا ودفع باللوثرى الذى رفض التوبة إلى المحرقة (١٧ إبريل عام ١٥٢٩) وسط فرحة الحاضرين من الجمهور(٤٤) .

وكان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغيرات دبلوماسيته ، ففى عام ١٥٣٢ ، وقد أغضبه تعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس قدم عروضا للأمراء

اللوثريين الألمان وأذن لمرجريت بتنصيب روسل مبشراً لجماهير كبيرة فى اللوفر ، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس .

وفى أكتوبر سنة ١٥٣٣ كان على وفاق مع كليمنت ، فوعد باتخاذ إجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت . وفى أول نوفمبر ألقى نيكولاس كوب خطابه فى الجامعة ، فاستشاطت السوربون غضباً وأمر فرانسيس باضطهاد جديد . ولكن اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الإمبراطور فأرسل جيوم دى بلاى المناصر للإصـــلاح إلى فيتنبرج ليطلب من ملانكتون أن يتوصل لصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة (١٥٣٤) وبهذا يجعل فى الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية . فأذعن ملانكتون وأخذت الأمور تتحرك بسرعة عندما قامت جماعة متطرفة من المصلحين الفرنسيين بلصق إعلانات فى شوارع باريس وأورليان وغيرهما من المدن ، بل وحتى على أبواب مخدع الملك فى أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنه من قبيل عبادة الأوثان وبالبابا ورجال الدين الكاثوليك ، وتصفهم بأنهم « ذرية دودة . . . مارقون ، ذئاب . . كذابون ، كافرون ومزهقون للأرواح » (١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٤)(٤٥) . فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشـــتبه فيهم بدون تمييز وامتلأت السجون . وقبض على عدد كبير من الطابعين ، وظلت الطباعة قاطبة محظورة لفترة ما . وانضمت مرجريت ومارو وكثير من البروتستانت المعتدلين إلى من استنكروا الإعلانات الملصقة . وسار الملك وأولاده والسفراء والنبلاء ورجال الدين فى صمت مهيب ، يحملون شموعاً موقدة ليستمعوا إلى قداس أقيم للتكفير فى كاتدرائية نوتردام (٢١ يناير سنة ١٥٢٥) . وأعلن فرانسيس أنه سيقطع رأس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوانحهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين . وفى عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت فى باريس بطريقة رئى

أنها تصلح لتهدئة المعبود . فقد علقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم[٤٦] . وأحرق فى باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام ١٥٣٤ والخامس من مايو عام ١٥٣٥ . وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التى لا داعى لها وأمره بوقف الاضطهاد[٤٧] .

وقبل أن ينصرم العام كان فرانسيس يخطب ود البروتستانت الألمان من جديد . وكتب بنفسه إلى ملانكتون (٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥) يدعوه إلى الحضور « والتباحث مع بعض المبرزين من الدكاترة عندنا عن الوسيلة لإعادة توطيد دعائم ذلك التناسق السامى فى الكنيسة ، الذى أرى أنه أعز أمنية لدى على الإطلاق[٤٨] » . ولم يحضر ملانكتون ولعله ارتاب فى أن فرانسيس يستخدمه شوكة فى جنب الإمبراطور ، وربما أثناه عن عزمه لوثر أو أمير ساكسونيا المختار الذى قال : « إن الفرنسيين ليسوا من الإنجيليين بل هم إرازميون[٤٩] » . وكان هذا صحيحاً بالنسبة لمرجريت وبريسونيه ليفيفر وروسل ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة لأنصار لصق الإعلانات والهوجينوت الكالفينيين الذين بدأوا يتكاثرون فى جنوب فرنسا . وتخلى فرانسيس عن كل جهوده لاسترضاء البروتستانت بعد مسالمة شارل (١٥٣٨) .

ولم يكن أعظم خزى لحق بعهده إلا نتيجة خطئه إلى حد ما فقد سمح للفوديين أو الولدانيين ، الذين كانوا لا يزالون يحبون الآراء شبه البروتستانتية لبيتر والد ومؤسس طائفتهم فى القرن الثانى عشر ، بالاحتفاظ بوجودهم الذى يشبه نظام طائفة الكويكر ، فى ظل الحماية المالكية ، فى نحو ثلاثين قرية على امتداد نهر دورانس فى بروفانس : وفى عام ١٥٣٠ شرعوا فى مكاتبة المصلحين فى ألمانيا وسويسرة ، وبعد عامين استخلصوا اعترافاً بعقيدة تقوم على آراء بوسر وأويكولامبادريوس ، وعقد قاصد رسولى

بينهم محكمة للتفتيش فاستغاثوا بفرانسيس ، فأمر بوقف الاضطهاد (١٥٣٣) : ولكن الكردينال ده تورنون ادعى أن الولدانين كانوا يدبرون مؤامرة تنطوى على خيانة للحكومة ، وأقنع الملك العليل المتذبذب بتوقيع مرسوم (أول يناير سنة ١٥٤٥) ينص على أن كل الولدانيين الذين يكتشف أنهم مذنبون وتثبت عليهم تهمة الهرطقة يجب أن يعدموا . وفسر موظفو المجلس النيابى فى إكس — ان — بروفانس — الأمر بأنه يعنى الإبادة الجماعية . وأبى الجنود فى مبدأ الأمر إطاعة الأمر وعلى أية حال فإنهم حملوا على قتل فئة قليلة ثم ألهبتهم حرارة القتل فحولوه إلى مذبحة . وفى خلال أسبوع واحد (١٢ — ١٨ أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت بالأرض ، وفى إحداها ذبح ٨٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وفى مدى شهرين أزهقت أرواح ٣٫٠٠٠ نفس، وهدمت اثنتان وعشرون قرية ،وأكره ٧٠٠ رجل على العمل فى السفن . ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة لجأن إلى كهف حتفهن خنقاً بنار أشعلت عند مدخله . ورفعت سويسرة وألمانيا البروتستانتيتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهانى إلى فرانسس[٥٠] وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة فى سو برئاسة بيير لكلير شقيق جين الذى وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما أحرق ثمالية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (٧ أكتوبر سنة ١٥٤٦) .

وكانت هذه الاضطهادات أعظم فشل منى به عهد فرانسيس . وأضفت شجاعة الشهداء جلالا وروعة على قضيتهم ، ولا بد أن ألوفا من المشاهدين قد تأثروا وانزعجوا ، ولولا عمليات الإعدام المشهودة هذه لما كلفوا أنفسهم قط عناء تغيير عقيدتهم الموروثة ، وعلى الرغم من الإرهاب المتكرر فإن « حشودا » سريعة من البروتستانت وجدت عام ١٥٣٠ فى ليون وبوردو وأورليان وريمس وأميان وبواتييه وبورج ونيم ، ولا روشيل وشالون وديجون وتولوز . وكأن الأرض قد انشقت عن فرق من الهوجينوت :

ولا بد أن فرانسيس قد عرف وهو على فراش الموت أنه قد ترك ابنه تحدق به العداوة من إنجلترا وألمانيا وسويسرة ولم يكن يواجه هذا فحسب بل يواجه أيضاً إرثا من الكراهية فى فرنسا نفسها .

٥ ـ هابسبورج وفالوا ١٥١٥ ـ ٢٦

لم يكن من المتوقع أن يرضى ملك متقلب مثل هذا بالتخلى عن كل الآمال التى كانت قد أثارت أسلافه إلى ضم ميلان ، ونابلى إذا أمكن ، ليكونا دوتين فى التاج الفرنسى . وقد قبل لويس الثانى عشر الحدود الطبيعية لفرنسا — أى أنه اعترف للألب بالسيادة . وسحب فرانسيس الاعتراف وتحدى حق الدوق مكسمليان سفورزا فى ميلان . وفى غضون المفاوضات التى دارت بينهما بضعة شهور حشد قوة هائلة وجهزها ، وفى أغسطس عام ١٥١٥ سار على رأسها وسلك طريقاً جديداً محفوفا بالمخاطر — واقتحم طريقه عبر جبال صخرية — فوق الألب وانحدر منها إلى إيطاليا — والتقى الفرسان والمشاة الفرنسيون فى مارينيانو على مسيرة تسعة أميال من ميلان ، بجنود سفورزا من السويسريين المرتزقة ، واستمر بينهما القتال يومين (١٣ — ١٤ سبتمبر سنة ١٥١٥) حدثت فيهما مقتلة كبيرة لم تعرفها إيطاليا منذ الغزوات البربرية ، وتركت جثث ١٠٫٠٠٠ رجل مطروحة على الأرض . وخيل فى فترة ما أن الفرنسيين قد هزموا وعندئذ اندفع الملك إلى الأمام وهاجم ونظم صفوف جنده وجعل من نفسه مثالا للجرأة . وجرى العرف أن يكافئ الحاكم المنتصر من يظهرون شجاعة خاصة بتنصيب طبقة جديدة من الفرسان فى الميدان ، ولكن فرانسيس قبل أن يفعل هذا أقدم على حركة لها مغزاها لم يسبقه إليها أحد . فقد ركع أمام بيير ، سنيور دى بايار ، وطلب تنصيبه فارسا على يد الفارس المشهور ، الذى لم يتطرق إليه الخوف ، ولم يوجه إليه اللوم ، فاحتج بايار بأن الملك ، بحكم

وظيفته ، فارس الفرسان ، ولا حاجة به إلى تشريف إلا أن الملك الشاب ، كان لا يزال فى الحادية والعشرين من عمره ، أصر على ذلك ومضى بايار يقوم بالمراسيم التقليدية بجلال ، ثم طرح سيفه وهو يهتف « لا شك يا سيفى العزيز أنك سوف تحفظ كأى أثر ، وتنال من التشريف فوق ما تناله السيوف الأخرى جميعاً ، لأنك فى هذا اليوم أضفيت على ملك وسيم قوى صفة الفروسية ، وإنى لن أحملك قط بعد ذلك إلا لمحاربة الأتراك والمغاربة والعرب[٥١] » . ودخل فرانسيس ميلان بصفته صاحبها وبعث بدوقها المعزول إلى فرنسا ، وخصص له مرتباً مجزياً ، واستولى أيضاً على بارما وبياتشنزا ووقع مع ليو العاشر ، فى احتفالات رائعة فى بولونيا ، معاهدة واتفاقية يخولان البابا والملك على السواء أن يدعيا الحصول على نصر دبلوماسى .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا معبوداً لمواطنيه بل ولأوروبا تقريباً ، فقد سحر جنوده بمشاطرته إياهم ما لاقوه من مشاق وتفوقه عليهم فى الشجاعة ، وعلى الرغم من أنه فى غمرات انتصاره قد انغمس فى التيه بنفسه ، فإنه خفف من غلوائه ، بالثقة بآخرين وتلطيف حدة كل أنانية بكلمات الثناء والتمجيد . وارتكب وهو ثمل بالشهرة أكبر خطأ فى حياته . ذلك أنه رشح نفسه للتاج الإمبراطورى . وانزعج ، وهو على حق ، باحتمال أن يصبح شارل الأول ، ملك أسبانيا ونابلى وكونت الفلاندرز وهولنده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة — بكل تلك المطالب فى لومباردى ومن ثم ميلان ، التى غزا مكسمليان من أجلها إيطاليا مراراً ، وسوف تكون فرنسا ، فى نطاق إمبراطورية جديدة مثل هذه ، محاطة بأعداء لا يقهرون فى الظاهر .

وقدم فرانسيس الرشا ، وخسر أمام شارل الذى قدم من الرشا أكثر منه وفاز (١٥١٩) م وبدأت المنافسة المريرة التى جعلت غربى أوروبا يعج بالاضطرابات إلى ما قبل وفاة الملك بثلاث سنوات .

ولم يعدم شارل وفرانسس من الأسباب ما يدعو إلى تبادل العداء ، فقد زعم شارل ، حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً أن له الحق فى أن يطالب ببورغنديا لأنه حفيد مارى ابنة شارل الجسور ، وأبى أن يعترف باتحاد بورغنديا مع التاج الفرنسى . وكانت ميلان من الوجهة الرسمية إقطاعية فى الإمبراطورية ، واستمر شارل فى فرض الاحتلال الإسبانى لنافار ، وأصر فرانسيس على أن تعود إلى هنرى دلبريه . وطرحت بواعث الحرب هذا السؤال العويص : من هو سيد أوروبا : شارل أم فرانسيس ؟ وأجاب الأتراك بل سليمان .

ووجه فرانسيس الضربة الأولى ، فعندما لاحظ أن شارل مشغول بثورة سياسية فى أسبانيا وثورة دينية فى ألمانيا أرسل جيشاً عبر جبال البرانس للاستيلاء على نافار من جديد ، فهزم فى حملة أهم حادث فيها هو إصابة أجناسيوس لويولا بجرح (١٥٢١) . وانطلق جيش آخر جنوبا للدفاع عن ميلان ، وتمرد الجند بسبب عدم دفع المرتبات ، وهزمتهم الجنود الإمبراطورية المرتزقة هزيمة منكرة فى لابيكوكا ، وسارعت ميلان ترتمى فى أحضان شارل الخامس (١٥٢٢) وانطلق قائد الجيوش الفرنسية لمقابلة الإمبراطور لكى يتغلب على هذه الحوادث .

وكان شارل ، دوق أف بوربون رأس أسرة قوية قدر لها أن تحكم فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٩٢ . وكان أغنى رجل فى البلاد بعد الملك ، وبين تابعيه ٥٠٠ نبيل ، وكان آخر البارونات العظام الذين يستطيعون أن يتحدوا ملك الدولة المتمركزة وقتذاك . وقدم لفرانسيس خدمة جليلة فى الحرب ، وقاتل بشجاعة فى ماريننانو ، أما فى الحكم فلم يخدمه بهذا القدر إذ دفع أهالى ميلان إلى النفور منه بسبب حكمه الجائر ، ولما وجد أن الملك لم يزوده بالأموال الكافية قدم ١٠٠,٠٠٠ جنيه من ماله الخاص ، وهو يتوقع أن تسدد له ، ولكنه لم يتسلم شيئاً . وكان فرانسيس ينظر بعين الارتياب والحسد إلى هذا القيل الذى يوشك أن يكون ملكاً ، فاستدعاه

من ميلان ، ووجه إليه إهانات حمقاء أو مقصودة تسببت فى أن يكون بوربون خصمه اللدود ، وكان الدوق قد تزوج سوزان أميرة بوربون التى أوصت أمها بأن تعود ضياعها الشاسعة إلى التاج إذا ماتت سوزان دون أن تعقب ذرية . وماتت سوزان (عام ١٥٢١) ولكن بعد أن حررت وصية تركت فيها كل أملاكها لزوجها . وطالب فرانسيس وأمه بالأملاك باعتبارهما أقرب سليلين لدوق بوربون السابق . وعارض شارل هذا الادعاء وأصدر المجلس النيابى بباريس قراراً ضده . واقترح فرانسيس عقد صلح بمقتضاه يكون للدوق الحق فى ربع الأملاك حتى وفاته ؛ بيد أنه رفض الاقتراح . وعرضت لويز ، وكانت وقتذاك فى الحادية والخمسين على الدوق البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاما أن يتزوجها مع صك ملكية صريح بالأملاك كبائنة لها ، فرفض . وقـدم له شارل الخامس عرضا يبز العرض السابق : هو أن يزوج شقيقته اليونورا وأن يؤيد مطالبه تأييداً كاملا بجنود الإمبراطورية ، وقبل الدوق وفر ليلا عبر الحدود ، وعين قائداً برتبة لفتنانت جنرال للجيش الإمبراطورى فى إيطاليا (١٥٢٣) .

وأنفذ فرانسيس ضده لونيفيه . وأثبت عشيق مرجرت أنه غير كفء وسحق الدوق جيشه فى رومانيانو ، وفى أثناء تقهقر الجيش أصيب الشيفاليه دى بايار ، قائد حرس المؤخرة الخطيرة بجرح قاتل بطلقة من سلاح نارى (٣٠ أبريل سنة ١٥٢٤) ووجده بوربون الظافر يحتضر تحت شجرة ، فقدم له بعض عبارات الثناء على سبيل المواساة فرد عليه بايار « مولاى إنى أستحق الرثاء ، أنا أموت بعد أن أديت واجبى ، ولكنى أرثى لك إذ أراك تعمل ضد مليكك وبلدك وتحنث بقسمك[٥٢] » . وتأثر الدوق ولكنه كان قد أحرق خلفه كل الجسور وعقد اتفاقا مع شارل الخامس وهنرى الثامن ينص على أن يقوم الثلاثة بغزو فرنسا فى آن واحد ، وأن يتغلبوا على كل القوات الفرنسية ، ويقسموا البلاد بينهم . وكان نصيب الدوق من الصفقة أن يدخل

بروفالس ، ويأخذ إكس ويضرب حصاراً على مرسيليا ، ولكن حملته كانت تفتقر إلى المؤن وقوبلت بمقاومة عنيفة غير متوقعة وانهارت فتراجع إلى إيطاليا (سبتمبر سنة ١٥٢٤) .

ورأى فرانسيس أن من الحكمة أن يطارده ، ويستولى من جديد على ميلان وأشار عليه بونيفيه ، وهو أحمق حتى النهاية ، بأن يستولى أولا على بافيا ثم ينقض على ميلان من الجنوب ، فوافق الملك وضرب عليها الحصار (٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٤) ، ولكن الدفاع هناك أيضاً كان أقوى من الهجوم ، وظل الجيش الفرنسى محجوزاً عند الخليج أربعة أشهر ، وفى غضونها جمع بوربون وشارل أمير لانوى (نائب الملك فى نابلى) والمركيز دى بسكارا (زوج فتوريا كولونا) جيشاً جديداً قوامه ٢٧٫٠٠٠ رجل . وفجأة ظهرت هذه القوة خلف الفرنسيين . وفى اليوم نفسه (٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥) وجد فرانسيس قواته يهاجمها هذا الحشد غير المتوقع من جانب ، وقوات المحاصرين فى بافيا من جانب آخر . وحارب كالعادة فى طليعة المشتبكين ، وقتل بسيفه الكثيرين من الأعداء ، حتى ظن أن النصر قد تحقق ، ولكنه ضحى بقيادته العسكرية فى سبيل إظهار شجاعته ، وكانت قواته موزعة توزيعاً سيئاً ، ومشاته يسيرون بين مدفعيته والعدو ، وبهذا جعلوا المدفعية الفرنسية المتفوقة عديمة الجدوى ، وتفشى الاضطراب فى صفوف الفرنسيين ، وفر دوق النسون ، وسحب معه حرس المؤخرة ، وصاح فرانسيس فى جيشه الذى دبت فيه الفوضى أن يسير وراءه إلى ساحة القتال ، ولكن لم يرافقه إلا أعظم نبلائه شهامة . وأعقب هذا مذبحة فى الفرسان الفرنسيين ، وأصيب فرانسيس بجروح فى وجهه وذراعيه وساقيه ، ولكنه ظل يضرب بلا كلل ، وتهاوى فرسه تحته ومع ذلك ظل يقاتل . وسقط فرسانه المخلصون واحداً أثر الآخر إلى أن ترك وحيداً ، وأحدق به جنود الأعداء ، وكان على وشك أن يلقى مصرعه ، عندما تعرف عليه

ضابط فأنقذه واقتاده إلى لانوى ، الذى تقبل سيفه ، وهو يقوم بانحناءات خفيفة للدلالة على الاحترام .

واعتقل الملك فى قلعة بيزيجيتون بالقرب من كريمونا ، حيث سمح له بأن يرسل إلى أمه التى كانت تحكم فرنسا أثناء غيابه رسالته التى كثيراً ما نقلت كما هى ، وكثيراً ما نقلت محرفة :

« إلى نائبة الملك فى فرنسا : سيدتى ، بودى أن تعرفى مدى معاندة البقية الباقية من سوء حظى : لم يبق لى فى العالم سوى الشرف وحياتى التى أنقذت . ولكى تحمل إليك هذه الأنباء ، وأنت بؤسك ، القليل من العزاء ، توسلت إليهم أن يسمحوا لى بكتابة هذه الرسالة إليك . . . وأنا أتوسل إليك ألا تقدمى على أى عمل طائش ، وأنت تباشرين ما عرفت به من فطنة معتادة ، لأنى أرجو ، بعد كل شىء ألا يتخلى عنى الله[٥٣] » .

وبعث برسالة مماثلة إلى مرجريت التى ردت على الخطابين :

« مولاى : إن الفرحة التى ما زلنا نشعر بها عند ما تلقينا خطابيك الكريمين ، اللذين أسعدك أن تكتبهما لى ولأمك ، تجعلنا نحس بالسعادة لاطمئناننا على صحتك التى تتوقف عليها حياتنا ، ويخيل إلى أننا ينبغى ألا نفكر فى شىء سوى أن نحمد الله وأن نتوق إلى أن تصلنا باستمرار أنباؤك الطيبة ، وهى خير زاد لنستطيع أن نعيش عليه . وبما أن الخالق قد من علينا بأن يبقى ثالوثنا متحداً أبدا فإن الاثنين الآخرين يتوسلان إليك أن تتقبل هذا الخطاب ، عند ما يقدم إليك ، وأنت الثالث ، بنفس المودة القلبية التى تقدمها إليك خادمتاك المتواضعتان المطيعتان والدتك وشقيقتك » .

لويز ، مرجريت[٥٤]

وكتب فرانسيس إلى الإمبراطور فى مدريد رسالة جد متواضعة يقول له فيها « إذا كان يسرك أن ينطوى قلبك على قدر قليل من العطف ، فتأخذ على عاتقك مهمة إنقاذ حياة ملك فرنسا الأسير إنقاذا يستحقه عن

جدارة . » فى وسعك أن تكون على ثقة من الحصول على كسب بدلا من أسير لا نفع منه ، وبهذا تجعل ملك فرنسا عبدك إلى الأبد » ولم يكن فرانسيس قد تدرب على احتمال المأساة(٥٥) .

وتلقى شارل أنباء انتصاره بهدوء ورفض أن يحتفل به ، كما اقترح كثيرون فى مهرجان رائع . وانسحب إلى مخدعه (كما يقال لنا) وركع يصلى . وأرسل إلى فرانسيس ولويز ما خيل له أنها شروط معتدلة لتحقيق السلام وتحرير الملك :

(١) على فرانسيس أن يتخلى عن بورغنديا وأن يتنازل عن كل مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا وإيطاليا .

(٢) يجب تسليم الدوق بوربون كل الأراضى والمناصب التى يطالب بها .

(٣) يجب منح الاستقلال لكل من بروفانس ودوفينى .

(٤) يجب أن تعيد فرنسا إلى إنجلترا كل الأراضى الفرنسية التى كانت تابعة فيما سبق لبريطانيا — أى نورماندى وانجو وغسقونيا وجين .

(٥) على فرانسيس أن يوقع حلفا مع الإمبراطور وينضم إليه فى حملة توجه ضد الأتراك .

فأجابت لويز بأن فرنسا لن تتنازل عن قيراط واحد من الأراضى ، وأنها مستعدة للدفاع عن نفسها حتى آخر رجل . وتصرفت نائبة الملك وقتذاك بقوة وعزم وذكاء مما حمل شعب فرنسا على أن يصفح عن أخطائها التى ركبت فيها رأسها . وعملت فى الحال على تنظيم وإعداد جيوش جديدة وأقامتها لحراسة كل المراكز المحتمل أن تتعرض للغزو . ولكى تصرف ذهن الإمبراطور عن فرنسا حثت سليمان عاهل تركيا على إرجاء هجومه

على بلاد الفرس وأن يقوم بدلا من ذلك بحملة تتجه غربا ، ولا نعرف الدور الذى لعبه توسلها فى القرار الذى اتخذه السلطان ، ولكنه زحف عام ١٥٢٦ إلى هنغاريا وألحق هزيمة منكرة بجيش المسيحيين فى موهاكس ، بلغت من الشدة حدا جعل قيام شارل بأى غزو لفرنسا بمثابة خيانة للعالم المسيحى . وفى الوقت نفسه أوضحت لويز لهنرى الثامن وكليمنت السابع أن إنجلترا والبابوية على السواء سوف تنحدران إلى مرتبة العبودية إذا سمح للإمبراطور بالحصول على كل الأراضى التى طلبها ، وتردد هنرى فألحت لويز وعرضت عليه تعويضا قدره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كروان فوقع حلفا دفاعيا هجوميا مع فرنسا (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٥) وفتحت هذه الدبلوماسية الأنثوية عيون الرجال وحطمت ثقة شارل بنفسه .

ونقل الملك الأسير إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقيـــة بين لويز ولانوى والإمبراطور ، وعند ما وصل فرانسيس إلى بلنسية (٢ يوليو سنة ١٥٢٥) بعث إليه شارل برسالة رقيقة ، ولكن معاملته لأسيره لم ترتفع إلى مقام الفروسية . وخصصت لفرانسيس غرفة ضيقة فى قلعة قديمة فى مدريد ووضعت عليه حراسة مشددة ، وكانت الحرية الوحيدة التى منحت له هى أن يمتطى ظهر بغل بالقرب من القلعة تحت رقابة حراس مسلحين راكبين . وطلب مقابلة شارل ولكن شارل أجل هذه المقابلة وسمح بسجن فرانسيس أسبوعين سجنا أثار قلقه وغيظه ، حتى يخضع فرانسيس لدفع ثمن باهظ مقابل الحصول على حريته . وعرضت لويز أن تقابل الإمبراطور وتتفاوض معه ولكنه رأى من الأفضل أن يلعب على سجينه بدلا من أن يتعرض لفتنة امرأة تجعله يجنح إلى التساهل . فأبلغته بأن ابنتها مرجريت ، وهى أرملة وقتذاك سوف يسعدها أن تجدها جلالته الإمبراطورية ، مناسبة له ، ولكنه آثر عليها إيزابلا أميرة البرتغال ، بصداقها البالغ قدره ٩٠٠٫٠٠٠ كراون . فهى تستطيع

أن تزوده فى الحال بالمخدع والمأوى ، وبعد أن أمضى فرانسيس شهرين فى سجن يتلهف فيه على حريته سقط صريع مرض خطير . وانطلق الأسبان إلى كنائسهم يصلون من أجل الملك الفرنسى آسفين لقسوة الإمبراطور . وصلى شارل أيضاً ، لأن الملك إذا مات فلن يكون له أهمية كرهينة سياسية ، وزار فرانسيس زيارة قصيرة ووعده بقرب إطلاق سراحه وبعث لمرجريت يأذن لها بالحضور ومواساة أخيها .

وسافرت مرجريت بحرا من ايجمورت (٢٧ أغسطس سنة ١٥٢٥) إلى برشلونه وهناك حملت فى هودج بطىء ملتو اخترق بها نصف طول أسبانيا إلى مدريد ، ووجدت السلوى فى قرض الشعر وبعث رسائل حارة متميزة إلى الملك ، وقالت « مهما يطلب منى ، حتى ولو كان أن أنثر رماد عظامى فى مهب الرياح لأؤدى لك خدمة ، فليس فيه أمر غريب أو صعب أو شاق بالنسبة لى ، وحسبى أن أجد فيه السلوى والراحة والطمأنينة والشرف[٥٦] » . وعندما وصلت بعد لأى إلى مخدع أخيها وجدته يتعافى بشكل ملموس ، بيد أنه أصيب بنكسة يوم ٢٥ سبتمبر ودخل فى غيبوبة ، وخيل لمن حوله أنه يحتضر . وركعت مرجريت هى والأسرة يصلون ، وناوله أحد القساوسة القربان المقدس . وتلت هذا فترة نقاهة مضنية . ولبثت مرجريت شهرا مع فرانسيس ثم انطلقت إلى طليطلة لتطلب من الإمبراطور الرحمة ، فتلقى توسلاتها بفتور ، وكان قد علم بحلف هنرى مع فرنسا وتلهف على معاقبة حليفه الأخير على ريائه ولويز على جرأتها .

ولم تبق فى يد فرانسيس إلا ورقة واحدة يلعب بها ، ولو أن من المحقق أو يكاد أنها قد تعنى سجنه مدى الحياة ، وبعد أن أنذر شقيقته بمغادرة أسبانيا بأسرع ما يمكن وقع (نوفمبر سنة ١٥٢٥) خطابا رسميا أعلن فيه تنازله عن العرش لابنه الأكبر ، ولما كان فرانسيس الثانى هذا صبيا لا يتجاوز

عمره ثماني سنوات ، فقد عين لويز — وتحل محلها فى حالة وفاتها — مرجريت وصية على عرش فرنسا ، وأدرك شارك فى الحال أن ملكا بلا مملكة ، لا يملك شيئاً يتنازل عنه ، لا فائده ترجى منه : بيد أن جلد فرانسيس من الناحية البدنية كان أقوى من شجاعته المعنوية . ففى يوم ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ وقع مع شارل معاهدة مدريد وكانت شروطها فى جوهرها هى بعينها التى عرضها الإمبراطور على لويز ، بل كانت أقسى منها ، لأنها اقتضت أن يسلم أكبر ابنين للملك إلى شارل رهينتين لضمان تنفيذ الاتفاقية بإخلاص ؛ وفضلا عن هذا فإن فرانسيس وافق على أن يتزوج إليونور اشقيقة الإمبراطور ملكة البرتغال الأرملة ، وأقسم على أنه سيرجع إلى أسبانيا ليعود إلى السجن إذا لم ينفذ بنود المعاهدة(٥٧) . ومهما يكن من شىء فإنه أودع فى يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٥٢٥ مع مساعديه وثيقة رسمية تلغى مقدما جميع العهود والاتفاقات والتنازلات والمخالصات وكل إلغاء وانتقاص وقسم يمكن أن يتعارض مع شرفه وصالح تاجه » . وفى عشية توقيع المعاهدة ردد هـذه العبارة للمفاوضين معه من الفرنسيين وأعلن أنه وقع بطريق الإكراه ، والقسر والاعتقال وطول السجن ، وأن كل ما تضمنته الوثيقة كان ، ويجب أن يظل باطلا ولا أثر له(٥٨) » .

وفى يوم ١٧ مارس ١٥٢٦ سلم نائب الملك لانوى وفرانسيس إلى المارشال لوتريك على ظهر نقالة مليئة فى نهر بيداسوا ، الذى يفصل إرون الإسبانية عن هنداى الفرنسية ، وتسلم لانوى بدلا منه الأميرين فرانسيس وهنرى . ومنحهما أبوهما بركة ودمعة ، وهرع إلى الأرض الفرنسية . وهناك قفز على ظهر جواد وصاح فى ابتهاج « ها أنذا ملك من جديد ! » وركب إلى بايون حيث كانت لويز ومرجريت فى انتظاره ، وأمضى فى بوردو وكونياك ثلاثة شهور قضاها فى اللهو والرياضة ليسترد صحته وشغل نفسه بحب صغير . ولم لا ؟ ألم يعش عاماً عيشة الرهبان ؟ وكانت لويز التى

اشتجر النزاع بينها وبين الكونتيسة دى شاتوبريان قد أحضرت معها وصيفة شرف جميلة شقراء الشعر ، تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، هى آن دى هيلى دى بيسليو التى أصابت بسهامها ، كما كان مقدراً ، عينى الملك الجائعتين ، فتودد إليها فى اندفاع ، وسرعان ما ظفر بها حظية له . وشاركت الحظية الجديدة منذ تلك اللحظة إلى أن فرقهما الممات لويز ومرجريت فى قلب الملك . وتحملت فى صبر زواجه باليونورا وعلاقاته غير الشرعية العارضة ، ومنحها لإنقاذ المظاهر زوجاً هو جين دى بروس ، وأنعم عليه بلقب دوق كما أنعم عليها بلقب دوقة ديتامب ، وابتسم فى إعزاز عندما انسحب جين إلى ضيعة نائية فى بريتانى .

٦ — الحرب والسلام : ١٥٢٦ — ٤٧

عندما عرفت شروط معاهدة مدريد بصفة عامة أثارت تقريباً عداء عالمياً لشارل ؛ فقد ارتجف البروتستانت الألمان عندما توقعوا مواجهة عدو عزز قواه إلى هذا الحد ، واستاءت إيطاليا من ادعائه الحق فى السيادة على لومباردى ، وأحل كليمنت السابع فرانسيس من قسمه الذى كان قد ارتبط به فرانسيس فى مدريد ، وانضم إلى فرنسا وميلان وجنوا وفلونسا والبندقية فى تكوين حلف كونياك للدفاع المشترك (٢٢ مايو سنة ١٥٢٦) ، ووصف شارل ، فرانسيس بأنه « ليس بالسيد المهذب » ، وأمره أن يعود إلى سجنه الإسبانى ، وأصدر أوامره بتشديد اعتقال ابنى الملك ، وأطلق العنان لقواده لتأديب البابا .

وتدفق جيش إمبراطورى ، احتشد فى ألمانيا وأسبانيا ، إلى إيطاليا وتسلق بالسلالم أسوار روما (مات الدوق بوربون فى العملية) ، ونهب المدينة نهباً كاملا أكثر مما فعل بها القوط أو الوندال من قبل ، وقتل ٤٠٠٠ رومانى وسجن كليمنت فى سان إنجلو . وأكد الإمبراطور ، الذى كان قد بقى فى

أسبانيا لأوروبا المذعورة أن جيشه الجائع قد تجاوز تعلياته ، ومع ذلك فإن ممثليه فى روما احتفظوا بالبابا سجيناً فى سان انجلو من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وأكرهوا بابا يكاد يكون مفلسا على دفع تعويض قدره ٣٦٨٫٠٠٠ كراون .

واستغاث كليمنت بفرانسيس وهنرى وطلب منهما العون ، فبعث فرانسيس إلى إيطاليا لوتريك على رأس جيش نهب بافيا منتقما منها فى تهور لمقاومتها له عامين قبل ذلك ، وتساءل الإيطاليون هل الأصدقاء الفرنسيون أفضل من الأعداء الألمان ، ومر لوتريك على روما مرور الكرام وحاصر نابولى وبدأت المدينة تعانى من المجاعة . وفى غضون ذلك كان فرانسيس قد أغضب أندريا دوريا قائد بحرية جنوا ، فاستدعى دوريا أسطوله من حصار نابلى وانضم إلى جانب الإمبراطور ومون المحاصرين . وهلك جيش لوتريك جوعا بدوره ، ومات لوتريك نفسه وذاب جيشه (١٥٢٨) .

ولا تكاد ملهاة الحكام تفرج كرب الشعب . وعندما ظهر مبعوثو فرانسيس وهنرى فى بورجوس لإعلان الحرب بصفة رسمية ، رد شارل على المبعوث الفرنسى رداً فاجعا بقوله « إن ملك فرنسا ليس فى موقف يسمح له بتوجيه مثل هذا الإعلان إلى ، إنه أسيرى . إن مولاكم قد تصرف مثل أى جبان أفاق بعدم محافظته على وعده الذى ارتبط به فى معاهدة مدريد ، وإذا راقه أن يقول ما يخالف هذا فإنى سوف أحافظ على وعدى له بحياتى مقابل حياته(٥٩) » .

وقبل فرانسيس توا هذا التحدى إلى البراز وبعث إليه رسولا يقول له : « لقد قلت إفكا وبهتاناً مبيناً » . واستجاب شارل بعظمة ، وعين مكان النزال وطلب من فرانسيس أن يحدد موعد اللقاء ، بيد أن النبلاء الفرنسيين اعترضوا طريق الرسول وأدت إجراءات التأخير المستأنية إلى تأجيل المباراة

إلى ما لا نهاية . فقد بلغت الأمم درجة من النمو لا يمكن عندها تسوية خلافاتها الاقتصادية أو مصالحها السياسية بنزال فردى أو بجيوش صغيرة من المرتزقة التى كانت تقوم بلعبة الحرب فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، ولا شك أن الطريقة الحديثة لحسم الأمور بالتنافس فى التدمير قد اتخذت شكلها فى هذا النزاع بين آل هامسبورج وفالوا(*) .

واقتضى الأمر أن تتصدى امرأتان لتلقين الحاكمين فن السلام وحكمته ، فقد اتصلت لويز أميرة سافوى بمرجريت النمسوية نائبة الملك فى الأراضى المنخفضة ، واقترحت عليها أن يتخلى فرانسيس ، المتلهف على عودة ابنيه ، عن كل مطالبه فى الفلاندرز وارتوا وإيطاليا وأن يدفع فدية قدرها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون ذهبى ، لإطلاق سراح ولديه ، على ألا يتنازل أبداً عن بورغنديا ، وأقنعت مرجريت ابن أخيها بإرجاء مطالبته ببورغنديا وأن ينسى مطالب الدوق بوربون ، الذى مات وقتذاك فى الوقت المناسب .

وفى ٣ أغسطس عام ١٥٢٩ وقعت المرأتان ومعاونوهما الدبلوماسيون معاهدة صلح السيدات فى كامبراى ، وحصلت الفدية من التجارة والصناعة ودم فرنسا ، ونعم بالحرية من جديد أميرا البيت المالك بعد أربع سنوات من الأسر ، وعادا بقصص تروى عن المعاملة القاسية التى أثارت فرانسيس وفرنسا . وبينما وجـــدت المرأتان القديرتان سلاماً دائماً — مرجريت

(*) كانت المبارزة فى العصور الوسطى بمثابة إجراء مشروع تجيزه الملكية أو القضاء ويشرفان عليه يحتكم به الخصمان إلى الله . وأصبحت فى القرن السادس عشر بمثابة دفاع فردى وخاص عن الشرف المهيض . وتطورت قوانينها الصارمة الخاصة بها خارج قوانين الدولة ، وأسهمت إلى حد ما فى تطوير قواعد السلوك المهذب والضبط الحصيف للنفس . وكانت المبارزة مصرحاً بها قانونا فى فرنسا بعد عام ١٥٤٧ ، وظل الرأى العام يجيزها . أما فى إنجلترا فلم تكن تمارس فى عهد اليزابث ، وعلى أى حال فإن الاحتكام إلى المبارزة ظل مشروعاً هنك حتى عام ١٨١٧ .

عام ١٥٣٠ ولويز عام ١٥٣١ — أخذ الملكان يعدان العدة لاستئناف الحرب بينهما .

وتلفت فرانسيس حوله فى كل مكان يطلب العون ، فأرسل إلى هنرى الثامن مبلغاً من المال للتهدئة لأنه تجاهله تقريباً فى تسوية كامبراى ، وتعهد هنرى ، وقد أغضبه شارل لمعارضته فى « طلاقه » ، بتأييد فرنسا . وفى عام أو نحوه تفاوض فرانسيس للدخول فى أحلاف مع الأمراء البروتستانت الألمان ومع الأتراك ومع البابا . ومهما يكن من أمر فإن الحبر الأعظم المتذبذب سرعان ما عقد صلحاً مع شارل وتوّجه إمبراطوراً (١٥٣٠) — هو آخر تتويج لإمبراطور فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة قام به بابا . ثم ارتاع كليمنت من ملك كان فى الواقع قد حول إيطاليا إلى مقاطعة فى ملكه ، فسعى إلى عقد رابطة جديدة مع فرنسا بعرضه تزويج ابنة أخيه كاترين دى مديتشى من ابن فرانسيس ، هنرى دوق أورليان ، والتقى الملك والبابا فى مارسيليا (٢٨ أكتوبر سنة ١٥٣٣) ، وقام البابا بنفسه بمراسيم الزواج ذى المغزى التاريخى . ومات كليمنت بعد عام ، ولم يكن قد استقر رأيه بعد على أى شىء .

وكان الإمبراطور ، الذى شاخ وهو فى الخامسة والثلاثين ، يحمل أعباءه الملقاة على عاتقه فى عزم واهن . وذعر عندما علم — من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا — أن حصار الأتراك لفينا عام ١٥٢٩ ، إنما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويز وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التى كانت تطوقهم[٦٠] . وفضلا عن هذا فإن فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسى خير الدين بارباروسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى من المسيحيين إلى أسواق النخاسة . وحشد شارل جيشاً آخر وأسطولا ثانياً وعبر البحر إلى تونس (١٥٣٥) ، واستولى عليها ،

وحرر ١٠٠٠٠ر١٠ عبد مسيحى وكافأ جنوده الذين لم تدفع رواتبهم بإطلاق العنان لهم لنهب المدينة وذبح السكان المسلمين :

وعاد شارل إلى روما (٥ أبريل سنة ١٥٣٦) بعد أن ترك حاميات فى بونا ولاجوليتا عودة المدافع المظفر للعالم المسيحى ضد العالم الإسلامى وملك فرنسا . وفى غضون ذلك كان فرانسيس قد جدد مطالبته بميلان ، وفى مارس عام ١٥٣٦ غزا دوقية سافوى لإزالة العقبة التى تعترض طريقه إلى إيطاليا . واستشاط شارل غضباً ، وفى خطاب حار ألقاه أمام بول الثالث البابا الجديد ومجمع الكرادلة بأسره أخذ يعدد مرة أخرى جهوده من أجل السـلام . وانتهاك الملك الفرنسى لمعاهدتى مدريد وكامبواى و « الأحلاف التى عقدها جلالته نصير المسيحية العظيم » (كما كان يسمى فرانسيس) مع أعداء الكنيسة فى ألمانيا وأعداء المسيحية فى تركيا وإفريقية ، وأنهى خطابه بتحدى فرانسيس مرة أخرى إلى البراز قائلا : « دعونا لا نستمر فى المجازفة بسفك دماء رعايانا الأبرياء ، دعونا نحسم النزاع بالنزال رجلا أمام رجل بأى أسلحة يروقه أن يختارها . . . وبعد ذلك دعوا القوات المتحدة لألمانيا وأسبانيا وفرنسا تستخدم لكسر شوكة الأتراك واستئصال الهرطقة من العالم المسيحى» .

كان خطاباً بارعاً لأنه أجبر البابا على أن ينحاز إلى صف الإمبراطور ، ولكن أحداً لم يأخذ عرضه الخاص بالمبارزة محمل الجد ، فقد كان القتال بالتفويض أسلم . وغزا شارل بروفانس (٢٥ يوليو سنة ١٥٣٦) بجيش قوامه ٠٠٠ر٥٠ رجل وكان يأمل أن يهاجم جناح الفرنسيين أو يشغلهم فى سافوى بالزحف أعلى الرون . ولكن القائد آن دى مونمورانس أمر القوات الفرنسـية الضعيفة بأن تحرق أثناء انسحابها كل شىء يمكن أن يتزود به جنود الإمبراطور ، وسرعان ما تخلى شارل عن الحملة وكان دائماً يعوزه

المال ولا يستطيع أن يقدم الطعام لرجاله ، وكان بولس الثالث يتلهف على إطلاق يد شارل للقيام بهجوم على الأتراك أو اللوثريين فأقنع العملاق المشاول بالالتقاء معه — فى حجرات منفصلة تثير الحماسة — بمدينة نيس وتوقيع هدنة لمدة عشر سنوات (١٧ يونية ١٥٣٨) . وبعد شهر قامت اليونورا ، وهى زوجة أحدهما ، وشقيقة الآخر ، بتدبير لقـــاء شخصى بين الملك والإمبراطور فى إيجسمورت . وهناك نسيا أنهما ملكان وأصبحا إنسانين ، وركع شارل يحتضن أصغر أولاد الملك ، وأعطاه فرانسيس ماسة ثمينة مركبة على خاتم نقشت عليه عبارة : « شاهد ورمز للحب » ، وخلع شارل من جيده طوق الجزة الذهبية ، وانطلقا معاً لسماع القداس ، وابتهج أهل المدينة لشيوع السلام وهتفوا : « الإمبراطور ! الملك » ، وعندما ثارت غنت ضد شارل (١٥٣٩) وانضمت إلى بروجس وايبرس فى عرض نفسها على فرانسيس ، قاوم الملك الإغراء ، وعندما وجد شارل ، فى اسبانيا أن سفن المتمردين أو خشية الإبحار « تسد الطرق البحرية ، أجاب فرانسيس طلبه المرور فى فرنسا . وأشار على الملك مشيروه بأن يُكره الإمبراطور وهو فى الطريق ، على توقيع تنازل عن ميلان للدوق أورليان ، ولكن فرانسيس رفض وقال : « عندما تقوم بشىء كريم يجب أن تفعله كاملا وبجرأة » . ووجد مهرج البلاط يكتب فى « يوميات مهرج » اسم شارل الخامس . لأنه كما قال تريبوليه أنه يكون أشد بلاهة منى لو أتى يمر من خلال فرنسا » فسأله الملك : « وماذا تقول إذا تركته يمر ؟ » فقال : « سوف أمحو اسمه وأدون اسمك مكانه »[٦١] . وترك فرانسيس ، شارل يمر دون أن يعوقه أحد وأمر كل مدينة فى الطريق أن تستقبل الإمبراطور بما يستحق من تكريم ملكى واحتفالات .

وانتهت الصداقة المقلقلة عندما أسر الجنود الإسبان بالقرب من بافيا المبعوثين الفرنسيين وهم يحملون عروضاً جديدة من فرانسيس إلى سليمان

للتحالف معه (يوليو سنة ١٥٤١) . وفى هذه الفترة كان بارباروسا يغير مرة أخرى على المدن الساحلية فى إيطاليا . وسافر شارل بحراً من مالوركا مع أرمادا(*) أخرى للقضاء عليه ، ولكن الأسطول واجه عواصف شديدة أجبرته على العودة خاوى الوفاض إلى أسبانيا . وكان حظ الإمبراطور فى هبوط ، فقد ماتت زوجته الشابة (١٦٣٩) التى كان قد تعلم أن يحبها وكانت صحته تتدهور ، وأعلن فرانسيس الحرب عليه عام ١٥٤٢ بسبب ميلان ، وكان حلفاء الملك وقتذاك السويد والدانمارك وجلدرلاند وكليف وسكوتلنده والأتراك والبابا ، ولم يؤيد شارل إلا هنرى الثامن فى مقابل ثمن ما ، ورفض المجلس التشريعى الإسبانى الموافقة على إعانات مالية إضافية من أجل الحرب ، وانضم الأسطول التركى إلى الأسطول الفرنسى فى ضرب الحصار على نيس ، وكانت وقتذاك أرضاً تابعة للإمبراطور (١٥٤٣) ، وفشل الحصار ، إلا أن بارباروسا وجنوده المسلمين سمح لهم بقضاء الشتاء فى طولون حيث باعوا علناً عبيداً من المسيحيين[٦٢] . واسترد الإمبراطور فى صبر زمام الموقف فوجد وسيلة لإصلاح ذات البين مع البابا ، وكسب إلى صفة فيليب الهسى بالتغاضى عن زواجه من اثنتين ، وهاجم دوق كليف وتغلب عليه ، ووثق صلته بحلفائه الإنجليز وواجه فرنسا بقوة عظيمة جداً حملت فرانسيس على الانسحاب والتسليم له بأمجاد الحملة (أكتوبر سنة ١٥٤٣) .

ورحب شارل مرة أخرى ، بعد أن وجد أنه فقير جداً إلى حد لا يستطيع معه أن يزود جيشه بالميرة ، بعرض للسلام ووقع مع فرانسيس معاهدة كريبى (١٨ سبتمبر سنة ١٥٤٤) . وتخلى الملك عن مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا ونابلى ولم يعد شارل يطالب ببورغندى ، وسوف تتزوج أميرة ، من آل هابسبورج ، من أمير فرنسى ، وتقدم إليه ميلان صداقاً لها . (كان يمكن تدبير معظم ذلك سلمياً عام ١٥٢٥) .

(*) أسطول حربى كبير شبيه بالإرمادا المشهورة .

وكان شارل وقتذاك مطلق اليد فى التغلب على البروتستانت فى ملبرج وقد صوره نيسيان هناك ، وهو لا يشكو من داء النقرس ، فخوراً منتصراً ، منهوكاً متعباً بعد ألف من التقلبات ومائة من انقلابات عجلة الحظ الساخرة .

أما فرانسيس فقد انتهى أمره وانتهت معه كذلك فرنسا أو كادت ، وهو إلى حد ما لم يفقد شيئاً سوى الشرف ، وقد حافظ على بلاده بتعجل ترك المثل العليا للفروسية ، ومع ذلك فقد كان يمكن قدوم الأتراك دون أن يوجه الدعوة إليهم ، وقد أعان مجيئهم فرانسيس على كبح جماح الإمبراطور الذى لو لم يجد مقاومة ، لنشر محكمة التفتيش الإسبانية فى الفلاندرز وهولندة وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ، وقد وجد فرانسيس فرنسا تنعم بالسلام والرخاء ، وتركها مفلسة على حافة حرب أخرى . وقبل وفاته بشهر ، وبينما كان يقسم مؤكداً صداقته لشارل ، أرسل ٢٠٠,٠٠٠ كراون إلى البروتستانت فى ألمانيا لتأييدهم ضد الإمبراطور(٦٣) ، وهو — وأقل درجة من ذلك شارل — يتفق فى الرأى مع مكيافيلى بأن رجال السياسة الذين من واجبهم الحفاظ على بلادهم ، يمكنهم مخالفة القانون الأخلاقى الذى يطالبون به مواطنيهم الذين لا هم لهم إلا الحفاظ على أرواحهم . وقد يغتفر له الشعب الفرنسى حروبه ولكنه لم يستسغ حلاوة أبهة مناهجه وبلاطه عندما أدرك فداحة الثمن . وكان قد فقد شعبيته فعلا عام ١٥٣٥ .

وواسى نفسه بالاستمتاع بالجمال حياً وميتاً . وقد اتخذ فى أواخر سنى حياته من فونتنبلو مقراً أثيراً له وأعاد بناءه وابتهج بالفن الأنثوى الرشيق الذى كان الإيطاليون يزينونه به . وأحاط نفسه بفرقة صغيرة من النسوة الصغيرات اللاتى كن يمتعنه بطلعاتهن البهية ومرحهن . وأصيب عام ١٥٣٨ فى عاصمته بمرض وبدأ منذ ذاك يتلعثم تلعثماً مخجلا . وحاول أن يعالج ما كان على الأرجح مرض الزهرى بأقراص الزئبق ، التى وصفها له

باربار وسا ، ولكنها لم تنجح معه[٦٤] : وحطم روحه دمل عنيد كريه الرائحة وأضنى على عينيه ، اللتين كانتا حادتين يوماً ، نظرة شوهاء باكية ، ودفعته إلى الاعتصام بورع لا يناسبه . وكان عليه أن يراقب طعامه لأن الشك خامره فى أن بعض رجال الحاشية الذين يتوقعون رفعة شأنهم فى عهد خلفه ، يسعون إلى تسميمه . ولاحظ فى حزن أن الحاشية تدور وقتذاك حول ابنه الذى كان بالفعل يوزع المناصب وينتظر فى صبر حلول دوره فى التحكم فى موارد فرنسا . واستدعى وريثه الوحيد وهو على فراش الموت فى رامبوييه وحذره من أن تسيطر عليه امرأة — لأن هنرى كان مخلصاً بالفعل لديان دى بواتييه — واعترف الملك بخطاياه فى تلخيص متعجل ، ورحب بالموت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وهمس فرانسيس ، دوق دى جيز ، وكان واقفاً عند الباب ، إلى الذين كانوا فى الحجرة المجاورة ، أن العاشق العجوز يحتضر[٦٥] ، ومات وهو يردد اسم يسوع . وكان فى الثالثة والخمسين من عمره ولقد حكم اثنتين وثلاثين عاماً . وشعرت فرنسا بأن حكمه دام طويلا ، ولكن عندما استردت حريتها منه ؛ غفرت له كل شىء ، لأنه كان لبقاً حتى فى ارتكاب آثامه ، ولأنه عشق الجمال وكان فرنسا مجسدة .

ومات هنرى الثامن فى ذلك العام نفسه ، ولحقت به مرجريت بعد عامين ، وقد كانت بعيدة جداً عن فرانسيس ، بل كانت أبعد من أن تدرك أن الموت يترقبه . وعندما وصلتها كلمة ، وهى فى دير بأنجوليم ، تنبئها بأنه مصاب بمرض خطير كادت تفقد رشدها . وقالت : « إن من يأتى إلى عتبة بابى ، كائناً من يكون ، ويعلن لى أن شقيقى الملك قد أبل من مرضه ، ولا بد أن مثل هذا الرسول سيكون متعباً منهوك القوى ، تغطيه الأوحال والأوشاب ، ومع ذلك فسوف أذهب إليه وأقبله وأحتضنه كما لو كان أعظم الأمراء والسادة أناقة فى فرنسا ، وإذا كان فى حاجة إلى

فراش ، فسوف أمنحه فراشى ، وأرقد على الأرض مبتهجة لما حمله إلى من أنباء طيبة[٦٦] » ، وبعثت بالرسل إلى باريس فعادوا وكذبوا عليها ، وأكدوا لها أن الملك سليم معافى ، إلا أن الدموع المختلسة التى انثالت من عينى راهبة كشفت عن الحقيقة ، ولبثت مرجريت أربعين يوماً فى الدير وهى تعمل رئيسة له ، تردد الأناشيد المقدسة القديمة مع الراهبات .

وعندما عادت إلى بو أونبراك أسلمت نفسها للتقشف الشديد ، وخيانات زوجها ، وأهواء ابنتها المتقلبة ، ووجدت السلوى ، بعد السنوات التى أمضتها فى شجاعة نصف بروتستانتية ، فى الشعيرة الكاثوليكية بألوانها وبخورها وموسيقاها الجذابة ، وأسقمتها الكالفينية التى كانت تأسر جنوبى فرنسا ، وأفزعتها ، فعادت إلى تقواها التى عرفت بها فى الطفولة .

وفى ديسمبر عام ١٥٤٩ ، وبينما كانت ترقب مذنباً فى السموات ، أصيبت بحمى أثبتت أنها كانت عنيفة ، إلى حد أنها حطمت هيكلا وروحاً أو هنتهما قساوات الحياة . وكانت قبل ذلك بسنوات قد كتبت سطوراً وكأنها نصف عاشقة لخدر الموت :

ربّاه متى يأتى اليوم
الذى طالما اشتقت إليه
والذى أجد نفسى بقوة الحب
منجذبة إليك ؟
ألا فلتجفف دموع عينى الحزينتين
وسط تنهدات الفراق
وامنن على بخير أنعمك على الإطلاق
وهى نعمة النوم اللذيذ .

٧ — ديان دى پواتييه

كان « للعاشق العجوز » قد أنجب سبعة أطفال ، كلهم من كلود . وكان الابن الأكبر فرانسيس مثل أبيه ، وسيما ، جذاباً مرحاً . أما هنرى المولود عام ١٥١٩ فكان هادئاً خجولا ، وأهمل قليلا ، ولم ينافس أخاه إلا فى البأساء . فقد أمضيا أربع سنوات من الشدة والإذلال فى أسبانيا تركت عليهما بصمات لا تمحى . ومات فرانسيس بعد إطلاق سراحه بست سنوات ، أما هنرى فقد غدا نزاعاً للصمت أكثر من ذى قبل ، وانطوى على نفسه ، وأعرض عن المجون الذى انغمست فيه الحاشية ، وكان له رفقاء ، ولكنهم قلما رأوه مبتسما ، وقال الناس إنه قد غـــدا اسبانيا فى إسبانيا .

ولم يترك له الخيار عندما تزوج من كاترين دى مديتشى ،وهذا هو شأنها عندما تزوجت به . فقد مرت هى أيضاً بمحن ، إذ مات والداها كلاهما متأثرين بمرض الزهرى فى خلال اثنين وعشرين يوماً من مولدها (١٥١٩) ، وأخذت منذ ذلك الوقت حتى زواجها تنتقل من مكان إلى مكان ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يرغب فيها أحد . وعندما أقصت فلورنسا حكامها من آل مديتشى (١٥٢٧) احتفظت بكاترينا رهينة لضمان حسن سلوكهم ، وعندما عاد هؤلاء المنفيون لحصار المدينة هددت بالإعدام إذا لم تصرفهم عنها . واستخدمها كليمنت السابع رهينة ، ليكسب تأييد فرنسا لسياسته البابوية ، وانطلقت طائعة إلى مرسيليا وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها، وتزوجت من غلام فى الرابعة عشرة من عمره أيضاً ، لم يكد يتحدث معها إبان الاحتفال بأكمله . وعندما وصلا إلى باريس قوبلت باستقبال فاتر لأنها جلبت معها عدداً كبيراً من الإيطاليين ، وأصبحت فى نظر الباريسيين « الفلورنسية » ، وعلى الرغم من أنها حاولت جهدها أن تسحرهم ، فإنهم

لم يكنوا لها وداً قط ، لا هم ولا زوجها . وظلت عشر سنوات عاقراً ، على الرغم من الجهود العديدة ، وارتاب الأطباء فى أنها أصيبت بعدوى مرض وبيل ، ورثته من أبويها . وعندما تبدد أمل كاترين دى مديتشى كما كانت تسمى فى فرنسا ، فى الحصول على ذرية ذهبت تبكى إلى فرانسيس وعرضت عليه أن تقدم طلباً بالطلاق وتنزوى فى دير ، ورفض الملك فى كرم منه هذه التضحية . وتفتحت أخيراً أبواب الأمومة ، وجاء الأولاد واحداً إثر الآخر كل عام تقريبا . وبلغ عددهم على الإجمال عشرة ، وهم بخاصة فرانسيس الثانى الذى قدر له أن يتزوج مارى ستيوارت والیزابث التى قدر لها أن تتزوج فيليب الثانى وشارل التاسع الذى شاءت الأقدار أن يصدر الأمر بمذبحة سان بارثولوميو وإدوارد الذى أصبح هنرى الثالث بطل المأساة المعروفة ومرجريت دى فالوا التى قدر لها أن تتزوج هنرى ملك نافار وتضطهده وطوال كل تلك السنوات العقيمة أو الخصيبة باستثناء السنوات الأربع الأولى كان زوجها يمنح حبه لديان دى بواتييه فى الوقت الذى كان ينجب فيه منها أولاداً .

وكانت ديان فريدة بين عشيقات الملوك اللاتى كان لهن دور رئيسى فى التاريخ الفرنسى . ولم تكن جميلة . وعندما أحبها هنرى ، وهو فى السابعة عشرة من عمره (١٥٣٦) كانت فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدأ الشيب يغزو شعرها ، والتجاعيد تسجل سنوات عمرها على جبينها ، وكانت مفاتنها الجسدية لا تعدو الطلاوة ، والبشرة الناضرة بفضل غسلها بالماء البارد فى جميع الفصول ، ولم تكن عاهرة . وكانت فيما يبدو مخلصة لزوجها لويس دى بريزيه حتى وفاته ، وعلى الرغم من أنها انغمست مثل هنرى ، فى علاقتين جانبيتين أو ثلاث ، إبان علاقتها غير الشرعية بالملك ، فإنها كانت مجرد حوادث تغتفر وألحان لطيفة فى أغنية حبها . ولم تكن ممن يجنحون إلى الخيال ، بل كانت عملية جدا ، تصنع كل شىء فى أوانه . ولم تستنكر

فرنسا أخلاقها بل أنكرت عليها بذخها ولم تكن مثل عشيقات فرانسيس — رعوسا جميلة ولكنها جوفاء ، يقفزن على أقدام مرحة إلى أن تفاجئهن الأمومة ، فقد تلقت ديان تعليا لا بأس به ، وكانت تتمتع بإدراك سليم ، وسلوك حسن ، وبديهة حاضرة . وها نحن أولاء أمام عشـيقة تسحر الألباب بذهنها .

وكانت تنحدر من أسرة كريمة ونشأت فى بلاط آل بوربون فى مولان الذى اشتهر بفن الحب . وشارك أبوها جان دى بواتييه ، كونت دى سان فالييه ، الدوق دى بوربون فى خيانة الوطن بعد أن حاول الوقوف فى سبيلها ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام (١٥٢٣) ، وحصل زوج ديان ، وكان ذا حظوة لدى فرانسيس ، على العفو لأبيها(*) . وكان لويس دى بريزيه حفيد شارل السابع من أنييس سوريل ، وكان ذا مقدرة أو نفوذ لأنه أصبح قيم القصر الأكبر ومحافظ نورماندى . وكان فى السادسة والخمسين من عمره عندما أصبحت ديان البالغة من العمر ستة عشر عاما زوجة له (١٥١٥) . وعندما مات شيدت تخليدا لذكراه فى روين قبرا ضخماً عليه كتابة قطعت على نفسها فيها عهداً بالوفاء الدائم له ولم تتزوج قط مرة ثانية ، ولم ترتد بعد ذلك إلا الثياب السوداء والبيضاء . والتقت بهنرى عندما سلم فى بايون ، وهو بعد صبى فى السابعة من عمره ، كرهينة بدلا من والده . وبكى الصبى المرتبك فحنت عليه ديان ، وكانت وقتذاك فى السابعة والعشرين ، حنان الأم الرؤوم وواسته ، إذ كانت أمه كلود قد ماتت منذ عامين ، ولعل ذكرى تلك الأحضان الحنونة قد بعثت فى ذاكرته من جديد ، عندما التقى بها بعد أحد عشر عاماً . وعلى الرغم من أنه كان قد مضى على زواجه وقتذاك أربعة أعوام فإنه كان لا يزال بعيداً عن النضج العقلى ،

(*) لا صحة للقصة التى أوردها هيجو فى « الملك يلهو » من أن ديان اشترت العفو عنها باستسلامها للملك (٦٧)

كما كان سوداوى المزاج شديد الحياء بصورة غير مألوفة . كان يريد أما أكثر مما يريد زوجة ، وهنا ظهرت ديان من جديد ، هادئة ، رقيقة مواسية . وأقبل عليها أولا إقبال الابن ، وظلت العلاقات بينهما ، فيما يبدو ، تهيمن عليها العفة حيناً . واكسبته محبتها ونصحها الثقة بنفسه ، فكف ، وهو تحت وصايتها ، عن معاداة الناس وأعد نفسه ليكون ملكاً . ونسب إليهما الرأى العام أنهما رزقا بطفلة واحدة ، هى ديان دى فرانسيس ، التى أنشأتها مع ابنتيها من بريزيه ؛ وتبنت أيضاً ابنة هنرى التى أنجبت سنة ١٥٣٨ من وصيفة بيدمونتية دفعت ثمن لحظة لقائها بالملك بأن أصبحت راهبة مدى الحياة . وهناك طفل آخر غير شرعى كان ثمرة قصة هنرى الأخيرة مع مارى فليمنج ، مربية مارى ستيوارت . وعلى الرغم من هذه التجارب فإن إخلاصه كان يزيد يوماً بعد يوم لديان بواتييه . ونظم لها قصائد ممتازة حقاً وأمطرها بالجوهرات والضياع . ولم يهمل كاترين تماماً ، وكان يتناول معها عادة طعام العشاء ويقضى معها الأمسيات ؛ وقبلت ، شكراً منها لما نالته من شذرات حبه ، فى حزن صامت ، أن ترى امرأة أخرى ولية عهد فرنسا الحقيقية ؛ ولا بد أنها أحست بأنها أصيبت بجرح آخر عندما رأت أن ديان كانت تستحث هنرى من حين لآخر على أن ينام مع زوجته(٦٨) .

ولم يؤد ارتقاؤه العرش إلى خفض مكانة ديان . وكتب لها أذل الرسائل ، يتوسل إليها أن تسمح له بأن يكون خادمها مدى الحياة . وقد جعلها ولهه بها غنية كالملكة تقريباً ، وضمن لديان نسبة مئوية من كل المبالغ التى يتسلمها من بيع الوظائف ، وكانت كل التعيينات فيها تقريباً فى نطاق سلطانها . ومنحها جواهر التاج الذى كانت قد وضعته الدوقة ديتامب على رأسها ، وعندما احتجت الدوقة هددتها ديان باتهامها بالبروتستانتية ، ولم ترض عنها إلا بعد أن قدمت لها هدية من العقار . وأذن لها هنرى أن تحتفظ لنفسها بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ تالر ، كان فرانسيس قد أوصى به لتأييد الأمراء

البروتستانت فى ألمانيا سراً(٦٩) . وبفضل هذه المنح أعادت ديان بناء قصر بريزيه الريفى القديم فى آنيه ، طبقاً لتصميم وضعه فيلبر ديلورم ، وشيدت قصراً رحباً لم يصبح الدار الثانية للملك فحسب بل أصبح أيضاً متحفاً للفن ومنتدى جميلا يلتقى فيه الشعراء والفنانون والدبلوماسيون والدوقات والقادة والكرادلة والمعشوقات والفلاسفة . وهنا كان المجلس الخاص للدولة يعقد فى الواقع ، وكانت ديان بمثابة رئيسة للوزراء ، ذكية رصينة . وفى كل مكان - فى آنيه وشينونسو وأمبواز واللوفر - كانت الأطباق والدروع المرسومة عليها الشعارات وأشغال الفن ومقاعد جوقة للترنيم تحمل الرمز الجرىء لقصة الحب الملكية ، فهناك حرفا د D موضوعان ظهر الظهر ، بينهما شرطة تكون حرف H . وثمة أمر مثير للعاطفة وجميل فى هذه الصداقة الفريدة ، التى بنيت على الحب والمال ، وإن دامت حتى الموت .

وفى أثناء كفاح الكنيسة ضد الهرطقة وضعت ديان كل ما تملك من نفوذ ، لتأييد عقيدة المحافظين وسياسة القمع . وكانت لديها أسباب كثيرة تدعوها للتقوى : فقد كانت ابنتها متزوجة من ابن لفرانسيس هو الدوق دى جيز ، وكان فرانسيس هو وشقيقه شارل ، كاردينال اللورين ، - وكلاهما من ذوى المكانة فى آنيه - زعيمى الحزب الكاثوليكى فى فرنسا . أما هنرى فإن تقواه فى الطفولة ازدادت شدة بالسنوات التى أمضاها فى أسبانيا ، وكانت خطاباته الغرامية تخلط بين الله وديان كمنافسين على قلبه ، وأعانته الكنيسة ، وأعطته ٣٠٠٠٠٠٠ كراون ذهبى لإلغاء مرسوم والده الذى قيد فيه من سلطة المحاكم الكنسية(٧٠) .

ومع ذلك فإن البروتستانتية كانت تشتد فى فرنسا ، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين أحرزوا نجاحاً رائعاً . وما أن حل عام ١٥٥٩ حتى كانت عدة مدن ، كاين وبواتييه ولا روشيل ومدن كبيرة فى بروفانس - يغلب عليها الهوجينوت ، وقدر قس أن البروتستانت

الفرنسيين كانوا ربع عدد السكان[٧١] تقريباً فى ذلك العام . ويقول مؤرخ كاثوليكى : إن أصل المروق فى روما — فساد رجال الكنيسة — لم يستأصل ، بل إنه قوى بفضل الاتفاقية البابوية بين ليو العاشر وفرانسيس الأول[٧٢] . وكانت البروتستانتية فى الطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما ، احتجاجاً ضد حكومة كاثوليكية كبحت جماح الاستقلال الذاتى للبلدية ، وفرضت ضرائب لا تحتمل ، وبددت الدخول ، وأزهقت الأرواح فى الحرب . وكان النبلاء الذين جردهم الملوك من سلطانهم السابق ينظرون بعين الحسد إلى الأمراء اللوثريين الذين انتصروا على شارل الخامس ، وربما أمكن استعادة إقطاع مماثل فى فرنسا بإعلان استياء العامة من الناس على نطاق واسع من مظالم الكنيسة والحكومة . والحق أن نبلاء بارزين مثل جاسبار دى كولينى وشقيقه الأصغر فرانسوا دنديلو والأمير لويس دى كونديه وشقيقه انطوان دى بوربون قد شاركوا بجهد فعال فى تنظيم ثورة البروتستانت .

وتبنت البروتستانتية الغالية فى لاهوتها آراء كالفن فى كتابه « النظم » ، فقد كان مؤلفه فرنسياً ولغته فرنسية واستهوى منطقه العقلية الفرنسية ؛ وكاد لوثر أن ينسى فى فرنسا بعد عام ١٥٥٠ ، والحق أن اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جنيف إلى بروفانس ، وفى مايو عام ١٥٥٩ شعر البروتستانت بأنهم أصبحوا من القوة إلى حد يمكنهم من إرسال مندوبين إلى أول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا فى باريس . وما أن حل عام ١٥٦١ حتى كان هناك ٢٫٠٠٠ كنيسة أخذت بأسباب الإصلاح الدينى أو كالفينية فى فرنسا[٧٣] .

وشرع هنرى الثانى فى سحق الهرطقة . ونظم المجلس النيابى لباريس ، بناء على تعليماته ، لجنة خاصة (١٥٤٩) لقمع الخروج على الرأى ، وأرسل من أدينوا إلى المحرقة ، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم « الغرفة المتأججة » ، وقضى

مرسوم شاتوبريان (١٥٥١) بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى ، وأن الإصرار على الآراء البروتستانتية يعاقب عليه بالإعدام ، ونص على أن يتسلم المبلغون ثلث أموال المحكوم عليهم . وكان عليهم أن يبلغوا المجلس النيابى عن أى قاض يعامل الهراطقة باللين ، ولم يكن فى وسع أى رجل أن يعين قاضياً إلا إذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى إليها شك . وفى خلال ثلاث سنوات أرســـلت « الغرفة المتأججة » ستين بروتستانتيا إلى الموت حرقاً . وعرض هنرى على البابا بولس الرابع إقامة محكمة للتفتيش فى فرنسا طبقاً للنموذج الرومانى الجديد ، ولكن المجلس النيابى اعترض على السماح لسلطة أخرى بأن تحل محل سلطته ؛ واقترح أحد أعضائه ، آن دى بورج فى جرأة أن تتوقف كل مطاردة للهرطقة حتى يستكمل مجلس ترنت تعريفاته للعقيدة المحافظة . فأمر هنرى بالقبض عليه وأقسم أن يراه وهو يحرق ، إلا أن القدر اختلس من الملك هذا المشهد .

وفى غضون ذلك كان قد أغرى بتجديد الحرب ضد الإمبراطور فإنه ، لم يستطع قط أن يصفح عن سجن أبيه وشقيقه وسجنه هو نفسه أمداً طويلا . وكان يكره شارل بقدر حبه لديان . وعندما أعلن الأمراء اللوثريون مقاومتهم الحاسمة للإمبراطور من أجل المسيح والإقطاع سعوا إلى التحالف مع هنرى ودعوه للاستيلاء على اللورين ، فوافق على هذا فى معاهدة شامبور (١٥٥٢) . وقام بحملة سريعة أدارها بكفاءة واستولى بعد عناء قليل على تول ونانسى ومتز وفردون . وكان شارل أكثر استعدادا للتسليم بالنصر للبروتستانتية فى ألمانيا منه للتسليم به لآل فالوا فى فرنسا ، فوقع معاهدة صلح ذليلة مع الأمراء فى باسوا ، وهرع لضرب الحصار على الفرنسيين فى متز . وأقام فرانسيس ، دوق دى جيز شهرته هناك على ما أبداه من مهارة وعناد فى الدفاع . واستمر الحصار من ١٩ أكتوبر إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٥٢ ، ثم سحب شارل جنوده الذين خارت قواهم وهو شاحب الوجه ، زائغ البصر

أبيض اللحية كسيحاً وقال : « إنى لأرى جيدا أن الحظ يشبه امرأة ، تؤثر ملكاً فتياً على إمبراطور عجوز[٧٤] ، وأردف قائلا : « وقبل أن تمضى ثلاث سنوات سأتحول إلى رجل يربط حول وسطه شريطاً من حرير أى إلى راهب فرنسسكانى[٧٥] » .

وفى عام ١٥٥٥ — ٥٦ تنازل لابنه عن سلطته فى الأراضى المنخفضة وإسبانيا ، ووقع مع فرنسا هدنة فوسيل ، وغادر إسبانيا (١٧ سبتمبر سنة ١٥٥٦) ، وظن أنه أورث فيليب مملكة تنعم بالسلام ، ولكن هنرى أحس أن الموقف يدعو إلى هجوم آخر على إيطاليا . ولم يكن لفيليب أى شهرة كقائد ، وكان متورطاً على غير ما توقع فى حرب البابا بولس الرابع ، وخيل لهنرى أن أمامه فرصة ذهبية . فأرسل جيز ليستولى على ميلان ونابلى ، وتأهب لملاقاة فيليب فى ساحات القتال القديمة فى شمال شرقى فرنسا . وأظهر فيليب أنه أهل لمقابلة الموقف واقترض مليون دوكات من أنطون فوجر وأغرى مارى ملكة إنجلترا بالدخول الحرب . وفى سان كينتان (١٠ أغسطس سنة ١٥٥٧) قاد الدوق أمانويل فليبرت أمير سافوى جيوش فيليب الموحدة إلى نصر كاسح وأخذ كولينى ، ومونمورنسى أسيرين وتأهب للزحف على باريس . وكانت المدينة فى ذعر ، وبدا الدفاع عنها مستحيلا . واستدعى هنرى جيز وجنده من إيطاليا ، فعبر الدوق فرنسا وفاجأ كاليه بحركة سريعة عجيبة واستولى عليها (١٥٥٨) ، وكانت إنجلترا تحتفظ بها منذ عام ١٣٤٨ ؛ وكان فيليب يكره الحرب ويتوق إلى العودة لأسبانيا ، فاقتنع توا بتوقيع معاهدة كاتو — كامبريزى — (٢ أبريل سنة ١٥٥٩) وبمقتضاها وافق هنرى على أن يبقى شمال الألب ، ووافق فيليب على أن يدعه يحتفظ باللورين وبكاليه — على الرغم من دموع مارى . وفجأة أصبح الملكان صديقين ، وقدم هنرى ابنته اليزابث لتكون زوجة لفيليب ، وتعهد بزواج شقيقته مرجريت اف برى من أمانويل فيلبرت الذى استعاد

وقتذاك سافوى ، ونظم مهرجان ضخم حفـــل بالمبارزات والمآدب وليالى الزفاف .

وهكذا بينما ظل فيليب الحذر فى الفلاندرز تجمع الأعيان من الفرنسيين والفلمنكيين والأسبان حول القصر الملكى ليتورنل فى باريس ، وعلقت قوائم فى شارع سان أنطوان الذى يضم مظلات وشرفات مزينة بزخارف بهية ، وانطلق الجميع يمرحون كما لو كانوا يسمعون ناقوس زفاف . وفى ٢٢ يونية استقبل الدوق ألفا ، باعتباره وكيلا لفيليب اليزابث باعتبارها ملكة لأسبانيا ، وأصر هنرى ، وهو وقتذاك فى الأربعين من عمره على دخول المباراة . وفى مثل هذه المبارزات كان النصر يقضى به لراكب الفرس الذى يحطم ثلاث حراب على درع خصمه ، دون أن يرمى عن الفرس . وقام هنرى بهذا العمل أمام الدوق دى جيز والدوق دى سافوى اللذين عرفا كيف يقومان بدورهما الصحيح فى المسرحية ، بيد أن خصماً ثالثاً هو مونتجومرى سمح فى حمق للبقية الباقية الحادة من السلاح بالمرور تحت القناع الحديدى للملك بعد أن حطم حربة على درع الملك ، فاخترقت عين الملك ووصلت إلى المخ . وظل يرقد تسعة أيام فاقد الوعى ، وفى اليوم التاسع من يوليو احتفل بزواج فيليبرت ومرجريت ، وفى اليوم العاشر من يوليو مات الملك وانسحبت ديان إلى آنيه ، وعاشت بعد ذلك سبع سنوات ، وارتدت كاترين دى مديتشى التى كانت ظمأى لحبه ؛ ثياب الحداد بقية حياتها .

الفصل الثالث والعشرون

هنرى الثامن والكاردينال ولزى

١٥٠٩ – ٢٩

١ – ملك واعد: ١٥٠٩ – ١١

لم يكن أحد ممن رأوا الفتى الذى ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ يتنبأ بأنه هو البطل والوغد معاً فى أكبر حكم درامى فى التاريخ الإنجليزى. وعندما كان غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره كانت بشرته الرقيقة وتقاطيعه المنتظمة تجعله جذاباً كالفتاة أو يكاد، بيد أن ما يتمتع به من قوام رياضى وجرأة سرعان ما قضى على أى مظهر للأنوثة فيه. وتبارى السفراء الأجانب مع المادحين الوطنيين فى الثناء على شعره الأصحم، ولحيته الذهبية و « وربلة ساقه الفائقة الجمال » وفى تقرير كتبه جيوستنيانى إلى مجلس شيوخ البندقية قال: « إنه مغرم بالتنس، وإن أجمل شىء فى الوجود أن تراه وهو يلعب، وبشرته الجميلة تتألق من خلال قميص نسيجه جد رقيق[1] »، وكان فى الرمى بالسهام والمصارعة يضارع أحسن الأبطال فى مملكته ولم يكن يبدو عليه فى الصيد قط أى تعب، وكان يخصص يومين كل أسبوع المبارزات، ولم يكن فى وسع أحد أن ينافسه. إلا الدوق سفولك. وكان موسيقياً مثقفاً أيضاً، و « غنى وعزف على كل ضروب الآلات وأظهر موهبة نادرة »، (كما كتب القاصد الرسولى للبابا) ولحن قداسين لا يزالان باقيين، وكان يعشق الرقص وحفلات المساخر ومظاهر الأبهة

والثياب الجميلة . ويروقه أن يكسو نفسه ثياباً من فرو الفاقوم أو أردية أرجوانية ، وكان القانون ينص على أن له وحده الحق فى ارتداء الديباج الأرجوانى أو الذهبى ،وكان يأكل بتلذذ ،ويصل أحياناً مآدب الغذاء الرسمية إلى سبع ساعات ، ولكنه فى السنوات العشرين الأولى من حكمه كبح جماح شهيته . وكان كل الناس يحبونه ويعجبون بسماحة أخلاقه اللطيفة وسهولة الوصول إلى قلبه ومرحه وتسامحه وحلمه . ورحب الناس بارتقائه العرش وكأنه إيذان بفجر عصر ذهبى .

واغتبطت الطبقات المتعلمة أيضاً لأن هنرى فى أيام السكون تلك كان يطمح أن يكون عالماً بطلا رياضياً على السواء وموسيقياً وملكاً ،ولما كان قد أعد فى الأصل ليكون من رجال الدين فقد أصبح على دراية بعض الشيء باللاهوت ، وكان فى وسعه أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس لأى غرض وكان له ذوق جميل فى الفن ، واقتنى مجموعة تدل على درايته ، وكان حكيماً فى اختياره هولبين لتخليد كرشه . وقام بدور فعال فى أعمال الهندسة وبناء السفن والتحصينات والمدفعية . وقال عنه سير توماس مور : إنه أعلم من أى ملك إنجليزى قبله[٢] » — وليس هذا بالثناء العظيم . وتابع مور كلامه قائلا : « ما الذى لا نتوقعه من ملك غذى بلبان الفلسفة وربات الفنون التسع[٣] ؟ » وكتب مونتجومرى مبهوتاً إلى إرازموس ، وكان حينذاك فى روما ، يقول : « ما الذى لا تعلل به نفسك من أمير تعلم جيداً ما فطر عليه من موهبة خارقة وخاق يكاد يكون إلهيا ؟ ولكن عندما تعرف أى بطل يقيم الآن الدليل عليه ، وكيف يتصرف بحكمة ، وأى محب للعدالة والخير ، وأى مودة يحملها للمتعلمين ، فإنى أتجاسر وأقسم لك بأنك لن تكون فى حاجة إلى جناحين تطير بهما لتشهد هذا النجم الجديد السعيد .

أواه يا إرازموس العزيز . لو أنك استطعت أن ترى كيف أن العالم بأسره هنا مبتهج لأن عنده أميراً عظيما كهذا ، وكيف أن حياته هى كل ما يبتغون فلن تتمالك نفسك من أن تذرف دموع الفرح . إن السموات لتضحك والأرض لتبتهج(٤) » .

وجاء إرازموس وشارك فى هذا الهذيان لحظة . وكتب يقول : « فيما مضى كان قلب المعرفة بين من يزعمون أنهم من رجال الدين والآن بينما ينصرف هؤلاء فى الأغلب الأعم إلى شهوات البطون والترف والمال(*) فإن حب العلم ذهب منهم إلى الأمراء العلمانيين والحاشية والنبلاء وإن الملك لا يقبل فى بلاطه رجالا مثل مور فحسب ، بل إنه يدعوهم ويجبرهم — على أن يرقبوا كل ما يفعل وأن يشاطروه تبعاته وملذاته . وهو يفضل صحبة رجال مثل مور على صحبة الأغبياء من الفتيان أو الفتيات أو الأغنياء(٥) » . وكان مور أحد أعضاء مجلس الملك ولينا كر طبيب الملك وكوليه واعظ الملك فى كنيسة القديس بولس .

وفى السنة التى ارتقى فيها هنرى العرش ، أنفق كوليه الجانب من الثروة التى ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس . واختير نحو ١٥٠ صبياً لكى يدرسوا هناك الأدب الكلاسى واللاهوت المسيحى وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد بتعيين مدرسين علمانيين فى المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إكليروسية فى أوروبا . وعارض « الطرواديون » الذين كانوا ينددون فى اكسفورد بتدريس الكلاسيات ، برنامج كوليه بحجة أنه يؤدى إلى الشك الدينى ، بيد أن الملك حكم ضدهم ومنح كوليه تشجيعه الكامل . وعلى الرغم من أن كوليه نفسه كان محافظاً فى عقيدته ومثالا للتقوى ،

(*) بيد أن أصدقاء إرازموس من رجال الدين ، دين كوليه وفيشر أسقف روشستر وكبير الأساقفة وارهام كنتربرى كانوا أصدقاء مخلصين من ذوى المروءة والعلم .

فإن أعداءه اتهموه بالهرطقة ، فأخرسهم وارهام كبير الأساقفة وأذعن هنرى . وعندما رأى كوليه أن هنرى يميل إلى الحرب مع فرنسا ندد علناً بسياسته وأعلن ، كما فعل إرازموس ، أن سلاماً ظالماً خير من أعدل الحروب . وندد كوليه بالحرب ، حتى وهو مجتمع بالملك فى الصلاة ، باعتبارها صفعة فى وجه تعاليم المسيح ، ورجاه هنرى على انفراد ألا يضعف معنويات الجيش ؛ ولكن عندما حرض الملك على أن يخلع كوليه أجاب قائلا : « ليكن لكل إنسان قسيسه الخاص . . . إن هـذا الرجل هو قسيسى[٦] » . واستمر كوليه يفسر تعاليم المسيحية تفسيراً جاداً . وكتب إلى إرازموس (١٥١٧) يقول بروح توما أكمبى : آه يا أرازموس ، لا حد هناك لكتب المعرفة ، وليس هناك أفضل من أن نعيش حياة طاهرة مقدسة فى هذا الأجل القصير الذى كتب علينا وأن نبذل جهدنا فى حياتنا اليومية ، وأن نتطهر ونتثقف . . . بالحب المتأجج والاقتداء بيسوع . ولهذا فإن أعظم رغباتى إلحاحاً هى أن نسير قدماً ، معرضين عن كل السبل غير المباشرة مؤثرين بطريقة قصيرة توصل إلى الحقيقة . وداعاً[٧] .

وفى عام ١٥١٨ أعد قبره البسيط ولم ينقش عليه إلا اسم جوهانس كوليتس ودفن فيه ، بعد حين ، وأحس كثيرون أن قديساً قد مات .

٢ – ولزى

كان هنرى ، الذى قدر له أن يصبح تجسيداً لأمير مكيافيلى ، لا يزال بعد حدثاً بريئاً فى السياسة الدولية . وعرف حاجته إلى الإرشاد وجعل من الرجال حوله نماذج . وكان مور ذكياً بيد أنه لم يتعد الحادية والثلاثين ، وكان يميل إلى الطهارة والتقوى . وكان توماس ولزى يكبره بثلاثة أعوام فحسب ، وكان قساً إلا أن اتجاهه بأكمله للسياسة ، والدين عنده جزء من

السياسة . وقد ولد توماس فى إبسوتش من « أصل وضيع ودم خسيس » (هكذا ، صفه جويكيا رديني المعتز بنفسه)[٨] . وقد استوعب مقرر شهادة البكالوريا فى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين عمل صرافاً فى كلية مجدالين ، وأظهر كفاءته باستخدام مبالغ مناسبة ، تتجاوز السلطة المخولة له ، لإتمام البرج الرائع لتلك القاعة وعرف كيف ينجح . وأظهر فطنة فى الإدارة والمفاوضة فقام بالوعظ فى سلسلة من الكنائس ليخدم هنرى السابع بتلك المقدرة والدبلوماسية .

وعندما ارتقى هنرى الثامن العرش عينه موزعاً للصدقات — مديراً للبر والإحسان . وسرعان ما أصبح القس عضواً فى المجلس الخاص . وأفزع واهرام كبير الأساقفة بدفاعه عن عقد حلف عسكرى مع اسبانيا ضد فرنسا ، وكان لويس الثانى عشر يغزو إيطاليا ، ومن المحتمل أن يجعل البابوية تابعة لفرنسا من جديد . وعلى أية حال فإن فرنسا لا بد أن تصبح قوية جداً . وخضع هنرى فى هذا الأمر لولزى وحميه فرديناند ملك أسبانيا ، وكان هو نفسه يجنح فى هذا الوقت للسلم ، وقال لجيوستنيانى « إنى راض بما أملك ، ولا أود أن أحكم إلا رعاياى ، ولكنى من جهة أخرى لا أقبل أن يبلغ أحد من القوة ما يجعله يتحكم فى »[٩] ، ويكاد هذا يلخص حياة هنرى السياسية ، فقد ورث ادعاء الملوك الإنجليز أن لهم الحق فى تاج فرنسا ، ولكنه عرف أنه ادعاء أجوف . ووهنت الحرب سريعاً فى موقعة المهاميز (١٥١٣) . ودبر ولزى للسلام وأغرى لويس الثانى عشر بالزواج من مارى شقيقة هنرى ، وسر ليو العاشر لنجاته فعين ولزى رئيساً لأساقفة يورك (١٥١٤) . وكردينالا (١٥١٥) ، وعينه هنرى ، المنتصر ، حاجباً (١٥١٥) . وفاخر الملك لأنه حمى البابوية ، وعندما رفض أحد البابوات أن يتولى فيما بعد تيسير زواجه عد هذا جحوداً .

وكانت السنوات الخمس الأولى التى قضاها ولزى فى منصب الحاجب من أعظم السنوات توفيقاً فى سجل الدبلوماسية الإنجليزية . وكان يهدف إلى تنظيم السلام فى أوروبا باستخدام إنجلترا وسيلة لحفظ التوازن فى القوى بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا ، وكان المفروض أن مما يدخل أيضاً فى دائرة سلطانه أن يصبح حكماً لأوروبا وأن يكون السلام فى القارة فى مصلحة تجارة إنجلترا الحيوية مع الأراضى المنخفضة . وتفاوض كخطوة أولى ، لعقد حلف بين فرنسا وإنجلترا (١٥١٨) ، وخطب مارى ابنة هنرى البالغة من العمر عامين (أصبحت ملكة فيما بعد) إلى ابن فرانسيس الأول البالغ من العمر سبعة شهور . ولا شك أن ميله للضيافة الكريمة قد كشف عنه ما حدث عند ما حضر المبعوثون الفرنسيون إلى لندن لتوقيع الاتفاقيات ، فقد أقام لهم وليمة فى قصر وستمنستر ، قدم لهم فيها عشاء ، قال عنه جيوستنيانى : « أن مثيله لم يقدم قط ، على مائدة كليوباترة وكاليجولا ، وأن قاعة المأدبة بأسرها زينت بزهريات ضخمة من الذهب والفضة[١٠] » . غير أن الكاردينال المحب للدنيا يلتمس له العذر ، فقد كان يقامر ليكسب رهاناً عظيماً ، فكسب . وأصر على أن يكون الحلف مفتوحا لينضم إليه الإمبراطور مكسمليان الأول وشارل الأول ملك أسبانيا والبابا ليو العاشر ، ودعوا للانضمام إليه فقبلوا ، وابتهج أزازموس ومور وكوليه ، إذ داعبهم الأمل فى أن يكون فجر عهد السلام قد أشرق على العالم المسيحى بأسره . وتلقى ولزى التهانى حتى من أعدائه . وانتهز الفرصة لرشوة المندوبين الإنجليز[١١] فى روما لكى يضمن تعيينه قاصداً رسوليا للبابا فى صف بريطانيا والعبارة تعنى : « فى صف » وموضع ثقة ، وكان أرفع تعيين لمبعوث بابوى . وكان ولزى وقتذاك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وحاكم إنجلترا — مع ولاء استراتيجى لهنرى .

وعكر صفو السلام بعد عام تنافس فرانسيس الأول وشارل الأول على العرش الإمبراطورى : بل إن هنرى رأى أن يقذف بقلنسوته فى الحلبة غير أنه لم يجد رجلا مثل فوجر . وزار الفائز ، وهو وقتذاك شارل الخامس ، انجلترا زيارة قصيرة (مايو سنة ١٥٢٠) وقدم احتراماته لعمته كاترين الأراجونية ، الملكة زوجة هنرى ، وعرض أن يتزوج الأميرة مارى (التى كانت مخطوبة بالفعل لولى عهد فرنسا) ، إذا وعدت انجلترا أن تؤيد شارل فى أى نزاع بينه وبين فرنسا ، وهكذا السلام ، أمر غير طبيعى ، فرفض ولزى ولكنه قبل من الإمبراطور مرتباً قدره ٧,٠٠٠ دوكات ، وانتزع منه تعهداً بأن يساعده على أن يصبح بابا .

وحقق الكاردينال الذكى أعظم انتصار باهر له بتدبير لقاء بين العاهلين الفرنسى والإنجليزى فى ميدان كلوث أف جولد (يونيو ١٥٢٠) . وهناك فى أرض فضاء مكشوفة بين جين وآردر قرب كاليه برز فن العصر الوسيط والفروسية فى روعة الغروب . وانطلق أربعة آلاف نبيل انجليزى ، اختارهم الكاردينال وعينهم ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية والمزركشة والمخرمات من أزياء القرون الوسطى المتأخرة ، فى صحبة هنرى بينما امتطى الملك الشاب ذو اللحية الحمراء صهوة فرس صغيرة لملاقاة فرانسيس الأول . وأخيراً وليس آخراً ، أقبل ولزى نفسه مرتدياً ثياباً قرمزية من الأطلس ينافس بها أبهة الملوك . وقد شيد على عجل قصر لاستقبال صاحبى الجلالة ومرافقيهما من السيدات والموظفين ، وأقيمت سقيفة يكسوها قماش تتخلله خيوط ذهبية ، وتتدلى منه طنافس ثمينة ليظلل المؤتمر والمآدب ، وكانت هناك نافورة يسيل منها النبيذ ، وأخليت مساحة لألعاب الفروسية الملكية ، وتدعم الحلف السياسى والعسكري بين الأمتين ، وتبارى العاهلان السعيدان فى المبارزة بل وتصارعا ، وخاطر فرانسيس بسلام أوربا بطرحه الملك الإنجليزى ، وأصلح خطواته الخاطئة بكياسة فرنسية لا نظير لها بالذهاب ، مبكراً ذات

صباح وهو مجرد من السلاح مع بعض الأتباع غير المسلحين ، لزيارة هنرى فى المعسكر الإنجليزى — وكانت لفتة تدل على الثقة الودية فهمها هنرى . وتبادل الملكان الهدايا الثمينة والأيمان المغلظة .

والحق أن أحداً منهما لم يستطع أن يثق بالآخر ، لأن التاريخ علمهما درساً مفاده أن الرجال يكذبون كثيراً عندما يحكمون دولا . وبعد سبعة عشر يوماً أمضاها هنرى ينعم بالولائم مع فرانسيس ، انطلق ليمضى ثلاثة أيام فى مؤتمر مع شارل فى كاليه (يوليه سنة ١٥٢٠) . وهناك أقسم الملك والإمبراطور ، فى حضور ولزى ، على الصداقة الأبدية واتفقا على ألا يقدما على خطوات أخرى لتنفيذ خطتهما للزواج من الأسرة المالكة فى فرنسا . وكانت هذه الأحلاف المنفصلة أساساً أشد قلقلة للسلام الأوروبى من الاتفاق الودى متعدد الجوانب الذى كان ولزى قد دبر له قبل وفاة مكسمليان ، وإن كان قد ترك انجلترا فى وضع الوسيط ، والحكم فى الواقع — وهو وضع أسمى بكثير من أى وضع يمكن أن يعتمد على ثروة الإنجليز أو سلطانهم . وكان هنرى راضياً . وأمر رهبان سانت البانز باختيار ولزى رئيساً لديرهم ومنحه صافى دخلهم ، وذلك مكافأة لحاجبه ، لأن « سيدى الكاردينال قد تحمل الكثير من التكاليف فى هذه الرحلة » . وأذعن الرهبان ووصل دخل ولزى إلى ما يقرب من احتياجاته .

وكان ، على نطاق أوسع بكثير من معظمنا ، مزيجا من الفضائل والنقائض المركبة ، وكتب جيوستنيانى يقول : « إنه وسيم جداً ، فصيح للغاية ، واسع المقدرة ، لا يكل ولا يمل[١٢] » . وكانت أخلاقه لا تخلو من الشوائب ، فقد انزلق مرتين إلى الأبوة غير الشرعية ، وكانت تعد من الهفوات التى تغتفر فى ذلك العصر الطروب .

ولكن إذا صدقنا ما قاله أسقف ، فإن الكاردينال كان يعانى من

« الزهري[١٣] » وقبل ما يمكن ، أو ما لا يمكن أن يسمى بالرشا — هدايا عظيمة من المال تلقاها من فرانسيس وشارل على السواء ، وحرص على أن يجعلهما يتنافسان على أن يأمرا له بمرتبات وهبات سخية قدماها ، وكانت هذه من آداب مجاملة العصر ، وأحس الكاردينال المبذر ، الذى شعر بأن سياسته تخدم أوروبا بأسرها ، بأن أوروبا كلها يجب أن تخدمه . وليس من شك فى أنه كان يحب المال والترف والأبهة والسلطان : وكان جانب كبير من دخله يصرف فى الحفاظ على مؤسسة قد يكون تبذيرها السطحى أداة من أدوات الدبلوماسية ، صمم لكى تعطى السفراء الأجانب فكرة مبالغاً فيها عن الموارد الانجليزية . ولم يدفع هنرى أى مرتب لولزى ، ولهذا كان على الحاجب أن يعيش ويولم لضيوفه على حساب موارده الكنسية ومرتباته التى يتقاضاها من الخارج . وحتى لو كان الأمر على هذا النحو فإننا قد نعجب لأنه احتاج لكل الدخل الذى كان يحصل عليه باعتباره صاحب الحق فى دخل أبرشيتين ، وست رواتب للقسس ، ومرتب رئيس جامعة ، ومرتب باعتباره رئيسا لدير سانت البانز وأسقفا لباث وولز ، ورئيساً لأساقفة يورك ومديراً لأبرشية ونشستر وشريكاً لأسقفى ورسستر وسالزبورى الإيطاليين الغائبين[١٤] .

وكان له تقريباً الحق فى الرئاسة الدينية والسياسية بأسرها فى المملكة والمفروض أنه كان ينال مكافأة عن كل تعيين يتم . وقدر مؤرخ كاثوليكى أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى إنجلترا[١٥] ، كان أغنى وأقوى الرعايا فى الأمة : ومن رأى جيوستنيانى أنه كان « أقوى من البابا — بسبعة أضعاف[١٦] » ويقول إرازموس : « إنه الملك الثانى » ولم يبق أمامه إلا خطوة واحدة — يقوم بها — البابوية . وحاول ولزى الحصول عليها مرتين ، ولكن شارل الداهية فاقه فى تلك اللعبة ، متجاهلا وعوده .

واعتقد الكاردينال أن التمسك بالمراسم دعامة القوة ، ويستطيع المرء بالقوة أن يتبوأ السلطة ولكنه لا يستطيع أن يدعمها بثمن بخس وفى هدوء وسلام إلا بالتعود عليها أمام الجمهور ، والناس تحكم على سمو المرء بمقدار تمسكه بالرسمية التى يحتمى بها . ولهذا فإن ولزى كان يظهر فى الحفلات العامة والرسمية مرتدياً أفخر الملابس الرسميــة التى خيل إليه أنها مناسبة لمثل كل من البابا والملك . قبعة كاردينال حمراء ، وقفازين حمراوين ، وأردية من التافتاه القرمزية وحذاء من الفضة أو مموهاً بالذهب، ومرصعاً باللآلىء والأحجار الكريمة — ها هو ذا أنوسنت الثالث وبنيامين دزرائيلى وبروفل الجميل اجتمعوا معاً فى شخص واحد . كان أول من لبس الحرير[١٧] بين رجال الدين فى انجلترا . وعندما كان يردد القداس (وهو أمر نادر) كان شماسته من الأساقفة والرهبان ، وفى بعض المناسبات كان النبلاء من حملة ألقاب دوق وايرل يصبون الماء الذى يغسل به يديه المقدستين . وأذن لتابعيه أن يركعوا وهم يخدمونه على المائدة . وخدمه فى مكتبه وبيته خمسمائة شخص[١٨] ، كثير منهم من ذوى النسب العريق . وكانت قلعة هامبتون التى شيدها لتكون مقراً له باذخة جداً إلى حــد أنه أهداها للملك (١٥٢٥) ليتقى شر حسده .

ومهما يكن من أمر فإنه نسى أن هنرى كان ملكاً . وكتب جيوستنيانى إلى عضو شيوخ من البنادقة : « لدى وصولى لأول مرة إلى انجلترا اعتاد الكاردينال أن يقول لى إن جلالته سوف يفعل كذا وكذا » . وبعد ذلك — بالتدريج نسى نفسه وبدأ يقول : « سوف نفعل كذا وكذا » أما الآن يقول « سأفعل كذا وكذا »[١٩] ، وكتب السفير مرة أخرى يقول : « إذا كان لا بد من إغفال أمر الملك أو الكاردينال فمن الأفضل التغاضى عن الملك ، فالكاردينال قد يستاء من السبق الذى يسلم به للملك[٢٠] » وقلما كان الأشراف والدبلوماسيون يحصلون على الإذن بالمثول فى حضرة الحاجب قبل تقديم

الالتماس الثالث . وكلما مر عام كان الكاردينال يحكم صراحة حكماً مطلقاً يشتد يوماً بعد يوم ، واستدعى المجلس النيابى مرة إبان رئاسته ، وكان قليل الاهتمام بالأشكال الدستورية ، وقابل المعارضة بالاستياء والنقد بالزجر . وكتب المؤرخ بوليدور فرجيل يقول : « إن هذه الوسائل سوف تؤدى إلى سقوط ولزى » فأرسل فرجيل إلى البرج ، ولم يطلق سراحه إلا بعـــد أن تشفع له ليو العاشر مراراً . واشتدت المعارضة .

ولعل من عزلهم ولزى أو أدبهم هم الذين اعتصموا بآذان التاريخ ، ونقلوا آثامه كما هى بلا غفران ، إلا أن أحداً لم ينازع فى مقدرته ، أو انصرافه فى مثابرة لكثير من مهامه . وقال جيوستنيانى لعضو الشيوخ من البندقية المعتز بنفسه « إنه ينجز من العمل قدر ما يشغل كل القضاة وموظفى المكاتب والمجالس فى البندقية ، فى المحاكم المدنية والجنائية على الســواء ، وهو يدير كذلك كل شئون الدولة مهما كانت طبيعتها (٢١) » .

وكان محبوباً من الفقراء ، مكروها من الأقوياء بسبب عدم تحيزه فى تطبيق العدالة . وفتح بلاطه لكل من يشكون من الاضطهاد ، ولا تكاد توجد سابقة لهذا فى التاريخ الانجليزى بعد الفرد . وكان ينزل العقاب بالجانى الأثيم ، مهما كان رفيع القدر (٢٢) ، دون خوف ولا وجل . وكان كريماً مع العلماء والفنانين وبدأ إصلاحاً دينياً بإحلال كليات محل أديار عديدة . وكان بصدد القيام بإصلاح مثير فى التعليم الإنجليزى عندما تآمر ضده كل الأعداء الذين خلقهم اندفاعه فى أعماله وقصر نظره كبرياؤه ، فتآمروا بخلق قصة خيالية ماكية لتدبير خطة لسقوطه

٣ - ولزى والكنيسة

وأدرك المساوئ التى لا تزال باقية فى حياة رجال الدين فى انجلترا ضرب لها مثلا عظيما : أساقفة غائبين ورجال دين متعلقين بالدنيا ،

ورهباناً كسالى ، وقساوسة وقعوا فى شرك الأبوة . وكانت الدولة التى طالما دعت إلى إصلاح الكنيسة ، مسئولة إلى حـــد ما عن الشرور ، لأن الملوك كانوا يعينون الأساقفة . وكان بعض الأساقفة من أمثال مورتون ، وواهرام وفيشر رجالا على خلق رفيع ، ذوى مقدرة عظيمة ، وكان كثير من الآخرين منغمسين جداً فيما تتيحه لهم الأسقفية من حياة وادعة ، فلم يســـتطيعوا أن يدربوا أتباعهم من رجال الدين على الكفاءة من الناحية الروحية ، وكذلك على المثابرة فى تدبير المال . وربما كانت أخـــلاقيات الجنس عند القساوسة أفضل مما هى عند زملائهم فى ألمانيا ، ولكن لم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرى بين رجال الدين ، ومن الزنا والسكر والجريمة فى الأبرشيات البالغ عددها ٨,٠٠٠ فى انجلترا — وهى حالات — كثيرة دفعت كبير الأساقفة مورتون إلى أن يقول : (١٤٨٦) « إن ما يقترن بحياتهم من فضائح يعرض للخطر استقرار نظامهم(٢٣) » . وأبلغ رتشارد فوكس ، حوالى عام ١٥١٩ ، ولزى بأن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد تردوا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يئس من أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى(٢٤) . وارتاب القساوسة بالأبرشيات فى أن ترقياتهم تتوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغتصبون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا فى أى وقت مضى . وكان البعض يستولى كل عام على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض واللبن والجبن والفاكهة ، بل حتى من كل الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيســـة يتعرض لخطر عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية مع ما يترتب على ذلك من نتائج متوقعة مروعة إلى حد لا يمكن التفكر فيها . وبعبارة موجزة فرض رجال الدين مكوساً لتمويل مصالحهم فى إصرار مثل الدولة الحديثة . وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت الكنيسة تملك ، وفقاً لتقدير كاثوليكى محافظ ، حـــوالى خمس

الأملاك بأسرها فى إنجلترا(٢٥) . وحسد النبلاء هناك كما فى ألمـانيا رجال الدين على هذه الثروة وتلهفوا على استعادة الأراضى والدخول التى تنازل عنها لله أسلافهم الأتقياء أو الخائفون .

وأجمل دين كوليه حالة رجال الدين العلمانيين مع مبالغة واضحة فى خطاب وجهه إلى جمعية رجال الكنائس عام ١٥١٢ فقال : « أود أخيراً وأنا عالم بشهرتكم ومهنتكم ، أن تفكروا فى إصلاح أمور الكهنوت لأنه لم يحدث من قبل أن كان الأمر محتوماً كما هو الآن . . . . لأن الكنيسة — زوجة المسيح — التى تمنى ألا تشوبها شائبة أو تدب فيها الشـيخوخة قد أصبحت دنسة مشوهة ، وكما يقول أشعياء : « كيف صارت القرية الأمينة زانية »(*) . وكما يقول أرميا : أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين(**) » . وقد حملت بكثير من بذور الظلم وهى تنجب كل يوم أعظم الذرية دنساً . ولم يشوه شيء وجه الكنيسة مثل ما شوهته المعيشة العلمانية والدنيوية لرجال الدين . . . . أى لهفة وجوع يشيعان فى هذه الأيام بين رجال الدين بعد الشرف والوقار . وأى سباق تنقطع فيه الأنفاس من صدقة إلى صدقة ومن منفعة أقل إلى منفعة أكبر .

ألم تغرق الشهوة إلى الجسد ، ألم تغرق هذه الرذيلة الكنيسة بالفيضان . . ولهذا فليس هناك ما يسعى إليه فى حرص الجانب الأكبر من القساوسة أكثر مما يهيئ لهم اللذة الحسية ؟ إنهم لينصرفون إلى المآدب والولائم . . ويقفون حياتهم وينصرفون إلى القنص والصيد بالصقور ، وهم غارقون فى مباهج هذه الحياة الدنيا . .

وقد تملك الجشع أيضاً . . . قلوب كل القسس . . . إلى حد أننا اليوم

(*) العهد القديم : سفر أشعياء : الاصحاح الأول ، آية ٢١
(**) « « : سفر أرميا : الإصحاح الثالث ، آية ١

لا نرى شيئاً سوى ما يخيله لنا أنه كفيل بأن يعود علينا بغنم ، ونحن نعانى فى هذه الأيام من الهراطقة — وهم رجال يتصفون بحماقة عجيبة ، إلا أن هرطقتهم ليست وبائية خبيثة بالنسبة لنا وللناس مثل حياة رجال الدين الفاسدين الغاوين . ولا بد أن يبدأ الإصلاح الدينى بكم(٢٦) ».

وصاح نائب الأسقف مرة أخرى وهو يتميز غيظاً : « أيها القساوسة .. يا طائفة القسس . . . أواه ! إن الضلال المقيت الذى يسدر فيه هؤلاء القساوسة التعساء ، الذين يضم منهم عصرنا عدداً كبيراً لا يخشون الاندفاع من أحضان بغى دنسة إلى حرم الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى أسرار العشاء الربانى(٢٧) .

بل إن رجال الدين النظاميين أو الرهبانيين تعرضوا لاستنكار شديد ، فقد اتهم كبير الأساقفة مورتون عام ١٤٨٩ الراهب وليام من دير سانت ألبانز بـ « الاتجار فى المقدسات والرتب والوظائف الدينية والربا والاختلاس والعيش علنا وباستمرار مع العاهرات والعشيقات داخل أرباض الدير وخارجه » واتهم الرهبان بأنهم يحيون حياة داعرة . . . . كلا بل يدنسون الأماكن المقدسة ، حتى كنائس الرب بالذات بمضاجعة الراهبات الممقوتة » : ويحولون ديراً ثانوياً مجاوراً إلى « ماخور عام »(٢٨) :

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة أقل اكفهراراً . فمن بين اثنين وأربعين ديراً تم التفتيش عليها بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٠ وجد خمسة عشر ديراً لم تقترف فيها خطيئة كبيرة ، وفى معظم الأديار الأخرى كانت جرائم التعدى على النظام أكثر منها على العفة(٢٩). وكانت بعض الأديار لا تزال تمارس نظام الصلاة فى القرون الوسطى والإقبال على العلم والضيافة والبر وتعليم الشباب . واستغل بعضها السذاجة وجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزاً من الأمراض ، وشكا أساقفة

من « الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة . . والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقررة والموصى بها للجهلة من الناس . باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين[٣٠].

وعلى الجملة فإن الأديار السمائة فى إنجلترا أظهرت ، طبقا لتقدير آخر مؤرخ كاثوليكى ، سوء سلوك على نطاق واسع وكسلا متلافا وإهمالا يكلف غاليا فى رعاية أملاك الكنيسة[٣١].

وفى عام ١٥٢٠ كان فى انجلترا نحو ١٣٠ ديرآ للراهبات . منها أربعة فقط تضم ما يزيد على ثلاثين نزيلة[٣٢]. وألغى الأساقفة ثمانية أديار ، وقال الأسقف فى إحدى الحالات بسبب « الأخلاق الداعرة لنساء البيت وتبذلهن بسبب مجاورتهن لجامعة كمبردج[٣٣]» . وتمت ثلاث وثلاثون جولة تفتيشية لواحد وعشرين ديرآ للراهبات فى أبرشية لنكولن وقدمت عنها تقارير من بينها ستة عشر تقريرآ مشجعا ، وأربعة عشر تقريرا تضمنت ملاحظات عن الافتقار إلى النظام أو الأخلاق وتقريران تحدثا عن راهبات كن يعشن فى الخنا ، وتقرير وجد راهبة حاملا من قسيس[٣٤]: وكانت مثل هذه الانحرافات عن القواعد الصارمة تعد طبيعية فى المناخ الأخلاقى السائد فى تلك العصور ، ولعل الخدمات الكريمة فى التعليم والبر كانت ترجحها .

وكان رجال الدين لا يتمتعون بالشعبية . وكتب يوستاس شابويس السفير الكاثوليكى لشارل الخامس فى إنجلترا إلى مولاه عام ١٥٢٩ فقال : « إن كل الناس يكرهون القساوسة »[٣٥] . وندد كثير من الناس ، من المتشبثين بعقيدة المحافظين تماما بقسوة الضرائب التى فرضها رجال الدين وتبذير الأساقفة وثراء الرهبان وكسلهم . وعندما اتهم كاتب سر أسقف لندن بقتل هرطيق (١٥١٤) توسل الأسقف إلى ولزى أن يمنع المحاكمة أمام محلفين مدنيين « لأنى واثق أن كاتب سرى لو حوكم أمام أى اثنى عشر

رجلا فى لندن فإنهم سوف ينحازون فى حقد إلى صف الهرطيق إلى حد أنهم سوف يلبذون كاتبى ويدينونه على الرغم من أنه برىء مثل هابيل »[٣٦].

وأخذت الهرطقة تشتد مرة أخرى . وفى عام ١٥٠٦ اتهم خمسة وأربعون رجـــلا بالهرطقة أمام أسقف لنكولن وتراجع ثلاثة وأربعون عما قالوا ، وأحرق اثنان . وفى عام ١٥١٠ حاكم أسقف لندن أربعين هرطيقا وأحرق اثنين ، وفى عام ١٥٢١ حاكم خمسة وأربعين وأحرق خمسة ، وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه فى خلال خمسة عشر عاما[٣٧] .

ومما كان يعد بين الهرطقات الجدل حول القربان المقدس وهل يظل يقدم من الخبز فحسب ، وأن القساوسة لا حول لهم ولا قوة أكثر من الآحاد الآخرين من الناس فى التكريس أو الحل ، وأن القرابين المقدسة ليست ضرورية للحصول على الخلاص ، وأن رحلات الحج إلى المزارات المقدسة والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها ، وأن الصلوات يجب أن توجه لله وحده ، وأن فى وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده ، بغض النظر عما يقدم من صالح الأعمال ، وأن المسيحى المخلص فوق كل القوانين ما عدا شريعة المسيح ، وأن الكتاب المقدس والكنيسة يجب أن يكونا القاعدة الوحيدة التى يحتكم إليها فى العقيدة ، وأن كل الرجال يجب أن يتزوجوا ، وأن الرهبان والراهبات يجب أن يجحدوا أقسامهم بالتزام العفة .

وكانت بعض هذه الهرطقات أصداء لمذهب لولارد ، وكانت بعضها انعكاسات لنفخات من بوق لوثر .

وفى أوائل عام ١٢٥١ كان الثائرون الشبان فى اكسفورد يتلقفون فى لهفة أنباء الثورة الدينية فى ألمانيا ، وآوت كامبردج فى أعوام ١٥٢١ — ٢٥ اثنى عشر من زعماء هراطقة المستقبل ، وليام تيندال وميلز كوفردال وهيولاتيمر وتوماس بلنى وادوارد فوكس ونيكولاس ردلى وتوماس

كرانمر . . . لقد هاجر كثير منهم : وهم يتوقعون الاضطهاد ، إلى القارة ، وطبعوا كراسات دينية مناهضة للكاثوليكية وبعثوا بها سرا إلى إنجلترا .

وأصدر هنرى الثامن عام ١٥٢١ كتابه المشهور « قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر » ، ولعله أصدره كرادع لهذه الحركة أو ربما لإظهار سعة علمه فى اللاهوت ، واعتقد الكثيرون أن ولزى هو المؤلف الخفى، ولعل ولزى هو الذى اقترح تأليف الكتاب ، وصاحب ما ورد فيه من أفكار رئيسية كجزء من دبلوماسيته فى روما ، بيد أن إرازموس ادعى أن الملك قد فكر فى الرسالة من أولها لآخرها وألفها ، ويميل الحكم الآن إلى هذا الرأى . وهذا الكتاب له سمات المبتدئ ، وهو لا يكاد يحاول تقديم رد عقلى يدحض به الآراء الأخرى ، ولكنه يعتمد على فقرات منقولة من الكتاب المقدس والروايات الكنسية والتعسف الشديد . وكتب الثائر المنتظر ضد البابوية يقول : « أى ثعبان سام يصل إلى درجة من يصف سلطة البابا بأنها مستبدة ؟ . . . وأى جارحة من جوارح الشيطان تحاول أن تمزق أعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها » . ما من عقوبة يمكن أن تكون جسيمة عندما توقع على من يعصى القس الأكبر والقاضى الأعلى على الأرض « لأن الكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب . . . بل لكاهن المسيح الوحيد، بابا روما »(٣٨). « وكان هنرى يغبط ملك فرنسا على ألقاب التشريف التى تسبغها الكنيسه عايه مثل : « أكثر المسيحيين مسيحية » وفرديناند وايزابلا على لقب العاهلين الكاثوليكيين . وعندما قدم وكيله وقتذاك الكتاب إلى ليو العاشر طلب منه أن يمنح هنرى وخلفاءه لقب — حامى العقيدة — ووافق ليو ووضع من استهل الإصلاح الدينى فى انجلترا الكلمات على سكنه .

وتمهل لوثر فى الإجابة . ورد عام ١٥٢٥ ردا فريدا على ذلك « الحمار الأحمق » ، « وذلك المجنـــون الهائج . . . ملك الأكاذيب ، الملك

هينز ، ملك انجلترا يغضب الله . . . ولما كانت تلك الدودة اللعينة العفنة قد افترت كذبا بشر مبيت على مليكى فى السماء فإنه يحق لى أن ألطخ هذا الملك الإنجليزى بقذره »[٣٩] « ولم يتعود هنرى على هذا الرشاش فاشتكى إلى أمير سكسونيا المختار الذى قال له بأدب جم ألا يتطفل على الأسود ، ولم يصفح الملك قط عن لوثر على الرغم من اعتذاره فيما بعد ، ونبذ البروتستانت الألمان حتى عندما تمرد تماما على البابوية .

وكان أعظم رد مفحم للوثر هو نفوذه فى إنجلترا ففى ذلك العام نفسه ١٥٢٥ نسمع عن « جمعية الإخوان المسيحيين » . فى لندن التى انطلق وكلاؤها المأجورون يوزعون كراسات دينيـــة لوثرية وهرطقية أخرى وأناجيل بالإنجليزية كلها أو بعضها .

وفى عام ١٤٠٨ انزعج كبير الأساقفة أروندل بسبب توزيع نسخة الكتاب المقدس التى ترجمها ويكلف ، فمنع القيام بأى ترجمة له باللغة الوطنية دون الحصول على موافقة من الأسقف ، على أساس أن أى نسخة تترجم بدون ترخيص قد يحدث فيها تحريف للفقرات الصعبة ، أو تلون التعبير لتأييد هرطقة . ولم يشجع كثير من رجال الدين قراءة الكتاب المقدس بأى صيغة ، واحتجوا بأن الترجمة الصحيحة تستلزم معرفة خاصة ، وأن المنتخبات من الكتاب المقدس كانت تستخدم لإثارة الفتنة[٤٠]. ولم تبد الكنيسة أى اعتراض رسمى على الترجمات السابقة لويكلف بيد أن هذا الإذن المفهوم ضمنا لم تكن له أهمية لأن كل النسخ الإنجليزية قبل عام ١٥٢٦ كانت مخطوطة[٤١].

ومن ثم تأتى الأهمية الزمنية للعهد الجديد الإنجليزى الذى نشره تندال عام ١٥٢٥ — ٢٦ . وكان قد فكر مبكراً فى أيام دراسته فى ترجمة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصلين

العبرى واليونانى . وعندما لامه كاثوليكى غيور وقال له : « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب » أى الكتاب المقدس من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله : « إذا مد الله فى عمرى فلن تمضى بضع سنين حتى أجعل الصبى الذى يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت(٤٢)» . ومنحه أحد معاونى بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب أثناءها على العمل . وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فتنبرج واستمر فى العمل تحت إرشاد لوثر . وبدأ فى كولونيا يطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليونانى كما حققه ارازموس . وأثار وكيل إنجليزى السلطات عليه ، ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية ، وهناك طبع ٦,٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدا منفصلا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات إرازموس ولوثر . وهربت كل هـــذه النسخ إلى انجلترا وكانت بمثابة الوقود ، الذى أشعل نار البروتستانتية الأولى ، وزعم كوثبرت تونستال ، أسقف لندن أن هناك أخطاءاً شنيعة فى الترجمة ، وتحاملا مغرضاً فى التعليقات ، وهرطقات فى المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشـــفة وإحراقها علناً فى ميدان سانت بول كروس ، بيد أن نسخاً جديدة ظلت ترد من القارة ، وعاق مور على ذلك بقوله إن تونستال كان يمول مطبعة تندال . وكتب مور نفسه حواراً مستفيضاً (١٥٢٨) ، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد فى « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير . ورأى الملك أن يخمد الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله ، إلى أن تصدر ترجمة معتمدة من ذوى الشأن (١٥٣٠) ، وفى غضون ذلك حرمت الحكومة كل طبع أو بيع أو استيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية .

وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع فى ماربورج ترجمته للأسفار الخمسة (١٥٣٠) . وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية فى أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه . غير أنه سقط فى أيدى الموظفين الإمبراطوريين فى لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ستة عشر شهراً فى فلفورد (قرب بروكسل) ، وأعدم فى المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كرومويل وزير هنرى الثامن . وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت : « رباه ، افتح عينى ملك انجلترا (٤٣) » وقد عاش ما يكفى لإتمام رسالته ، فالصبى الحارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجيليين الآن وهم يروون له بإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المسيح الملهمة . وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ فى المائة من أعظم ما كتب فى الأدب الكلاسى الإنجليزى وأشدها تأثيراً كانت لتندال بلا تغيير (٤٤) .

وكان موقف ولزى تجاه هذا الإصلاح الدينى الإنجليزى الوليد يتسم باللين ، كما يمكن أن يتوقع من رجل على رأس الكنيسة والحكومة على السواء . فاستأجر شرطة سرية لكشف الهرطقة ، وفحص الأدب المشكوك فيه والقبض على الهراطقة . غير أنه سعى إلى إغراء هؤلاء بأن يسكتوهم لا أن يعاقبوهم ، ولم يصدر أوامره قط بإرسال هرطيق إلى المحرقة . وفى عام ١٥٢٨ سجن ثلاثة من طلبة جامعة أكسفورد بتهمة الهرطقة ، وترك أسقف لندن واحداً منهم يموت فى الحبس وأنكر آخر ما قاله وأطلق سراحه ، أما الثالث فأخذه ولزى ووضعه تحت رعايته وسمح له بالفرار (٤٥) . وعندما ندد هيو لاتيمر ، أفصح المصلحين المدينيين الأوائل فى القرن السادس عشر بانجلترا ، بفساد رجال الدين وطلب أسقف ايلى من ولزى منعه ، منح ولزى لاتيمر ترخيصاً بالوعظ فى أى كنيسة بالبلاد .

ورسم الكاردينال خطة ذكية لإصلاح الكنيسة . وفى رواية لأسقف برنت أنه كان يحتقر رجال الدين وبخاصة . . . الرهبان الذين لا يؤدون خدمة للكنيسة أو الدولة ، ولكنهم كانوا بسبب حياتهم الفاضحة وصمة عار فى جبين الكنيسة وحملا على الدولة . ومن ثم قرر أن يوقف عدداً منهم ويحولهم إلى مؤسسة أخرى(٤٦) » . ولم يكن إغلاق دير لا يؤدى وظيفته على ما يرام بالأمر الذى لم يسمع به من قبل ، فقد حدث فى كثير من الحالات قبل ولزى بأمر صدر من الكنيســة . وبدأ (١٥١٩) بإصــدار تشريعات لإصلاح القوانين الكنسية التى وضعها سانت أوغسطين » ولو أن هــذه القواعد اتبعت لأصبحت القوانين الكنسية نموذجية للغاية . وفوض كاتم سره توماس كرومويل فى زيارة الأديار بنفسه أو بواسطة وكلاء له وأن يقدم له تقارير عن الأحوال الموجودة ، وأتاحت هــذه الجولات التفتيشية مهارة متمرسة لكرومويل فى تنفيذ أوامر هنرى فيما بعد بتقصى الحياة فى الأديار بانجلترا بشدة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من قسوة هؤلاء الوكلاء ومن تلقيهم « الهدايا » أو أخذها كرها ، وعن مشاطرتهما كرومويل والكاردينال(٤٧) فى هذه الهدايا . وحصل ولزى عام ١٥٢٤ على إذن من البابا كليمنت السابع بإغلاق الأديار التى تضم أقل من سبعة نزلاء واتفاق دخول هذه الممتلكات على إنشاء كليات . وشعر بالسعادة عنــدما مكنته هذه الأموال من فتح كلية فى موطنه ابسويتش وأخرى فى أكسفورد وراوده الأمل فى أن يستمر على هذا المنوال فيغلق المزيد من الأديار عاماً بعد عام ويســتبدل بها كليات(٤٨). إلا أن نياته الطيبة ضاعت فى غمرات السياسة ، وكانت أعظم نتيجة لإصــلاحاته المتعلقة بالأديار هى أنه زود هــنرى بسابقة جديرة بالإجلال لخطة أبعــد مدى ، وتدر ربحاً أكثر .

وفى غضون ذلك كانت سياسة الكاردينال الخارجية قد أدت إلى نتيجة تدعو إلى الأسى . ولعله سمح لانجلترا بالانضمام إلى شارل فى حربه مع فرنسا (١٥٢٢) لأنه كان يسعى إلى الحصول على تأييد الإمبراطور لترشيحه للبابوية (١٥٢١) . ومنيت الحملات الإنجليزية بالفشل وتكلفت أموالا طائلة ، وأزهقت فيها أرواح كثيرة .

ودعا ولزى (١٥٢٣) أول مجلس نيابى فى سبع سنوات ، لتمويل الجهود الجديدة ، وصدمه بطلب إعانة مالية لم يسبق لها مثيل قدرها ٨٠٠,٠٠٥ جنيه — أى خمس ما يملكه كل علمانى . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم صوتوا على السبع فقط ، واحتج رجال الدين بيد أنهم سلموا دخل نصف عام من كل الصدقات . وعندما وصلت الأنباء بأن جيش شارل قد تغلب على الفرنسيين فى بافيا (١٥٢٥) وأخذ فرانسيس أسيراً . رأى هنرى وولزى أن من الحكمة أن يسهما فى تقطيع أوصال فرنسا الذى يوشك أن يحدث . ووضعت خطة للقيام بغزو جديد واقتضى الأمر تدبير المزيد من الأموال وخاطر ولزى بآخر ما تبقى له من شعبية ، بأن طلب من كل الإنجليز الذين يتجاوز دخلهم ٥٠ جنيهاً (٥٠٠ دولار ؟) أن يسهموا بسدس أموالهم فى « هبة ودية » ، لمتابعة الحرب والوصول بها إلى غاية مجيدة ، « ودعونا نتبرع ودياً حتى نمنع شارل من ابتلاع فرنسا بأسرها » .

وقوبل الطلب بمقاومة انتشرت على نطاق واسع اضطر ولزى إلى أن يتحول إلى وضع برنامج للسلام . ووقعت معاهدة للدفاع المتبادل مع فرنسا كمحاولة أخرى لاستعادة توازن القوى . . ولكن جنود الإمبراطور استولوا عام ١٥٢٧ على روما وأسروا البابا وبدا أن شارل

قد أصبح وقتذاك سيد القارة الذى لا يقهر ، وقضى على سياسة وازى القائمة على الصد والتوازن . وانضمت إنجلترا إلى فرنسا عام ١٥٢٨ فى الحرب ضد شارل .

وكان شارل ابن أخى كاثرين الأراجونية التى كان هنرى شديد الرغبة فى الطلاق منها ، وكان كليمنت السابع ، الذى يستطيع أن يمنحه لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، أسيرا لشارل بشخصه وسياسته .

٤ — طلاق الملك

جاءت كاترين الأراجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا إلى إنجلترا عام ١٥٠١ ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها وتزوجت (١٤ نوفمبر) من أرثر البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، وهو أكبر أبناء هنرى السابع . ومات أرثر فى اليوم الثانى من إبريل عام ١٥٠٢ وكان المفروض بوجه عام أن الزوج قد دخل بزوجته . ومن ثم أرسل السفير الأسبانى قياما بالواجب « أدلة » إلى فرديناند ولم ينتقل لقب أرثر ، أمير ويلز رسميا إلى شقيقه الأصغر هنرى إلا بعد مرور شهرين على وفاة أرثر(٤٩). ولكن كاثرين أنكرت أن زوجها دخل بها . وقد أحضرت معها صداقا قدره ٢٠٠,٠٠٠ دوكات (٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) وكره هنرى السابع أن يدع كاثرين تعود إلى إسبانيا ومعها هذه الدوكات ، وتلهف على أن يجدد مصاهرته لفرديناند القـــوى فاقترح أن تتزوج كاثرين من الأمير هنرى على الرغم من أنها كانت تكبر الصبى بست سنوات . وكانت هنالك آية فى الكتاب المقدس (سفر اللاويين اصحاح ٢٠ : آية ٢١) تحرم هذا الزواج :

« وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . . . يكونان عقيمين » ومهما يكن من أمر فإن هناك آية أخرى تنص على خلاف ذلك : « إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن . . . . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة » . (سفر التثنية : اصحاح ٢٥ آية ٥) . واستنكر كبير الأساقفة وارهام الزواج المقترح ودافع عنه الأسقف فوكس الونشستري إذا أمكن الحصول على محالل من البابا للمانع من المصاهرة . وطلب هنري السابع الحصول على المحالل . فنحه له البابا يوليوس (١٥٠٣) . وجادل بعض خبراء القانون الكنسي في حق البابا في التحلل من مبدأ نص عليه الكتاب المقدس[٥٠] وأكد البعض حقه في هذا ، أما يوليوس نفسه فقد راودته بعض الشكوك[٥١]. وأعلنت رسميا الخطبة ، وهي في الواقع زواج شرعي — عام ١٥٠٣ ، ولما كان العريس لا يزال في الثانية عشرة من عمره فحسب فقد أجلت المعاشرة . وفي عام ١٥٠٥ طلب الأمير هنري إعلان بطلان الزواج ، لأن أباه أكرهه[٥٢]عليه ولكنه أقنع بصحة الزواج على أساس أنه في مصلحة إنجلترا .

وفي عام ١٥٠٩ ، وبعد ستة أسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج . وبعد سبعة شهور (٣١ يناير سنة ١٥١٠) أنجبت كاترين أول طفل لها ، وقد مات عند الولادة . وأنجبت بعد ذلك بعام ابنا وابتهج هنري بولادة وريث ذكر يصل به سلسلة نسب تيودور ، ولكن الطفل مات بعد بضعة أسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة (١٥١٣ و ١٥١٤) . وبدأ هنري يفكر في الطلاق . أو بعبارة أدق في إعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح . وحاولت كاترين المسكينة مرة أخرى وفي عام ١٥١٦ أنجبت طفلة قدر لها أن تكون الملكة ماري . وأذعن هنري وقال لنفسه : « إذا كانت هذه المرة ابنة فإن الأبناء سوف يجيئون بعدها[٥٣]»

بفضل الله ومنه . وفى عام ١٥١٨ أنجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا . واشتدت خيبة أمل الملك والبلاد لأن مارى البالغة من العمر عامين ، كانت قد خطبت إلى ولى عهد فرنسا ، وإذا لم يرزق هنرى بولد فإن مارى سوف ترث العرش الإنجليزى ، وعندما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فإنه سيكون فى الواقع ملكا على إنجلترا أيضا ، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا ، وكان دوقات نورفولك وبكنجهام تداعبهم الآمال فى أن يزيحوا مارى ويضمنوا التاج لأنفسهم ، وأطلق بكنجهام لسانه فاتهم بخيانة البلاد وقطع رأسه (١٥٢١) ، وعبر هنرى عن خوفه من أن يكون حرمانه من إنجاب ولد عقابا من الله لأنه استخدم محللا بابويا(٥٤) من وصية واردة فى الكتاب المقدس . وأقسم ليقودن حملة صليبية ضد الأتراك إذا أنجبت له الملكة ولدا . غير أن كاترين لم تحمل بعد ذلك . وما أن حل عام ١٥٢٥ حتى تخلى عن كل أمل فى الحصول على ذرية أخرى منها .

وكان هنرى منذ أمد بعيدقد فقد الميل إليها باعتبارها أنثى . وكان وقتذاك فى الرابعة والثلاثين ، أى فى عنفوان الرجولة الفتية ، وكانت فى الأربعين وتبدو أكبر من سنها . ولم تكن قط مغرية ، والحق أن مرضها المتكرر، أو ما صادفها من سوء الحظ ، قد شوه جسدها وأضفى على روحها قتامة . وكانت تبز النساء بثقافتها ودمائتها ولكن الأزواج قلما يرون أن التضلع فى العلم خلة محمودة فى الزوجة . وكانت زوجة صالحة مخلصة ، تحب زوجها حبا لا يفوقه إلا حبها لإسبانيا : وكانت ترى نفسها باعتبارها — وكانت كذلك لفترة ما — سفيرة لإسبانيا وكانت ترى أن إنجلترا يجب أن تقف دائماً فى صف فرديناند أو شارل : وفى حوالى عام ١٥١٨ اتخذ هنرى أول حظية له عرفها بعد الزواج وهى اليزابيث بلاوتد شقيقة مونتجوى صديق ارازموس : وأنجبت له ابنا عام ١٥١٩ وأنعم هنرى على الصبى بلقب

دوق رتشموند وسومرست ، وفكر فى أن يقف وراثة العرش عليه . وفى عام ١٥٢٤ اتخذ حظية أخرى ، هى مارى بولين(٥٥) ، والحق أن سير جورج ثروكمورتون اتهمه فى وجهه بالزنا مع أم مارى أيضاً(٥٦) . وكان هناك قانون غير مكتوب فى ذلك العهد ينص على أن الملك إذا ما تزوج لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ولم يكن ذلك باختياره ، فإن له الحق فى أن ينشد خارج الزواج الغرام الذى فقده فى المخدع الشرعى .

وفى عام ١٥٢٧ أو قبله حول هنرى فتنته إلى آن شقيقة مارى . وكان والدهما سير توماس بولين ، تاجرا دبلوماسيا حظى منذ وقت طويل بعطف الملك ، أما أمهما فكانت من آل هوارد ، وهى ابنة الدوق نورفولك . وأرسلت آن إلى باريس لإتمام دراستها فيها ، وهناك عينت وصيفة للملكة كلود ثم لمرجريت دى نافار ، ولعلها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية . وكان فى وسع هنرى أن يراها فتاة طروبا فى الثالثة عشرة من عمرها فى ميدان كاوث أف جولد ، وعندما عادت إلى إنجلترا وهى فى الخامسة عشرة من عمرها (١٥٢٢) أصبحت وصيفة للملكة كاترين . ولم تكن رائعة الجمال ، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قاتمة وفم واسع ورقبة طويلة ، ولكنها خلبت لب هنرى وآخرين غيره بعينيها السوداويين البراقتين وشعرها البنى المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها . وكان لها بعض العشاق المولهين بها ، ومنهم توماس ويات الشاعر ، وهنرى برسى ، الذى أصبح فيما بعد إيرل نور ثمبرلاند ، واتهمها أعداؤها فيما بعد بأنها كانت متزوجة فى السر من برسى قبل أن تضع أنظارها على الملك ، إلا أن الدليل لم يكن قاطعا(٥٧) . ولا نعرف متى بدأ هنرى يطارحها الغرام وأقدم رسائل الحب الباقية التى كتبها لها ترجع فيما يرجح إلى يولية عام ١٥٢٧ .

ما هى العلاقة بين هذه القصة الغرامية والتماس هنرى الحكم ببطلان

زواجه ؟ مما لا جدال فيه أنه قد فكر فى هذا الأمر فى وقت يرجع إلى عام ١٥١٤ عندما كانت آن فتاة فى السابعة من عمرها . ويبدو أنه طرح الفكرة جانبا حتى عام ١٥٢٤ ، عند ما كف عن مباشرة علاقاته الزوجية مع كاترين ، وفقا لروايته(٥٨) . وأقدم إجراءات سجلت ببطلان الزواج اتخذت فى مارس عام ١٥٢٧ ، بعد تعرف هنرى بآن بوقت طويل ، وفى الوقت الذى حلت فيه محل شقيقتها فى أحضان الملك . والظاهر أن ولزى كان لا يعلم شيئاً عن أى نية للملك فى الزواج من آن عندما ذهب فى يوليو عام ١٥٢٧ إلى فرنسا لإعداد العدة للزواج بين هنرى ورينيه ، ابنة لويس الثانى عشر التى سرعان ما أثارت حركة بروتستانتيه فى إيطاليا . وأول إشارة لمـــا انتواه هنرى وردت فى خطاب أرسله يوم ١٦ أغسطس سنة ١٥٢٧ السفير الإسبانى إلى شارل الخامس يبلغه فيه أن هناك اعتقادا عاما فى لندن بأن الملك إذا حصل على « طلاق » فإنه سوف يتزوج « ابنة سير توماس بولين(٥٩) » ولم يكن هذا يعنى مارى بولين لأن هنرى وآن كانا يعيشان فى شقتين متجاورتين تحت نفس السقف فى جرينوتش(٦٠) عند حلول نهاية عام ١٥٢٧ . وقد نستنتج من هذا أن هنرى سارع بطلب بطلان الزواج على الرغم من أنه يصعب أن يقال إن السبب فى ذلك هو افتتانه بآن . وكان السبب الأساسى رغبته فى الحصول على ولد يمكن أن ينقل إليه العرش مع شيء من الثقة فى خلافة هادئة . وكانت إنجلترا بأسرها تشاطره ذلك الأمل . وتذكر الناس فى فزع السنوات العديدة (١٤٥٤ — ٨٥) التى نشبت فيها الحرب بين بيتى يورك ولانكاستر على التاج ، ولم يكن قد مضى على ظهور أسرة تيودور غير اثنين وأربعين عاما فى سنة ١٥٢٧ ، وكان حقها فى العرش مشكوكا فيه ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصل حبل الأسرة الحاكمة دون منازع إلا ولد شرعى ينحدر مباشرة من صلب الملك ، ولو لم يلتق هنرى قط بآن بولين فإنه كان قميناً

بأن يرغب فى الحصول على طلاق وزوجة ولود بصورة مقبولة ؛ ولا شك أنه يستحق هذا .

واتفق ولزى مع الملك فى هذا الموضوع وأكد له أنه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلان الزواج ، وكانت سلطة البابا فى منح مثل هذا الانفصال أمر مقبول بوجه عام ، كإجراء حكيم لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما ، ويمكن تقديم سوابق كثيرة . بيد أن تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغيضين : فهنرى لم يكن يريد ريليه بل كان يريد آن ، وبطلان الزواج سوف يصدر من بابا ، كان عند ما وصلته المشكلة ، أسيراً لإمبراطور ، كان لديه أكثر من سبب لمناصبة هنرى العداء . وربما كان شارل حريا بأن يعارض بطلان هـذا الزواج ما دامت عمته تقاومه ، وكان يعارض أكثر لو عقد زواج جديد ، كما دبر ولزى ، بربط إنجلترا بحلف قوى مع فرنسا . ولم يكن السبب الأولى للإصلاح الدينى الإنجليزى هو جمال آن بولين الصاعد ، بل الرفض العنيد الذى بدا من كاترين وشارل فى إدراك عدالة رغبة هنرى فى الحصول على ولد . واشتركت الملكة الكاثوليكية مع الإمبراطور الكاثوليكى والبابا الأسير فى انفصال إنجلترا عن الكنيسة . ولكن السبب النهائى للإصلاح الدينى الإنجليزى لم يكن طلب هنرى بطلان الزواج بقدر ما كان من ارتفاع شأن الملكية الإنجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على أن ترفض التسليم بسلطة البابا فى التدخل فى شئون إنجلترا ، وتحكمه فى مواردها .

وأكد هنرى أن رغبته العارمة فى الحصول على بطلان الزواج إنما دعا إليها جبرييل دى جرامون الذى أقبل إلى إنجلترا فى فبراير عام ١٥٢٧ لمناقشة الزواج المقترح بين الأميرة مارى والأسرة الملكية الفرنسية . فقـد أثار جرامون ، كما يروى هنرى ، سؤالاً عن شرعية بنوة مارى ،

على أساس أن زواج هنرى بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لأحد نواهى الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا أن يمحوها . وظن البعض أن هنرى لفق القصة(٦١) ، ولكن ولزى رددها وأبلغت إلى الحكومة الفرنسية (٥٢٨) ، ولم ينكرها ، بقدر ما هو معروف جرامون ، وجاهد جرامون لإقناع كليمنت بأن طلب هنرى بطلان الزواج أمر عادل ، وأبلغ شارل سفيره فى إنجلترا (٢٩ يوليو سنة ١٥٢٧) أنه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنرى .

وبينما كان ولزى فى فرنسا أبلغ على وجه التحديد بأن هنرى لا يرغب فى الزواج من رينيه بل يريد الزواج من آن . واستمر يعمل للحصول على البطلان ، ولكنه لم يخف اكتئابه بسبب اختيار هنرى : وتجاوز الملك حاجبه فى خريف عام ١٥٢٧ ، وبعث بكاتم سره وليام نايت لتقديم ملتمسين للبابا الأسير ، الأول يتضمن أن كليمنت ، إذ يتعرف على صحة زواج هنرى الذى تكتنفه الشكوك وافتقاره إلى ذرية من الذكور وكراهية كاترين للطلاق ، يجب أن يسمح لهنرى بالاحتفاظ بزوجتين . وأصدر الملك أمراً فى آخر لحظة أنى نايت عن تقديم هذا الاقتراح ، وكانت جرأة هنرى قد خمدت ولا بد أنه ذهل ، عندما تلقى ، بعد ثلاث سنوات ، خطابا من جيوفانى كاسالى أحد وكلائه فى روما ، مؤرخا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٥٣٠ يقول فيه : « منذ بضعة أيام اقترح على البابا سراً أن يأذن لجلالتك باتخاذ زوجتين(٦٢) » . وكان ملتمس هنرى الثانى لا يقل غرابة ، على البابا أن يمنحه تحللاً للزواج من امرأة كان للملك علاقات جنسية مع أختها(٦٣) . ووافق البابا على هذا بشرط أن يعلن بطلان الزواج بكاترين إلا أنه لم يكن على استعداد لإعلان بطلان هذا الزواج . وكان كليمنت لا يخشى شارل فحسب بل كان ينفر من القاعدة التى تقضى بأن أحد

البابوات السابقين قد ارتكب خطأ جسيما بإعلان صحة الزواج . وتلقى فى نهاية عام ١٥٢٧ ملتمسا ثالثا — بأنه يجب أن يعين ولزى قاصداً رسوليا آخر لعقد محكمة فى إنجلترا تسمع الدليل وتحكم بصحة زواج هنرى بكاترين . وأذعن كليمنت (١٣ إبريل سنة ١٥٢٨) ، وعين الكاردينال كامبيجيو لعقد جلسة مع ولزى فى لندن ووعد — فى منشور بابوى لا يطلع عليه سوى ولزى وهنرى — أن يؤيد أى قرار يتخذه المندوبان البابويان(٦٤) . وربما كان لانضمام هنرى إلى فرانسيس (يناير سنة ١٥٢٨) فى إعلان الحرب على شارل وتعهدهما بتحرير البابا قد أثر فى إذعان البابا .

واحتج شارل وأرسل إلى كليمنت نسخة من وثيقة ادعى أنها وجدت فى المحفوظات الإسبانية ، وفيها أكد يوليوس الثانى صحة التحلل الذى اقترح هنرى وولزى بطلانه . وتعجل البابا ، وهو لا يدرى ما يفعل ولا يزال أسيراً لشارل ، فأرسل تعليمات إلى كامبيجو بألا ينطق بحكم قبل أن يحصل على تفويض صريح من الآن فصاعدا . . . فإذا ألحق بالإمبراطور ضرر كبير ، فإن كل أمل فى السلام العالمى يكون قد تبدد ولا تستطيع الكنيسة أن تنجو من الخراب التام لأنها تخضع خضوعا كاملا لسلطان أتباع الإمبراطور . . أجل بقدر الإمكان(٦٥) » .

وعند وصول كامبيجيو إلى إنجلترا (أكتوبر سنة ١٥٢٨) حاول أن يحصل على موافقة كاترين بالاعتزال فى دير للراهبات ، فوافقت بشرط أن يحلف هنرى أيمان الرهبان . ولكن لم تكن هناك أمور أبعد عن ذهن هنرى من الفقر والخضوع والعفة ، ومهما يكن من أمر فإنه اقترح أن يحلف هذه الأيمان إذا وعد البابا يحله منها عند الطلب ورفض كامبيجيو أن ينقل هذا الاقتراح إلى البابا وأبلغه بدلا من ذلك (فبراير سنة ١٥٢٩) بعزم الملك على الزواج من آن . وكتب يقول : « إن هذه العاطفة أمر خارق للعادة أنه لا يرى شيئاً ولا يفكر فى شىء سوى حبيبته آن ، إنه

لا يستطيع أن يستغنى عنها ساعة واحدة . وإنى لأشعر بالإشفاق عليه عندما أرى أن حياة الملك واستقرار وسقوط البلاد بأسرها تتوقف على هذه المسألة وحدها(٦٦) » .

وحدثت تغيرات فى الموقف الحربى جعلت البابا يتحول أكثر فأكثر ضد اقتراح هنرى . وفشل الجيش الفرنسى ، الذى كان هنرى قد ساعده بتمويله ، فى حملته الإيطالية ، وترك البابا فى حالة اعتماد كلى على الإمبراطور : وطردت فلورنسا حكامها من آل مديتشى — وكان كليمنت مخلصا لتلك العائلة مثله فى ذلك مثـــل شارل الذى كان مخلصا لآل هابسبورج .

وانتهزت (فينيسيا) البندقية فرصة عجز البابا لكى تنتزع رافنا من الولايات البابوية ، فمن كان وقتذاك يستطيع أن ينقذ البابوية سوى آسرها ؟ وقال كليمنت لقد استقر رأيى تماما على أن أصبح من أنصار النظام الإمبراطورى ، وسوف أعيش وأموت وأنا متمسك بهذا الرأى(٦٧) » . ووقع فى التاسع والعشرين من يونيه معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها وعد شارل بإعادة فلورنسا لآل مديتشى ورافنا للبابوية والحرية لكليمنت ، ولكن على شريطة ألا يوافق كليمنت مطلقا على بطلان زواج كاترين إلا برضا كاترين وإرادتها الحرة .

ووقع فرانسيس الأول فى الخامس من أغسطس معاهدة كامبراى التى سلمت فى الواقع إيطاليا والبابا للإمبراطور .

وفى ٣١ مايو افتتح كامبيجيو مع ولزى المحكمة المختصة بالقاصد الرسولى للنظر فى الالتماس المقدم من هنرى ، بعد أن أجل افتتاحها لأطول مدة ممكنة . واستغاثت كاترين بروما ، وأبت أن تعترف باختصاص المحكمة . ومهما يكن من أمر فإن كلا من الملك والملكة حضرا يوم ٣١ يونيه .

وخرت كاترين على ركبتيها أمامه وتوسلت إليه بكلمات مؤثرة أن يستأنفا حياتهما الزوجية . وذكرته بأعمالها الكثيرة وإخلاصها التام ، وصبرها على لهوه خارج الأسوار ، وأقسمت أن الله يشهد على أنها كانت عذراء عندما تزوجها هنرى ، وتساءلت أى شىء صنعته أساءت به إليه(٦٨) ؟ فأنهضها هنرى وأكد لها أنه لم يكن هناك ما يتمناه بحماسة أكثر من التوفيق فى زواجهما وأوضح لها أن الأسباب التى حملته على طلب الانفصال ليست شخصية، بل أملتها عليه مصلحة الأسرة المالكة والأمة . ورفض استغاثتها بروما على أساس أن الإمبراطور يسيطر على البابا ، فانسحبت وهى تبكى ، ورفضت أن تشترك بعد ذلك فى الإجراءات القضائية . وتكلم الأسقف فيشر مدافعا عنها ومن ثم اكتسب عداوة الملك . وطالب هنرى بصدور قرار واضح من المحكمة وتحايل كامبيجيو على المماطلة فى إصدار الحكم وأخيراً (٢٣ يوليه سنة ١٥٢٩) أجل المحكمة إلى العطلة الصيفية . وألغى كليمنت القضية وحولها إلى روما لكى يجعل التردد أشد حسما .

واستشاط هنرى غضبا وشعر بأن كاترين عنيدة بصورة غير معقولة ، فرفض أن تربطه بها أية علاقة بعد ذلك ، وأخذ يقضى ساعات لهوه علنا مع آن . وربما ترجع إلى هذه الفترة معظم رسائل الحب السبع عشرة التى نقلها كامبيجيو سرا من إنجلترا(٦٩) والتى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان بين ذخائرها الأدبيــة . ويبدو أن آن المجربة التى خبرت أساليب معاملة الرجال والملوك لم تمنحه إلا تشجيعاً ودغدغة تثير عواطفــه ، وشكت وقتذاك من أن شبابها يضيع فى الوقت الذى يتوانى فيه الكرادلة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا رغبة عذراء فى الظفر برجل ميسور من عترا بحق هنرى فى أن يتوج الرغبة برباط الزواج . ولامت ولزى لأنه لم يتعجل البت فى طلب هنرى بعزم أشد وبلاغ أسرع ، وشاركها الملك استياءها .

وقد بذل ولزى كل ما فى وسعه وإن كان يعارض الأمر بكل جوارحه ؛ وكان قد أرسل بالمال إلى روما لرشوة الكرادلة[٧٠] ولكن شارل كان قد أرسل بدوره مالا وجيشا علاوة على هذا . بل إن الكاردينال كان قد أغضى عن فكرة التزوج من اثنتين[٧١] كما فعل لوثر بعد بضع سنوات . ومع ذلك عرف ولزى أن آن وأقرباءها من ذوى النفوذ يقومون بمناورة لإسقاطه . وحاول أن يهدئ من ثائرتها بالأطعمة اللذيذة والهدايا الثمينة ، غير أن عداءها كان يزداد كلما طال العهد على إصدار قرار ببطلان الزواج . وتحدث عنها فقال : « إنها العدو الذى لم تكتحل عيناه قط بالنوم ، ولم يكف عن الدرس والتصور معا ، فى النوم واليقظة على السواء ، للقضاء المبرم عليه[٧٢] » . وتنبأ بأن البطلان لو منح فإن آن سوف تصبح ملكة وتقضى عليه ، وأنه لو لم يمنح ذلك القرار فإن هنرى سوف يستغنى عنه باعتباره رجلا فاشلا . ويطلب محاسبته على إدارته ، حسابا ماليا دقيقا مفصلا .

وكان لدى الملك أسباب كثيرة لعدم الرضا عن حاجبه ، فقد فشلت السياسة الخارجية وأثبت أن التحول من صداقة شارل إلى الحلف مع فرنسا قد أدى إلى عواقب وخيمة .

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك امرؤ يقول كلمة طيبة فى صالح الكردينال الذى تمتع يوما بسلطة مطلقة ، فقد كان رجال الدين يكرهونه بسبب حكمه المطلق ، وكان الرهبان يخشون أن يشهدوا مزيدا من حل الأديار ، والعامة يبغضونه لأنه أخذ أبناءهم وأموالهم لشن حروب لا طائل من ورائها ، والتجار يمقتونه لأن الحرب مع شارل عاقت تجارتهم مع الفلاندرز ، والأشراف يكرهونه بسبب ما انتزعه منهم ظلما ، ولكبريائه

الطارئة وثروته التى تضاعفت سريعاً . وأبلغ بعض الأشراف السفير الفرنسى (١٧ أكتوبر سنة ١٥٢٥) بقولهم إنهم « ينوون » عندما يموت ولزى أو يقضى عليه أن يتخلصوا من الكنيسة ويتلقوا أموال الكنيسة وولزى معاً[٧٣] » . واقترح القماشون فى كنت أن يوضع الكردينال فى قارب يتسرب منه الماء ، ويترك لتتقاذفه الأمواج فى البحر[٧٤].

وكان هنرى أشد دهاء . وفى اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٥٢٩ أصدر أحد وكلائه أمرا قضائياً باستدعاء ولزى للمثول أمام قضاة الملك ، للرد على اتهام بأن أعماله كقاصد رسولى قد خالفت قانون الخضوع لسلطة التاج (١٣٩٢) ، الذى يقضى بمصادرة أموال أى إنجليزى يأتى بالكتب البابوية إلى إنجلترا . ولم يختلف الموقف لأن ولزى كان قد كفل سلطة القاصد الرسولى بناء على طلب الملك[٧٥] ، وأنه استخدمها بخاصة لصالح الملك . وأدرك ولزى أن قضاة الملك سوف يدينونه فأرسل إلى هنرى امتثالا ذليلا ، يعترف بفشله ويلتمس أن يتذكر الملك أيضاً خدماته وآيات ولائه . ثم غادر لندن فى نقالة مائية سارت فى نهر التيمس . وتلقى فى بوتنى رسالة رقيقة من الملك . وجثا على الطين فى شكر بائس وحمد الله . واستولى هنرى على المحتويات الثمينة فى قصر الكاردينال فى هويتهول إلا أنه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس أساقفة يورك وبأموال شخصية تكفى احتياجات ١٦٠ جوادا تجر ٧٢ عربة إلى مقره الأسقفى[٧٦]. وخلف الدوق نورفولك ولزى فى رئاسة الوزارة وخلفه مور فى منصب الحاجب (نوفمبر سنة ١٥٢٩) .

وأقبل الكاردينال الذى جرد من سلطانه ، على عمله ، كبير أساقفة ، فى ورع ومثالية ، وأخذ يزور أبرشياته بانتظام ويدبر ترميم الكنائس ،

ويعمل قاضيا موثوقا به للتحكيم . وتساءل رجل من يوركشاير : « من كان أقل نصيبا من الحب فى الشمال من مولاى الكاردينال قبل أن يعيش بينهم ؟ ومن كان محبوبا أكثر بعد أن عاش هناك فترة ما(٧٧) ؟ » بيد أن الطموح استيقظ فى أعماقه مرة أخرى وسكن روحه من الموت وكتب خطابات ليوستاس شابويس سفير الإمبراطور فى إنجلترا ، وضاعت هذه الخطابات ، بيد أن هناك تقريراً من شابويس إلى شارل ورد فيه : « لدى خطاب من طبيب الكاردينال يقول إن سيده . . رأى أن على البابا أن يمضى قدما فى إجراءات لوم أشد ويستدعى الجيش العلمانى(٧٨) » . أى الحرمان من غفران الكنيسة والغزو والحرب الأهلية .

وعلم نورفولك بهذه الرسائل المتبادلة وقبض على طبيب ولزى وانتزع منه ، بوسائل لم تعرف على وجه التحقيق ، اعترافا بأن الكردينال قد أشار على البابا بحرمان الملك من غفران الكنيسة . ولا نعرف هل كان السفير أو الدوق هو الذى أبلغ صدقا عن الطبيب ، أو هل كان الطبيب هو الذى أبلغ حقا عن الكاردينال ، وعلى أية حال فإن هنرى أو الدوق أمر بالقبض على ولزى .

واستسلم فى هدوء (٤ نوفمبر سنة ١٥٣٠) وودع أسرته وانطلق إلى لندن . وأصيب فى شفيلد بارك بدوسنطاريا شديدة ألزمته الفراش . وهناك أقبل جنود الملك يحملون أوامر باقتياده إلى البرج . واستأنف رحلته ، ولكن بعد مضى يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حارسه يسمح له بأن يلزم الفراش فى دير ليسيستر . وغمغم أمام ضابط الملك سير وليام كنجستون بالكلمات التى نقلها كافنديش واقتبسها شكسبير « لو أننى خدمت الله بإخلاص وجد كما خدمت الملك لما أسلمنى فى شيخوختى(٧٩) » . ومات ولزى بالغا من العمر خمسة وخمسين عاما فى دير ليسيستر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٥٣٠ .

الفصل الرابع والعشرون

هنرى الثامن وتوماس مور

١٥٢٩ — ٣٥

١ — برلمان الإصلاح الدينى

فى المجلس النيابى الذى اجتمع فى وستمنستر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٥٢٩ اتفقت الجماعتان الحاكمتان — النبلاء فى المجلس ، والتجار فى مجلس العموم على انتهاج ثلاثة ضروب من السياسة : تخفيض ثروة رجال الكنيسة وإضعاف سلطانهم ، والمحافظة على التجارة مع الفلاندرز وتأييد الملك فى حملته للحصول على وريث ذكر . ولم ينطو هذا الاتفاق على الرضا عن آن بولين التى كانت تواجه باستنكار عام باعتبارها مغامرة ، كما أنه لم يمنع وجود تعاطف عام مع كاترين[١] . أما الطبقات الدنيا ، وهى عاجزة من الناحية السياسية ، فكانت حتى ذلك الوقت لا توافق على الطلاق ، ووقفت المقاطعات الشمالية ، وهى كاثوليكية شديدة التحمس ، مع البابا[٢] فى إخلاص . وعمل هنرى على تهدئة هذه المعارضة مؤقتا بأن ظل محافظا فى كل شىء اللهم إلا حق البابوات فى الهيمنة على الكنيسة الإنجليزية .

وكانت الروح القومية ، وهى فى إنجلترا أقوى منها فى ألمانيا ، تقف فى تلك المسألة إلى جانب الملك ، وعلى الرغم من فزع رجال الدين من تصور أن يكون هنرى سيداً لهم فإنهم لم ينفروا من الاستقلال عن بابوية لا شبهة فى خضوعها لسلطة أجنبية .

ونشر سيمون فش حوالى عام ١٥١٨ كتيبا من ست صفحات ، قرأه هنرى ، دون أن يبدى احتجاجا فيما نعلم ، وقرأه كثيرون بابتهاج

صادق . وأطلق عليه اسم « ابتهال الشحاذين » وطالب الملك بمصادرة ثروة الكنيسة الإنجليزية كلها أو جانب منها :

« فى العهود الخوالى لأسلافك النبلاء (هناك) تسلل فى دهاء إلى مملكتك . . شحاذون وأفاقون مقدسون ومتبطلون . . أساقفة ورؤساء أديار وشمامسة ورؤساء شمامسة ومعاونو أساقفة وقساوسة ورهبان ورجال دين وكهنة رهبان وبائعو صكوك غفران ومحضرون . ومن يستطيع أن يحصى هذا الضرب المتبطل المخرب الذى (طرح كل عمل جانبا) ألح فى السؤال إلحاحاً شديداً إلى حد أنهم حصلوا فى أيديهم على أكثر من ثلث مملكتك بأسرها ؟ إن أعظم المقاطعات وأجمل الدور والأراضى والأقاليم ملك لهم . وكان لهم إلى جانب هذا عشر محصول الغلة والمراعى والمروج والكلأ والصوف والمهور والعجول والحملان والخنازير والأوز والدجاج . . . أي نعم وإنهم ليتطلعون فى حرص شديد إلى أرباحهم إلى حد أن الزوجات المسكينات لا بد وأن يكن مطالبات بأن يحسبن عشر كل بيضة وإلا فإن الزوجة لن تحصل على حقوقها فى عيد الفصح . . . ومن التى تشرع فى العمل مقابل ثلاثة بنسات فى اليوم إذا كان فى وسعها أن تحصل على عشرين بنسا على الأقل فى اليوم لقاء نومها ساعة مع أخ أو راهب أو قس(٣) ؟

ولعل النبلاء والتجار قد رأوا أن هناك شيئاً من المبالغة فى هذا الاتهام ، بيد أنهم اعتقدوا أنه يؤدى إلى نتيجة سارة — وهى إضفاء الصبغة العلمانية على أملاك الكنيسة . وكتب السفير الفرنسى جان دى بلاى « إن هؤلاء السادة ينتوون . . . اتهام الكنيسة والتهام كل أموالها ، ولا أكاد أجد نفسى فى حاجة إلى تسجيل هذا بالشفرة ، لأنهم يجهرون به صراحة ، وأتوقع ألا يحصل القساوسة أبدا على خاتم الدولة — أى لن يكونوا على رأس الحكومة أبدا ، مرة أخرى ، وأنهم سوف يتعرضون فى هذا المجلس

النيابى لمفازع هائلة(٤)» . وكان ولزى قد منع هذا الهجوم على أملاك الكنيسة ، بيد أن سقوطه ترك رجال للدين بلاحول لهم ولا طول ، اللهم إلا ما يتمتعون به من إيمان الناس ، وهو إيمان كان آخذاً فى التقلص ، ولعل السلطة البابوية التى كانت قمينة بأن تحميهم بهيبتها أو تحريمها أو بحلفائها كانت وقتذاك الهدف الرئيسى لسخط الملك وكرة القدم التى تتقاذفها السياسة الإمبراطورية ، وكان العرف يقتضى موافقة المجمع الاكليروسى لرؤساء أساقفة كنتربرى ويورك على كل تشريع يمس الكنيسة إنجلترا أو تأييده . فهل كان فى وسع هذا المجمع تخفيف سورة غضب الملك وكبح جماح الحركة المناهضة لرجال الدين فى المجلس النيابى ؟

وافتتح المعركة مجلس العموم . إذ وجه خطابا إلى الملك يقر فيه عقيدة المحافظين ، وإن انتقد رجال الدين بشدة . وهاجم « قرار الاتهام » المشهور المجمع الاكليروسى واتهمه بأنه سن القوانين ، دون الحصول على موافقة الملك أو المجلس النيابى ، التى تحدد حرية العلمانيين تحديداً خطيراً ، وتعرضهم لتعزير شديد ، وغرامات باهظة ، واتهم رجال الاكليروس بأنهم أعطوا صدقات لـ « جموع من الأحداث ، قالوا إنهم أبناء إخوتهم » على الرغم مما يتمتع به مثل هؤلاء المستفيدين من شباب أو جهل ، واتهم المحاكم الأسقفية بأنها استغلت فى جشع حقها فى فرض رسوم وغرامات ، وهذه المحاكم بأنها قبضت على أشخاص وسجنتهم دون أن تبين التهم الموجهة إليهم ، وأنها اتهمت العلمانيين وعاقبتهم عقابا شديداً لشبهة هرطقة طفيفة واختتمت الوثيقة بمطالبة الملك بإصلاح هذه العلل(٥)» ولا شك فى أن هنرى الذى كان على علم بأسرار تأليف هذا الخطاب قدم نقاطه الرئيسية إلى المجمع الاكليروسى وطلب منه الرد .

وأقر الأساقفة وجود بعض الظلم وعزوا هذا إلى أفراد ظهروا اتفاقاً ، وأكدوا تمسك محاكمهم بالعدالة ، وأنهم يتأسون بالملك الورع الذى زجر لوثر فى نبل عظيم ، لمساعدتهم على قمع الهرطقة ، ثم أخطأوا خطأ فظيعاً وأساءوا فهم المزاج الملكى فأضافوا كلمات كانت بمثابة إعلان للحرب .

ما دمنا نعلن ونتمسك بسلطتنا فى سن القوانين التى تستند إلى ما فى كتب الله المقدسة وما قررته الكنيسة المقدسة . . . فليس لنا أن نتخلى عن أعبائنا وواجباتنا ، التى أمرنا بها الله على وجه التأكيد ونتركها لرضاك السامى ، ومن ثم نلتمس من مراحمكم بكل خضوع . . . أن تحافظوا على هذه القوانين والشرائع وأن تدافعوا عنها مثلنا . . . وأن يعمل بتفويض من الرب إجلالا له تعالى على دعم الفضيلة والحفاظ على عقيدة المسيح[٦] »

وعلق موضوع النزاع . ولم يواجهه هنرى فى الحال . وكان أول ما اهتم به هو الحصول على موافقة المجلس النيابى على طلب عجيب – أن يعفى من سداد القروض التى قدمها له رعاياه(*) . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم وافقوا : وقدمت ثلاثة مشروعات أخرى بقوانين تستهدف كبح جماح سلطة رجال الاكليروس على الوصايا التى تم الإشهاد عليها وتقاضيهم رسوماً على الموتى واحتفاظهم بالصدقات المتعددة ، وحظيت هذه المشروعات بقوانين بموافقة أعضاء مجلس العموم ، وعارضها بشدة الأساقفة ورؤساء الأديار وأصحاب المقاعد فى مجلس اللوردات ، وقد عدلت ، ولكنها أصبحت فى جوهرها قوانين نافذة ، وتأجل انعقاد المجلس النيابى إلى يوم ١٧ ديسمبر .

وتلقى الملك إبان صيف عام ١٥٣٠ شيئا من التشجيع الغالى ، إذ اقترح توماس كرانمر ، أستاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج ، على هنرى ، أن تبدى

(*) ن' نخفاض قيمة العملة الآن يعفى الحكومات من الالتجاء إلى مثل هذه اللصوصية الشريفة .

الجامعات الكبرى فى أوربا رأيها فى موضوع هو هل كان فى وسع البابا أن يسمح لرجل بالزواج من أرملة شقيقه . وأعقب هذا الاقتراح مباراة مرحة فى التنافس على الرشوة : ونثر وكلاء هنرى المال للتحريض على إصدار أحكام سلبية ، ولجأ وكلاء شارل إلى المال أو التهديد للحصول على ردود إيجابية(٧) ، وانقسمت ردود الجامعات الإيطالية ، ورفضت الجامعات اللوثرية تقديم أى رد مريح للمدافع عن العقيدة ، بيد أن جامعة باريس ، تعرضت لضغط من فرانسيس(٨) فقدمت الرد العزيز المنشود الذى كان يتلهف عليه . ووافقت جامعتا أكسفورد وكامبردج ، بعد أن تسلمتا رسائل صارمة من الحكومة ، على حق الملك فى الحصول على قرار بطلان زواجه .

وعندما شعر بدعم مركزه إلى هذا الحد ، أصدر عن طريق وكيله العام (ديسمبر سنة ١٥٣٠) إعلانا بأن الحكومة تعتزم رفع دعاوى ضد كل رجال الاكليروس الذين اعترفوا بسلطة ولزى قاصدا رسوليا ، وعلى أساس أنهم خالفوا قانون الولاء للتاج . وعندما عاد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى للانعقاد (١٦ يناير سنة ١٥٣١) أعلن وكلاء الملك وهم سعداء أن الدعاوى سوف تسحب إذا اعترفوا بأنهم مذنبون ودفعوا غرامة قدرها ١١٨,٠٠٠ جنيه (١١,٨٠٠,٠٠٠ دولار ؟)(٩) . فاحتجوا بأنهم لم يرغبوا قط فى أن يكون لولزى مثل هذا السلطان وأنهم لم يعترفوا به قاصدا رسوليا إلا لأن الملك قد فعل هذا بتقديم التماسه للنظر أمام محكمة ولزى وكامبيجيو . وكانوا على حق كامل بالطبع ، بيد أن هنرى كان فى حاجة ماسة إلى المال . ووافقوا ، وهم يولولون ، على سداد المبلغ من موارد أبرشياتهم . واستخف الطرب الملك فطالب وقتذاك بأن يعترف به رجال الاكليروس « حاميا للكنيسة ورجال الدين فى انجلترا والرئيس الأعلى الوحيد لهم » أى أن ولاءهم للبابا لا بد أن ينتهى وعرضوا اثنتى عشرة مصالحة وجربوا اثنتى عشرة عبارة مبهمة ، وكان هنرى قاسيا لا يرحم ، وأصر على أن يردوا بكلمة « نعم »

أو « لا » . وأخيراً (١٠ فبراير سنة ١٥٣١) عرض رئيس الأساقفة واهرام ، وكان وقتذاك فى الحادية والثمانين ، فى تبرم ، إقرار صيغة الملك وأضاف إليها عبارة فيها تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وسكت المجلس الاكليروسى ، واعتبر السكوت رضا ، وأصبحت الصيغة قانونا . وهدأت ثائرة الملك ، فسمح عندئذ للأساقفة بمطاردة الهراطقة .

وتأجل اجتماع المجلس النيـــابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (٣٠ مارس سنة ١٥٣١) : وفى يوليو ترك هنرى كاترين فى وندسور على ألا يراها أبدا مرة أخرى ؛ وسرعان ما نقلت بعد ذلك إلى امبتهل بينما أقامت الأميرة مارى فى رتشموند وطالب هنرى بالجواهر التى كانت قد ارتدتها كاترين بصفتها ملكة وأعطاها لآن بولين[١٠] واحتج شارل الخامس لدى كليمنت الذى وجه خطابا قصيرا للملك (٢٥ يناير سنة ١٥٣٢) يؤنبه فيه لاقترافه الزنا ، ويحضه على طرد آن والاحتفاظ بكاترين ملكة شرعية إلى أن يصدر قراراً فى الالتماس المقدم منه لإعلان بطلان الزواج . وتجاهل هنرى التأنيب واستمر فى غرامه . وكتب حوالى هذا الوقت إحدى رسائله الرقيقة لآن :

حبيبة قلبى ، أكتب لك هذا لأعرب عن الوحدة التى أعيش فيها هنا منذ فراقك ، لأنى أؤكد لك أنى أرى الوقت قد أصبح منذ رحيلك أطول مما تعودت أن أراه مدى أسبوعين كاملين ، وأعتقد أن رقتك وحرارة حبى هما السبب . . ولكنى أفكر الآن وأنا قادم إليك ، وآلامى قد خف نصفها ، فى أن يتحقق أملى فى أمسية خاصة بين أحضان حبيبتى التى سوف أركن قريبا إلى نهديها الجميلين وأقبلهما . كتبته يد من كان ولا يزال لك وسوف تظل معك على الدوام بإرادته .

وعندما انعقد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (١٥ يناير سنة ١٥٣٢) حصل هنرى من المجالس الأربعة جميعاً على تشريع آخر مناهض لرجال الاكليروس ينص على : أن رجال الدين دون درجة مساعد شماس ، يجب أن يحاكموا أمام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى ، وأن الرسوم والغرامات التى تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب أن تخفض ، وأن الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبت من صحة الوصايا يجب أن تخفض أو تلغى ، وأن موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب ألا تدفع بعد ذلك للبابا وأن تحويل الأموال الإنجليزية إلى روما من أجل محللات وصكوك غفران وخدمات بابوية أخرى يجب أن يتوقف ، وأرسلت إشارة ماكرة إلى المجلس البابوى بأن موارد السنة الأولى للأسقف حديث التعيين سوف ترد إلى البابا إذا أعلن بطلان الزواج بكاترين .

وفى هذا الوقت انحازت غالبية من الأساقفة إلى الرأى القائل بأنهم لن يفقدوا شيئا من السلطة أو الدخل إذا استقلت الكنيسة الإنجليزية عن روما . وفى مارس سنة ١٥٣٢ أعلن المجلس الاكليروسى استعداده للانفصال عن البابوية : « هلا تفضلتم يا صاحب السمو بوقف أعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة . . . وإذا اتخذ البابا إجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين . . . فلتتفضلوا سموكم بسن قانون من المجلس النيابى الحالى بسحب طاعة سموكم والشعب للكرسى البابوى فى روما[١٢] » . وفى ١٥ مايو قدم المجلس الاكليروسى تعهداً للملك بتقديم كل تشريع تال له إلى لجنة — نصفها من العلمانيين والنصف الثانى من رجال الإكليروس — لها الحق فى الاعتراض على أى قوانين ترى أنها ضارة بالمملكة . وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا فى هذا « الإصلاح النيابى » الأسقفى وهذا المجلس الإكليروسى وأصبحت خضوعا للدولة وتابعة لها .

وفى ١٦ مايو استقال توماس مور من منصب الحجابة بعد أن فشل فى الوقوف أمام التيار المناهض لرجال الإكليروس وانسحب إلى بيته . ومات رئيس الأساقفة واهرام فى أغسطس بعد أن أملى وهو على فراش الموت رسالة أبدى فيها رفضه لخضوع المجلس الإكليروسى للملك . واستبدل هنرى بتوماس مور توماس أودلى ، وبواهرام ، توماس كرانمر . ومضت الثورة قدماً . وأجاز المجلس النيابى « قانون الاستئناف » ، وبمقتضاه كان كل نزاع أرسل سابقاً إلى روما للفصل فيه يحسم « فى المحاكم الروحية والزمنية داخل المملكة دون اعتبار ، لأى منع أو حرمان من غفران الكنيسة أو تحريم يصدر من جهة أجنبية(١٣) » .

وفى ١٥ يناير سنة ١٥٣٣ تزوج هنرى من آن التى كانت حاملا منه أربعة شهور(١٤). وكان لدى الملك وقتذاك أسباب ملحة لإعلان بطلان زواجه من كاترين ، ولما كان قد بعث بطلب آخر للبابا دون أن يؤدى إلى نتيجة ، فقد حصل من المجلس الإكليروسى على موافقة على « طلاقه » (إبريل سنة ١٥٣٣) وفى ٢٣ مايو أعلن كرانمر بصفته رئيس أساقفة كنتربرى أن الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل ، وفى يوم ٢٨ مايو أعلن أن آن زوجة شرعية لهنرى . وركبت آن بعد ثلاثة أيام وهى ترتدى الديباج وتتزين بالجواهر لكى تتوج ملكة لإنجلترا فى احتفال ملكى مهيب ، وضعت تصميمه التقاليد وهانز هولبين الصغير . ولاحظت وسط مظاهر الابتهاج صمت الجماهير الدال على الاستنكار ، ولعلها تساءلت إلى متى يحمل رأسها القلق التاج ؟

وأعلن البابا كليمنت بطلان الزواج الجديد ، وأن الأولاد الذين سيكونون ثمرة له غير شرعيين ، وحرم الملك من غفران الكنيسة (٢٢ يوليو سنة ١٥٣٣)

وولدت اليزابث يوم ٧ سبتمبر وأبلغ سفير شارل مولاه أن حظية الملك أنجبت ابنة سفاح[١٥] .

واستأنف المجلس النيابى ، الذى كان قد أجل يوم ٤ مايو جلساته فى ١٥ يناير سنة ١٥٣٤ . وكانت موارد الأساقفة الجدد فى السنة الأولى والموارد البابوية الأخرى قد خصصت نهائياً وقتذاك للتاج ، وأصبح تعيين الأساقفة امتيازاً للملك من الناحية القانونية ، كما جرى العمل به فعلا . ونقلت دعاوى الاتهام بالهرطقة من القضاء الكنسى إلى القضاء المدنى .

وفى عام ١٥٣٣ أذاعت اليزابث بارتون وهى راهبة من كنت أنها تلقت أوامر من الرب بإدانة الزواج الثانى للملك ، وأنها قد سمح لها برؤية المكان الذى يعد لاستقبال هنرى فى الجحيم . وعرضتها المحكمة الملكية لاختبار قاس ، وانتزعت منها اعترافاً بأن رؤاها الإلهية كانت إفكاً وخداعاً ، وأنها سمحت لآخرين باستخدامها فى مؤامرة للإطاحة بالملك[١٦] . وحوكمت هى وستة « شركاء فى الجريمة » أمام مجلس اللوردات وقضى عليهم بالإدانة ، ونفذ فيهم حكم الإعدام (٥ مايو سنة ١٥٣٤) ، واتهم الأسقف فيشر بأنه علم بالمؤامرة وتقاعس عن تحذير الحكومة ، واتهم أيضاً بأنه كان هو وكاترين مطلعين على أسرار خطة وضعها شابويس ولم يشجعها شارل ، لغزو إنجلترا فى الوقت الذى يقوم فيه أنصار كاترين بالتمرد[١٧] . وأنكر فيشر التهم الموجهة إليه ، ولكنه ظل موضع الاشتباه بالخيانة .

وكان توماس كرومويل أشد وكلاء هنرى العدوانيين فى هذه الأمور . وقد ولد عام ١٤٨٥ ، وهو ابن حداد من بوتنى ، ونشأ فى فقر ومسغبة ، ومضى يضرب سنوات فى أرض فرنسا وإيطاليا أفاقاً بالفعل ، وعاد إلى انجلترا واشتغل بصناعة النسيج وأصبح مرابياً وكون ثروة ، وخدم ولزى بإخلاص خمس سنوات ، ودافع عنه فى أيام البؤس ، واكتسب احترام

هنرى بسبب صناعته وولائه . وعين على التوالى حاجباً لخزانة الدولة وأميناً للسجلات وكاتم سر للملك (مايو سنة ١٥٣٤) ، وكان فى الفترة من عامى ١٥٣١ و ١٥٤٠ المدبر الأكبر لشئون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً للإرادة الملكية ، واتهمه أعداؤه الأرستقراطيون ، الذين احتقروه بوصفه حديث نعمة يرمز لخصومهم الصاعدين ، رجال الأعمال ، بأنه يطبق مبادئ « أمير » مكيافلى ، بقبول الرشا وبيع المناصب وحب الثروة والسلطان حباً يجاوز الحدود . وكان هدفه ، الذى سعى جاهداً لإخفائه ، هو أن يجعل الملك صاحب الكلمة العليا كل مجال من مجالات الحياة الإنجليزية ، وأن يمول ملكية مطلقة بثروة الكنيسة المصادرة ، وأظهر فى سعيه لتحقيق أغراضه مقدرة تامة لا تعرف تأنيب الضمير ، وضاعف ثروته ، وكسب كل معركة خاضها ما عدا الأخيرة ، والراجح أن هنرى ، وقد أزعجه تزايد عداء الشعب له ، استدرج المجلس النيابى ، بناء على اقتراحه وعن طريق احتياله ، إلى الموافقة على قانون وراثة العرش (٣٠ مارس سنة ١٥٣٤) الذى أعلن أن الزواج بكاترين غير صحيح ،وحول مارى إلى ابنة سفاح ، وعين اليزابث وريثة للعرش إلا إذا أنجبت آن ولداً ، ونص على أن أى شخص يجادل فى صحة زواج آن بهنرى يستحق أقصى عقاب . وقضى القانون بأن يحلف جميع الإنجليز رجالا ونساء يمينا بالولاء للملك . وأخـــذ مندوبون للملك يؤازرهم جنود ، يخترقون البلاد راكبين ، ودخلوا البيوت والقصور وأديار الرهبان وأديار الراهبات ، وانتزعوا اليمين كرها . ولم يرفض حلف اليمين إلا قلة ضئيلة من بينهم الأسقف فيشر وتوماس مور : وعرضوا أن يحلفوا على ما جاء بشأن وراثة العرش على ألا يقسموا على باقى ما تضمنه القانون . وحكم عليهم بالسجن فى البرج . وصوت المجلس النيابى آخر الأمر على قانون السيادة الحاسم (١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٤) ، وأكد هذا القانون سيادة الملك على الكنيسة والدولة فى انجلترا ، وعمد الكنيسة الوطنية الجديدة باسم الكنيسة

الانجليكانية ، وخول الملك كل هذه السلطات على الأخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والإصلاح الكنسى ،وكانت حتى وقتذاك من اختصاص الكنيسة . ونص القانون على أن المرء يرتكب جريمة الخيانة إذا تحدث عن الملك أو كتب عنه أنه مغتصب أو طاغية أو انقسامى أو هرطيق أو كافر . وطلب من جميع الأساقفة أن يحلفوا يمينا جديدة بأنهم يقبلون سيادة الملك المدنية والكنسية دون تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وأنهم لن يرضوا أبداً فى المستقبل باستئناف السلطة البابوية فى إنجلترا . وانتشرت كل قوات الحكومة لشل حركة المعارضة لهذه المراسيم ، التى لم يسبق لها مثيل . وتظاهر رجال الإكليروس العلمانيون بالخنوع شيئاً فشيئاً ، وأحجم كثير من الرهبان والإخوان الرهبان عن حلف الأيمان ، نظراً لولائهم للبابا ، وأسهمت مقاومتهم فى اتخاذ الملك قراره الأخير بإغلاق الأديار .

وأحنق عناد الإخوة الرهبان فى تشارنر هاوس ، وهو دير كارتوزى لندن ، هــنرى وكرومويل بخاصة . وجاء ثلاثة من رؤساء الأديار الكارتوزيين إلى كرومويل ليقدموا له إيضاحاً عن إحجامهم عن الاعتراف بأى علمانى رئيساً للكنيسة فى إنجلترا ، فبعث بهم كرومويل إلى سجن البرج . وفى يوم ٢٦ ابريل سنة ١٥٣٥ حوكموا هم وراهب آخر وقسيس علمانى أمام قضاة الملك الذين كانوا يميلون إلى الصفح عنهم ، غير أن كرومويل خشى أن يشجع الرفق على المزيد من المقاومة ، فطالب بقرار بالإدانة وأذعن القضاة .

وفى يوم ٣ مايو جر الرجال الخمسة وكانوا لا يزالون يرفضون قبول قانون السيادة على زحافات إلى تيبرن وعلقوا واحداً وراء الآخر وأسقطوا بقطع الحبال وهم أحياء وقطعوا إرباً(١٨) وعلقت ذراع مبتورة على مدخل عقد تشارتر هاوس لتلقين الرهبان الباقين درساً ، ولكن أحــداً منهم لم

يتراجع عن رفضه . وسجن ثلاثة فى البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول أعناقهم وأقدامهم ، وأكرهوا على الوقوف فى هذا الوضع سبعة عشر يوماً . وقدم إليهم الطعام ، ولكن لم يفك وثاقهم لقضاء أى حاجة طبيعية . أما باقى الرهبان الكارتوزيين ، وكانوا لا يزالون يبدون عناداً ومشاكسة فقد تشتتوا فى أديار أخرى ما عدا عشرة منهم ، سجنوا فى نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء من «حمى السجن وقذره[١٩]» .

وكان هنرى وقتذاك هو الحكم الوحيد فيما يتعين على الشعب الإنجليزى أن يؤمن به فى مجالى الدين والسياسة . ولما كان لاهوته لا يزال كاثوليكياً من كل وجه فيما عدا السلطة البابوية فقد اتخذ مبدأ مطاردة النقاد البروتستانت للمذهب الكاثوليكى بغير تحيز ، والنقاد الكثالكة لسيادته الكنسية ، والحق أن مطاردة الهراطقة قد استمرت وظلت طوال مدة حكمه . وفى عام ١٥٣١ أحرق توماس بلنى بأمر أصدره الحاجب توماس مور ، لأنه انتقد الصور الدينية ، ورحلات الحج والصلوات من أجل الميت . وقبض على جيمس بينهام لأنه اعتبر أن المسيح لا يكون حاضراً فى القربان المقدس إلا بروحه فعذب لكى ينتزع منه أسماء هراطقة آخرين ، وتشبث بما قال وأحرق فى سمثفيلد فى ابريل عام ١٥٣٢ . وأحرق آخران فى ذلك العام وعرض أسقف لندن أن يمنح فى خلال أربعين يوماً صك غفران للمسيحيين الصالحين الذين يحملون حزمة من الحطب لتغذية النار[٢٠] .

ووصل عهد الإرهاب إلى ذروته فى اضطهاد فيشر ومور ، وقد وصف إرازاموس أسقف روشيستر بأنه « شخص مثقل بكل فضيلة[٢١] » بيد أن فيشر نفسه كان قد اقترف ذنب الاضطهاد ، وقد انضم إلى السفير الأسبانى فى حث شارل على غزو إنجلترا وخلع هنرى[٢٢] . وقد اقترف فى نظر القانون جريمة خيانة الدولة ، وهو أمر لم يشفع له عندما احتج بأنه كان مخلصاً للكنيسة . وارتكب الحبر الأعظم الجديد ، بولس الثالث خطأ بتعيين

الأسقف المسجون كاردينالا ، وعلى الرغم من أن فيشر أعلن إنه لم يسع إلى هذا الشرف ، فإن هنرى رأى وقتذاك فى هذا التعيين تحدياً له . وفى ١٧ يونيه سنة ١٥٣٥ قدم الأسقف ، وكان وقتذاك فى عامه الثمانين ، إلى محاكمة أخيرة ورفض مرة أخرى أن يوقع على قسم يعترف فيه بهنرى رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، واقتيد فى ٢٢ يونية إلى كتلة على تل تاور . ووصفه شاهد عيان بأنه « جسد طويل أعجف ، لا شيء فيه سوى الجلد والعظام ، إلى حد أن معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لا يزال فيه رمق من حياة ، على الرغم من بلوغه هذا الحد من الوهن[٢٣] » .

وتلقى وهو على منصة المقصلة عرضا بالعفو عنه إذا حلف اليمين فرفض وعلق رأسه المقطوع فوق جسر لندن . وقال هنرى : فى وسعه أن يذهب الآن ، إذا استطاع ، إلى روما ويحصل على قلنسوة الكاردينال[٢٤] » .

ومع ذلك فقد بقى هناك مكابر عنيد أشد مراساً .

٢ — مؤلف المدينة الفاضلة

كان والد توماس مور محامياً ناجحاً وقاضياً بارزاً . وتلقى توماس تعليمه فى مدرسة سانت أنطونى بلندن ، وعمل وصيفاً لرئيس الأساقفة مورتون ، وكان لهذا الفضل فى تثبيت عقيدته المحافظة وتكامله وتقواة المرحة . وتنبأ مورتون ، كما يقال لنا ، بأن « هذا الطفل الذى يخدم هنا على المائدة ... سوف يثبت أنه رجل عجيب[٢٥] » . وذهب الشاب إلى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وسرعان ما فتن بالأدب الكلاسى إلى درجة حملت والد الشاب على انتزاعه من الجامعة ، لإنقاذه من أن يصبح أديبا خاوى الوفاض وبعث به لدراسة القانون فى لندن ، وكانت أكسفورد وكامبردج لا تزالان تستهدفان إعداد الطلاب للعمل فى سلك الكهنوت . وكانت كلية

نيو إن وكلية لنكولن إن(*) تدريبان الرجال الذين كانوا وقتذاك يشرفون من بين رجال الاكليروس على الحكومة فى انجلترا، ولم يتلق من أعضاء مجلس العموم تعليما جامعيا سوى ثمانية أعضاء بينما كانت هناك نسبة مرتفعة من المحامين ورجال الأعمال .

وفى عام ١٤٩٩ التقى مور ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره ، بإرازموس وافتتن بالمذهب الإنسانى . وتعد صداقتهما من أطيب العطور شذى فى ذلك العصر . فقد وهب كلاهما مرحاً بقدرما ، وجعلا لدراستهما طعماً مستساغاً بالهجو الضاحك . وكانا يشتركان فى كراهية الفلسفة الكلامية التى قال مور إن ما تنطوى عليه من خبث فى التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازى ما يكسبه من حلب تيس فى غربال(٣٦). وكانا يأملان فى إصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك أواصر الوحدة الدينية والتواصل التاريخى . ولم يكن مور نداً لإرازموس فى العلم أو التسامح ، والحق أن رقته المألوفة وكرمه كان يشوبهما فى بعض الأوقات تطرف فى الدين ، وكان فى الجدل ينحنى بين آن وآخر مثل كل معاصريه ، ليوجه لخصومه طعنا شديداً مريراً(٣٧) . ولكنه كان يفوق إرازموس فى الشجاعة والإحساس بالكرامة والإخلاص لقضية . ولا شك أن الرسائل التى تبادلاها تعد شاهداً ثمينا على أفضال عصر فظ . فهناك رسالة لمور يقول فى ختامها « وداعا يا إرازموس الحبيب يا من هو أعز على من عينى(٣٨) » .

وكان من أعظم رجال الدين فى القرن الذى عاش فيه ، أخزى بتقواه — العلمانية تهافت رجال الكهنوت من أمثال ولزى على الدنيا . وفى الثالثة والعشرين عندما تبحر فى دراسة القانون فكر فى أن يصبح قسا . وألقى

(*) كليتان لدراسة الحقوق على النظام الداخلى أشبه بنظام « الرواق » فى الأزهر الشريف — المترجم .

محاضرات عامة (١٥٠١) عن مدينة الرب التى بشر بها أوغسطين ، وجلس بين مستمعيه علماء نحارير أكبر منه سنا مثل جروسين .

وعلى الرغم من انتقاده الرهبان لتقاعسهم عن الامتثال لما يفرضه عليهم نظامهم فإنه أعجب إعجاباً شديداً بنظام الدير المخلص ، وأسف أحياناً لأنه لم يختر هذا النظام، وظل وقتا طويلا يرتدى قميصا من شعر الخيل لا يلبس تحته شيئا، وكان بين آن وآخر يسحب منه دما يكفى لتلطيخ ثيابه ببقع من الدماء ترى بوضوح . وكان يؤمن بالمعجزات ويصدق قصص القديسين والمخلفات التى تستخدم للعلاج والصور الدينية ورحلات الحج(٢٩) وكتب مصنفات ولائية لها نغمة القرون الوسطى. أن الحياة سجن وأن الهدف من الدين والفلسفة تهيئة نفوسنا للموت ، وتزوج مرتين وأنجب عدة أطفال أنشأهم على حب نظام مسيحى يتسم بالوقار والانشراح فى آن واحد ، وتصحبه صلاة متكررة وحب متبادل وإتكال كامل على العناية الإلهية . وكانت « دار مانور » فى تشلسى التى انتقل إليها فى عام ١٥٢٣ مشهورة بمكتبتها وصالة العرض فيها وحدائقها الممتدة إلى مائة ياردة إلى نهر التامز .

واختير وهو فى السادسة والعشرين من عمره (١٥٠٤) نائباً بوصفه مواطناً حراً فى المجلس النيابى . وهناك ناقش بنجاح ضد إجراء اقترحه هنرى السابع مما دفع الملك إلى أن يسجن مور الكبير فترة قصيرة . ويفرض غرامة باهظة كوسيلة منحرفة لتلقين الخطيب الشاب درساً فى مواساة المواءمة .

وعند إغلاق ذلك المجلس النيابى عاد مور إلى الحياة الخاصة ونجح فى مزاولة القانون . وأقنع عام ١٥٠٩ بتولى منصب مساعد المشرف فى المدينة، أى فى لندن القديمة شمالى نهر التيمس . وكان مكلفا بتبعات تتفق ومزاجه ، وهى وظائف لها صيغة قانونية أكثر مما تتسم بالمخاطرة . وأكسبته أحكامه

شهرة واسعة ، لما اتسمت به من حكمة وعدم تحيز ، وخالف برفضه المهذب للهدايا من المتخاصمين ، سوابق العهد الشائنة التي كانت لا تزال في عنفوانها أيام فرانسيس بيكون . وسرعان ما عاد إلى المجلس النيابي وما إن حل عام ١٥١٥ حتى كان خطيب مجلس العموم .

ووصف إرازموس في خطاب بعث به إلى هوتن مور (٢٣ يولية ١٥١٧) ، بأنه متوسط القامة له بشرة شاحبة وشعر أصحم لا يهتم بالملبس أو المظهر زاهد في الطعام والشراب ، منشرح سريع النكتة حاضر الابتسامة ، يميل إلى الدعابات والخدع ويحتفظ في بيته بمهرج وقرد وكثير من الحيوانات المدللة الصغيرة ، « وكانت كل الطيور في تشلزيا تأتي إليه ليطعمها » . وكان زوجا مخلصا وأبا محبا يعبد أولاده وخطيبا مقنعا ومستشارا أصيل الرأي ورجلا شديد الحرص على البر وخدمات الأصدقاء — واختتم هذا الرسم التمهيدي الذي يدل على الوله به بأنه « باختصار ماذا خلقت الطبيعة ألطف وأحلى وأسعد من عبقرية توماس مور(٣٠) ؟ » .

ووجد أمامه متسعا من الوقت لتأليف كتب وبدأ بكتاب « تاريخ رتشارد الثالث » ، ولكن نزعته كانت حادة ضد الحكم المطلق ، وكان يجلس على العرش حاكم مطلق ، ورأى أن من الفطنة أن يتجنب قضاء الكامة المطبوعة : ونشر بعد وفاته وكتب شكسبير مسرحية تقوم عليه ، ولعل السيرة الذاتية التي أذاعتها الدراما تحمل بعض المسئولية عن الخلق الذي يحمله رتشارد ، وفي عام ١٥١٦ طرح مور باللاتينية ، كما لو كان يقوم بدعابة ، كتابا من أشهر الكتب بأسرها ، مبدعاً كلمة ، وواضعا سابقة مقدما على خطوة للمدن الفاضلة الحديثة ومتوقعا نصف الاشتراكية ، ومعبرا عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة في إنجلترا إلى حد أنه تسلح من جديد بالإقدام بعد التروي ونشر المجلد في الخارج ست طبعات لاتينية قبل أن يسمح بطبعه

باللاتينية كذلك فى إنجلترا ؛ واعترف بأنه كتبه للتسلية دون أن يقصد نشره على الجمهور بيد أنه شكر إرازموس لاطلاعه عليه فى المطبعة بلوفان[٣١] وترجم إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تظهر النسخة الإنجليزية (١٥٥١) بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً . وما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث القارة .

وأطلق عليه مور اسم « ليس فى موضع » ولا نعرف من خطر له ذلك الخاطر السعيد بتغيير هذا العنوان وسط الطباعة إلى المرادف اليونانى يوتوبيا أو المدينة الفاضلة[٣٢] وتم إخراج الحكاية بصورة بارعة جداً دفعت كثيراً من القراء إلى الاعتقاد بأنها قصة حقيقية ويقال إن مبشراً دينياً قد فكر فى السفر وتحويل سكان المدينة الفاضلة إلى المسيحية[٣٣]. وكان هنرى الثامن قد أرسل مور سفيراً إلى بروجس (١٥١٥) ومن هناك انتقل إلى أنتورب برسالة قدمه فيها إرازموس إلى بيتر جيلس كاتب المدينة . وادعت المقدمة أن جيلس قد قدم مور إلى ملاح برتغالى له لحية ، لوحت بشرته تقلبات الطقس ، يدعى رافاييل هيثلوداى ، وترادف باليونانية « ماهر فى الهذر » كان قد سافر بحراً مع أمريجو فسبوتشى عام ١٥٠٤، ودار حول الكرة الأرضية (ست سنوات قبل رحلة ماجلان) ، وزار فى العالم الجديد ، جزيرة سعيدة حل سكانها معظم المشكلات التى كانت تعانى منها أوروبا فى ذلك العهد . وجعلت طبعة لوفان للسخرية أكثر تقبلا بأن بدأت بحفر الخشب للجزيرة وعينة من لغة المدينة الفاضلة ؛ ولم يكشف المؤامرة إلا هفوة واحـــدة : فهيتلد واى يميل إلى الثناء على رئيس الأساقفة مورتون بكلمات[٣٤] أقرب إلى فطرة مور التى تعترف بالجميل من تجربة الملاح .

ويصف ماجلان الوهمى شيوعية سكان الجزيرة بقوله : « لما كان كل شىء على المشاع ، بين سكان المدينة الفاضلة فإن كل شىء متوفر لدى كل

إنسان . وأنا أقارن بينهم وبين كثير من الأمم . . . حيث يقول كل إنسان إن كل ما قد حصل عليه ملك خاص له وإنه أموال خاصة . وأنا أستمسك جيدا بما قاله أفلاطون . . . إن كل الناس يجب أن يحصلوا ويتمتعوا بحصص متساوية من الثروة والأمتعة . . . لأنه حيث ينتزع كل إنسان ، يتخذ ألقابا معينة ويتمسك بادعاءات ما ، ويختطف أكبر قدر يستطيع الحصول عليه بحيث نجد أن قلة هى التى تتقاسم فيما بينها كل الثروات فلن يترك للباقين سوى العوز والفاقة(٣٥) .

وكل إنسان فى المدينة الفاضلة يأخذ إنتاجه إلى المخزن العام ويتسلم منه حسب ما تتطلبه احتياجاته . ولا أحد يطلب أكثر مما يكفيه لأن الأمان من الحاجة يصده عن الجشع . ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ولكن للمرء أن يأكل فى بيته إذا شاء . وليس فى المدينة الفاضلة عملة ولا شراء بثمن رخيص ولا بيع بثمن غال ، وآفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية غير معروفة . ولا يستخدم الذهب بوصفه عملة ، ولكن لصناعة أشياء نافعة مثل الأوانى التى نقضى فيها الحاجة . وهى لا تعرف المجاعات أو السنوات العجاف ،لأن المخازن العامة تحتفظ باحتياطى للطوارئ . وكل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء . ولكى يتحقق إنتاج مناسب لا بد أن يعمل كل بالغ ست ساعات يوميا ، ويتحدد اختيار المهنة باحتياجات الجماعة . وسكان المدينة الفاضلة أحرار بمعنى الحرية من الجوع والخوف ، ولكنهم ليسوا أحرارا فى أن يعيشوا على حساب الآخرين . وفى المدينة الفاضلة قوانين بيد أنها بسيطة وقليلة ، ومن ثم ينتظر من كل إنسان أن يدافع عن قضيته ولا حاجة لوجود محامين . ويحكم على الذين يخالفون القانون بالعمل عبيدا للجماعة ، ويقومون بأداء المهام الكريهة ، ولكنهم يستعيدون المساواة الكاملة بأقرانهم بعد انتهاء دورهم . أما الذين يكدرون صفو الأمن تكديرا خطيرا فيحكم عليهم بالإعدام فى بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع فى المدينة الفاضلة هى الأسرة الأبوية « والزوجات يهيمن على أزواجهن، والأولاد ينسبون لآبائهم(٣٦) » . والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد الذى يسمح به فى مجال الارتباط الجنسى .

وقبل الزواج ينصح الخطيبان بأن برى أحدهما الآخر وهو مجرد من الملابس، حتى يكتشف العيوب الجسمانية فى حينه، وإذا بلغت درجة كبيرة من الجسامة فإن العقد قد يلغى . وتذهب الزوجة لتعيش مع زوجها فى دار والده بعد الزواج ويسمح بالطلاق بسبب الزنا أو برضى الطرفين بشرط موافقة مجلس الجماعة . وتختار كل ثلاثين أسرة زعيم قبيلة كل عام ليحكمها ويختار كل عشرة من زعماء القبائل رئيساً لإدارة مقاطعة بها ٣٠٠ أسرة . ويكون المائتا زعيم للقبائل مجلساً قومياً ينتخب أميرا أو ملكا مدى الحياة .

ومن التبعات الأساسية الملقاة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة بتزويدها بالمـــاء النظيف واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الصحة العامة وتوفير العناية الطبية والعلاج بالمستشفيات لأن الصحة أهم النعم على الأرض . وينظم الحكام التعليم للأطفال والكبار ويهتمون اهتماماً شديدا بالتدريب المهنى ويؤيدون العلم ولا يشجعون التنجيم وقراءة الطالع والخرافة . ولهم أن يشنوا الحرب على الشعوب الأخرى إذا رأوا أن هذا يقتضيه صالح الجماعة . « إنهم يعتبرون أن أعدل سبب للحرب يتوفر عند ما يحتفظ أى شعب بقطعة من الأرض فضاء ولا تستغل بأى صورة نافعة أو مربحة، ويمنع الآخرين من الاستفادة منها أو حيازتها ، وهم بحكم قانون الطبيعة يجب أن يطعموا ويفرج عنهم(٣٧)(هل كان هذا دفاعا عن استعمار أمريكا ؟) . بيد أن سكان المدينة الفاضلة لا يمجدون الحرب » إنهم يكرهونها باعتبارها عملا وحشياً واضحاً ، ومناقضاً لشعور كل أمة أخرى تقريبا . ويرون أنه لا شىء أكثر خسة وتفاهة من المجد المستمد من الحرب(٣٨) » .

والدين فى المدينة الفاضلة لا يكاد يكون حراً تماما . وتعامل بالتسامح

أى عقيدة، اللهم إلا الإلحاد وإنكار خلود الإنسان، وفى وسع ساكن المدينة الفاضلة إذا شاء أن يعبد الشمس أو القمر . ولكن الذين يلجأون إلى العنف فى العمل أو الكلام عن أى دين معترف به يقبض عليهم ويعاقبون لأن القوانين تستهدف منع النزاع الدينى(٣٩) . والذين ينكرون الخلود لا يعاقبون بل يبعدون عن الوظيفة ويحرم عليهم إبداء آرائهم لأى إنسان اللهم إلا للقساوسة و « أصحاب الشأن » . وإلا « فإنه يباح لكل إنسان أن يؤثر ويتبع أى دين يشاء . . . ويستطيع أن يبذل كل جهده لإقناع آخر برأيه ما دام يفعل هذا سلميا وفى رصانة ، وفى غير ما عجالة وبلا زجر أو قدح يصدران عن نزاع ضد الآخرين(٤٠)» . ومن ثم فإن فى المدينة الفاضلة عدة أديان بيد أن « أعظم وأحكم دور . . . هو الإيمان بوجود قوة إلهية معروفة ، دائمة ، لا تدرك ولا تفسر ، أعظم من أن يدركها عقل الإنسان ومقدرته ، متفرقة فى أنحاء العالم(٤١)» . والرهبانية مسموح بها بشرط أن يشغل الرهبان أنفسهم بأعمال البر والمنفعة العامة ، مثل إصلاح الطرق والجسور وتطهير الخنادق وقطع الأخشاب والعمل خدما بل ورقيقا ، وفى وسعهم أن يتزوجوا إذا رغبوا . وهناك قساوسة ، ولكنهم يتزوجون أيضاً . وتعتبر الدولة أن أول وآخر كل شهر وكل عام بمثابة أعياد دينية ، ولكن فى تأدية الاحتفالات الدينية فى هذه العطلات ، « لا يرى تمثال أى إله فى الكنيسة » ، ولا تؤدي صلوات ، ولكن فى وسع كل إنسان أن يتلو صلاة ما فى جرأة دون أن يسيء إلى أى طائفة(٤٢)» . وفى كل يوم من هذه العطلات تسجد الزوجات والأطفال أمام أزواجهن أو آبائهم، ويطلبون الصفح عن أى ذنب قد اقترفته أو أى واجب يكونون قد أخلوا به ، ولا يسمح لأحد بالحضور إلى الكنيسة إلا بعد أن يسود الوئام والسلام بينه وبين عدوه . وهذه لمسة مسيحية ، ولكن إنسانية مور الفتية تبدو فى قبوله الجزئى لوجهة النظر اليونانية عن الانتحار . إذا عانى إنسان من مرض عضال غير قابل للشفاء ، فإنه

يسمح له ويشجع على إنهاء حياته . أما فى الحالات الأخرى فإن مور يعتقد أن الانتحار جبن ، ويروى « أن الجثة يجب أن تلقى دون دفن فى مستنقع نتن[٤٣] » .

ولا نعرف كم من هذه يمثل النتائج التى توصل إليها مور بعد ترو ، وكم منها كان من تفكير إرازموس ، وكم منها كان من وحى ألاعيب الخيال . وعلى أية حال فإن السياسى الشاب أبعد نفسه فى حرص عن اشتراكية سكان المدينة الفاضلة ، وهو يتمثل نفسه بقول لهيثلوداى : « أرى أن كل الناس لن يعيشوا فى ثراء حيث تكون كل الأشياء على المشاع . لأنه كيف تكون هناك وفرة فى السلع . . حيث نجد أن نظرة الإنسان إلى مكاسبه الشخصية لا تدفعه إلى العمل ، ولكن الأمل يراوده فى أن يجد فى عناء الآخرين ما يجعله ينعم بالكسل . لا يمكن أن تكون كل الأمور على ما يرام ، ما لم يكن كل الناس صالحين ، وهو ما أعتقد أنه لن يحدث فى هذه السنين العديدة الطويلة[٤٤] » . ومع ذلك فإن بعض التعاطف على ضروب الحنين المتطرفة لا بد أن يكون قد استلهم بصورة كبيرة المثال الشيوعى . وثمة صفحات أخرى فى المدينة الفاضلة تنتقد فى غضب قسوة استغلال الأغنياء للفقراء . وفيها تنديد بإحاطة اللوردات الإنجليز لبعض الأراضى العامة بسياج ، وذلك بصورة مفصلة وروح لا يتوقعان فيما يبدو ، من أجنبى . ويقول هيثلوداى لمور : « إن الطمع الجائر للقلة قد تحول إلى الخراب التام لجزيرتك . إن هؤلاء الأغنياء لا يطيقون إلا أن يشتروا كل شىء ليتلهوا ويستأثروا بكل شىء ويتحكموا فى السوق وحدهم كما يشاءون باحتكارهم[٤٥] » . وعندما أفكر وأزن بعقلى كل هذه الحكومات التى تزدهر الآن فى كل مكان فإنى لا أفهم — وليساعدنى الله — إلا أن هناك مؤامرة ، يدبرها الأغنياء لترويج سلعهم باسم الجمهور . إنهم يخترعون ويتوسلون بكل الوسائل والخدع . .

كيف يستأجرون ، . ويتعسفون . . . فى جهد الفقراء مقابل مبلغ صغير بقدر الإمكان . . . وهذه الحيل تؤدى إلى سن القوانين (٤٦) .

وهذا يكاد يكون صوت كارل ماركس يحرك العالم من سفح فضاء فى المتحف البريطانى ، ولا شك أن المدينة الفاضلة هى أقوى ضروب الاتهام وأولها للنظام الاقتصادى الذى استمر فى أوروبا الحديثة حتى القرن العشرين ، وإنها سوف تظل معاصرة مثل اقتصاد يسير وفق خطة معينة ومثل رفاهية الدولة أيضاً .

٣ — الشهيد

كيف تأتى لرجل تعج فى رأسه مثل هذه الأفكار أن يعين فى مجلس هنرى الثامن فى السنة التالية لنشر كتاب المدينة الفاضلة ؟ الراجح أن الملك على الرغم مما اشتهر به من علم ، لم يستطع أن يتحمل قراءة الكتاب باللاتينية ومات قبل أن ينشر بالإنجليزية . واحتفظ مور بخواطره المتطرفة لأصدقائه . وعرفه هنرى مزيجاً نادراً من المقدرة والكمال ، وقدّره باعتباره صلة وثيقة بينه وبين مجلس العموم ، ونصبه فارساً وعينه وكيلا للخزانة (١٥٢١) ، وعهد إليه بمهام دبلوماسية دقيقة .

وعارض مور السياسة الخارجية التى انتهجها ولزى وقاد بها إنجلترا للحرب مع شارل الخامس ، إذ أن الإمبراطور فى نظر مور لم يكن داهية خطيراً فحسب ، بل كان أيضاً البطل المدافع عن العالم المسيحى ضد الأتراك . وعندما سقط ولزى نسى مور حتى وقتذاك أخلاقياته ليراجع — فى المجلس النيابى — زلاته وأخطاءه التى أدت إلى السقوط . وكان ، بصفته زعيما للمعارضة ، الخليفة المنطقى لاكاردينال ، وظل يعمل رئيساً لوزراء (حاجباً) إنجلترا واحداً وثلاثين شهراً .

ولكن الملك كان الخليفة الحقيقي لولزى . فقد اكتشف هـنرى قوته ومقدرته وقال إنه قرر أنه يحرر نفسه من بابوية تكن له العداوة وتقف فى طريقه وأن يسبغ صفة الشرعية على زواجه بامرأة أحبها وتستطيع أن تنجب له وريثاً للعرش .

ووجد مور نفسه لا يوجه السياسة بل يخدم الأهداف التى تسير فى اتجاه مضاد لأعمق مشاعر الولاء التى يطويها بين جوانحه . وواسى نفسه بتأليف كتب ضد اللاهوت البروتستانتى وبمطاردة زعماء البروتستانت . واتفق فى كتاب حوار يتعلق بالهرطقة (١٥٢٨) وفى كتب متأخرة ، مع فرديناند الثانى وكالفن والأمراء اللوثريين على ضرورة الوحدة الدينية لتحقيق القوة والسلام القوميين . وخشى انقسام الإنجليز إلى اثنتى عشرة أو مائة طائفة دينية . ومع أنه كان قد دافع عن ترجمة إرازموس للعهد الجديد إلى اللاتينية فإنه احتج ضد نسخة تندال الإنجليزية باعتبارها تحريفاً للنص بصورة تثبت وجهات النظر اللوثرية ، وشعر بأن ترجمات الكتاب المقدس يجب ألا تتحول إلى أسلحة يشرعها فلاسفة الحانة . وعلى أية حال فإنه تمسك بأن الكنيسة كانت أداة ثمينة جداً للنظام والمواساة والإلهام ، بحيث لا يجوز تمزيقها إرباً بالاستدلال المتسرع من مجادلين معجبين بأنفسهم .

وانتقل من هذه الحال إلى إحراق البروتستانت على المحرقة . أما الاتهام الذى وجه إليه بأنه أمر بجلد رجل فى بيته بسبب الهرطقة (٤٧) فإنه موضع خلاف ، ويبدو أن رواية مور عن المذنب بعيدة عن اللاهوت « إذا نظر خلسة لأية امرأة وهى تركع » فى الصلاة و « إذا تدلى من رأسها شىء فى تضرعاتها فإنه عندئذ يتسلل وراءها . . . يعمل على رفع كل ثيابها ويقذف بها فوق رأسها(٤٨) » . ويمكن أن يقال إنه فى أحكام الإعـدام الثلاثة التى أعلنت فى أسقفيته إبان توليه منصب الحاجب ، كان يستجيب فيها للقانون ، الذى كانت الدولة فى حاجة إليه ليكون العضد العلمانى للمحاكم الكنسية(٤٩) ،

ولكن ليس من شك فى أنه وافق على عمليات الإحراق(٥٠). ولم يسلم بوجود أى تناقض بين سلوكه والتسامح الكبير فى الاختلافات الدينية الذى أبداه فى مدينته الفاضلة ، لأنه حتى هناك رفض التسامح مع الملحدين والمنكرين للخلود ، وهؤلاء الهراطقة الذين لجأوا إلى العنف أو توسـلوا بالطعن . ومع ذلك فقد ارتكب هو نفســه جريمة الطعن بمجادلته البروتستانت الإنجليز(*) .

وجاء الوقت الذى رأى فيه مور أن هنرى أخطر الهراطقة على الإطلاق . ورفض الموافقة على زواجه من آن بولين ورأى فى التشريع المناهض لرجال الدين الذى صدر فى ١٥٢٩ — ٣٢ اعتداء صارخاً على كنيســة يرى أنها بمثابة قاعدة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . وعندما تقاعد من المنصب وانسحب إلى خلوة بيته فى تشلسى (١٥٣٢) كان لا يزال فى عنفوانه ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، ولكنه كان يرتاب فى أنه لن يعيش طويلا . وحاول أن يهيئ أسرته للمأساة بالحديث (هكذا يقول زوج ابنته وليام روبر) عن حياة الشهداء الأحرار وعن جلدهم العجيب وعما كابدوه من آلام وعن ميتتهم التى آثروا فيها أن يتعرضوا للعذاب على أن يسيئوا إلى

(*) « ومع ذلك فهناك خنزير لا يتلقى أى تعليم إلا ليدنسه وهناك كلاب تمزق بأنيابها كل علم نافع . . ولا يكفى أن يعظ الناس أمثال هؤلاء الكلاب بل يجب جـلدهم بالسياط والمقارع بعنف ، والحيلولة بينهم وبين تمزيق العلم النافع بأنيابهم . . . إلى أن يستكينوا ويصيخوا السمع لما يقال لهم . وبهذه الوسائل يمنع الخنزير من إلحاق الأذى ، والكلاب تخضع أحياناً للتعاليم إلى حد . . أنها تتعلم كيف ترقص على مزمار سيدها . والعقاب رادع فى حين أن التعليم المجرد منه لا يكفى . فمن هم الكلاب بمعنى الكلمة الآن سوى هؤلاء الهراطقة الذين ينبحون على القرابين المقدسة المباركة . . . ومن هم الخنازير بمعنى الكلمة سوى هراطقة أيامنا هذه ، وهم من ضرب نجس لم يشهده أحد قط من قبل ؟

وفى مثل هذا الموكب الرزين أقسم جميع أصحاب القداسة على العفة . . وتحولوا إلى جرية قذرة شائنة ينعم بها الرهبان بنكاح الراهبات »(٥١) .

الرب فأى شىء أسعد وأكثر بركة من أن يحب الله وأن يتعرض لفقد المال والسجن وضياع الأرض بل والحياة أيضاً » . وكان فضلا عن هذا يقول لهم معتصما بعقيدته إذا أدرك أن أبناءه سوف يشجعونه على الترحيب بالموت فى سبيل هدف سام فإنه سوف يجد فى هذا من السلوى ما يملأ نفسه حبوراً ولهذا السبب هرع إلى الموت مبتهجاً(٥٢) .

وتحقق كل ما توقعه ، فقد اتهم عام ١٥٣٤ ، ووجهت إليه تهمة بأنه كان على علم بمؤامرة تتعلق براهبة كنت ، فأقر بأنه التقى بها ، وآمن بأنها تتلقى الوحى ، ولكنه أنكر أنه كان على علم بالمؤامرة . وتشفع كرومويل ، وتفضل هنرى بالصفح عنه . ولكن فى السابع عشر من ابريل حكم على مور بالسجن فى البرج لأنه رفض أن يحلف اليمين على قانون الوراثة ، الذى رأى عندما قدم إليه أنه ينطوى على إنكار لسيادة البابا على الكنيسة فى إنجلترا .

وكتبت إليه ابنته الأثيرة مرجريت رسالة ترجوه فيها أن يحلف اليمين ، فرد عليها بأن توسلها سبب له ألماً أشد مما سببه له سجنه . وزارته زوجته (الثانية) فى البرج وانتهرته (كما يقول روبر) لعناده :

« إنى لأعجب لك فى هذا العام يا مستر مور ، يا من كنت أحسبك حتى الآن رجلا عاقلا ، لماذا تتظاهر بالحمق ، فترقد هنا فى هذا السجن الضيق القذر ، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان ، بينما فى وسعك أن تكون حراً فى الخارج ، وتنعم بحظوة ورضا الملك ومجلسه ، إذا فعلت فقط ما فعله كل الأساقفة وخير المتعلمين فى هذه المملكة . وعندما أرى أن لك فى تشلسى بيتاً جميلا لائقاً ، وأرى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الأخرى ، تبدو جميلة من حولك ، حتى لتستطيع أن تسعد برفقتى ، أنا زوجتك ، ورفقة أولادك وأسرتك ، فإنى أتأمل باسم الرب ماذا تعنى بمكوثك هنا وكلفك بإطالة أمده(٥٣) » .

وبذلت محاولات أخرى لزحزحته عن موقفه ، بيـــد أنه قاومها كلها بابتسامة .

وفى أول يولية سنة ١٥٣٥ قدم لمحاكمة أخيرة . فدافع عن نفسه جيداً ولكن حكم عليه بالإدانة لخيانة الدولة ، وبينما كان عائداً من وستمنستر إلى البرج اقتحمت ابنته مرجريت صفوف الحرس ، واحتضنته وتقبلت بركته الأخيرة . وفى اليوم السابق لإعدامه أرسل قميصه المصنوع من الشعر إلى مرجريت ومعه رسالة « غداً نلتقى » لكى نذهب إلى الله . . . » وداعاً يا ابنتى العزيزة ، صلى من أجلى ، وسوف أصلى من أجلك ، ومن أجل جميع أصدقائك ، لكى نلتقى فى السماء مسرورين(٥٤) .

وعندما ارتقى منصة المقصلة (فى ٧ يوليو) ووجد أنها ضعيفة توشك أن تنهار قال لأحد التابعين : « أرجوك أيها الملازم أن تراعى أن أكون فى أمان وأنا فى أعلاها ، وبالنسبة لنزولى دعنى أحتال لنفسى(٥٥) » . وطلب منه الجلاد الصفح والمغفرة فاحتضنه مور . وكان هنرى قد أصدر تعليمات بألا يسمح للسجين إلا ببضع كلمات . وطلب مور من المشاهدين أن يصلوا من أجله ، وأن يشهدوا بأنه تعرض للموت فى ســبيل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، ومن أجلها ، ثم طلب منهم أن يصلوا من أجل الملك ، وأن ينعم الله عليه بمشير صالح ، واحتج بأنه مات وهو خادم صالح للملك ، ولكنه خادم الرب أولا(٥٦). وتلا المزمار الحادى والخمسين ، ثم وضع رأسه على الكتلة ، وسوى بعناية لحيته البيضاء الطويلة ، حتى لا تتعرض لأى أذى وقال : « مما يؤسف له أنها سوف تقطع ، وأنها لم ترتكب جريمة خيانة الدولة(٥٧) » ، وعلق رأسه على جسر لندن .

وسرت موجة من الرعب فى إنجلترا التى أدركت وقتذاك قسوة الملك ، التى أصر عليها ، وسرت فى أوروبا قشعريرة من الفزع . وشعر إرازموس

أنه هو نفسه قد مات لأنه، «ليس لنا إلا روح واحدة تتردد بيننا[٥٨] وقال انه لم تعد لديه وقتذاك أى رغبة فى الحياة . وبعد عام مات هو أيضاً . وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الإنجليزى : « لو كنت سيداً لخادم مثل هذا توفرت لى — أنا نفسى — عن أعماله خبرة غير ضئيلة فى هذه السنوات العديدة ، فإنى كنت أفضل أن أفقد أحسن مدينة فى ممتلكاتى ولا أفقد مثل هذا المستشار الجليل[٥٩] » . وصاغ البابا بولس الثالث نشرة بابوية بحرمان هنرى الخارج على القانون من زمالة العالم المسيحى ، وتحريم الصلوات الدينية فى إنجلترا ، ومنع كل تجارة معها ، وحل كل الرعايا البريطانيين من إيمانهم بالولاء للملك ، وأمرهم هم وكل الأمراء المسيحيين بخلعه فوراً . ولما كان كل من شارل وفرانسيس لا يرحبان بهذه الإجراءات ، فإن البابا حجز صدور النشرة البابوية حتى عام ١٥٣٨ . وعندما أصدرها ، منع شارل وفرانسيس نشرها فى مملكتيهما ، إذ لم يرضيا التصديق على الادعاءات البابوية بوجود سلطة له على الملوك . وكان فشل النشرة البابوية إيذانا بضعف السلطة البابوية ، وارتفاع سلطان الدولة القومى .

ورأى دين سويفت أن مور رجل « يتمتع بأعظم الفضائل » — ولعله يستخدم الكلمة بمعناها القديم الخاص بالشجاعة — « بين الرجال الذين أنجبتهم هذه المملكة[٦٠] » .

وفى الذكرى الأربعمائة لإعدام توماس مور وجون فيشر أدرجتهما كنيسة روما بين قديسيها .

٤ — حكاية ثلاث ملكات

فقد هنرى ثلاثا من ست ملكات فى خلال ثلاثين شهرا من وفاة مور . فقد تلاشت حياة كاترين فى معتزلها الشمالى ، وهى لا تزال تدعى أنها زوجة هنرى الشرعية الوحيدة ، وملكة انجلترا صاحبة الحق الشرعى ؛ واستمرت

وصيفاتها فى إطلاق هذا اللقب عليها . وفى عام ١٥٣٥ نقلت إلى قلعة كيمبالتون قرب هنتنجدون[1]، وهناك حبست نفسها فى حجرة واحدة ولم تكن تتركها إلا لحضور القداس . واستقبلت زوارا و « عاملتهم فى كرم زائد[61] » وحجزت مارى ، وكانت وقتذاك فى التاسعة عشرة فى هاتفيلد التى لا تبعد إلا بمسيرة عشرين ميلا ، غير أنه لم يسمح للأم ولا لابنتها بأن ترى إحداهما الأخرى ، ومنعاً من الاتصال ببعضهما ، ومع ذلك فإنهما تراسلا ، وتعد رسائل كاترين من أعظم الرسائل المؤثرة فى الأدب بأسره . وعرض هنرى عليهما دارين آخريين أفضل من داريهما ، إذا اعترفتا بملكته الجديدة ، فرفضتا . وعينت آن بولين عمتها مربية لمارى وأمرتها بأن تحتفظ « بابنة السفاح » وتلزمها حدها بـ « لكمة على الأذنين بين آن وآخر[62] » . ومرضت كاترين فى ديسمبر سنة ١٥٣٥ وكتبت وصيتها وبعثت برسالة للإمبراطور تطلب منه حماية ابنتهـــا ووجهت وداعا مؤثرا لـ « سيدها وزوجها العزيز » الملك .

« إن ساعة وفاتى تقترب ولا حيلة لى إلا أن أنصحك ، بحكم ما أكنه لك من حب ، بأن نعنى بطهارة روحك التى يجب ان تؤثرها على كل الاعتبارات فى الدنيا ، أو على أى جسد تشتهيه مهما كان ، والذى من أجله قذفت بى فى كوارث عديدة ، وبنفسك فى متاعب كثيرة ولكنى أغفر لك كل شىء ، وأرجو الله أن يغفر لك أيضا ، وبالنسبة للباقى أوصيك خيراً بابنتنا مارى ، وأتوسل إليك أن تكون لها أباً صالحاً . . . وأخيراً فإنى أردد هذا القسم بأن عينى تريدان أن تبصراك فوق كل شىء وداعاً[63] » .

وبكى هنرى عندما تسلم الرسالة ، وعندما ماتت كاترين (٧ يناير سنة ١٥٣٦) بالغة من العمر خمسين عاماً ، أمر الحاشية بإعلان الحـــداد . فرفضت آن[64].

ولم تستطع آن أن تعرف أنها ستموت أيضاً فى خلال خمســة شهور ، ولكنها أدركت أنها خسرت الملك ، فقد أدى طبعها الحاد وسورات غضبها المتسمة بالصلف ، ومطالبها التى تبعث على الضجر ، إلى إنهاك هنرى الذى رأى أن لسانها السليط يتناقض مع رقة كاترين[٦٥] . وفى اليوم الذى دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلا ميتاً ، وبدأ هنرى الذى كان لا يزال يتلهف على ولد يفكر فى طلاق آخر — أو فى بطلان للزواج كما سوف يفعل ، وروى عنه أنه قال إن زواجه الثانى تم تحت إغراء السحر ، ومن ثم فإنه باطل[٦٦] . وبدأ من أكتوبر سنة ١٥٣٥ يولى اهتماماً خاصاً بإحدى وصيفات آن وهى جين سيمور . وعندما أنبته آن أمرها بأن تتحمله فى صبر ، كما فعل من هن أفضل منها[٦٧] ، ولعله انتهج حيلا قديمة عندما اتهمها بالخيانة . إذ يبدو إنه مما لا يصدق أن تخاطر حتى امرأة نزقة بعرشها بلحظة تبذل ، ولكن يبدو أن الملك كان قد آمن فى إخلاص بأنها مذنبة . وأشار إلى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التى وصلت إلى مجلسه ، فاستقصى الأمر وأبلغ الملك أنها اقترفت الزنا مع خمسة أعضاء من البلاط ، هم سير وليام بربريتون ، وسير هنرى نوريس ، وسير فرانسيس وستون ، ومارك سميتون ، وأخيها اللورد روشفورد ، وأرسل الرجال الخمسة إلى البرج وتبعتهم آن فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٣٦ .

وكتب لها هنرى يعللها بالآمال فى الصفح عنها والرفق بها إذا كانت صادقة معه ، فردت بأنها ليس لديها ما تعترف به . وزعم خــدمها فى السجن أنها أقرت بأنها تلقت عرضين بتبادل الحب مع نوريس ووستون ، بيد أنها ادعت أنها صدمتهما . وفى يوم ١١ مايو وبعــد أن طلب من هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس أن تقوم بتحقيق محلى فى الجرائم التى يقال إن الملكة قد ارتكبتها فى تلك البلاد أبلغت أنها وجدتها مذنبة لاقترافها الزنا مع جميع الرجال الخمسة المتهمين ، وقدمت أسماء وتواريخ معينة[٦٨] . و

يوم ١٢ مايو حوكم أربعة من هؤلاء الرجال فى وستمنستر أمام هيئة محلفين، منهم والد آن الايرل أف ولتشاير . واعترف سميتون أنه مذنب كما اتهم ، أما الآخرون فدافعوا عن أنفسهم بأنهم غير مذنبين ، وحكم بإدانة الأربعة جميعاً . وفى يوم ١٥ مايو حوكمت آن هى وأخوها أمام جماعة مكونة من ستة وعشرين نبيلا برئاسة الدوق أف نورفولك وهو عمها ، ولكنه عدوها السياسى . وأكد الشقيقان أنهما بريئان ، ولكن كل عضو من جماعة القضاة أعلن أنه مقتنع بأنهما مذنبان ، وحكم عليهما بأن يحرقا أو يقطع رأساهما كما يتراءى للملك . وفى يوم ١٧ مايو شنق سميتون ، أما الرجال الأربعة الآخرون فقد قطعت رءوسهم كما يليق برتبهم . وفى ذلك اليوم طلب وكلاء الملك من رئيس الأساقفة كرانمر أن يعلن عدم صحة الزواج بآن وأن اليزابث ابنة سفاح فأذعن . ولا تعرف الأسس التى بنى عليها هذا الحكم ، ولكن يظن أن زواج آن السابق المزعوم بلورد نورثمبرلاند أعلن وقتذاك أنه حقيقى .

وركعت آن عشية وفاتها أمام لادى كنجستون زوجة الحارس وطلبت منها منة أخيرة : أن تذهب وتركع أمام مارى ، تتوسل إليها باسم آن أن تصفح عن الأخطاء التى ارتكبت فى حقها ، بسبب كبرياء امرأة تعسة غير متبصرة(٦٩) ، وطلبت أن ينفذ فيها حكم الإعدام فوراً يوم ١٩ مايو . والظاهر أنها استمدت شيئاً من العزاء من فكرة خطرت لها هى : « لقد سمعت أن الجلاد بارع جداً ولى عنق صغير » — ومن أجل ذلك ضحكت واقتيدت ظهر ذلك اليوم إلى منصة المقصلة ، وطلبت من المشاهدين أن يصلوا من أجل الملك « لأنه ليس هناك أمير يبزه فى الرقة والرأفة(٧٠) » ، ولم يكن هناك أحد يقطع بأنها مذنبة ، ولكن قليلين أسفوا لسقوطها .

وفى يوم وفاتها منح كرانمر للملك محللا بالزواج مرة أخرى فى سعيه

المتجدد للحصول على ولد ، وفى اليوم التالى خطب هنرى ، جين سيمور سراً ، وتزوجا يوم ٣٠ مايو ١٥٣٦ ، ونودى بها ملكة يوم ٤ يونية ؛ وكانت سليلة أسرة ملكية ، إذ أنها تنحدر من إدوارد الثالث ، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة أو الرابعة بهنرى ، مما دعا إلى الحصول على محلل آخر من كرانمر المطيع . ولم تكن تتمتع بجمال خاص ، بيد أنها أثرت فى الجميع بذكائها ورقتها بل وتواضعها ، ووصفها الكاردينال بول خصم هنرى اللدود بأنها : « ممتلئة بالطيبة » ، ولم تشجع محاولات الملك التقرب بها إبان حياة آن ، ورفضت قبول هداياه ، وأعادت رسائله دون أن تفتحها ، وطلبت منه ألا يحدثها إلا فى حضور آخرين(٧١)

وكان أول عمل تم بعد الزواج هو القيام بالتوفيق بين هنرى ومارى . وقام هنرى به بطريقته الخاصة فأمر كرومويل بأن يبعث لها برسالة عنوانها : « اعتراف لادى مارى » . وهى تعترف بالملك رئيساً أعلى للكنيسة فى انجلترا وتنكر « سلطة أسقف روما المزعومة »، وتعترف أن زواج هنرى بكاترين « من قبيل سفاح القربى وغير شرعى » . وطلب من مارى أن توقع باسمها على كل جملة ، ووقعت ولم تصفح عن نفسها قط . وبعد ثلاثة أسابيع أقبل الملك والملكة لرؤيتها وقدما إليها هدايا و ١٠٠٠ كراون ، وأطلق عليها مرة أخرى لقب أميرة ، وفى يوم عيد الميلاد لعام ١٥٣٦ استقبلت فى البلاط ، وهناك لا بد أن شيئا طيبا كان فى هنرى وفى « مارى الدموية » — لأنها كادت تتعلم فى السنوات الأخيرة أن تحبه .

وعندما اجتمع المجلس النيابى مرة أخرى (١٨ يونية سنة ١٥٣٦) أصدر بناء على طلب الملك قانوناً جديداً بوراثة العرش وبمقتضاه أعلن أن اليزابث ومارى على السواء بنتان غير شرعيتين ، وتقرر أن يقتصر التاج على الذرية المتوقع أن تنجبها جين سيمور ؛

ومات الدوق آن رتشموند ابن هنرى غير الشرعى ، وتعلقت آمال الملك كلها فى حمل جين . وهللت إنجلترا معه عندما ولدت (١٢ أكتوبر سنة ١٥٣٧) ولدا هو إدوارد السادس فى المستقبل . بيد أن جين المسكينة التى ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطاً عميقاً ، بقدر ما سمحت روحه ، التى تتركز حول ذاته ، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوما . وظل هنرى رجلا محطما بعض الوقت . وعلى الرغم من أنه تزوج مرة أخرى ثلاث مرات فإنه طلب عند وفاته أن يدفن بجانب المرأة التى ضحت بحياتها فى سبيل حمل ابنه .

ماذا كانت ردود الفعل لدى الشعب الإنجليزى بالنسبة لأحداث هذا العهد المضطرب ؟ من الصعب أن نقول شيئاً ، فالدليل فيه تحامل ويكتنفه الغموض ومشتت . وروى شابويس عام ١٥٣٣ أن رأى الكثرين من الإنجليز أن « الملك رتشارد السابق لم يكن قط مكروها من شعبه إلى هذا الحد مثل هذا الملك[٧٢] » . وقد تعاطف الشعب بوجه عام مع رغبة هنرى فى الحصول على ولد ، وأدان قسوته على كاترين ومارى ولم يذرف دموعاً على آن ، ولكنه صدم صدمة عميقة بإعدام فيشر ومور . وكانت أغلبية الأمة السابقة لا تزال تدين بالكاثوليكية[٧٣] ، وكان رجال الاكليروس — بعد أن حققت الحكومة وقتذاك لنفسها موارد الأساقفة حديثى التعيين فى السنة الأولى — يأملون فى التوفيق مع روما . ولكن لم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته بنقد الملك . وتلقى نقداً ، ومن إنجليزى ولكن مع وجود القنال بينه وبين ذراع الملك .

كان ريجنا لدبول ابن مرجريت بلانتا حينت كونتيسة سالزبورى ، وهى نفسها ابنة أخى إدوارد الرابع ورتشارد الثالث . وقد تعلم على نفقة هنرى ، وكان يتسلم مرتبا من الملك قدره ٥٠٠ كراون كل عام ، والظاهر أنه كان يعد لتولى أعلى المناصب فى الكنيسة الإنجليزية . ودرس فى باريس

وبادوا ، وعاد إلى انجلترا ، وهو يتمع بحظوة كبيرة لدى الملك ، ولكن عندما أصر هنرى على سماع رأيه فى الطلاق ، رد ريجينالد صراحة أنه لا يستطيع أن يوافق عليه ما لم يصدق عليه البابا . ولم يقطع هنرى مرتب الشاب وسمح له بالعودة إلى القارة .

وهناك لبث بول اثنين وعشرين عاما وارتفع فى تقدير البابا باعتباره عالماً ومتضلعاً فى اللاهوت ، ونصب كاردينالا وعمره ستة وثلاثون عاماً (١٥٣٦) . وألف فى ذلك العام باللاتينية رسالة هجوم على هنرى هى دفاع عن وحدة الكنيسة . ورأى أن الأخذ بسيادة هنرى على الشئون الكنسية فى إنجلترا يدعو إلى الانقسام بين أبناء الديانة المسيحية وتشعبهم إلى قوميات منوعة ، وأن التصادم الناتج بين العقائد سيؤدى إلى فوضى اجتماعية وسياسية فى أوروبا . واتهم هنرى بأنه مصاب بجنون حب الذات والحكم المطلق . ولام الأساقفة الإنجليز على تسليمهم بعبودية الكنيسة للدولة . وندد بالزواج من آن باعتباره زنا ، وتنبأ (ولم يكن هذا من الحكمة إلى حد كبير) بأن النبلاء الإنجليز سوف يعدون اليزابث « ابنة سفاح لعاهرة إلى الأبد[٧٤] » ، وطالب شارل الخامس بألا يضيع أى ذخيرة حربية فى حرب الأتراك وأن يحول القوات الإمبراطورية للقتال ضد ملك إنجلترا الكافر . كانت رسالة طعن شديدة ، أتلفتها كبرياء الشباب فى الفصاحة . وأشار الكاردينال كونتارينى على المؤلف بألا ينشر الرسالة ، بيد أن بول أصر ، وأرسل نسخة إلى إنجلترا .

وعندما نصب بولس الثالث بول كاردينالا اعتبر هنرى هذا عملا من أعمال الحرب . وتخلى الملك عن كل فكرة تدور حول المصالحة ، واتفق مع كرومويل على أن الأديار فى إنجلترا يجب أن تحل ، وأن تضم أملاكها إلى التاج .

الفصل الخامس والعشرون

هنرى الثامن والأديار

١٥٣٥ – ٤٧

١ – تقنية الحل

كان هنرى عام ١٥٣٥ مشغولا جداً بالحب والحرب فلم يستطع أن يلعب دور البابا جملة أو تفصيلا ، فعين كرومويل الذى يؤمن بفلسفة اللا أدرية(١) « نائبا للملك فى كل قضاياه الكنسى » . ووجه كرومويل وقتذاك السياسة الخارجية والتشريع الوطنى والسلطة القضائية العليا والمجلس الخاص والمخابرات وقاعة النجم وكنيسة إنجلترا ، ولم يكن لولزي فى أوج مجده قط أصابع طويلة متشبثة بفطائر غضة بهذه الكثرة . وكان يراقب أيضاً كل الطباعة والنشر ، وأقنع الملك بأن يحرم طبع الكتب أو بيعها أو استيرادها إلا بعد الحصول على موافقة وكلاء التاج ، وأمر بنشر الكتب المناهضة للبابوية على نفقة الحكومة .

وقام جواسيس كرومويل ، وهم لا يحصون ، بإبلاغ كرومويل بكل حركات أو بيانات المعارضين لهنرى أو له . وكانت أية إشارة تدل على الاشفاق على فيشر أو مور وأية دعابة تدور حول الملك يمكن أن تؤدى إلى محاكمة سرية وسجن طويل(٢) ، وكان التنبؤ بوفاة الملك يعرض المرء لفقد حياته(٣) .

وقام كرومويل ، فى بعض القضايا الخاصة بدور ممثل الاتهام والمحلفين

والقاضى ليصل إلى نتائج محققة . وكان كل واحد فى إنجلترا يخشاه ويكرهه .

وكانت أكبر معضلة واجهها هى أن هنرى كان مفلسا ، على الرغم من سلطانه العظيم . وكان الملك يتوق إلى زيادة حجم البحرية والإكثار من مرافئه وموانيه أو تحسينها ، وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة ،ونظام كرومويل فى الحكم يحتاج إلى نهر عريض من الأموال . فكيف يجمع المال ؟ كانت الضرائب مرتفعة إلى الحد الذى تقابل فيه بمقاومة تجعل الجباية تكلف من النفقات أكثر مما تدر من الربح ، وكان الأساقفة قد استنزفوا أبرشياتهم لتهدئة سورة الملك ، ولم يكن هنك ذهب يتدفق من أمريكا ، كما يتدفق يوميا لإغاثة الإمبراطور عدو إنجلترا . ومع ذلك كانت فى إنجلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة وعاجزة لا تجد من يدافع عنها وهى الأديار . كانت موضع ريبة لأن ولاءها الأخير كان للبابا ، واشتراكها فى قانون السيادة يعد من قبيل المداهنة وغير تام ، وكانت فى نظر الحكومة هيئة أجنبية ملزمة بتأييد أى حركة كاثوليكية ضد الملك . وكانت عاجزة لأنها فى كثير من الحالات كفت عن القيام بوظائفها التقليدية فى مجالات التعليم والضيافة والبر ، وكانت لا تجد من يدافع عنها لأن الأساقفة استاءوا من إعفائهم من المراقبة الأسقفية ، ولأن الأشراف ، وقد أفقرتهم الحرب الأهلية ، طمعوا فى ثروتها ، ولأن طبقة رجال الأعمال كانوا يرون فى الرهبان والإخوة من الرهبان متلفين كسالى للموارد الطبيعية ، ولأن القسم الأكبر من العامة ، ومنهم كثير من الكثالكة الصالحين ، لم يعودوا يؤمنون بفاعلية المخلفات التى كان الرهبان يعرضونها ، أو بالقداسات التى كان يقيمها الرهبان للموتى ، إذا دفع لهم الأجر . وكانت هناك سوابق رائعة لإغلاق الأديار ، فقد أغلقها زوينجلى فى زيورخ والأمراء اللوثريون فى ألمانيا وولزى فى إنجلترا . وكان المجلس النيابى قد صوت (١٥٣٣)

بالموافقة على تخويل الحكومة سلطة التفتيش على الأديار وإجبارها على تقويم اعوجاجها .

وأرسل كرومويل فى صيف عام ١٥٣٥ ثالوثا من « المفتشين » كل منهم معه عدد كبير من الموظفين لفحص حالة أديار الرهبان والراهبات فى إنجلترا من النواحى البدنية والأخلاقية والمالية وتقديم تقرير عنها . وكذلك للتفتيش على الجامعات والكراسى الأسقفية كإجراء مقبول . وكان هؤلاء « المفتشون » شبانا متهورين ، « من المرجح أن يقوموا بتنفيذ عملهم فى إتقان أكثر مما يتوسلون فى تنفيذه بالرقة[٤] » ، ولم يكونوا فى عصمة من قبول « الهدايا[٥] » ، وكان « الهدف من مهمتهم الحصول على قضية للتاج ، ولعلهم لجأوا إلى كل الوسائل المخــولة لهم لحث الرهبان والراهبات على إدانة أنفسهم[٦] . ولم يكن من الصعب أن يعثر فى ٦٠٠ دير فى إنجلترا على عدد مقنع ويدل على وجود انحرافات جنسية — وأحيانا انحرافات جنسية شاذة[٧] — ونظام متحلل واستغلال لمخلفات زائفة هدفه اكتناز المال ، وبيع أوعية مقدسة أو مجوهرات مقدسة لإضافة المزيد إلى ثروة الدير ، وما فيه من ضروب الراحة[٨] وإهمال الشعيرة أو الضيافة أو البر[٩] ولكن التقارير أغفلت عادة ذكر نسبة الرهبان الآثمين إلى الرهبان الجديرين بالتقدير ، والتمييز بوضوح بين الثرثرة والدليل[١٠] .

وقدم كرومويل للمجلس النيابى الذى انعقد فى ٣ فبراير عام ١٥٣٦ « كتابا أسود » ، ضاع الآن ، يكشف عن الاخطاء فى الأديار ، وينصح ، باعتدال استراتيجى : بإغلاق أديار الرهبان والراهبات التى يبلغ دخلها ٢٠٠ جنيه (٢٠ر٠٠٠ دولار ؟) أو أقل فى العام . فوافق المجلس النيابى الذى كان معظم أعضائه قد اختيروا بواسطة معاونى كرومويل[١١] . وعين الملك محكمة المزايدات لكى تتسلم لصالح خزانة الملك أملاك وموارد هذه الأديار الصغرى البالغ عددها ٣٧٦ . وأطلق سراح ألفى راهب ليذهبوا لدور

أخرى أو يخرجوا إلى العالم — وفى الحالة الأخيرة كانوا يمنحون مبلغاً صغيراً أو معاشا يسد رمقهم إلى أن يجدوا عملا . ولم يكن بين ١٣٠ دير للراهبات سوى ١٨ ديرا يتجاوز دخلها ٢٠٠ جنيه ، ولكن لم يغلق منها وقتذاك إلا نصفها .

وقامت فى الشمال ثورة ثلاثيه قطعت دراما الحل . وكما نشأت المسيحية فى المدن ووصلت إلى القرويين — الوثنيين — فكذلك نهض الإصلاح الدينى فى المدن بسويسرة وألمانيا وإنجلترا ، ولقى مقاومة دامت طويلا فى الريف . وتقلص ظل البروتستانتية فى إنجلترا وسكوتلندة كلما ابتعدت المسافة من لندن أو أدنبره ، ووصلت متأخرة إلى ويلز وشمالى إنجلترا ، ولقيت ترحيبا ضئيلا فى إيرلنده . وفى المراكز الشمالية بإنجلترا أشعل سلب الأديار الصغرى نار الاستياء التى كانت مهيأة للاشتعال منذ وقت طويل بسبب الضرائب المتزايدة والحكم الملكى المطلق على رجال الاكليروس والتحريض الخفى للقساوسة . وانضم الرهبان ، الذين جردوا من أموالهم ووجدوا أن من الصعب عليهم الحصول على مرتباتهم أو على عمل ، إلى المتعطلين العديدين المكتئبين ، أما الراهبات اللاتى جردن من أملاكهن واللاتى كن يتجولن من مأوى إلى مأوى فقد أثرن غضب الجمهور ضد الحكومة . وألهب معاونو كرومويل « نار » الغضب بتزيين أنفسهم بأسلاب المعابد بالأديار وصناعة صدريات من القباء ، وسروج من صدرات القساوسة وقرابات خناجر من محافظ المخلفات[١٢] .

وفى يوم ٢ أكتوبر سنة ١٥٣٦ هاجم جمهور فى لوث مفتشا ، كان قد أغلق توا ديرا للراهبات فى لجبورن المجاورة لها ، وتم الاستيلاء على سجلاته وأوراق اعتماده وأحرقت وصوب إلى صدره سيف وأكره على أن يحلف يمين الولاء للعامة . وحلف كل من كان حاضرا بين الجمهور يمينا بأن يكون مخلصا للملك والكنيسة الرومانية المقدسة ؛ وفى اليوم التالى احتشد

جيش ثائر فى كايستور على مسيرة بضعة أميال ، حرضه قساوسة ورهبان لا مأوى لهم ، واضطر أعيان الجهة — ومنهم من فعل ذلك باختياره — إلى الانضمام لجيش الثوار . وفى اليوم نفسه تجمع حشد كبير من القرويين فى هورن كاسل ، وهى مدينة أخرى تقع فى لنكولنشاير . واتهم حاجب أسقف لنكولن بأنه عميل لكرومويل ، وانتزع من فراشه ، وضرب حتى الموت بالهراوات . وصمم الثوار علمايصور محراثا وقدحا وبوقاً ، و « الكلمات الخمس الأخيرة » للمسيح ، واستخلصوا مطالب أرسلت إلى الملك : يجب أن تعاد الأديار وتخفف الضرائب أو تيسر ، وألا يدفع رجال الاكليروس ضرائب العشور أو موارد السنة الأولى من التعيين إلى التاج ، وأن يبعد « الدم الخبيث » (أى كرومويل) من المجلس الخاص ، وأن يقال الأساقفة الهراطقة — وبخاصة كرانمر ولاتيمر — ويعاقبون .

وانضم إلى الثورة مجندون من الأقاليم الشمالية والشرقية . واحتشد فى لنكولن حوالى ٦٠٫٠٠٠ رجل ، ولبثوا يرقبون رد الملك .

وكان رده عنيفا لا يقبل التفاهم . واتهم الثوار بإنكار جميل حاكم كريم ، وأصر على أن اغلاق الأديار الصغرى إنما تم بإرادة الأمة التى عبرت عنها عن طريق المجلس النيابى ، وأمر الثائرين بتسليم زعمائهم ، وأن يتفرقوا وينصرفوا إلى بيوتهم ، وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ومصادرة أموالهم . وفى الوقت نفسه أمر هنرى أعوانه بحشد قواتهم والزحف بقيادة إيرل أف سفولك لمساعدة اللورد شروسبرى ، الذى كان قد نظم تابعيه لصد الهجوم ، وكتب رسائل خاصة إلى الأشراف القلائل الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . وعند ما أدرك هؤلاء وقتذاك أن الملك لا يمكن إرهابه ، وأن الثوار المسلحين تسليحا سيئا سوف يقهرون وشيكا ، اقتنع الكثيرون منهم بالعودة إلى قراهم ، وسرعان ما ذاب جيش الثوار فوق احتجاجات

القساوسة . وسلمت لوث خمسة عشر زعيما وأسر مائة آخرون ، وأعلن صدور عفو ملكي عن الباقين . وأخذ الأسرى إلى لندن والبرج وشنق ثلاثة وثلاثون ، منهم سبعة قساوسة ، وأربعة عشر راهبا ، وأطلق سراح الباقين على مهل(١٣) .

وفى غضون ذلك كانت هناك فتنة أشد خطورة قد نمت فى يوركشاير . اوجد رتشارد آسك ، وهو محام شاب ، نفسه متورطا بدنيا وعاطفيا فى الحركة . وأفزع محام آخر فتولى قيادة فرقة ثائرة فى بفرلى ، وأعار اللورد دارسى أف تمبلهرست ، وهو كاثوليكى متحمس ، الثورة تأييده الخفى ، وانضم اثنان من أسرة برسى ، وحذا حذوهم معظم أشراف الشمال .

وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٣٦ ضرب الجيش الرئيسى ، المكون من ٩٫٠٠٠ رجل ، الحصار على يورك . وأجبر المواطنون فى المدينة العمدة على فتح الأبواب . ومنع آسك رجاله من نهب المدينة ، وحافظ بوجه عام على نظام ملحوظ فى جيشه غير المدرب . وأعلن إعادة فتح الأديار ، وعاد إليها الرهبان فى اغتباط ، وأدخلوا السرور على أفئدة الأتقياء بحرارة ترانيمهم الجديدة . وتقدم آسك واستولى على بومفريه ، واستولى ستابلتون على هل دون إراقة دماء . وانضم آخرون إلى رجال لنكولنشير فى تقديم المطالب وأرسلوا للملك : « أن يقمع كل الهراطقة وكتبهم ، ويستأنف الروابط الكنسية مع روما ، وأن يسبغ صفة الشرعية على مارى ، ويعزل مفتشى كروميل ويعاقبهم ، ويلغى كل تسوير للأراضى العامة منـــذ عام ١٤٨٩ .

كانت هذه أحرج لحظة فى عهد هنرى . كان نصف البلاد يحمل السلاح ضد سياسته ، وكانت إيرلنده فى ثورة ، وكان بولس بول الثالث

والكردينال بول يحثان فرانسيس الأول وشارل الخامس على غزو إنجلترا وخلع الملك . واستجمع قواه المتخاذلة ، وأرسل أوامر إلى كل الجهات بحشد فرق موالية ، وفى الوقت نفسه أصدر تعليمات للدوق أف نورفولك بأن يتغفل الزعماء الثائرين بإجراء مفاوضات . ورتب الدوق مداولة مع آسك وعدة نبلاء وأغراهم بوعد منه بالعفو عنهم جميعاً . ودعا هنرى آسك إلى لقاء شخصى ومنحه جواز أمان . فجاء إلى الملك وافتتن بعبير الملكية ، وعاد وديعا ، ولم يلحقه أذى إلى يوركشاير (يناير سنة ١٥٣٧) ، وعلى أية حال فإنه قبض عليه هناك وأرسل سجينا إلى لندن . وانقطعت صلة الجيش الثائر بقواده فانشعب إلى فرق غاضبة وساده اضطراب همجى ، وتضاعفت حالات التمرد . وبينما كانت فرق الملك المتحدة تقترب اختفى الجيش الثائر كسراب تبدد (فبراير سنة ١٥٣٧) .

وعند ما استوثق هنرى من انهيار الثورة والغزو ما أنكر وعد نورفولك بالعفو العام ، وأمر بالقبض على من يمكن العثور عليه من الزعماء مثيرى الفتنة ، وأعدم الكثيرون منهم ومن ضمنهم آسك ، وكتب إلى الدوق يقول : « يسرنا أن نراك قبل أن نطوى علمنا مرة أخرى أن تقوم بإعدام مروع لعدد لا بأس به من السكان فى كل مدينة وقرية ومحلة تكون قد أجرمت ، حتى يكون فى هذا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل ذلك فى المستقبل . . . وما دامت هـــذه الاضطرابات كلها قد نتجت من تحريض الرهبان والكنسيين فى هذه البقاع ومؤامراتهم الغادرة ، فإننا نريد منك فى هذه الربوع التى تآمروا فيها ، ودافعوا عن بيوتهم بالقوة . . أن تأمر بلا رحمة أو شفقة بشد وثاق هؤلاء الرهبان رجال الكنيسة الذين ثبت خطؤهم بأية وسيلة دون تأخير أو إجراء رسمى[١٤] .

وعند ما رأى كرومويل ما لحق بالمعارضة من رعب شديد مضى قدماً

فى إغلاق الدور الدينية الباقية فى إنجلترا . وحلت يوما كل أديار الرهبان والراهبات التى كانت قد انضمت إلى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة . وامتد مجال الزيارات التفتيشية ، وأثمرت تقارير عن الخروج على النظام والفجر والخيانة والانحلال . وتوقع كثير من الرهبان سلفا إغلاق الأديار فباعوا المخلفات والنفائس التى فى دورهم إلى أعلى مزايد ، وبلغ ثمن إصبع لسانت أندرو أربعين جنيها[١٥] . وأدين الرهبان فى والسنجهام بتزييف معجزات ، وألقى تمثال العذراء ، الذى كان يدر عليهم أرباحا ، فى النار . وهدم ضريح سانت توماس بيكيت التاريخى فى كانتربرى ، وأعلن هنرى الثامن أنه فى انتصاره على هنرى الثانى لم يكن قديسا حقا ، وأحرقت المخلفات التى أساءت إلى كوليه ، وتفكه بها إرازموس . ونقلت التحف الثمينة التى وهبها الحجاج الورعون فى خلال ٢٥٠ عاما إلى الخزانة الملكية (١٥٣٨) ، ولبس هنرى بعد ذلك فى إبهامه خاتما محلى بياقوتة كبيرة أخذت من الضريح . وسعت بعض الأديار إلى خداع القدر بإرسال المال والهدايا لكرومويل ، وقبل كرومويل كل شىء وأغلقها جميعاً . وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل الأديار وكل الأملاك الديرية ما عدا كنائس دير الكاتدرائية قد انتقلت إلى الملك .

وعلى الجملة فقدأغلق ٥٧٨ ديرا للرهبان وحوالى ١٣٩ ديراللراهبات ، واشتت ٦٥٢١ راهبا أو أخا و ١٥٦٠ راهبة . وتخلى حوالى خمسين راهبا وراهبتان من هؤلاء عن الرداء الدينى ، بيد أن الكثيرين توسلوا أن يسمح لهم بمتابعة حياتهم التى ألفوها فى الدير فى مكان آخر[١٦] . وفقد حوالى ١٢٫٠٠٠ شخص ، كانت الدور الدينية تستخدمهم فيما مضى أو كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم ، وظائفهم أو مخصصاتهم من الصدقات . وكانت الأراضى والمبانى المصادرة تدر دخلا سنويا قدره حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه

(٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ دولار ؟) ، غير أن عقود البيع التى أبرمت سريعا خفضت الدخل السنوى للأملاك بعد التأميم إلى حوالى ٠٠٠ر٣٧ جنيه ، ولا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ ٠٠٠ر٨٥ جنيه من المعدن الثمين المصادر ، ومن ثم قد يبلغ ما حصل عليه هنرى إبان حياته من جملة الأسلاب والدخل حوالى ٥٠٠ر٤٢٣ر١ جنيه(١٧).

وكان الملك سخيا بهذه الأسلاب . فقد وهب بعض هذه الممتلكات — ومعظمها باعه بأسعار بعد مساومة — لنبلاء صغار أو مواطنين أحرار كبار — تجار أو محامين — ممن أيدوه أو وجهوا سياسته . وتسلم كرومويل أو اشترى ستة أديار لها دخل سنوى قدره ٢٢٩٣ جنيها ، وتسلم ابن أخيه سير رتشارد كرومويل سبعة أديار تدر دخلا قدره ٢٥٥٢ جنيها(١٨) وكانت هذه أصل الثروة التى جعلت من أوليفر الحفيد الثانى لرتشارد رجلا من رجال الثروة المادية والنفوذ فى القرن التالى . وذهبت بعض الأسلاب لبناء سفن وحصون وموانى وبعضها ساعد فى تمويل الحرب وذهب بعضها إلى القصور الملكية فى وستمنستر وتشلسى وهامبتون كورت ، وفقد الملك بعضها فى لعب النرد(١٩) . وأعيدت ستة أديار إلى الكنيسة الانجليكانية لتستخدم كراسى أسقفية ، وخصص مبلغ صغير لمواصلة أعمال البر العاجلة التى كان يقدمها فيما سبق الرهبان والراهبات ؛ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة التى نشأت بفضل هدايا هنرى وعقود البيع التى أبرمها ، عضدا قويا للعرش التيودورى ، ودعامة للمصلحة الاقتصادية ضد أى عودة للكاثوليكية . وقد أبادت الأرستقراطية الإقطاعية القديمة نفسها ، أما الأرستقراطية الجديدة ، التى تأصلت جذورها فى التجارة والصناعة ، فإنها غيرت طبيعة الأشراف من السلبية المحافظة إلى عمل إيجابى ، وصبت دما جديدا وطاقة جديدة فى الطبقات العليا بإنجلترا . ولعل هذا — والأسلاب كان مصدر خصب العهد الإليزبيثى .

وكانت نتائج التحلل معقدة بلا حدود . ولعل الرهبان المتحررين قد أسهموا بدور متواضع أو لم يسهموا فى زيادة عدد سكان إنجلترا من حوالى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ عام ١٤٨٥ إلى حوالى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ عام ١٥٤٧[٢٠] وساعدت زيادة مؤقتة فى عدد المتعطلين على تخفيض أجور الطبقات الدنيا جيلا كاملا ، وأثبت ملاك الأراضى الجدد أنهم أكثر جشعا من القدامى[٢١].

وكانت النتيجة من الناحية السياسية هى زيادة سلطة الملكية ، وفقدت الكنيسة آخر معقل للمقاومة ، وكانت النتائج من الناحية الأخلاقية ازدياد الجرائم والخصاصة والتسول وتقلص الموارد اللازمة لأعمال البر[٢٢]. وأغلق ما يزيد على مائة مستشفى تديرها الأديار ، وقامت السلطات البلدية بتزويد قلة منها بالحاجة . أما المبالغ التى أوصت بها الأرواح الخائفة أو الموقرة للقساوسة، كتأمين ضد نار جهنم أو نار المطهر ،فقد صودرت على أساس أن هناك أملا فى ألا يلحق الموتى أذى ، وانتزع الملك[٢٣]. ٢٣٧٤ من الهبات الموقوفة على إقامة قداسات للأرواح . وكانت أقسى النتائج فى مجال التعليم . فقد كانت أديار الراهبات تهيئ مدارس للبنات ، وكانت الأديار والقساوسة المشرفون على الهبات المخصصة للقداسات قد حافظت على مدارس وتسعين كلية للبنين ، وحلت كل هذه المؤسسات .

وبعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشوبه إلا تحامل يصـــدر عن اللا وعى ، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق افتراضى يعترف به . إن جشع هنرى وجور كروموبل هما اللذان ساعدا مدى جيل على تخفيض حتمى فى عدد الأديار الإنجليزية وإضعاف نفوذها . وكانت هذه الأديار قد قامت يوما بعمل يدعو للإعجاب فى مجالات التعليم والبر والعناية بالمرضى فى المستشفيات ، بيد أن إسباغ الصفة العلمانية على هذه الوظائف كان يسير قدماً فى سائر أنحاء غربى أوروبا ، حتى فى المناطق التى كانت تغلب عليها

الكاثوليكية : وكان ضعف الغيرة الدينية والنزعات الدنيوية الأخرى تحتجز تدفق المترهبين على المؤسسات الديرية . وانخفض عدد هؤلاء المترهبين إلى حد بدا أنه لا يتناسب مع فخامة مبانيهم والدخل الذى تدره أراضيهم . ومما يؤسف له أن الموقف قوبل بالاندفاع الفجائى الفظ من كروموِيل ، بدلا من خطة ولزى الإنسانية ، والأسلم ، وتنحصر فى تحويل المزيد من الأديار إلى كليات .

وكانت الوسيلة التى لجأ إليها هنرى هنا ، كما فعل من قبل فى سعيه للحصول على ابن ، أسوأ من الهدف الذى ينشده . لم يكن هنا بأس فى وضع نهاية ، إلى حد ما ، لاستغلال ورع ساذج بغش يتظاهر بالورع . وإنا لنعرب عن عظيم أسفنا لما حدث للراهبات اللاتى كن فى الغالب الأعم يشقين قياما بالواجب فى إقامة الصلوات والتدريس وأعمال البر ، بل إن المرء الذى لا يستطيع أن يشاركهن إيمانهن الذى لا يتزعزع يجب أن يكون شاكرا لأن لهن مثيلات يمددن يد العون مرة أخرى ، بإخلاص يدوم مدى الحياة ، ويلبين حاجة المرضى والفقراء .

٢ — الايرلندى العنيد ١٣٠٠ — ١٥٥٨

برر الملوك الإنجليز سيطرتهم على إيرلندة على أساس أن قوة معادية فى القارة يمكن فى أى لحظة أن تستخدم هذه الجزيرة الخضرة للقيام بهجوم جانبى على إنجلترا ، وأصبح هذا الاعتبار ، بعد حب السلطة ، أشد قوة عند ما فشلت إنجلترا البروتستانتية فى كسب إيرلندة إلى صفها من الكنيسة الرومانية . وكان الشعب الإيرلندى ، الذى يعشق البطولة والفوضى والمشهور بالرجولة والعنف ، والموهبة الشاعرية ، والذى يفتقر إلى النضج السياسى ، يقاوم كل يوم خضوعه لدم أجنبى ولغة دخيلة .

وازدادت سيئات الاحتلال الإنجليزى . وعاد كثير من ملاك الأراضى ، الإنجلو — ايرلنديين إلى إنجلترا فى عهد إدوارد الثالث ، ليعيشوا هناك فى يسر على ما تدره إيجارات الأراضى الإيرلندية ، وعلى الرغم من أن المجلس النيابى الإنجليزى ندد مراراً بهذا العمل فإن « ماكية الأرض الغائبة » ازدادت خلال ثلاثة قرون ، لتصبح حافزاً أكبر للثورات الأيرلندية . ومال الإنجليز الذين ظلوا فى إيرلندة إلى الزواج من فتيات إيرلنديات ، وامتزجوا تدريجيا بالدم الإيرلندى ، وألفوا طرق العيس الإيرلندية . وكان المجلس النيابى الإيرلندى ، الذى يسيطر عليه المقيمون الإنجليز ، ويغلب عليه النفوذ الإنجليزى ، تواقا إلى سد هذه البالوعة السلالية فأجاز قانون كالكتى الشهير (١٣٦٦) الذى منع ، مع بعض النصوص السخية التى لا تخلو من حكمة الزواج المختلط أو التربيب أو أى علاقات آلفة أخرى بين الإنجليز والايرلنديين فى إيرلندة وأى حديث بالإيرلندية أو تقليد للعادات الإيرلندية أو ارتداء الزى الإيرلندى بواسطة الإنجليز ، وإلا تعرضوا للسجن وخسارة الممتلكات . ولم يكن يحق لإيرلندى آنذاك أن يستقبل فى أى منظمة دينية إنجليزية ، ولا لمنشدين أو قصاصين إيرلنديين أن يدخلوا بيوتا إنجليزية(٢٤). وفشل هذا الحظر فقد تألقت الورود الإيرلندية ، وفاقت سلطة القانون واستمر الاندماج السلالى فى تلك المناطق الضيقة مارشى أو بوردر أو بيل التى لم يجرؤ الإنجليز على السكنى إلا فيها وحدها(*) .

وكان يمكن إيرلنده إبان حروب الوردتين أن تطرد الإنجليز ، لو أن الزعماء الإيرلنديين اتحدوا ، ولكنهم آثروا النزاع الأخوى ، وشجعهم أحيانا على هذا الذهب الإنجليزى . ووطد هنرى السابع من جديد السلطة

(*) كانت منطقة « بيل » فى عام ١٥٠٠ مقصورة على كونتيات دبلن وميث واوث وجزء من كيلدار .

الإنجليزية فى منطقة بيل ، ودفع نائبه الإقطاعى سير إدوارد بوينجز فى المجلس النيابى الايرلندى « قانون بوينج » المذل (١٤٩٤) ، ونص على أنه ليس للمجلس النيابى الإيرلندى أن ينعقد المستقبل حتى تكون كل مشروعات القوانين المقدمة له قد وافق عليها الملك والمجلس الخاص فى إنجلترا .

وأصبحت الحكومة الإنجليزية فى إيرلندة ، بعد أن أضعفت إلى هذا الحد ، أشد الحكومات فى العالم المسيحى عجزا وجورا وفسادا . وكانت حيلتها الأثيرة هى تعيين واحد من سنين زعيما إيرلنديا كمندوب لنائب الملك . وتفويضه فى شراء أو إخضاع الباقين . وحقق جيرالد إيرل كلدار الثامن ، الذى عين على هذا النحو ، شيئاً من التقدم فى هذا الاتجاه وخفف من حدة التمرد بين القبائل ، مما ساعد المظالم الإنجليزية على إبقاء إيرلندة ضعيفة وفقيرة . وعند وفاته (١٥١٣) عين ابنه جيرالد فيتزجيرالد ليخلفه كنائب . وكان لهذا الإيرل التاسع لكلدار سير حياة جارية نمطية للوردات الإيرلنديين . واتهم بالتآمر مع إيرل أف دزموند بالسماح لقوة فرنسية بالنزول إلى أرض إيرلندة ، فاستدعى إلى إنجلترا وحكم عليه بالسجن فى البرج . وأطلق هنرى الثامن سراحه ، وعينه من جديد نائباً لدى وعده بمساعدة القضية الإنجليزية بإخلاص . وسرعان ما أتهم بسوء الحكم وأحضر إلى إنجلترا مرة أخرى وأرسل من جديد إلى البرج حيث مات خلال عام (١٥٣٤) ، وأعلن ابنه المخلص « سلكن توماس » (توماس الحريرى) فتز جيرالد على الفور الحرب على الإنجليز ، وحارب بشجاعة وتهور أربعة عشر شهرا وقهر وشنق (١٥٣٧) .

وفى هذا الوقت كان هنرى الثامن قد أكمل إجراءات انفصاله عن الكنيسة الرومانية . وأمر المجلس النيابى بقحة تميز بها أن يعترف به رئيساً للكنيسة فى إيرلندة ، وكذلك فى إنجلترا ، فأذعن ، وطلب من جميع الموظفين

الحكوميين فى إيرلندة أن يحلفوا يمينا بقبول سيادته الكنسية ، وفرض أن تدفع كل ضرائب العشور الكنسية منذ ذاك إلى الملك . ودخل المصلحون الدينيون إلى الكنائس فى منطقة النفوذ الإنجليزى فى إيرلندة وحطموا المخلفات والتماثيل الدينية . وأغلقت الأديار جميعاً ما عدا قلة فى مكان قصى ، واستولت الحكومة على ممتلكاتها ، وطرد رهبانها على أن يمنحوا معاشا إذا لم يثيروا ضجيجا . ووزعت بعض الأسلاب على الزعماء الإيرلنديين وقبل معظمهم ، بعد أن رشوا على هذا النحو ، ألقاب نبلاء من الملك الإنجليزى ، واعترفوا بسيادته الدينية وأنكروا قسمهم للبابا (١٥٣٩)[٢٥] . وألغى نظام العشيرة ، وأعلن أن إيرلندة مملكة ، وهنرى ملك لها (١٥٤١) .

كان هنرى منتصرا ولكنه فان ، ومات فى خلال خمس سنوات من انتصاره . وبقيت الكاثوليكية فى إيرلندة . واعتبر الزعماء مروقهم حادثا عابرا فى السياسة وظلوا كثالكة (كما فعل هنرى) ، اللهم إلا فيما يختص بتجاهل البابا ، وظل القساوسة الذين أيدوهم فى خدماتهم الدينية وتقبلوها محافظين تماما فى العقيدة . ولم تتعرض عقيدة الشعب لأى تغيير أو بالحرى اكتسبت حيوية جديدة ، لأنها حافظت على عزة القومية فى وجه ملك ينزع إلى الانشقاق ، وفيما بعد أمام ملكة بروتستانتية . وأصبح الكفاح من أجل الحرية أشـــد مما كان عليه من قبل ، لأنه كان وقتذاك يدور لصالح الجسد والروح .

٣ — ملك من قمة رأسه إلى اخمص قدميه

كان هنرى فى عام ١٥٤٠ أعظم ملك يحكم حكما مطلقا عرفته إنجلترا . وكان النبلاء النورمنديون القدامى الذين كبحوا جماح وليام الفاتح ، يخضعون صاغرين فى جبن ، ونسوا تقريباً العهد الأعظم (الماجناكارتا) الذى نص

على امتيازاتهم . أما النبلاء الجدد ، الذين أثروا من التجارة وأنعم عليهم الملك ، فقد وقفوا حاجزا أمام الثورات الأرستقراطية أو الدينية . وأذعن له مجلس العموم الذى كان يوما الحامى الغيور للحريات الإنجليزية ، وكان وكلاء الملك وقتذاك قد اختاروه بعناية ، وخول تقريباً سلطات لم يسبق لها مثيل : الحق فى مصادرة الأملاك وتعيين من يشاء خلفا له ، وتحديد العقيدة المحافظة والهرطقة ، وإرسال رجال للإعدام بعد محاكمة مزيفة ، وإصدار إعلانات لها سلطة القوانين الصادرة من المجلس النيابى « كانت روح الاستقلال الإنجليزية فى عهد هنرى تشتعل خافتة فى وقبها وحب الحرية غدا فاترا[٢٦] » . وقبل الشعب الإنجليزى هذا الحكم المطلق بسبب الخوف من ناحية ؛ ولأنه خيل إليه أنه البديل لحرب ورد أخرى . كان النظام أهم من الحرية .

وأغرت نفس البديلات الإنجليز بتحمل سيادة هنرى على الشئون الكنسية ، وعند ما رأى هنرى أن الكثالكة والبروتستانت على استعداد لأن يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ورأى أن المواطنين الكاثوليك والسفراء والحكام يتآمرون ضده إلى حد الغزو تقريباً ، اعتقد أن النظام لا يمكن أن يستتب فى الحياة الدينية فى إنجلترا إلا بتحديد الملك للعقيدة والشعيرة ، وقبل ضمنا حالة السلطة فى الدين التى كانت من صنع الكنيسة . وحاول أن يملى من يجب أن يتلو الكتاب المقدس . وعند ما صادر الأساقفة ترجمة تندال للكتاب المقدس ، أمرهم بإعداد ترجمة أفضل ، وعند ما توانوا طويلا سمح لكرومويل بتفويض مايلز كوفردال فى إعداد ترجمة جديدة . وظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية فى زيورخ عام ١٥٣٥ . ونشرت عام ١٥٣٩ طبعات منقحة ، وأمر كرومويل بأن يوضع هذا « الكتاب المقدس العظيم » فى كل كنيسة إنجليزية . ومنح هنرى « بدافع من الكرم والطيبة الملكيين » المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس فى بيوتهم ، وسرعان ما أصبح تقليدا

يوميا عند كل أسرة إنجليزية تقريبا . ولكنه كان ينبوعا للشقاق والإلهام أيضا ، فقد أنبتت كل قرية مفسرين هواة ، أثبتوا أى شىء أو عكسه بما ورد فى الكتاب المقدس ، وتجادل المتعصبون حوله فى الكنائس ، وتعرضوا لضربات بشأنه فى الحانات(٢٧) . ومنح بعض الرجال الطموحين زوجاتهم أوامر قضائية بالطلاق ، أو احتفظوا بزوجتين فى آن واحد ، بحجة أن هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس(٢٨) ؛ وأسف الملك لحرية التلاوة التى منحها للناس ، وعاد إلى مظاهرة الكاثوليك ؛ وحث المجلس النيابى عام ١٥٤٣ على سن قاعدة بأنه لا يجوز قانونا حيازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء والملاك ، ولا يجوز لغير القساوسة الوعظ به أو الجدال فيه علنا(٢٩).

وكان من الصعب على الناس — وحتى على الملك — أن يعرف ما يدور فى ذهن الملك ؛ واستمر الكثالكة يرسلون إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادته فى الشئون الكنسية ، والبروتستانت بسبب جدلهم فى اللاهوت الكاثوليكى ؛ وعُلِّق فورست وهو رئيس شعبة المتشددين من الفرنسسكان الممتثلين فى جرينوتش ، رفض أن ينكر سلطة البابا ، على نار وهو مكبل بالأغلال ، وشوى ببطء حتى مات (٣١ مايو سنة ١٥٣٧(٣٠)) .

وقبض على جون لامبرت ؛ وهو بروتستانتى بسبب إنكاره وجود المسيح حقيقة فى القربان المقدس ، وحاكمه هنرى بنفسه ، وحكم عليه هنرى بالموت وأحرق فى سمثفيلد (١٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨) ومع تزايد نفوذ ستيفن جاردنر أسقف ونشستر مال هنرى أكثر وأكثر نحو العقيدة المحافظة . وفى عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابى والمجمع الاكليروسى بـ « قانون المواد الستة » موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى موضوعات الحضور الحقيقى للمسيح وعزوبة رجال الاكليروس وأقسام رهبان الدير والقداسات من أجل

الموتى ، وضرورة الاعتراف السرى أمام قسيس وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد . وكل من ينكر شفاها أو كتابة ، الحضور الحقيقى للمسيح ، يتعرض للموت حرقا دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال أو للاعتراف أو الغفران ، وكل من ينكر أية مادة أخرى يجب أن تصادر أملاكه عند ارتكابه الذنب لأول مرة وتزهق روحه عند ارتكابه له مرة أخرى .

وأعلن أن كل الزيجات التى عقدها القساوسة حتى وقتذاك باطلة ، وأى قسيس يحتفظ بزوجته بعد ذلك يعد مرتكبا لجريمة الخيانة العظمى[٣١] . وكان الناس لا يزالون محافظين من حيث العقيدة ، فوافقوا على هذه المواد ، غير أن كرومويل بذل جهده لتخفيفها عند التطبيق ، وفى عام ١٥٤٠ تحول الملك مرة أخرى ، فأمر بوقف المطاردة بموجب هذا القانون . . . ومع ذلك فإن الأسقفين لاتيمر وشاكستون ، اللذين لم يوافقا على مواد القانون ، عزلا وسجنا . وفى يوم ٣٠ يوليو سنة ١٥٤٠ تعرض ثلاثة من البروتستانت وثلاثة من الكاثوليك للموت فى سمثفيلد فى وفاق تم رغم إرادتهم ، أما البروتستانت فلأنهم حاولوا التشكيك فى بعض العقائد الكاثوليكية ، وأما الكثالكة فلأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة الملك على الشئون الكنسية[٣٢] .

وكان هنرى قويا شديداً فى الحكم وفى اللاهوت ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بحاشية كثيرة العدد ، وقضى وقتاً طويلا فى التهام الطعام ، فإنه تعب كثيراً فى الاضطلاع بأعباء الحكم . واختار أعواناً مهرة جائرين مثله . وأعاد تنظيم الجيش ، وجهزه بأسلحة جديدة ، ودرس آخر ما توصل إليه الخبراء فى التكتيك والاستراتيجية . وبنى أول أسطول بحرى ملكى دائم طهر السواحل والقناة من القراصنة ، وأعد العدة للانتصارات البحرية التى تمت فى عهد اليزابث ، ولكنه فرض على شعبه مكوساً إلى الحد الذى

يحتمله ، وخفض قيمة العملة مراراً ، وصادر الأملاك الخاصة بحجج واهية ، أو طلب « اشتراكات » ، وأنكر ديونه ، واقترض من آل فوجر ، وروج الاقتصاد الإنجليزى مؤملا أن يعود عليه بدخل إضافى .

وكانت الزراعة فى تدهور ، وكان رق الأرض لا يزال منتشراً . ولم ينقطع تسوير الأراضى لترعى فيها الأغنام وضاعف ملاك الأراضى الجدد ، الذين لم تصدهم تقاليد الإقطاع ، إيجارات الأراضى مرتين أو أربع مرات على مستأجريهم ، بحجة ارتفاع الأسعار ، ورفضوا تجديد عقود الإيجار المنتهية « وشق آلاف من المستأجرين الذين جردوا من أراضيهم المستأجرة طريقهم إلى لندن وطرقوا بشدة أبواب المحاكم لرفع الظلم ، وهو أمر لم يستطيعوا الحصول عليه[٣٣] » .

ورسم مور الكاثوليكى صورة مؤثرة للفلاحين المتسولين[٣٤] ، وندد لاتيمر البروتستانتى بـ « اللوردات الحديثى النعمة الذين يرفعون الإيجارات » ، ورأى مثل لوثر ماضياً مثالياً كاثوليكياً عندما كانت أفئدة الرجال مفعمة بالشفقة والحنان[٣٥] . « وفرض المجلس النيابى عقوبات صارمة على الضرب فى الآفاق والتسول . وكان قانون ١٥٣٠ — ٣١ يفرض على كل من يتسول ، ويكون قادراً جسمانياً على العمل ، سواء كان رجلا أو امرأة ، أن يشد وثاقه إلى عربة وهو عار ويجلد بالسياط فى سائر أنحاء المدينة إلى أن يتلطخ جسده بالدم » . وإذا عاد لارتكاب الذنب مرة أخرى تقطع أذنه ، وإذا ارتكب مرة ثالثة تقطع أذنه الأخرى ، ومهما يكن من أمر فإن ارتكاب الذنب للمرة الثالثة كان يعرض المتسول للإعدام[٣٦] . ووجد الفلاحون المبعدون تدريجاً عملا فى المدن وخففت الإغاثة المقررة للفقراء من وقع الخصاصة . وارتفعت إنتاجية الأرض فى آخر الأمر بالزراعة على نطاق واسع بيد أن عجز الحكومة عن تخفيف التحول كان بمثابة فشل إجرامى قاس للحنكة السياسية .

وأسبغت الحكومة نفسها الحماية على الصناعة بالتعريفات الجمركية : وأفاد أصحاب المصانع من رخص أجر العمل ، الذى تيسر بهجرة الفلاحين للمدن ، وأعادت الطرق الرأسمالية تنظيم صناعة النسيج ، ورفعت طبقة جديدة من الأثرياء ، لتقف إلى جانب التجار فى مساندة الملك . وحل القماش محل الصوف باعتباره أهم صادرات إنجلترا . وكانت معظم الصادرات من الضروريات التى تنتجها الطبقة الدنيا ، وكانت معظم الواردات من سلع الترف التى لا يحصل عليها إلا الأغنياء(٣٧) .

وأفادت التجارة والصناعة من قانون صدر عام ١٥٣٦ يغير أسعار الفائدة بواقع ١٠ فى المائة . وكان ارتفاع الأثمان السريع فى صالح المشروع وبمثابة عقاب حكم به على العمال والفلاحين واللوردات الإقطاعيين من النمط القديم . وارتفعت الإيجارات إلى ١٠٠٠ فى المائة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٧٦(٣٨) . وارتفعت أسعار الطعام من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ فى المائة ، وارتفعت الأجور بمقدار ١٥٠ فى المائة(٣٩) . وكتب توماس ستار فى حوالى عام ١٥٣٧ : « أن الفقر يسود الآن إلى حد يقف فيه أمام أى خير حقيقى ومزدهر للجماعة(٤٠) » .

ووجد أعضاء الطوائف الحرفية شيئاً من الفرج فى التأمين والمساعدة المتبادلة ، زودهم بما يسد رمقهم ، أمام الفقر والنار ، غير أن هنرى صادر عام ١٥٤٥ أملاك الطوائف الحرفية(٤١).

٤ – التنين بتقاعد

أى ضرب من الرجال كان هذا الملك الغول ؟ لقد رسم هولبين الصغير ، الذى جاء إلى إنجلترا حوالى عام ١٥٣٦ ، صوراً شخصية لهنرى وجين سيمور . فالكساء الفاخر يكاد يخفى بدانة الملك ، والأحجار الكريمة

وفرو الفاقم ، واليد التى تقبض على سيف محلى بالجواهر ، تكشف عن استعلاء السلطة وزهو رجال لم يجد من يقاومه ، والوجه العريض المكتنز ينم على ميل شديد للذات الحسية ، والأنف دعامة قوة ، والشفتان المضمومتان والعينان القاسيتان تنم على طاغية مستبد سريع الغضب بارد إلى حد القسوة . وكان هنرى وقتذاك فى السادسة والأربعين ، فى أوج مجده السياسى ، ولكن بدأ الضعف يدب فى جسده . وقدر له أن يتزوج ثلاثا مرة أخرى ، ومع ذلك لم يرزق بعدها بذرية . ولم ينجب من زوجاته الست سوى ثلاثة أطفال ، عاشوا إلى ما بعد سن الطفولة . وأحد هؤلاء الثلاثة ، وهو إدوارد السادس ، كان معتل الصحة ، ومات فى الخامسة عشرة من عمره ، وظلت مارى عاقراً بائسة عندما تزوجت ، أما اليزابث فإنها لم تجرؤ قط على الزواج ، وربما كان ذلك لشعورها بوجود عائق جسمانى . وأصابت لعنة شبه العقم أو العيب الجسمانى أعظم الأسر الحاكمة اعتزازاً بنفسها فى التاريخ الإنجليزى .

وكان هنرى حاد الذهن وحكمه على الرجال يدل على الفراهة ، وشجاعته عظيمة ، وقوة إرادته هائلة . وكان سلوكه فظا ، ووساوسا تبددت مع شبابه . ومهما يكن من أمر فإنه ظل مع أصدقائه شفوقاً كريماً ، ولطيفاً بشوشاً ، قادراً على كسب ودهم وإخلاصهم . وقد ولد ليكون ملكاً ، وأحيط منذ ولادته بالخضوع والملق ، ولم يجرؤ على معارضته إلا قليلون ، وقد دفنوا بعد أن قطعت رءوسهم . وكتب مور من سجن البرج : « مما يؤسف له كثيرا ولا شك أن نرى أى أمير مسيحى على استعداد لأن يلبى رغباته بوساطة مجلس يركع أمامه ، وبوساطة رجال دين ضعاف . . . والملق ، فاشتط فى ظلم الناس بصورة مخجلة[٤٢] ، كان هذا هو المصدر الخارجى لنكوص هنرى على عقبيه فى الخلق — فقد أدى عدم وجود مقاومة

لإرادته ، بعد وفاة مور ، إلى أن يصبح خائرا معنوياً وبدنياً . ولم يكن أكثر تهاوناً فى المجلس من فرانسيس الأول ويبدو أنه بعد حادث آن بولين قد أصبح أشد تحمساً للزواج بواحدة ، على التوالى ، من شارل الخامس . ولم يكن الانحلال الجنسى أسوأ نقيصة فيه . وكان نهمه للمال لا يقل عن نهمه للسلطة ، وقلما سمح لاعتبارات الإنسانية أن تقف فى وجه استيلائه على الأموال . وليس من شك فى أن استعداده المتسم بالجحود لقتل النساء اللاتى أحبهن أو الرجال ، أمثال مور وكروموبل ، الذين خدموه بإخلاص سنوات طوال ، أمر خسيس ، ومع ذلك يمكن القول أنه لم يسفك من الدماء عشر ما سفكه شارل التاسع حسن النية ، عندما أجاز مذبحة سانت بارتلوميو ، أو شارل الخامس عندما صفح عن نهب روما ، أو الأمراء الألمان عندما حاربوا ثلاثين عاماً للحصول على حقهم فى تحديد المعتقدات الدينية لرعاياهم .

والأصل الداخلى لفساده هو ما تعرضت له إرادته من إحباط متكرر فى الحب والأبوة . فقد خاب أمله طويلا فى الحصول على ابن ، وصد بطريقة خادعة فى طلبه المعقول إعلان بطلان زواجه الأول ، وخدعته (كما اعتقد) الزوجة التى خاطر من أجلها بعرشه ، وفقد سريعاً الزوجة الوحيدة التى أنجبت له وريثاً ، وخدعته فى الزواج امرأة أجنبية تختلف عنه تماماً فى اللغة والمزاج ، وخانته (كما ظن) زوجة خيل إليه أنها ستحقق له آخر الأمر بيتاً تخيم عليه السعادة — ها هو ملك كان يملك إنجلترا بأسرها ، ولكنه حرم من المباهج العائلية التى يستمتع بها أبسط زوج فى مملكته ، وكان يعانى من ألم متقطع بسبب قرحة فى ساقه ، وكافح الثورات والأزمات فى سائر مدة حكمه ، واضطر فى كل لحظة تقريباً أن يتسلح لصد الغزو والخيانة والاغتيال — فكيف كان فى وسع رجل مثل هذا أن ينمو ويصبح سوياً ، أو يتحاشى الفساد والتورط فى الشك والدهاء

والقسوة ؟ وكيف يتأتى لنا ، نحن الذين نغضب من وخز محنة نتعرض لها ، أن نفهم رجلا جمع فى عقله وفى شخصه عاصفة الإصلاح الدينى الإنجليزى وثقله ، وحرم شعبه بخطوات محفوفة بالمخاطر من ولاء جذوره عميقة ، ومع ذلك لا بد أنه كان حرياً بأن يشعر فى روحه المنقسمة بدهشة مفتتة — أحرر أمة أومزق شمل المسيحية ؟

كان الوسط الذى عاش فيه هو الخطر وكذلك السلطة . ولم يكن فى وسعه قط أن يعرف المدى الذى يصل إليه أعداؤه ، أو متى ينجحون . وفى عام ١٥٣٨ أمر بالقبض على سير جيوفرى بول شقيق ريجينالد . وخشى جيوفرى أن يتعرض للتعذيب ، فاعترف بأنه هو وشقيق آخر يدعى لورد مونتاجو ، وسير إدوار فيفيل والمركيز والمركيزة أف إكستر كانوا يتبادلون رسائل تنطوى على خيانة الدولة مع الكاردينال . وظفر جيوفرى بالصفح أما إكستر ومونتاجو وآخرون عديدون فقد شنقوا وشطروا إلى أربعة أقسام (١٥٣٨ — ٣٩) ، وأما ليدى إكستر فقد سجنت ، ووضعت الكونتيسة أف سالزبورى ، والدة بول وإخوته الأشقاء تحت الحراسة . وعندما زار الكاردينال شارل الخامس فى طليطلة (١٥٣٩) يحمل له طلبا لا طائل تحته من بول الثالث يرجو فيه من الإمبراطور أن ينضم إلى فرانسيس فى تحريم التجارة مع إنجلترا[٤٣] ، انتقم هنرى بالقبض على الكونتيسة ، التى كانت وقتذاك فى السبعين من عمرها ، ولعله كان يأمل بالاحتفاظ بها فى البرج ، أن يكبح جماح الكردينال للغزو . كان كل شىء عادلا فى لعبة الحياة والموت .

وبعد أن ظل هنرى عامين دون أن يتزوج أمر كرومويل أن يبحث له عن حلف بالمصاهرة يقوى سلطانه ضد شارل . فنصح كرومويل بالزواج من أن أخت زوجة الأمير المختار لسكسونيا ، وشقيقة الدوق أف كليفس الذى كان وقتذاك على خلاف مع الإمبراطور . وآلى كرومويل على نفسه

أن يتم هذا الزواج الذى كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية آخر الأمر ، وبهذا يجبر هنرى على إلغاء المواد الست المناهضة للوثر . وأرسل هنرى المصور هولبين لرسم صورة للسيدة ، ولعل كرومويل أضاف بعض التعليمات للفنان ، وجاءت الصورة ، ورأى هنرى أنها محتملة ، فهى تبدو حزينة ، لا تشجع فى الصورة التى رسمها هولبين ، والمعلقة فى متحف اللوفر ، ولكن تقاطيعها ليست أقل وضوحاً من جين سيمور التى رققت لحظة من قلب الملك .

وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها ، ووقعت أنظار هنرى عليها (أول يناير سنة ١٥٤٠) مات الحب لدى أول نظرة . وأغمض عينيه وتزوجها ، وتضرع مرة أخرى أن يرزقه الله بابن يوطد به وراثة العرش فى آل تيودور ، إذ كان مظهر الأمير إدوارد وقتذاك يدل على ضعفه الجسمانى . ولكنه لم يصفح قط عن كرومويل .

وأمر بالقبض على وزيره الذى أفاده أكثر من أى وزير آخر بعد أربعة شهور زاعماً غلطه وفساده . ولم يك يعترض د ، فقد كان كرومويل تابعاً يحظى بأكبر نصيب من الكراهية فى إنجلترا — بسبب أصله ووسائله وخسته وثروته . وطلب فى سجن البرج أن يوقع بيانات يعارض فيها صحة الزواج . وأعلن هنرى أنه لم يكن قد قدم « رضاه الباطنى » عن الزواج ، وأنه لم يدخل بزوجته قط . واعترفت آن بأنها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج ، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة . وكرهت أن تواجه أخاها ، فاختارت أن تعيش وحيدة فى إنجلترا ، وكان لها عزاء صغير فى أنها دفنت فى مقابر دير وستمنستر عند وفاتها (١٥٥٧) . وقطعت رأس كرومويل يوم ٢٨ يوليو سنة ١٥٤٠ .

وفى اليوم نفسه تزوج هنرى من كاثرين هوارد ، البالغة من العمر

عشرين عاماً ، وهى من أسرة كاثوليكية لا تحيد عن عقيدتها قيد أنملة ، وكان هذا كسباً للحزب الكاثوليكى . وكف الملك عن أن يتقرب من البروتستانت بالقارة ، وعقد صلحاً مع الإمبراطور . وعندما شعر بأنه أصبح أخيراً آمناً فى ذلك الحمى تحول بفكره شمالا معلقاً الآمال على ضم اسكوتلنده ، وبذلك يكمل دائرة الحدود الجغرافية لبريطانيا ويضمن لها الأمن . وصرفته عن هذا ثورة أخرى فى شمالى إنجلترا . وقبل أن يرحل لقمعها وإخماد مؤامرة دبرت وراء ظهره ، أمر بإعدام جميع المسجونين السياسيين فى البرج ومنهم الكونتيسة أ ف سالزبورى (١٥٤١) . وانهارت الثورة وعاد هنرى إلى هامبتون كورت يتخبط فى الهموم ، لينشد السلوى عند مليكته الجديدة .

وكانت كاترين الثانية أجمل زوجاته ، وتعلم الملك كيف يحبها تقريباً ، وهو يعتمد أكثر من قبل على الخدمات الجديرة بزوجة ، وحمد الله على الحياة الطيبة التى كان يعيشها ، والتى راوده الأمل فى أن يحققها تحت إشرافها ، ولكن فى اليوم الذى ردد فيه تسبيحة الشكر هذه (٢ نوفمبر سنة ١٥٤١) سلمه رئيس الأساقفة كرانمر وثائق تدل على أن كاترين كانت لها علاقات سابقة للزواج مع ثلاثة خاطبين متعاقبين : واعترف اثنان من هؤلاء وكذلك اعترفت الملكة . وقال السفير الفرنسى فى تقرير له : أن هنرى تملكه حزن شديد ، حتى ساد الاعتقاد بأنه جن[٤٤] . وأمضه الخوف من أن تكون لعنة الله قد حلت بكل زيجاته . وكان يميل إلى الصفح عن كاترين ، ولكن قدم إليه دليل على أنها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك . وأقرت بأنها استقبلت ابن عمها فى جناحها الخاص فى ساعة متأخرة بالليل ، ولكن حدث هذا فى حضور الليدى روشفورد ، وأنكرت أنها ارتكبت أى ذنب وقتها ، أو فى أى وقت منذ زواجها ، وشهدت ليدى روشفورد بصحة هذه البيانات بقدرما وصل إلى علمها[٤٥]. بيد أن المحكمة

الملكية أعلنت أن الملكة مذنبة . وفى يوم ١٣ نوفبر سنة ١٥٤٢ قطع رأسها فى نفس البقعة التى سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات ، أما عشاقها فقد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة .

وكان الملك وقتذاك رجلا محطماً . وأعيت قرحته طب عصره ، وكان الزهرى للذى لم يشف منه تماماً ينتشر ويعيث فساداً فى هيكله[٤٦]. وبعد أن فقد لذة الحياة سمح لنفسه بان يصبح كتلة ضخمة من اللحم ، وكان خداه متهدلين ويكادان يغطيان فكيه ، وكادت عيناه الضيقتان أن تختفيا فى تلافيف وجهه . ولم يكن فى وسعه أن يسير من غرفة إلى أخرى دون أن يستند إلى أحد . وأدرك أنه لن يعيش إلا بضع سنوات فأصدر (١٥٤٣) مرسوماً جديداً يحدد فيه وراثة عرشه : يتولاه أولا إدوارد ثم مارى ثم اليزابيث ، ولم يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن من تليهم فى سلسلة النسب هى مارى ستيوارت ملكة اسكوتلنده . وقام بمحاولة لكى ينجب ولداً صحيحاً معافى ، بعد أن حثه مجلسه مراراً فبنى بزوجة سادسة (١٢ يوليو سنة ١٥٤٣) . وكانت كاترين بار قد عاشت بعد وفاة زوجين سابقين ، ومع ذلك فإن الملك لم يعد يصر على الزواج من عذارى . وكانت امرأة على حظ من الثقافة والفطنة ، فقامت برعاية مريضها الملك فى صبر ، وصالحته مع ابنته اليزابيث ، التى طال إهماله لها ، وحاولت أن تلطف لاهوته ، وتخف حماسته للاضطهاد .

ولم تنقطع المشاعل اللاهوتية حتى نهاية حكمه ، فأحرق ستة وعشرون شخصاً بتهمة الهرطقة فى الثمانى السنوات الأخيرة من عهده ، وفى عام ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنرى فيلمر قال : « إذا كان الرب موجوداً حقاً (فى القربان المقدس) فإنى أكون قد أكلت فى حياتى عشرين ربا » ، وأن روبرت تستوود حذر القسيس عند رفع القربان المقدس ، من أن يترك الرب يسقط ، وأن أنتونى بيرسون وصف كل

قسيس يعظ الناس بأى شيء سوى « كلمة الله » — أى الكتاب المقدس — يكون لصاً . وأحرق كل هؤلاء الرجال تنفيذاً لأوامر أصدرها الأسقف الإنجليكانى ، فى مرج أمام القصر الملكى فى وندسور . وانزعج الملك لأنه وجد أن الدليل الذى قدمه شاهد فى هذه القضايا كان قسما زوراً ، وأرسل الجانى الأثيم إلى سجن البرج[٤٧] . وفى عام ١٥٤٦ أدان جاردنر أربعة آخرين ، وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان المقدس . وكانت إحداهم امرأة شابة تدعى آن اسكيو تشبثت بهرطقتها طوال خمس ساعات من الاستجواب وقالت فى محاكمتها : « إن ما تسمونه ربكم قطعة من الخبز ، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها فى صندوق لمدة ثلاثة شهور لتعفنت » . وعذبت حتى أشرفت على الموت لكى تكشف عن أسماء هراطقة آخرين ، وظلت صامتة لم تنبس ببنت شفة ، وهى تتوجع ، وسارت إلى حتفها وهى تقول : « إننى سعيدة كواحدة كتب عليها أن تتجه للسماء[٤٨] » . ولم يكن للملك دور فعال فى هذه المطاردات غير أن الضحايا استغاثوا به دون جدوى .

واشتبك عام ١٥٤٣ فى حرب مع اسكتلنده و « وأخيه المحبوب » فرانسيس الأول ، وسرعان ما وجد نفسه متحالفا مع عدوه القديم شارل الخامس ، ولكى يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم « قروض » جديدة ، وامتنع عن سداد قروض عام ١٥٤٢ وصادر الهبات للجامعات[٤٩] . وحمل إلى ميدان القتال ليشترك فيها شخصياً وأشرف على حصار بولونيا والاستيلاء عليها . وغزت جيوشـــه اسكتلنده ، وهدمت أديار ملروز ودرايبورج وخمسة أديار أخرى ، ولكنها هزمت هزيمة منكرة فى أنكرم مور (١٥٤٥) . وأبرم اتفاق فيه فائدة مع فرنسا (١٥٤٦) ، واستطاع الملك أن يموت فى سلام .

وكان وقتذاك ضعيفا واهناً إلى حد أن الأسر النبيلة أخذت تتنازع

فيما بينها على من تكون له الوصاية على إدوارد الصغير . وكان إيرل أف سورى ، وهو شاعر ، واثقا أن أباه الدوق أف يورك سوف يكون وصيا إلى حد أنه اتخذ درعا وضع عليه شارة لا تصلح إلا لولى العهد، وقبض هنرى عليهما معا فاعترفا بأنهما مذنبان وقطع رأس الشاعر فى التاسع من يناير عام ١٥٤٧ ، أما الدوق فقد سجل فى قائمة انتظار الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد السابع والعشرين فورا .

ولكن الملك مات فى اليوم الثامن والعشرين . وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه عاش عمره عشرات المرات . وترك مبلغا كبيرا . يدفع لإقامة قداسات لكى ترقد روحه فى اطمئنان .

وقد دام عهده سبعة وثلاثين عاما ، حول إنجلترا إلى بلاد أخرى أعمق مما كان يتصور أو يشتهى . وفكر فى أن يخلف البابا ، ويترك العقيدة القديمة التى عودت الناس على القيود الأخلاقية والخضوع للقانون دون أن يمسها بتغيير ، ولكن تحديه للبابوية الذى صادفه التوفيق ، وتشتيته السريع للرهبان والمخلفات ، وإذلاله المتكرر لرجال الإكليروس ، ونزعه للملكية الكنيسة وإسباغ الصفة العلمانية على الحكومة ، كل ذلك أضعف الهيبة الكنسية والسلطة الدينية إلى حد كبير ، مما أدى إلى حدوث التغييرات اللاهوتية التى أعقبت ذلك فى عهدى إدوارد واليزابث . كان الإصلاح الدينى الإنجليزى أقل اعتمادا على العقيدة من الإصلاح الدينى الألمانى ، ولكنهما أثمرا نفس النتيجة البارزة — وهى انتصار الدولة على الكنيسة . ونجا الشعب من براثن بابا معصوم ليقع فى أحضان ملك مستبد .

ولم يغنم شيئا من الناحية المادية فقد دفع ضرائب العشور كما دفع من قبل ، غير أن صافى الفائض عاد إلى الحكومة . وكان كثير من الفلاحين يزرعون وقتذاك أراضيهم المستأجرة « للورداتهم المحدثين » ، وكانوا

أشد قسوة من الرهبان الذين اتخذ منهم كارلايل مثالا فى كتابه : « الماضى والحاضر » .

ومن رأى وليام كوبت أن « الإصلاح الدينى الإنجليزى » كان فى الحقيقة من وجهه الاجتماعى ، ثورة قام بها الأغنياء ضد الفقراء[٥٠] ، وتشير سجلات الأسعار والأجور إلى أن العمال الزراعيين وعمال المدن كانوا أحسن حالا عند ما ارتقى هنرى العرش منهم عند وفاته[٥١] .

وكانت المظاهر الأخلاقية لهذا العهد سيئة . فقد ضرب الملك للأمة مثلا يدل على فساد خلقه بانغماسه فى علاقات جنسية وبانتقاله الفظ فى خلال بضعة أيام من مصرع زوجة إلى فراش الزوجة التالية وبقسوته الهادئة وعدم أمانته المالية وجشعه المادى . وأشاعت الطبقات العليا الفوضى فى البلاط والحكومة بما دبرته من مؤامرات فاسدة . وتبارى الأعيان مع هنرى فى الاستحواذ على ثروة الكنيسة ، وابتز رجال الصناعة عمالهم وابتزهم الملك : ولم تكمل الصورة باضمحلال البر لأنه بقى هناك الخضوع الحقير لحاكم مطلق أنانى من شعب يرتجف هلعا . ولم ينقذ الموقف سوى شجاعة الشهداء البروتستانت والكاثوليك وأشرفهم فيشر ومور قد اضطهدا فى دورهما .

وإذا تأملنا بمنظور واسع هذه السنوات المريرة نجد أنها كانت تحمل بعض الثمار الطيبة . ولم يكن هناك بد من الإصلاح الدينى . ولا بد أن نذكر أنفسنا مرارا وتكرارا بهذا ونحن نسجل شيطنة القرن الذى ولد فيه ، كان الانفصام عن الماضى عنيفا ومؤلما ولم يكن فى الإمكان زعزعة قبضته على أذهان الناس إلا بتوجيه ضربة وحشية . وعندما أزيل الكابوس أصبحت روح القومية ، التى سمحت فى أول الأمر بالاستبداد ، حماسة شعبية وقوة خلاقة . وأدى تخلص الشئون الإنجليزية من البابوية إلى ترك الناس تحت رحمة الدولة حينا من الزمن ، ولكنه أجبرهم فى المدى الطويل على الاعتماد

على أنفسهم فى كبح جماح حكامهم والمطالبة ، عقدا وراء عقد ، بقدر من الحرية يكافئ ذكاءهم . ولن تكون الحكومة قوية دائما كما كانت فى عهد هنرى الرهيب ، بل سوف تكون ضعيفة فى عهد ابن عليل وابنة تطوى جوانحها على مرارة شديدة ، ثم تنهض الأمة بعد أن تتفجر طاقتها المنطلقة من عقالها فى عهد ملكة مذبذبة ، ولكنها ظافرة ، وترفع نفسها إلى مرتبة زعامة الفكر الأوروبى . ولو لم تكن إنجلترا قد تحررت على يد أسوأ وأقوى ملوكها فربما كان قدر للعالم أن لا يرى اليزابث وشكسبير .

الفصل السادس والعشرون

إدوارد السادس ومارى تيودور

١٥٤٧ — ١٥٥٨

١ — حماية سومرست

لقد رسم هولبين صورة تعد من أعظم صوره على الإطلاق جاذبية للصبى البالغ من العمر عشر سنوات ، والذى ارتقى عرش إنجلترا باسم إدوارد السادس ، وذلك قبل ارتقائه العرش بأربع سنوات : قلنسوة مزينة بالريش ، وشعراً أحمر ، ورداء له بنيقة من فرو القاقم ، ووجهاً فيه من الدعة والرقة التى تنم على قلق دفين ، ما يدفعنا إلى الظن بأنه ورث كل هذه الصفات من جين سيمور ولم يرث شيئاً من هنرى الثامن . ولعله ورث عنها ضعفها الجسمانى الذى جعلها تدفع حياتها فداء له ، ولم يوفق يوما فى الحصول على القوة التى تعينه على الحكم . ومع ذلك فإنه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره أميراً أو ملكاً بإخلاص نبيل ، فدرس اللغات والجغرافية وفن تدبير الحكم والحرب بشغف ، وفرض رقابة دقيقة على كل شئون الدولة التى تصل إليها معرفته ، وأبدى للجميع ما عدا الكثالكة المنشقين شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة ، إلى حد أن إنجلترا ظنت أنها دفنت غولا لتتوج قديساً . وتعلم على يد كرانمر فأصبح بروتستانتيا متحمساً ، ولم يكن من أنصار توقيع أى عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة ، ولكنه كره أن يترك أخته غير الشقيقة مارى تحضر القداس ، لأنه كان يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضروب عبادة الأوثان كفراً . وقبل مسروراً القرار الذى اتخذه المجلس

الملكى باختيار عمه إدوارد سيمور — الذى أنعم عليه حالا بلقب دوق أف سومرست — وصيا عليه ، وقد آثر انتهاج سياسة بروتستانتية .

كان سومرست رجلا على حظ من الذكاء والشجاعة ، ويتصف بتماسك ، يشوبه بعض النقص ، وإن كان فى عصره من السجايا البارزة ، وكان وسيما رقيق الحاشية كريما ، وأخجل بسيرته الطبقة الأرستقراطية الجبانة التى كانت لا تنشد إلا مصلحتها ، وتغفر له كل شىء إلا تعاطفه مع الفقراء . وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، فإنه قضى على الحكم المطلق الذى أقامه هنرى السابع وهنرى الثامن ، وسمح للناس بحرية أكبر فى التعبير بالكلام ، وخفض عدد الأفعال التى كانت تعد فيما سبق من قبيل خيانة الدولة أو الخيانة العظمى ، واقتضى وجود دليل أقوى للحكم بثبوت الجريمة ، وأعاد إلى أرامل المحكوم عليهم صداقهن ، وألغى القوانين الجائرة الخاصة بالدين والتى صدرت فى العهد السابق . وظل الملك رئيساً للكنيسة الإنجليزية . وكان الحديث فى غير خشوع عن القربان المقدس جريمة تستحق العقاب ، بيد أن القانون نفسه أمر بأن يقدم القربان المقدس بالصورتين المعروفتين ، ونص على أن الإنجليزية هى لغة الصلاة ، ورفض المطهر والقداسات للموتى . وعاد البروتستانت الإنجليز الذين كانوا قد فروا من إنجلترا ومعهم لقاح لوثر وزوينجلى وكالفن ، وعندما اشتم مصاحبون أجانب عبير الحرية الجديدة ، جاءوا معهم إلى الجزيرة المضطربة بأناجيل متعددة .

وأقبل بيتر مارتير فيرمجلى ومارتن بوسر من ستراسبورج ، وجاء برنادرينو أوكينو من أجسبورج ، وجان لاسكى من إمدن . وعبر المنكرون للتعميد والقائلون بوحدة الكنيسة القناة للتبشير فى إنجلترا بهرطقات أفزعت البروتستانت بقدر ما أفزعت الكاثوليك . وأزالت الجماهير محطمة الأصنام فى لندن الصلبان والصور والتماثيل من الكنائس ، ووعظ نيكولاس ريدلى ، عميد كلية بمبروك ، بجامعة كامبردج بعنف ضد الصور الدينية والماء المقدس ،

ولكى يتفوق عليهم جميعاً رئيس الأساقفة كرانمر « أكل اللحم علنا فى الصوم الكبير ، وهو أمر لم يشهده أحد قط من قبل مذ أصبحت انجلترا بلدا مسيحياً[١] » . ورأى المجلس الملكى أن هذا قد تجاوز الحد ، ولكن « ومرست تغلب عليه ، وأطلق الحرية للإصلاح الدينى » وأصدر المجلس النيابى (١٥٤٧) برئاسته أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة أو نافذتها تشيد بذكر نبى أو حوارى أو قديس « حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه » . وحطم معظم الزجاج الملون فى الكنائس وسحقت أغلب التماثيل ، واستبدل بالصلبان شعارات ملكية ، واتخذت الجدران المبيضة بالكلس والنوافذ ذات الزجاج الأبيض لونها من ديانة إنجلترا .

وكان فى كل محلة كفاح مرير من أجل فضة الكنيسة وذهبها ، واستولت الحكومة عام ١٥٥١ على ما تبقى . وبقيت تقريبا كاتدرائيات القرون للوسطى الفخمة .

وكان الأسقف كرانمر هو الذى تزعم حركة القيام بهذه التغيرات ، وكان خصماها الكبيران أدموند بونر ، أسقف لندن ، وستيفن جاردنر ، أسقف ونشستر ، وقد أمر كرانمر بإرسالها إلى سجن فليت (*) . وفى غضون ذلك كان الأسقف يقوم منذ سنوات بمحاولة ليقدم فى كتاب واحد بديلا لكتاب القداس وكتاب الصلوات عند الكنيسة المغلوبة على أمرها . وساعده بيتر مارتير وعلماء آخرون ، بيد أن هذا الكتاب الأول للصلاة العامة (١٥٤٩) كان أصلا ثمرة جهد شخصى لكرانمر ، امتزجت فيه الحماسة للعقيدة الجديدة بإحساس رقيق لجمال رزين فى الشعور واللفظ بل أن ترجماته من اللاتينية فيها سحر عبقريته .

(*) سجن فى لندن أطلق عليه هـذا الاسم بسبب قربه من نهر فليت ، وهو مصب (مغطى الآن) لنهر التيمس .

ولم يكن الكتاب ثوريا تماما فقد أخذ ينهج بعض السوابق اللوثرية مثل رفض سمة التضحية فى القداس ، ولكنه لم ينكر أو يؤكد التجسيد ، واحتفظ بالكثير من الشعيرة الكاثوليكية ، وكان يمكن قس من أنصار الكنيسة الرومانية لا يدقق كثيراً أن يقبلها . ولم يقدمه كرانمر إلى المجمع الاكليروسى بل قدمه إلى المجلس النيابى ، ولم تكن هذه الهيئة العلمانية تطوى بين جوانحها أى تبكيت مصدره سلطة قضائية فى النص على شعيرة أو عقيدة دينية . وأصبح الكتاب قانونا للمملكة ، وصدرت الأوامر لكل كنيسة فى إنجلترا بالعمل به . وأعيد سجن بونروجاردنر ، وكانا قد أطلق سراحهما فى عفو عام ١٥٤٩ ، وذلك عندما رفضا الاعتراف بحق المجلس النيابى فى سن تشريع فى مجال الدين . وسمح للأميرة مارى بحضور قداس فى خلوة بجناحها .

ونشأ موقف دولى خطير أدى إلى تهدئة الجدل العنيف بين الكثالكة والبروتستانت إلى حين . وطلب هنرى الثانى ملك فرنسا الجلاء عن بولونيا ، وعندما رفض طلبه أعد لحصارها ، والحق إن مارى ستيورات ، ملكة الاسكتلنديين ، وكانت وقتذاك فى الخامسة من عمرها وتقيم فى فرنسا ، كانت حرية بأن تدخل اسكتلندة فى الحرب . وعندما علم سومرست أن الاسكتلنديين يتسلحون ويثيرون فتنة فى إيرلندة قاد قوة عبر بها الحدود وهزمهم فى بنكى كليو (١٠ سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وكانت الشروط التى عرضها على الاسكتلنديين سخية وتدل على بعد النظر : لن يتعرض الاسكتلنديون إلى التفريط فى حريتهم أو مصادرة أملاكهم ، وتتحد اسكتلندة وإنجلترا فى « إمبراطورية بريطانيا العظمى » . ولكل أمة أن يكون لها حكم ذاتى تطبق فيه قوانيها الخاصة ، ولكن كلا البلدين تحكمهما ، بعد الحكم الجارى ، ذرية ملكة الاسكتلنديين ، وكان هذا على وجه الدقة الاتحاد الذى تم فى عام ١٦٠٣ ، اللهم إلا إذا استثنينا أنه يسر عودة الكاثوليكية

إلى إنجلترا وتواصلها فى اسكتلندة : ورفض الكثالكة فى اسكتلندة المشروع خشية أن تصل عدوى البروتستانتية الإنجليزية إلى بلادهم ، وإلى جانب هذا كان النبلاء الاسكتلنديون يتلقون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وكانوا يرون أن عصفوراً فى اليد خير من عشرة على الشجرة .

وأحبطت مساعى سومرست فى سبيل السلام وواجه الحرب مع فرنسا ، وجاهد أن يرسى دعائم مصالحة بين عقائد لا تعرف المصالحة فى الوطن ، وترامى إلى أسماعه دقات متجددة لطبول ثورة زراعية فى إنجلترا ، فشرب كأس السلطة حتى الثمالة عند ما دبر شقيقه مؤامرة للإطاحة به . ولم يقنع توماس سيمور بأن يكون اللورد أمير البحار وعضو المجلس الخاص بل كان يريد أن يصبح ملكاً . فتودد إلى الأميرة مارى ثم إلى الأميرة اليزابث ، ولكن عبثاً . وتلقى مالا مسروقاً من دار السكة وأسلاباً من القراصنة الذين سمح لهم بالدخول فى القناة ، وعندما حصل على الأموال اللازمة حشد مخازن سرية للأسلحة والذخيرة . واكتشفت مؤامرته ، واتهمه إيرل وارويك وإيرل سوثهامبتون ، وأدانه مجلسا البرلمان بالإجماع تقريباً ، وحكم عليه فى ٢٠ مارس سنة ١٥٤٩ بالإعدام ، وحاول سومرست أن يحميه ، ولكنه فشل ، وسقطت وضاعت هيبة الحامى بسقوط رأس أخيه :

وألحقت ثورة كيت الخراب الشامل بسومرست . وأوضحت تلك الثورة مدى ما تتسم به من شـــذوذ ظاهر ، فبينما كانت ثورة الفلاحين فى ألمانيا بروتستانتية ، كانت فى إنجلترا كاثوليكية ، وفى كل حالة كان الدين مظهراً للاستياء من الحالة الاقتصادية ، وفى إنجلترا كان المظهر كاثوليكياً لأن الحكومة كانت وقتذاك بروتستانتية . وكتب فرود البروتستانتى يقول : « فى التجربة التى خاضها فقراء المزارعين كانت زيادة معاناة الأشخاص نتيجة رئيسية للاصلاح الدينى[٢] » .

ومما يفاخر به رجال الدين البروتستانت فى هذا العهد — كرانمر ولاتيمر وليفر كراولى ، أنهم استنكروا الاستغلال الشديد للفلاحين ، ولقد ندد سومرست فى غضب شديد باغتصاب الملاك الجدد « الذين برزوا من الحضيض » لثروة المدينة(٣) .

ولم يكن فى وسع المجلس النيابى أن يفكر فى وسائل علاج أكثر حكمة من إجازة قوانين صارمة ضد التسول ، وأن يوجه الكنائس بأن تتولى جمع تبرعات للفقراء كل أسبوع : وأرسل سومرست لجنة تتقصى الحقائق عن الأراضى المسورة والإيجارات المرتفعة ، وقوبلت بمقاومة مستورة حيناً أو صريحة حيناً آخر من ملاك الأراضى ، وأرهب المستأجرون إلى حد العمل على إخفاء أخطائهم ، ورفض المجلس النيابى الأخذ بالتوصيات المتواضعة للجنة وكان يمثل الأعيان فيه ملاك المناطق الزراعية . وافتتح سومرست محكمة خاصة فى داره لسماع شكاوى الفقراء ، وانضم عدد من النبلاء ، أخذ يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتزعمهم جون دولى ، إيرل أف وارويك ، إلى حركة تستهدف خلعه :

ولكن الفلاحين كانوا وقتذاك غاضبين بسبب الأخطاء المتراكمة وفشل القضايا المرفوعة لرد الحيف ، فانفجروا فى ثورة امتدت من أقصى إنجلترا إلى أدناها ، وثارت أولا سومرستشاير ثم ويلتز وجلوسستر شاير ودورست وهامبشاير وبركس واكسفورد وبكنجهام فى الغرب كورنوول وديفون ، وفى الشرق نورفولك وكنت :ونظم روبرت كنت وهو من صغار ملاك الأراضى فى نورويتش ، الثوار وقبض على زمام الحكم البلدى وأقام كومونا للفلاحين تولى حكم المدينة وما وراءها شهراً : وضرب كنت مخيماً عسكر فيه ١٦٫٠٠٠ رجل ، وهناك كان يجلس يومياً تحت شجرة سنديان الحكم بين ملاك الأراضى المذنبين الذين قبض عليهم الفلاحون . ولم يكن متعطشا للدماء ، فالذين أدانهم وحكم عليهم سجنوا وقدم إليهم الطعام . ولم يكن يقيم وزناً كبيراً لحقوق

الملكتة وصكوكها وأمر رجاله بأن ينقبوا فى الأراضى الريفية المجاورة وأن يقتحموا المنازل فى الضياع ، ويصادروا كل الأسلحة ويسوقوا كل الماشية ، ويستولوا على كل المؤون حيثما وجدت لصالح الكومون . أما الأغنام ، وهى أكبر خصوم للفلاح فى الانتفاع بالأرض ، فقد جمع منها ٢٠٠٠٠ رأس ، ووزعت للاستهلاك فى كثير من السرف ، « عجول لا تحصى » وبجع وايلات وبط وغزلان وخنازير . ومع ذلك فقد حافظ كت وسط هذه الوليمة على نظام عجيب ، بل وسمح لوعاظ بدعوة الرجال إلى التخلى عن الثورة . وشعر سومرست بكثير من التعاطف مع الثوار ، ولكنه اتفق الرأى مع وارويك على تشتيتهم ، لئلا يهدم البناء الاقتصادى بأسره فى الحياة الإنجليزية . وأنفذ وارويك مرة أخرى لقتالهم ومعه جيش كان قد حشد حديثاً للقتال فى فرنسا . وعرض على الثوار منحهم عفوا عاما ، إذا عادوا إلى بيوتهم وآثر كت القبول ، بيد أن بعض المتهورين رأوا حسم الأمر بالمعركة ، فأذعن كت لهم . وتقررت النتيجة يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٤٩ ، وانتصر تكتيك وارويك ، وقتل ٣٥٠٠ ثائر ، ولكن عندما استسلم الباقون قنع وارويك بشنق تسعة ، وأرسل كت وأحد أشقائه إلى السجن فى لندن ووصلت أنباء الهزيمة إلى جماعات الثوار الأخرى فخارت عزيمتهم ، ووضعت جماعة إثر أخرى أسلحتها ، بعد أن وعدت بالحصول على عفو عام . واستخدم سومرست نفوذه لإطلاق سراح معظم الزعماء وبقى أشقاء كت على قيد الحياة إلى حين .

واتهم الحامى بأنه شجع على الثورة بتعاطفه الصريح مع الفقراء ، ووصم بالفشل فى الشئون الخارجية لأن فرنسا كانت وقتذاك تحاصر بولونيا . واتهم بحق بالسماح بالفساد بين موظفى الحكومة وتخفيض قيمة العملة ومضاعفة ثروته وبناء بيت سومرست الفخم ، وسط الظروف التى أشرفت فيها الأمة على الإفلاس . وتزعم واورويك وسوثهامبتون حركة لإقصائه عن مقعده .

وكان معظم النبلاء على استعداد للتغاضى عن ثروته ، ولكنهم لن يغفروا له أبدا عطفه على فلاحيهم ، فانتهزوا الفرصة للانتقام . وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٥٤٩ سيق الدوق أف سومرست باعتباره سجينا فى موكب اخترق شوارع لندن وسجن فى البرج .

٢ ـ حماية وارويك (١٥٤٩ ـ ٥٣)

كان أعداء سومرست رقيقى الحاشية بمقاييس ذلك العهد . وحرم من الأملاك التى اكتسبها إبان وصايته على العرش ، وأطلق سراحه يوم ٦ فبراير سنة ١٥٥٠ ، واسترد عضويته فى المجلس الملكى فى مايو . ولكن وارويك كان وقتذاك حامى المملكة .

وكان مكيافيليا صريحاً ، وعلى الرغم من أنه كان ينزع فى أعماق نفسه إلى الكاثوليكية إلا أنه سلك نهجاً بروتستانتيا ، لأن خصمه سوثهامبتون كان الزعيم الذى ارتضاه الكاثوليك لهم ، وكان أغلب النبــلاء مرتبطين ماليا بالعقيدة الجديدة . وقد تعلم جيدا فن الحرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يحتفظ ببولونيا أمام فرنسا التى تملك ضعف موارد إنجلترا ، معتمدا على حكومة مفلسة وشعب معدم ، وسلم المدينة إلى هنرى الثانى ووقع معاهدة صلح مهينة كان لا بد منها (١٥٥٠) .

وفى ظل سيطرة ملاك الأراضى من النبلاء أو العامة وافق المجلس النيابى (١٥٤٩) على قانون يعاقب بشدة على ثورة الفلاحين . وأيد قانون صريح وجود الأراضى المسورة ، وألغيت الضرائب التى كان سومرست قد فرضها على الأغنام والصوف لكى تفتر همة الناس فى إقامة الحظائر . ونص القانون على عقوبات صارمة توقع على العمال الذين يتحدون لرفع أجورهم(٤) ، وأعلن عدم شرعية الاجتماعات التى تعقد لمناقشـــة تخفيض الإيجارات أو الأسعار ، ومصادرة ممتلكات الأشخاص الذين يحضرونها . وشنق روبرت

كت وأخوه ، واشتد الفقر ، بيد أن دور البر التى اكتسحتها الثورة الدينية لم تنشأ دور بدلا منها ، وأصبح المرض متوطنا ، ولكن المستشفيات كانت مهجورة . وتضور الناس جوعا ، ولكن العملة خفضت قيمتها مرة أخرى وارتفعت الأسعار . ثم إن ملاك الأراضى فى إنجلترا الذين كانوا أقوياء فى يوم من الأيام أخذوا يهلكون ، وكان أفقر الفقراء يغرقون فى بحر الهمجية(٥) . وكانت الفوضى الدينية لا تقل عن الفوضى الاقتصادية ، وظلت أغلبية الناس كاثوليكية(٦) ، بيد أن انتصار وارويك على سومرست تركهم بلا قائد وشعروا بضعف موقف الذين يظاهرون الماضى . وأدى انهيار ساطة القساوسة الروحية والأدبيـــة ، وكذلك عدم استقرار الحكومة وفسادها إلى السماح لا بازدياد الفجور فحسب ، ولكن إلى استفحال الهرطقة ، بصورة أفزعت الكثالكة والبروتستانت على السواء . ووصف جون كليمنت (١٥٥٦) « الأنواع العجيبة من الطوائف التى احتشدت فى كل مكان لا من أنصار البابوية فحسب . . . ولكن من الأريوسيين والمنكرين للتعميد وكل صنوف الهراطقة الآخرين أيضاً . . . بعضهم ينكر أن الروح القدس هو الرب ، والبعض ينكر الخطيئة الأولى ، والبعض الآخر ينكر القدر . . . . وعدد لا يحصى من أمثال هؤلاء ، يقصر بنا المقام عن ذكرهم(٧) . وكتب روجر هتشنسون (حوالى عام ١٥٥٠) عن « الصدوقيين والفاسقين (أحرار الفكر) ، الذين يقولون : « إن الشيطان » ليس إلا . . . غرام دنس بالجسد . . . . وأنه ليس هناك موضع للطمأنينة أو العذاب بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الجحيم ليس إلا ضميراً يائساً يعذب صاحبه ، وأن الجنة ضمير مبتهج ساكن مرح(٨) » .

وتحدث جون هوبر ، أسقف جلوسستر البروتستانتى فقال : « هناك من يقول إن روح الإنسان ليست أفضل من روح حيوان ، وأنها فانية وهالكة ؛ وهناك أشقياء يتجاسرون فى اجتماعاتهم على القول بأن

المسيح ليس هو المخلص لنا ، بل يذهبون إلى أن الطفل المبارك مؤذ ومحتال[٩] » .

وأفاد الناس من الحرية التى منحها لهم سومرست فطعن جناح متهور من البروتستانتية فى الدين القديم طعنا قاسيا وتهكم طلبة جامعة أكسفورد بالقداس بمحاكاته فى مسرحياتهم الهزلية ، ومزقوا كتب القداس إربا ، واختطفوا الخبز المقدس من المذبح ووطأوه بالأقدام . وأطلق وعاظ لندن على هؤلاء القساوسة اسم : « عفاريت بغى بابل » — أى البابا[١٠] . والتقى رجال الأعمال فى مؤتمرات بكاتدرائية سانت بول ، واجتمع هناك الشبان من ذوى النخوة وقاتلوا وقتلوا . وكانت الحماية الجديدة وقتذاك بروتستانتية على التحقيق . وعين المصلحون الديليون فى أسقفيات بشرط أن يحولوا جانبا من دار الأسقفية إلى رجال الحاشية الذين كان لهم الفضل فى تعيينهم[١١] ، وقضى المجلس النيابى (١٥٥٠) بإزالة كل اللوحات والتماثيل من أى كنيسة فى إنجلترا ما عدا « الصور التذكارية للملوك أو النبلاء الذين لم يسلكوا قط فى عداد القديسين » وأتلفت كل كتب الصلاة[١٢] ما عدا كتاب كرانمر . وصودرت أو بيعت ووهبت الثياب الكهنوتية والقباءات وكسوة المذبح ، وسرعان ما ازدانت بها بيوت النبلاء[١٣] . وأصدر المجلس أمراً بمصادرة كل آنية مخصصة للتبرعات بقيت فى الكنائس بعد عام ١٥٥٠ لصالح الخزنة . وانتزع المجلس النيابى فيما بعد للحكومة العملات التى فى صناديق التبرعات للفقراء بالكنائس[١٤] . ووجدت أموال أخرى للحكومة أو لموظفيها بإلغاء المنح الدراسية للطلبة الفقراء ومنع الأستاذيات المعانة من الدولة بالجامعات ، والتى أنشأها هنرى الثامن[١٥] . وأوصى المجلس النيابى لعام ١٥٥٢ بأن يبقى رجال الإكليروس بلا زواج ولكنه أذن لهم بالزواج إذا ثبت أن العفة تضنيهم .

وكان الاضطهاد الدينى للهراطقة ، الذى قام به الكثالكة منذ عهد بعيد ، قد نهض به وقتــذاك البروتستانت فى إنجلترا ، وكذلك فى سويسرة وألمانيا اللوثرية ، وذلك بمطاردة الهراطقة والكثالكة . وأعد كرانمر بيانا بالهرطقات التى يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها ، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا فى القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا ، وإنكار الوحى فى العهــد القديم ، أو الطبيعتين فى المسيح أو التزكية بالإيمان[١٦] . وذهبت جوان بوشر الكنتيــة إلى المحرقة لشكها فى تجسد الأقنوم الثانى (١٥٥٠) . وقالت لريدلى ، أسقف لندن البروتستانتى الذى توسل إليها أن تتراجع عما تقول : « لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد) ، ومع ذلك حدث أن آمنتم بالعقيدة التى أحرقتموها من أجلها ، وأنتم سوف تحرقوننى الآن من أجل قطعة من اللحم (تشير إلى العبارة الواردة فى الإنجيل الرابع . « لقد صنعت الكلمة لحما ، وسوف تؤمنون بهذا أيضا آخر الأمر[١٧] » . ولم يحرق فى عهد إدوارد إلا هرطيقان ، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكثالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علنا العقيدة المحافظة المقبولة[١٨] . وأقيل القساوسة الكاثوليك المتشبثون بآرائهم من مناصبهم وأرســل بعضهم إلى سجن البرج[١٩] ، وعرض على جاردنر ، وكان لايزال هناك ، الحرية إذا وافق على التبشير بالعقيدة التى يقول بها أنصار الإصلاح الدينى . وعندما رفض نقل إلى « مسكن أحقر » فى البرج وحرم من الورق والقلم والكتب . وفى عام ١٥٥٢ أصدر كرانمر كتابه الثانى عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقا فى القربان المقدس ، ونبذ تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه ، وراجع فى ظروف أخرى الكتاب الأول باتجاه بروتستانتى .

ووافق المجلس النيابى وقتذاك على قانون ثان بشأن التجانس ، اقتضى

أن يحضر جميع الأشخاص بانتظام وألا يحضروا سوى الصلوات الدينية التى تقام طبقاً لما ورد فى كتاب الصلاة العامة هذا ، وكل من يخالف هذا القانون ثلاث مرات ، يعاقب بالإعدام . وفى عام ١٥٥٣ أصدر المجلس الملكى اثنين وأربعين « مادة فى الدين » وضعها كرانمر وجعلها إلزامية على كل الإنجليز .

وفى الوقت الذى أصبحت فيه الفضيلة والمحافظة على العقيدة بمثابة قانون تميزت حماية وارويك بفسادها فى عصر فاسد ، ولم يمنع هذا إدوارد الشاب المطاوع من تعيين وارويك دوقا لنورثمبرلاند (٤ اكتوبر سنة ١٥٥١) . وبعد بضعة أيام كفر الدوق عن خطيئته التى ارتكبها بقيامه بعمل من أعمال حسن التصرف — إطلاق سراح سومرست — وذلك باتهام سلفه بالقيام بمحاولة لاستعادة السلطة لنفسه . وقبض على سومرست وحوكم وأدين فى الغالب بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر ، وزيف أمر صادر من الملك بالدعوة إلى إعدام سومرست ، وفى ٢٢ يناير سنة ١٥٥٢ لقى حتفه بشجاعة وإباء . وعندما واجه نورثمبرلاند الإعدام بدوره ، اعترف أن سومرست قد اتهم زورا بفضل وسائله ، واعترف بالمر قبل وفاته أن الدليل الذى أقسم على صحته كان من اختراع نورثمبرلاند (٢٠) .

ونادراً ما كانت الإدارة فى إنجلترا قد وصلت إلى هذا الحد من الكراهيـــة ، فقد انقلب البروتستانت ضد الحامى الجديد الذى أثنوا عليه شكراً منهم لتأييده وذلك بسبب ازدياد جرائمه . وكان الملك إدوارد يقترب من الموت وقد عينت مارى تيودور بمقتضى قانون أصدره المجلس النيابى ولية للعهد إذا ظل إدوارد بلا ذرية . وإذا قدر لمارى أن تصبح ملكة فإنها سوف تنتقم فى الحال من هؤلاء الذين حولوا إنجلترا عن العقيدة القديمة . وشعر نورثمبرلاند بأن حياته معرضة للخطر . وكان عزاؤه الوحيد أن وكلاءه قد دربوا إدوارد على طاعته . وأغرى الملك المحتضر بأن يقرر التاج لليدى جين جراى ، ابنـــة الدوق سفولك وحفيدة شقيقة

هنرى الثامن ، وفضلا عن هذا فإن جين كانت قد تزوجت حديثاً من ابن نورثمبرلاند . ولم يكن إدوارد قد خول مثل أبيه السلطة من المجلس النيابى لتعيين خلفه ، وكانت إنجلترا بأسرها تقريباً ترى أن ارتقاء الأميرة مارى العرش أمر لا مفر منه وعادل ، واحتجت جين بأنها لم ترغب قط فى أن تكون ملكة . وكانت امرأة نالت قسطاً غير عادى من التعليم : وكتبت باليونانية ودرست العبرية وتراسلت مع بولينجر بلغة لاتينية لا تقل جمالا عن لغته . ولم تكن قديسة ، وكان فى وسعها أن تنتقد الكثالكة بشدة ، وسخرت من التجسيد . ولكن نسب إليها من الآثام أكثر مما أثمت . وحسبت فى أول الأمر أن خطة حميها من قبيل الدعابة ، وعندما أصرت حماتها قاومت جين . وأمرها زوجها فى آخر الأمر أن تقبل العرش فأطاعت « دون أن تختار أن تعصى زوجها » كما قالت ، وأعد نورثمبرلاند وقتذاك العدة للقبض على كبار أنصار مارى وإيداع الأميرة نفسها فى البرج حيث يمكن أن تتعلم التنازل .

وأوشك الملك على نهايته فى أوائل يولية ، وسعل وبصق دماً ، وتورمت ساقاه تورماً مؤلماً ، وتفشى الطفح على جسده ، وسقط شعره ، ثم سقطت أظافره ، ولم يستطع أحد أن يجزم بالمرض الغريب الذى يعانى منه ، وراود الشك الكثيرين أن نورثمبرلاند قد سممه . وأخيراً مات إدوارد بعد أن عانى كثيراً (٦ يوليو سنة ١٥٥٣) ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وأصغر كثيراً من أن يشارك فيما ارتكب فى عهده من آثام .

وفى صباح اليوم التالى ركب نورثمبرلاند إلى هنسدون للقبض على الأميرة . بيد أن مارى هربت ، بعد أن حذرت ، إلى أصدقاء كاثوليكيين فى سفولك ، وعاد نورثمبرلاند إلى لندن دون أن يحصل على فريسته . وأقنع المجلس الخاص بالوعود أو التهديدات أو الرشاوى بالانضمام إليه فى المناداة

بجين جراى ملكة ، وأغمى عليها ، وعندما أفاقت ظلت تحتج على أنها لا تصلح للشرف المحفوف بالمخاطر ، الذى أكرهت عليه . وتوسل إليها أقاربها بحجة أن حياتهم تتوقف على قبولها . وفى التاسع من يوليو أقرت فى نفور أنها ملكة إنجلترا .

ولكن فى العاشر من يوليو وصلت إلى لندن أنباء تقول إن مارى قد نادت بنفسها ملكة ، وإن النبلاء فى الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها ، وأن قواتهم كانت تزحف على العاصمة . وحشد نورثمبرلاند سريعاً ما استطاع جمعه من جنود ، وقادهم لتقرير مصير المعركة . وأبلغه جنوده فى بورى أنهم لن يسيروا خطوة أخرى للقتال ضد عاهلتهم الشرعية . وأرسل نورثمبرلاند أخاه ، مزوداً بالذهب والجوهرات والوعد بكاليه وجينس ليرشو هنرى الثانى ملك فرنسا ، للقيام بغزو إنجلترا تتويجاً لجرائمه . وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها ، وأعلن ولاءه لمارى . وانطلق الدوق أف سفولك إلى غرفة جين وأبلغها أن حكمها الذى استمر عشرة أيام قد انتهى . فرحبت بالأنباء وسألت ببراءة هل تستطيع الآن أن تذهب إلى البيت ، ولكن المجلس ، الذى كان قد أقسم على خدمتها أمر بسجنها فى البرج . وسرعان ما سجن هناك أيضاً نورثمبرلاند وأخذ يطلب الصفح عما ارتكب ، وإن أخذ يترقب موته .

وبعث المجلس برسل ينادون بأن مارى تيودور ملكة وتلقت إنجلترا الأخبار بفرح وحشى . وظلت النواقيس تقرع والمشاعل تتوهج طوال تلك الليلة من ليالى الصيف . وجلب الناس موائد الطعام وأولموا فى الخلاء ورقصوا فى الشوارع .

وبدا أن الأمة آسفة على الإصلاح الدينى ، وأنها تتطلع بشغف إلى ماض كان فى الإمكان وقتذاك أن يعد نموذجاً ، طالما أنه لن يعود . والحق أن الإصلاح الدينى لم يظهر حتى الآن إلا جانبه المرير لإنجلترا : لم يكن تحريراً

من المذهبية ومحاكم التفتيش والطغيان ، بل كان تثبيتاً لها ، ولم يكن انتشاراً للاستنارة ، بل كان سلباً للجامعات وإغلاقاً لمئات المدارس ، ولم يكن توسعاً فى الرقة ، بل كان تقريباً قضاء على البر ، ورقعة بيضاء للجشع ، ولم يكن تخفيفاً للفقر ، بل كان سحقاً للفقراء بلا رحمة لم تعرفه إنجلترا منذ قرون — ولعلها لم تعرفه قط[٢١]. وكان كل تغيير يكاد يلقى ترحيباً ما دام يؤدى إلى تخليصهم من نورثمبرلاند وطغمته .

ثم إن الأميرة مارى المسكينة ، التى ظفرت بحب إنجلترا فى الخفاء بفضل صبرها على الإذلال طوال اثنين وعشرين عاماً — هذه المرأة المهذبة سوف تكون ولا شك ملكة رقيقة .

٣ — الملكة الرقيقة (١٥٥٣ — ٥٤)

لا بد لكى نفهمها من أن نكون قد عشنا معها شبابها المأساوى الذى لم تذق خلاله قط طعما للسعادة . ولم تكن تتجاوز الثانية من عمرها (١٥١٨) ، عندما شغل أبوها بالخطايا ، وأهمل أمها المحزونة . وكانت فى الثامنة عندما طلب إعلان بطلان زواجه ، وفى الخامسة عشرة عندما افترق والداها ، وذهب كل من الأم والبنت إلى منفى منفصل . ومنعت الإبنة من الذهاب إلى أمها حتى وهى تحتضر[٢٢] . وأعلن أن مارى ابنة سفاح بعد مولد اليزابث (١٥٣٣) وجردت من لقبها كأميرة . وخشى سفير الإمبراطور أن تسعى آن بولين إلى قتل ابنة غريمتها المنافسة لها على العرش . وعندما انتقلت اليزابث إلى هاتفيلد أجبرت مارى على أن تذهب إلى هناك لخدمتها وأكرهت على أن تعيش فى « أسوأ غرفة فى البيت[٢٣] » وأخذ منها خدمها ، واستبدل بهم آخرون ، يخضعون لمس شلتون أف هاتفيلد التى قالت لها تذكرها بأنها ابنة سفاح : « لوكنت فى موضع الملك لطردتك من بيت الملك لعدم طاعتك » . وأخبرتها أن هنرى قد عبر عن عزمه على قطع رأسها[٢٤] .

وكانت مارى مريضـــة طوال ذلك الشتاء الأول الذى قضته فى هاتفيلد (١٥٣٤) ، وتحطمت أعصابها بسبب الإهانة والخوف وكادت تشرف على الموت جسما وروحا على غير كره منها . ثم رق لها الملك ومنحها بعض محبته إلى حين ، ونعمت بوضع ميسور فى باقى أيام حكمه . ولكن طلب منها أن توقع إقراراً بسيادة هنرى الكنسية وبأن « زواج أمها من قبيل سفاح ذوى القربى » وبأن ميلادها غير شرعى[٢٥] وذلك ثمنا لهذه الرقة القاسية .

وتأثر جهازها العصبى على الدوام بهذه المحن ، و « كانت عرضة لأن تشكو من قلبها[٢٦] » وظلت صحتها ضعيفة حتى آخر يوم فى حياتها . وعاودتها شجاعتها عند ما أعلن المجلس النيابى فى عهد حماية سومرست أنها ولية العهد . ولقد نشأت عقيدتها الكاثوليكية ، فى طفولتها مشبعة بحرارتها الإسبانية ، وقويت بما أثارته حياة أمها ومماتها فى نفسها من ألم ، وكانت عونا ثمينا لها فى أحزانها ، فرفضت أن تتخلى عنها عنـــد ما حومت على حافة السلطة ، وعند ما أمرها مجلس الملك أن تكف عن سماع القداس فى حجراتها (١٥٤٩) لم تذعن لأمره . وأغضى سومرست عن مقاومتها ، ولكن سومرست سقط ، وصدق أخوها الملك على الأمر ، وأرسل ثلاثة من خدمها إلى سجن البرج بسبب تجاهله (١٥٥١) ، وأخذ منها القس الذى رتل لها القداس ، ووافقت آخر الأمر على أن تكف عن ممارسة الشعيرة المحبوبة . وعندما تحطمت روحها طلبت من سفير الإمبراطور أن يدبر لها الهرب إلى القارة ، ورفض الإمبراطور الحذر أن يجيز الخطة ، وخاب فألها .

وجاءت لحظة انتصارها أخيراً عندما عجز نورثمبرلاند عن أن يجد رجلا يحارب ضدها ، ولم يطلب الذين أقبلوا مدججين بالسلاح لمناصرة قضيتها أى أجر ، بل إنهم أحضروا معهم مؤنهم ، وعرضوا عليها ثرواتهم لتمويل الحملة . وعندما دخلت لندن كملكة (٣ أغسطس سنة ١٥٥٣) هبت تلك المدينة نصف البروتستانتية للترحيب بها بالإجماع . وجاءت البزابث تمشى على

استحياء لملاقاتها عند أبواب المدينة ، وهى تتساءل على تتمسك ضدها بالشتائم التى تعرضت لها باسم اليزابث . ولكن مارى حيتها بقبلة حارة وقبلت جميع السيدات المرافقات لأختها غير الشقيقة . وكانت إنجلترا سعيدة كما كانت عند ما ارتقى العرش هنرى الثامن وهو شاب وسيم كريم .

كانت مارى وقتذاك فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وكان الزمن القاسى قد ترك على وجهها خطوطاً تنذر بالذبول . وقلما مرت بها سنة كاملة دون أن تصاب بمرض خطير . وكانت تشكو من الاستسقاء وسوء الهضم ونوبات صداع تحطم الرأس ، وعولجت مراراً بالحجامة مما تركها عصبية شاحبة ، وأدى تكرار انقطاع الطمث عنها إلى استغراقها أحياناً فى حزن هستيرى مصحوب بخوف من ألا تحمل أبداً(٢٧) . وكان جسدها وقتذاك نحيلا هزيلا وجبينها مملتئاً بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جداً إلى حد أنها لم تكن تستطيع القراءة إلا إذا أمسكت بالصحيفة قرب وجهها . وكانت تقاطيعها واضحة ، تكاد تشبه تقاطيع الرجال ، وكان صوتها عميقاً كصوت الرجل ، وقد وهبتها الحياة كل ما فيها من وهن وحرمتها من المفاتن ومن الأنوثة . وكانت لديها بعض المواهب الأنثوية . فكانت تحيك فى جلد وتطرز بمهارة وتعزف على العود ، وأضافت إلى هذه المواهب معرفة باللغات الإسبانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وكان يمكن أن تكون امرأة صالحة لو لم تلحقها لعنة اليقين اللاهوتى والسلطة الملكية . وكانت أمينة إلى درجة البساطة ، عاجزة فى مجال الدبلوماسية ومتلهفة إلى درجة يرثى لها لأن تحب وتكون محبوبة . وكانت تتعرض لسورات غضب ولها لسان سليط . وكانت عنيدة ولكنها لم تكن متكبرة ، وأدركت قصور قدراتها الذهنية وأصاخت السمع للنصيحة فى تواضع . ولم تكن تلين لها قناة إذا كان الأمر يتعلق بعقيدتها فحسب ، وفى غير هذه الحالة كانت حليمة حنوناً وحرة الفكر مع التعساء ، وتواقة إلى رفع الحيف الذى تسببت فيه

أخطاء القانون ، وكثيراً ما زارت بيوت الفقراء وهي متنكرة وجلست وتحدثت مع ربات البيوت وسجلت مذكرة بالحاجات والمظالم وقدمت كل ما في وسعها من مساعدة[٢٨] . وأعادت إلى الجامعات الهبات التي اختلسها منها أسلافها .

وظهر أحسن جانب من خلقها في التسامح النسبي في أول عهدها ، فهي لم تطلق سراح جاردنر وبونر وغيرهما ممن سجنوا لرفضهم قبول اعتناق البروتستانتية فحسب ، بل إنها صفحت تقريباً عن كل من حاولوا إبعادها عن العرش ، ومهما يكن من أمر فإنها أجبرت بعض هؤلاء ؛ مثل الدوق أف سفولك ، على دفع غرامات باهظة للخزانة ، ثم خفضت الضرائب تخفيضاً جوهرياً بعد تقديم هذه المساعدة إلى الدخل . ومنحت جوازات أمان لبيتر مارتير وغيره من البروتستانت الأجانب لكي يغادروا البلاد . وعقد مجلس الملكة محاكمة عاجلة لنورثمبرلاند وستة آخرين تآمروا على القبض على ماري ، وتوجوا جين جراي ، وحكم على السبعة جميعا بالموت . وأبدت ماري رغبتها في الصفح عن نورثمبرلاند ، ولكن سيمون رينار سفير الإمبراطور وقتذاك أثناها عن عزمها ، وقام الثلاثة الذين لم يصفح عنهم جميعا باعتناق عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في آخر لحظة . ووصفت جين جراي الحكم بالعدل والاعترافات بالجبن[٢٩] .

وكان من رأي ماري أن تطلق سراحها ، ولكنها أذعنت لآراء مستشاريها إلى حد بعيد وأمرت بأن تبقى طليقة من كل قيد في الاعتقال داخل أراضي سجن البرج[٣٠] .

وأصدرت الملكة في ١٣ أغسطس إعلانا رسميا بأنها لن « نكره الضمائر أو تلزمها » بشيء في مسألة المعتقد الديني[٣١] ، وكان هذا أحد الإعلانات الأولى في التسامح الديني تصدره حكومة حديثة . وكانت تأمل في براءة أن

تحول البروتستانت بالحجة فنظمت مناظرة عامة بين علماء اللاهوت المتعارضين فى الرأى ، ولكنها تبخرت فى جدل مرير عقيم . وبعد ذلك بوقت قصير قذف واعظ الأسقف بونر بخنجر انطلق من جمهور استاء من وعظه الكاثوليكى ، وأنقذه من الموت اثنان من رجال الدين البروتستانت(٣٢) .

وراع مارى تسامحها فأمرت (١٨ أغسطس سنة ١٥٥٣) بعدم التصريح بعظات تتعلق بالعقائد إلا فى الجامعات ، وذلك إلى أن يتيسر اجتماع المجلس النيابى وينظر فى المشكلات التى أثارها النزاع بين العقائد . وأمر كرانمر ، وكان لايزال رئيسا للأساقفة ، بملازمة قصره فى لامبث ، فرد على ذلك بمهاجمة القداس ووصفه بأنه « كفر بغيض » ، وحكم عليه هو ولاتيمر بالسجن فى البرج (سبتمبر سنة ١٥٥٣) . أما ريدلى أسقف لندن الذى كان قد وصف مارى والبزابث معا بأنهما ابنتا سفاح فكان قد ذهب إلى سجن البرج قبل ذلك بشهرين . وعلى الجملة فإن سلوك مارى فى هذه الشهور الأولى من حكمها فاق فى اللين والتسامح سلوك غيرها من عظماء الحكام فى عصرها .

وكانت المشكلات التى واجهتها حرية بأن تقهر امرأة تفوقها كثيراً فى الذكاء والفطنة . وصدمت بالارتباك والفساد السائدين فى الإدارة وأمرت بوقف الفساد ، غير أنه أخفى رأسه ولم ينقطع . وضربت مثالا حسناً بتخفيض نفقات الأسرة الملكية ، وتعهدت بتثبيت قيمة العملة ، وتركت انتخابات المجلس النيابى حرة لم تتأثر بأى نفوذ ملكى . وكانت الانتخابات الجديدة « أعدل انتخابات حدثت منذ سنوات(٣٣) » ، ولكن تخفيضها للضرائب ترك دخل الحكومة أقل من مصروفاتها ، ولكى تحصل على الفرق فرضت ضريبة صادر على القماش وضريبة وارد على الأنبذة الفرنسية وأدت هذه الإجراءات التى كان ينتظر أن تساعد الفقراء إلى نكسة تجارية . وحاولت أن توقف نمو الرأسمالية بتحديد عدد ما يملكه أى فرد بنول أو اثنين . ونددت بـ « القماشين الأغنياء » بسبب دفعهم أجوراً منخفضة وحظرت دفع

الأجور عيناً(٣٤) ولكنها لم تجد فى حاشيتها رجالا يملكون القوة والكمال اللازمين لإنجاز إرادتها الطيبة ، وتغلبت القوانين الاقتصادية على أهدافها .

بل إنها قوبلت بعقبات اقتصادية قاسية حتى أمور الدين . ولم تكن هناك أسرة لها نفوذ فى إنجلترا لا تحتفظ بأملاك انتزعتها من الكنيسة(٣٥) ، وعارضت هذه الأسر بالطبع أى عودة للعقيدة الرومانية . وكان البروتستانت أقلية من حيث العدد وأقوياء بفضل ما لديهم من مال ، وكانوا بذلك فى موقف يسمح لهم بأن يهيئوا فى أية لحظة أسباب الثورة التى تضع اليزابث البروتستانتية على العرش .

وكانت مارى تتلهف على إعادة حق الكثالكة فى العبادة طبقاً لشعيرتهم ، ومع ذلك فإن الإمبراطور الذى ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاما حذرها وطلب منها أن تتحرك ببطء ، وأن تقنع بترديد القداس سراً لنفسها وفى محيطها المباشر . ولكن شعورها نحو دينها كان عميقاً ولا تستطيع أن تكون سياسية فيما يتصل به . وتعجب الجيل الذى ينزع إلى الشك الذى نشأ فى لندن من كثرة صلواتها وحرارتها ، ولعل السفير الإسبانى اعتقد أنها تطالب أمراً إدّا عند ما سألته أن يركع بجوارها ويطلب الهداية من الله . وشعرت بأن لها رسالة مقدسة تستعيد بها العقيدة التى أصبحت عزيزة عليها لأنها قاست من أجلها . وبعثت برسول إلى البابا تطلب منه أن يرفع التحريم الذى فرضه على إقامة الصلوات بإنجلترا ، ولكن عند ما أبدى الكاردينال بول رغبته فى الحضور إلى إنجلترا قاصداً رسولياً ، اتفقت مع شارل على أن الوقت لم يحن بعد للقيام بمثل هذه الحركة الجريئة .

ولم يكن المجلس النيابى الذى اجتمع فى ٥ أكتوبر سنة ١٥٥٣ مجدياً بالمرة . فقـــد وافق على الغاء كل تشريع يتعلق بالدين ، صدر فى عهد إدوارد ، وخفض العقوبات المنصوص عليها فى قوانين هنرى الثامن وإدوارد السادس إلى ما كانت عليه من قبل . وأبلغ الملكة فى تلطف أن « عدم شرعية

النسب المتعلقة بشخصك الأمثل ، قد ألغى وأنها لم تعد ابنة سفاح ، ولكنه أبى أن ينظر فى إعادة أملاك الكنيسة إليها وقاوم أى تلميح إلى أن سيادة البابا يجب أن يعترف بها ، وترك هذا مارى رئيسة للكنيسة الإنجليزية رغم أنفها . وبمقتضى هذه السلطة المخولة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد أقصوا عن مناصبهم ، وعاد بونر أسقفاً للندن وجاردنر أسقفاً لونشستر ومشيرا مقرباً للتاج . وطرد القساوسة المتزوجون من أبرشياتهم . وسمح بإقامة القداس مرة أخرى ثم شجع ، (ويقول مؤرخ بروتستانتى) : « إن اللهفة التى أبدتها البلاد الإفادة بوجه عام من الإذن بإعادة الشعيرة الكاثوليكية تدل بلا شك على أن الشعور العام كان مع الملكة(٣٦) فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة » . وأعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر فى ٤ مارس سنة ١٥٥٤ . وعدت الهرطقات الأخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتى أو نشرة بروتستانتية .

وكان انزعاج الأمة بعودة التذبذب اللاهوتى أقل كثيراً من انزعاجها بخطط زواج مارى . كانت تخشى الزواج من الناحية الدستورية ، ولكنها واجهت المحنة أملا فى أن تنجب وريثا يحول دون ارتقاء اليزابث البروتستانتية العرش : وادعت مارى أنها عذراء ، والراجح أنها كانت كذلك ، ولعلها لو كانت قد أتمت هوناما لكانت أقل كآبة وتوترا ويقينا . وأوصى مجلسها باختيار إدوارد كورتناى حفيد إدوارد الرابع ، ولكن طرق عيشه المتبذلة لم تصادف هوى فى نفس مارى ، وعندما رفضته دبر أن يتزوج اليزابث ، ويخلع مارى ويولى اليزابث على العرش ويحكم إنجلترا عن طريقها — ولم يحلم قط بضآلة فرصته فى السيطرة على تلك السيدة المسترجلة . وعرض شارل الخامس على مارى الزواج من ابنه فيليب الذى كان يوشك أن يوصى له بكل شىء سوى اللقب الإمبراطورى ، وتعهد

بتقديم الأراضى المنخفضة لأى ولد يكون ثمرة لهذا الزواج . وتهللت مارى عندما خطر لها أن زوجها سيكون حاكما لإسبانيا والفلاندرز وهولندة ونابلى والأمريكتين ، وتدفقت دماؤها نصف الإسبانية ساخنة فى عروقها وهى تتوقع إنشاء اتحاد سياسى ودينى بين إنجلترا وإسبانيا . وأشارت فى تواضع إلى أن سنها الأكبر — أكبر من فيليب بعشر سنوات — تقف عائقاً ، وخشيت ألا تكفى مفاتنها الذابلة لإرضاء حيويته وشبابه أو خياله ، إنها لم تكن واثقة أنها سوف تعرف كيف تطارحه الغرام(٣٧) . وكان فيليب من ناحيته يشعر بالنفور فقد أبلغه وكلاؤه الإنجليز أن مارى كانت « قديسة كاملة » وأنها ترتدى ملابس قبيحة(٣٨) ، أفلا يمكن أن يوجد شىء أكثر إغراء بين الأسر المالكة فى أوروبا ؟ وأقنعه شارل بالإشارة إلى أن الزواج سوف يتيح لأسبانيا حليفاً قوياً ضد فرنسا وعوناً ثميناً فى الأراضى المنخفضة التى كانت مرتبطة تجارياً بإنجلترا . ولعل البروتستانتية فى ألمانيا يمكن قمعها بعمل موحد من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولا كاثوليكية ؛ ثم إن المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يؤلف قوة قادرة على منح أوربا الغربية سلاما إجبارياً يدوم جيلا .

وأدرك مجلس الملكة والشعب الإنجليزى قوة هذه الاعتبارات ولكنهم خشوا أن يؤدى الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لإسبانيا ويورط إنجلترا فى الحروب المتكررة مع فرنسا . وواجه شارل الموقف بإجراء مضاد عرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا إلا فى حياة مارى ولها أن تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشئون الإنجليزية ولها أن تشارك فيليب فى جميع ألقابه ، وإذا مات دون كارلوس (ابن فيليب من زواج سابق) دون أن يعقب ذرية ترث مارى أو ابنها الإمبراطورية الإسبانية وعلاوة على هذا أضاف الإمبراطور الداهية أن لمارى الحق فى أن تتلقى مدى الحياة ٦٠٫٠٠٠ جنيه من

الموارد الامبراطورية ، وبدا هذا كله عرضاً سخياً جداً ، وصدق المجلس الإنجليزى على الزواج مع تعديلات يسيرة فى النصوص

وأخذت مارى ، على الرغم من حياتها المتواضع تتطلع فى لهفة إلى المستقبل فكم طال انتظارها لعاشق !

ولكن الشعب الإنجليزى استاء من اختيارها ، فالأقلية البروتستانتية التى كانت تصبر على الاضطهاد ، آملة فى أن تخلف اليزابث قريباً مارى العاقر الضعيفة خشيت على حياتها إذا وقفت قوة إسبانيا بجانب مارى فى إعادة الكاثوليكية بالقوة ، وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الأملاك الكنسية عندما خطر لهم أنهم سوف يخرجون ما فى بطونهم . بل إن الإنجليز الكاثوليك اعترضوا على وضع أجنبى قاس على العرش . وهو ولا شك سوف يستخدم إنجلترا لتحقيق أغراضه الأجنبية . وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل مكان فى البلاد ، وسرى الذعر فى مدينة بلايماوث ، فطلبت من ملك فرنسا أن يضعها تحت حمايته . ووضع أربعة نبلاء خططاً لثورة تبدأ فى ١٨ مارس سنة ١٥٥٤ ، فكان على الدوق أف سفولك (والد جين جراى الذى صدر العفو عنه) أن يحدث ثورة فى واروبكشاير وعلى سير جيمس كروفت أن يتزعم مستأجريه الولزيين ؛ وعلى سير بيتر كارو أن يثير ديفونشاير ، وعلى سير توماس ويات الصغير أن يقود ثورة فى كنت . وكان ويات الكبير — الشاعر — قد استولى على مجموعة من أراضى الكنيسة — كره ابنه أن يسلمها . وأخطأ المتآمرون بأن أسروا بخططهم لكورتناى ، وكانت مهمته تنحصر فى ضمان اشتراك إليزابث معهم . وكان الأسقف جاردنر يراقب كورتناى باعتباره خاطباً منبوذاً لمارى يتلهف على الانتقام ، فأمر بالقبض عليه ، وأفشى كورتناى أسرار المؤامرة ، بتأثير التعذيب على الأرجح .

وآثر المتآمرون أن يلاقوا حتفهم فى المعركة بدلا من المقصلة فخفوا

سريعاً إلى الأسلحة واشتعلت نيران الثورة فى أربعة أقطار فى الحال (فبراير سنة ١٥٥٤) ، وقاد ويات جيشاً قوامه ٧٫٠٠٠ رجل وزحف نحو لندن ، وبعث بنداء إلى كل المواطنين أن يمنعوا انجلترا من أن تصبح إقطاعية لإسبانيا ، وبدأ الجانب البروتستانتى من أهالى لندن فى وضع خطة لفتح الأبواب لويات ، وتردد مجلس الملكة فى أن يرتبط بشىء ، ولم يحشد جندياً واحداً للدفاع عنها ، ولم تستطع مارى أن تدرك لماذا ترفض البلاد التى رحبت كثيراً بارتقائها العرش أن تتمتع بالسعادة وتحقيق أمانيها التى حلمت بها طوال سنوات التعاسة العديدة . وإذا لم تمسك بزمام الأمور فى يديها بعزم غير عادى فإن حكمها وحياتها سوف ينتهيان وشيكا . ولكنها ذهبت بنفسها إلى جلدهول وواجهت اجتماعاً ثائراً كان يتباحث إلى أى جانب ينحاز . وقالت للجميع إنها على استعداد تام لأن تتخلى عن فكرة الزواج الإسبانى إذا كانت هذه رغبة العموم ، وقالت حقاً « إنى على استعداد لأن أمسك عن الزواج طوال حياتى » ولكنها لن تسمح فى الوقت نفسه أن يتحول موضع الخلاف إلى « عباءة إسبانية » لثورة سياسية . وقالت : « إنى لا أستطيع أن أقول كيف تحب الأم طفلها بفطرتها لأنى لم أكن يوماً أماً ، ولكن لا شك أنه إذا كانت الملكة يمكن أن تحب رعاياها حباً طبيعياً وحاراً كما تحب الأم طفلها ؛ فإنى أؤكد أنى باعتبارى سيدتكم ومولاتكم ، أحبكم حباً حاراً رقيقاً وأعطف عليكم[٣٩] » . وقوبلت كلماتها وروحها بتصفيق حار ، وتعهد الجمع بتأييدها . واستطاع وكلاء الحكومة ، فى يوم تقريباً ، أن يحشدوا ٢٥٫٠٠٠ رجل مسلح وقبض على سفولك وفركروفت وكاريو إلى مخبأ . أما ويات فقد قاد ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه على هذا النحو ، قوة صغيرة قاتل بها فى شوارع لندن ، وشق طريقه تقريباً إلى قصر الملكة فى هويتهول . وتوسل الحراس إلى مارى أن تهرب ، ولكنها رفضت وأخيراً غلب رجال ويات

على أمرهم فاستسلم بعد أن وهن منه الجسد والروح وأخذ إلى سجن البرج وتلمست مارى عبير الأمان مرة أخرى ولكنها لم تعد قط الملكة الرقيقة .

٤ — « مارى الدموية » : ١٥٥٤ — ٥٨

كثيراً ما أدان مستشاروها سياستها القائمة على الصفح . وقد لامها الإمبراطور وسفيره على السماح بالحياة بل وبالحرية لأشخاص تآمروا ضدها وسوف يكونون أحراراً لتكرار هذا — وسئلت كيف يستطيع فيليب أن يأمن على نفسه فى بلد ترك فيه أعداؤه يمرحون بلا عائق ليدبروا مؤامرة لاغتياله ؟ وكان من رأى الأسقف جاردنر أن الرحمة بالأمة تتطلب إعدام الخونة . وتملك الذعر الملكة فمالت إلى العمل بآراء مستشاريها . وأمرت بإعدام الليدى جين جراى التى لم ترغب قط فى أن تكون ملكة ، وزوج جين ، الذى أراد أن يكون ملكاً . وانطلقت جين ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، إلى حتفها وهى تؤمن بأن هذا قدرها ، دون أن تبدى احتجاجاً أو تذرف دموعاً (١٢ فبراير سنة ١٥٥٤) . وقطع رأس والدها سفولك وشنق مائة من صغار الثوار . وأبقى على حياة بعض المتآمرين إلى حين أملا فى أن ينتزع منهم اعترافات مفيدة ، واتهم ويات فى مبدأ الأمر إليزابث بأنها على علم بالخطة ، ولكن عندما وقف على المنصة (١١ ابريل سنة ١٥٥٤) برأها من كل علم بها . وأطلق سراح كورتناى بعد أن سجن عاماً وأقصى عن البلاد . وأشار شارل على مارى بإعدام كورتناى وإليزابث باعتبارهما مصدر تهديد دائم لحياتها . وأرسلت مارى إلى إليزابث بالحضور واحتفظت بها فى قصر سانت جيمس شهراً ثم سجنتها شهرين فى البرج . وحثها رينارد على تنفيذ حكم الإعدام فيها فوراً ، ولكن مارى اعترضت وقالت إنه لم يثبت اشتراك إليزابث فى الجريمة(٤٠) ، وظلت حياة إليزابث خلال هذه الشهور المشئومة معلقة فى الميزان ، وساعد هذا الرعب على تكوين شخصيتها القائمة على الريبة

واستشعار الخطر ، وكان له صداه فيما اتسم به عهدها المتأخر من قسوة عندما ساورها بشأن ماري ستيوارت نفس القلق الذي كان يساور ماري تيودور وقتذاك حول إليزابث . وفي ١٨ مايو نقلت من أصبحت ملكة في الأيام التالية إلى وود ستوك حيث عاشت مطلقة السراح في معتقل تحت الرقابة : وأدى خوف ماري من مؤامرة أخرى تدبر لتولية إليزابث على العرش إلى أن تتعجل ماري الزواج أملا في أن تحظى بالأمومة .

ولم يكن فيليب متلهفاً إلى هذا الحد . وتزوج ماري يوم ٦ مارس سنة ١٥٥٤ بطريق الوكالة ولكنه لم يصل إنجلترا قبل يوم ٢٠ يوليو ، ودهش الإنجليز وسرهم أن يجدوه شخصاً يمكن احتماله بدنياً واجتماعياً : وجه غريب مثلث الشكل تقريباً ينحدر من جبهة عريضة إلى ذقن مدبب يزينه شعر أصفر ولحية ، ولكنه يمتاز بخلق كريم وبديهة حاضرة ومواهب تصلح لأي شيء ، ولم يبد أي إيماءة بأنه هو وحاشيته يعدون الإنجليز برابرة . بل إنه قال كلمة رقيقة في صالح إليزابث ، ولعله كان يتنبأ بأن ماري ربما لا ترزق بذرية وأن إليزابث قد تكون يوماً ملكة ، وذلك يكون شراً أهون من أن ترتقي ماري ملكة الإسكوتلنديين — التي ارتبطت منذ عهد بعيد بفرنسا — عرش انجلترا . وعلى الرغم من أن ماري كانت أكبر سناً بكثير من فيليب فإنها تطلعت إليه بإعجاب ساذج ، وكانت متعطشة إلى الحب طوال سنوات عديدة ، فابتهجت وقت ذاك لفوزها بأمير ساحر وقوي إلى هذا الحد ، ومنحته نفسها بإخلاص لا شك فيه إلى حد أن الحاشية تساءلت هل أصبحت إنجلترا بالفعل تابعة لإسبانيا ، وكتبت لشارل الخامس في تواضع رسالة تقول فيها إنها : « أسعد مما أستطيع التعبير عنه لأني في كل يوم أكتشف في زوجي الملك من الفضائل العديدة وصفات الكمال ما يدفعني باستمرار إلى أن أتضرع إلى الله أن يهبني العون لأسعده[41] » .

وكانت رغبتها فى أن تلد ابناً لفيليب وولى عهد لإنجلترا ، عارمة استغرقت كل اهتمامها إلى حد أنها سرعان ما تصورت أنها حامل . ولقى انقطاع الطمث عندها وقتذاك ترحيباً ، باعتباره شارة ملكية ، وألجم الأمل ألسنة من خطر لهم أن تلك الحالة حدثت لها كثيراً من قبل . وتقبل الناس الاضطرابات الهضمية على أنها أدلة أخرى على الأمومة ، وأبلغ سفير البندقية أن « حلمتى » الملكة قد انتفختا ودر ثدياها لبناً . وابتهجت مارى وقتاً طويلا عندما راودتها فكرة أنها أيضاً يمكن أن تحمل طفلا شأنها فى هذا شأن أفقر امرأة فى ممالكتها ، ولا نستطيع أن نتصور مدى تعاستها عندما أقنعها أطباؤها آخر الأمر أن انتفاخ بطنها إنما حدث بسبب الاستسقاء ؛ وفى غضون ذلك كانت شائعات حملها قد اكتسحت إنجلترا وأقيمت الصلوات ونظمت المواكب من أجل ولادتها السعيدة ، وسرعان ما انتشرت شائعة بأنها أنجبت ولداً . وأغلقت الحوانيت ابتهاجاً واعتبر اليوم عطلة واحتفل الرجال والنساء فى الشوارع ، وقرعت نواقيس الكنائس وأعلن أحد رجال الدين أن الطفل « أشقر وجميل » كما يليق بأمير(٤٢) . وتحطمت مارى من الإحباط والخجل فانزوت شهوراً عن أنظار الجمهور .

وشعرت بالعزاء إلى حد ما بعودة الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان شارل قد أخر بول عن السفر فى بروكسل لأنه عارض الزواج الإسبانى ، أما وقد تم هذا الزواج فإن اعتراضات الإمبراطور هدأت ، وعبر الكاردينال القناة بصفته قاصداً رسولياً (٢٠ نوفمبر سنة ١٥٥٤) إلى البلاد التى كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاماً ، وقوبل بترحيب حار من الموظفين ورجال الاكليروس والشعب أثبت الرضا العام عن تجديد العلاقات مع البابوية . وحيا مارى بعبارة تكاد تكون منتقاة من معجمه : « السلام عليك يا مريم ، الممتلئة بالنعمة ، الرب معك . أنت مباركة بين النساء **Ave Maria, gratia Plena, Dominus tecum, benedicta tu in mulieribus** وكان على ثقة

من أنه قريباً سوف يردف قائلا : « مباركة ثمرة رحمك[٤٣] » .

وعندما علم المجلس النيابى أن بول جاء معه بموافقة البابا على احتفاظ الحائزين الحاليين بأملاك الكنيسة المصادرة فرح الجميع ، كما يحدث فى أى زفاف . وأعرب أعضاء المجلس النيابى وهم راكعون عن ندمهم لما ألحقوه من إساءات بالكنيسة ومنح الأسقف جاردنر التائبين الغفران بعد أن اعترف بتذبذبه . واعترف بسيادة البابا فى الشئون الكنسية وتأكد حقه فى دخول السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين و « الثمرات الأولى » وأعيد إنشاء المحاكم الأسقفية وأعيدت ضرائب العشور الأبرشية لرجال الاكليروس وجددت القوانين القديمة ضد اللاأدرية وأعيدت الرقابة على المطبوعات من سلطات الدولة إلى سلطات الكنيسة . وبدا كل شيء كسابق عهده بعد فتنة دامت عشرين عاماً .

ولبث فيليب مع مارى ثلاثة عشر شهرا يأمل فى أن يرزق بطفل ، وحينما لم يظهر أى دليل مؤكد رجاها أن تسمح له بالذهاب إلى بروكسل حيث كان نزول والده عن العرش يقتضى حضوره . ووافقت فى حزن وانطلقت معه إلى النقالة المائية التى سوف تقله إلى أدنى نهر التيمس ، وأخذت ترقب النقالة من نافذة إلى أن اختفت (٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٥) . وشعر فيليب نه قد أدى واجبه طوال سنة لقى فيها من أمره عسراً وهو يطارح الغرام امرأة مريضة ، وكافأ نفسه بسيدات بروكسل القويات البنية .

وكان بول وقتذاك أعظم رجل يتمتع بالنفوذ فى إنجلترا . وشغل نفسه بإعادة تنظيم الكنيسة الإنجليزية وإصلاحها . وأعاد فتح بعض أديار الرهبان ودير للراهبات بمساعدة مارى . وسعدت مارى عندما رأت بعث العادات الدينية القديمة ، وسرها أن ترى الصلبان والصور المقدسة فى الكنائس مرة أخرى ، وأن تشترك فى مواكب تتسم بالورع مع القساوسة أو الأطفال أو الطوائف المهنية فتجاس أو تركع لتحضر قداسات تقام للأحياء والأموات.

رغسات وقبلت يوم خميس العهد عام ١٥٥٦ أقدام إحدى وأربعين امرأة مسنة وهى تدلف على ركبتها من واحدة للأخرى ومنحتهن جميعها صدقات(٤٤) . وما دام الأمل فى الأمومة قد تبدد أصبح الدين سلواها التى تعينها على الاحتمال .

ولكنها لم تستطع أن تبعث الماضى تماماً . فقد حفزت الأفكار الجديدة إلى اضطراب مثير فى عقول أهل المدينة ، وكانت لاتزال هناك اثنتا عشرة طائفة تنشر كتبها وعقائدها فى الخفاء . وتألمت مارى عند ما سمعت عن جماعات تنكر ألوهية المسيح ووجود الروح القدس وانتقال الخطيئة الأولى . وخيل إليها أن هذه الهرطقات تعد جرائم مهلكة بالنسبة لإيمانها الساذج وأنها أسوأ بكثير من خيانة الدولة . هل فى وسع الهراطقة أن يعرفوا كيف يعاملون الروح البشرية خيرا مما يعرفه كاردينالها المحبوب ؟ وترامى إلى أسماعها أن واعظا تضرع بصوت عال أمام جمهور أبرشيته أن يهديها الله أو يرفعها من الأرض(٤٥) . وألقى يوماً كلب ميت ، حلق شعر رأسه جرياً على عادة الرهبان ، وحول عنقه حبل ، من نافذة فى غرفة الملكة(٤٦) . وفى كنت جدع أنف قسيس(٤٧) . ورأت مارى أنه من غير المعقول أن يقوم المهاجرون البروتستانت الذين سمحت لهم بالرحيل عن إنجلترا فى سلام ، بإرسال كتيبات يهاجمونها فيها ويصفونها بأنها حمقاء رجعية ويتحدثون عن « صلاة لاتينية مكروهة عند إقامة قداس وثنى (٤٨) » . وحثت بعض الكتيبات قوادها على أن يهبوا فى ثورة ويخلعوا الملكة(٤٩) . وعقد اجتماع من ١٧٫٠٠٠ شخص فى أولدچيت (١٤ مارس سنة ١٥٥٤) ونادى بوضع إليزابث على العرش(٥٠) . وكانت حوادث التمرد فى إنجلترا من تدبير البروتستانت الإنجليز فى الخارج .

وكانت مارى تنزع بفطرتها وعادتها إلى الرحمة — حتى عام ١٥٥٥ فماذا حولها إلى ملكة تحظى بأكبر قدر من الكراهية بين الملكات

الإنجليزيات ؟ هناك استفزاز الهجمات التى أظهرت عدم الاحترام لشخصها أو عقيدتها أو مشاعرها من ناحية ، وهناك الخوف من أن تكون الهرطقة ستاراً لثورة سياسية من ناحية ثانية ، وهناك الشدائد التى عانتها وخيبة الأمل المتكررة التى كدرت صفو روحها وجعلت حكمها على الأشياء مظلماً من ناحية ثالثة ، وهنالك إيمانها الذى لا يتزعزع بصواب آراء مستشاريها الذين تثق بهم أكثر من أى شخص آخر — فيليب وجاردنر وبول — التى تذهب إلى أن الوحدة الدينية أمر لا غنى عنه للتضامن القومى وبقائه . وسرعان ما أفصح فيليب عن مبادئه فى الأراضى المنخفضة . وكان الأسقف جاردنر قد أقسم بالفعل (ربيع عام ١٥٥٤) أن يحرق الأساقفة البروتستانت الثلاثة — هوبر وريدلى ولاتيمر — ما لم يرتدوا عن عقيدتهم(٥١) . وكان الكاردينال بول ، مثل مارى ، ينزع بفطرته إلى الرحمة ولكنه كانت لا تلين له قناة فى العقيدة ، وقد أحب الكنيسة حباً جماً إلى حد أنه كان يرتجف للتشكك فى عقائدها أو سلطتها . ولم يكن له دور قيادى مباشر أو شخصى فيما قامت به مارى من اضطهاد ، وأشار بالاعتدال وأطلق مرة سراح عشرين شخصاً كان الأسقف بونر قد حكم عليهم بالموت حرقاً(٥٢) .

ومع ذلك فإنه أصدر تعليماته لرجال الأكليروس بأنه إذا فشلت كل طرق الإقناع سلمياً فإن كبار الهراطقة يجب أن تنتزع منهم الحياة ويستأصلوا مثل الأطراف الفاسدة من الجسد(٥٣) » . وأعربت مارى عن رأيها فى تردد . « نعتقد أن إثارة عقاب الهراطقـة يجب أن يتم بغير اندفاع ولا نتخلى فى الوقت نفسه عن إقامة العدالة لهؤلاء الذين يسعون إلى خداع البسطاء(٥٤) » . وكانت مسئوليتها فى بادئ الأمر مقصورة على الإذن ولكنها كانت حقيقة .

وعندما تبين لها (١٥١٨) أن الحرب مع فرنسا قد عادت عليها وعلى

إنجلترا بالوبال عزت الفشل إلى غضب الله عليها لترفقها بالهرطقة وتشددت قطعاً بعد ذلك فى الاضطهاد .

وافتتح جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية ستة من رجال الإكليروس (٢٢ يناير سنة ١٥٥٥) كانوا قد رفضوا قبول العقيدة التى توطدت من جديد(*) .

وارتد واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذى أقيل (٤ – ٨ فبراير سنة ١٥٥٥) . ويبدو أن جاردنر أصيب بانتكاس فى الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك فى الاضطهاد ، وانهارت صحته ومات فى نوفمبر من هذا العام . واضطلع الأسقف بونر بالمذبحة . ونصح فيليب ، وكان لا يزال بإنجلترا ، بالاعتدال وعندما أدان بونر ستة ، وحكم عليهم بالحرق اعترض سفير الإمبراطور رينار على « هذا التهور البربرى[٥٧] » وندد كاهن الاعتراف الخاص لفيليب ، وهو أخ أسبانى من الرهبان ، وهو يعظ أمام الحاشية ،

(*) إن المصدر الأساسى لما قامت به مارى من اضطهاد هو كتاب جون فوكس وعنوانه : « فى أمور الكنيسة وفى التعليق على مآثرها **"Rerum in ecclesia gestarum Commentarii"** » (١٥٥٩) الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « أفعال وآثار » (١٥٦٣) ويعرف بغير كلفة باسم « كتاب الشهداء » وأصبح الوصف الواضح لمحاكمات البروتستانت ووفياتهم من المقتنيات الحبيبة عند الأسرة بعد الكتاب المقدس عند المتطهرين (البيوريتان) ، وعلى الرغم من أن القساوسة من الآباء اليسوعيين نشروا (١٦٠٣) خمسة مجلدات تهاجم صحة ما ورد فيه فقد كان له أثر قوى فى تكوين مزاج إنجلترا فى عهد أليفر كرومويل . وقد انتقده الكثيرون من رجال الكنيسة البروتستانت لما فيه من المبالغة والخطأ فى النقل والتحامل وعدم العناية بالتفاصيل[٥٥] . ويقارن مؤرخ كاثوليكى بينه وبين سير القديسين فى القرون الوسطى فى مدى ما يمكن الوثوق به مما ورد فيه ، ويختم كلامه بقوله إنه على الرغم مما يكتنف الكثير من التفاصيل من شكوك « فليس هناك من يشك فى أن هذه الأحداث وقعت بالفعل »[٥٦] .

بالأحكام باعتبارها مخالفة للروح المعتدلة والمتسامحة التى حث عليها المسيح(٥٨) مراراً وتكراراً . وأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع ، ثم أمر بتنفيذها ، وأعتقد أنه كان رفيقاً متساهلا ، والحق أن مجلس الملكة أنبه يوماً لأنه لا يظهر حماسة كافية فى مطاردة الهرطقة(٥٩) وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملا إذا ارتد عما يقول ، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أو عمل صريح(٦٠) ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة ، وكانت توضع عادة حقيبة ممتلئة بالبارود بين ساقى المحكوم عليه حتى تؤدى ألسنة اللهب إلى موت سريع ، ولكن الخشب احترق ببطء فى حالة هوبر ، وخاب أثر البارود فلم ينفجر . وقاسى الأسقف السابق آلاماً استمرت ساعة تقريباً .

وكان معظم الشهداء عمالا بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتى له إبان الحكم السابق . ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدين الذين بذلوا الجهد لتحفيظ مبادئ العقيدة البروتستانتية ، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفى سبتمبر سنة ١٥٥٥ أحضر كرانمر وعمره ستة وستون عاماً ، وريدلى وعمره خمسة وستون عاماً ، ولاتيمر ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة فى أكسفورد . وكان لاتيمر قد لطخ صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعميد والفرنشسكان العنيدين فى عهد هنرى الثامن . وكان ريدلى قد أيد بنشاط اغتصاب جين جراى للعرش ، ووصف مارى بأنها ابنة سفاح وساعد فى خلع بونر وجاردنر من كرسيهما الأسقفيين .

وكان كرانمر الرأس المفكر للإصلاح الدينى الإنجليزى ، فقد أحل زواج هنرى وكاترين ، وزوج هنرى من آن بولين ، واستبدل بالقداس كتاب الصلاة العامة واضطهد فريث ولامبرت وغيرهما من الكثالكة ،

ووقع وصية إدوارد بالتاج لجين جراى ، وندد بالقداس باعتباره كفراً ، وكان هؤلاء الرجال وقتذاك فى البرج منذ عامين يتوقعون الموت كل يوم .

وحوكم كرانمر فى أكسفورد فى اليوم السابع من سبتمبر . وقام قضاته بكل جهد ممكن للحصول منه على إنكار لما ذهب إليه . فتمسك بموقفه بحزم وحكم عليه بأنه مذنب ، ولكن لما كان رئيساً للأسافقة فإن الحكم عليه ترك للبابا وأعيد إلى سجن البرج . وفى ٣٠ سبتمبر حوكم ريدلى وتشبث بموقفه وفى اليوم نفسه اقتيد لاتيمر أمام المحكمة الكنسية ، وكان وقتذاك رجلا لا يبالى بالحياة ، يرتدى ثوباً قديماً مهلهلا ورأسه الأبيض تكسوه قلنسوة فوق طاقية نوم فوق منديل وتتدلى نظارتاه من عنقه وربطت بزنارة نسخة من العهد الجديد . وفى اليوم الأول من أكتوبر حكم عليهم بالإدانة وأحرقوا فى اليوم السادس من أكتوبر . وركعوا أمام المحرقة وصلوا معاً . وربطوا بالأغلال إلى عمود حديدى وعلقت حول عنق كل رجل حقيبة ممتلئة بالبارود وأشعلت حزم الحطب . وقال لاتيمر : « تمهل ولا تبتئس يا سيد ريدلى وتصرف كرجل ، فإننا فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة بفضل الله فى إنجلترا ، وأنا على يقين أنها لن تطفأ أبداً(٦١) » .

وفى الرابع من ديسمبر أيد البابا الحكم على كرانمر . واستسلم رئيس الأساقفة البروتستانتى الأول فى كنتربرى لخوف يغتفر له ، ولم يكن فى وسع رجل استطاع أن يكتب بإنجليزية قوية الدلالة كتاباً مثل كتاب الصلاة العامة مواجهة هذه المحن دون أن يتعرض لآلام غير عادية فى الجسد والعقل

ولعل كرانمر تأثر بنداء بول الحار فقرر قوله إنه : « تخلى عن كل طرق الهرطقة وأخطاء لوثر وزوينجلى وكرهها وأبغضها » ، وأقر بإيمانه بالشعائر المقدسة السبع واعترف بالتجسيد والمطهر وكل تعاليم الكنيسة الرومانية .

وكان إنكاره هذا قمينا بأن يستبدل به الحكم بسجنه جرياً على ما حدث في جميع السوابق ، ولكن ماري (طبقاً لما قاله فوكس) رفضت إنكاره لمعتقده على أساس أنه يفتقر إلى الإخلاص وأمرت بإعدام كرانمر(٦٢)

وفي كنيسة سانت ماري بأكسفورد تلاقي صبيحة يوم إعدامه (٣١ مارس سنة ١٥٥٦) إنكاره السابع والأخير . ثم أضاف لدهشة جميع الحاضرين .

وأجيء الآن إلى الأمر العظيم الذي يؤرق ضميري أكثر من أي شيء آخر فعلته أو قلته طوال حياتي وذلك هو تدبيج رسالة في الخارج تخالف الحقيقة . وأنا الآن أتبرأ منها وأرفضها . . . إنها كتبت خوفاً من الموت .... وذلك شأن جميع البيانات والأوراق التي كتبتها أو وقعت عليها بيدي منذ تجريدي من منصبي ... وما دامت يدي قد أثمت ، بكتابة ما يخالف صدق مشاعري فإن يدي سوف تعاقب على ذلك لأنها .... سوف تحرق أولا .... أما بالنسبة للبابا فإني أرفض اعتباره عدواً للمسيح وخارجاً على المسيحية(٦٣) .

وعندما اقتربت ألسنة النيران من جسده وهو على المحرقة مد يده فيها واحتفظ بها هناك ، كما يقول فوكس : « ثابتة لا تتحرك ... حتى يستطيع كل الناس أن يروا يده تحترق قبل أن تمس النار جسده . وأخذ يردد كثيراً كلمات ستيفن « رباه ! تقبل روحي » في عظمة اللهب الذي سلم الروح القدس(٦٤) .

وكانت وفاته دليلا على بلوغ الاضطهاد ذروته . ومات نحو ٣٠٠ شخص في أثنائه منهم ٢٧٣ في السنوات الأربع الأخيرة من ذلك العهـــد . وكلما مضت المحرقة قدماً أصبح من الواضح أنها كانت خطأ . واستمدت البروتستانتية القوة من شهدائها كما فعلت المسيحية في بواكير عهدها وانزعج كثير

من الكثالكة فى عقيدتهم وشعروا بالخزى من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهروه من جلد . وعلى الرغم من أن الأسقف بونر لم ينعم بالعمل فقد أطلق عليه اسم « بونر الدموى » لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام ووصفته امرأة بأنه « الذباح المعروف وعبد المجزرة العامة لكل الأساقفة فى انجلترا(٦٥) » ، ووجد المئات من الإنجليز البروتستانت ملجأ فى فرنسا الكاثوليكية وسعوا هناك إلى وضع نهاية للعهد الحزين .

وبينما كان هنرى الثانى يطارد البروتستانت الفرنسيين فإنه شجع على تدبير المؤامرات الإنجليزية ضد مارى الكاثوليكية التى أدى زواجها بملك إسبانيا إلى ترك فرنسا محاطة بقوى معادية . واكتشف العملاء البريطانيون فى أبريل عام ١٥٥٦ مؤامرة يتزعمها هنرى ددلى لخلع مارى وتولية اليزابث على العرش . وتم القبض على عدة أشخاص منهم اثنان من أفراد بيت اليزابث ،وأقحم اعتراف اسم اليزابث نفسها والملك الفرنسى . وقمعت الحركة ولكنها تركت مارى فى خوف دائم من الاغتيال .

وواجهت جماعة من الهاربين محناً كشفت عن مزاج العصر الذى تتسلط العقيدة عليه ، فقد جاء إلى لندن عام ١٥٤٨ جان لاسكى ، وهو كالفنى بولندى وأنشأ هناك أول كنيسة مشيخية فى إنجلترا . وبعد ارتقاء مارى العرش بشهر ترك لاسكى وجانب من جمهور المصلين معه لندن فى سفينتين دنمركيتين. وفى كوبنهاجن منعوا من الدخول ما لم يوقعوا على الاعتراف الرسمى اللوثرى الخاص بالعقيدة . فأبوا باعتبارهم كالفنيين متمسكين بعقيدتهم . ولم يسمح لهم بالنزول فسافروا بحراً إلى وسمار وليبسك وهامبورج ، وفى كل حالة كانوا يواجهون بالمطلب نفسه ويردون بالرفض(٦٦) . ولم يذرف اللوثريون فى ألمانيا أية دموع على ضحايا مارى بل نددوا بهم باعتبارهم هراطقة مكروهين و « شهداء للشيطان» بسبب إنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان(٦٧) المقدس . وأدان كالفن تعصب اللوثرين الذى لا يعرف الرحمة ، وفى ذلك العام

(١٥٥٣) أحرق سرفيتوس فى المحرقة . وبعد أن ظل الهاربون تتقاذفهم أمواج بحر الشمال معظم أيام الشتاء سمح لهم بالدخول أخيراً ووجدوا معاملة إنسانية فى إمدن .

وسارت مارى إلى نهايتها المحتومة بقدر كئيب . وكان زوجها التقى فى حرب غير منطقية وقتذاك مع البابوية وكذلك مع فرنسا ، وجاء إلى إنجلترا (٢٠ مارس سنة ١٥٥٧) وحث الملكة على أن تشترك إنجلترا فى الحرب باعتبارها حليفة . ولكى يخفف من كراهية الإنجليز لمهمته ، أقنع مارى بالاعتدال فى الاضطهاد[٦٨] ، ولكنه لم يستطع أن يكسب بسهولة تأييد الجمهور بل كان الأمر على العكس ، فبعد شهر من وصوله أشعل توماس ستافورد ، ابن أخى الكاردينال بول ، ثورة لتحرير إنجلترا من مارى وفيليب على السواء ، ولكنه هزم وشنق (٢٨ مايو سنة ١٥٥٧) ولقد أترع البابا كأس الملكة تعاسة برفضه الاعتراف ببول قاصداً رسوليا واتهم بالهرطقة . وكانت مارى فى لهفة لإرضاء فيليب ومقتنعة أن هنرى الثانى قد أيد ستافورد فى مؤامرته ، فأعلنت الحرب على فرنسا فى ٧ يونية . وبعد أن حقق فيليب غرضه غادر إنجلترا فى يوليو . وراود الشك مارى فى أنها لن تراه أبدا مرة أخرى . وقالت : « سوف أعيش ما بقى من أيامى دون رفيق من الرجال[٦٩] » . وفقدت انجلترا فى هذه الحرب التى لم ترغب فيها كاليه (٦ يناير سنة ١٥٥٨) التى كانت قد احتفظت بها ٢١١ عاما وآلاف الإنجليز من الرجال والنساء الذين عاشوا هناك وفروا الآن إلى بريطانيا ، لاجئين معدمين ، وأذاعوا الاتهام المرير المنسوب إلى حكومة مارى بأنها أهملت إهمالا إجراميا فى الدفاع عن آخر ممتلكات إنجلترا فى القارة . وعقد فيليب صلحا موافقا له دون أن يطلب استعادة كاليه . وكانت ثمة عبارة قديمة تتردد هى أن ذلك الميناء الثمين كان « ألمع جوهرة فى التاج الإنجليزى » . وأضافت مارى عبارة أخرى إلى الحكاية « عند ما أموت وتفتحون صدرى فسوف

تجدون كاليه فى قلبي[٧٠] » . وفى أوائل عام ١٥٥٨ اعتقدت الملكة مرة أخرى أنها حامل . وكتبت وصيتها إذ كانت تتوقع أن تكون ولادتها خطيرة وبعثت برسالة إلى فيليب تتوسل إليه فيها أن يحضر الحادث السعيد .، فبعث إليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره ، فقد كانت مارى على خطأ . وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع ، ولعلها كانت مخبولة إلى حد ما . كانت تجلس على الأرض الساعات الطوال وركبتاها مرفوعتان إلى ذقنها ، وكانت تتجول فى قاعات القصر مثل شبح ، وكتبت رسائل لطختها بدموعها للملك الذى توقع وفاتها ، فأمر عملاءه فى إنجلترا أن يستميلوا قلب اليزابث للزواج من أمير إسبانى أو من فيليب نفسه .

وفى أيام الصيف الأخير من حياة مارى انتشر وباء حمى البرداء فى انجلترا وأصيبت به الملكة فى سبتمبر عام ١٥٥٨ وتحالف مع الاستسقاء و « زيادة الصفراء السوداء » فأضعفها إلى حد أن رغبتها فى الحياة تلاشت . وفى ٦ نوفمبر بعثت بجواهر التاج إلى اليزابث . وكان هذا عملا كريماً أذعن فيه حبها للكنيسة لرغبتها فى منح إنجلترا وراثة منظمة للعرش . وتعرضت للغيبوبة فترات طويلة واستيقظت من إحدى هذه الغيبوبات لتروى كيف رأت حلماً سعيداً عن أطفال يلعبون ويغنون أمامها[٧١] . وفى ١٧ نوفمبر سمعت القداس مبكراً وهتفت بالعبارات التى يرددها المصلون عادة وراء القس بحرارة . وماتت قبل الفجر .

وفى اليوم نفسه مات الكاردينال بول ، الذى منى بهزيمة منكرة مثل مليكته . ولا بد لنا عند تقديره أن نسجل الحقيقة المرة وهى أنه كان قد أدان ثلاثة رجال وامرأتين وحكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة فى مستهل [illegible] أن [illegible] ما عدا المنكرين للتعديل فى [illegible] [illegible] اليقين وقد [illegible] ضرورة المحافظة [illegible] الوحدة [illegible] ، ولكن لم

يحدث فى أى مكان فى العالم المسيحى المعاصر — حتى فى إسبانيا — أن أحرق هذا العدد الكبير من الرجال والنساء بسبب آرائهم كما حدث فى عهد تولى ريجينالد بول رئاسة الكنيسة الإنجليزية .

وفى وسعنا أن نقول كلمة رفيقة عن مارى . فقد أدّى الحزن والمرض وكثير مما تعرضت له من أخطاء إلى انحراف عقلها . ولم تتحول من الحلم إلى القسوة إلا بعد مؤامرات كانت تستهدف حرمانها من التاج الذى تضعه على رأسها وأصاخت السمع فى ثقة زائدة لرجال الدين الذين سعوا إلى الانتقام بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد . وكانت تعتقد حتى آخر لحظة فى حياتها أنها بالقتل إنما تؤدى فرائضها نحو العقيدة التى أحبتها كمجال حيوى لبقائها . وهى لا تستحق اسم « مارى الدموية » ما لم تسحب تلك الصفة على عصرها بأسره ، فهو يهون بلا رحمة من شأن شخصية فيها الكثير من الصفات التى تستحق الحب :

وإن امتيازها العجيب إنما هو استمرارها فى العمل الذى بدأه والدها لإبعاد إنجلترا عن روما . وأظهرت لإنجلترا ، ولما نزل كاثوليكية ، أسوأ جانب للكنيسة التى خدمتها ، ولما ماتت كانت إنجلترا مهيأة أكثر من ذى قبل لاعتناق العقيدة الجديدة التى جاهدت للقضاء عليها .

الفصل السابع والعشرون

من روبرت بروس إلى جون نوكس

١٣٠٠ — ١٥٦١

---

١ — الإسكوتلنديون الذين لا يقهرون

إن الجنوب الحار اللطيف يولد الحضارة والشمال البارد القاسى يتغلب مراراً على الجنوب المتهاون الكسول ويستوعب الحضارة ويحورها ، وإن بلاد أقصى الشمال — سكوتلنده والنرويج والسويد وفنلنده — لتكافح العناصر التى تكاد تشبه الظروف القطبية الشمالية لتقوم بشىء من الترحيب بالحضارة وتسهم فيها وهى تواجه ألف عقبة .

ولقد شجعت الهضاب المجدبة الخالية من الطرق على قيام الإقطاع ولم تشجع على الزراعة ، بينما رحبت الأراضى المنخفضة الخضراء الخصيبة بغزوة بعد غزوة قام بها الإنجليز الذين لم يستطيعوا أن يدركوا لماذا لا تستقبل سكوتلندة تدفعهم عليها هم وملوكهم . وكان الإسكوتلنديون قديماً من الكلتيين واختلطوا فى القرون الوسطى بالأيرلنديين والنرويجيين والإنجليز والساكسون والنورمانديين ، وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا قد أصبحوا شعباً ضيق الأفق فى المشاعر والأفكار — ومثلهم فى ذلك مثل شبه جزيرتهم ، عميق الغور فى الخرافة والأساطير مثل الضباب المنتشر عنده معتزاً بنفسه مثل قننه البحرية ، فظاً مثل أرضه ، متهوراً مثل سيوله الجارفة ، وهو شرس ورقيق ، قاس وشجاع فى آن واحد ، ولا يقهر أبداً . ويبدو أن الفقر ضارب

بجذوره فى ظروفه الجغرافية والأخلاق فى فقره ، وهكذا نشأ الشح من التربة الخانقة ، وكان الفلاحون يرزحون تحت وطأة الكدح والنصب ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت لكتابة الرسائل ، أما النبلاء الذين أبقوهم فى العبودية فقد فاخروا بالأمية ، إذ وجدوا ألا فائدة من تعلم حروف الأبجدية فى ثاراتهم أو حروبهم ، وقسمت الجبال والعشائر السكان المشتتين إلى طوائف متناظرة متهورة لا يعفون عن أعدائهم فى الحرب ولا يعطون أماناً فى السلم .ولما كان النبلاء يملكون تقريباً كل أسباب السلطة العسكرية فى فرقهم الخاصة فإنهم سيطروا على المجلس النيابى وعلى الملوك . وكان لدى آل دوجلاس وحدهم ٥٠٠٠ تابع ودخولهم تضارع دخل التاج .

وقبل عام ١٥٠٠ كانت الصناعة بدائية ومنزلية والتجارة مضطربة ، والمدن قليلة وصغيرة . وكان تعداد سكان سكوتلندة كلها وقتذاك ٦٠٠٠٠٠ نسمة نصف عدد سكان جلاسجو اليوم . وكانت جلاسجو بلدة صغيرة تعمل بالصيد وكانت برت هى العاصمة حتى عام ١٥٤٢ ، وكان بأدنبره ١٦٠٠٠ نسمة .

وعبرت روح الاستقلال الفردية والمحلية والقومية عن نفسها فى الأنظمة القروية والبلدية التى تتمتع بالحكم المحلى داخل إطار الإقطاع والملكية . وسمح لأوساط الناس — المواطنين المحررين من سكان المدن — بأن يكون لهم ممثلون فى المجلس النيابى أو مجالس المقاطعات ، ولم يكن يحق لهم أن يجلسوا بين زملائهم من أعضاء العموم كما فى إنجلترا ، ولكن بين ملاك الأراضى من الإقطاعيين ، وكانت أصواتهم تضيع فى الأغلبية التى للنبلاء . ولما كان الملوك لا يستطيعون أن يوطدوا سلطانهم ضد النبلاء بالتحالف مع التجار والأغنياء والمدن الآهلة بالسكان ، كما هو الحال فى فرنسا ، فإنهم سعوا إلى الحصول على التأييد من ثروة الكنيسة ونفوذها .

أما النبلاء فكانوا على طرفى نقيض مع الملوك وتعلموا أن يكرهوا الكنيسة ويحبوا أملاكها وانضموا فى إطلاق الصرخة العامة التى تنادى

بأن الثروة القومية إنما تصب فى روما : وكان النبلاء فى اسكوتلندة — وليس الملوك والتجار كما فى إنجلترا — هم الذين نهضوا بالإصلاح الدينى ، أى تحرير العلمانيين من سلطة الكنسيين(١) .

وحققت الكنيسة الإسكوتلندية عن طريق تسلطها على تقوى النـــاس لنفسها ثراء وسط فقر مدقع وآمال معلقة على العالم الآخر . وقام مبعوث بابوى حوالى نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل الكنيسة فى إسكوتلندة يعادل كل الدخول الأخرى مجتمعة(٢) . وكان الوعاظ وأوساط الناس يكادون يحتكرون معرفة القراءة والكتابة . وكان رجال الإكليروس الإسكوتلنديون فى القرن السادس عشر مشهورين بالاتضاع فى العلم ، وكانت الكنيسة بالطبع هى التى أسست جامعتى سانت أندروز وأبردين وحافظت عليهما . وكان الأساقفة ورؤساء الأديار بعد عام ١٤٨٧ ينصبون — وفى الواقع يعينون — بمعرفة الملوك الذين جعلوا من هذه المناصب مكافآت على خدمات سياسية أو رواتب لأبنائهم غير الشرعيين . ووهب جيمس الخامس ثلاثة من أبنائه من السفاح دخولا كنسية من كلسو وملروز وهوليرود وسانت أندروز : وكانت الميول الدنيوية لهؤلاء المعينين من الأسرة الملكية مسئولة إلى حدما عن فساد رجال الإكليروس فى القرن السادس عشر .

ولكن الانحلال العام للأخلاق والنظام الذى اتسمت به الكنيسة أواخر العصور الوسطى ، كان واضحاً فى اسكوتلندة قبل تعيين الملوك للأساقفة بعهد طويل . وكتب هيلير بلوك الكاثوليكى المتزمت يقول : « إن فساد الكنيسة الذى استفحل شره فى كل مكان فى سائر أرجاء أوروبا فى القرن الخامس عشر ، قد وصل فى إسكوتلندة إلى درجة لم تعرف فى أى مكان آخر(٣) » . ومن هنا نشأ إلى حد ما عـــدم المبالاة الذى نظر به عامة الناس ، على ما عرفوا به من محافظة على العقيـــدة ، إلى إحلال رجال الدين البروتستانت محل رجال الدين الكاثوليك . وشكا الملك جيمس الأول عام

١٤٢٥ من فجور الرهبان وكسلهم ، وفى عام ١٤٥٥ اضطر قسيس فى لينلثجو قبل أن يتسلم وظيفته أن يعطى عهداً بأنه لن يرهن أملاك كنيسته ولن يحتفظ بـ « حظية دائمة[٤] . وكان للكاردينال بيتون ثمانية أبنـاء من السفاح ، وضاجع ماريون أوجيلفى ليلا قبل أن يمضى ليلقى خالقه[٥] ، وحصل جون رئيس أساقفة هاميلتون من جلسات مختلفة عقـدها المجلس النيابى الإسكوتلندى على خطابات بشرعية ذريته المتزايدة . ولم يبخل شعراء ما قبل الإصلاح الدينى فى إسكوتلندة بكلمات فى هجاء رجال الأكليروس بل إن رجال الأكليروس أنفسهم ، فى المجمع المقدس الكاثوليكى الإقليمى لعام ١٥٤٩ عزوا انحطاط الكنيسة فى إسكوتلندة إلى « الفساد فى الأخلاق والفسق الدنس فى حياة رجال الكنيسة من جميع الدرجات تقريباً[٦] » . ومهما يكن من شىء فلا بد من أن نضيف أن أخلاق رجال الأكليروس كانت مجرد انعكاس لأخلاق العلمانيين — وفوق كل شىء النبلاء والملوك .

٢ — وقائع ملكية ١٣١٤ — ١٥٥٤

إن الحقيقة الأساسية فى تاريخ الدولة الإسكوتلندية هى الخوف من إنجلترا ، والحق أن الملوك الإنجليز حاولوا مرارا أن يلحقوا إسكوتلندة بالتاج الإنجليزى من أجل سلامة إنجلترا من هجوم يباغتها من الخلف . وقبلت إسكوتلندة التحالف مع فرنسا عدو إنجلترا اللدود لكى تحمى نفسها . ولذلك تبرز هذه الوقائع .

لقد ظفر الإسكوتلنديون بحريتهم من إنجلترا بانوكبرن (١٣١٤) بالأقواس والسهام والفؤوس المستخدمة فى القتال . ولما كان روبرت بروس قد قادهم هناك إلى النصر ، فقد ظل يحكمهم حتى وفاته متأثراً بداء الجذام (١٣٢٩) . وتوج ابنه دافيد الثانى ، شأنه فى هذا شأن الملوك الإسكوتلنديين منذ أمد بعيد، على « حجر القدر » المقدس فى دير سكون .

ولما بدأ إدوارد الثالث ملك إنجلترا حرب المائة سنة مع فرنسا ، رأى أنه من الحزم أن يضمن حدوده الشمالية ، فهزم الإسكوتلنديين فى هاليدون هل ، وأقام إدوارد باليو ألعوبة له على عرش إسكوتلندة سنة ١٣٣٣ ، ولم يسترد دافيد الثانى التاج إلا بعد أن دفع للإنجليز فدية قدرها ١٠٠٠٠٠ مارك (٦٦٧٠٠٠ر٦ دولار) ، ونظراً لأنه لم يترك وريثاً مباشراً عند وفاته (١٣٧١) انتقلت المملكة إلى ابن أخيه روبرت ستيوارت الذى بدأت به أسرة ستيوارت المشـــئومة .

وسرعان ما استؤنفت حرب نصفى إنجلترا ضد الكل . وأرسل الفرنسيون جيشاً إلى إسكوتلندة ، وعاث الإسكوتلنديون والفرنسيون فساداً فى بلاد إنجلترا الواقعة على الحدود ؛ واستولوا على درهام وأعدموا كل سكانها — رجالا ونساء وأطفالا وراهبات ورهباناً وقساوسة . وقام الإنجليز بالحركة التالية فى لعبة الشطرنج الملكى هذه فغزوا إسكوتلندة ، وأحرقوا برث ودندى ودمرو دير ماروز (١٣٨٥) ، وسار روبرت الثالث فى الطريق نفسه ، ولكن عندما أسر الإنجليز ابنه جيمس (١٤٠٦) مات حزناً . واحتفظت إنجلترا بالملك الصبى فى سجن لطيف إلى أن وقع الإسكتلنديون « صلحاً دائماً » (١٤٢٣) وتخلوا عن كل تعاون بعد ذلك مع فرنسا .

وقد تعلم جيمس فى الأسر ، قدراً لا بأس به ، وحصل على عروس إنجليزية ، وألف فى مدح هذه « الحمامة البيضاء » بلسان الإسكوتلنديين « كتاب الملك » وهو قصيدة مجازية يستكثر على ملك أن ينظم مثلها . والحق أن جيمس كان مبرزاً فى عشرات الأمور . فقـــد كان واحداً من أحسن المصارعين والعدائيين والفرسان ورماة السهام وقاذفى الحراب والصناع المهرة والموسيقيين فى إسكوتلندة ، وكان حاكماً مقتدراً كريماً . وفرض عقوبات على التجارة التى تفتقر إلى الأمانة والزراعة المهملة ، وبنى المستشفيات وألزم الحانات بالإغلاق فى الساعة التاسعة ، وحول طاقات الشباب من كرة القدم

إلى التدريبات العسكرية ، وطلب إصلاح النظام الكنسي وتقويم حياة الرهبان في الأديار . وعندما بدأ حكمه النشيط (١٤٢٤) تعهد بالقضاء على الفوضى والجريمة في إسكوتلندة ، ووضع حد الحروب الخاصة بين النبلاء واستبدادهم الإقطاعي « إذا لم يهبني الله سوى حياة كلب فإني سوف أجعل المفتاح يحرس القلعة والسرخس يرعى البقر » ، أي يقضى على السطو على البيوت والماشية — في كل أنحاء إسكوتلندة(٧) . وسرق لص من أهل الجبال بقرتين من امرأة فأقسمت ألا تلبس أحذية أبداً حتى تسير إلى الملك لتندد بضعف القانون فقال اللص « أنت تكذبين وسوف أعمل على أن تحتذى » وسمر حدوتى حصان في قدميها العاريتين . ومع ذلك وجدت طريقها إلى الملك وأمر بمطاردة اللص وطوف به حر برث ومعه لوحة من الخيش صورت عليها جريمته وحرص على أن يشنق الوحش بلا إمهال . وفي غضون ذلك اشتجر النزاع في وقته بينه وبين بارونات يضعون العراقيل في طريقه فأتى بقليل منهم إلى منصة الإعدام وصادر الزيادة في الأراضي المستأجرة وفرض المكوس على اللوردات وأوساط الناس على السواء وأعطى للحكومة الأموال التي احتاجت إليها لكي تستبدل بطغاة عديدين طاغية واحداً .

ودعا أصحاب الأرض — ملاك الضياع الأقل مساحة — إلى المجلس النيابي وجعلهم هم والطبقة الوسطى بديلا للنبلاء ورجال الإكليروس . وفي عام ١٤٣٧ قتلته عصبة من النبلاء

واستمر أبناء النبلاء الذين كان قد أسقطهم في الحياة أو انتزع منهم الأملاك في مقاومة جيمس الثاني في الكفاح ضد الملكية التي تنزع إلى المركزية ، وبينما كان الملك الجديد لا يزال بعد صبياً في السابعة من عمره دعا وزراؤه إيرل اف دوجلاس الصغير وشقيقاً أصغر لينزلا ضيفين على الملك فحضرا وقدما لمحاكمة هزلية وقطع رأساهما (١٤٤٠) ودعا جيمس الثاني لنفسه بعد اثني عشر عاماً وليام ، ايرل اف دوجلاس ، لبلاطه في ستيرلنج ومنحه عهد الأمان

وأنزله فى ضيافته الملكية وقتله بتهمة تبادل رسائل فيها تآمر على خيانة الدولة مع إنجلترا : واستولى على كل القلاع الإنجليزية الحصينة فى إسكوتلندة إلا قلعة واحدة ، ومزق إرباً إثر انفجار عارض من مدفعه : وكفر جيمس الثالث عن فظاظة أبيه فبعد مواجهات وحشية أسره النبلاء وقتل لتوه (١٤٨٨) ، وتزوج جيمس الرابع من مرجريت تيودور شقيقه هنرى الثامن ، وبفضل هذا الزواج طالبت مارى ملكة الإسكوتلنديين بعرش إنجلترا .

ومع ذلك فإن هنرى الثامن عند ما انضم إلى إسبانيا والنمسا والبندقية والبابوية فى الهجوم على فرنسا (١٥١١) شعر جيمس بأنه ملزم بمساعدة حليفة إسكوتلندة القديمة المعرضة للخطر ، على هذا النحو بغزو إنجلترا ، وحارب بشجاعة جنونية فى فلودن فيلد ، بينما استدار الكثيرون من رجاله وفروا لا يلوون على شيء ، ومات فى تلك الكارثة (١٥١٣) .

وكان جيمس الخامس وقتذاك لا يبلغ من العمر إلا عاماً واحداً ، واستتبع هذا كفاح متشابك من أجل الوصاية على العرش . وفاز بالجائزة دافيد بيتون — وهو أحد رجال الكنيسة المعروفين بالمقدرة والشجاعة وتقدير النساء ، ونصب كبيراً لأساقفة سانت أندروز ، ثم كاردينالا ، ودرب الملك الصغير على الولاء الحار للكنيسة . وتزوج جيمس عام ١٥٣٨ من مارى أمير اللورين ، شقيقة فرانسيس ، الدوق دى جيز زعيم الحزب الكاثوليكى فى فرنسا المنقسمة على أساس مذهبى ، وتطلع النبلاء الإسكوتلنديون ، ومناهضتهم لرجال الاكليروس تتزايد يوماً بعد يوم ، باهتمام إلى الانفصام القائم بين إنجلترا والبابوية ، وحسدوا اللوردات الإنجليز الذين انتزعوا أو تلقوا أملاك الكنيسة وأخذوا « أجورا » من هنرى الثامن لمعارضة تحالف ملكهم مع فرنسا . وعند ما شن جيمس الخامس الحرب على إنجلترا رفض النبلاء أن يؤيدوه . وهزم فى سولواى موس (١٥٤٢) ففر يجرر أذيال الخزى إلى

فولكلاند ، ومات هناك فى ١٤ ديسمبر ، وأنجبت زوجته فى الثامن من ديسمبر ماري ، التى أصبحت ملكة للإسكوتلنديين وعمرها ستة أيام .

وأبرز بيتون وصية من الملك الراحل عينه فيها وصياً على الملكة الرضيعة ، وتشكك النبلاء فى صحة الوثيقة وسجنوا الكاردينال واختاروا جيمس ، إيرل اف أران وصياً على العرش ، بيد أن أران أطلق سراح بيتون وعينه كبيراً للوزراء . وعندما جدد بيتون الحلف مع فرنسا عقد هنرى الثامن النية على شن حرب لا هوادة ، فيها ، وبعث لجيشه فى الشمال أوامر بإحراق كل شىء فى طريقه وتدميره ، و « أن يعمل النار والسيف فى كل رجل وامرأة وطفل دون استثناء أينما يجد مقاومة » وبخاصة « ألا يبقوا على حياة مخلوق » فى بلدة سانت أندروز[٨] مقر بيتون . وبذل الجيش جهده ، وأحال كل دير ومزرعة وقلعة ومحلة إلى خراب شامل[٩] » . وتعرضت إدنبره يومين للسلب والحرق ، ونهبت قرى الفلاحين فى دائرة قطرها سبعة أميال ودكت دكاً ، وسيق إلى إنجلترا (١٥٤٤) ١٠٠٠ رأس من الماشية ذوات القرون و١٢٫٠٠٠ رأس من الأغنام و ١٣٠٠ جواد . وعرض سير جيمس كيركالداى ونورمان لزلى وغيرهما من السادة الإسكوتلنديين أن يساعدوا الإنجليز على « حرق أماكن يملكها الحزب المتطرف فى الكنيســة ، وأن يقبضوا ويسجنوا كبار خصوم الحلف الإنجليزى ، وأن يعتقلوا ويقتلوا الكاردينال نفسه[١٠] » . ورحب هنرى بالعرض ووعد بتقديم ألف جنيه إنجليزى لمواجهة النفقات . وفشلت الخطة إلى حين ، ولكنها نفذت فى اليوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٦ ، واقتحم اثنان من آل كيركالداى واثنان من آل لزلى وعصبة عديدة من النبلاء والقتلة قصر الكاردينال عنوة وقتلوه « فى حالة تلبس » تقريباً لأنه ، « كما يقول نوكس » كان مشغولا بحساباته مع السيدة أوجيلفى فى تلك الليلة[١١] . وأردف نوكس قائلا : « والآن بما أن الطقس حار فقد رئى أن من الأفضل لمنعه من أن يتعفن أن يعطوه جرعة كبيرة كافية من الملح ،

وقباء من الرصاص ... انتظاراً لما سوف يعده له إخوانه الأساقفة من طقوس الفن . ونحن إنما نسجل هذه الأمور بابتهاج[١٢] » . وانسحب القتلة إلى قلعة سانت أندروز على الساحل وانتظروا وصول العون من إنجلترا بطريق البحر .

وعاد آران إلى الاضطلاع بعبء الحكم . ولكي يضمن مساعدة الفرنسيين وعد بأن يزوج الملكة الطفلة ماري ستيوارت لولي عهد فرنسا ، ولكي يحال بينها وبين الوقوع في أيدي الإنجليز ، أرسلت سراً إلى فرنسا (١٣ أغسطس سنة ١٥٤٨) . وقضى ارتقاء ماري تيودور العرش في إنجلترا على خطر قيام الإنجليز بغزوات أخرى إلى حين . وكانت الكاثوليكية وقتذاك تسيطر على جانبي الحدود . وغلب النفوذ الفرنسي على آران فحمله على أن يتنازل عن وصاية العرش (١٥٥٤) إلى ماري أميرة اللورين ، أم الملكة الغائبة . وكانت امرأة على حظ من الذكاء والجلد والشجاعة ، لم تذعن إلا لروح العصر الغلابة ووهبت ثقافة النهضة الفرنسية ، فقابلت العقائد الدينية المناظرة التي كانت تضطرم بالغضب حولها بابتسامة تنم على التسامح . وأمرت بإطلاق سراح العديد من البروتستانت المسجونين ، وسمحت للهراطقة بحرية كبيرة في الوعظ والعبادة ، إلى حد أن الكثير من البروتستانت الإنجليز الذين فروا من ماري تيودور وجدوا ملجأ ، وسمح لهم بتكوين جماعات دينية برئاسة ماري أميرة اللورين . كانت أعظم حاكمة رقيقة العاطفة متمدينة عرفتها اسكتلندة قروناً طوالا .

٣ — جون نوكس : ١٥٠٥ — ٥٩

كانت الدعاية للإصلاح الديني قد مضى عليها مائة عام في إسكوتلندة . وفي عام ١٤٣٣ اتهم بول كراور بإدخال عقيدتي ويكليف وهس ، وقضت الكنيسة بإدانته وأحرقته الدولة . وفي عام ١٤٩٤ استدعى

ثلاثون « لولاردا من كيل » للمثول أمام أسقف جلاسجو بتهمة رفض الاعتقاد فى المخلفات والصور الدينية والاعتراف السرى أمام قسيس ، ورسامة القساوسة وسلطانهم والتجسد ، والمطهر ، وشكوك الغفران والقداسات من أجل الموتى ورهبانية رجال الدين والسلطة البابوية[١٣] . وبذلك نجد أنفسنا أمام تلخيص يكاد يكون كاملا لمبادئ الإصلاح الدينى قبل نشر رسائل لوثر بثلاثة وعشرين عاماً . ومن الواضح أن المتهمين تراجعوا عما قالوا به .

وسرعان ما دخلت رسائل لوثر إلى إسكوتلندة بعد عام ١٥٢٣ ، وانتشرت ترجمة للعهد للجديد باللغة الإسكوتلندية من إعداد ويكليف فى مخطوطة ، وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدس وحده دون سواه .

وذهب باتريك هاميلتون إلى باريس ولوڤان ، ودرس تعاليم إرازموس والفلسفة اليونانية ومضى إلى فتنبرج وعاد إلى إسكوتلندة مشيعاً بالعقائد الجديدة ونادى بالتزكية بالإيمان ودعاه جيمس (عم دافيد) وبيتون ، ثم رئيس أساقفة سانت أندروز للحضور ، وإيضاح ما يعنيه بأقواله ، فجاء وتمسك بآرائه وأحرق (١٥٢٨) . وفى عام ١٥٣٤ أحرق اثنان آخران من « العلماء » كما كان المصلحون الدينيون الإسكوتلنديون الأوائل يسمون أنفسهم . وشنق أربعة رجال وأغرقت امرأة عام ١٥٤٤ ، وطبقاً لما يرويه نوكس الذى لا يعتمد على روايته دائماً ، ذهبت إلى حتفها وعلى صدرها طفل رضيع[١٤] .

وكانت عمليات القتل العمد هذه موزعة على عصور ومواضع مختلفة ، إلى حد جعلها لا تثير رد فعل عام قوى . بيد أن شنق جورج ويشارت مس شغاف قلوب الكثيرين ، وكان أول حادث له أثره فى الإصلاح الدينى الاسكوتلندى . وقد ترجم ريشارت حوالى عام ١٥٤٣ الاعتراف السويسرى البروتستانتى الأول ، ومن سوء الحظ أن هذا الإعلان البروتستانتى أمر السلطات

العلمانية بمعاقبة المراطقة[١٥] . وأزاحت الاتجاهات البروتستانتية السويسرية منذ ذلك — وكانت فى مبدأ الأمر زوينجالية تتسم بالرحمة ثم أصبحت كالفينية صارمة — اللوثرية يوماً بعد يوم فى الحركة الإسكوتلندية . وقدم ويشارت عظاته فى مونتروز ودندى ولازم بشجاعة مرضى وباء منتشر ، وفسر العقيدة الجديدة فى إدنبرة فى وقت كان فيه دافيد بيتون يعقد مجمعاً إكليروسياً من رجال الدين الإسكوتلنديين هناك ، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة الهرطقة ، وحكم عليه بالإدانة وقتل خنقاً وأحرق (١٥٤٦) .

وكان من بين من تحولوا عن مذهبهم على يديه ، شخصية من أقوى الشخصيات فى التاريخ وأعظمها نفوذاً . وقد ولد جون نوكس بين عامى ١٥٠٥ و١٥١٥ قرب هدنجتون. ونذره والداه الفلاحان ليكون قسيساً، ودرس فى جلاسجو ورسم قساً (حوالى عام ١٥٣٢) ، واصبح معروفاً بتضلعه فى القانون المدنى والقانون الكنسى على السواء . ولا تتحدث سيرته الذاتية « تاريخ إصلاح الدين داخل مملكة إسكوتلندة » بشىء عن شبـــابه ولكنها تقدمه فجأة (١٥٤٦) بوصفه مريداً متحمساً لجورج ويشارت وحارساً شجاعاً له ، يحمل سيفاً له مقبضان . وأخذ نوكس يتجول من مخبأ إلى آخر بعد القبض على ويشارت ، ثم انضم فى عيد الفصح عام ١٥٤٧ قلعة سانت أندروز إلى العصبة التى قتلت الكاردينال بيتون .

واستشعر الرجال المطاردون الحاجة إلى الدين فطلبوا من نوكس ان يكون واعظاً لهم . فاحتج بأنه لا يصلح ، ثم وافق وسرعان ما اتفقوا على أنهم يسمعوا قط مثل هذا الوعظ الملتهب من قبل . وأطلق على الكنيسة الرومانية اسم : « هيكل الشيطان » وجعلها مرادفة للوحش المخيف الذى ورد وصفه فى سفر الرؤيا . وتبنى العقيدة اللوثرية التى تذهب إلى « أن الإنسان يظفر بالخلاص » ، بأن يؤمن فحسب بأن دم يسوع المسيح يكفر عن خطايانا جميعا [١٦] » . وفى يوليو أبحر أسطول فرنسى وقذف القلعة بالقنابل . وقاوم

المحاصرون أربعة أسابيع ، وأخيراً غلبوا على أمرهم ، وظل نوكس والآخرون يعملون عبيداً فى السفن تسعة عشر شهراً . . ليس لدينا إلا تفاصيل قليلة عن معاملتهم باستثناء ما ذكر من أنهم كانوا يدفعون لسماع القداس (ويقول لنا نوكس) إنه رفض بشدة ، ولعل هذه الأيام المريرة ، وأثر سوط الملاحظ على الأجسام ساهم فى اشتداد نزوع نوكس إلى الكراهية وجنوح لسانه وقلمه إلى العنف فى العبارة .

وعندما أطلق سراح الأسرى (فبراير سنة ١٥٤٩) عمل نوكس قساً بروتستانتيا فى إنجلترا براتب تقاضاه من حكومة سومرست : وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع « إذا سمحت له بذلك الجيفة الخبيثة » . ونحن أبناء اليوم الذين لا ننعم كثيراً بالعظات ليس فى مقدورنا إلا أن نتصور بصعوبة مدى إحساس الناس فى القرن السادس عشر بالتعطش إليها . وقد ترك قساوسة الأبرشيات الوعظ للأساقفة الذين تركوه بدورهم للإخوان الرهبان وكانوا يقومون به بين آن وآخر . وأصبح الوعاظ فى البروتستانتية بمثابة صحيفة يومية للأخبار والرأى ، وكانوا يروون على المصلين أحداث الأسبوع أو أحداث اليوم ، وكان الدين وقتذاك ممتزجاً بالحياة إلى الحد الذى جعل كل حدث تقريباً يمس العقيدة أو القائمين عليها ونددوا بنقائص رجال الأبرشية وأخطائهم ونبهوا الحكومة إلى واجباتها وأخطائها . وفى عام ١٥٥١ كان نوكس يعظ أمام إدوارد السادس ونورثمبرلاند فتساءل كيف تأتى فى الغالب الأعم لأتقى الأمراء أن يتخذوا مستشاريهم من أفسق الناس . وحاول الدوق أن يسكته بمنحه منصب أسقفية ولكنه فشل .

وكانت مارى التيودورية أشد خطورة عليه ، ففر نوكس إلى دييب وجينيف (١٥٥٤) بعد شىء من التباطؤ الذى أملاه الحرص ، وزكاه كالفن لدى جماعة تتحدث بالإنجليزية فى فرانكفورت ، ولكن مبادئه وملامحه كانت جد قاسية بالنسبة لمستمعيه ، فطلب منه أن يرحل . وعاد إلى جينيف (١٥٥٥) ، ونحن نستطيع

أن نحكم على قوة شخصية كالفن من التأثير الذى سيطر به وقتذاك على شخصية إيجابية وقوية تماثل شخصيته . ووصف نوكس ، مدينة جيليف فى عهد كالفن بأنها : « أكمل مدرسة للمسيح ظهرت على وجه الأرض منذ أيام الحواريين[١٧] » . واتفقت الكالفينية مع مزاجه لأن تلك العقيدة كانت واثقة من نفسها ، وعلى ثقة من أنها تتلقى الوحى من الرب ، وواثقة من أن الله قد فرض عليها أن تلزم الفرد بانتهاج سلوك محدد واعتناق عقيدة معينة ، وواثقة من حقها فى توجيه الدولة ، ولقد تغلغل هذا كله فى أعماق روح نوكس ، ثم فى التاريخ الإسكوتلندى عن طريقه . وتوقع فى فزع حكم مارى ستيوارت الكاثوليكية لإسكوتلندة ، فسأل كالفن وبولينجر هل يحق لشعب أن يرفض إطاعة « حاكم يرغم الناس على عبادة الأوثان ويلغى الدين الصحيح » فلم يحيرا جواباً ، ولكن جون نوكس كان يعرف ما يدور فى خلده .

وفى خريف عام ١٥٥٥ ، وكان وقتذاك فى الخمسين من عمره على الأرجح أظهر الجانب الرقيق من شخصية جافة بالعودة إلى مارى تيودور ملكة إنجلترا والذهاب إلى برويك والزواج من مرجريت بويز لأنه أحب أمها. وكان لمسز بويز خمسة أولاد وعشر بنات وزوج كاثوليكى ، وكان لوعظ نوكس الفضل فى اكتسابها لصف البروتستانتية ، وأسرّت له بمتاعبها المنزلية ووجد متعة فى أن يشير عليها بما يجب ، وعزاء فى صداقتها ، ومن الواضح أن العلاقة بينهما ظلت روحية إلى النهاية .

وعند ما تزوج نوكس من مرجريت تركت مسز بويز زوجها وذهبت لتعيش مع ابنتها وكاهن الاعتراف الخاص بها . وماتت الزوجة بعد خمس سنوات من عقد الزواج . وتزوج نوكس للمرة الثانية ، ولكن مسز بويز بقيت معه . ومن النادر أن توجد فى التاريخ حماة محبة ومحبوبة بهذا القدر .

وذهب الثلاثى الغريب إلى إسكوتلندة ، حيث كانت مارى أميرة اللورين

لا تزال ترى التسامح مفيداً في كسب تأييد الحزب البروتستانتي من النبلاء ، وأثنى على الوصية على العرش باعتبارها « أميرة جديرة بالاحترام » . وهبت حكمة وكياسة تفردت بهما[١٨] . « ونظم اجتماعات بروتستانتية للمصلين في إدنبره وغيرها من الأماكن وكان له الفضل في أن يتحول على يديه إلى المذهب البروتستانتي أشخاص من ذوى النفوذ ، مثل وليام ميتلاند ، سيد ليثنجتون ، وجيمس ستيوارت الشقيق غير الشرعي لمارى ستيورات الذى قدر له أن يكون وصياً على العرش باسم إيرل اف مراى أو موراى . ولم ترض محكمة كنسية عن هذا التطور ، فاستدعت نوكس ليقدم حساباً عن أعماله ، وآثر أن يسلك سبيل التروى فتسلل من إسكوتلندة مع زوجته وأمها ، (يوليو سنة ١٥٥٦) . ولم تستطع المحكمة الكنسية أن تحرق في غيابه سوى تمثال له ، وأضفى عليه هذا التجسيم لاستشهاده بدون ألم نبلا في عيون البروتستانت الإسكوتلنديين ، ومنذ تلك اللحظة جعلوه زعيماً للإصـلاح الديني الإسكوتلندى ، حيثما حل.

ولقد طور وهو في جينيف ، باعتباره راعياً لأبرشية إنجليزية ، البرنامج الكالفيني الكامل فيما يتصل بإشراف رجل الدين على أخلاق رعايا أبرشيته وسلوكهم ، ودعا في الوقت نفسه مسز آن لوك ، التي تحولت عن عقيدتها على يديه في لندن ، إلى أن تترك زوجها وتأتي مع ابنتها لتعيش بالقرب منه في جينيف ، وكتب لها رسائل لا تقاوم :

يا أعز أخت ، لو استطعت أن أعبر لك عما أكابده من اشتياق وضنى لحضورك فسوف أبدو وقد تجاوزت الحد . نعم إني لأبكى وأبتهج عندما أذكرك ، ولكن ذلك سوف يزول بما أجده من عزاء في حضورك ، الذى أؤكد لك أنه جد عزيز لدى إلى حد أنه لو لم يكن عبء هذه الجماعة الصغيرة ، المجتمعة هنا باسم المسيح ، قد عاقني ، لحضرت إليك قبل رسالتي . . ولو لم يمنعك بعلك (زوجك) إلى حد ما . . . لوددت من أعماق قلبي ،

نعم ، وما كنت لأستطيع أن أتوقف عن أن أتمنى رضى الله بهدايتك إلى هذا المكان[١٩] .

وتركت مسز لوك لندن ضاربة عرض الحائط بمعارضة بعلها ، ووصلت إلى جنيف (١٥٥٧) مع ابن ، وابنة ، وخادمة . وماتت الإبنة بعد ذلك ببضعة أيام ، ولكن مسز لوك ظلت قرب نوكس وعاونت مسز بويز التى تقدمت بها السن ، ولم تعد وقتذاك مصدراً للراحة كما كانت من قبل ، فى تلبية حاجات الواعظ . وليس لدينا دليل على وجود علاقات جنسية ، ولا نسمع أى شكوى من مسز نوكس ، بل إننا لا نكاد نسمع عنها على الإطلاق . إن هادم البيوت القديم سوف يتخذ لنفسه أماً ، وكانت له طريقته باسم المسيح ، بل كانت له طريقته فى كل شىء تقريباً . وكان مثل كثير من العظماء ، صغير الجسم ، بيد أن كتفيه العريضتين كانتا تنمان على القوة ، ومحياه الصارم يدل على اليقين والتطلع إلى السلطة . شعر أسود وجبهة ضيقة وحاجبان كثيفان وعينان نفاذتان وأنف ينم على التطفل وخدان أسيلان وفم واسع وشفتان غليظتان ولحية طويلة ، وأصابع مستطيلة ، ونحن نجد فى هذا تجسيداً للإخلاص والرغبة فى السلطة ، وهو رجل يتميز بنشاط مبعثه التعصب . وكان يحب الوعظ مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع لمدة ساعتين أو ثلاثاً فى كل مرة ، وكان علاوة على هذا يدبر الشئون العامة ويوجه حياة الأفراد ، فلا عجب « ألا أجد فى الأربع والعشرين ساعة أربع ساعات أخلو فيها من العمل للراحة الطبيعية[٢٠] » . ويلطف من شجاعته ، حياء يعتوره إلى حين ، وكانت عنده بديهة تنبهه إلى الفرار من الموت وشيك الوقوع . واتهم بتحريض البروتستانت على القيام بثورة محفوفة بالمخاطر فى إنجلترا أو إسكوتلندة فى الوقت الذى بقى فيه فى جنيف أو دييب ، ومع ذلك فإنه واجه عشرات الأخطار وندد بفساد نور ثمبرلاند فى وجهه وجاهر فيما بعد بالدمقراطية فى وجه ملكة . ولم يكن فى الإمكان شراؤه بالمال . وظن أو ادعى أن صوته هو صوت الله .

وصدق كثيرون ادعاءه وحيوه باعتباره رسولا من قبل الله ، ولذلك فإنه عندما خطب قال سفير إنجلترا : « إنه ينفخ فينا من الحياة أكثر مما يفعل ١٠٠ بوق تضج فى أذاننا[٢١] » .

وكانت العقيدة الكالفينية مصدراً من مصادر قوته . لقد قسم الله كل الناس إلى الصفوة والملعونين ، وكان نوكس وأنصاره من الصفوة ، ومن ثم كتب لهم النصر من الله ، وكان خصومهم أشقياء ، وسوف تكون جهنم مثواهم عاجلا أو آجلا . وكتب يقول : « إننا مقتنعون بأن كل ما يفعله خصومنا عمل شيطانى[٢٢] » . وهؤلاء الخصوم الملعونون من الله لا يستحقون أى حب مسيحى لأنهم أبناء الشيطان لا الرب ، وهم لا يطوون جوانحهم على أى خير ، ويحسن استئصال شأفتهم تماماً من الأرض : ونعم بتلك والكراهية الكاملة التى يثيرها الروح القدس فى قلوب صفوة الرب ضد أولئك الذين يزدرون تماثيله المقدسة[٢٣] » وفى الصراع مع الأشقياء كانت جميع الوسائل مباحة — الكذب والغدر[٢٤] وتناقضات السياسة[٢٥] المرنة . فالغاية تبرر الوسيلة .

ومع ذلك فإن فلسفة نوكس الأخلاقية فى ظاهر أمرها كانت تتعارض تماما مع فلسفة مكيافيلى . فهو لم يسلم بأن يتحرر الساسة من القانون الأخلاقى المطلوب من المواطنين، وطالب بأن يطيع الحكام والمحكومون على السواء تعاليم الكتاب المقدس . غير أن الكتاب المقدس كان يعنى بالنسبة إليه فى الغالب العهد القديم ، وكان أنبياء يهود المتوعدون أصلح لغايته من الرجل الذى استشهد على الصليب . فقد كان فى وسعه أن يستميل الأمة إلى إرادته أو يحرقها بنبوءات ملتهبة . وادعى أنه يملك قوة تنبئية ، وتنبأ حقا بوفاة مارى تيودور المبكرة وسقوط مارى ستيوارت — أو لعل هذه الأمانى تحققت لحسن الحظ ؟ — وكان صائب الرأى لا يخطىء الحكم على أخلاق الرجال الآخرين

وأحيانا على أخلاقه . إذا اعترف[٢٦] فى سماحة « إننى بفطرتى جلف غليط » .
وعزا فراره من إسكوتلندة إلى الضعف البشرى والخبث[٢٧] .

وكان وراء زمجرته دعابة جافة ، وكان فى وسعه أن يكون رقيقاً بقدر ما كان عنيفاً . وأكب بإخلاص كامل على عمله وهو إنشاء سلطة يتمتع بها نظام كهنوتى مطهر وعالم يشرف على الجنس البشرى ويبدأ بالإسكوتلنديين . وكان من رأيه أن النظام الكهنوتى الفاضل إنما يستلهم الله ، وعلى هذا فإنه فى مجتمع حساس على هذا النحو سيكون الله والمسيح هما الملك . وكان يؤمن بالحكم بأمر الله ولكنه عمل للديمقراطية أكثر مما فعل أى رجل آخر فى عصره .

ولم تكن رسائله مجرد تمارين أدبية بل كانت وكأنها هزيم رعد سياسى وكانت تضارع رسائل لوثر فى قوة الهجاء . وكانت الكنيسة الرومانية عنده ، كما هو الحال عند لوثر ، « بغيا . . . . دنستها تماماً كل ضروب الفجور الروحى[٢٨] » . وكان الكثالكة « بابويين أضر من الوباء » و « تجار قداس » وكان قساوستهم « ذئاباً مفترسة » . ولم يكن هناك رجل يبزه فصاحة فى ذلك العصر الفصيح . وعندما تزوجت مارى تيودور من فيليب الثانى انفجر نوكس غاضباً فى رســالة بعنوان : « تحذير مخلص إلى معلمى حقيقة الرب فى إنجلترا » (١٥٥٤) .

ألم تثبت مارى أنها خائنة صراح لتاج إنجلترا الإمبراطورى باستقدامها أجنبياً ، وتنصيب ملك إسبانى متعجرف ليلحق الخزى والعار والدمار بالنبلاء وذويهم ، وليسلبهم ألقاب شرفهم وأراضيهم ومقتنياتهم ومناصبهم الكبيرة ومراتبهم الرفيعة ، حتى يلحق البوار التام بخزائن المملكة وأسباب تجارتها وبحريتها وحصونها ، وحتى يحط من شأن ملاك الأراضى ، ويجعل عامة الناس يرسفون فيها فى قيود العبودية ، ويطيح بالمسيحية وديانة الرب الصحيحة ، وحتى يقوض آخر الأمر دعائم الأملاك العامة ورفاهية إنجلترا بأسرها .... إن الله برحمته السابغة ، يبعث بنحاس أو إليــا

أو يهوه ، عسى أن يهدئ دم عبدة الأوثان المقيت غضب الرب ولا يهلك الجمع بأسره(٣١) !

ولكنه كتب بين آن وآخر ، وإن كان هذا نادرا ، فقرات تفيض رقة وجمالا ، وجديرة بسانت بول الذى ألهمهم ، مثل « رسالة إلى إخوانه فى إسكوتلندة » لن ألجأ إلى أى تهديد ، لأنى كبير الأمل فى أنكم سوف تمشون مثل أبناء الضوء ، وسط هذا الجيل الخبيث ، وأنكم سوف تكونون مثل النجوم فى الليل ، التى لا تتغير مع ذلك فى الظلام ، ومثل قمحة وسط صدفة ؟؟ ومن عداد الرجال المتهللين العقلاء ، وتملأون مصابيحكم بالزيت من جديد كل يوم ، كأولئك الذين ينتظرون فى صبر الظهور المجيد ليســوع الرب ومجيئه ، وهو الذى تحكم روحه القديرة وتعلمكم وتنير قلوبكم وعقولكم فى كل ما يوجه إليكم من هجوم الآن وإلى الأبد(٣٢) .

وهناك رسالة متميزة أكثر من غيرها هى أول « نفخة فى البوق ضد كتيبة النساء المروعة » التى دبجت فى دييب عام ١٥٥٨ ضد ما خيل لنوكس أنه وباء الحاكمات من النساء فى أوروبا — مارى تيودور ومارى أميرة اللورين ومارى ستيوارت وكاثرين دى مديتشى . وفى وسعنا أن ندرك مدى هلعه من تطبيق مارى تيودور لمبادئه ، ولكن حتى إذا لم تضطهد مارى أعداءها فإن نوكس يعدها وحشاً ووصمة سياسة تنتهك القاعدة الطبيعية التى تقول إن الرجال يجب أن يحكموا الدول . وبدأ يقول « لا عجب أن نجد بين كثير من العقول الخصيبة التى أنجبتها جزيرة بريطانيا العظمى كثيرا من الوعاظ الورعين والمتحمسين بقدر ما أطعمت أحياناً ، ولا يوجد بين الكثيرين من علماء اللاهوت والرجال ذوى الرأى الرصين الذين نفثهم إيزابيل (مارى تيودور) ، رجل مقدام شجاع ومخلص للرب . . . يجرؤ على تنبيه سكان تلك الجزيرة إلى مدى ما وصلت إليه من بغض

أمام الله ، إمبراطورية أو ملك امرأة ، بل خائنة وابنة سفاح ، وماذا في وسع شعب أو أمة تركت مجردة من رأس شرعي أن تفعل بسلطة الرب في انتخاب وتعيين حكام وقضاة للعموم . . . إننا لنسمع عن سفك دم إخواننا أتباع يسوع المسيح بأشد قسوة والإمبراطورية المتوحشة لامرأة قاسية ، نعلم أنها وحدها سبب كل هذا الشقاء . . . إن الارتقاء بامرأة لكي تنهض بحكم أو سيادة أو سلطان أو إمبراطورية تفوق أي مملكة أو أمة أو مدينة أمر يخالف الطبيعة ويعد إهانة للرب ، ومناقضاً لإرادته التي جلاها وشريعته المسلم بها ، وأخيراً فإنه تقويض لدعائم نظام وطيد ، ولكل إنصاف وعدل ، من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن تعيين الأعمى لقيادة المبصرين وتوجيههم إنما يتناقض مع الطبيعة ؟ ومن ذا الذي يقول إن الضعفاء والمرضى والعاجزين يطعمون الأقوياء جميعاً ؟ وأخيراً من يقول إن الحمقى والمجانين والمخبولين يحكمون العقلاء ويقدمون المشورة لأصحاب العقول الرصينة ؟ وهكذا كل النساء إذا قورن بالرجال في احتمال السلطة ... فالمرأة في أكمل صورة خلقت لتخدم الرجل وتطيعه لا لتحكمه وتأمره[٣٣] .

واستشهد نوكس بوثيقة لا جدال فيها من الكتاب المقدس لكي يثبت هذا ، ولكنه عندما تغلغل في أعماق التاريخ ، وبحث عن أمثلة لدول هدمتها نساء حكمتها ، اختلط عليه الأمر تماماً ، لأنه وجد أن التاريخ سجل أنهن أفضل بكثير من الملوك . ومع ذلك فإنه ختم رسالته بلعنة الواثق من حكمه :

إن إيزابل اللعينة ملكة انجلترا هي وجيل البابويين المقيت المؤذي كالوباء لا يألون جهداً في الزهو والتفاخر بأنهم لم ينتصروا على ويات فحسب ، بل انتصروا أيضاً على كل من دبر شيئاً ضدهم . . . وأنا لا أخشى أن أقول إن يوم الانتقام ، الذي سوف يقبض فيه على ذلك المسخ

الفظيع جيزيل ملكة انجلترا ... قد تحدد فى مجلس الحى الباقى ... وليعلم هذا الناس جميعاً لأن البوق قد نفخ فيه[٣٤] .

وأخذ نوكس مخطوطة كتابه « نفخة » إلى جينيف وطبعها سرا ولم يضع عليه اسمه ، وأرسل نسخاً منه إلى إنجلترا ، فحرمت مارى تداول الكتاب باعتباره تحريضاً على الثورة ، وجعلت حيازته جريمة يعاقب عليها بالإعدام .

وعاود نوكس الهجوم فى رسالة بعنوان : « نداء ... ء إسكوتلندة وطبقات سكانها (يوليو سنة ١٥٥٨) » .

لا أحد ممن يحرضون الناس على عبادة الأوثان(*) ينبغى أن يعفى من عقوبة الإعدام ... ويجب تطبيق الحكم نفسه فى مكان يؤمن بيسوع المسيح وإنجيله ... اللذين اعترف بهما الحكام والناس فى خشوع ، ووعدوا بالدفاع عنهما ، كما حدث فى عهد الملك إدوارد فى الأيام الأخيرة بإنجلترا . وفى مثل هذا المكان أقول إن عقوبة الإعدام ليست مشروعة على من يعمل على تقويض دعائم الدين فحسب ، بل إن الحكام والناس ملتزمون بأن يلتهجوا هذا السبيل ، إلا إذا أرادوا أن يثيروا غضب الله عليهم ... وأنا لا أخشى أن أؤكد أن واجب النبلاء والقضاة والحكام والشعب فى إنجلترا كان لا يقتضى منهم أن يقاوموا مارى ، تلك الإيزابل ، ويعارضوها فحسب ... بل عليهم أن يقتصوا منها بإعدامها[٣٦] .

وحث نوكس شعب إسكوتلندة على تطبيق هذا الرأى الخاص بالثورة الشرعية على مارى أميرة اللورين ، وشكا من أن الوصية على العرش قد أحاطت نفسها بحاشية فرنسية وجنود فرانسيين ليأكلوا مدخرات الإسكوتلنديين : بينما يؤتى بالأغراب لسحقنا نحن وخيرنا العام وذريتنا ،

(*) كتب نوكس عام ١٥٦٠ : « إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس والتوسل بالقديسين وعبادة الصور واستيفاءها والاحتفاظ بها وكل عبادة للرب لا يحويها كتابه المقدس[٣٥] » .

وبينما يحافظ على عبادة الأوثان ويستخف بالدين الصحيح ليسوع المسيح ، وبينما ذوو الكروش والطغاة الدمويون الأساقفة يبقون ، ويضطهد رسل المسيح الصادقون ، وأخيراً بينما تحتقر الفضيلة وتمجد الرذيلة . فأى رجل ورع يمكن أن يساء إليه لأننا سوف ننشد تقويم هذه الأعمال الفاضحة (نعم ، حتى لو اقتضى الأمر الالتجاء إلى قوة السلاح ، إذا رأينا أنه لن يتيسر لنا بخلاف ذلك) ؟ . . . إن العقوبة على ارتكاب جرائم مثل عبادة الأوثان والكفر وغيرهما ، التى تمس الله سبحانه وتعالى ، لا يختص بها الملوك وكبار الحكام فحسب ، بل تخص بها أيضاً الهيئة الكاملة لذلك الشعب ، وتخص كل عضو فى الهيأة ، طبقاً لما يتيحه الله من إمكان وفرصة للانتقام من الضرر الذى لحق بمجده[٣٧] :

وهنا نجد مزيجاً غريباً من الثورة والرجعية فى بيانات نوكس . وكان لا بد أن يتفق معه فى تبرير قتل الطغاة من آن لآخر كثير من المفكرين ومنهم هوجينوت فرنسيون مثل هوتمان ويسوعيون مثل ماريانا . ومع ذلك فإن اقتناعه ، بأن هؤلاء الذين كانوا واثقين من لاهوتهم يجب أن يسحقوا — وإذا اقتضى الأمر يقتلوا — خصومهم ، رجع فيه إلى أكثر ممارسات محكمة التفتيش شؤماً . واعتبر نوكس أن الأصحاح الثالث عشر من سفر التثنية لا يزال سارى المفعول وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ، والمدن التى تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتص منها بالسيف وتدمر تماماً ، ويقضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق حتى ينهدم ، ويعترف نوكس أن هذه الأوامر الخالية من الرحمة أفزعته فى بعض الأحيان : قد يبدو هذا الحكم حتى للرجل المادى صارماً وقاسياً ، أجل ، وقد يبدو وكأنه صدر عن غضب لا عن تعقل . . . . وأى مدينة : . . لا يوجد فيها أبرياء مثل الرضع والأطفال وبعض السذج والجهال لا يقترفون الكفر أو يستسلمون له ؟ ومع ذلك فإننا لا نجد استثناء بل إن الجميع مكتوب عليهم الموت القاسى . بيد أنه فى مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تنحنى جميع المخلوقات وتغطى وجوهها ، وتكف عن التفكير المنطقى ، إذا كان هناك أمر منه تعالى بتنفيذ إرادته[٣٨] .

وعلينا ألا نحاكم نوكس بمقاييسنا الراهنة عن التسامح ، فقد أعرب بإصرار شديد عن الروح العامة لعصره تقريباً .

وكانت السنوات التى قضاها فى جينيف ، حيث كان سرفينوس قد أحرق لتوه ، قد أكدت نزعته نحو الالتزام بالحرفية الصارمة واليقين الذى يصل إلى درجة الغرور . ولو أنه قرأ ما احتج به كاستليو لتبرير التسامح لطابت نفسه على الأرجح برد بيز عليه . ومع ذلك فإن رجلا مغموراً ممن ينكرون وجوب التعميد كتب فى تلك السنوات نفسها نقداً للكالفينية بعنوان : « مهمل بالضرورة » وأرسله البروتستانت الإسكوتلنديون إلى نوكس ليرد عليه رداً مفحماً ، وكأنما كان صوت العقل يهمس لحظة وسط حرب العقائد . وتساءل المؤلف كيف جاز للكالفينيين بعد أن عرفوا مفهوم المسيح عن أب محب ، أن يؤمنوا بأن الله قد خلق بشراً كتب عليهم ، وشاء لهم اللعنة الأبدية . وقال المنكر لوجوب التعميد أن الله قد وهب الناس ميلا طبيعياً لأن يحبوا ذريتهم ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فكيف يكون الله أقسى من الإنسان ؟ واستطرد المؤلف قائلا إن الكالفينيين قد أتوا من الشر أكثر مما أتى به الملحدون « لأن الذين يؤمنون بأن الله ليس جائراً وقاسياً وظالماً أقل قذفاً فى حق الله ممن يقولون بأنه كذلك » ورد نوكس « أن هناك أسراراً تخفى على العقل البشرى ، ولسوف تحطم كبرياء أولئك الذين لا يقنعون بإرادة الله التى تتجلى ، ويسرهم أن يصعدوا ويحلقوا فوق السماوات ليتساءلوا عن إرادة الله الخفية » . وكتب يقول فى موضع آخر « والطبيعة والعقل إنما يضلان الناس عن الله الحق . وأى وقاحة أن يفضل المرء الطبيعة الفاسدة والعقل الأعمى على كتب الله المقدسة(٣٩) ؟ » .

ولم يقتنع نوكس بقوة الاستدلال واعتقد فى قرارة نفسه أنه مخلص لروح المسيح ، فأرسل عام ١٥٥٩ ، عندما كانت تحكم إنجلترا ملكة بروتستانتية ، إلى شعبها رسالة بعنوان : « عظة موجزة » ينصحه فيها بأن يكفر عما قامت

به ماری من اضطهاد يجعل العقيدة الكالفينية ونظامها الأخلاقی إجباريين فی سائر البلاد » ورفضت إنجلترا العمل بالنصيحة . وعاد نوكس فی ذلك العام إلى إسكوتلندة ليشرف على إيديولوجية ثورتها .

٤ — جماعة أتباع يسوع المسيح : ١٥٥٧ — ٦٠

لقد امتزجت دعواته للإسكوتلنديين إلى الإطاحة بنير الخضوع لروما بتعاليم المصلحين الدينيين الآخرين وتدفق البروتستانت من إنجلترا وتسلل الأناجيل والنشرات من إنجلترا والقارة الأوروبية ، وتعطش النبلاء الإسكوتلنديين للأرض وإبعادهم الموغر للصدور على يد الفرنسيين الذين يضعون المساحيق على وجوههم من رجال الحاشية ، فعملت على رفع درجة حرارة الثورة إلى نقطة الانفجار . واحتمل سكان إدنبره ، الكاثوليك المتمسكون بعقيدتهم عام ١٥٤٣ بطريق مباشر وبإستياء شديد تدفق الغاليين المتغطرسين أثناء وصاية ماری أميرة اللورين على العرش . وحدث كل شیء يحيل حياة الدخلاء بؤساً وشقاء . واشتد الإحساس بالذات فی كلا الجانبين ، ولما كان رجال الاكليروس قد أيدوا الفرنسيين فإن روح القومية رددت نغمات عالية مناهضة للكاثوليكية وسارت مواكب دينية — حملت فيها تماثيل للعذراء والقديسين عبدت فيما يبدو ، وعرضت مخلفات وقبلت باحترام — فأثارت المزيد من السخرية والشك .

وفی سبتمبر عام ١٥٥٧ استولت جماعة من المتشككين المتحمسين على تمثال لسانت جيلس فی « الكنيسة الأم » التی تحمل هذا الاسم فی إدنبرة وغمروها فی بركة ، وأحرقوها فيما بعد حتى تحولت إلى رماد . ويروی نوكس أن هجمات مماثلة استهدفت تحطيم الأصنام حدثت فی كل أرجاء البلاد »

وفی الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧ اجتمعت فی إدنبرة (التی كانت قد أصبحت عاصمة للبلاد عام ١٥٤٢ « عصبة مشتركة » من النبلاء المناهضين

لرجال الدين أرجيل وجلنكرن وموراتون ولورن وإرسكين — ووقعوا « أول ميثاق إسكوتلندى » وأطلقوا على أنفسهم اسم : « لوردات جماعة المصلين ليسوع المسيح » لتعارض « جماعة المصلين للشيطان » — أى الكنيسة ، وتعهدوا بالمحافظة على « كلمة الله المباركة أكثر من أى شىء » ، ودعوا إلى « إصلاح فى الدين والحكومة » ، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية « التى تبيح لنا أن نمارس أمور الدين والضمير كما ينبغى استجابة لأمر الله » : وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ بأسباب الإصلاح الدينى فى سائر إسكوتلندة ، وأعلنوا أن كتاب الصلاة العامة الذى كتب لإنجلترا فى عهد إدوارد السادس يجب أن تعمل به كل جماعات المصلين ؛ واحتج الأساقفة البروتستانت على هذا الانشقاق الجرىء وحثوا رئيس الأساقفة هاميلتون على قمعه . فأمر فى شىء من التبرم (٢٨ أبريل سنة ١٥٥٨) — بإحراق والتر ميلن — وهو قسيس عجوز كان قد تجرد من ملابس الكهنوت وتزوج واعتاد أن يبشر بعقيدة الآخذين بالإصلاح الدينى بين الفقراء ، وكان الناس يكنون احتراماً عظيماً للرجل العجوز فأعربوا عن فزعهم لهذا الإحراق الأخير لبروتستانتى إسكوتلندى بتهمة الهرطقة ، وقاموا ببناء هرمى الشكل من الأحجار فوق الموضع الذى مات فيه ؛ وعندما استدعى واعظ آخر للمحاكمة امتشق المدافعون عنه السلاح ، واقتحموا طريقهم إلى حضرة الوصية ، وأنذروها أنهم لن يسمحوا بمزيد من الاضطهاد من أجل العقيدة الدينية ، وأنذر لوردات جماعة المصلين الوصية (نوفمبر سنة ١٥٥٨) أنها ما لم تمنح الناس حرية العبادة فإنهم لن يكونوا مسئولين « إذا حدث أن قومت المظالم بالعنف(٤٠) » وأرسلوا فى ذلك الشهر رسالة إلى نوكس بأنهم سوف يحمونه إذا عاد .

وتمهل فى العودة ولكنه وصل إلى إدنبره فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٥٩ . وقدم يوم ٣ مايو فى برث العظة التى أطلقت الثورة من عقالها ، ويقول لنا إنها كانت عظة « عنيفة ضد عبادة الأوثان » وقد فسرت « ما فى

القداس من عبادة للأوثان وما فيه من أمور بغيضة » و« الوصية التى أمر بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب[٤١] » « وخرج « الجمع الأثيم » كما يصفه من الطاعة ، وعندما حاول قس فى كنيسة مجاورة أن يقيم قداساً صاح أحد الشبان : « إن هذا لا يطاق لأنه فى الوقت الذى لعن فيه الرب عبادة الأوثان صراحة فى كتابه ، فإننا نقف لنراها تعبد على الرغم من ذلك » وجاء فى رواية لنوكس أن القسيس وجه للصبى ضربة شديدة ، فتناول فى غمرة غضبه حجراً وقذف به القسيس وأصاب قدس الأقداس، وحطم أحد التماثيل، وما لبث أن قذف الجمع كله المحتشد حوله الأحجار وأعملوا أيديهم فى قدس الأقداس المزعوم وفى سائر آثار عبادة الأوثان[٤٢] » . وتدفق الجمهور إلى ثلاثة أديار ونهبوها وحطموا التماثيل ، ولكنهم سمحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله » : وما هى إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضع الثلاثة الكبيرة . . . . قد دمرت ولم يبق منها قائماً سوى الجدران[٤٣] » .

وكانت الوصية على العرش بين نارين ، ونصحها أخوها كاردينال اللورين أن تسير على نهج مارى تيودور ، وأن تقضى على كبار البروتستانت ، وكان الثوار المنتصرون فى برث وحولها فى غضون ذلك يهددون بقتل أى قسيس يجرؤ على إقامة القداس[٤٤] . وفى ٢٢ مايو أرسل لها لوردات جماعة المصلين ، وكان يظاهرهم وقتذاك أتباعهم المسلحون ، إنذاراً نهائياً مشئوماً :

« إلى عظمة الوصية على المملكة ، بعد تقديم كل فروض الاحترام والخضوع ، بما أننا حتى الآن قد خدمنا السلطة فى إسكوتلندة ، هى وعظمتكم ، بالمخاطرة بأرواحنا وبقلوب راضية . . . فإننا الآن والأسى يملأ جوانحنا مكرهون ، تحت طأة استبداد ظالم يدبر لنا ، أن نعلن لعظمتكم أنه ما لم تتوقف هذه القسوة بفضل حكمتكم ، فإننا سوف نكون مضطرين إلى امتشاق الحسام للدفاع العادل فى وجه كل من يطاردوننا فى سبيل الدين . . . إن جريمة القتل القاسية الظالمة التى بلغت أقصى درجات الاستبداد والموجهة إلى المدن

والجماهير ، كانت ولا تزال السبب الوحيد لتمردنا على خضوعنا التقليدى ، الذى نعد بإخلاص أمام الله أن نقدمه لمولاتنا (مارى ملكة الإسكوتلنديين) ولزوجها ولعظمتكم ، بشرط أن تنعم ضمائرنا بالطمأنينة والحرية اللتين اشتراهما لنا بدمه يسوع المسيح . . . رعايا عظمتكم الخاضعون لكم فى جميع الأمور التى لا تغضب الرب — جماعة المصلين المخلصين ليسوع المسيح فى اسكتلندة[٤٥] » ؟ [

وفى الوقت نفسه بعثت جماعة المصلين نداء إلى النبلاء بتأييد الثورة وخطاباً مفتوحاً حذروا فيه « جيل المناهضين للمسيح والأساقفة المؤذين كالوباء ورهبانهم . . : إذا مضيتم فى قسوتكم الحاقدة فإنكم سوف تعاملون ، أينما يقبض عليكم كقتلة وأعداء للرب صراحة . ولن يبرم معكم عقد صلح قط إلا إذا انقطعتم عن عبادتكم الصريحة للأوثان واضطهادكم القاسى لأبناء الرب[٤٦] » .

ودخلت الوصية مارى مدينة برث بقدر ما استطاعت أن تحشد من كتائب الجند ، ولكن أنصار جماعة المصلين تجمعوا صفاً مسلحاً ، وأدركت مارى أنها لن تستطيع أن تتغلب عليهم ، فوقعت معهم هدنة (٢٩ مايو سنة ١٥٥٩) ، وانسحب نوكس إلى سانت أندروز ، ولم يعبأ بنواهى كبير الأساقفة ، فوعظ فى كنيسة الأبرشية ضد عبادة الأوثان (١١ — ١٤ يونيه) . وتأثر مستمعوه بحرارة عباراته فأزالوا كل أثر ينم عن عبادة الأوثان » عن كنائس المدينة وأحرقوا هذه التماثيل أمام عينى رجال الدين الكاثوليك[٤٧] . وهرب كبير الأساقفة إلى برث ، ولكن قوات جماعة المصلين ادعت أن مارى قد خرقت نصوص الهدنة باستخدام الأموال الفرنسية فى دفع رواتب جنودها الإسكوتلنديين ، وهاجمت القلعة ، واستولت عليها (٢٥ يونيه) . وفى الثامن والعشرين نهبت دير سكون وأحرقته .

وإذا جاز لنا أن نصدق أحياناً ما يقوله نوكس المعروف برحابة خياله فإن « ربة بيت فقيرة طاعنة فى السن قالت وهى ترى ألسنة اللهب المتصاعدة :

« الآن أرى وأدرك أن أحكام الرب عادلة . فإن هذا المكان بقدر ما تسعفنى الذاكرة لم يكن إلا وكراً للقوادين . إنه لأمر لا يصدق ... كم من زوجة زنى بها ، وكم من عذراء افتض بكارتها الوحوش الدنسة ، التى كانت تحتضن هذا الوكر ، وبخاصة ذلك الرجل الخبيث . . الأسقف(٤٨) » .

وكانت مارى أميرة اللورين وقتذاك مصابة بمرض خطير ، تتوقع وفاتها فى أية لحظة ، فهربت إلى ليث وحاولت أن تؤخر تقدم البروتستانت المنتصرين بالمفاوضات إلى أن يصل إليها العون من فرنسا . ولكن جماعة المصلين تفوقت عليها فى المباراة ، وذلك بالفوز بتأييد إليزابث ملكة إنجلترا . وكتب نوكس إلى الملكة خطاباً يؤكد لها فيه أنه لم يتعرض لها فى رسالته « نفخة البوق » ضد الملكات . ونصح وليام سيسل الوزير الأول ملكته إليزابث بأن تساعد الثورة الإسكوتلندية كإجراء يحقق اعتماد إسكوتلندة على إنجلترا سياسيا . وأدركت أن هذا إجراء وقائى مشروع ضد مارى ستيوارت ، التى كانت قد طالبت ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) بعرش إنجلترا أيضاً ، على أساس أن إليزابث ابنة سفاح مغتصبة للعرش . وسرعان ما أغلق أسطول إنجليزى فى مضيق فورث الطريق أمام نزول أى مساعدة فرنسية للوصـــية على العرش إلى البر ، وانضم جيش إنجليزى إلى قوات جماعة المصلين فى مهاجمة ليث . وانسحبت مارى أميرة اللورين إلى قلعة إدنبره ، وماتت (١٠ يونيه سنة ١٥٦٠) بعد أن قبلت حاشيتها واحداً واحداً . لقد كانت امرأة طيبة قدر عليها أن تقوم بالدور الخطأ فى مأساة لا فكاك منها .

واستسلم آخر المدافعين عنها ، بعد أن سدت فى وجوههم السبل وأوشكوا على الموت جوعاً . وفى السادس من يوليو سنة ١٥٦٠ وقع ممثلو جماعة المصلين ومارى ستيوارت وفرنسا وإنجلترا معاهدة إدنبره التى

قدر لموادها أن تكون من صميم أسباب الصراع الأخير بين مارى وإليزابث . . .
وكان على كل الجنود الأجانب ما عدا ١٢٠ فرنسياً مغادرة إسكوتلندة ، وكفت مارى استيوارت وفرانسيس الثانى عن مطالبتهما بالتاج الإنجليزى ، واعترف بمارى ملكة على إسكوتلندة ، ولكن حظر عليها أن تشن حرباً أو تعقد صلحاً بدون موافقة أمراء الإقطاع ، وكان على هؤلاء أن يختاروا خمسة رجال أو اثنى عشر رجلا للتعيين فى مجلسها الخاص ، ولا يجوز أن يشغل أجنبى أو رجل من رجال الإكليروس منصباً رفيعاً ، ولا بد من إعلان عفو عام، مع استثناءات يعينها أمراء الإقطاع . كانت معاهدة صلح مهينة للملكة الغائبة ، وانتصاراً مبيناً لجماعة المصلين لم تكد تسفك فيه دماء . .

وقبل المجلس النيابى ، الذى اجتمع فى أول أغسطس سنة ١٥٦٠ اعترافاً بالعقيدة أعده نوكس ومعاونوه وخفف من غلواء بعض نصوصه ميتلاند ليثنجتون ولم يصوت ضده إلا ثمانية أعضاء . ولما كان لا يزال العقيدة الرسمية لكنيسة إسكوتلندة المشيخية نرى لزاماً علينا أن نسجل بعض مواده الأساسية تذكيراً بها :

١ — نعترف ونقر بوجود إله واحد أحد . . . . فى ثالوث .

٢ — نعترف ونقر أن إلهنا هذا قد خلق بشراً ندرك أنه أبونا الأول آدم — خلق منه الله امرأة على صورته . . . حتى لا نلاحظ أى نقص فى طبيعة الإنسان الكاملة ، ومن هذا الشرف والكمال سقط الرجل والمرأة معاً .

فالمرأة خدعتها الحية والرجل أصغى لصوت المرأة .

٣ — وبهذه الزلة ، التى يطلق عليها عادة اسم الخطيئة الأولى دنست صورة الرب تماماً فى الإنسان ، وأصبح هو وذريته من الطبيعة أعداء للرب ، عبيداً للشيطان وخدماً للخطيئة ، وما دام ذلك الموت كانت له ، وسوف تكون له دائماً ، قوة وسلطان ، على كل من لم يولد أو ولد

أو سوف يولد من أعلى ، وهذا الميلاد من جديد يتم على يد الروح القدس ، وهو يعمل فى أفئدة أصفياء الرب فتمتلىء إيماناً لا يتزعزع بوعد الرب . وبهذا الإيمان يدركون يسوع المسيح .

٨ — وذلك الرب والأب الباً نفسه . . . برحمته وحدها اختارنا فى يسوع المسيح ... قبل خلق العالم .... .

١٦ — إننا نؤمن بإخلاص شديد ، بأنه كانت منذ البداية ، ولا تزال ، وسوف تكون إلى نهاية العالم ، كنيسة أى صحبة وجماعة من الناس اختارهم الله ، لكى يعبدوه بحق ، ويحتضنوه بالإيمان الصحيح بيسوع المسيح ... وخارج هذه الكنيسة لا توجد حياة ولا نعيم أبدى ، ومن ثم فإننا نمقت بشدة كفر من يؤكدون أن الناس يعيشون ، وهم يراعون الإنصاف والعدل سوف يظفرون بالخلاص أيا كان الدين الذى يعتنقونه .

٢١ — نحن لا نقر إلا اثنتين من المقدسات : التعميد والعشاء الربانى . . . لا لأننا نتصور تحول الخبز إلى جسد الرب الطبيعى . . . ولكننا نؤمن بأن صنيع الروح القدس إنما يعنى أن المؤمنين بالاستخدام الصحيح لمائدة الرب يأكلون جسد السيد يسوع ويشربون دمه .

٢٤ — نعترف ونقر بأن الإمبراطوريات والممالك والمستعمرات والمدن أقيمت بفضل الله ... فى الغالب وبصفة رئيسية للملوك والأمراء والحكام ، وذلك من أجل الحفاظ على كل ما يتصل بالدين وتطهيره ، ولهذا فإنهم لا يعينون من أجل السياسة المدنية وحدها ، ولكن من أجل المحافظة على الدين الصحيح ومنع عبادة الأوثان والخرافة أيا كانت أيضاً (٤٩) .

وترتب على هذا الاعتراف أن المجلس النيابى الإسكوتلندى الآخذ بأسباب الإصلاح الدينى رفض التسليم بالسلطة القضائية للبابا ، وجعل القعيدة والشعيرة اللتين تبناهما الإصلاح الدينى إجباريين ، ومنع إقامة القداس وإلا تعرض من يقيمه للعقوبة البدنية ومصادرة أمواله عند ارتكاب أول جريمة ، والنفى

عند ارتكابه لها للمرة الثانية ، والإعدام إذا ارتكبها مرة ثالثة . ولكن لما كان للنبلاء الذين يتحكمون فى المجلس النيابى يريدون الأرض أكثر مما يريدون سفك الدماء ، وبما أنهم لم يتبعوا اللاهوت الكالفينى حرفياً فإن مطاردة هؤلاء الإسكوتلنديين الذين ظلوا كثالكة ، بقى معتدلا نسبياً ، ولم يصل قط إلى توقيع عقوبة بدلية . وبعد أن سمح للنبلاء برفض الاعتراف بالمطهر باعتباره أسطورة ، ادعوا أنهم غبنوا فى جانب من ذمتهم المالية بالهبات التى قدمها أجدادهم من الأرض أو المال لدفع أتعاب لقساوسة يرتلون قداسات من أجل الموتى ، الذين قدر عليهم طبقاً للاهوت الجديد ، الخلاص أو اللعنة قبل خلق العالم ، ولهذا فإنه يمكن التعبير فى بهجة عن نزع ملكية الكنيسة بأنه استرداد للأموال المختلسة ، وأغلقت معظم الأديار الإسكوتلندية ، واستولى النبلاء على ثروتها ولم تدبر الحكومة فى مبدأ الأمر أى مورد للقساوسة الكالفينيين ، وكان هؤلاء قد استخدموا كمعاونين أيدلوجيين فى الثورة ، ولكن النبلاء كانوا قد فقدوا وقتذاك الاهتمام باللاهوت . وكان نوكس ورفقاؤه من الوعاظ الذين خاطروا وضحوا بالكثير من أجل النظام الجديد قد توقعوا ، أن تستخدم أملاك الكنيسة فى مساندة الكنيسة الإسكوتلندية ورجال الأكليروس بها . والتمسوا من المجلس النيابى إقرار هذا التدبير فلم يتلقوا جواباً ، ولكن خصص لهم فى آخر الأمر سدس الأسلاب . ووجد أن هذا يقصر عن تحقيق مطالبهم فانقلبوا ضد الأرستقراطية النهمة وبدأ الحلف التاريخى بين أتباع الكنيسة المشيخية الإسكوتلندية والديمقراطية .

وتفردت حركة الإصلاح الدينى الإسكوتلندى بين حركات الإصلاح الدينى جميعاً بأنه لم يسفك فيها إلا أقل قدر من الدماء ، وكانت مع ذلك أبقاها ، وقاسى الكثالكة فى صمت ، وهرب أساقفتهم وقبل معظم قساوسة الأبرشيات التغيير باعتباره ليس أسوأ من ظلم الأساقفة وزياراتهم التفتيشية .

وفقدت المناطق الريفية مفارق طرقها الجانبية ، وهجرت مزاراتها القديمة ، التى كان الحجاج يشدون إليها الرحال ، ولم يعد القديسون يهيئون للناس عطلات يرتاحون فيها . وليس من شك فى أن نفوساً كثيرة قد حزنت على الماضى وبالغت فى مثاليته . وليس من شك أيضاً فى أن كثيرين أخذوا يترقبون ، والأمل يراودهم ، مجىء مليكتهم الشابة من فرنسا .

ولقد ضاع الكثير مما كان يشيع المرح والجمال فى الحياة . والكثير مما كان وحشياً وقاسياً وخداعا ، ولسوف تحدث أمور كثيرة جافية كئيبة ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من التغيير .

وخفت وطأة تبادل التهم وهيأ الناس أنفسهم ، لتقبل النظام الجديد ، وأصبح التقاء مواقف ما يشبه العقيدة بالصفوف المشايعة للملكية ، والتى يقترب بعضها من بعض ، يعد نعمة كبرى ، لأنه سيضع حداً للحروب المريرة بين الإسكوتلنديين والإنجليز ، وسرعان ما تمنح الأمة الأضعف البلد الأقوى ملكا ، وبريطانيا ستصبح مملكة واحدة .

الفصل الثامن والعشرون

هجرات الإصلاح الدينى

١٥١٧ - ٦٠

١ - المشهد الإسكنديناوى

(١٤٧٠ - ١٥٢٣)

ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تقوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكنديناوة . وكانت الكنيسة تملك نصف الأرض فى الدنمرك ، وكان يفلحها مستأجرون فى منزلة تقترب من الرق[١] . وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض . أما النبلاء فلأنهم اشتركوا فى الحرب على نفقتهم الخاصة ، وأما رجال الاكليروس فلأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر .

وكانت الجامعات فى كوبنهاجن وأبسالا بالطبع فى أيدى رجال الكنيسة ، وكانت الكنيسة تتقاضى سنوياً عشر كل ناتج أو دخل يُحصَّل خارج مجال الكنيسة ، وتقاضت رسماً صغيراً على كل بناء يقام وكل طفل يولد وكل اثنين يتزوجان وكل جثة تدفن ، وطالبت بالتبرع بيوم عمل فى السنة من كل فلاح . ولم يكن فى وسع أحد أن يرث عقاراً ، دون أن يقدم عنه حصة للكنيسة ، باعتبارها محكمة إشهاد للتثبت من صحة الوصايا[٢] . وكان يدافع عن هذه الضرائب بأنها تمول الخدمة الكهنوتية فى الكنيسة ، ولكن الشكاوى ارتفعت بأن الكثير من متحصلات المعاملات التجارية ذهبت لكى يعيش الأساقفة فى أبهة ملكية . وأزعج تجار الدنمرك السيادة الهنزية فى بحرى الشمال والبلطيق ، فتميزوا غيظاً من المنافسة الإضافية للنبلاء ورجال الإكليروس ، الذين كانوا يصدرون فائض إنتاج ضياعهم فى سفنهم الخاصة غالباً . وفى

اسكنديناوة كما فى غيرها من البلاد ، تطلع النبلاء فى شوق إلى أراضى الكنيسة . ولقد حدث هناك ، كما حدث فى كل موضع آخر صراع بين القومية ، وبين الكنيسة التى تسمو على كل قومية ، وأيدت الكنيسة فى كل البلاد الثلاث اتحاد كالمار الاسكنديناوى ، الذى كان كريستيان الأول ملك الدنمرك قد جدده (١٤٥٧) ؛ ولكن حزباً قومياً يتألف من سكان المدن والفلاحين رفض الاعتراف بالاتحاد ، باعتباره فى الحقيقة سيادة دنمركية ، ونادوا بستن ستور الأصغر نائب ملك يحكم أمة مستقلة (١٥١٢) ، ودافع رئيس الأساقفة جوستاف ترول من أبسالا — وكانت وقتذاك عاصمة للسويد — عن الاتحاد ، فأقاله ستن ستور الصغير وأمر البابا ليو العاشر بإعادته إلى وظيفته فرفض ستور . وحرم ليو تقديم الخدمات الدينية فى السويد وفوض كريستيان الثانى ملك الدنمرك فى غزو السويد ومعاقبة نائب الملك ، وفشلت أول محاولة لكريستيان ، واضطر إلى توقيع هدنة ، ولكنه حمل معه عند العودة إلى كوبنهاجن عدة رهائن كضمان لالتزام السويديين بنصوص الهدنة ، وكان جوستاف فازا أحد هذه الرهائن . وظفر كريستيان فى حملة ثالثة بنصر حاسم ، ومات ستور متأثراً بالجروح ، التى أصيب بها فى المعركة . وأعدت أرملته على عجل جيشاً احتفظ باستكهلم لمدة خمسة شهور أمام حصار دنمركى ، وأخيراً سلمت مقابل وعد قدمه قائد كريستيان بالحصول على عفو عام . وفى ٤ نوفمبر توج كريستيان ملكاً على السويد على يد ترول الظافر الذى أعيد إلى وظيفته .

وفى السابع من نوفمبر استدعى كبار السويديين الذين أيدا ستور للمثول أمام الملك فى قلعة استوكهلم . واتهمهم ممثل لترول بارتكاب جرائم عظمى بخلعهم كبير الأساقفة وتدمير قلعته ، وطالب الملك بالانتقام منهم لهذه الأخطاء ؛ وعلى الرغم من العفو العام الذى صدر فقد حكم على سبعين من كبار السويديين بالإعدام . وقطعت رءوسهم فى الثامن من نوفمبر فى الميدان

الكبير ، وقبض على آخرين عديدين فى التاسع من نوفمبر وأعدموا ، وأضيف إلى من قتلوا فى هذه المذبحة بعض المشاهدين الذين أعربوا عن تعاطفهم مع المحكوم عليهم ، وصودرت أملاك الموتى لصالح الملك ، وصرخ كل السويديين من الرعب ، وقال الناس إن اتحاد كالمار أغرق فى « حمام الدم باستوكهلم » وانحطت مكانة الكنيسة كثيراً فى نظر الجماهير لأنها بدأت المذبحة . وقد رأى كريستيان أن يجعل حكمه آمنا بالقضاء على عقول الحزب القومى . والحق أنه مهد طريق العرش للرهينة الشاب الذى قدر له أن يحرر السويد .

واسمه جوستافوس أركسون ، ولكن ذريته أطلقوا عليه اسم فازا ، وهو مشتق من كلمة vasa السويدية و fascis باللاتينية ومعناها حزمة من العصى ظهرت فى شعار أسرته . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل ليدرس فى أبسالا ، وعندما بلغ العشرين من عمره استدعى لبلاط ستور الصغير الذى تزوج أختاً غير شقيقة لجوستافوس من أمه ، وهناك تلقى مزيداً من التعليم على يد رئيس الوزراء ، الأسقف همينج جاد ، وفى عام ١٥١٩ فر من المراقبة فى الدنمرك واتخذ طريقه إلى لوبك ، وأقنع أعضاء مجلس الشيوخ فيها (وكانوا فى عداء دائم للدنمرك) ، أن يقرضوه مالا ويعيروه سفينة ، وعاد إلى شواطىء بلاده (٣١ مايو سنة ١٥٢٠) ، وأخذ يضرب على غير هدى وهو متنكر أربعة شهور أو كان يختبىء فى قرى مغمورة . وفى نوفمبر وصلت الأنباء إليه بأن ما يقرب من مائة من الوطنيين المخلصين ، ومنهم أبوه ، قتلوا فى استوكهلم ، فامتطى صهوة أسرع جواد استطاع العثور عليه ، وركب شمالا إلى موطنه مقاطعة داليكارليا ، وصمم على أن ينظم هناك من ملاك الأراضى الجسورين طلائع جيش يمكن أن يحرر السويديين من الدنمركيين .

وكانت حياته وقتذاك ملحمة جديرة بأن يتغنى بها هوميروس . فقد مضى

يسير فى طرقات ثلجية ، والتمس الراحة فى بيت زميل سابق له فى المدرسة ؛ وقدم له هذا الصديق واجبات الضيافة ثم انطلق ليخطر الشرطة الموالية للدنمركيين أن الرهينة الهاربة يمكن القبض عليها وقتذاك ؛ غير أن الزوجة أنذرت جوستافوس ليلوذ بالفرار . وبعد أن قطع راكباً عشرين ميلا وجد ملجأ لدى قسيس أخفاه أسبوعاً . وسافر بعد ذلك ثلاثين ميلا وحاول أن يحرض مدينة راتفيك على الثورة بيد أن أهلها لم يكونوا قد سمعوا بعد بقصة حمام الدم ولم يصدقوها . فركب فازا وسار فى مروج متجمدة خمسة وعشرين ميلا شمالا إلى مورا ، وتوسل مرة أخرى للفلاحين أن يقوموا بثورة ، بيد أنهم أصغوا إليه متشككين فى تبلد . ووجد نفسه منبوذاً وتملكه اليأس لحظة ، فاستدار بفرسه نحو الغرب ، وتخلى عن البحث عن ملجأ فى النرويج . وقبل أن يصل إلى الحدود أدركه رسول من مورا ، ورجاه أن يعود ، وتعهد له بأنه سوف يجد وقتذاك أذناً صاغية بروح تفيض حماسة مثل روحه . فقد سمع الفلاحون أخيراً بأنباء الرعب فى استوكهلم ، وعلاوة على هذا انتشرت شائعة بأن الملك كان يفكر فى القيام برحلة يخترق فيها السويد ، وأنه أمر بإقامة المشانق فى كل مدينة كبرى . وتقرر فرض مكوس جديدة على شعب كان يكافح من أجل الحياة أمام جشع السادة واستبداد المبادئ الأساسية . وعندما خاطب جوستافوس المواطنين فى مورا مرة أخرى أعطوه حرساً مكوناً من ستة عشر من سكان المناطق الجبلية ، وأقسموا أن يسلحوا أنفسهم ، وينظموا صفوفهم ، ويسيروا وراءه حيثما يقودهم لمقاتلة الدنمركيين

ولم يعرفوا وقتها سوى الأقواس والسهام وفئوس الحرب ، وعلمهم فازا كيف يصنعون الرماح والحراب برءوس من الحديد ، ودربهم بكل حمية يطويها بين جوانحه شاب يحفزه حب الوطن والسلطة ، وبهذه الحماسة استولوا على فستيريس ثم أبسالا ، وفر كبير الأساقفة ترول مرة أخرى ، وكسب الجيش النامى فى صبر وتصميم مقاطعة إثر أخرى من الحاميات الدنمركية

ولم يستطع كريستيان الثانى الحضور ليتولى بنفسه قيادة قواته. لأنه واجه فى بلده ذاتها حرباً أهلية إلا أن أسطوله أغار مراراً على الشواطئ السويدية . وبعث جوستافوس برسل إلى لوبك لكى يطلبوا سفناً حربية . وجهزت المدينة التجارية عشرة سفن صرفت نشاط الأسطول الدنمركى ، وذلك مقابل وعد بالحصول على مبلغ كبير . وفى السابع من يونيه سنة ١٥٢٣ نادى الثوار المنتصرون ، فى ركسراد جديدة بقائدهم ملكاً باسم جوستافوس الأول ، وفى العشرين من يونيه استسلمت ستوكهلم واتخذ فازا منها بعد ذلك عاصمة له . وفى غضون ذلك كان كريستيان الثانى قد خلع عن عرشه فى الدنمرك ، وتخلى خلفه فريدريك الأول عن كل المطالب الدنمركية فى السيادة على السويد ، وانتهى اتحاد كالمار (١٣٩٧ — ١٥٢٣) وبدأت أسرة فازا .

٢ — الإصلاح الدينى السويدى

كان جوستافوس لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين من عمره . ولم يكن فارع الطول ، كما نعهد فى الرجال من أهل الشمال ، ولكنه كان يتمتع بقوة بدنية مثل أى قرصان أسكنديناوى ، وكان وجهه المستدير متورداً بحمرة الصحة ، ولحيته الصفراء الطويلة تضفى عليه وقار الملك أكثر من دلالتها على سنه ، وكانت أخلاقه رائعة بالنسبة إلى ملك ، بل إن الكنيسة التى قدر له أن يلبذها بعد ذلك بوقت قصير لم تستطع أن تجادل فى تقواه . ووقف نفسه على القيام بأعباء الحكم بنشاط لا يعرف الأناة ، جعله ينزلق أحياناً إلى التوسل بالعنف أو الاستبداد ، بيد أن ظروف السويد عند ارتقائه العرش كانت تبرر أو تكاد طبعه وحكمه المطلق . وقد ترك آلاف الفلاحين ، فى غمرة فوضى الحرب ، حقولهم دون أن يزرعوها ، وهجر عمال التعدين مناجمهم ، ودمر الصراع المدن ، وخفضت قيمة العملة وأفلست الخزانة العامة ، وأزهقت أرواح أصحاب

العقول المدبرة فى البلاد فى « حمام الدم » ، واعتبر البارونات الإقطاعيون الباقون على قيد الحياة جوستافوس حديث النعمة ، ونظروا باحتقار إلى ادعائه الحق فى الحكم ، ودبرت المؤامرات لخلعه فقضى عليها بيــد من حديد ، وكانت فنلنده ، التى كانت جزءاً من السويد ، لا تزال فى أيدى الدنمركيين ، وكان سورن نوربى أمير البحر الدنمركى يحتفظ بجزيرة جوتلاند الاستراتيجية ، وضجت لوبك مطالبة بسداد قروضها .

وكانت أول حاجة ملحة استشعرتها الحكومة مال يدفع للقوات المسلحة التى تحميها ، ثم للموظفين الذين يقومون على شئونها ، أو وعد بدفع هذا المال ، ولكن الضرائب فى السويد أيام فازا كانت تكاد تكلف فى جبايتها أكثر من المتحصل منها لأن الذين كان فى وسعهم وحدهم أن يدفعوها كانوا أقوياء جداً إلى الحد الذى يقاومون فيه جبايتها . وخضع جوستافوس لما اقتضته الحاجة الملحة من تخفيض قيمة العملة مرة أخرى ، بيــد أن العملات الرديئة سرعان ما هبطت إلى قيمتها الفعلية ، وكانت إيرادات الدولة أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولم تكن فى السويد إلا جماعة واحدة غنية — هى طبقة رجال الإكليروس ، فتحول جوستافوس إليهم ، وطلب منهم المساعدة ، واعتقد أن من العدل أن تخفف ثروة الكنيسة وطأة الفقر الذى يرزح تحته الشعب والحكومة ، وكتب عام ١٥٢٣ رسالة إلى الأسقف هانز براسك من لنكوبنج ، يطلب فيها هبة قدرها ٥٠٠٠ جيلدر للدولة ، فاحتج الأسقف ثم أذعن . وأرسل فازا طلبا عاجلا إلى كنائس السويد وأديارها بضرورة تسليم كل الأموال والمعادن الثمينة ، التى ليست ضرورية لمواصلة خدماتها ، إلى الحكومة بصفة قرض ، ونشر قائمة بالمبالغ التى يتوقع الحصول عليها من كل مصدر ، ولم تكن الاستجابة إليه كما توقع ، وبدأ يتساءل : ما إذا كانت الحكمة تقتضى منه أن يفعل كما كان يفعل الأمراء اللوثريون فى ألمانيا — فيصادر ثروة الكنيسة تلبية لحاجته

الدولة . ولم ينس أن أغلب كبار رجال الإكليروس قد عارضوا الثورة ، وأنهم عضدوا حكم كريستيان الثانى فى السويد .

وفى عام ١٥١٩ عاد أولاوس بترى ، وهو ابن صاحب مصنع حديد سويدى بعد أن قضى بضع سنوات فى الدراسة بفيتنبرج ، وسمح لنفسه ببعض الهرطقات ، وهو شماس فى المدرسة الكاتدرائية فى سترانجنارس وقال إن المطهر أسطورة ، وإن الصلوات يجب أن يخاطب بها الله وحده وإن الاعتراف يوجه إليه تعالى وحده ، وإن الدعوة إلى ما ورد فى الإنجيل خير من شعيرة القداس . وبدأ الناس يتداولون رسائل لوثر فى السويد . فألح براسك على فازا أن يمنع بيعها ، فأجاب الملك بأن تعاليم لوثر عرضت على قضاة عدول فلم يجدوا فيها زيفا[٣] » . ولعله رأى أن من حسن السياسة الاحتفاظ على سبيل الاحتياط بهرطيق يساوم الكنيسة عليه .

وأصحت الأمور أشد إثارة عندما رفض البابا أدريان السادس أن يصادق على تعيين قاصده الرسولى جوهانس ماجنوس رئيساً لأساقفة أبسالا ، واقترح إعادة جوستاف ترول عدو الثورة . فأرسل فازا إلى مجلس شورى الفاتيكان رسالة كانت حرية وقتذاك (١٥٢٣) بأن تفزع هنرى الثامن وتسعده فيما بعد :

إذا كان عند أبينا المقدس أى اهتمام بسلام بلدنا فإنه يسرنا أن نراه يصادق على اختيار قاصده الرسولى ... وسوف نستجيب لرغبات البابا فيما يختص بإصلاح الكنيسة والدين . ولكن إذا أيد قداسته أنصار كبير الأساقفة ترول الموصومين بالجريمة ، مخالفاً بذلك كرامتنا وسلامة رعايانا ، فإننا سوف نسمح لقاصده الرسولى بالعودة إلى روما ، وسوف ندبر أمور الكنيسة فى هذه البلاد بمقتضى السلطة المخولة لنا باعتبارنا ملكاً .

وأدت وفاة أدريان وانصراف كليمنت السابع بجهوده لمقاومة لوثر وشارل الخامس وفرانسيس الأول ، إلى ترك فازا حراً فى المضى قدماً بالإصلاح

الديني السويدى ، فعين أولاوس بترى فى كنيسة سانت نيكولاس فى استكهلم ، وعين لورانتيوس شقيق أولاس أستاذا للاهوت فى جامعة أبسالا ، ورفع مصلحا دينيا ثالثا وهو لورانتيوس أندريا إلى رتبة رئيس شمامسة الكاتدرائية . ودافع أولاوس بترى عن اللوثرية فى مناظرة دارت بينه وبين بيترجال (٢٧ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى مقر الأسقفية بالكاتدرائية ، برئاسة الملك وقضى فازا بفوز أولاوس ، ولم ينزعج عندما اتخذ أولاس زوجة له (١٥٢٥) ، قبل زواج لوثر بأربعة شهور ، ومهما يكن من أمر فإن الأسقف براسك فزع بسبب هذه المخالفة لرهبانية رجال الأكليروس ، وطلب من الملك أن يقضى على بترى بالحرمان . فأجاب جوستافوس بأن أولاوس يجب أن يعاقب إذا كان قد ارتكب خطأ ، ولكن « يخيل إلى أن من العجب أن يعاقب المرء بسبب الزواج (وهو شعيرة لا يحرمها الله) ، ولا يقع المرء تحت طائلة الحرمان بسبب الفسوق وغيره من الآثام[٤] » وبدلا من أن يحكم على بترى بأنه خالف القانون انتدبه هو وشقيقه لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية . وساعدت النسخة المترجمة إلى اللغة الدارجة ، كما حدث فى كثير من البلاد الأخرى ، على تكوين اللغة القومية وتحرير الدين القومى .

وعد جوستافوس ، مثل معظم الحكام ، أى إجراء يقوم به لتدعيم مركز بلاده أو عرشه مسايراً للأخلاق . وحرص على ترقية الآساقفة الذين يذعنون لخططه إلى مرتبة المطرانيات السويدية ووجد أسباباً لا يستطيع دفعها لنزع ملكية أراضى الأديار ، ولما كان قد تقاسم الأسلاب مع النبلاء فإنه فسر ذلك بأنه إنما كان يعيد إلى العلمانيين ما أغرى أجدادهم على أن يهبوه للكنيسة ، وشكا البابا كليمنت السابع من أن القساوسة السويديين كانوا يتزوجون ، ويقدمون القربان بالخبز والنبيذ ، ويهملون شعيرة المسح الأخير ويغيرون شعيرة القداس وبعث بنداء للملك بأن يظل مخلصاً للكنيسة ولكن جوستافوس كان قد قطع شوطاً بعيداً فلم يستطع أن يتراجع ، وكانت

العقيدة المحافظة حرية بأن تخرب خزائنه . ونادى فى مجلس فستيريس (١٥٢٧) بالإصلاح الدينى علنا .

كان اجتماعا تاريخياً فى تكوينه ونتائجه معا . فقد اجتمع أربعة أساقفة وأربعة من كبار القساوسة وخمسة عشر عضوا من الركسراد Riksraad و١٢٩ نبيلا واثنان وثلاثون من أوساط الناس وأربعة عشر نائبا لعمال المناجم و١٠٤ ممثلا للفلاحين ، وكان هذا مجلساً وطنياً يمثل أعرض قاعدة بين المجالس فى القرن السادس عشر . وطرح كبير وزراء الملك اقتراحاً ثورياً أمام المجلس ، فقال إن الدولة قد افتقرت إلى المال إلى حد عجزها عن القيام بتبعاتها لخير الشعب ، وأن الكنيسة كانت غنية جداً إلى الحد الذى يسمح لها بأن تحول جانباً كبيراً من ثروتها إلى الحكومة ، ويبقى لها مع ذلك ما يكفى لأن تقوم بجميع التزاماتها . وحارب الأسقف براسك لآخر لحظة من أجل مثله العليا وأملاكه العقارية ، فأعلن أن البابا قد أمر رجال الأكليروس بالدفاع عن أملاكهم . وصوت المجلس فى صف القائلين بإطاعة البابا . ورأى جوستافوس أن يقامر على كل شىء برمية واحدة ، فأعلن أنه إذا كان هذا حكم المجلس والأمة فإنه سيستقيل ويرحل عن السويد ، وظل المجلس فى نقاش مستمر طوال ثلاثة أيام . ووقف الأوساط ورجال الفلاحين إلى جانب الملك ، وكان لدى النبلاء سبب وجيه للتحرك فى الاتجاه نفسه ، واقتنع المجلس آخر الأمر بأن فازا أعظم قيمة للسويد من أى بابا ، فوافق على رغبات الملك . وتحولت الأديار فى فترة العطلة أو فى ختام مجلس فستيريس إلى إقطاعيات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التى منحها النبلاء للكنيسة منذ عام ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرم على الأساقفة أن يسعوا إلى الحصول على تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكليروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرهم الدينية فى حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السرى ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده . وكان الإصلاح الدينى فى السويد ، بصورة قاطعة أكثر منه فى أى مكان آخر ، تأميما للدين وانتصاراً للدولة على الكنيسة .

وعاش فازا بعد هذه الأزمة ثلاثا وثلاثين عاماً ، وظل حتى النهاية حاكماً مطلقاً . . . قوياً ولكنه يعمل لخير شعبه ، وكان مقتنعاً بأن السلطة المركزية وحدها هي التي تستطيع أن تعيد النظام والرخاء إلى السويد ، وأنه في مهمة معقدة كهذه لا يستطيع أن يتوقف عند كل خطوة ليستشير مجلساً متروياً ، وبفضل تشجيعه وتنظيمه صبت مناجم الشمال حديدها في أدوات الحرب السويدية ، واتسعت رقعة الصناعة ، وأبرمت معاهدات تجارية مع إنجلترا وفرنسا والدنمرك وروسيا أوجدت أسواقاً للسلع السويدية ، وجلبت إلى السويد منتجات من اثني عشرة بلداً ، وأضفت تهذيباً جديداً وثقة على حضارة كانت قبله معتقلة في سذاجة ريفية وأمية . وازدهرت السويد وقتذاك كما لم تزدهر من قبل .

واشتبك جوستافوس في عدة حروب ، وقمع أربع ثورات وعقد قرانه على ثلاث زوجات على التعاقب ، وأنجبت له الأولى ولداً أصبح فيما بعد اريك الرابع عشر ، وأنجبت له الثانية خمسة أولاد وخمس بنات أما الثالثة التي كانت في السادسة عشرة من عمرها عند ما تزوجها وهو في السادسة والخمسين فقد عمرت بعده ستين عاماً ، وأغرى الرجسراد Rigsraad بأن يقبل أبناءه ورثة للعرش وأن يجعل وراثة العرش مقصورة على الذكور كقاعدة تتبع في الملكية السويدية .

وصفحت السويد عن حكمه المطلق لأنها أدركت أن النظام أصل الحرية وليس ثمرة لها . وعندما مات (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٦٠ ، بعد حكم دام سبعة وثلاثين عاماً دفن في كاتدرائية أبسالا في احتفال صدر عنه بالحب وتميز بالسرف وهو لم يمنح شعبه الحرية الشخصية التي كانوا يستحقونها بصفة خاصة فيما يبدو ، ولكنه منحهم حرية جماعية من السيطرة الأجنبية في الدين أو الحكم ، وقد هيأ الظروف التي استطاعت أمته في ظلها أن تصل إلى درجة

النضج فى مجالات الاقتصاد والأدب والفن . كان الأب الحقيقى للسويد الحديثة .

٣ – الإصلاح الدينى الدنمركى

كان كريستيان الثانى ملك الدنمرك (حكم ١٥١٣ – ٢٣) شخصية لامعة مثل جوستافوس فازا الذى هزمه فى السويد . وقد أكرهه البارونات على التوقيع على شروط استسلام مهينة ثمناً لانتخابه ، فأحاط نفسه بمستشارين من الطبقة المتوسطة وتجاهل الريجسراد Rigsraad (مجلس النواب) الدنمركى ، المكون من الأعيان من ذوى النسب ، وعين أم عشيقته الهولندية الجميلة كبيرة لمستشاريه ولا بد أن هذا المجلس الخاص كان يتمتع بشىء من المقدرة والروح ، لأن سياسة كريستيان الوطنية كانت بناءة بقدر ما كانت مغامراته الأجنبية فاشلة لا طائل تحتها ، وعمل جاهداً فى تدبير الملك ، وأصلح حكم المدن ، وراجع القوانين ، وقضى على القرصنة ، ومهد الطرق ، وشرع فى إقامة نظام بريدى عام ، وألغى أسوأ آفات الرق ، وأبطل عقوبة الإعدام على ممارسة السحر ، ونظم الإعانة للمحتاجين ، وفتح المدارس للفقراء ، وجعل التعليم إجبارياً ، وطور جامعة كوبنهاجن ، فأصبحت مكاناً يشع بالضياء وملاذاً للعلم . وتعرض لعداء لوبك بتقييد سلطة الهانز Hanse ، وشجع التجارة الدنمركية وأسبغ عليها حمايته ، ووضع حداً للعادة الهمجية التى خولت للقرويين المقيمين بجوار البحر الحق فى نهب كل السفن التى تتحطم على شواطئهم .

وأرسل ليو العاشر عام ١٥١٧ جيوفانى أركمبولدو إلى الدنمرك ليعرض صكوك غفران ، فندد بول هلجزن ، وهو راهب كرملى بما بدا له بيعاً لصكوك الغفران هذه ، وهو بذلك سبق رسائل لوثر(ه) . واشتجر النزاع بين القاصد الرسولى وبين الملك حول تقسيم هذه المبالغ المتحصلة من البيع . وهرب أركمبولدو إلى لوبك بجانب منها ، وصادر كريستيان الباقى ، وعندما

وجد كريستيان أسباباً وجيهة لاعتناق البروتستانتية دفعاً للمظالم الحقيقية التى ارتكبتها الكنيسة وثروتها القائمة ، عين هلجزن فى منصب بجامعة كوبنهاجن ، حيث تزعم إرازموس الدنمرك الفصيح هذا ، إلى حين ، حركة للإصلاح الدينى . وعند ما تحول هلجزن إلى رجل يأخذ بأسباب الحيطة أرسل كريستيان إلى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا ، كى يبعث إليه بلوثر نفسه ، أو يبعث إليه على الأقل بعالم فى اللاهوت من مدرسة لوثر . وجاء كاراشتادت ، ولكنه لم يمكث طويلا . وأصدر كريستيان قانوناً بالإصلاح الدينى : لا يجوز رسامة أحد دون أن يكون قد درس دراسة كافية ليفسر الإنجيل باللغة الدنمركية ، ولا يستطيع رجال الاكليروس قانوناً أن يملكوا عقاراً ، أو يتسلموا تركات ما لم يتزوجوا ، وأمر الأساقفة بأن يتخففوا من الترف الذى يعيشون فيه ، وفقدت المحاكم الكنيسة الاختصاص القضائى ، عند ما يتعلق الأمر بنظر قضية خاصة بالملكية ، وخولت محكمة عليا ، عينها الملك ، السلطة النهائية فى الشئون الكنسية والمدنية على السواء : ومهما يكن من أمر فإنه عند ما وضع مجلس دايت ورمس لوثر تحت نير الحرمان الإمبراطورى ، أوقف كريستيان إصلاحاته وأشار هلجزن بعقد صلح مع الكنيسة .

وبينما كانت هذه السياسة الوطنية التى انتهجها كريستيان تثير شعبه ، فقد أزمة الموقف بفشله فى الشئون الخارجية . وأدت قسوته فى السويد إلى أن ينقلب عليه كثير من الدنمركيين . وأعلنت لوبك الحرب عليه بسبب هجماته على السفن الهانزية ، وتجاهل النبلاء ورجال الإكليروس ، الذين نفرتهم منه الضرائب المرتفعة والتشريع المعادى ، دعواته لعقد مجلس وطنى ، ونادوا بعمه الدوق فريدريك أف شلسفيج — هولشتين ، ملكاً جديداً للدنمرك ، وفر كريستيان إلى الفلاندرز مع الملكة زوجته ، شقيقة شارل الخامس البروتستانتية ، وعقد صلحاً مع الكنيسة ، مؤملا أن يجد مملكة لقداس ؛

وقبض عليه وهو يقوم بمحاولة ، لا طائل تحتها ، لاستعادة عرشه ، وعاش سبعة وعشرين عاماً فى سجون سوندربورج ، لا رفيق له إلا قزم نرويجى أحمق . وقادته سبل المجد إلى رمسه ، يجلله الخزى والعار رويداً (١٥٥٩) .

ولم يجد فردريك الأول ما كان ينشده من سعادة فى ظل تاجه المهدد ، فقد رضى به النبلاء ورجال الأكليروس بشروط كثيرة ، أحدها أنه لن يسمح أبداً لهرطيق بالوعظ فى الدنمرك ، وبينما كان هلجزن يواصل نقده لنقائص الكنيسة ، حول وقتذاك معظم مناظراته ، التى تشتعل حماسة ، ضد البروتستانت ، وألح على أن إصلاحاً دينياً ، يتم بالتدريج ، خير من ثورة يسودها الشعب . ولكنه لم يستطع أن يقف فى وجه التيار ، فقد كان الدوق كريستيان ، ابن فردريك ، لوثريا قبل ذلك ، وتزوجت ابنة الملك ، بموافقته ، ألبرخت البراندنبرجى الرئيس اللوثرى السابق للفرسان النيوتون ، وفى عام ١٥٢٦ مال فردريك مع الريح ، وعين هانزتاوزن قساً خاصاً له ، وكان قد درس على يد لوثر . فترك تاوزن ديره ، وتزوج ودافع علنا عن آراء لوثر . ووجد فردريك أن من المناسب أن يأمر بأن تدفع له لا للبابا ، رسوم التصديق على تعيين الأساقفة . وتشجع الوعاظ اللوثريون وتضاعف عددهم ، وطلب الأساقفة نفيهم ، فرد عليهم فردريك بأنه لا ولاية له على أرواح الناس ، وأنه قرر أن يترك العقيدة حرة — وهو إجراء غير مألوف للغاية . وظهرت عام ١٥٢٤ ترجمة للعهد الجديد باللغة الدنمركية ، ونشر كريستيان بدرسن عام ١٥٢٩ نسخة أفضل من الأولى ، دفعت الحركة البروتستانتية دفعة كبيرة . وكان الناس يتلهفون على وضع حد لضرائب العشور التى تدفع لرجال الأكليروس ، فقبلوا اللاهوت الجديد ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان اللوثريون يسيطرون على كوبنهاجن وفيبورج . وفى ذلك العام عقدت مناظرة فى المجلس بكوبنهاجن ، بين زعماء الكاثوليك والبروتستانت ، وقضى الملك والشعب بفوز البروتستانت ، وظل الاعتراف

بالعقيدة الذى قدمه هناك هانز تاوزن مدى عقد من الزمان ، المذهب الرسمى للوثريين الدنمركيين .

وكانت وفاة فردريك (١٥٣٣) مقدمة للفصل الأخير من الإصلاح الدينى الدنمركى . فقد انضم كبار التجار فى الدنمرك إلى أعدائهم القدامى فى لوبك ، وقاموا بمحاولة لإعادة كريستيان إلى العرش ، وقاد الكونت كريستوفر ا ف أولدنبرج قوات لوبك وأطلق اسمه على هذه الحرب فسميت باسم « حرب الكونت ، وسقطت كوبنهاجن فى يده ، وأخذت لوبك تحلم بحكم الدنمرك بأسرها . بيد أن أوساط الناس والفلاحين نظموا صفوفهم تحت علم كريستيان ابن فردريك ، وتغلب جيشهم على أولدنبرج ، واستولى على كوبنهاجن بعد حصار ضربه حولها دام عاماً (يوليو سنة ١٥٣٦) . وقبض على جميع الأساقفة ، ولم يطلق سراحهم ، إلا بعد أن وعدوا بالبقاء إلى جانب النظام البروتستانتى وانعقد المجلس الوطنى فى أكتوبر سنة ١٥٣٦ ، وأنشأ رسميا كنيسة الدولة اللوثرية ، ورئيسها الأعلى كريستيان الثالث . وصودرت جميع أملاك الأسقفيات والأديار لصالح الملك ، وفقد الأساقفة كل صوت لهم فى الحكم . وقبلت النرويج وأيسلندة كريستيان الثالث وتشريعه ، وكتب النصر التام للوثرية فى اسكنديناوة (١٥٥٤) .

٤ — البروتستانتية فى شرق أوروبا

نعمت بولندة بعصرها الذهبى فى عهد سجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) وابنه سجسموند الثانى (١٥٤٨ — ٧٢) . وكانا رجلين على حظ من الثقافة والذكاء ، وراعيين متذوقين للأدب والفن ، وكلاهما منح للفكر الدينى والعبادة حرية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة ، فإنها جعلت معظم أمم أوروبا تبدو قروسطية إذا قورنت ببولندة . وتزوج سجسموند الأول بونا سفورزا المرحة الموهوبة (١٥١٨) ، وهى ابنة الدوق جيانجاليازو أمير

ميلان ، وأحضرت معها إلى كراكو بطانة من رجال الحاشية والعلماء ، وبدلا من أن يتبرم بهم الملك ، رحب بهم باعتبارهم جسراً يصل بينه وبين النهضة ، وتملكت الأرستقراطية نزعة إلى الترف بارتداء الثياب المنمقة واقتناء الرياش الثمينة ، وأصبحت اللغة أكثر صقلا ، والأخلاق أكثر تهذيباً ، وازدهرت الآداب والفنون ، وكتب إرازموس (عام ١٥٢٣) : « إنى أهنىء هذه الأمة . . . التى بلغت فيها العلوم وفقه القانون والأخلاق والدين وكل ما يفصلنا عن الهمجية درجة من الازدهار تستطيع بها أن تنافس أرفع الأمم شأناً وأعظمها مجداً[٦] » . وسيطرت بونا على زوجها بجمالها ورشاقتها ودهائها ، فأصبحت ملكة فعلا ، وملكة فى الزى على السواء ، وكان ابنها سجسموند الثانى عالما بالإنسانيات ولغويا وخطيبا وميالا إلى التزيى بزى النساء[٧] . وأضرت الحروب هذه العهود اللامعة لأن بولندة كانت مشتبكة مع السويد والدنمرك وروسيا فى نزاع على السيطرة على بحر البلطيق وموانيه ، وفقدت بولندة بروسيا ، بيد أنها ضمت مازوفيا وتشمل وارسو (١٥٢٩) وليفونيا وتضم ريجا (١٥٦١) . وكانت بولندة فى هذا العصر دولة أوروبية كبرى .

وفى غضون ذلك تسلل الإصلاح الدينى من ألمانيا وسويسرة . وقد عودت حرية العبادة ، التى ضمنها التاج البولندى لرعاياه من الروم الكاثوليك ، الأمة على التسامح الدينى ، وجعلت ثورة الهسيين والأتراكويين فى بوهيميا المجاورة . والتى دامت قرناً من الزمان ، بولندة لا تعبأ إلى حد ما بالسلطة البابوية البعيدة . وكان الأساقفة ، الذين يعينهم الملوك ، رجالا مثقفين محبين لوطنهم ، من أنصار الإصلاح الكنسى ، مع الاعتصـــام بحيطة إرازمية ، ويؤيدون الحركة الإنسانية تأييداً عظيما ، ومهما يكن من أمر فإن هذا لم يخفف من شدة الحسد الذى تطلع به النبلاء ، وسكان المدن ، إلى أملاكهم ومواردهم ، وازدادت الشكاوى من استنزاف الثورة

القومية إلى روما ، ومن صكوك الغفران التى تكلف مشتريها غالياً بصورة غير معقولة ، ومن اتجار رجال الدين بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ، ومن ارتفاع نفقات التقاضى أمام المحاكم الأسقفية . واستاء صغار النبلاء الزلاخته Szlachka بصفة خاصة من إعفاء رجال الأكليروس من الضرائب ومن جباية رجال الأكليروس لضرائب العشور من النبلاء أنفسهم . ولعل بعض البارونات من ذوى النفوذ قد استمعوا فى تعاطف إلى نقد لوثر للكنيسة ، لأسباب اقتصادية ، وكان لما يتمتع به اللوردات الإقطاعيون من شبه سيادة الفضل فى إسباغ الحماية على الحركات البروتستانتية المحلية ، كما كان لاستقلال الأمراء الألمان الفضل فى إمكان نشوب الثورة وحماية لوثر . ودافع راهب دانزج على رسائل لوثر ودعا إلى القيام بإصلاحات كنسية ، وتزوج وارثة (١٥١٨) ؛ وانتهج واعظ آخر نهج لوثر فعلا إلى حد أن عدة جماعات للمصلين أزالت كل الصور الدينية من كنائسها (١٥٢٢) وأحل مجلس المدينة الرهبان والراهبات من أقسامهم وأغلق الأديار (١٥٢٢) ، وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل منابر الوعظ فى دانزج فى أيدى البروتستانت . وعندما قدم بعض رجال الإكليروس فى براونزبرج البولندية البروسية الشعيرة اللوثرية وشكا كبراء القساوسة فى الكاتدرائية إلى أسقفهم ، رد بأن « لوثر بنى آراءه على الكتاب المقدس وكل من يشعر بأن فى مقدوره أن يدحضها فليضطلع بالعبء (١٥١٠)[٨] . وأقنع سجسموند الأول بفرض رقابة على المطبوعات ، ومنع دخول كتابات لوثر ، غير أن كاتم سره وكاهن الاعتراف الفرنسسكانى الخاص بيونا اعتنقا العقيدة المحرمة سراً وكسبتهما إلى صفها ، وأهدى كالفن عام ١٥٣٩ كتابه « تعليق على القداس » لولى العهد .

وعندما أصبح الأمير ملكاً باسم سجسموند الثانى انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة . وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البولندية ، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية فى الشعائر الدينية . وأعلن

القساوسة المبرزون مثل جان لاسكى تحولهم إلى البروتستانتية ؛ وفى عام ١٥٤٨ انتقل الإخوة البوهيميون من بلادهم إلى بولندة ، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم فى البلاد . وقام رجال الأكليروس الكاثوليك بمحاولة لاتهام بعض أفراد صغار النبلاء Szlachta بالهرطقة ومصادرة أملاكهم ، فأدت إلى قيام كثير من صغار النبلاء بالثورة ضد الكنيسة (١٥٥٢) وصوت المجلس النيابى الوطنى لعام ١٥٥٥ ، وأقر الحرية الدينية لكل العقائد التى تعتمد على « كلمة الله الخالصة » ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الأكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ ، وكان الإصلاح الدينى فى بولندة فى أوج ازدهاره .

وتعقد الموقف فى بولندة بتطور أقوى حركة للقائلين بوحدة الكنيسة ، إبان القرن السادس عشر فى أوروبا ؛ وفى أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات سرفيتوس المنكرة للقول بالتثليث ، وذلك فى هذا الشرق الأقصى من العالم المسيحى اللاتينى ، وزار لايليوس سوكينوس بولنـــدة عام ١٥٥١ وترك خمائر من الأفكار المتطرفة ، وواصل جيورجيو بلاندرانا الحملة ، وفى عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة . وواصل أعضاؤها الخلط الذى اتسم به لاهوت سرفيتوس ، فقصروا الألوهية الكاملة على الرب الأب ، ولكنهم جاهروا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ووحيه الإلهى ومعجزاته وبعثه وصعوده . ورفضوا التسليم بفكرتى الخطيئة الأولى وتفكير المسيح عن خطايا البشر ، وسلموا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فحسب ، ولقنوا الناس أن الخلاص يتوقف فوق كل شىء على العمل الواعى بتعاليم المسيح ؛ وعندما أدان المجمع المقدس الكالفينى فى كراكو (١٥٦٣) هـــذه العقائد ، أنشأ القائلون بوحدة الكنيسة لهم كنيسة منفصلة . ولم تبلغ الطائفة أوج ازدهارها إلا على يد فاوستوس

سوكينوس ابن أخي لايليوس ، الذى وصل إلى بولندة عام ١٥٧٩ .

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالاضطهاد والكتابات والدبلوماسية ، وفى عام ١٥٣٩ أرسل أسقف كراكو إلى المحرقة امرأة فى الثمانين من عمرها بتهمة أنها رفضت عبادة القربان المقدس(٩) . وتصدى ستانسلاوس هوزيوس ، أسقف كولم فى بروسيا ، والكاردينال فيما بعد ، لتعبئة الهجوم المضاد بمقدرة وحماسة ، وعمل جاهداً من أجل الإصلاح الكنسى ، ولكنه لم يكن متعاطفاً مع اللاهوت البروتستانتى أو الشعيرة البروتستانتية وبناء على اقتراحه أرسل لودوفيكوليبومانو أسقف فيرونا إلى بولندة مندوباً بابوياً ، وعين جيوفانى كومندونى ، أسقف زانتى قاصداً رسولياً فى كراكو . وكسبوا تأييد سجسموند الثانى الفعال للكنيسة بتأكيد الانقسامات بين البروتستانت وتضخيم صعوبة تنظيم الحياة المعنوية للأمة بمثل هذه العقائد الضارة المذبذبة . وفى عام ١٥٦٤ جاء هوزيوس وكمندونى باليسوعيين إلى بولندة . وضمن هؤلاء الرجال المدربون المخلصون مناصب استراتيجية فى النظام التعليمى ، واستمالوا آذان الشخصيات البارزة ، وأعادوا الشعب البولندى إلى اعتناق العقيدة التقليدية .

وكان البوهيميون من البروتستانت قبل لوثر ، ولم يجدوا فى أفكاره ما يفزعهم إلا قليلا ، وقبل جانب كبير من الألمان على الحدود الإصلاح الدينى ، وكان الإخوة البوهيميون ويبلغ عددهم حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة ، أشد تمسكاً بالبروتستانتية من لوثر ، وكان ٦٠ فى المائة أترا كويين كاثوليك تناولوا القربان المقدس بالنبيذ وبالخبز على السواء ، وتجاهلوا احتجاجات البابوات(١٠) . وما أن حل عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكان بوهيميا من البروتستانت ، ولكن فرديناند أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١ ، وتحول التيار إلى العقيدة الكاثوليكية المحافظة .

وعرفت هنغاريا الإصلاح الديني عن طريق المهاجرين الألمان وهم يحملون أنباء لوثر ، ذلك الرجل الذي استطاع أن يتحدى الكنيسة والإمبراطورية وعاش مع ذلك ، وتطلع الفلاحون الهنغاريون الذين ظلمهم الإقطاع الذي تساعده الكنيسة ، بشيء من التحيز لبروتستانتية يمكن أن تضع حداً لضرائب العشور والمكوس التي تجبيها الكنيسة ، وتطلع البارونات الإقطاعيون بعيون جشعة إلى أملاك الكنيسة الشاسعة ، التي كانت منتجاتها تنافس منتجات أراضيهم ، ورأى عمال المدن ، الذين أصيبوا بعدوى مبادئ المدينة الفاضلة ، أن الكنيسة هي العقبة الكبرى التي تقف في طريق أحلامهم ، وانهمكوا في نشوات تحطيم التماثيل ، وتعاونت الكنيسة في إقناع الحكومة باعتبار اعتناق البروتستانتية جريمة يستحق مرتكبها الإعدام ؛ وسعى الملك فرديناند في غربي هنغاريا جاهداً للحصول على مصالحة ، وأراد أن يسمح لرجال الإكليروس بالزواج وبتقديم القربان المقدس بصورتيه المعروفتين ، وانتشرت البروتستانتية بلا قيود في شرقي هنغاريا في ظل حكم تركي ينظر باحتقار وبلا مبالاة إلى الاختلاف بين المذاهب المسيحية ، وما إن حل عام ١٥٥٠ حتى بدا أن هنغاريا بأسرها سوف تصبح بروتستانتية ، ولكن الكالفينية بدأت وقتذاك تنافس اللوثرية في هنغاريا ، وأيد المجريون ، وهم بفطرتهم مناهضون للألمان ، النمط السويسري من الإصلاح الديني ، وما إن جاء عام ١٥٥٨ حتى كان الكالفينيون من من الكثرة إلى حد أنهم استطاعوا عقد مجمع مقدس في زنجر ، كان له أثره الكبير . وشطرت مراكز القوى المتنافسة للإصلاح الديني الحركة إلى شطرين ، وعاد كثير من الموظفين أو من تحولوا من عقيدتهم ، ممن ينشدون الاستقرار الاجتماعي أو الهدوء الفكري إلى الكاثوليكية ، وفي القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون بزعامة ابن أحد الكالفينيين ، هنغاريا إلى حظيرة الكاثوليكية .

٥ ـ شارل الخامس والأراضي المنخفضة

كانت تجارة نافقة في بلاد الفلاندرز إبان نضج شارل أفضل من الانصراف إلى صناعة ضعيفة مشتتة . وساد الكساد في بروجس وغنت ، وعاشت بروكسل باعتبارها قصبة فلمنكية ، وكانت لوفان تشكل اللاهوت وتصنع الجعة وأنتورب تتحول ـ وسوف تكون عند حلول عام ١٥٥٠ ـ أغنى مدينة في أوروبا وأكثرها حركة وعملا . وحولت التجارة الدولية والمال ذلك الميناء الهزيل على نهر شلدت العريض الصالح للملاحة بفضل انخفاض المكوس الجمركية على الواردات والصادرات والارتباط السياسي مع إسبانيا وبورصة متخصصة ، وشعارها يقول إنها أنشئت **ad usum mercatorum cuiusque gentis ac linguae** « ليفيد منها التجار القادمون من كل البلاد والمتحدثون بجميع الألسنة[١١] » . وكان القيام بمشروع أي عمل حراً من قيود الطائفة الحرفية والحماية البلدية ، التي أبقت الصناعة القروسطية غير متقدمة لحسن الحظ . وفتح المصرفيون الإيطاليون هناك وكالات وأقام « التجار المغامرون » الإنجليز مستودعا وركز آل فوجر وجوه نشاطهم التجاري ، وبنى الهانز مؤسستهم العظيمة بيت الشرقيين (١٥٦٤) . وشهد الميناء ٥٠٠ سفينة تدخل إليها أو تغادرها كل يوم و ٥٠٠٠ تاجر يشتغلون بتبادل السلع . وكانت حوالة مالية مسحوبة على أنتورب وقتذاك أشيع شكل للعملة الدولية . وفي هذه الفترة حلت أنتورب بالتدريج محل لشبونة ، وأصبحت أكبر ميناء أوروبي لتجارة التوابل ، وكان للوكلاء الفلمنكيون يشترون حولات السفن الداخلة إلى لشبونة قبل أن تفرغ ثم ترسل مباشرة إلى أنتورب لتوزيعها في شمالي أوروبا . وكتب سفير للبندقية يقول : « لقد حزنت لرؤية أنتورب لأني شهدت مدينة تبز البندقية[١٢] » ، وكان يشهد التحول التاريخي للزعامة التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الأطلنطي . وحفزت هذه التجارة الصناعة الفلمنكية فانتعشت حتى في غنت ،

وأمدت الأراضى المنخفضة شارل الخامس بمبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر١ جنيه (٠٠٠ر٥٠٠ر٣٧ دولار ؟) سنويا ، وهو يعادل نصف دخله الكلى(١٣) .

واستجاب بمنح الفلاندرز وهولندة حكما صالحا معتدلا ، اللهم إلا فى مجال الحرية الدينية — وهى هبة لم يكد يدركها أصدقاوه أو أعداوه . وكانت سلطته من الناحية الدستورية مقيدة بتعهده الذى أقسم على تنفيذه بمراعاة مواثيق المدن والمقاطعات وقوانينها المحلية ، وبالحقوق الشخصية والعائلية ، التى حافظ عليها سكان المدن بشجاعة ، وبمجالس الدو[illegible] ، ومحكمة للاستئناف أنشئت لتكون جزءا من الإدارة المركزية ، وكان شارل بوجه عام يحكم الأراضى المنخفضة حكما غير مباشر عن طريق نواب يقبلهم المواطنون : أولا عمته ، وحاضلته ومربيته مرجريت النمساوية ، ثم شقيقته مارى ، ملكة هنغاريا السابقة ، وهما امرأتان تتمتعان بكفاءة وإنسانية ومهارة . ولكن شارل أصبح أشد استبدادا باتساع رقعة الإمبراطورية وأقام حرسا إسبانيا فى المدن المتكبرة ، وقمع بقسوة أى مخالفة خطيرة لسياسته الدولية ، فعند ما رفضت غنت أن تصوت على قرار بالاعتمادات العسكرية التى طلبها ومنحتها له المدن الأخرى ، أخمد شارل الثورة باستعراض قوة لا جدال فيها ، واقتضى إعانة مالية وتعويضا ، وألغى الحريات التقليدية التى كانت تتمتع بها البلدية ، واستبدل بالحكومة المختارة محليا موظفون معينون من قبل الإمبراطور (١٥٤٠)(١٤) ، ولكن لم يكن هذا المتبع فى الأغلب . وعلى الرغم من هذه القسوة العارضة فقد ظل شارل يحظى بشعبية بين رعاياه فى الأراضى المنخفضة ونال الثقة لما حققه من استقرار سياسى ونظام اجتماعى ، وطدا دعائم الرخاء الاقتصادى ، وعندما أعلن تنازله عن العرش حزن كل المواطنين تقريبا(١٥) .

وسلم شارل بالنظرية المتداولة القائلة بأن السلام القومى والقوى يتطلبان وحدة المعتقد الدينى ، وخشى أن تؤدى البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة

إلى تعريض جناحه للخطر فى نزاعه مع فرنسا وألمانيا اللوثرية» فأيد الكنيسة تأييداً كاملا فى قمع الهرطقة فى الفلاندرز وهولندة ؛ وكانت حركة الإصلاح الدينى هناك معتدلة قبل لوثر ، ودخلت بعد عام ١٥١٧ ، مثل ما دخلت اللوثرية ومذهب المنكرين للتعميد من ألمانيا ، والزوينجيلية والكالفينية من سويسرة والألزاس وفرنسا : وسرعان ما ترجمت رسائل لوثر إلى الهولندية وشرحها وعاظ فى أنتورب وغنت ودور درخت واترخت وتسفولى ولاهاى . وتزعم الأخوة الرهبان الدومينيكان حركة معارضة نشيطة دحضوا فيها آراء خصومهم ، وقال أحدهم إنه يود لو استطاع أن ينشب أسنانه فى زور لوثر ، وإنه لن يتردد فى أن يذهب لتناول العشاء الربانى والدم يلطخ فمه[16] ؛ ورأى الإمبراطور ، وهو لا يزال شاباً ، أن يخمد الهياج بنشر « إعلان ملصوق » بناء على طلب البابا ، يحرم طباعة مصنفات لوثر أو قراءتها ؛ وفى العام نفسه أمر المحاكم العلمانية بتنفيذ منشور ورمس فى سائر أرجاء الأراضى المنخفضة ضد كل من يعرض آراء لوثر . وفى اليوم الأول من يوليو عام ١٥٢٣ أرسل هنرى فوس وجوهان إيك ، وهما راهبان أوغسطيليان إلى المحرقة فى بروكسل ، فكانا أول شهيدين من البروتستانت فى الأراضى المنخفضة . وسجن هنرى الزتفينى ، وهو صديق وتلميذ للوثر ، ورئيس الدير الأوغسطينى فى أنتورب ، وفر ، وقبض عليه فى هولستاين وأحرق هناك (١٥٢٤) وكان تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام بمثابة إعلان لآراء المصلحين الدينيين .

وعلى الرغم من الرقابة فإن ترجمة لوثر للعهد الجديد انتشرت على نطاق واسع ، وتداولها الناس فى هولندا بحماسة أكثر من الفلاندرز الغنية : وكانت هناك أمنية لإعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى ، فنشأ عنها أمل ، بعد مرور ألف عام ، فى عودة المســيح مبكراً ، وإنشاء أورشليم جديدة لا تكون فيها حكومة ، ولا زواج ولا ملكية ، وامتزجت بهذه الأفكار نظريات

شيوعية عن المساواة وتبادل العون بل «والحب الحر[١٧]» ولكونت جماعات تنكر التعميد فى أنتورب وماسترخت وأمستردام . وجاء ملشيور هوفمان من إمدن إلى أمستردام عام (١٥٣١) وأعاد جون الليدنى عام ١٥٣٤ الزيارة يحمل معه عقيدة المنكرين للتعميد من هارلم إلى منستر . وقدر أن ثلثى السكان فى بعض المدن الهولندية كانوا من المنكرين للتعميد ، بل إن العمدة فى ديفنتر تحول لنصرة القضية . وشحذت المجاعة الحركة ، فأصبحت ثورة اجتماعية » وكتب صديق لإرازموس عام ١٥٣٤ يقول « إن اشتعال حماسة المنكرين للتعميد فى هذه المقاطعات يجعلنا نشعر بقلق بالغ لأنه يتصاعد مثل ألسنة اللهب ولا تكاد توجد بقعة أو مدينة لا تتأجج فيها سراً شعلة التمرد[١٨] » . وحذرت مارى المنغارية الإمبراطور ؛ وكانت وقتذاك نائبة له ، من أن الثوار قد وضعوا خطة لانتهاب كل ضروب الملكية من النبلاء ورجال الاكليروس والأرستقراطية التجارية ، وتوزيع الغنائم على كل رجل حسب حاجته[١٩] » وفى عام ١٥٣٥ أرسل جون الليدينى مبعوثين لتدبير ثورة فى نفس الوقت يقوم بها المنكرون للتعميد فى عدة محلات هولندية ، وبذل الثوار جهود الأبطال ، فقـــد استولت جماعة على دير فى فريزلاند الغربية ، وحصنته ، وحاصرهم الحاكم بالمدفعية الثقيلة ، ومات ٨٠٠ وهم يدافعون دفاعاً لا أمل فيه ، (١٥٣٥) وفى ١١ مايو اقتحم بعض المنكرين للتعميد المسلحين قاعة المدينة فى أمستردام واستولوا عليها ، فطردهم سكان المدينة ، ونكلوا بالزعماء ، وانتقموا منهم انتقاماً مُفْزِعاً من رجال مُفَزَّعين ، فاستلت الألسنة ، ومزقت القلوب من أجساد الأحياء ، وألقى بها فى وجوه المحتضرين أو الموتى[٢٠] .

وظن شارل أن ثورة شيوعية تتحدى البناء الاجتماعى بأكمله ، فاستقدم محكمة التفتيش إلى الأراضى المنخفضة ، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل الهرطقات الأخرى ، مهما قضى ذلك على الحريات المحلية . وأخذ

بين عامى ١٥٢١ و ١٥٥٥ يصدر الإعلان الملصق بعد الإعلان ضد الانقسام بين الطبقات الاجتماعية أو الانشقاق الدينى . وقد كشف أعنف هـــذه الإعلانات (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٠) عن تدهور الإمبراطور ، ووضعت الأسس التى قامت عليها ثورة الأراضى المنخفضة ضد ابنه :

لا يحق لأحد أن يطبع أو يكتب أو ينسخ أو يخفى أو يبيع أو يشترى أو يعطى فى الكنائس أو فى الشوارع أو غير ذلك من الأماكن أى كتاب أو رسالة من تأليف مارتن لوثر ، أوجون أو يكولا مباديوس ، أو أولريخ زوينجلى ، أو مارتن بوسر ، أو جون كالفن ، أو غيرهم من الهراطقة ، الذين استهجنت أعمالهم الكنيسة المقدسة . . . ولا يحق له أن يحطم أو يؤذى بأى صورة أخرى تماثيل العذراء المقدسة ، أو القديسين الذين اعترفت بهم الكنيسة . . . وليس له أن يعقد اجتماعات سرية أو اجتماعات غير قانونية ، أو يحضر أى اجتماع من هذه الاجتماعات ، التى يدعو فيها أنصار الهراطقة المذكورين ويعمدون ويدبرون مؤامرات ضد الكنيسة المقدسة والصالح العام . . . . ونحن نمنع جميع الأشخاص العلمانيين من أن يتحدثوا أو يجادلوا فى أمر يتعلق بالكتب المقدسة جهراً أو سراً . . . أو أن يقرأوا أو يعلموا أو يفسروا الكتب المقدسة ، ما لم يكونوا قد درسوا اللاهوت فى حينه ، أو اعترفت بهم إحدى الجامعات المشهورة ، أو يرحبوا بأى رأى من آراء الهراطقة المذكورين . . . وإلا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليها فيما يلى . . . الرجال (تقطع رؤوسهم) بالسيف والنساء يدفن أحياء إذا لم يصررن على أخطائهن ، وإذا أصررن عليها فإنهن يعدمن حرقاً ، وفى كلتا الحالتين تصادر أملاكهن كلها لمصلحة التاج .

وتمنع كل الأشخاص أن يُنْزِلوا عندهم أو يستضيفوا أو يزودوا بالطعام أو الدفء أو الملابس أو يؤيدوا بأية طريقة أخرى أى امرئ يُعْتقد أنه هرطيق ، أو يشتبه فى أن له سمعة سيئة كهرطيق ، وكل من يتخلف

عن التنديد بأى واحد من هؤلاء الذين نأمر بإدانتهم يكون عرضة للعقوبات المذكورة آنفاً ... وكل من يعرف شخصاً موصوماً بالهرطقة يجب أن يبلغ عنه ويسلمه ... ويكون للمبلغ ، فى حالة الإدانة ، الحق فى نصف أملاك المتهم ... ولكى لا يكون لدى القضاء والموظفين أى ذريعة — بحجة أن العقوبات جسيمة جداً وشديدة ، ولم ينص عليها إلا لإثارة الفزع فى قلوب المجرمين — ليوقعوا عليهم عقوبة أقل مما يستحقون (نأمر) بأن يعاقب المجرمون حقاً بالعقوبات التى أعلنا عنها سابقاً ، ونحظر على جميع القضاة أن يغيروا أو يخففوا العقوبات بأية طريقة ، ونحظر على أى أحد ، فى أى ظرف أن يطالب منا ، أو من أى أحد له سلطة ، أن يمنح عفواً عن ، أو أن يقدم التماس فى صالح ، هؤلاء الهراطقة أو المنفيين أو الهاربين ، وإلا تعرض للحكم عليه إلى الأبد بعدم الأهلية لتولى الوظائف المدنية أو العسكرية ، ولأن يعاقب بعقوبة يقضى بها عليه بطريقة تحكمية[٢١] .

وعلاوة على هذا كان يطلب من أى شخص يدخل البلاد المنخفضة أن أن يوقع على تعهد بالولاء للعقيدة المحافظة بحذافيرها[٢٢] .

وتحولت الأراضى المنخفضة عن طريق هذه المنشورات اليائسة ، إلى ساحة قتال بين الشكلين القديم والجديد من المسيحية ، وقدر سفير البندقية فى بلاط شارل أن ٣٠,٠٠٠ شخص ، وهم كل المنكرين للتعميد تقريباً ، هلكوا عام ١٥٤٦ فى هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة[٢٣] ، التى قتل فيها الآمنون من المواطنين ، وخفض تقدير آخر أقل إثارة عدد الضحايا إلى ١٠٠٠٠ شخص[٢٤] ، وبقدر ما كان الهولنديون المنكرون للتعميد مهتمين ، بقدر ما نجحت محكمة التفتيش الكارولينية ، وظل بقية منهم على قيد الحياة فى هولندا بإبداء عدم المقاومة ، وهرب بعضهم إلى إنجلترا ، حيث أصبحوا من أنصار البروتستانتية النشطين فى عهد إدوارد السادس

والبزابث ، وانهارت الحركة الشيوعية فى الأراضى المنخفضة بعد أن روعها الاضطهاد وخنقها الرخاء .

ولكن عندما انحصرت موجة المنكرين للتعميد تدفق نهر من الهوجينوت المطاردين إلى الأراضى المنخفضة من فرنسا ، وجاءو معهم بإنجيل كالفن ، وراقت الحماسة الصارمة القائلة بالحكم الدينى للهرطقة الجديدة ، لمن ورثوا تقاليد المتصوفة وإخوان الحيـــاة المشتركة ، وكان قبول كالفن للعمل باعتباره كرامة بدلا من أن يعد لعنة ، وللثورة باعتبارها بركة بدلا من أن تعد جريمة ، وللنظم الجمهورية باعتبارها أكثر موافقة من الملكية للمطامح السياسية لطبقة رجال الأعمال ، يحتوى على أجزاء تلقى ترحيباً متفاوتاً من كثير من العناصر بين السكان . وما إن حل عام ١٥٥٥ حتى كانت هناك جماعات كالفينية للمصـــلين فى إيبرس وتورناى وفالنسينس وبروجس وغنت وانتورت ، وكانت الحركة تنتشر فى هولندة ويرجع الفضل إلى الكالفينية لا إلى اللوثرية ، أو مذهب المنكرين للتعميد ، فى أن ابن شارل سوف يحصر خلال جيل مرير ، فى صراع قدر له أن يشطر الأراضى المنخفضة إلى قسمين ، ويحرر هولندة من السيطرة الإسبانية ، ويجعلها موطناً وملجأ من أعظم المواطن والملاجئ للفكر الحديث .

وفى عام ١٥٥٥ طرح شارل الخامس كل أحلامه ما عدا حلمه بأن يموت فى طهارة ، وتخلى عن أمله فى قمع البروتستانتية فى ألمانيا والأراضى المنخفضة أو مهادنة الكاثوليكية فى مجلس ترنت ، وتخلى عن طموحه فى زعامة البروتستانت والكاثوليك والألمان والفرنسيين ، فى زحف رائع يقوم به ضد سليمان والقسطنطينية والتهديد التركى للعالم المسيحى . وقد أدى إفراطه فى الطعام والشراب والعلاقات الجنسية وحملاته المنهكة وأعباء منصب واجه صدمة تغيير ثورى إلى تحطيم جسده وتبلد سياسته وتحطيم

إرادته . وكان يشكو من قروح ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، واكتمل فى الخامسة والثلاثين وأصيب وهو فى الخامسة والأربعين بالنقرس والربو وسوء الهضم والتأتأة ، وكان وقتذاك يقضى نصف وقت يقظته فى ألم ، ووجد أنه من الصعب عليه أن ينام ، وكثيراً ما كانت الصعوبة التى يجدها فى التنفس تجعله يجلس منتصباً طوال الليل ، وكانت أصابعه مشوهة بداء المفاصل ، إلى درجة أنه لم يكد يستطيع أن يقبض على القلم ، الذى وقع به على صلح كريبى . وعندما قدم كوليني رسالة من هنرى الثانى ، لم يستطع شارل أن يفتحها إلا بصعوبة وقال متسائلا : « ما رأيك فىّ يا سيدى أمير البحر ؟ ألست فارساً رائعاً يستطيع أن يهاجم ويحطم حربة ، أنا الذى لا أستطيع أن أفتح خطاباً إلا بعد مشقة كبيرة ؟[٣٥] » ولعل قسوته العارضة وشيئاً من الوحشية التى هاجم بها البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة ، ترجع إلى نفاد صبره بسبب آلامه . وأمر بقطع أقدام الأسرى من الجنود الألمان المرتزقة ، الذين حاربوا فى صفوف فرنسا ، على الرغم من أن ابنه الذى قدر له أن يكون فيليب الثانى الصلب الرأى ، طلب لهم الرحمة[٣٦] ، وقد حزن حزناً مريراً دام طويلا لوفاة زوجته الحبيبة إيزابلا (١٥٣٩) ، ولكنه سمح فى حينه بحضور عذارى لا حول لهن ولا طول إلى مخدعه[٣٧] .

ودعا فى خريف عام ١٥٥٥ إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات فى الأراضى المنخفضة ، يوم ٢٥ اكتوبر ، واستدعى إليه فيليب من إنجلترا . وفى قاعة دوقات برابانت الواسعة المغطاة بالسجاجيد فى بروكسل حيث اعتاد فرسان الجزة الذهبية أن يعقدوا اجتماعاتهم ، اجتمع النواب والنبلاء والحكام من سبع عشرة مقاطعة فى نطاق حرس من الجند المدججين بالسلاح . ودخل شارل يستند على كتف وليام أف أورانج ، الذى قدر له أن يكون عدواً لابنه فى المستقبل . وتبعه فيليب مع نائبة الإمبراطور مارى المنغارية ، ثم أمانويل فيليبرت أف سافوى ، ومستشارو الإمبراطور ، وفرسان الجزة

الذهبية ، وكثير من الأعيان الآخرين الذين أقبلت عليهم الدنيا يوماً قبل أن تنساهم . وعندما جلس الجميع نهض فيليبرت وشرح فى إسهاب ووضوح اغتبط لهما شارل ، الأسباب الصحية والعقلية والسياسية التى حدت بالإمبراطور إلى إبداء رغبته فى أن يتنازل عن حكم الأراضى المنخفضة لابنه ؛ ثم وقف شارل نفسه وهو يتكئ من جديد على أمير أورانج الوسيم فارع القامة ، وتحدث ببساطة ، وفى صميم الموضوع ، ولخص كيف ارتقى إلى أن بلغ آفاقاً متسعة من السلطان على التعاقب وتحدث عن ذوبان حياته فى الحكم . وتذكر أنه زار ألمانيا تسع مرات وإسبانيا ستا وفرنسا أربعاً وانجلترا وأفريقية مرتين ، وقام بإحدى عشرة رحلة بالبحر واستأنف كلامه قائلا :

هذه هى المرة الرابعة التى أفكر فيها فى الذهاب لإسبانيا من الآن ... ولم يسبق أن جربت شيئاً سبب لى مثل هذا الألم العظيم .... الذى أشعر به وأنا أفترق عنكم من اليوم دون أن أترك خلفى ذلك السلام والهدوء اللذين طالما رغبت فى تحقيقهما ... ولكنى لم أعد قادراً على مباشرة شئونى دون أن أشعر بتعب شديد يسرى فى بدنى ، وبالتالى ألحق بالدولة الضرر ... وإن ما يتطلبه تحمل المسئولية من اهتمام عظيم ، وما تسببه خور بالغ للعزيمة ، وصحتى التى تدهورت من قبل ، كل هذه لم تعد تترك لى القوة اللازمة للحكم .. وينبغى لى فى حالتى هذه أن أقدم لله والإنسان حساباً خطيراً إذا لم أطر السلطة عن كاهلى ... وأن ابنى ، الملك فيليب قد وصل إلى سن تكفى لأن يكون قادراً على حكمكم ، وهو ، كما أرجو ، أمير صالح لكل رعاياى المحبوبين(٢٨) .

وعندما تهالك شارل متألماً فى مقعده نسى الحاضرون خطاياه واضطهاده وهزائمه ، رثاء لرجل عمل جاهداً مدى أربعين عاما ، حسب ما أملته عليه آراؤه وسمحت به قدرته ، تحت وطأة أثقل الالتزامات فى عصره . وبكى كثير من السامعين . ونصب فيليب رسمياً حاكماً للأراضى المنخفضة ، وحلف

يميناً مغلظة (كما سوف يذكر بها فيما بعد) أن يراعى كل القوانين والحقوق التقليدية للمقاطعات. وفى أوائل عام ١٥٥٦ سلم له شارل تاج إسبانيا، بكل ممتلكاته فى العالم القديم والعالم الجديد، واحتفظ شارل باللقب الإمبراطورى، وكان يأمل أن ينقله لإبنه قريباً، ولكن فرديناند احتج، وفى عام ١٥٥٨ تنازل الإمبراطور عن لقبه لأخيه. وسافر شارل بحراً فى السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٥٦ من فلشنج إلى إسبانيا.

٦ - إسبانيا

١ — ثورة العامة : ١٥٢٠ — ٢٢

كانت نعمة مشكوكاً فيها لإسبانيا أن يصبح الملك شارل الأول (١٥١٦ — ٥٦) الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ — ٥٨)، وولد وتربى فى الفلاندوز: وتعلم مناهج الحياة الفلمنكية، واكتسب الأذواق الفلمنكية، إلى أن تغلبت عليه روح إسبانيا فى سنواته الأخيرة. ولم يكن فى وسع الملك إلا أن يصبح جزءاً صغيراً من الإمبراطور، الذى كان مشغولاً تماماً بالإصلاح الدينى والبابوية وسليمان وبارباروسا وفرانسيس الأول، وشكا الإسبان أنه لم يمنحهم إلا القليل من وقته، وأنه أنفق الكثير من مواردهم البشرية والمادية فى المحلات التى كانت فى الظاهر لا تهم المصالح الإسبانية. وكيف كان فى وسع إمبراطور أن يتعاطف مع نظم جماعية جعلت إسبانيا تتمتع بنصف ديمقراطية، قبل مجئ فرديناند الكاثوليكى، وكانت تتوق كثيراً إلى أن تستعيدها ؟

وقام بأول زيارة لمملكته (١٥١٧) ولم تكسبه حب أحد: وعلى الرغم من مضى عشرين شهراً عليه وهو ملك، فإنه كان لا يزال لا يعرف الإسبانية وكان عزله الفظ لاكسيمينس صدمة للدماثة الإسبانية. وجاء يحيط به فلمنكيون، ظنوا إسبانيا بلداً همجياً تنتظر من يحلبها. وعين الملك البالغ من العمر سبعة عشر عاماً هذه الديدان الطبية فى أعلى المناصب. ولم تخف المجالس التشريعية الإقليمية المختلفة التى يسيطر عليها صغار النبلاء، نفورها وعدم رضاها

عن ملك أجنبى ، ورفض المجلس التشريعى فى قشتالة أن يعترف له باللقب ، ثم اعترف به على كره منه حاكماً ، تشترك معه فى الحكم أمه المعتوهة جوانا ، وجعله يفهم أنه لا بد من أن يتعلم الإسبانية ، ويعيش فى إسبانيا ، وألا يعين مزيداً من الأجانب فى أى منصب . وقدمت المجالس التشريعية طلبات مماثلة . ووسط مظاهر الإذلال التى تعرض لها شارل تلقى أنباء بأنه انتخب إمبراطورا ، وأن ألمانيا كانت تدعوه للحضور لكى يتوج . وعندما سأل المجلس التشريعى فى بلد الوليد (وكانت وقتذاك العاصمة) أن يمول الرحلة منى بالفشل والخيبة ، وساد هرج هدد حياته . وحصل آخر الأمر على المال من المجلس التشريعى فى كورونا وأسرع إلى الفلاندرز . ولكى يجعل الأمور محفوفة بالمخاطر أضعافاً مضاعفة أرسل نواباً corregidores لحماية مصالحه فى المدن ، وترك مربيه السابق أدريان كاردينال أترخت نائباً له فى إسبانيا .

وثارت البلديات الأسبانية واحدة وراء الأخرى فى « ثورة أعضاء الكومون » ونفوا النواب الـ corregidores وقتلوا بعض النواب الذين صوتوا بالموافقة على منح أموال لشارل ، وتحالفوا فيما يعرف باسم Santa Communidad الذى تعهد بالإشراف على الملك . وانضم النبلاء ورجال الكنيسة وأوساط الناس إلى الحركة ونظموا فى أفيلا (أغسطس سنة ١٥٢٠) الـ Santa Iunta أو الاتحاد المقدس ليكون بمثابة حكومة مركزية . وطالبوا بضرورة اشتراك المجالس التشريعية مع المجالس الملكية فى اختيار نائب الملك ، وعدم شن حرب بغير موافقة المجالس التشريعية ، وألا يحكم المدينة النواب بل يحكمها قضاة ، أو عمد يختارهم المواطنون[٢٩] . ودافع أنطونيو دى أكونيا أسقف سمورة علنا عن قيام جمهورية ، وحول أتباعه من رجال الاكليروس إلى محاربين ثوريين ، وقدم موارد أسقفية للثورة . وعين جوان دى بادیلا ، وهو نبيل من طليطلة ، قائدا لقوات الثوار . فقادها لتستولى على نورديسيلاس ، وأخذ جوانا لا لوكا رهينة ،

وحثها على أن توقع وثيقة ، تخلع فيها شارل ، وتعين نفسها ملكة ، وكانت عاقلة فى جنونها ، فرفضت .

ولم يكن لدى أدريان ما يكفى من الجند لقمع الثورة ، فاستغاث بشارل وطلب منه العودة ، وألقى تبعة قيام الثورة صراحة على تحكم الملك وحكمه الغيابى . ولم يحضر شارل ، ولكنه وجد هو أو مستشاروه سبيلا لإشاعة الانقسام والانتصار ، فقد حذر النبلاء أن الثورة كانت تهديدا لطبقات أصحاب الأملاك وللتاج على السواء ، والحق أن الطبقات العامة ، التى ظلمت منذ عهد بعيد بالأجور الثابتة ، والعمل سخرة ، وتحريم الاتحاد ، كانت قد استولت من قبل على السلطة فى عدة مدن ، وفى بلنسية والمنطقة المجاورة لها قبض الجرمانيا Germania أو إخوة أبناء الطوائف الحرفية على الزمام ، وسيطروا على لجان العمال ، وكانت هذه الدكتاتورية البروليتارية نقية على غير العادة ، وفرضت على آلاف المغاربة الذين ظلوا فى المقاطعة أن يختاروا بين التعميد والموت ، وقتل آلاف من الذين رفضوا فى عناد[٣٠] ، وثار العامة فى ماجوركا ، الذين عاملهم سادتهم كالعبيد ، ثورة مسلحة ، وخلعوا الحاكم المعين من قبل الملك ، وذبحوا كل نبيل لم يستطع أن يفلت منهم ، وتخلت كثير من المدن عن روابطها مع الإقطاعيين ومستحقاتها لهم ، وفى مدريد وسجونزا ووادى الحجارة أقصت الحكومة البلدية الجديدة كل النبلاء والأعيان من المناصب ، وقتل الأشراف هنا وهناك ، وفرض الاتحاد Junta ضرائب على أملاك النبلاء السابق إعفاؤها . وأصبح النهب عاماً ، وأحرق العامة قصور النبلاء وذبح النبلاء العامة . وانتشر الصراع بين الطبقات فى أرجاء إسبانيا .

وقضت الثورة على نفسها بالتوسع فى أهدافها ، توسعاً جاوز حدود طاقاتها ، وانقلب عليها النبلاء ، وحشدوا قواتهم ، وتعاونوا مع قوات الملك ، واستولوا على بلنسية ، وأطاحوا بالحكومة البروليتارية ، بعد أيام سقط فيها

قتلى من الجانبين (١٥٢١) ، وانقسم جيش الثوار ، عند ما بلغت الأزمة ذروتها ، إلى فرقتين متنافستين بقيادة باديلا ودون بدرو جيرون ، وانقسمت الجماعة السياسية إلى أحزاب ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، وواصلت كل مقاطعة ثورتها ، دون تآزر مع باقى المقاطعات .

وانطلق جيرون ، وانضم إلى الملكيين الذين استولوا من جديد على تورديسلاس وجوانا . أما جيش باديلا الذى تضاءل عدد جنوده فقد هزم هزيمة منكرة فى فيلالار ، وأعدم باديلا . وعند ما عاد شارل إلى إسبانيا (يوليو سنة ١٥٢٢) ومعه ٤٠٠٠ جندى ألمانى ، كان النبلاء قد فازوا بالنصر ، وقد أضعف النبلاء والعامة بعضهم بعضاً إلى حد أنه استطاع أن يتغلب على البلديات والطوائف الحرفية ، ويروض المجالس التشريعية ، ويوطد أركان ملكية تكاد تكون مطلقة . وقد قمعت الحركة الديمقراطية تماماً بحيث ظل كل العامة الإسبان خائفين خاضعين ، حتى القرن التاسع عشر . وخفف شارل سلطته بالدماثة ، وأحاط نفسه بالنبلاء ، وتعلم الحديث بلغة إسبانية سليمة ، وسرت إسبانيا عند ما علق قائلا إن الإيطالية هى اللغة اللائقة لكى تتحدث بها النساء ، والألمانية هى لغة الأعـــداء ، والفرنسية لغة الأصدقاء ، والإسبانية لغة الرب[31] .

٢ — البروتستانت الإسبان

لم تكن هنا إلا قوة واحدة تستطيع أن تتحدى شارل — هى الكنيسة — وكان نصيراً للكاثوليكية ، ولكنه مناهض للبابوية . وسعى ، مثل فرديناند الكاثوليكى ، إلى جعل الكنيسة الإسبانية مستقلة عن البابوات ونجح فى هذا إلى حد أن التعيينات فى مناصب الكنيسة ودخول الكنيسة إبان حكمه كانت فى يديه ، واستخدمت لرفع شأن السياسة الحكومية . ولم تكن هناك حاجة للإصلاح الدينى فى إسبانيا ، كما هو الحال فى فرنسا ؛ لكى تتبع الكنيسة

للدولة . ومع ذلك فإن الحماسة للعقيدة المحافظة الإسبانية ، إبان نصف مدة حكمه ، التى قضاها فى مملكته ، استحثته إلى حد أنه فى سنواته الأخيرة لم يكن هناك أمر (باستثناء قوة آل هابسبرج) يهمه أكثر من قمع الهرطقة .

وبينما حاول البابوات أن يخففوا من وطأة محكمة التفتيش فإن شارل أيدها حتى وفاته . وكان مقتنعاً بأن الهرطقة فى الأراضى المنخفضة كانت تؤدى بها إلى الفوضى والحرب الأهلية ، وصمم على أن يمنع حدوث مثل هذا التطور فى أسبانيا

وأخمدت محكمة التفتيش الإسبانية سورة غضبها ، ولكنها مدت رقعة اختصاصها القضائى فى عهد شارل . فاضطلعت بعبء الرقابة على المصنفات ، وقامت بتفتيش كل مخزن للكتب ، وأمرت بإحراق الكتب الموصـــومة بالهرطقة[٣٢] . واستقصت حالات الانحراف الجنسى وعاقبت عليها : ووضعت قواعد نقاء الدم **Limpieza** ، التى أغلقت كل طرق التميز أمام ذرية المتحولين إلى غير دينهم **Conversos** وكل من عاقبتهم المحكمة . وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلاتهم المباشرة بالله أعفتهم من حضور الصلاة فى الكنيسة ، وأضفى آخرون على حالات وجدهم الصوفى طعماً جنسياً مشبوهاً ، وأعلن الواعظ العلمانى بدرو رويز دى الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الأخ الراهب فرانسيسكو أورتيز مفسرا أنه عند ما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب خطيئة من خطايا الجلس ، بل ينعم بمتعة روحية[٣٣] . وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين **Alumbrados** واحتفظت بأقسى إجراءاتها ضـــد البروتستانت فى إسبانيا .

وكما حدث فى شمالى أوروبا وقعت مناوشـــة إرازمية قبل معركة البروتستانت ، وهتف بعض رجال الكنيسة المتحررين استحساناً لانتقادات علماء الإنسانيات لأخطاء رجال الإكليروس ، ولكن إكسيمنيس وآخرين

كانوا قد قوموا من قبل المظالم البارزة أكثر من غيرها ، قبل مجيء شارل .
ولعل اللوثرية كانت قد تخللت أرض إسبانيا مع الألمان والبلجيكيين المتكلمين بالفلمنكية فى الحاشية الملكية . وأدانت محكمة التفتيش ألمانيا فى بلنسية عام ١٥٢٤ ، لأنه جاهر بالتعاطف مع لوثر ، وحكم على فلمنكى بالسجن مدى الحياة عام ١٥٢٨ ، لتشككه فى المطهر وصكوك الغفران ، وأحرق فى المحرقة فرانسيسكو دى سان رومان ، أول من عرف من اللوثريين الإسبان عام ١٥٤٢ ، بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيوفهم . واعتنق جوان ديازاف كوينكا ، الكالفيلية فى جينيف ، فاندفع أخوه ألفونسو من إيطاليا ليحوله مرة أخرى إلى العقيدة المحافظة ، وعند ما فشل الفونسو عمل على قتله (١٥٤٦)[٣٤] وسجن جوان جيل ، أو أجيديو ، وهو كبير قساوسة متعلم فى أشبيلية ، لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور والصلاة للقديسين وفاعلية الأعمال الصالحات فى الفوز بالخلاص . ونبشت عظامه بعد وفاته وأحرقت ، وواصل رفيقه كبير القساوسة كونستانتينو بونس ديلافوينتى ، دعايته ، ومات فى سجون محكمة التفتيش . وأحرق أربعة عشر من زملاء كونستانتينو ، ومنهم أربعة رهبان وثلاثة نساء ، وحكم على عدد كبير بعقوبات مختلفة ، ودك البيت الذى اجتمعوا فيه حتى سوى بالأرض .

وتطورت جماعة نصف بروتستانتية أخرى فى بلد الوليد ، وهنا تورط نبلاء من ذوى النفوذ ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة . ووُشِى بهم لمحكمة التفتيش ، وقبض عليهم جميعاً تقريباً وحكم عليهم بالإدانة ، وحاول البعض مغادرة إسبانيا فقبض عليهم وأعيدوا . وكان شارل الخامس وقتذاك يستجم فى يوستى ، فأوصى بعدم إظهار أية رحمة فى معاملتهم ، وقطع رأس التائبين وإحراق من يرفضون التوبة . وفى يوم أحد الثالوث الموافق ٢١ مايو سنة ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهلل[٣٥] . وتراجع الجميع عما قالوا إلا واحداً ، وعوملوا برفق ، وقطعت رءوسهم . أما أنطوليو

دى هرزويلو الذى رفض التوبة فقد أحرق حياً . وسمح لزوجته ليونور دى سيزنيروس البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً بالسجن مدى الحياة : وبعد أن أمضت عشر سنوات فى السجن، عدلت عن انكارها لما قالت ، وجاهرت بهرطقتها ، وطلبت أن تحرق حية مثل زوجها فأجيبت إلى ملتمسها(٣٦) . وعرض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٥٥٩ ، أمام حشد مكون من ٢٠٠٠٠٠ شخص ، يرأسه فيليب الثانى : وحرقت ضحيتان وهما حيتان وخنق عشرة :

وكان بارتلومى دى كارانزا ، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة إسبانيا ، أشهر فريسة وقعت فى براثن محكمة التفتيش فى هذه الفترة . وكان باعتباره من الدومينيكان قد قام بنشـــاط كبير فى مطاردة الهراطقة والإيقاع بهم ، وعينه شارل مبعوثاً له فى مجلس ترنت ، وأرسله إلى إنجلترا لحضور زواج فيليب والملكة مارى . وعندما انتخب رئيساً للأساقفة (١٥٥٧) كان الاختيار بالإجماع ما عدا صوته . ولكن بعض « البروتستانت » الذين قبض عليهم فى بلد الوليد شهدوا بأن كارانزا كان قد تعاطف سراً مع آرائهم ، ووجد أنه كان قد راسل المصلح الدينى الإسبانى الإيطالى جوان دى فالديس ، واتهمه عالم للاهوت ذو النفوذ ملشيور كانو بأنه كان يعضد العقيدة اللوثرية فى التزكية بالإيمان : ولم يقبض عليه إلا بعد سنتين من ارتفاع شأنه ووصوله إلى أعلى منصب كنسى فى إسبانيا ، ونستطيع أن نحكم من هذا على مدى قوة محكمة التفتيش . وظل سبعة عشر عاماً معتقلا فى سجن أو غيره ، بينما كانت تصرفاته فى حياته ورسائله تتعرض للفحص والاستقصاء فى طليطلة وروما . وأعلن جريجورى الثالث عشر أنه « مشتبه فيه بشدة » بالهرطقة وأمره بأن ينكر ستة عشر ادعاء ، وأوقفه لمدة خمس سنوات عن مباشرة وظيفته : وتقبل كارانزا الحكم فى ذلة ، وحاول أن

يؤدى الكفارات التى فرضت عليه ، ولكنه مات فى خلال خمسة أسابيع بعد أن أنهكه السجن والإذلال (١٥٧٦) .

وبموته زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا ، وحدث أن أعدم حوالى ٢٠٠ شخص بين عامى ١٥٥١ و١٦٠٠ ، لما نسب إليهم من هرطقات بروتستانتية — أى بواقع أربعة أشخاص كل عام . وقد تجمد طوع الناس ، الذى كان قوامه من كراهية المغاربة واليهود ، التى تأصلت جذورها قروناً طويلة ، فى عقيدة محافظة لا تتزعزع ، وامتزجت الكاثوليكية وحب الوطن ، ووجدت محكمة التفتيش أن من اليسير أن تسحق ، فى خلال جيل أو جيلين ، المغامرة الإسبانية العابرة التى اتسمت بفكر مستقل .

٣ — الإمبراطور يموت : ١٥٥٦ — ٥٨

قام شارل الخامس فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٥٦ بالدخول إلى إسبانيا لآخر مرة . واستغنى فى برجوس عن خدمات معظم الذين كانوا قد عملوا معه ومنحهم مكافآت ، وودع شقيقتيه ، مارى الهنغارية واليونورا ، أرملة فرانسيس الأول ، وأبديا رغبتهما فى مشاركته اعتزاله فى الدير ، ولكن القواعد منعتهما ، فاتخذا لهما مسكنا فى موضع لا يبعد كثيراً عن هذا الشقيق الذى يبدو أنه لم يكن هناك من يحبه وقتذاك سواهما . وبعد أن أقيمت له عدة احتفالات فى الطريق ، وصل قرية جوانديلا فى وادي بلازنسيا ، على مسيرة نحو ١٢٠ ميلا غربى مدريد . ولبث هناك عدة شهور ، ريثما أكمل العمال الحجرات التى أمر بتجهيزها وتأثيثها فى دير يوستى (سانت جوستوس) على مسيرة ستة أميال . وعندما قام بالمرحلة الأخيرة من رحلته (٣ فبراير سنة ١٥٥٧) ، لم ينتقل إلى خلوة فى دير بل إلى قصر ريفى فسيح ، اتسع لإقامة المقربين من تابعيه الخمسين . وابتهج الرهبان بوجود ضيف عظيم مثله ، بيد أنهم اكتأبوا عندما

وجدوا أنه ليس لديه النية فى أن يشاركهم حيتهم ونظامهم ، فقد كان يأكل ويشرب كميات كبيرة ، كما كان يفعل من قبل — أى بإفراط ه وكانت عجات السردين وسجق الاسترمادورا وفطائر ثعبان السمك ، ولحم الحجل المملح والديوك الخصية السمينة وأنهار من النبيذ والجعة ، تختفى فى كرشه الإمبراطورى ، واضطر أطباؤه إلى أن يصفوا له كميات كبيرة من السنامكى والراوند للتخلص من الزيادة فى وزنه ؛

وبدلا من أن يتلو شارل تسابيحه وأوراده ومزاميره كان يقرأ رسائل من ابنه أو يملى رسائل له ، وكان يعرض عليه النصيحة فى كل وجه من وجوه الحرب واللاهوت والحكم ه وأصبح فى العام الأخير من عمره متعصباً متطرفاً قاسياً ، وأوصى بتوقيع عقوبات وحشية « لاستئصال جذور » الهرطقة ، وأسف لأنه كان قد سمح للوثر بالهرب منه فى ورمس ، وأمر بجلد أى امرأة مائة جلدة إذا اقتربت من أســوار الدير قاب قوسين أو أدنى(٣٧) ه وراجع وصيته لكى ينص فيها على إقامة ٣٠٫٠٠٠ قداس من أجل طمأنينة روحه ؛ ويجب ألا نحكم عليه من أعماله فى أيام الشيخوخة هذه ، ولعل لوثة خبل قد انتقلت إليه بالوراثة من أمه ؛

وفى أغسطس عام ١٥٥٨ انقلب النقرس الذى يشكو منه إلى حمى ملتهبة . وعاودته هذه بصورة متقطعة ، وأخذت تشتد يوماً بعد يوم ، وظل شهراً يتعذب بكل آلام النزع الأخير قبل أن تزهق روحه (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨) ؛ وفى عام ١٥٧٤ أمر فيليب بنقل الجثــة إلى الاسكوريال حيث يرقد تحت نصب تذكارى فخم .

وكان شارل الخامس أكبر فاشل فى عصره ، بل إن فضائله كانت أحياناً بؤساً وشقاء للإنسانية . ومنح إيطاليا السلام ، ولكن لم يتم هذا إلا بعد مرور عقد من الزمان ، تعرضت فيه للتخريب ، وبإخضاعها

هى والبابوية لإسبانيا ، وجف عود النهضة الإيطالية تحت رئاسته الكثيبة ، وهزم فرانسيس وأسره ، ولكن ضاعت منه فى مدريد فرصة ملكية ليبرم معه معاهدة كانت حرية بأن تنقذ ماء كل الوجوه ومائة ألف روح ، وعاون فى إعادة سليمان إلى بلاده فى فيينا ، وصد بربروسا فى البحر الأبيض المتوسط ، وقوى مركز آل هابسبورج ، ولكنه أضعف الإمبراطورية ، وفقد اللورين وسلم بورغنديا ، وأحبط أمراء ألمانيا محاولة لتركيز السلطة هناك ، وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عهده نسيجاً واهياً ، تنتظر نابليون ليحكم بإعدامها . وفشلت جهوده لسحق البروتستانتية فى ألمانيا ، وترك الأسلوب الذى انتهجه فى قمعها فى الأراضى المنخفضة تراثاً محزناً لابنه ، وكان قد وجد المدن الألمانية مزدهرة وحرة ، وتركها ترزح ألماً تحت وطأة إقطاع رجعى . وعندما جاء إلى ألمانيا كانت تنبض بالحياة ، فيها أفكار ونشاط تبز بهما أية أمة أخرى فى أوروبا وعندما تنازل عن عرشه كانت ضعيفة واهنة روحياً وفكرياً ، وظلت جدباء مدى قرنين . وكانت السياسة التى انتهجها فى ألمانيا وإيطاليا سبباً واهيا لما لحقهما من ضعف ، أما فى إسبانيا فكان عمله هو الذى سحق حرية البلديات وقوتها ، وكان حريا بأن يبقى إنجلترا فى حظيرة الكنيسة بإقناع كاثرين أن تسلم بحاجة هنرى إلى وريث ، وبدلا من أن يفعل ذلك أجبر كليمنت على اتخاذ موقف فيه تذبذب ، يؤدى إلى الخراب .

ومع ذلك فإن استبصارنا المتأخر هو الذى يرى أخطاءه وجسامتها ، وفى وسع حسنا التاريخى أن يصفح عنها باعتبارها متأصلة بجذورها فى قيود بيئته العقلية وفى أوهام العصر العاتية . وكان أقدر سياسى بين معاصريه ، ولكنه لم يكن كذلك إلا بمعنى أنه عالج بشجاعة أعمق موضوعات النزاع فى أوسع مدى وصلت إليه . وكان رجلا عظيما حطت من شأنه مشكلات عصره وحطمته .

ونفذت إلى حكمه الطويل حركتان أساسيتان . وكانت أعظمهما نمو القومية فى عهد ملكيات تنزع إلى المركزية ، وفى هذه لم يكن له فيها نصيب . وأعظمها من الناحية الدرامية ثورة دينية ، حفزت إليها الانقسامات والمصالح القومية والإقليمية . وقبلت شمالى ألمانيا واسكنديناوة اللوثرية ، أما جنوب ألمانيا وسويسرة والأراضى المنخفضة فقد انقسمت إلى طائفتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وأصبحت إسكوتلندة كالفينية مشيخية ، وإنجلترا كاثوليكية إنجيلكانية أو بيوريتانية كالفينية . وظلت إيرلندة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال موالية لبابوية بعيدة أو مهذبة . ومع ذلك نشأ تكامل واه ، وسط ذلك الانقسام المزدوج : فقد وجدت الولايات المستقلة المعتزة بنفسها أنها فى حاجة إلى بعضها البعض ، لضمان استقلالها ، كما لم يحدث من قبل ، وأنها مرتبطة بصورة متزايدة فى نسيج اقتصادى ، وأنها تؤلف مسرحاً رحيباً لمناهج سياسية متشابكة العلاقات ، وحروب وقانون بأدب وفن . كانت أوروبا التى عرفها شبابنا تتخذ شكلها .



المراجع

NOTES

مراجع فصل ٢١ من الجزء الرابع والعشرين

CHAPTFR XXI

1. Cath. En. III, 196.
2. Beza in Schaff, *Swiss Ref* 302.
4. Calvin *Institutes*, Preface, 20-2, 39-40.
5. *Institutes*, I, viii, 1.
6. Ibid., II, v., 19.
7. Ephesians, i, 3-7.
8. *Institutes*, III, xxi-xxii.
9. Romans, ix, 15.
10. *Institutes*, II, xxi, 7.
11. Consensus Genevensis in Schaff. *Swiss Ref.*, 554.
12. *Institutes*, III, xxi, 1.
13. Ibid.
14. III, xxiii, 7.
15. IV, i, 10.
16. IV, i, 4.
17. Allen, *Political Thougbt*, 61; Hearnshaw, *Tbinkers of tbe Renaissance and tbe Reformation*, 211.
18. *Institutes*, IV, xix, 3.
19. III, xxi, 1.
20. Schaff, 558.
21. *Institutes*, III, ix, 4.
22. Ibid.
23. III, ix, 6.
24. For : La Tour, IV, 32, and *Camb. Mod. Hy*, II, 258 ; against : Cath. En., III. 196a.
25. *Cvmb. Mod. Hy*, II, 360.
26. Robinson, *Readings*, 299.
27. Schaff, 361.
28. Ibid., 414.
29. 412.
30. 426.
31. 437.
32. Robinson, *Readings*, 300.
33. La Tour, IV, 178.
34. Villari, *Savonarola*, 491.
35. Schaff, 492.
36. Beard, *Tbe Reformation*, 250.
37. Ibid., Schaff, 491.
38. Ibid., 492.
39. O'Brien, *Economic Effects*, 101.
40. As by Weber, Max, *Tbe Protestam Ethic and tbe Spirit of Capitalism, passim*; Barnes *Economic Hy of tbe Western orld*, 201-2 ; and O'Brien, 124.
41. *Institutes*, III, vii, 5.
42. Cf. O'Brien. 100.
43. Ibid., 20.
44. Tawney, 119.
45. Barnes, *Economic History*, 201.
46. Schaff, 644.
47. Beard, *Tbe Reformation*, 252; Muir, *Jobn Knox*, 108.
48. Smith, *Reformation*, 174.
49. Scchaff 519.
50. Ibid., 839.
51. La Tour, IV, 206.
52. Schaff, 739.
53. La Tour, IV, 200 ; Schaff, 594.

54. Schaff, 618.
55. Ibid., 502.
56. Robertson, J.M. *Freetbougbt*, I, 443-4.
57. Servetus, *De Trinitatis erroribus*, i, 94b. in Bainton, *Hunted, Heretic*, 48.
58. Servetus, ibid., i, 34 ; Newman, L, I., *Jewisb Influence on Cbristian Reform Movements*, 584.
59. Bainton, *Hunted Heretic*, 144.
60. Ibid.
61. ibid., 147.
62. Schaff, 733.
63. Bury, J. B., *History of Freedom of Tbougbt*, 64.
64. Schaff, 770.
65. Ibid., 764, 773; Bainton, 191.
66. Bainton, 188.
67. Schaff, 777.
68. Ibid., 778.
69. Bainton, 185.
70. Ibid., 209-11 ; Schaff, 710, 781-4.
71. Schaff, 784.
72. Walker, *Jobn Calvin*, 425.
73. Schaff, 707-8.
74. Ibid.
75. 709.
76. In Allen, *Political Tbougbt*,
77. Castellio in Allen, 90-4 ; Haydn, *Counter-Renaissance*, 104.
78. In Allen, 98.
79. *Time* magazine, Fed, 22, 1954.
80. Schaff 652n.

CHAPTER XXII

1. In Lacroix, *Prostitution* ; II 1142.
2. Ibid., 1141.
3. 1130.
4. Taylor, R., *Leonardo*, 444.
5. Sichel, *Catberine de' Medici and tbe 'Frencb Reformation*, 38.
6. Erasmus, *Colloquies*, II, 54.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 468.
8. Michelet, III, 175.
9. E.g., Aretino, *La cortigiana*, in *Dialogues*, 228.
10. Batiffol, *Century of tbe Renaissance*, 44.
11. Lacroix, *Prostitution*, II, 1131'
12. Cellini, *Au ograpby*, ii, 10.
13. Guizot, *Hy of France*, III, 81.
14. Ibid., Michelet, III, 218.
15. Michelet, III, 148.
16. Sichel, *Women and Men of tbe Frencb Renaissance*, 87.
17. Ibid .
18. Michelet, III, 135.
19. Sichel, *Women*, 193.
20. Faguet, *Literary History of France*, 281.
21. Margaret, Queen of Navarre, *Heptameron*, xli.
22. In Maulde, 354.
23. Margaret, *Heptameron*, 36.
24. In Maulde, 53.
25 Ibid .,297
26. In Sichel, *Women*, 1[illegible]
27. Ibid., 371.
28. 180.
29. Boyd, *Frencb Renoissance*, 25.
30. Sichel, *Catberine de' Medici and tbe Frencb Reformation*, 138.
31. Sichel, *Women*, 104.
32. Michelet, III, 136.
33. *Camb. Mod. Hy*, I, 659.
34. Ibid.

35. Lacroix, *Prostitution*, II, 1247.
36. Margaret, *Heptameron*, Tale 22.
37. Ibid., xlii.
38. In Guizot, III, 187.
39. Ibid., 196.
40. 197.
41. Roeder, *Catberine de' Medici*, 54.
42. La Tour, II, 237 f.
43. Michelet, III, 216.
44. Guizot, III, 216.
45. Schaff, *Swiss Reformation*, 320.
46. Ibid., 320 ; La Tour, II, 556-7.
47. Sichel, *Women*, 18.
48. Guizot, III, 220.
49. La Tour, II, 612.
50. Micheler, III, 319 ; Guizot, III, 229 ; *Camb Mod. Hy*, II, 289.
51. Guizot, III, 15.
52. Ibid., 73.
53. Ibid., 91 : Michelet III, 239.
54. Guizot., III, 95.
55. Ibid., 91.
56. Michelet, III, 244.
57. Robertson, W., *Cbarles* 538.
58. Guizot, III, 105-6.
59. Ibid., 116.
60. *Camb. Mod. Hy*, III, 105.
61. Guizot, III, 129 ; Robertson, *Cbarles V*, II, 57-60.
62. Michelet, III, 316 ; *Camb. Mod. Hy*, II, 77.
63. Janssen, VI, 358.
64. Michelet, III, 293-4.
65. Hackett, *Francis I*, 428.
66. Brantôme in Guizot, III, 192.
67. Sichel, *Catberine*, 51.
68. D'Orliac, *Tbe Moon Mistress*, 186.
69. Janssen, VI, 359.
70. Michelet, III, 366.
71. Guizot, III, 281.
72. Pastor, XII, 486.
73. Batiffol, 175.
74. Robertson, *Cbarles V*, II, 351.
75. Guizot, III, 261.

CHAPTER XXIII

1. Pollard, *Henry VIII*, 39.
2. Froude, *Erasmus*, 142.
3. Chambers, *Tbomas More*, 99.
4. Erasmus, *Epistles* I, 457.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 30 ; Ep. 447 in Froude, *Erasmus*, 107.
6. Seebohm, *Oxford Reformers* 261-6.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 546.
8. Guicciardini, VIII, 126.
9. Pollard, 67.
10. Creighton, *Cardinal Wolsey*,
11. Gasquet, *Aenry VIII and tbe Englisb Monasteries*, I, 69.
12. Robinson, J. H., *Readings*, 303.
13. Burnet, *History of tbe Reformation*, I, 6.
14. Chambers, *More*, 158; Hugghes, *Reformation*, I, 80.
15. Ibid.
16. Creighton, *Wolsey*, 59.
17. Burnet, I, 15.
18. Lingard, IV, 192.
19. Robinson, *Readings*, 303.
20. Pollard, 110.
21. Robinson, l. c.
22. Lingard, IV, 193 ; Chamb-

ers, *More*, 173-4 ; Hughes, I, 109.
23. Froude. *Henry VIII*, I, 60 ; but cf. Hughes, I, 58 f.
24. Hughes, I, 103n.
25. Belloc, *How the Reformation Happened*, 117.
26. Seebohm, 203-46.
27. Coulton, *Panorama*, 718.
28. Froude, *Henry VIII*, II, 114-5.
29. Hughes, I, 49-50.
30. Froude, I, 350.
31. Hughes, I, 50-66.
32. Oasqucet, *Monasteries*, II, 237 ; Trevelyan, *English Social Hy*, 73.
33. Ibid.
34. Hughes, I, 57-8.
35. Coulton, *Panorama*, 554.
36. Hughes, I, 150.
37. Ibid., 127-9.
38. 202.
39. Smith, *Luther*, 193.
40. Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 143; Oasquet, *Eve*, 213.
41. *Camb. Mod. Hy*, I, 640.
42. Beard, *Reformation*, 305.
43. Ibid.
44. Hughes, I, 146.
45. Froude, I, 319, 336.
46. Burnet, I, 16.
47. Oasquet, *Monasteries*, I, 85-8.
48. Froude, I, 81.
49. Burnet, I, 26.
50. Hughes, I, 67-70.
51. Pollard, 174.
52. Burnet, I, 27.
53. Pollard, 76, 176.
54. Froude, I, 74n.
55. Pollard, 183.
56. Ibid, 135.
57. Froude, *Divorce of Catherine of Aragon*, 47.
58. Pastor, X, 241.
59. Froude, *Divorce*, 47.
60. *Camb. Mod. Hy*, II, 431.
61. Pastor, X, 244.
62. Pollard, 207.
63. Ibid., 208.
64. Pastor. X, 257-8 ; Hughes; I, 175-9; Acton, 139.
65. Hughes, I, 176.
66. Pastor, X, 267.
67. Pollard, 225.
68. Burnet, I, 55.
69. Froude, *Reign of Elizabeth* III, 259.
70. Froude, *Divorce*, 190.
71. Hughes, I, 181.
72. Oavendish, *Life of Wolsey*, in Froude, *Henry VIII*, III, 115.
73. Creighton, *Wolsey*, 186.
74. Pollard, 223-4.
75. Creighton, 185.
76. Burnet, I, 61.
77. Creighton, 194.
78. Froude, *Divorce*, 138.
79. Creighton, 205.

CHAPTER XXIV

1. Froude, *Divorce*, 166, 81.
2. Pollard, 250-1.
3. Trevelyan, *Social Hy*, 102.
4. Pollard, 237.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 128-35.
6. Ibid., 139.
7. 162.
8. Sichel, *Women*, 176.
9. Lingard, IV, 273.

10. Prescott, H. F., *Mary Tudor,* 38.
11. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters,* 77.
12. Froude, *Henry, VIII,* I, 218.
13. Ibid., 265.
14. Pollard, 187.
15. Ibid., 300.
16. Gasquet, *Monasteries,* I, 122, 129, 134 f.
17. Pollard, 304-5.
18. Chambers, *More,* 323. 326; Lingard. IV, 19.
19. Froude, *Henry VIII,* II, 82.
20. Burnet, I, 123 5.
21. Erasnus, *Epistles,* II, 186.
22. Pollard, 305; Eroude, *Council of Trent,* 116-7.
23. Chambers, *More,* 334.
24. Prescott. *Mary Tudor,* 60.
25. Roper, *More,* 46.
26. Hughes, I, 345.
27. Cf., e.g., Chambers, *More,*
28. Erasmus, *Epistles,* II, 427.
29. Jusscrand, *Wayfaring Life,*
30. Froude, *Erasmus,* 103-7 ; Chambere, *More,* 75.
31. Chapiro, 36.
32. Erasmus, *Epistles,* II, 423.
33. Chambers,
4. More, *Utopia,* 168.
35. Ibid., 213.
36. 247.
37. Ibid.
38. 303.
39. 322-5.
40. 323.
41. 320.
42. 335.
43. 290-1.
44. 215, 347, 209.
45. 178-9.
46. 343-4.
47. Froude, *Hery VIII,* I, 347.
48. Chambers, *More,* 276.
49. Ibid., 281.
50. Cf. Coulton, *Panorama* 709.
51. More, *English Works,* 586, in Taylor, *Thought and Expression,* II, 68.
52. Roper, 89.
53. Ibid., 109.
54. Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance,* 146.
55. Roper, 126.
56. Chambers, *More,* 349.
57. Froude, *Henry VIII,* II, 95.
58. Erasmus, Letters of Aug. 24 and 31, 1535.
59. Roper, 127.
60. Chambers, 277.
61. Burnet, I, 143.
62. Presoti, *Mary Tudior,* 50 ; Ponard 304.
63. Froude, *Henry VIII,* II, 142.
94. Burnet, I, 143.
65. Prescott, *Mary,* 70.
66. Pollard, 343.
67. Ibid.
68. Froude, *Henry VIII,* II, 159.
69. Lingard, V, 37,
70. Froude, II, 171.
71. Pollard, 346.
72. Ibid., 305.
73. Froude, *Henry VIII,* III, 26n.
74. Ibid., II, 204.

CHAPTER XXV

1. C. R. Beazley in Traill, *Social Englnd,* III, 49.
2. Gasquet, *Eve,* 397-0.
3. Montesquieu, *Spirit of Laws,* xii, 10.
4. Froude, *Henry VIII,* II, 116.

5. Ibid , 240.
6. Pollard, 337; Gasquet, *Monasteries*, I, 254-336.
7. Pollard, 339.
8. Froude, II, 119-26.
9. Ashley, *Economic Hy*, II, 213.
10. Gasquet, I, 341-3.
11. Ibid., 291-5.
12. Froude, II, 240.
13. Gasquet, II, 82.
14. Ibid., II, 82.
15. Froude, II, 56.
16. Gasquet, I, 363 ; II, 33, 323.
17. Ibid., II, 336-7, 438.
18. Hughes, I, 328.
19. Gasquet, II, 447-8.
20. Traill, III, 129.
21. Salzman, *English Industries*, 232; *Camb. Mod. Hy*, II, 467.
22. Lecky, *Rationalism*, II, 126 ; Ashley, II, 316; Trevelyan, *Social Hy*, 112.
23. Traill, III, 128.
24. D'Alton, E. A., *Hy of Ireland*, II, 382-7 ; Joyce, *Short Hy of Ireland*, 317.
25. D'Alton, 530 f. ; Froude, *Henry VIII*, III, 166.
26. Pollard, 438.
27. Froude, III, 280.
28. Pocock in *English Historical Review*, Vol, X, p, 421.
29. Froude, III, 280.
30. Id , II, 353.
31. III, 23-4; Pollard, 399-1.
32. Lingard, V, 73-4 ; Pollard, 400 ; Froude, III, 104,
33. Froude, *Edward VI*, 68.
34. Ashley, II, 351.
35. Froude, *Edward VI*, 69.
36. Froude,*Henry VIII*. I, 52-5 ; II, 137; Traill, III, 250; Marx, *Capital*, I, 806.
37. Trevelyan, *Social Hy*. 137.
38. Froude, *Henry VIII*, I, 16n.
39. Rogers, J., *Six Centuries of Work and Wages*, 78.
40. Hughes, I, 29.
41. Traill, III, 127.
42. Hughes, I, 159.
43. Lingard, V, 61.
44. Pollard, 403.
45. Lingard, V, 76.
46. Lees-Milne, *Tudor Renaissance*, 21.
47. Froude, *Henry VIII*, III, 281-2.
48. Ibid., 402.
49. *Camb. Mod.* Hy, II, 459 ; Traill, III, 65.
50. In Coulton, *Medieval Village*, who disagrees. Cf. Froude, H*enry VIII*, I, 43.
51. Rogers, 79 f.

CHAPTER XXVI

1. Stow's *Chronicle*, in Froude, *Edward VI*, 21.
2. Ibid., 34.
3. Hughes, II, 162; *Camb. Mod*, Hy, II, 400-1.
4. Rogers, 89.
5. Froude, *Edward*, 165.
6. ibid., 183 ; Prescott, *Mary Tudor*, 25.
7. Hughes, II, 192-3.
8. Robertson, *Freethought*, I, 459.
9. Froude, *Edward*, 98 101
10. Ibid., 103.
11. *Camb. Mod* Hy, II, 502.
12. Froude, *Edward*, 156.

13. Ibid., 278.
14. Ibid.
15. 163.
16. 176; Lingard, V, 228.
17. Froude, 176.
18. Ibid., 209.
19. *Camb. Mod.* Hy, II, 301.
20. Froude, 226.
21. Cf. Prescott. *Mary Tudor*, 17.
22. En. Brit., XIV, 1001.
23. Chapuys in Prescott, 50, 54.
24. Ibid.
25. En. Brit., XIV, 1000b.
26. Prescott, 122.
27. Ibid., 209.
28. Pastor, XIV, 399.
29. Froude, *Mary Tudor*, 44.
30. Prescott, 191-2.
31. Ibid., 194.
32. 196.
33. Froude, *Mary Tudor*, 66.
34. Hughes, I, 18.
35. Froude, 56.
36. Ibid., 50.
37. 56.
38. Prescott, 285.
39. Ibid., 274.
40. 266.
41. 284.
42. 315.
43 Frude, 325.
44. Prescott, 325.
45. Lingard, V, 230.
46. Prescott, 206.
47. Ibid., 302.
48. 304.
49. Pastor, XIV, 360.
50. Froude 119.
51. Prescott, 307.
52. *Camb. Mod.* Hy, II, 543.
53. Froude, 110.
54. Prescott, 311.
55. Foxe, *Acts and Monuments*, I, 231 f; Maitland, S. R., *Essays on the Roformation*, 409; Smith, *Reformation*, 586, Lee, Sidney, *Dictionary of National Biograpby*, XX, 146.
56. Hughes, II, 258-9.
57. Froude, *Mary Tudor*. 199.
58. Lingard, V, 231.
59. Pastor, XIV, 370.
60. Froude, 202.
61. Ibid., 233.
62. Foxe, VIII, 82-3.
63. Ibid., 88.
64. 90.
65. Froude, 235.
66. Beard, *Reformation*, 182.
67. Hughes, II, 198.
68. Hume, *Spain: Its Greatness and Decay*, 117.
69. Prescott, 332.
70. Ibid., 381.
71. 390.

CHAPTR XXVII

1. Cf. Buckle, Hy *of Civilization*, II, ch, ii.
2. Ibid., I, 150; Belloc, How *the Reformatiou Happened*, 188.
3. Ibid., 189.
4. Lang, Hy *of Scotland*, 425.
5. Froude, *Elizabeth*, I, 73.
6. Knox, Hy *of the Reformaion*, Introd, by W.C. Dickinson, xvii,
7. Lang, I, 300.
8. Ibid., 476.
9. Froude, H*enry VIII*, III, 298.

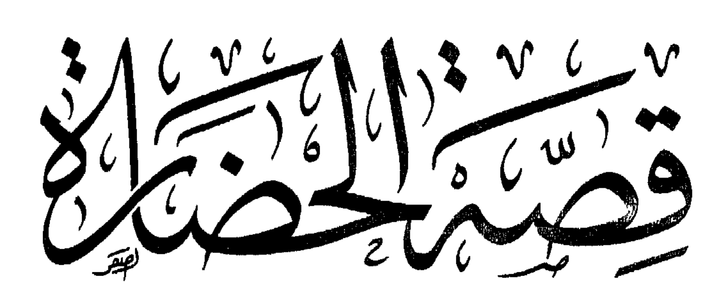
10. Ibid., 295. 300.
11. Knox, *History*, I, 76.
12. Ibid., 78.
13. 8.
14. 55.
15. Lang, I, 484.
16. Knox, I, 84-5.
17. Muir, *Knox*, 119.
18. Ibid., 133.
19. 120.
20. 202.
21. Froude, *Elizabeth*, I, 257.
22. Allen, *Political Thought*, 110.
23. Knox, *History*, Introd, lxxiii; Muir, 67.
24. Knox, I, 194 and note 2.
25. Knox, Introd., xiv; cf, Muir, 300.
26. Muir, 157.
27. Lang, II, 37.
28. Knox, II, 18.
29. Ibid., 4.
30. I, 6.
31. Knox, Introd., xli.
32. Ibid., xxxix.
33. Knox, *Works*, IV, 365, 373-7.
34. Ibid., 418-20.
35. Knox, *Book of Discipline*, in Allen, *Political Thought*, 113n.
36. Ibid., 113; Lecky, *Rationalism*, II, 16.
37. Knox, Introd., xlii, and Allen, 113.
38. In Muir, 142.
39. Ibid., 148-9.
40. Lang, II, 45.
41. Knox, I, 161-2.
42. Ibid.
43. 163.
44. Lang, II, 51-3.
45. Knox, I, 164.
46. Ibid., 171-2.
47. 182; Lang, II, 54-5.
48. Knox, I, 191.
49. Knox, II, Appendix VI.

CHAPTER XXVIII

1. *Camb*, *Mod. Hy*, II, 602; En. Brit., VII, 210a.
2. Watson, P. B., *Swedish Revolution under Gustavus Vasa*, 123.
3. Ibid., 162.
4. 169.
5. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 147.
6. In Lednicki, *Life and Culture of Poland*, 107.
7. Kesten, *Copernicus*, 144.
8. *Camb.* Hy *of Poland*, I, 322-4.
9. Ibid., 329.
10. Lützow, *Bohemia*, 206n.
11. Tawney, 75.
12. Blok, II, 332.
13. *Camb*, *Mod* Hy, II, 63; Taine, *Lectures on Art* 272.
14. Pirenne, H., *Belgian Democracy*, 218.
15. Motley, J. L., *Rise of the Dutch Republic*, I, 101.
16. Smith *Reformation*, 240.
17. Blok, II, 314.
18. In Kautsky, 283.
19. Smith, 244.
02. Kautsky, 285 f.; Ranke, 75 f.
21. Motley, I 222-5.
22. Smith, 245.
23. Draper, J.W., *Intellectual Development of Europe*, II, 226.

24. Smith, 245.
25. Armstrong, *Charles, V*, II, 382-3 ; Robertson, *Charles V*, II, 137 ; Michelet, III, 293.
26. Ibid., 363.
27. 349.
28. Robinson, *Readings*, 317-9.
29. Altamira, *Hy of Spanish Civilization*, 135.
30. Hume, *Spanish People*, 222-3.
31. Vernadsky, G., *Kievau Russia*, 243.
32. Wilkins, *Spanish Protestantism in the 16th Century*, 19.
33. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 8-12.
34. Wilkins, 26 ; *Camb. Mod. Hy*, I, 403.
35. Lea, IV, 431-8.
36. Ibid., 441.
37. Prescott, W. H. in Robertson, *Charles V*, II, 648.





ول وايرل ديورانت

الإصلاح الديني

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الخامس من المجلد السادس





بيروت



تونس



فهرس الجزء الخامس من المجلد السادس

صفحة

الفصل التاسع والعشرون
توحيد روسيا
١٣٠٠ - ١٥٨٤

الفصل الثلاثون
عبقرية الإسلام
١٢٥٨ - ١٥٢٥

صفحة

الفصل الحادى والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ — ١٥٦٦

الفصل الثانى والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ — ١٥٦٤

صفحة

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ — ١٥٦٤



الفصل التاسع والعشرون

توحيـــد روســـيا

١٣٠٠ — ١٥٨٤

---

١ — الشعب

فى سنة ١٣٠٠ لم يكن لروسيا وجود . وكان معظم القسم الشمالى يتبع ثلاث مدن دولة تحكم نفسها بنفسها ، وهى نوفجرد Novgorod ، فياتكا Viatka ، بسكوف Pskov . وكانت المقاطعات الغربية والجنوبية خاضعة للتوانيا . أما فى الشرق فإن إمارات موسكو وريازان وسوزدال ونجنى لفجرد وتفر Tver ، ادعت كل منها لنفسها حق السيادة ، ولم يربطها بعضها ببعض إلا اشتراكها فى الخضوع « للقبيلة الذهبية » .

وقد اتخذت « القبيلة الذهبية » Golden Horde هذه التسمية من اللفظة التركية أوردو Ordu ومعناها « المخيم » ، أما وصفها « بالذهبية » فيرجع إلى الخيمة ذات القبة ، والتى كانت موشاة بغطاء من الذهب ، وكانت مقر قيادة « باتو الرائع » حفيد جانكيزخان : وبعد أن تم لهؤلاء الآسيويين الغزاة فتح جنوب روسيا وغرب آسيا ، شيدوا عاصمتهم فى « سراى » Sarai على أحد فروع نهر الفولجا الأدنى ، وهناك تقاضوا جزية سنوية من الأمراء الروس . وكانت « القبيلة » موزعة بين الزراعة والرعى المتنقل . وكانت الأسرات الحاكمة من المغول ، أما بقية السكان فكان معظمهم من الأتراك . وقد أطلق على القبيلة اسم « تتار » نسبة إلى قبائل « تاتا Ta-ta » من صحراء

جوبى ، وهى قبائل بدأت فى القرن التاسع الزحف المغولى نحو الغرب . وكانت النتائج الأساسية التى ترتبت على طول خضوع روسيا « للقبيلة » نتائج اجتماعية : وهى استبداد أدواق موسكو ، وولاء الأهالى ولاء ذليلاً لأمرائهم ، والمركز الوضيع للمرأة فى المجتمع ، وتنظيم حكومة موسكو وفقاً لأساليب التتار من النواحى العسكرية والمالية والقضائية . وقد عاقت سيطرة التتار محاولة روسيا لمدة قرنين من الزمان أن تصبح دولة أوربية غربية .

وواجه الشعب الروسى أشق الظروف بعدم اكتراث رواقى صامت ، اللهم إلا أنهم فى غمرة آلامهم وأحزانهم ، وجدوا فى أنفسهم الشجاعة لممارسة الغناء . ونعتهم أعداؤهم بالخشونة والقســوة والخيانة والخبث والعنف[1] . ولا شك أن الكد والنصب ، وقسوة المناخ ، كل أولئك أكسبهم صلابة ، على أن ما تميزوا به من الصبر وروح المرح والمودة وكرم الضيافة ، كان فيه تعويض كبير لهم ، إلى حد أنهم مالوا إلى الاعتقاد بأنهم « أكثر إنسانية » ، وأنهم « ملح الأرض » (إشارة إلى ما جاء فى إنجيل متى : ٥ — ١٣) : لقد أدخلوا قسراً إلى المدنية بقوانين همجية وعقوبات رهيبة ، من ذلك — كما رُوى لنا — أن المرأة التى تقتل زوجها كانت تدفن حية حتى عنقها ، وأن السحرة والمشعوذين كانوا يحرقون أحياء فى قفص من حديد ، وأن مزيفى النقود كان يصب فى حلوقهم معدن مصهور[2] . وكأى شعب يقاوم البرد كان الروس يدمنون المشروبات الروحية إلى حد فقدان الوعى أحياناً ، كما كانوا يضيفون إلى طعامهم التوابل التماساً للدفء . واستمتعوا بالحمام الساخن ، وكانوا يستحمون أكثر من معظم الأوربيين . وكان من أوامر الدين عندهم أن تخفى المرأة مفاتن جسمها وشعرها ، كما دمغ الدين النساء بأنهن أولياء الشيطان ، ومع ذلك تساوين بالرجال أمام القانون ، وكثيراً ما شاركن فى تسليتهم أو فى الرقص ، وهو ما كان محرماً باعتباره خطيئة . وكانت الكنيسة الروسية تحض بشدة على مكارم الأخلاق ، وتحرم

عقد الزيجات واقتراب الرجل من المرأة فى أيام الصوم الكبير ، ومن ثم كانت صرامة الشريعة حائلا دون نزوع الشعب إلى الإفراط فى الانغماس فيما يكاد أن يكون المسرة الوحيدة التى تركت له . وكان الوالدان هما اللذان يدبران شئون الزواج ، وكان يتم فى سن مبكرة ، فكانت البنت فى سن الثانية عشرة والولد فى سن الرابعة عشرة يعتبران صالحين للزواج . وكانت مراسم العرس معتمدة تصحبها الأشياء الرمزية القديمة والأفراح التى كان مطلوباً من العروس فى أثنائها أن تلزم الصمت الموسوم بالحياء ، ولسوف تعوض عن ذلك فيما بعد . وكان ينتظر منها أن تقدم إلى والدة زوجها غداة العرس ما يثبت أنه بنى بعذراء . وكان الحريم يبقين فى طابق أعلى بعيداً عن الرجال ، وكانت سلطة الرجل فى الأسرة مطلقة مثلها فى ذلك مثل سلطة القيصر فى الدولة .

وسما الورع عند الروس بالفقر حتى جعل منه سبيلا إلى الجنة . وكان كل بيت مهما صغر أو كبر يضم غرفة مزدانة بالأيقونات أو الصور المقدسة ، بمثابة مكان للصلاة من حين لآخر . وكان الزائر الصالح يحيى هذه الصور المقدسة قبل التسليم على أهل البيت . وكانت النساء الصالحات يحملن مسابح أينما ذهبن . وكانت الابتهالات تتلى بمثابة تعاويذ ورقى سحرية ، ومن ثم — كما يروى كتاب مشهور من القرن السادس عشر اسمه « كتاب الأسرة Domostroi » فإن ابتهالات معينة تكرر فى اليوم ٦٠٠ مرة لمدة ثلاث سنوات ، قد تؤدى إلى تجسد الآب والابن والروح القدس فى شخص المتضرع(٣) . ومع ذلك كان هناك كثير من المظاهر الجميلة فى هذه الديانة الممتلئة بالخرافات . فكان الناس فى صبيحة يوم عيد الفصح يحيون بعضهم بعضاً بهذه الألفاظ البهيجة « المسيح قام » . وفى ظل هذا الأمل هان أمر الموت إلى حد ما . فإذا حانت منية الرجل الطيب الوقور سدد ديونه وأعفى المدينين له ، وأعتق واحداً أو أكثر من أرقائه ، ووزع

الصدقات على الفقراء والكنيسة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وكله أمل وثقة فى الدار الآخرة .

وعملت الكنيسة الروسية على تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والأيقونات والعظات القوية وحفلات التنويم المغناطيسى ، والترانيم التى يشترك فى إنشادها عدد كبير من المرتلين ، والتى كانت تبدو وكأنها تخرج من أخفى أعماق النفس أو المعدة ، وكانت الكنيسة لساناً قوياً ناطقاً باسم الدولة ، وتثاب على الخدمات التى تؤديها فى تعليم الآداب والأخلاق وتقويم السلوك وتوطيد دعائم النظام الاجتماعى بأوفى مثوبة . وكانت الأديرة كثيرة ضخمة . من ذلك أن « دير الثالوث الأقدس » الذى أسسه القديس سرجيوس فى سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى عام ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح لزرعها . وفى مقابل ذلك وزعت الأديار الصدقات على الروس ، وكان بعضها يطعم ٤٠٠ شخص فى اليوم . وفى إحدى سنوات القحط كان دير فولوكولامسك Volokolamsk يطعم سبعة آلاف شخص يومياً . وكان الرهبان يقطعون على أنفسهم عهداً بالتزام العفة ، ولكن الكهنة كانوا يضطرون إلى الزواج . وكان معظم هؤلاء « الآباء » أميين ، ولكن الشعب لم يكن يعيب عليهم ذلك . وكان مطارنة موسكو فى معظم الأحوال أكثر أهل زمانهم كفاية ومقدرة وعلماً ، وكانوا يبذلون ثرواتهم للحفاظ على الدولة ، ويوجهون الأمراء على طريق الوحدة الوطنية . وكان سانت ألكسيس هو الحاكم الفعلى روسيا طوال توليه منصبه (١٣٥٤ — ١٣٧٠) . إن الكنيسة الروسية بكل أخطائها التى ربما تكون قد فرضتها عليها مهامها — نقول إن هذه الكنيسة فى عصر التكوين والتشكيل هذا ، كانت بمثابة العامل الأبرز والأهم فى تمدين الشعب الذى صبرته وحشياً مصاعب الحيـــاة وضراوة طبيعة الإنسان ذاته .

وحين رفضت الكنيسة الروسية فى ١٤٤٨ اندماج الكنيسة اليونانية مع الكاثوليكية الرومانية فى مجلس فلورنسه ، أعلنت استقلالها عن البطريرك البيزنطى ، وبعد ذلك بسنوات خمس حين سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك ، أصبحت موسكو عاصمة المذهب الأرثوذكسى . وحوالى ١٥٠٥ كتب راهب متحمس إلى أمير عظيم فى موسكو « اعلم الآن أن سلطان المسيحية بأسرها قد آل إليك ، لأن رومة الأولى ورومة الثانية (يقصد رومة والقسطنطينية) قد سقطتا ، أما الثالثة فهى صامدة ، ولن يكون هناك رابعة ، لأن إمبراطوريتك المسيحية سوف تدوم إلى الأبد »(٤) .

وكادت الكنيسة أن تكون النصير أو الراعى الوحيد للآداب والفنون : ومن ثم كانت هى التى توجهها . ولم تكن أجود الآداب مدونة . وكانت أغانى الشعب التى رددتها ألسنة الناس من جيل إلى جيل هى التى تذيع وتمجد قصص حبهم أو أعراسهم أو أحزانهم أو فصولهم أو أعيادهم أو موتاهم ، وكان هناك أناشيد مألوفة لقديسين مرموقين وأبطال قدامى ومآثر أسطورية ، مثل مآثر سادكو Sadko تاجر نفجرد . وكان المكفوفون والعرج يطوفون بالقرى ينشدون مثل هذه الأغانى والأناشيد والتراتيل المقدسة . وكان كل الأدب المكتوب تقريباً مقصوراً على الأديرة ، وكان يخدم الأغراض الدينية .

وكان الرهبان هم الذين وصلوا عندئذ برسم الأيقونات إلى فن كامل . فكانوا يأتون بلوحة صغيرة من الخشب ، مغطاة بالقماش أحياناً ، ينشرون عليها طبقة لزجة ومن ثم يرسمون عليها الصورة ويضعون الألوان ، ثم يغطونها بالطلاء ويضعونها فى إطار معدنى . وكانت الموضوعات تحددها السلطات الدينية ، أما الأشكال والسمات فكانت تقتبس من النماذج البيزنطية ، وعادوا بها أدراجهم فى تطور مستمر عبر فسيفساء القسطنطينية إلى رسوم الإسكندرية الهللينستية . وأحسن أيقونات هذا العصر هى صورة لا يعرف

اسم صاحبها تمثل « المسيح يرقى عرش السماء » موجودة فى كاتدرائية صعود العذراء فى موسكو ، وصورة دخول المسيح إلى أورشليم — وهى من عمل مدرسة نفجرد ، والثالوث المقدس للراهب أندريه روبليوف فى دير الثالوث المقدس . ورسم روبليوف وأستاذه تيوفانس الإغريقى ، لوحات جصية جدارية تجمع بين الطراز البيزنطى والطراز البيزنطى الجريكو فى فلاديمير وموسكو ونفجرد ، ولكن الزمن أعمل أثره فيها .

إن كل حاكم كان يبرز عظمته ويريح ضميره ببناء كنيسة أو دير ، أو تخصيص الأوقاف والهبات لهذا أو تلك . وقد انضمت الأشـــكال والحوافز من أرمينية وفارس والهند والتبت ومنغوليا وإيطاليا واسكنديناوه — انضمت إلي التراث البيزنطى السائد ، لتشكل عمارة الكنيسة الروسية ، بما فيها من جمال تعدد الوحدات ، والقبة المذهبة فى الوسط ، والقباب البصلية الشكل التى صممت بطريقة رائعة لمنع تراكم مياه المطر والثلوج . وبعد سقوط القسطنطينية وطرد التتار قل اعتماد روسيا على الفن البيزنطى والفن الشرقى ، وجاء التأثير من الغرب ليعدل من الطراز السلافى . و سنة ١٤٧٢ راود الأمل إيفان الثلث فى أن يرث حقوق الأباطرة البيزنطيين وألقابهم ، ومن ثم تزوج « زو باليولوغوس Zoë » ابنة أخى آخر حكام الإمبراطورية الشرقية ، وكانت قد نشأت فى رومة وتشربت شيئاً من بواكير عصر النهضة ، وقد جلبت معها بعض العلماء الإغريق ، وأظهرت إيفان على الفن الإيطالى ، وربما كان بإيحاء منها إرساله لأول بعثة روسية إلى الغرب (١٤٧٤) ، وقد أصدر إليها توجيهاته بالحصول على الفنانين الإيطاليين لموسكو . وقبل الدعوة ريودلفو فيرافانتى البولونى الذى كان يلقب بأرسطو بسبب تعدد مواهبه ، ثم تصيد المبعوثون الروس بعد ذلك بيترو سولاريو ، والفيزيونوفى وعدة فنانين آخرين وهؤلاء الإيطاليون هم الذين أعادوا بناء الكرملين مع معاونين وعمال من الروس .

وكان يورى دلجوروكى Yuri Delgoruki قد أسس موسكو سنة ١١٥٦ بأن أقام سوراً حول داره (فيللا) ، التى كانت تقع فى موقع استراتيجى عند التقاء نهرين ، فكان هذا الحصن « Kreml » أول شكل للكرملين . واتسع مع الزمن هذا النطاق ، وقامت الكنائس والقصور داخل سياج مرصوص من البلوط ، ونذر ايفان الثالث نفسه لتعديل هذه المجموعة بأكملها . ومن الواضح أن فيرافانتى Fieravante هو الذى أعاد بناء كاتدرائية صعود العذراء القـــديمة فى الكرملين (١٤٧٥ — ١٤٧٩) حيث توج القياصرة فيما بعد وبقى الطراز بيزنطيا مع زخرفة إيطالية . وأضاف مهندسون معماريون من بسكوف داخل نطاق الكرملين «كاتدرائية عيد البشارة » الصغرة (١٤٨٤ — ١٤٨٩) . ثم أقام أليفزيو Alevisio فى الكرملين كاتدرائية رئيس الملائكة (١٥٠٥ — ١٥٠٩) . وفيما بين ١٤٨٥ — ١٥٠٨ أعاد سولاريو وآخرون تسوير المنطقة بالآجر القرنفلى على طراز قلعة سفورزسكو فى ميلان(٥) . وهكذا — ترى أنه من وسط روسيا الزاخر بالمعابد ، ومن قلب هذه الوحدة المتسلطة التى تركزت فيها السلطتان الدنيوية والدينية ، بسط أمراء موسكو العظام ومطارنتها حكمهم ونفوذهم على النبلاء والتجار والفلاحين ، ووضعوا بالدماء والعظام وبالتقى والورع أسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم .

٢ — أمراء موسكو

ظلت موسكو قرية مغمورة حتى عهد دانيال اسكندروفتش فى أواخر القرن الثالث عشر ، ووسعت رقعتها الداخلية حتى جعلت منها إمارة صغيرة ، ويعزو الإدراك التاريخى المتأخر(٦) — نمو موسكو إلى موقعها على نهر موسكو الصالح للملاحة الذى كان متصلا عن طريق ممر برى قصير ، بنهر الفولجا شرقاً ، وأنهار أوكا والدون والدنيبر جنوباً وغرباً . وطمع يورى دانيالفتش بن دانيال أمير موسكو فى الاستيلاء على إمارة سوزدال المجاورة ،

وكانت عاصمتها فلاديمير غنية نسبياً ، كما طمع فى ذلك ميكائيل أمير تفر Tver . واقتتل الفريقان للحصول على الجائزة فكانت الغلبة لموسكو ، وقتل ميكائيل وضم إلى قائمة القديسين . ونمت موسكو ، واتخذ ايفان الأول ؛ أخو يورى لقبي أمير موسكو العظيم ، ودوق فلاديمير العظيم .

وكان إيفان الأول ، بوصفه جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، يتقاضى أكثر مما كان يرسله أو يحوله ، ومن ثم أثرى وازدهر بطريقة شريرة مؤذية . وجعله جشعه للمال ينبز بلقب « Kalita » ومعناه « حقيبة المال » . ولكنه بذلك حمى الإمارات من حملات التتار لمدة ثلاث عشرة سنة نعمت فيها بالهدوء . وتوفى إيفان سنة ١٣٤١ على أنه راهب حليق شعر الرأس ، وأطلقوا من حوله بخور القداسة . وورث عنه ابنه سيميون المتكبر ميله إلى جمع الضرائب . ولما كان يدعى السلطان على كل الولايات فإنه أطلق على نفسه اسم الأمير الأعظم على كل الروس ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الموت بالطاعون (١٣٥٣) . وكان إيفان الثانى حاكماً وديعاً يؤثر السلام ، وفى عهده اجتاحت روسيا حرب قتل فيها الأخ أخاه . وتميز ابنه ديمترى بكل الصفات التى تتطلبها الحرب والقتال ، فهزم كل منافس له وتحدى خان التتار . وفى ١٣٨٠ جميع ماماى خان جيشاً من التتار والمرتزقة الجنوبيين وغيرهم من المتعطلين المتشردين ، وتقدم به نحو موسكو . وقابل ديمترى وحلفاؤه الروس هذا الجحفل عند كوليكوفو Kulikovo قرب نهر الدون وأنزلوا به الهزيمة (١٣٨٠) ، وفاز بلقب دونسكوى Donskoi وعاود التتار الكرة بعد عامين بمائة ألف رجل ، ولكن الروس ، وقد غرتهم وأرهقتهم نشوة النصر ، لم يستطيعوا أن يواجهوا التتار بقوة مماثلة . واستولى التتار على موسكو ، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا المدينة برمتها . وعقد فاسيلى الأول ، ابن ديمترى ، صلحاً مع التتار ، وضم نجنى نفجرد ، وأرغم نوفجورود وفياتكا على قبوله أميراً عليها .

واقتبس أمراء موسكو العظام أساليب الطغيان والاستبداد عند التتار ، وربما كان هذا بديلا عن فوضى الجهل ، وأدارت دفة الحكم على الأسلوب البيزنطى ببيروقراطية فى ظل حكومة فردية مطلقة طابعها العنف والدهاء ، خاضعة لمجلس من أبناء الطبقة العليا ذوى الامتيازات (Boyars) الذين كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير ، وكانوا فى نفس الوقت قادة الجيش وحكام الأقاليم والقائمين على التنظيم ، والجباة والمستغلين للفلاحين شبه الأحرار الذين كانوا يفلحون الأرض . وهاجر مستعمرون مغامرون إلى الأقاليم غير المستقرة وجففوا المستنقعات وأخصبوا الأرض بحرق الغابات والأدغال واستهلكوا الأرض نتيجة إسرافهم وقصر نظرهم فى فلحها ، ثم انصرفوا عنها ضرباً فى الأرض حتى وصلوا البحر الأبيض وجبال الأورال ، واتخذوا سبيلهم سرباً إلى سيبيريا . وفى السهول المترامية الأطراف بلا نهاية كانت المدن كثيرة ولكنها صغيرة ، وكانت البيوت مبنية من الخشب والطين ، وكان مقدراً لها أن تحترق وتنقض على مدى عشرين سنة على الأكثر . وكانت الطرق غير معبدة وأقل إزعاجاً فى الشتاء حيث كانت تكسوها الثلوج وتملؤها الزحافات والأحذية العالية . وآثر التجار الأنهار على الطرق ، ونقلوا تجارتهم فى بطء على الماء أو الجليد بين الشمال والجنوب ، مع بيزنطة والمسلمين وعصبة الهانسا (وقد تكونت من بعض المدن الحرة فى شمال ألمانيا والدول المجاورة ، تكونت فى العصور الوسطى بقصد التجارة) . وربما كانت هذه التجارة المنتشرة هى التى تغلبت على النزعة الفردية لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا . وكان فاسيلى الثانى (١٤٢٥ — ١٤٦٢) الملقب باسم تمنى Temny — الأعمى — لأن أعداءه فقأوا عينيه — هو الذى قضى على تمرد العصاة وألزمهم الطاعة ، عن طريق التعذيب وبتر الأطراف والجلد ، وترك لابنه روسيا قوية إلى درجة تضع معها نهاية لمخازى حكم التتار .

وصار إيفان الثالث هو (العظيم) ، لأنه هو الذى أنجز هذه المهمة ، ووحد روسيا . لقد خلق للشدائد ، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية ، لا يتورع عن شيء ، حاد الذهن ماكراً حذراً عنيداً قاسياً ، وكان يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة ، وهو مستقر فى مكانه فى الكرملن . وكان يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً ، بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر أطراف حتى أعضاء المجلس ، أو يقطع رأس طبيب أخفق فى علاج ابنه ، وهكذا بمثل هذه الصرامة كان يسيطر على حاشيته ، حتى أن النساء ليغمى عليهن لمجرد نظرة منه . وأطلقت عليه روسيا اسم « الرهيب » حتى التقت بحفيده .

وكانت إمارة نفجرد أيسر فتوحاته ، وكان ينظر فى تطلع جشع إلى هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة ، ولقد حرضه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم فى الشمال(٧) . وسيطر الأمير العظيم على السهول الممتدة بين موسكو ونفجرد ، حيث كانت الجمهورية التجارية تشترى المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها ، ولم يكن على إيفان إلا أن يغلق هذا المخزن المورد للحبوب وتلك السوق ، لكى تقع المدينـــة الدولة فى ضائقة وتفلس ، أو تخضع وتستسلم . وبعد ثمان سنوات توالت فيها الحرب والهدنة ، تنازلت الجمهورية عن استقلالها (١٤٧٨) ونقل ٧٠٠٠ من صفوة سكانها إلى سوزدال ، وطردت عصبة الهانسا ، وورث تجار موسكو أسواق نفجرد ، وورث أميرهم دخلها .

وما أن ضم إيفان مستعمرات الجمهورية المندثرة حتى بسط حكمه على فنلندة والمنطقة المتجمدة والأورال . وخضعت بسكوف فى الوقت المناسب حفاظاً على الأشكال الجمهورية فيها تحت سيادة الأمير العظيم . وتلمست تفر أسباب الحماية عن طريق التحالف مع لتوانيا ، ولكن إيفان سار إلى المدينة بنفسه واستولى عليها دون أن يضرب ضربة واحدة ، وتبعتها روستوف **Rostov**

وياروسلافل Iaroslavl . ولما مات إخوة إيفان رفض أن تؤول مخصصاتهم إلى ورثتهم ، وضمها إلى ممتلكاته . وانحاز أخ له — أندريه — إلى لتوانيا فقبض عليه واعتقله ، ومات أندريه فى السجن ، فبكى إيفان ، ولكنه صادر أملاكه . إن السياسة لا قلب لها .

وبدا أن التحرر من ربقة التتار مستحيل ، ولكن ثبت أنه أمر يسير . ذلك أن بقايا الغزاة المغول — الأتراك كانوا قد استقروا فى ثلاث جماعات متنافسة متنافرة ، وتركزوا فى سراى Sarai وقازان Kazan وفى القرم ، وكان إيفان يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده . وفى ١٤٨٠ امتنع إيفان عن دفع الجزية ، وقاد خان أحمد جيشاً كبيراً من الفولجا حتى ضفاف نهرى أوكا وأوجرا جنوب موسكو . وقاد إيفان جيشاً قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى الضفاف المقابلة ، وواجه العدوان بعضهما بعضاً لعدة شهور دون أن تقع بينهما معركة . وتردد إيفان فى أن يغامر بعرشـــه وحياته فى رمية واحدة ، كما خشى التتار مدفعيته التى أدخل عليها تحسينات . ولما تجمدت الأنهار ، ولم تعد تحمى الجيوش بعضها من بعض ، أصدر إيفان أوامره بالانسحاب ، وبدلا من تعقب الجيش المنسحب ، انسحب التتار كذلك ، حتى وصلوا إلى سراى (١٤٨٠) ، وكان انتصاراً هائلا ولكنه مضحك . ومنذ ذلك الحين لم تدفع موسكو جزية إلى التتار . وسمى الأمير العظيم نفسه الحاكم المطلق ، أى الذى لا يدفع الجزية لأحد . واستدرج الخانات المتنافسون إلى محاربة بعضهم بعضا . وهزم أحمد وذبح ، وانقضى سلطان المغول فى سراى ، واندثرت « القبيلة الذهبية » .

وبقيت لتوانيا . ولم يطق الأمير العظيم ولا مطران موسكو الصبر على السلام ، ما دامت أوكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو دوما ، وتدعو الأرثوذكس إلى المسيحية اللاتينية . وزعم إيفان أن ثمة مؤامرة لاغتياله ، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص

المديريات المغرور بها (١٤٩٢) . فما كان من أمراء لتوانيا الذين استشعروا القلق فى ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندى إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان . وتوقف الاسكندر أمير لتوانيا العظيم فى فدروشا **Vedrosha** وهزم (١٥٠٠) . ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ست سنوات . وفى نفس الوقت احتفظت موسكو بالأقاليم التى كسبتها — إلى الغرب من نهر سوز **Sozch** بما فى ذلك شرنيجوف **Chernigov** حتى سمولنسك تقريباً . وكان إيفان الثالث قد بلغ آنذاك الثالثة والستين فترك تخليص البقية لحفدته .

إن حكم إيفان الذى دام ثلاثا وأربعين سنة يعدل فى أهميته أى حكم آخر فى تاريخ روسيا قبل القرن العشرين . وسواء كان مدفوعاً بشهوة المال وحب السيطرة أو بإيمانه الراسخ بأن أمن الروس وازدهارهم يتطلبان توحيد روسيا ، فإن إيفان الثالث حقق لبلده ما كان يؤديه لويس الحادى عشر لفرنسا ، وهنرى السابع لإنجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، والإسكندر السادس للولايات البابوية ، ولقد كشف تزامن هذه الأحداث عن تقدم القومية والملكية ، الأمر الذى قضى على سلطان البابوية الأسمى فوق الأمم والقوميات . وفقد أبناء الطبقة العليا استقلالهم ، وأرسلت الإمارات الجزية إلى موسكو ، واتخذ إيفان لقب « ملك روسيا بأسرها » . ويحتمل أن زوجته الإغريقيـــة أوصته بأن يتخذ كذلك لقب « قيصر » ، وهو لقب رومانى إغريقى . ولقد اتخذ النسر الإمبراطورى المزدوج شعاراً قومياً ، وادعى وراثة السلطة السياسية والدينية لبيزنطه الغابرة ، واقتبست من بيزنطة نظريات الحكومة وأعيادها ومراسمها ، وكذلك فعلت الكنيسة ، بوصفها من أدوات الدولة ، بعد أن دخلت إلى روسيا المسيحية البيزنطية والأبجدية البيزنطية الإغريقية وأشكال الفن البيزنطى ، وبقدر ما كانت بيزنطة شرقية لقربها من آسيا ، فإن روسيا التى كانت قد اصطبغت بالصبغة الشرقية بسبب حكم التتار لها ، أصبحت من وجوه كثيرة مملكة شرقية مغايرة للغرب غريبة عنه غامضة لديه .

٣ — إيفان الرهيب

١٥٣٣ — ١٥٨٤

تابع فاسيلى الثالث إيفانوفتش ١٥٠٥ — ١٥٣٣ توحيد روسيا ؛ وضم سمولنسك إلى مملكته ، وأرغم إمارتى ريازان ونفجرد — سفرسكى على الاعتراف بسيادته . وقال أحد كتاب الحوليات الروس « ليس سوى الأطفال الرضع هم الذين استطاعوا أن يكفكفوا الدمع ، عندما خضعت لحكم فاسيلى (١٥١٠) جمهورية بسكوف التى كانت يوماً مزهوة بنفسها » ؛ كانت روسيا آنذاك دولة أوربية كبرى . وتبادل فاسيلى الرسائل على قدم المساواة مع مكسيمليان الأول وشارل الخامس وسليمان القانونى وليو العاشر . وعندما حاول بعض أبناء الأرستقراطية أن يحدوا من استبداده كبح جماحهم بكلمة احتقار واحدة هى « فلاحون » . ثم قطع رأس أحد النبلاء . ولما لم ينجب من زوجته أولاداً ، فإنه طلقها وتزوج من هيلينا جلنسكى ، وهى سيدة مصقولة بارعة مستبدة . وبعد موته صارت وصية على ابنها إيفان الرابع فاسيليفتش البالغ من العمر ثلاث سنوات . وعند موتها عاود أعضاء المجلس أبناء الطبقة العليا شغبهم ، وتولت أحزابهم المتناحرة زمام الحكم تباعاً ، ونشروا الفوضى والخلل فى المدن نتيجة عنفهم ، واستنزفوا فى الحرب الأهلية دماء الفلاحين الروس البؤساء العاجزين .

وفى غمرة هذه المنازعات كاد الملك الصغير « سيد روسيا بأسرها » أن يكون مهملا متجاهلا بل محروماً بائساً فى بعض الأحيان . ولما كان يبصر بضروب الوحشية فى كل مكان من حوله ، فإنه حسبها أسلوباً مقبولا فى السلوك ، ومن ثم اختار أعنف ضروب الرياضة . ونشأ شاباً نكداً متقلب المزاج متشككاً . وفجأة ، عندما كان بعدُ ولداً فى الثالثة عشرة من عمره ، (١٥٤٤) ألقى إلى كلابه أندريه شويسكى زعيم أحد أحزاب

النبلاء ، وتولى زمام الأمور فى الدولة . وبعد ثلاث سنوات قام مطران موسكو بتتويجه قيصراً ، ثم أمر القيصر بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف أنحاء المملكة ، واختار منهن أنستاسيا رومانوفا وتزوج منها ، ومن لقب أسرتها سوف يتحدد عما قريب لقب أسرة حاكمة .

وفى ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا ، واعترف أمامها بجميع أخطائه فى شبابه ، ووعد بإقامة حكومة عادلة رحيمة . ولعله تحت تأثير الإصلاح فى ألمانيا واسكنديناوه ، درست الجمعية اقتراحا بمصادرة أملاك الكنيسة لتدعيم الدولة . ورفض هذا الاقتراح ، ولكن اتخذ قرار آخر متصل به ، بمقتضاه استردت كل الأراضى المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، كما ألغيت كل الهبات التى منحت للكنيسة أيام كان إيفان قاصراً . ولم يعد للأديار حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر . وهدأ بال رجال الدين نوعاً ما عندما عين إيفان الكاهن سلفستر مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن ألكسيس أداشيف وزيرين له ، وبفضل هذين المعاونين القديرين كان إيفان فى سن الحادية والعشرين سيدا على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الأورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً .

وكان همه الأول تقوية الجيش ، والموازنة بين قوى النبلاء المعادين له ، عن طريق هيئتين مسئولتين أمامه : فرسان القوزاق ومشاة سترلتس Strieltsi(*) ، مزودة بالهركوبه (Harquebus) — نوع من الأسلحة النارية اخترع فى القرن الخامس عشر . ونشأ القوزاق فى هذا القرن من طبقة الفلاحين الذين كان مقامهم فى جنوب روسيا بين المسلمين والمسكوف يقتضيهم أن يكونوا دوما على أهبة الاستعداد للقتال عند أول صيحة ، كما هيأ لهم

(*) مشتقة من معنى إطلاق النار . أما القوزاق فيحتمل أنها محرفة عن لفظة تركية معناها مغامر .

فرصاً تتعذر مقاومتها لسلب القوافل التى كانت تنقل التجارة بين الجنوب والشمال . وجموع القوزاق الأصليون هم قوزاق نهر الدون فى جنوب شرقى روسيا ، وقوزاق زابوروج Zaporogue فى الجنوب الغربى ، وكانوا جمهوريات شبه مستقلة ، ومن الغريب أنه كان يسود بينهم نظام ديموقراطى ، حيث كان أرباب البيوت يختارون رئيساً تنفيذياً لجمعية منتخبة . وكانت كل الأرض ملكاً عاماً مشتركاً ، ولكنها تؤجر إلى الأسرات بصفة فردية لاستخدامها استخداماً موقوتاً ، وكانت الطبقات كلها متســاوية أمام القانون[٨] . وأصبح فرسان القوزاق ، بسبب اشتهارهم بالشجاعة الهائلة ، الدعامة الأولى لإيفان الرابع داخل البلاد وفى الحرب .

وكانت سياسته الخارجية بسيطة ، فهو يريد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين . وكانت كازان واستراخان والقوم لا تزال فى قبضة التتار الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ، ولكن عبثاً . وكان إيفان على يقين من أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها لهذه الأجزاء ، والتحكم فى نهر الفولجا حتى منابعه . وفى ١٥٥٢ قاد القيصر الشاب ١٥٠٫٠٠٠ رجل إلى أبواب كازان وحاصرها لمدة خمسين يوما . ولكن المسلمين — وكان عددهم ٣٠٫٠٠٠ — قاوموا وصمدوا فى عناد تحدوهم الروح الدينية وهاجموا أعداءهم فى غارات متكررة ، وعندما أسر نفر منهم وعلقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار سدد إخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين : « خير لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدى بنى وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدى المسيحيين الدنسة[٩] » . ولما وهنت عزائم المحاصرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق ، أرسل إيفان إلى موسكو فى طلب صليب عجيب ، فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد ، وكان الله يحارب مع الجانبين . وبث مهندس ألمانى الألغام فى الأسوار فانهارت ، واندفع الروس إلى المدينة صائحين « الله

معنا » ، وأعملوا الذبح فى كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقا . وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلا : « إنهم ليسوا مسيحيين ، ولكنهم رجال » وأسكن إيفان فلول المسيحيين فى الأطلال . وهتفت روسيا بأنه أول سلافى يستولى على معقل تترى ، واحتفلت بالنصر ، كما احتفلت فرنسا بصد المسلمين فى معركة تور سنة ٧٣٢ . وفى ١٥٥٤ استولى إيفان على استراخان ، وأصبح نهر الفولجا قناة روسية تماما . وظلت القرم فى يد المسلمين حتى ١٧٧٤ . ولكن قوزاق نهر الدون أحنوا رءوسهم آنذاك لحكم موسكو .

وما أن حرر إيفان حدوده فى الشرق حتى ولى شطره متاهفاً نحو الغرب . وكان يراوده حلم تجارة روسية تتدفق غربا وشمالا عبر الأنهار الكبرى إلى البلطيق ، وكان يحسد غرب أوربا على التوسع الصناعى والتجارى ، وكان يلتمس للاقتصاد الروسى منفذاً يربط به نفسه بهذا التوسع . وفى ١٥٥٣ أرسل تجار لندن سير هيو ولفى Hugh Willoughlby وريتشارد تشانسلر لإيجاد طريق فى المنطقة المتجمدة حول اسكنديناوة وصولا إلى الصين ، فأبحرا من هاروك Harwich فى ثلاث مراكب ، وهلك اثنان من الملاحين فى الشتاء فى لابلند ، ولكن تشانسلر وصل إلى الموقع الذى أسماه البريطانيون أركنجلسك ، على اسم الملاك ميكائيل : وشق تشانسلر طريقه وسط مئات الأخطار والصعاب إلى موسكو ، فعقد معه إيفان ، ثم مع أنطونى جنكنسن فيما بعد ، معاهدات تخول « شركة لندن والمسكوف » امتيازات تجارية خاصة فى روسيا .

ولكن هذه المعاهدات كانت بالنسبة لإيفان مجرد ثقوب ، ولم تكن بابا أو منفذا إلى الغرب ، وأراد أن يستجلب فنيين من ألمانيا ، وحشد له من هؤلاء ١٢٣ فى لوبك ، ولكن شارل الخامس رفض السماح لهم بالخروج . وكان النهر الكبير دوينا الجنوبى يجرى من قلب روسيا إلى البلطيق قرب

ريجا ، ولكنه يجرى عبر ليفونيا المعادية ، ولم تكن منابع دوينا والفلجا بعيدة بعضها عن بعض ، ومن ثم يمكن ربط النهرين بقنوات ، وهنا ، بحكم « القدر المقدور » كان الطريق المائى الذى يمكن أن يعوض روسيا عن عدم تناسب أراضيها المترامية الأطراف مع سواحلها وثغورها ، ومن ثم يمكن أن يتصل بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود ، كما يمكن أن يلتقى الشرق والغرب . وفى تبادل السلع والأفكار قد يستطيع الغرب أن يسدد شيئاً من دينه الثقافى القديم للشرق .

وعلى ذلك فإن إيفان فى سنة ١٥٥٧ ابتكر ذريعة لمهاجمة ليفونيا ، وأرسل إليها بجيش تحت قيادة شاه على ، الذى كان أخيراً خان التتار على كازان . واجتاح الجيش البلاد بطريقة وحشية ، فأحرق الدور والمحاصيل ، واستعبد الرجال واغتصب النساء حتى الموت . وفى ١٥٥٨ استولى جيش روسى آخر على نارفا التى تبعد عن البلطيق بثمانية أميال . واستنجدت ليفونيا اليائسة ببولندة والدانمارك والسويد وألمانيا ، وارتعدت أوربا الوسطى بأسرها فزعا من مشهد الطوفان السلافى الذى وصل إلى الغرب ، كما وصل فى القرن السادس إلى نهر الإاب . واستثار ستيفن باثورى حمية البولنديين وقادهم إلى الانتصار على الروس عند بولتسك (١٥٨٢) . ولما حلت الهزيمة بإيفان سلم ليفونيا إلى بولندة .

وقبل هذه النكسة الحاسمة بزمن طويل ، كان إخفاق حملات إيفان قد أدى إلى الثورة فى الداخل ، حيث كان التجار الذين كان إيفان يسعى إلى إثرائهم بفتح طرق جديدة للتجارة ، قد فقدوا صوابهم بسبب هذه الحرب المدمرة الباهظة التكاليف . وعارض النبلاء هذه الحرب لأنها لا بد أن توحد بين دول البلطيق ، بسلاحها المتفوق ، ضد روسيا التى ما زالت إقطاعية فى تنظيمها السياسى والعسكرى . وفى أثناء الحرب وفيما قبلها كان إيفان قد ارتاب فى مؤامرات النبلاء ضد عرشه . وفى أثناء مرض كاد يقضى عليه

(١٥٥٣) علم أن جماعة قوية من النبلاء كانوا يدبرون أن يبعدوا ، عند موته ، ابنه ديمتري ويتوجوا الأمير فلاديمير الذى كانت أمه تمنح الجيش عطايا كثيرة . وكان أقرب مستشاريه سلفستر وأداشف ضالعين مع النبلاء ، ولمدة سبع سنوات بعد الارتياب فيهما ، أبقى إيفان على هذين الموظفين فى مواقع السلطة ، ثم طردهما فى ١٥٦٠ ، ولكن دون عنف . ومات سلفستر فى أحد الأديار ، وقضى أداشف نحبه فى إحدى الحملات على ليفونيا ، وهاجر عدة نبلاء إلى بولندة وحملوا السلاح ضد روسيا ، وفى ١٥٦٤ لحق الأمير كوربسكى Kurbsky صديق إيفان الحميم والقائد العام ، بهؤلاء الهاربين ، زاعماً أن القيصر يدبر قتله ، ومن بولندة أرسل كوربسكى إلى إيفان ما يصل إلى أن يكون إعلاناً للحرب عليه ، متهماً إياه بأنه مجرم مجذوم . وتدعى الأساطير أن إيفان عندما قرئ عليه الخطاب دق أحدى قدمى حامله بالمسامير فى الأرض بضربة من العصا الملكية ، ولكن القيصر تنازل فرد على كوربسكى بدفع يقع فى اثنتين وستين صفحة ، وكان رداً بليغاً مشوشاً ، عاطفياً مليئاً بمقتبسات من الكتاب المقدس ، عدد فيه دسائس النبلاء لخلعه . واعتقاداً منه بأنهم كانوا قد دسوا السم لأنستاسيا ، تساءل إيفان : « لماذا فرقتم بينى وبين زوجتى ؟ ألم تأخذوا منى وليدى الصغير ؟ لم يحدث قط أن ذبح أحد من النبلاء . . . لقد فتشت عبثاً عن رجل يستشعر الشفقة بى ، ولكنى لم أجد أحداً(١٠) » . وكتب كوربسكى فى أخريات أيامه تاريخاً قاسياً عدائياً لإيفان ، وهو أهم مرجع لنا فى إرهاب إيفان .

إن هذه المؤامرات ومغادرة البلاد توضح لنا أشهر حادث متميز فى عهد إيفان . وفى ١٢ ديسمبر ١٥٦٤ غادر إيفان موسكو مع أسرته وأيقوناته وكنوزه ، مع قوة صغيرة من الجنود ، وسار إلى مقره الصيفى فى اسكندروفسك . وأرسل إلى موسكو بيانين ، زعم فى الأول أن النبلاء

والبيروقراطية والكنيسة تآمروا ضده وضد الدولة ، وأنه لذلك « مع أشد الأسف » اعتزل الآن العرش ، ليعيش فى عزلة . أما البيان الثانى فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يبقوا واثقين من نياته الطيبة دوما . والحق أنه تمسك بمحاباة العامة والتجار ضد الأرستقراطية ، وقد شهد بذلك ما قامت به الطبقتان الوسطى والدنيا آنذاك ، فقد انفجرو يرددون صيحات التهديد ضد النبلاء ورجال الدين ، مطالبين بأن يشخص إلى القيصر وفد من الأساقفة والنبلاء ، ليرجوه فى العودة إلى العرش ، وتم ذلك وقبل إيفان « أن يتولى أمر الدولة من جديد » ، بشروط يحددها هو فيما بعد .

وعاد إيفان إلى موسكو فى فبراير ١٥٦٥ ، ودعا الجمعية الوطنية من رجال الدين والنبلاء ، وأعلن أنه سيعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم ، وأنه من الآن فصاعدا سيتولى كل السلطة دون استشارة النبلاء أو الجمعية ، وأنه سينفى كل من يخالف أوامره العالية ومراسيمه ، ولما كانت الجمعية تخشى ثورة الجماهير فقد استسلمت وانحلت . وقرر إيفان أن روسيا سوف تنقسم فى المستقبل إلى قسمين : الأول « زمستشينا Zemstchina أو مجموعة المقاطعات ، ويظل تحت حكم النبلاء ومجالسهم « الدوما » ، ويخضع لضريبة إجمالية يفرضها القيصر ، ويكون تابعاً له فى الشئون العسكرية والخارجية ، ويكون فيما عدا ذلك حراً يتمتع بحكم ذاتى . والقسم الثانى « أوبرشنينا Oprichnina — الممتلكات المستقلة » يحكمه هو أى إيفان ، ويتكون من الأراضى التى يخصصها هو « للطبقة المنفصلة Oprichniki » التى يختارها القيصر للشرطة ولإدارة نصف المملكة هذا ، ولحمايته من الشعب ، ولتقوم بحمايته هو شخصياً ، ولتقدم له الخدمات العسكرية الخاصة به . واختير الموظفون الجدد — وكانوا فى البداية ألفاً وبلغ عددهم فى النهاية ستة آلاف ، اختيروا على الأخص من بين صغار أبناء النبلاء ، ولما لم يكن لديهم

أرض ، فقد كانوا على استعداد لتأييد إيفان مقابل الضياع التى منحهم إياها . واقتطع جزء من هذه الأراضى من أملاك التاج ، والجزء الأكبر منها من أملاك النبلاء الثوار التى صودرت . وبنهاية عصر إيفان كانت هذه « الممتلكات المستقلة — أوبرشنينا » تشمل نصف روسيا تقريباً ، وكثيراً من موسكو وأهم طرق التجارة . وكان هذا الانقلاب مماثلا لما حاوله بطرس الأكبر بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً : الارتفاع بطبقة جديدة إلى السلطة السياسية ، والارتقاء بالتجارة والصناعة فى روسيا . وفى مثل هذا القرن الذى كانت فيه القوة العسكرية كلها من الوجهة العملية فى قبضة الأرستقراطية ، تطلب المشروع شجاعة مفرطة فى القيصر الذى لم يتزود إلا بجنده الخصوصيين ، وبالتأييد الهزيل الذى لا يعتد به من جانب التجار والجماهير . ويؤكد لنا بعض المعاصرين أن إيفان — فى هذه الفترة الدقيقة — وهو آنذاك فى سن الخامسة والثلاثين ، كان يمثل ابن العشرين[11] .

واتخذ إيفان آنذاك الاسكندروفسك مقراً دائماً ، وحولها إلى قلعة محصنة . وربما كان التوتر الذى انتابه بسبب ثورته ضد النبلاء بالإضافة إلى الإخفاق فى الحرب الطويلة الأمد مع ليفونيا ، سبباً فى اعتلال عقله الذى لم يكن قط كامل الاتزان . ولقد ألبس حراسه غفارات سوداء ، وهى لباس الكهنة ، وقلنسوات ضيقة ، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان . ورتل مع فرقة المرتلين ، وشهد معهم القداس يومياً ، وكم خر ساجداً أمام المذبح فى حماسة حتى تكررت إصابات جبهته بالكدمات . وزاد هذا من الفزع الذى بثه فى روسيا التى بدأت تحس نحوه بمزيج من التبجيل له والإشفاق عليه ، وحتى أفراد « الطبقة المنفصلة » Oprichniki كانت تمثل أمامه فى ذلة وخشوع حتى أطلق عليهم أنهم حاشيته أو بلاطه .

واقترن انقلاب إيفان بالإرهاب ، شأنه فى ذلك شأن أى انقلاب آخر ، وقبض على معارضيه وأعدموا دون شفقة أو رحمة ، وجاء فى عرض

لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠ — ١٥٧٠) دونه أحد الرهبان ، ويحتمل أن يكون معاديا ، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠ . ويقول هذا العرض التاريخي أن الضحية كان في الغالب يعدم « مع زوجته » أو « مع زوجته وأطفاله » ، وفي حالة واحدة « مع عشرة من الرجال جاءوا لمساعدته[١٢] » . وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه ، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش . ويقال إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يصلوا من أجل نفوس ضحاياه . ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لجريمة الخيانة وخاصة زمن الحرب . وقد سلم أحد ممثلي بولنده بهذه الحجة ، وتضرع إنجليزي شهد شيئاً من هذه الجزيرة قائلا : « ندعو الله أن نتمكن من تعليم ثوارنا العنيدين واجبهم نحو أميرهم بالطريقة نفسها[١٣] .

وجاءت ذروة هذا الإرهاب في نفجرد . وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس ، وظن أنه كان بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل . ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة ، ليست بالضرورة غير مزيفة ، خلف صورة للعذراء في أحد أديار نفجرد ، وفيها عهد بالتعاون بين نفجرد وبسكوف مع بولنده لمحاولة خلع القيصر . وفي الثاني من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكي ، وأعملت النهب والسلب في الأديرة ، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة . وفي ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك ، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ روبلا ، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن . وجاء في « سجل أحداث نفجرد الثالث » أنه قد أعقب هذا مذبحة الأهالي التي دامت خمسة أسابيع . وفي بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون في اليوم الواحد ، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط . ولما استقر في الأذهان أن التجار ، وهم متلهفون

على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب ، قد شاركوا فى المؤامرة ، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ، ودمرت بيوت التجار فى الضواحى ، وحتى البيوت فى المزارع المجاورة للمدينة لحقها التدمير . وما لم يكن رواة الأحداث فى الأديار قد بالغوا فى وصف المذبحة ، فإنه يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى عقاب شارل الجرىء لثوار لييج ١٤٦٨ ، وأعمال السلب والنهب فى رومه على يد جنود شارل الخامس ١٥٢٧ لنجد أمثلة شبيهة بانتقام إيفان الوحشى . ولم تستعد نفجرد قط تفوقها القديم فى الحياة التجارية فى روسيا . واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب ، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل فى حفلة تنكرية ملكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة .

إن حكماً مثل هذا ممتلئاً بالفتن والشغب لا يكاد يساعد على التقدم الاقتصادى أو إنجاز الأعمال الثقافية . لقد انتعشت التجارة وقت السلم وانتكست زمن الحرب . وفى الأراضى المخصصة لطبقة الأوبرشنيكى ، وفى سائر الأراضى فيما بعد ، كان الفلاح مربطاً قانوناً بالأرض ، على أساس أنه وسيلة للنهوض بالزراعة المستمرة فيها (١٥٨١) على أن نظام الرق الذى كان نادراً فى روسيا قبل ١٥٠٠ ، صار فى ١٦٠٠ قانوناً من قوانين الأرض . وكانت الضرائب باهظة فاحشة ، واندفع التضخم المالى بشدة ، فكان الروبل فى ١٥٠٠ يساوى ٩٤ ، وفى ١٦٠٠ يساوى ٢٤ من الروبلات فى ١٩١٠(١٤) . وليس بنا من حاجة إلى تتبع الهبوط إلى أبعد من ذلك ، إلا لنعلم ، كدرس من دروس التاريخ ، أن النقود هى آخر شىء يجدر بالإنسان أن يدخره .

وأرغم إسراف الأسر القصير النظر فى الإنجاب وإرهاق التربة ، الناس على هجرة متواصلة لا تهدأ إلى أراض بكر . فلما اجتاز المهاجرون جبال الأورال وجدوا أمامهم مملكة للتتار سكانها من قبائل البشكير المسلمة

Bashkirs وقبائل أوستياك (قبائل من الفنلنديين والماجيار فى غرب سيبيريا) تعرف عاصمتها باسم سيبير Sibir (وهى من ألفاظ القوزاق). وفى ١٥٨١ جند سيمون ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيموفيفتش لغزو هذه القبائل، وقد تم له ذلك، وأصبحت سيبيريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة. أما إرماك الذى كان من زعماء قطاع الطرق فقد مجدته الكنيسة الأرثوذكسية، وضمته إلى قائمة القديسين.

وكانت الكنيسة هى الحاكم الحقيقى لروسيا، لأن خشية الله كانت سائدة فى كل مكان، على حين كان سلطان إيفان محدوداً. وكانت قواعد الطقوس الدينية، إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق، تقيد الجميع، حتى القيصر نفسه، وكان الكهنة يراقبون هل غسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذكسية. وكانت الصلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرخص بها، أما البروتستانتية فقد تسامحوا معها على أساس المشاركة فى العداء للبابا فى رومة. وكان إيفان الرابع — مثل هنرى الثامن — يزهو بعلمه فى اللاهوت، وانغمس مرة فى مناقشة عامة فى الكرملين مع كاهن لوثرى من بوهيميا، ويجب أن نسلم بأنه، وهو أعنف القياصرة، أدار المناقشة فى كياسة أكثر مما بدا فى المنازعات الدينية فى ألمانيا المعاصرة(١٥). ولكن إيفان لم يتصرف بمثل هذه الكياسة مع رجل لاهوتى آخر، ذلك أنه ذات يوم أحد فى سنة ١٥٦٨ أثناء الصلاة فى كنيسة الصعود، رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التى توسل إليه فيها، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ولكن دون جدوى، ولما سأل أتباعه عن سبب هذا الرفض، بدأ فيليب يعدد جرائم إيفان وفسوقه، فصاح القيصر: «هدئ من روعك وامنحنى البركة» فأجاب المطران: «إن سكوتى يوقعك فى الخطيئة ويستوجب هلاكك». وغادر إيفان المكان دون أن يمنح البركة. وظل فيليب شهرا تعروه الدهشة والعجب والقلق،

ولكن لم يمس فيه بسوء . وبعده دخل أحد خدم القيصر الكاتدرائية وقبض على المطران وساقه إلى أحد السجون فى تفر . ولا يعلم مصيره علم اليقين ، ولكن الكنيسة الروسية تؤيد القول بأنه أحرق حياً . وفى ١٦٥٢ ضم إلى قائمة القديسين ، وبقيت رفاته حتى ١٩١٧ موضع إجلال وتبجيل فى كنيسة صعود العذراء .

وظلت الكنيسة تنتج معظم الأدب والفن فى روسيا . ودخلت الطباعة فى سنة ١٤٩١ ، ولكن اقتصر المطبوع طوال هذا العهد على كتب الصلوات وكان زعيم العلماء آنذاك هو المطران مكاريوس ، الذى شرع فى ١٥٢٩ ، بمعونة بعض السكرتيرين فى جمع ما تبقى من آداب بلاده فى اثنى عشر مجلدا ضخماً ، ومرة أخرى نرى أن معظمها كان دينياً تماماً . وفى الكثير الغالب يتعلق بالأديار ووقائع التاريخ حسب ترتيب حدوثها . والف سلفستر معلم الاعتراف لإيفان كتاباً مشهورا هو « كتاب الأسرة » ، بمثابة دليل للاقتصاد المنزلى والسلوك ، والخلاص الأبدى ، وإنا لنلحظ فيه حث الزوج على أن يضرب زوجته برفق ، وتعليمات دقيقة لآداب البصق والمخاط(١٦) . ولم يكن إيفان نفسه ، كما تدل رســائله ، أقل كتاب هذا العصر براعة وقوة .

وكان أروع إنتاج فنى روسى فى عهد إيفان هو كنيسة « بازل المبارك » التى لا تزال قائمة بعيدا عن الكرملين فى أحد أطراف الميدان الأحمر . ولدى عودة القيصر من حملاته الظافرة ضد كازان وأستراخان (١٥٥٤) شرع فى بناء ما أسماه كاتدرائية « شفاعة العذراء » وهى التى نسب إليها انتصاراته بحكمة . وحول هذا المقام المتوسط من الحجر ، شيدت فيما بعد سبعة معابد من الخشب خصصت لقديسين كان إيفان قد تغلب على أعدائه فى أيام أعيادهم . وتوج كل معبد منها بقبة رشيقة مزدانة بالرسوم ، وكانت القباب كلها بصلية الشكل ، وإن اختلفت زخرفة كل منها . وأضفى آخرها وهو

الذى أقيم للقديس بازل فى ١٥٨٨ : أضفى اسمه فى وقت لاحق ، على هذه المجموعة الرشيقة الفاتنة . وتنسب أسطورة لا يمكن التغاضى عنها هذه العمارة إلى أحد الإيطاليين . وتروى كيف أن إيفان فقأ عينيه لئلا ينافس هذه التحفة الفنية الرائعة . ولكن اثنين من الروس : بارما وبوستنيكوف هما اللذان وضعا التصميم ، ولكنهما اقتبسا بعض حركات عصر النهضة فى زخرفتها فحسب[١٧] . ويوم أحد السعف من كل سنة ، كجزء من حكمة الدولة ، سار سادة موسكو ورجال الدين فيها فى موكب رهيب إلى هذه الكاتدرائية ، على حين امتطى المطران صهوة جواد مزود بآذان صناعية ، ليقلد الحمار الذى قيل إن السيد المسيح كان يركبه عند دخوله أورشليم ، وسار القيصر على قدميه يقود حصان المطران فى تواضع وخشوع ممسكاً بلجامه ، وكانت تحف بالموكب الأعلام والصلبان والأيقونات وحملة المباخر ، على حين ردد الأطفال عبارات الشكر والثناء تضرعا إلى السماء لتبارك الحياة فى روسيا .

وما أن وافى عام ١٥٨٠ حتى بدا أن إيفان قد انتصر على كل أعدائه . وكان قد بقى على قيد الحياة بعد وفاة عدد من الزوجات ، وبنى بزوجة سادسة . وفكر فى اتخاذ زوجة أخرى عن طريق المضارة الودية[١٨] (الزواج باثنتين فى وقت واحد) . وكان له أربعة أولاد ، مات أولهم فى طفولته ، وكان الثالث فيودور يعانى من تخلف عقلى . أما الرابع ديمترى ، فزعموا أنه كان بنوبات صرع . وفى أحد أيام شهر نوفمبر ١٥٨٠ أنب القيصر زوجة ابنه الثانى « إيفان » وضربها ، لما بدا له من أنها ترتدى ثوبا ينافى الحشمة والوقار ، فأجهضت ، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه . فضرب القيصر ابنه فى سورة الغضب دون ترو بالعصا الملكية على رأسه فمات الابن لتوه من أثر الضربة . فجن جنون القيصر ندما على فعلته ، وقضى أيامه ولياليه يصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى . وكان يقدم

تنحيه عن العرش صباح كل يوم ، ولكن حتى أعضاء المجلس أنفسهم أصبحوا الآن يؤثرونه على أبنائه . وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ، ثم أصابه مرض غريب ، جعل جسمه يتورم وتنبعث منه رائحة منتنة . وفى ١٨ مارس ١٥٨٤ قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج مع بوريس جودونوف ، وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم ، وأعد المسرح لأوبرا عظيمة فى تاريخ القياصرة .

ويجدر بنا ألا نظن أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش . ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيما ، لولا أنفه العريض المسطح الذى كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء . لقد ترجمت خطأ لفظة Groznyi بلفظة الرهيب Terrible والأرجح أنهـا تعنى « المرعب » Awesome ، مثل لفظة أغسطس التى أطلقت على القياصرة (الرومان) : وقد أطلق على إيفان الثالث نفس اللقب كذلك . وفى نظرنا ، وحتى فى نظر معاصريه القساة ، كان إيفان الرابع قاسياً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز ، وقاضياً لا يستشعر الرحمة : لقد عاصر محاكم التفتيش فى أسبانيا ، وإحراق سرفيتس(*) ، وعادة هنرى الثامن فى ضرب العنق ، واضطهاد الملكة مارى ، ومذبحة سانت برثلميو . ويقال إنه عندما سمع بهذه المذبحة أنكر همجية الغر [19] (ولو أن أحد الباباوات رحب بالمذبحة وامتدحها) . لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحنقه ، وتذكى النار فى مزاج سريع الانفعال أكسبته الوراثة والبيئة عنفاً : ويقول شاهد عيان إنه كان فى بعض الأحيان « يرغى من فمه — كما يفعل الحصان »[20] نتيجة مضايقة صغيرة أو الزعاج يسـير : ولقد اعترف القيصر بخطاياه وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحـلوا منها اتهاماتهم له .

(*) Servetus ١٥١١ ، ١٥٥٣ طبيب وعالم لاهوت أسبانى أحرق وهو مشدود إلى خازوق فى جنيف لاتهامه بالزندقة .

وأكب على الدرس والتحصيل فى حماسة ؛ وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين فى بلده وفى زمانه . وكان يتميز بروح المرح والدعابة ، ويضحك ضحكات عالية بملء شدقيه ، ولكن غالباً ما كانت ابتسامته تنم على الدهاء المخيف . غطى شروره بالنيات والمقاصد الرائعة ، فكان يريد أن يحمى الفقير والضعيف من الغنى والقوى ، ويحابى التجار والطبقات الوسطى كبحاً لجماح الأرستقراطية الإقطاعية المشاكسة ، كما كان يرغب فى فتح باب للتجارة والأفكار على الغرب ، ويزود روسيا بطبقة جديدة من الإداريين الذين لا يتقيدون — كما تقيد أعضاء المجلس من أبناء الطبقة العليا — بالأساليب العتيقة الجامدة ، ويحرر روسيا من ربقة التتار ، وينتشلها من وهدة الفوضى إلى الوحدة . وكان القيصر همجياً يناضل نضالا وحشياً ليرقى سلم الحضارة .

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس . وكادت أن تنسى فى غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التى كان قد خططها . وترك الفلاحين خاضعين لملاك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذى قبل . وأوصد بالحروب أبواب التجارة ، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو ، وشطر روسيا إلى قسمين متناحرين ، وسار بها إلى الفوضى . وضرب لشعبه مثلا مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة . وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية . وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عجزها إلى الحرب الأهلية . لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره ، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط .

الفصل الثلاثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ – ١٥٢٠

صمد العالم الإسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، مثل تلك الحملات الدينية العنيفة التى أخضع بها فيما بعد البلقان ، وحول ألفاً من الكنائس إلى مساجد . ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات ، نقول دفعت بملوك أوربا وفرسانها ورعاعها ضد قلاع المسلمين فى آسيا الصغرى وســوريا وفلسطين ومصر وتونس . وعلى الرغم من إخفاق هذه الهجمات آخر الأمر ، فإنها أضعفت نظام هذه الدول الإسلامية ومواردها إضعافاً خطيراً . وكان الصليبيون قد نجحوا فى أسبانيا حيث هزم المسلمون وأخرجوا ، ولكن بقاياهم تجمعوا فى غرناطة التى تأخر قدرها المحتوم بعض الوقت ، وكان النورمانديون الأشداء قد أخذوا صقلية من المسلمين . ولكن أين هذه الجراح والتمزيق من انقضاض المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ – ١٢٥٨) على بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ؟ وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، المدينة تلو الأخرى ، للسلب والنهب والمذابح والحريق – بخارى ، سمرقند ، بلخ ، نيسابور ، الرى ، هراة ، بغداد . وأسقطت الحكومات الإقليمية والمحلية ، وأهملت القنوات وتركت للرمال التى تذروها الرياح ، وأكرهت التجارة على الفرار ، ودمرت المدارس والمكتبات ، وتشتت الدارسون ورجال العلم أو ذبحوا أو استعبدوا . وتحطمت روح الإســلام لنحو قرن من الزمان

ثم انبعثت من جديد فى بطء ؛ ثم اكتسح تتار بتمورلنك غربى آسيا بدمار جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور ، ولم تعرف حضارة أخرى فى التاريخ مثل هـــذه الكوارث عدداً وانتشاراً وشمولا .

على أن المغول والتتار والأتراك أتوا بدمهم الجديد ليحل محل أنهار الدماء البشرية التى كانوا قد سفكوها . وكان الإسلام صار مترفاً فاتر الهمة ، وكانت بغداد — مثل القسطنطينية — فقد فقدت إرادتها فى امتشاق الحسام للدفاع عن النفس ؛ وأغرم الناس هناك بالحياة اللينة الهينة الرخية إلى حد الإشراف على الموت ؛ إن تلك الحضارة الرائعة — مثل الحضارة البيزنطية ، أينعت لتذوى وتذبل . ولكنها كانت غنية — مثل اليونان القديمة وإيطاليا النهضة — إلى حد القدرة على تمدين غزاتها ، بفضل ما أنقذ من شتاتها وذكرياتها ، وأنشأت فارس تحت حكم خانات المغول حكومة مستنيرة وأنتجت أدباً جيداً وفناً عظيماً ؛ وشرفت التاريخ بعالم جليل هو رشيد الدين . وفيما وراء النهر ، بنى تيمورلنك وغيره ، بشكل مؤثر ، قدر ما كان قد خرب ودمر . ووسط حملات السلب والنهب التى كان يشنها ، توقف ليكرم حافظ الشيرازى ؛ وفى الأناضول كان الأتراك فعلا متحضرين . وكان الشعراء بينهم من الكثرة قدر كثرة الخنليات أو الخليلات . وفى مصر استمر المماليك فى إقامة الأبنية بناء العمالقة الجبابرة . وفى غربى إفريقية أنجب الإسلام فيلسوفاً مؤرخاً ، كان يبدو إلى جانبه أعظم علماء المسيحية المعاصرة بمثابة حشرات صغيرة تقع فى الشرنقة وتموت جوعاً وسط عناكب الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى . وفى نفس الوقت كان الإسلام ينتشر فى الهند إلى أقصى الشرق .

١ ـ الأيلخانات فى فارس

١٢٦٥ — ١٣٣٧

عندما سار ماركوبولو فى ١٢٧١ عبر فارس ليرى الصين على عهد قبلاى خان ، وجد نفسه وسط إمبراطورية المغول . ولم يكن التاريخ قد سجل من قبل قط مملكة مترامية الأطراف مثلها . ففى الغرب لامست شواطئ نهر الدنيبر فى روسيا ، وفى الجنوب شملت القرم والعراق وفارس والتبت والهند حتى ضفاف نهر الكنج . وفى الشرق طوقت الهند الصينية والصين وكوريا ، وفى الشمال كان يقع موطنهم الأصلى منغوليا . وفى كل هذه البلاد تعهد حكام المغول الطرق ، ونهضوا بالتجارة ، وقاموا على حماية السائحين والمسافرين ، وأطلقوا حرية العبادة لمختلف العقائد .

لقد أسس هولاكو حفيد جنكيزخان ، بعد تدمير بغداد ١٢٥٨ ، عاصمة جديدة اسمها المراغة شمال غربى فارس . ولما مات ١٢٦٥ أصبح ابنه « أباقا » خان أو أمير فارس ، وخضع خضوعاً غير ثابت لقبلاى خان ، على بعد الشقة بينهما . ومن هنا بدأت أسرة الأيلخانية التى حكمت فارس والعراق حتى ١٣٣٧ . وكان أعظم أفراد هذه الأسرة هو غازان خان ، الذى كاد أن يكون أقصر رجال جيشه قامة ، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحتهم . وطرح غازان ولاءه للخان الأكبر فى منغوليا أو الصين وجعل من دولته مملكة مستقلة ، واتخذ من تبريز عاصمة لها ، وقدم إليها الرسل من الصين والهند ومصر وإنجلترا وأسبانيا . وقد أصلح الإدارة ، وثبت العملة ، وحمى الفلاحين من ملاك الأرض ومن اللصوص ، وساد الرخاء بدرجة تذكر ببغداد فى أزهى أيامها . وشيد فى تبريز مسجداً ومدرستين وأكاديمية للفلسفة ومرصداً ومكتبة ومستشفى . ووقف دخول أراضى معينة ، وقفاً دائماً للإنفاق على هذه المنشآت ، ووفر لها أعظم العلماء والأطباء ورجال

العلم فى داك العصر . وكان هو نفسه واسع الثقافة . وكان يعرف عدة لغات ، واضح أن من بينها اللاتينية[1] . وشيد لنفسه مقبرة بلغت من الفخامة والضخامة مبلغاً ظن معه أن موته (١٣٠٤) كان بمثابة دخوله ظافراً منتصرا إلى مقر أشرف وأعظم .

ووصف ماركو بولو تبريز بأنها « مدينة عظيمة متألقة » . وقال عنها فرا أودريك Fra Oderic (١٣٢٠) « إنها أجمل مدينة فى العالم للتجارة ، فهنا توجد أية سلعة بكميات وفيرة . . . » ويقول المسيحيون هنا « إن الدخل الذى كانت تدفعه المدينة لحاكمها يفوق ما تدفعه فرنسا كلها لمليكها »[2] هذا بالإضافة إلى « المبانى الأنيقة والمساجد الفخمة » ، « وأروع الحمامات فى العالم »[3] . وقدر أودريك أن عدد سكانها يبلغ مليوناً من الأنفس .

وتابع أولجايتو السياسة المستنيرة التى انتهجها أخوه غازان . وشهد عصره بعضاً من أروع العمارة والزخرفة فى تاريخ فارس ، وان سيرة قاضى قضاته رشيد الدين فضل الله لتوضح ازدهار التعلم والثقافة والآداب فى هذا العصر . وولد رشيد الدين سنة ١٢٤٧ فى همذان ، وربما كان أبواه من اليهود ، كما قال أعداؤه ، مستشهدين بســعة اطلاعه وعلمه بالشريعة الموسوية . ولقد خدم رشيد الدين الخان أباقا كطبيب له ، وغازان بوصفه كبيرا للوزراء ، وأولجايتو بوصفه صاحب بيت المال . وشيد فى إحدى الضواحى شرق تبريز حياً جديداً أسماه « ربع الرشيد » ، وهو مركز جامعى فسيح . وفى رسالة له محفوظة فى مكتبة جامعة كمبردج يصف هذا المركز فيقول :

« لقد شيدنا نزلا شاهقاً يناطح السحاب ، و ١٥٠٠ حانوت تفوق الأهرام فى رسوخها ، و ٣٠٫٠٠٠ منزل فاتن ، كما

شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق . ونزح الناس من كل حدب وصوب إلى هذا الربع ، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن . وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء ورجال اللاهوت ورجال القانون وعلماء الحديث ، في شارع سمى « شارع العلماء » . وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس ، ومبالغ من المال لشراء الصابون والحلوى . وأتينا كذلك بألف طالب ، وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم ، حتى يتفرغوا في راحة وأمان ، لطلب العلم ونفع الناس به . كما حددنا كذلك ، من من الطلبة ، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم . وبعد التحقق من صلاحية كل طالب وقدرته على فرع الدراسة الذى يريد التخصص فيه ، أمرناه بأن يتعلمه .

وأولينا عنايتنا ورعايتنا بصفة خاصة وبطرق شتى ، لخمسين طبيباً ماهرا جاءوا من الهند والصين ومصر وسوريا . فأمرنا بأن يترددوا على دار الشفاء كل يوم ، وأن يتعهد كل منهم عشرة طلاب صالحين لدراسة الطب ، ويدربهم على ممارسة هـــذا الفن الجليل . كما أمرنا بأن يعهد إلى أطباء النظارات والجراحين وأطباء العظام الذين يعملون بدار الشفاء ، بخمسة من أبناء موظفينا وحاشيتنا ليتعلموا طب العيون والجراحة وطب العظام . ولكل هؤلاء الرجال شيدنا حيا خلف دار الشفاء . . . سمى « شارع الأطباء » . كذلك استقرت كل جماعة من أرباب الحرف ورجال الصناعة الذين أتينا بهم من مختلف البلاد ، في شارع سمى باسمها »[٤] .

وخليق بنا أن يتولانا أشد العجب والدهشة لرجل وجد، مع إسهامه النشيط إدارة شئون المملكة ، من الوقت والمعرفة ما استطاع معه تدوين خمسة كتب فى اللاهوت ، وأربعة فى الطب وفى نظم الحكومة ، وكتاباً من عدة مجلدات فى تاريخ العالم . وفوق ذلك يؤكد لنا أحد المسلمين المعجبين أن رشيد الدين استطاع أن يخصص لتأليفه فترة ما بين صلاة الفجر وشروق الشمس . ومهما يكن من أمر فإن هناك أياماً تتلبد فيها السماء بالغيوم حتى فى أذربيجان . وقضى رشيد الدين سبع سنين فى كتاب « جامع التواريخ » ولشره فى مجلدين ضخمين ، ويقتضى نشره بالإنجليزية سبع مجلدات . وضمنه بيانات جوهرية عن المغول من جنكيزخان إلى غازان ، وعن مختلف الدول والأسرات الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى وغربيه ، وعن فارس واليهود قبل بعثة الرسول وبعدها ، وعن الصين والهند ، مع دراسة مستفيضة لبوذا والبوذية ، مع موجز مبسط لأعمال وأفكار ملوك أوربا وبابواتها وفلاسفتها . ويشهد كل الذين قرأوا هذه المجلدات — ولو أنها لم تترجم بعد إلى أية لغة أوربية — بأنها أقيم عمل فى النثر الأدبى فى فارس . ولم يستفد رشيد الدين من محفوظات حكومته فحسب ، ولكنه استخدم كذلك علماء من الصين ليؤمنوا له المعاهدات الصينية وغيرها من الوثائق ، ويبدو أنه قرأها مع غيرها من المراجع العربية والعبرية والتركية والمغولية ، كل فى لغته الأصلية(٥) .

ورغبة فى نقل هذه المجموعة الوافية من التواريخ إلى الأعقاب رغم الزمن والحرب ، أرسل رشيد الدين نسخاً من هذا الكتاب إلى المكتبات هنا وهناك ، وترجم إلى العربية ووزعه وخصص أموالا لكتابة نسخة بالعربية وأخرى بالفارسية فى كل عام ، لإهدائها إلى إحدى المدن فى العالم الإسلامى . على أن كثيراً من هذا الكتاب مع مؤلفاته الأخرى قد ضاع ، وربما يرجع هذا إلى الكارثة السياسية التى حلت به . ذلك أنه فى سنة ١٣١٢ أشرك الأمير أولجايتو على شاه مع رشيد الدين فى الإشراف على بيت المال ؛ وفى زمن « أبى سعيد »

الذى خلف أولجايتو ، نشر على شاه مختلف الاتهامات ضد زميله رشيد الدين ، وأغرى الخان بأن رشيد الدين وابنه إبراهيم كانا قد دسا السم لأولجايتو . فعزل المؤرخ (رشيد الدين) وسرعان ما أعدم (١٣١٨) وهو فى سن السبعين ، مع أحد أبنائه ، وصودرت ممتلكاته ، وحرمت مؤسساته من العطايا والمنح ، ونهبت ضاحية « ربع رشيد » ودمرت .

وقام أبو سعيد بترضية متأخرة ، ذلك أنه عين ابنا آخر من أبناء المؤرخ وزيراً له ، ونهج غياث الدين سبيل الحكمة والعدالة فى إدارة دفة الحكومة . وأعقب موت أبى سعيد فترة من الفوضى ، ووضعت نهاية لحكم أسرة الأيلخانيـــة ، وانقسمت مملكتهم إلى ولايات صغيرة دمرتها الحرب ، وخلصها الشعر .

٢ ـ حافظ الشيرازى

١٣٢٠ — ١٣٨٩

ما كان أكثر من ينظم القصيد فى فارس . وكان الملوك يكرمون الشعراء الذين لم يتقدم عليهم فى الحظوة بهذا التكريم والتبجيل إلا الحظايا والحظاظون والقواد . وفى زمن حافظ طبقت الآفاق شهرة عشرين من الشعراء ، وذاع صيتهم من البحر المتوسط إلى نهر الكنج ، ومن اليمن إلى سمرقند ، ولكنهم جميعاً ، على أية حال ، أحنوا رءوسهم إجلالا لشمس الدين محمد — المشهور باسم حافظ الشيرازى — وأكدوا له أنه بز « الشيخ سعدى » الشاعر الرخيم نفسه . وارتضى حافظ هذا التقدير ، وأخذ يحدث نفسه فى احترام قائلا :

« قسما بالقرآن الذى تعيه فى صـــدرك يا حافظ ، لم أر قط أجمل من شعرك »[٦] .

« وحافظ » لفظة معناها « المذكور » الذى يحفظ ويتذكر ، وهو لقب

أطلق على كل من حفظ القرآن كله — مثل شاعرنا — ولم يعرف تاريخ ميلاده ، وأبواه غير معروفين . وسرعان ما أقبل على الشعر : وكان أول من رعى الشاعر واحتضنه هو « أبو إسحق » الذى عينه غازان خان حاكماً على جنوب إيران . وأولع أبو إسحق بالشعر أيما ولع ، وأهمل شئون الحكومة . ولما جاءه النذير بأن بعض القوات المعادية تعد العدة لمهاجمة عاصمته « شيراز » ، قال إنه لسفيه ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذا الربيع الجميل فى الحرب . ولكن قائداً متبلد الشعور هو « مبارز الدين محمد بن المظفر » استولى على شيراز وقتل أبا إسحق (١٣٥٢) ، وحرم شرب الخمر وأغلق كل حانة فى المدينة . وفى هذا كتب حافظ مرثية حزينة قال فيها :

« ولو أن الخمر تبعث السرور ، والريح تنشر أريج الورود ،
لا تشربوا الخمر على أنغام القيثارة لأن المحتسب يقظ .
وخبئوا الطاس فى أكمام عباءاتكم المرقعة ،
لأن الزمن يسفك الدماء ، كما ينسكب الخمر من عين الإبريق الدامعة ،
واغسلوا بدموعكم ما تلطخ بالخمر من أرديتكم
لأن هذا موسم الورع وزمن التقشف والتعفف »[٧] .

ولما وجد خليفة ابن المظفر أن تحريم الخمر أمر غير عملى ، أو تبين أن شاربى الخمر أسلس قياداً وأيسر حكماً من المتطهرين المتزمتين ، أعاد فتح أبواب الحانات ، وخلد حافظ اسمه .

وسار شاعرنا على تقاليد الفرس فى نظم كثير من القصائد فى الخمر ، واعتبر فى بعض الأحيان أن زجاجة من الخمر « تسمو على تقبيل العذارى »[٨] . ولكن حتى الكروم تجف وتذوى بعد ألف مقطع من الشعر ، وسرعان ما تبين حافظ أن الحب ، عذرياً كان أو عملياً ، لا يستغنى عنه الشعر .

« هل تعرف ما هو الحظ السعيد ؟ إنه الظفر بنظرة إلى غادة هيفاء ، إنه التماس صدقة منها فى زقاقها ، وازدراء أبهة الملك »(٩).

وبدا له الآن أن الحرية ليست حلوة مثل حلاوة العبودية فى الحب .

« إن عمرنا قصير ، ولكن طالما أننا قد نفوز

بالمجد وهو الحب ، فلا تحتقر

الإصغاء إلى توسلات القلب ،

فإن سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل .

فاهجر عملك إذن وقبل حبيبتك الآن .

إنى لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ،

عندما تتفتح أزهار الربيع ، وتهجر الريح الطاحون

وتنزلق برفق لتقبل الغصن المورق .

أى حسناء شيراز ، امنحينى أمنية الحب ،

ومن أجل شامتك — تلك الحبة من الرمل العالقة

بصفحة خد من اللؤلؤ — سوف يمنحك حافظ

كل بخارى ، وكل سمرقند .

آه لو دخلت مع القدر فى رهان مرة ،

لحاولت برمية واحدة ، مهما كان الثمن ،

لألتقط أنفاسى ، أيها الحب اجمع بيننا ،

فما حاجتى بعد ذلك إلى الجنة .

إن الذى خلق غدائر شعرك من ذهب وفضة ،

وجمع بين الوردة الحمراء والوردة البيضاء

وأسلم إليهما خدك فى شهر العسل

أليس بقادر على أن يمنحنى الصبر ، وأنا ابنه(١٠) » .

ويبدو أنه آخر الأمر ، قد هدأت نفسه بالزواج ، فلو فسرنا قصائده الرقيقة تفسيراً صحيحاً ، فإنه وجد زوجة وأنجب عدة أطفال ، قبل أن يحزم أمره بين النساء والخمر . ويبدو أنه فى بعض أشعاره يرثيها ويتألم لفراقها :

« سيدتى ، يا من حولت بيتى
إلى فردوس حين حللت به ،
من أخمص القدم إلى قمة الرأس كان ثمة ملاك
من عند الله أحاطها بعنايته ، كانت طاهرة ، مبرأة من الإثم ،
جميلة المحيا مثل القمر ، عاقلة ،
وعيناها ذواتى النظرة العطوفة الناعمة
كانتا تشعان فتنة لا حدود لها
ثم حدثنى قلبى : هنا سوف يستقر بى المقام !
فإن هذه المدينة تتنفس بحبها فى كل ركن منها .
ولكنها نقلت إلى عالم بعيد قصى ،
للأسف لم يعرفه قلبى ، وا أسفاه أيها القلب المسكين !
إن نجماً خبيثاً شريراً أعمل أثره
فأرخى قبضة يدى التى كانت تمسك بها ، ووحدها بعيداً
رحلت من كانت تسكن فى صدرى »(١١) .

ومهما يكن من أمر فقد ألف المقام ، وركن إلى العزلة الهادئة ، وقلما ارتحل إلى خارج شيراز ، وقال إنه يترك لقصائده أن تجوب الأرض بدلا من شخصه ، وكم دعى إلى بلاط كثير من الملوك والأمراء . وأقنع للحظة وجيزة بقبول دعوة من السلطان أحمد بالإقامة فى القصر الملكى فى بغداد(١٢) ،

ولكن حبه لشيراز أبقاه حبيساً بها ، وكان يشك فى أن بالجنة نفسها مثل هذه الأنهار الفاتنة أو مثل هذه الورود الحمراء فى شيراز . وكان بين الحين والحين يوجه قصائد المديح إلى أمراء الفرس فى عصره أملا فى عطايا أو جوائز تخفف من ألم الفقر الذى كان يعانى منه ، لأنه لم يكن فى فارس ناشرون لينقلوا نفثات اليراع عبر البحار ، وكان على الفنان (أى الشاعر) أن ينتظر على أبواب النبلاء والملوك . والحق أن شاعرنا « حافظ » كاد أن يرحل يوماً إلى الخارج ، ذلك أن أحد أمراء الهند لم يبعث إليه بالدعوة فحسب ، بل زوده كذلك بالمال اللازم لنفقات الرحلة ، فأقلع حافظ ووصل إلى هرمز على الخليج الفارسى ، وكان على وشك الركوب فى السفينة فهبت عاصفة هوجاء حولته عن عزمه ، وحببت إليه الاستقرار . فعاد أدراجه إلى شيراز ، وبعث إلى الأمير الهندى بقصيدة بدلا من شخصه .

ويضم ديوان حافظ ٦٩٣ قصيدة معظمها غنائية ، وبعضها رباعيات ، وبعضها الآخر شذرات غير واضحة المعنى . وهى أصعب فى ترجمتها من أشعار دانتى ، زاخرة بقواف كثيرة مما يجعل منها فى الإنجليزية شعراً غير مصقول محطم الوزن ، كما تعج بالإشارات والتلميحات المبهمة التى كانت تبهج عقول الناس فى ذلك الزمان ، ولكنها الآن ثقيلة على السمع فى الغناء ، والأفضل أن توضع نثراً فى الغالب :

« كاد الليل أن ينصرم ، حين جذبنى أريج الورود ، فدلفت إلى الحديقة ، مثل العندليب ، أفتش عن بلسم للحمى التى انتابته .

وهناك فى الظل تألقت وردة ، وردة حمراء كأنها مصباح محجب ، فحدقت النظر فى محياها ،

إن الوردة فاتنة لمجرد أن وجه محبوبتى فاتن . . . وماذا يكون عبير المروج ، والنسيم الذى يهب فى الحديقة ، إذا لم يكونا

لخد محبوبتي الذي يشبه الخزامى (التيوليب) ؟
وفي ظلمة الليل حاولت أن أطلق قلبي من رباط غدائر شعرك
ولكني أحسست بلمسات خدك ورشفت رحيق شفتيك ، وضممتك
إلى صدري . ولفني شعرك وكأنه لهب . وألصقت شفتي
بشفتيك ، وأسلمت قلبي ونفسي لك كأنهما فدية(١٣) .

وكان حافظ إحدى النفوس الموهوبة الصادية المنهوكة ، التي تستجيب وتتأثر — عن طريق الفن والشعر والمحاكاة والرغبة شبه اللاواعية ، تستجيب وتتأثر بالجمال إلى حد الرغبة في عبادته ، فترغب بالعينين وبالألفاظ وبأطراف الأنامل ، أن تعبد أي شكل جميل ، سواء كان نحتاً على حجر أو رسماً أو آدمياً أو زهرة ، وتعاني في صمت مكبوت كلما ألم بها الجمال ، ولكن هذه النفوس أيضاً تجد فيما تفاجأ به كل يوم من فتنة أو سمو أو جمال جديد ، بعض المغفرة لقصر عمر الجمال ولسلطان الموت . ولذلك خلط حافظ التجديف بالعبادة ، وانساق في هرطقة غاضبة حتى في الوقت الذي كان فيه يثني على « الواحد الأحد الخالد » وهو المصدر الذي يفيض منه كل جمال على الأرض .

والتمس كثير من الناس أن يضفوا عليه احتراماً ووقاراً ، بتفسير خمره بأنها نشوة روحية ، وحاناته بأنها أديار ، ولهبه بأنها « النار المقدسة » : صحيح أنه أصبح متصوفاً وشيخاً ، وارتدى ملابس الدراويش ، ونظم قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والنساء والغناء ، وبدأت حركة لمحاكمته بوصفه زنديقاً كافراً ، ولكن أفلت منها بالتوسل بأن قصائد الهرطقة كان يقصد بها أن يعبر عن آراء أحد المسيحيين ، لا عن آرائه هو . ومع ذلك كتب يقول :

« أيها المتغطرس ، لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ؛
فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكفار سوى الغرور(١٤) »

والكافر هنا بطبيعة الحال هو المسيحي : وبدا في بعض الأحيان لحافظ أن « الإله » ما هو إلا شيء اختلقته آمال الإنسان :

« وهذا الذي يسوقنا في هذه الأيام التي تمر كوميض البرق ،
هذا الذي نعبده رغم معرفتنا بمن يفنيه أو يذبحه ،
أنه هو نفسه قد يتولاه الحزن والأسى ، لأننا حين نفنى
سيختفي هو أيضاً في هذا اللهيب نفسه »[١٥] .

ولما مات حافظ كانت عقيدته مشكوكاً فيها ، وكان مذهب المتعة عنده لاصقاً به إلى حد الاعتراض على تشييع جنازته في احتفال ديني ، ولكن أصدقاءه أنقذوا الموقف بتفسير أشعاره بالمجاز والاستعارة . وجاء بعد ذلك جيل دفن رفاته في حديقة أطلقوا عليها « الحافظية » تزدان بورود شيراز ، وتحققت نبوءة الشاعر بأن قبره سيكون « مزاراً يحج إليه عشاق الحرية من جميع أنحاء العالم » . وعلى لوح مقبرة حافظ المصنوع من المرمر نقشت إحدى قصائده ، وهي عامرة بالروح الدينية العميقة أخيراً . وفيها :

« أين أنباء الوحـــدة ؟ حتى أنهض
من التراب ، سوف أصحو لأرحب بك !
إن نفسي مثل الطائر الزاجل ، حنيناً منها إلى الجنة ،
سوف تصحو وتتوجع من شرور العالم التي أطلقت من عقالها .
وعندما يهتف بي صوت حبك لأكون عبداً لك
سوف أصحو إلى ما هو أعظم كثيراً من السيادة
على الحياة والعيش ، والزمن والعمر الفاني .
صب يا إلهي من سحب نعمتك الهادية
شآبيب الرحمة التي تسرع إلى قبري ،

قبل أن أنهض ، مثل التراب الذي تذروه الرياح من مكان إلى مكان ،
إلى ما وراء علم الإنسان .

وعندما تعرج بقدميك المباركتين إلى قبرى ،
سوف تحضر بيدك الخمر والإغراء إلىّ ،
ولسوف يرن صوتك فى طيات ملاءتى الملفوفة ،
ولسوف أنهض وأرقص على غناء قيثارتك .
ورغم شيخوختى ، ضمنى ليلة إلى صدرك ،
لأنى ، عندما ينبثق الفجر ليوقظنى ،
بنضارة الشباب فى خدى ، من بين أحضانك سوف أنهض .
انهض ! دع عينى تسرح وتمرح فى نعمتك العظيمة !
أنت الهدف الذى حاول كل الناس الوصول إليه ،
أنت المحبوب الذى يعبده حافظ ، ووجهك
سوف يأمره أن ينبعث من الدنيا ومن الحياة ويصحو(١٦)

٣ — تيمـــور

١٣٣٦ — ١٤٠٥

عرفنا أول ما عرفنا عن التتار أنهم قوم رحل من آسيا الوسطى ، وأنهم أنسباء وأقرباء ، وجيران للمغول ، وشاركوهم فى الحملات على أوربا . ووصف كاتب صينى من القرن الثالث عشر تحدرهم ، وصفاً كثير الشبه بما صور به المؤرخ جوردانيز أمة الهون قبل ذلك بألف سنة ، فالتتار قصار القامة ، كريهو الطلعة والمحيا للغرباء عنهم ، يجهلون القراءة والكتابة ، مهرة فى الحرب ، يسددون سهامهم دون أن تطيش من فوق ظهر جواد مسرع ، ويحافظون على استمرار جنسهم أو عرقهم بالمواظبة على تعــدد الزوجات . وكانوا فى هجراتهم وحملاتهم ينقلون معهم كل متاعهم وأمراتهم — الزوجات والأولاد والجمال والخيول والغنم والكلاب ، ويرعون الحيوانات

فيما بين المعارك ، ويتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون الملابس من جلودها . وكانوا يأكلون بنهم وشراهة عند توافر المؤن ، ولكن كانوا يحتملون الجوع والعطش والقيظ والقر ، « بصبر أكثر من أى شعب آخر فى العالم »(١٧) . وكانوا يتسلحون بالسهام المكسوة أطرافها أحياناً بالنفط الملتهب ، وبالمدافع ، وبكل معدات العصور الوسطى للحصار ، ومن ثم كانوا أداة صالحة مستعدة لكل من كان يحلم بتأسيس إمبراطورية منذ كان فى المهد صبياً .

وعند ما مات جنكيزخان (١٢٢٧) وزع ملكه على أبنائه الأربعة : فأعطى جغتاى الإقليم المحيط بسمرقند ، وحدث أن أطلق اسم هذا الابن على قبائل المغول أو التتار التى حكمها . وولد تيمور (أى الحديد) ، فى مدينة « كش Kesh » فى بلاد ما وراء النهر ، لأمير إحدى هذه القبائل . وطبقاً لما رواه كلافيجو Clavijo أدى « سوط الله » الجديد هذه المهمة منذ نعومة أظفاره : فنظم عصابات من صغار اللصوص لسرقة الغنم والماشية من المراعى المجاورة(١٨) . وفقد فى إحدى هذه المغامرات أصبعيه الوسطى والسبابة من يده اليمنى ، وفى مغامرة أخرى أصيب بجرح فى عقبه ، ومن ثم عرج بقية أيام حياته(١٩) فلقبه أعداؤه Timur-i-Lang أى تيمور الأعرج ، ولكن الغربيين غير المدققين ، مثل مارلو حرفوا هذا الاسم إلى Tamburlane أو Tamerlane . وقد وجد تيمور فسحة من الوقت لتلقى قليل من التعليم ، وقرأ الشعر ، وعرف الفرق بين المبادئ والانحلال . ولما بلغ سن السادسة عشرة ولاه أبوه زعامة القبيلة . وآوى إلى أحد الأديار ، لأن هذا الرجل العجوز (الوالد) قال عن الدنيا إنها ليست « أفضل من زهرية من الذهب مليئة بالثعابين والعقارب » (*) وقيل إن الوالد نصح ابنه أن يرعى الديانة دوماً ،

(*) هذا ، على أية حال ، منقول من مذكرات تيمور (٥ ، ١) المظنون أنه أملاها فى أعوامه الأخيرة ، ولكن يشك فى صحتها .

واتبع تيمور هذه الوصية إلى حد تحويل الرجال إلى مآذن (تكديس بعضهم فوق بعض للتنكيل بهم) .

وفى سنة ١٣٦١ عين خان المغول « خوجه الياس » حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وعين تيمور مستشاراً له ، ولكن الشاب النشيط لم يكن قد نضج بعد لممارسة فن الحكم ، وتشاجر بعنف مع سائر موظفى خوجه الياس ، وأجبر على الهروب من سمرقند إلى الصحراء . . . فجمع حوله عدداً من المحاربين الشبان ، وضم عصبته إلى عصبة أخيه الأمير حسين الذى كان فى مثل ظروفه . وتجولوا من مكمن إلى مكمن ، حتى تحجرت أجسامهم ونفوسهم بسبب الأخطار والتشرد والفقر ، إلى أن واتاهم بعض الحظ حين استخدموا لقمع فتنة فى سيستان Sistan ، وما أن اشتد عود الأخوين حتى أعلنا الحرب على خوجه الياس وخلعاه وذبحاه . وأصبحا حاكمين فى سمرقند على قبائل جغتاى (١٣٦٥) ، وبعد ذلك بخمس سنوات تآمر تيمور على ذبح الأمير حسين ، وأصبح السلطان الوحيد .

وتروى سيرة حياته المشكوك فيها ، عن عام ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) : « دخلت عامى الثالث والثلاثين ، ولما كنت دوما قلق البال لا يقر لى قرار ، فقد كنت تواقاً إلى غزو بعض البلاد المجاورة »(٢٠) . وكان يقضى أيام الشتاء فى سمرقند ، وقل أن انقضى ربيع دون أن يخرج فيه إلى حملة جديدة . وقد لقن المدن والقبائل فى بلاد ما وراء النهر أن تتقبل حكمه طواعية أو سلماً لا حرباً . وفتح خراسان وسيستان ، وأخضع المدينتين الغنيتين هراة وكابول ، وأحبط المقاومة والتمرد بما كان ينزل من عقاب وحشى . ولما استسلمت مدينة سبزاوار Sabzawar بعد حصار كلفه كثيراً ، أسر ألفين من رجالها ، « وكدسهم أحياء ، الواحد فوق الآخر ، وضرب عليهم بنطاق من الآجر والطين ، وأقام منهم مئذنة ، حتى إذا استيقن الرجال جبروت غضبه ، لا يعود يغويهم شيطان الصلف والكبرياء » . وهكذا روى القصة مادح

معاصر[٢١] . وغفلت مدينة زيريه Zirih عن هذه الحقيقة وأبدت مقاومة ، فأقام الغازى من رؤس أبنائها عدداً أكبر من المآذن . واجتاح تيمور أذربيجان واستولى على لورستان وتبريز ، وأرسل فنانيهما إلى سمرقند . واستسلمت أصفهان فى ١٣٨٧ وارتضت بقاء حامية من التتار بها ، فلما غادر تيمور المدينة انقض السكان على الحامية وذبحوا رجالها . فعاد تيمور بجيشه وانقض على المدينة وأمر كل فرد فى جيشه أن يأتيه برأس واحد من الفرس . وقيل إن سبعين ألفاً من رءوس الأصفهانيين علقت على أسوار المدينة أو أقيمت منها أبراج تزين الشوارع[٢٢] . فلما سكن روع تيمور وهدأت نفسه خفض الضرائب التى كانت المدينة تدفعها لحاكمها ، ودفعت سائر مدن فارس الفدية دون ضجة .

وتقول أسطورة أطرف من أن تصدق ، إنه فى شيراز فى ١٣٨٧ ، دعا تيمور أشهر مواطنى المدينة إلى المثول بين يديه ، وقرأ عليه غاضباً سطوراً (من الشعر) كانت قد قدمت فيها مدينتا بخارى وسمرقند من أجل الخال فى خد سيدة ، وقيل إن تيمور شكا غاضباً وهو يقول : « إنى بضربات سيفى اللامع الصقيل أخضعت معظم الأرض المعمورة لأزين بخارى ، وسمرقند ، مقر حكومتى ، وأنت أيها التعس الحقير تريد أن تبيعهما من أجل شامة سوداء فى خد سيدة تركية فى شيراز ! » وتؤكد الرواية أن حافظ انحنى أمام الأمير وقال : « وا أسفاه أيها الأمير ، أن هذا التبذير هو سبب البؤس الذى ترانى فيه » . واستساغ تيمور هذا الجواب فأبقى على حياة الشاعر ومنحه هدية سنية . ومما يؤسف له أن أحداً من كتاب سيرة تيمور المتقدمين لم يورد ذكر هذه الحادثة الطريفة[٢٣] .

وعند ما كان تيمور فى جنوبى فارس جاءته الأنباء بأن طقطميش خان القبيلة الذهبية انتهز فرصة غيابه ليغزو بلاد ما وراء النهر ، بل حتى ليعمل السلب والنهب فى المدينة الجميلة بخارى التى قدرها حافظ بنصف خال على

خد سيدة ، فسار تيمور ألف ميل إلى الشمال (تصور مشاكل التموين فى مثل هذه المسيرة) ، ورد طقطميش إلى الفولجا ، وسار جنوباً وغرباً ، وأغار على العراق وجورجيا وأرمينية ، وهو يذبح فى طريقه كل السادة الذين دمغهم بأنهم « شيوعيون مضلّلون »(٢٤) . واستولى فى ١٣٩٣ على بغداد بناء على طلب سكانها الذين لم يعودوا يحتملون جور سلطانهم أحمد بن أويس . ولما رأى تدهور العاصمة أمر معاونيه بإعادة بنائها ، وفى نفس الوقت أضاف إلى حريمه نخبة من الزوجات ، وإلى حاشيته واحداً من أشهر الموسيقيين ، ولجأ السلطان أحمد إلى بايزيد الأول سلطان العثمانيين فى بروسه . وطلب تيمور تسليم السلطان أحمد ، فرد بايزيد بأن هذا أمر يخدش تقاليد الضيافة عند الأتراك .

وكان من الممكن أن يتقدم تيمور إلى بروسه ، لولا أن طقطميش عاود غزو بلاد ما وراء النهر . فاكتسح التترى المهتاج جنوبى روسيا ، وبينما كان طقطميش مختبئاً فى البرية ، اجتاح مدينتى القبيلة الذهبية : سراى واستراخان . ولما لم يجد تيمور أية مقاومة ، تقدم بجيشه غرباً من الفلجا إلى الدون ، وربما كان من خطته أن يضم روسيا كلها إلى مملكته . وأقسام الروس فى البلاد الصلوات فى حرارة وحمية ، وحملت « عذراء فلاديمير » إلى موسكو ، بين صفوف الضارعين الراكعين وهم يصيحون : « يا أم الإله ، خلصى روسيا » . وساعد فقر السهوب على إنقاذها . ولما وجد تيمور أنه لا غناء فى هذه السهول الجرداء ولا شيء فيها يمكن سلبه ، ارتد إلى الدون وقاد جنوده المنهوكين الجياع إلى سمرقند (١٣٩٥ — ١٣٩٦) .

وتجمع كل الروايات على أنه كان فى الهند ثروات تشترى مائة روسيا ، وأعلن تيمور أن حكام المسلمين فى شمال الهند شديدو التسامح مع الهندوس الوثنيين الذين يجب عليهم اعتناق الإسلام أو تحويلهم إليه . وسار تيمور ، وهو فى الثالثة والستين من العمر على رأس جيش قوامه ٩٢٫٠٠٠ رجل

(١٣٩٨) . وعلى مقربة من دلهى التقى بجيش سلطانها محمود ، فهزمه ، وذبح مائة ألف (؟) سجين ، ونهب العاصمة ، وجلب معه إلى سمرقند كل ما استطاعت جنوده ودوابه أن تحمل من ثروات الهند الأسطورية :

وفى ١٣٩٩ ، ولم تكن قد محيت من ذاكرته قصـــة أحمد وبايزيد الأول ، تقدم مرة ثانية ، وعبر فارس إلى أذربيجان ، وخلع ابنه المبذر المضيع الذى كان حاكماً عليها ، وشنق الشعراء والوزراء الذين كانوا قد أغروا الشاب بالانغماس فى اللهو ، واجتاح جورجيا . ولما دخل آسيا الصغرى حاصر سيواس ، واغتاظ لطول مقاومتها ، فدفن أربعة آلاف جندى مسيحى أحياء — أو أن مثل هذه القصص من دعاية الحرب ؟ ورغبة منه فى حماية جناح جيشه عند مهاجمة العثمانيين ، أرسل رسولا إلى مصر مقترحاً ميثاق عدم اعتداء ، ولكن سلطان المماليك أودع الرسول السجن ، واستأجر سفاحاً لقتل تيمور . وباء المشروع بالإخفاق . وبعد إخضاع حمص وحلب وبعلبك ودمشق ، سار التترى إلى بغداد التى طردت كل الموظفين الذين عينهم هو . واستولى عليها بثمن باهظ ، وأمر جنوده البالغ عددهم عشرين ألفاً بأن يحضر إليه كل منهم رأس واحد من الأهالى : وتم له ما أراد — أو هكذا قيل : أغنياء وفقراء ، رجالا ونساء ، شيباً وشباناً ، فكلهم دفعوا ضريبة الرأس هذه ، وكدست رءوسهم على شكل أهرام مروعة أمام أبواب المدينة (١٤٠١) . وأبقى الغزاة على مساجد المسلمين وعلى أديار الرهبان والراهبات ، وسلبوا ودمروا ما عداها تدميراً تاماً ، حتى العاصمة التى كانت يوماً مدينة زاهرة باهرة لم تعد سيرتها الأولى إلا فى أيامنا هذه بفضل زيت البترول .

وإذ أيقن آنذاك تيمور أنه يمكنه أن يطمئن على ملكه عن اليمين وعن الشمال ، أرسل إلى بايزيد إنذاراً نهائياً للتسليم . ولكن سلطان الأتراك الذى زادت ثقته بنفسه بفضل انتصاره فى معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ ،

أجاب بأنه سوف يسحق جيش التتار ويتخذ من زوجة تيمور الأثيرة جارية له[٢٥] والتحم أقدر قائدين فى زمانهما فى أنقرة ١٤٠١، وأرغمت استراتيجية تيمور أعداءه الأتراك على القتال بعد أن أرهقهم وأنهك قواهم طول السير . وهزم الأتراك هزيمة منكرة وأخذ بايزيد أسيراً . وابتهجت القسطنطينية ، وظل العالم المسيحى بمنجاة من الأتراك لمدة نصف قرن بفضل التتار . وواصل تيمور سيره فى اتجاه أوربا إلى بروسه وأحرقها ، وحمل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية . وتقدم نحو البحر المتوسط ، وانتزع أزمير من أيدى فرسان رودس ، وذبح السكان ، وأقام فى إفسوس . وارتعد العالم المسيحى فرقاً مرة أخرى ، وقدمت جنوه التى كانت لا تزال تحتفظ بخيوس وفوشيا وميتلين خضوعها ودفعت الجزية . وأفرج سلطان مصر عن رسول ملك التتار ، وانخرط فى الزمرة الممتازة ، زمرة التابعين الخاضعين لسلطان تيمور . وعاد تيمور أدراجه إلى سمرقند ، وهو أقوى حكام عصره ، حيث امتد ملكه من أواسط آسيا إلى النيل ومن البسفور إلى الهند . وبعث إليه هنرى الرابع ملك إنجلترا بالتهنئة ، كما أوفدت إليه فرنسا أسقفاً يحمل الهدايا . وأوفد إليه هنرى الثالث ملك قشتالة بعثة شهيرة برياسة روى جونزاليز كلافيجو .

وإنا لمدينون لمذكرات كلافيجو بمعظم ما نعلمه عن بلاط تيمور . فقد غادر قادس فى ١٣ مايو ١٤٠٣ ، ومر بالقسطنطينية وطرابزون وأرضروم ، وتبريز وطهران (التى وردت الآن لأول مرة على لسان أحد الأوربيين) ونيسابور ، ومشهد ، حتى وصل سمرقند فى ٣١ أغسطس ١٤٠٤ . وكان قد توقع لسبب ما ، أن هناك قوماً من السفاكين الكريهى الطلعة . وما كان أشد دهشته لكبر عاصمة تيمور وازدهارها ، وفخامة المساجد والقصور ، وسلوك ساداتها وعاداتهم الحميدة ، وثراء البلاط وترفه ، واحتشاد للفنانين والشعراء حول تيمور احتفاء به وتكريماً له .

وكانت المدينة آنذاك قد مضى على بنائها أكثر من ألفي عام ، وكانت تضم نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع « مجموعة من أعظم الدور وأجملها » ، مع كثير من القصور « التي تظللها الأشجار » ، بهذا كله رجح كلافيجو أن سمرقند « أكبر من أشبيلية » ، هذا بخلاف الضواحي المترامية . وكان الماء يرفع إلى البيوت من نهر يجرى بالقرب من المدينة ، وكست مياه الرى المنطقة الخلفية بالخضرة . وتضوع الهواء بعبير البساتين والكروم . وتوافرت المراعى للأغنام والماشية ، ونمت المحاصيل الكثيرة . وكان فى المدينة مصانع للمدافع والدروع والأقواس والسهام والزجاج والخزف ، والمنسوجات المتناهية فى اللمعان بما فيها « القرمزى » وهو الصباغة الحمراء ، ومنه اشتقت اللفظة الإنجليزية Crimson . وكانت المدينة تضم التتار والأتراك والعرب والفرس والعراقيين والأفغانيين والكرجيين واليونان والأرمن والكاثوليك والنساطرة والهندوس ، ممن يعملون فى الحوانيت أو فى الحقول ، ويسكنون فى بيوت من الطوب أو من الطين أو الخشب ، أو يسرحون ويمرحون فى المدينة على ضفة النهر ، كل يمارس شعائره الدينية فى حرية تامة ، ويدعو لعقيدته المتعارضة مع سائر العقائد . وكانت تحف على جوانب الشوارع الرئيسية الأشجار والحوانيت والمساجد والمدارس والمكتبات ، وكان هناك مرصد ، وكان ثمة جادة رئيسية عريضة تقطع ، فى خط مستقيم ، المدينة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ، وكان القطاع الرئيسى من هذا الطريق العام مغطى بالزجاج[٣٦] .

وفى ٨ سبتمبر استقبل إمبراطور التتار كلافيجو ، الذى مر بساحة فسيحة « نصبت فيها خيام كثيرة من الحرير » ، وسرادقات مطرزة بالحرير ، وكانت الخيمة هى المسكن المألوف لدى التتار ، وكان لتيمور نفسه فى هذه الساحة خيمة يبلغ محيطها ٣٠٠ قدم ، كما كان هناك أيضاً قصور ذوات أرضية من الرخام أو القرميد ، مزودة بأثاث متين مرصع بالأحجار

الكريمة ، وكله مصنوع أحياناً من الفضة أو الذهب . ووجد كلافيجو ملك التتار جالساً القرفصاء على وسائد من الحرير « تحت مدخل أجمل قصر » قبالة نافورة يندفع منها عامود من الماء الذى انصب فى حوض يتحرك فيه التفاح بلا انقطاع . وكان تيمور يرتدى عباءة من الحرير ويلبس قبعة عالية واسعة مرصعة بالياقوت واللآلىء . وكان هذا العاهل طويل القامة نشيطاً يقظاً ، أما الآن وهو فى سن الثامنة والستين ، فقد كان منحنياً ضعيفاً متوجعاً ، وكاد أن يكون كفيفاً . وكان يستطيع بشق النفس أن يرفع جفنيه ليرى السفير .

وحصل تيمور من الثقافة على ما يمكن أن يحتمله رجل عمل ، فقرأ التاريخ ، وجمع الفن والفنانين ، وصادق الشعراء والعلماء ، واستطاع عند الاقتضاء أن يتحلى بأجمل العادات . واستوى غروره مع قدرته ، مما لم يتفوق فيه أحد عليه فى زمانه . وقدر تيمور على العكس من قيصر ، أن القسوة جزء ضرورى من الاستراتيجية ، ولكنه ، إذا صدقنا ضحاياه ، غالباً ما يبدو آثماً متهماً بالقسوة لمجرد الانتقام . فإنه حتى فى إدارته المدنية كان يسرف فى الحكم بالإعدام ، حتى على محافظ اتبع سياسة الظلم فى المدينة ، أو على جزار تقاضى للحم ثمناً أكثر مما ينبغى(٢٧) . إنه نفذ سياسة القسوة والعنف بوصفها ضرورية لحكم شعب لم يألف القانون بعد . وبرر مذابحه على أنها وسيلة لإرغام القبائل المخالفة للقانون والنظام على اتبـــاع النظام ومتطلبات الأمن فى دولة موحدة قوية . ولكنه مثل سائر الغزاة والفاتحين أحب القوة لذاتها ، وأحب الغنائم والأسلاب من أجل العظمة التى يمكن أن تغطى الغنائم تكاليفها .

وفى ١٤٠٥ شرع فى فتح منغوليا والصين ، يراوده حلم إنشاء دولة تضم نصف العالم ، وتربط بين البحر المتوسط وبحر الصين . وكان جيشه يتألف من مائتى ألف من الرجال الأشداء . ولكنه قضى نحبه فى أتار

Ottar على الحدود الشمالية من مملكته ، وكانت آخر أوامره أن يتابع جيشه سيره ، ولبرهة بسيطة تقدم جواده الأشهب المسرج ، دون أن يمتطيه صاحبه ، وهو يسير الهوينا فى خطى متزنة — تقدم الحشد . ولكن جنوده كانوا على يقين من أن عقل قائدهم وإرادته كانتا تشكلان نصف قوتهم . فعادوا على عجل إلى أوطانهم وهم فى حداد على موت القائد ، وقد كتب لهم الخلاص من هذه المهمة . وشيد له بنوه فى سمرقند مقبرة فخمة هى « مقبرة الأمير » ، وهى عبارة عن برج تعلوه قبة ضخمة بصلية الشكل ، مكسوة واجهتها بالآجر ذى الطـلاء الأزرق الجميل الفيروزى المائل للخضرة .

وتحطمت إمبراطورية تيمور بموته ، وكادت الأقاليم الغربية أن تنهار فى الحال . وكان لزاماً أن يقنع أولاده بالشرق الأوسط . وكان أعقل أفراد أسرة تيمور هو شاه رخ الذى رخص لابنه أولوج فى أن يحكم بلاد ما وراء النهر من سمرقند ، على حين حكم الوالد نفسه خراسان من هراة ، وتحت حكم خليفتى تيمور هذين أصبحت العاصمتان مركزين متنافسين على ازدهار التتار وثقافتهم ، ازدهاراً وثقافة تعدلان أياً من مثيلاتهما فى أوربا فى ذات العصر (١٤٠٥ — ١٤٤٩) . وكان شاه رخ قائداً قديراً يحب السلام ، وقد شجع الفنون والآداب ، وأسس فى هراة مكتبه ذائعة الصيت . وقال أحد أمراء أسرة تيمور « إن هراة هى جنة الدنيا »[٢٨] . أما أولوج بك فقد رعى رجال العلم ، وشيد فى سمرقند أعظم مرصد فى ذاك العصر . وقال أحد كتاب السير المنمقين من المسلمين :

« كان عالماً ، عادلا ، بارعاً ، نشيطاً ، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك ، على حين أنه فى علوم البلاغة كان شديد التدقيق . وسمت مكانة رجال العلم فى عصره إلى ذروتها . وفى الهندسة فسر أدق المسائل . أما فى علم الظواهر الكونيـــة

(الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطلميوس . ولم يجلس على العرش ملك مثله قط حتى اليوم . و سجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأولين . وأسس فى سمرقند كلية لا يمكن أن يوجد لها فى الأقاليم المتاخمة السبعة مثيل من حيث جمالها ومكانتها وقيمتها »(٢٩) .

ولكن هذا النموذج الفريد للرعاية قتل فى ١٤٤٩ بيد ابن غير شرعى له . واستمرت هذه الثقافة العالية التى تميزت بها أسرة تيمور على عهد السلطان « أبو سعيد » والسلطان « حسين بن بيقره » فى هراة حتى نهاية القرن الخامس عشر . وفى ١٥٠١ استولى مغول الأوزبك على سمرقند وبخارى ، وفى ١٥١٠ انتزع الشاه الصفوى هراة وبابور ، وفر آخر حكام أسرة تيمور إلى الهند وأسس هناك أسرة مغولية جعلت من دلهى الإسلامية عاصمة رائعة فى مثل روعة رومه على عهد أسرة مديتشى .

٤ ــ المماليك

١٣٤٠ — ١٥١٧

بينما كان الإسلام فى آسيا يعانى الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧) مصر التى سادها استقرار نسبى إذ ذاك . وقضى الموت الأسود على ازدهار البلاد لفترة من الزمن ، ولكن فى أثناء هذه القلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنية من جهة والاختلاسات والفظائع من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنه فى ١٣٨١ بدأت بالسلطان الملك الناصر بن برقوق أسرة المماليك البرجية التى ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعى ، وخفضوا قيمة النقد ، حتى على غير عادة الحكومات ، وفرضوا الضرائب الباهظة على ضروريات المعيشة ، وأساءوا استغلال احتكار الدولة

للسكر والفلفل . وفرضوا فى الإسكندرية رسوماً باهظة على تجارة أوربا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلى البحث عن طريق إلى الهند حول أفريقية . وخسرت مصر على مدى جيل بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) كثيراً من نصيبها الذى كان يوماً هائلا ، من التجارة بين الشرق والغرب ، وأوقعت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد فى حالة من الفقر المدقع إلى درجة أن السلطان سليم الأول لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، حين أنهى حكم المماليك ، وجعل من مصر ولاية عثمانية .

وظلت القاهرة من ١٢٥٨ حتى ١٤٥٣ أجل وأزهى مدن العالم الإسلامى وأكثرها ازدحاماً بالسكان . ووصفها ابن بطوطة وصفاً رائعاً فى ١٣٢٦ ، وقال عنها ابن خلدون الذى زارها ١٣٨٣ إنها « عاصمة الكون ، جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، عرش الملكية ، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة والرهبنات والأديار والكليات ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة ، جنة يرويها النيل حتى ليبدو أن الأرض تقدم ثمارها إلى الناس على سبيل الهدية والتحية »(٣٠) — وربما كان الفلاحون المنهوكون يعترضون على هذا .

وعكست مساجد مصر فى ذلك العصر قساوة الحكم أكثر مما عكست ألوان السماء . فلم يكن هنا إيوانات أو بوابات من الطوب المصقول أو القرميد الملون ، كما كان الحال فى آسيا الإسلامية ، بل كانت هناك جدران حجرية ضخمة جعلت من المسجد قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة . وكان مسجد السلطان حسن (١٣٥٦ — ١٣٦٣) عجيبة عصره ، ولا يزال أفخم آثار الفن المملوكى . وذهب المقريزى المؤرخ إلى أنه « فاق كل ما بنى من مساجد(٣١) » ولكنه كان قاهرياً محباً لوطنه . وتروى أسطورة غير مؤكدة كيف أن السلطان جمع مشاهير المهندسين من بلاد كثيرة ، وطلب إليهم أن يذكروا له أعلى صرح على البسيطة ، وأمرهم بأن يشيدوا صرحاً أعلى منه ، فذكروا له قصر خسرو الأول فى مدينة طيسفون (مدينة بابلية على نهر دجلة) الذى يرتفع الجزء الباقى من مدخله ١٠٥ من الأقدام فوق سطح الأرض . فبنى العمال

جدران المسجد الجديد ، بعد أن سرقوا حجارة الأهرام المتهدمة ، على ارتفاع مائة قدم ، وزادوا فوقها إفريزاً (كورنيش) بارتفاع ١٣ قدماً وشيدوا فى أحد الأركان مئذنة بارتفاع ٢٨٠ قدماً . وإن هذا المبنى الشاهق ليترك انطباعاً فى نفوس الغربيين ، ولكنه قل أن يسر الناظرين منهم . ومهما يكن من شيء فإن أهل القاهرة كانوا فخورين به ، إلى حد أنهم ابتدعوا أو استعاروا خرافة تقول بأن السلطان قطع يد المهندس حتى لا يصمم تحفة رائعة تضارع هذه ، وكأن المهندس يصمم بيده ! وكانت مساجد المقابر أكثر فتنة وجذباً للأنظار ، رغم الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد بناها سلاطين المماليك خارج أسوار القاهرة لتضم رفاتهم . من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق الذى بدأ حياته عبداً شركسياً ، انتهى أمره فى مجد صامت ، راقداً فى مقبرة من أفخم هذه المقابر .

وكان قايتباى أعظم البناة بين المماليك البرجية ، فالبرغم من أن الحرب مع الأتراك أنهكته ، فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة فى مكة والمدينة والقدس ، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والجامع الأزهر ، وشيد نزلا مشهوراً بزخارفه العربية المصنوعة من الحجر ، وبنى داخل العاصمة مسجداً ذا زخارف منسقة . وتوج قايتباى أعماله فى أخريات أيامه ، بمسجد تذكارى من الجرانيت والرخام ، ذى زخرفة رائعة ومئذنة عالية ذات شرفات : وقبة مزينة بنقوش هندسية ، مما جعل هذا المسجد مأثرة من المآثر الأقل قيمة للفن الإسلامى .

وانتشرت الفنون الصغيرة فى عهد المماليك . وصنع النقاشون على العاج والعظام والخشب ألفاً من المنتجات الجميلة ، من صناديق الأقلام إلى المنابر ، وهى منتجات كان يتخيلها الذوق ، ويقوم على تنفيذها العمل المتواصل والمهارة . وحسبك فى هذا أن تلقى نظرة على منبر مسجد قايتباى خارج أسوار المدينة فى متحف فكتوريا وألبرت . وبلغ التطعيم بالذهب والفضة

ذروته أيام هذه الأسرات الدموية . أما مصانع الخزف المصرى التى كانت قد ابتدعت ألفاً من البدع والأشياء الغريبة فى آلاف السنين المسحيقة فى القدم ، فإنها أخرجت الآن للعالم الزجاج المطلى بالمينا ومصابيح المساجد والكؤوس والزهريات المزدانة بالصور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة ، والمرصعة بالذهب أحياناً . وبمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصيها العد ، خلع الفنانون المسلمون على الجمال شكلا خالداً ، وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم أو كفروا عنها .

٥ — العثمانيون

١٢٨٨ — ١٥١٧

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك . « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنلندية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسيوى شرقى الأورال) من الهون ، وأن اسمهم يعنى « خوذة » وهى فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهـذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً . واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها سلجوق . ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى وفرت عشيرة أخرى من أقرباء العشيرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل ،أر، من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها سلجوق أمير قونيه بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (؟) مات أرطغرل ، فاختير ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية فى تركستان وخراسان . وفى ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا فى طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلا على ولاية صغيرة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وفى ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى ينى شير . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا فى ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال آرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرة مدن بيزنطية ناعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهى بروسه ، وأخفق أول الأمر فى الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، فى الوقت الذى كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت فى ينى شير (١٣٢٦) :

واتخذ أورخان من بروسه ، التى تقدست برفات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة فى المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفى نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التى صارت فيما بعد أزميد ، وفى ١٣٣٠ استولى على نيقيه التى أصبحت أزنيق ، وفى ١٣٣٦ استولى على برجاموم التى أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة فى القدم والتى تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت فى المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتى كان العثمانيون قد استولوا عليها فى ذلك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلا ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البيزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص فى حرية العقيدة — وكان كثير من هؤلاء المسيحيين فى الشرق الأدنى هراطقة مرهقين :

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة . وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضى المفتوحة ، وهكذا تحل الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف عاجزة محيرة . ومذ وسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان فى بناء معاقل على أرض أوربا . وقضى أورخان نحبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكراه بين جوانح شعبه .

وكون خلفاؤه من بعده أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل ، فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولما كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة فى المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رءوس أبنائهم[٣٢] . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضى البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه فى ميدان القتال فى قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة فى ذاك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« بلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى تميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفتش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتألق غروره وكبرياؤه حتى سقوطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إنى أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنك ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنك تخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى ؟ ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتك على أن تقسم بشريعتك وعقيـــدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرتك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن ألزمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، واخرج إلى قتالى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك . . . وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فإنى قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى »(٣٣) .

ولما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ؛

على الرغم من الرسائل المهينة التى كانا قد تبادلاها على مدى عام ، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب ، احتجز فى غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فدعا تيمورلنك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل السيدة دسپوانا لتسهر على رعايته ومواساته : ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية فى السلطان المحطم ومات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم من أنه فقأ عينى أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب السيد المهذب ، بفضل سلوكه الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات السلم العشر التى منحها للعالم المسيحى . وكان لمراد الثانى مثل هذه المشارب ، فآثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاحماً له ليخلعه ، ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثانى فى وارنه (١٤٤٤) أنه قائد كأحسن ما يكون القواد : ثم عاد إلى مغنيسيا فى آسيا الصغرى ، حيث عقد مرتين فى كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث فى العلوم والفلسفة . واقتضت ثورة فى أدرنه عودته إلى أوربا ، فأخمدها ، وقهر هونياد فى قوصوه . وعندما مات فى ١٤٥١ ، بعد أن قضى فى الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون فى مصاف أعظم حكام عصره ، وقد أمر فى وصيته بأن يدفن فى بروسه فى مصلى متواضع غير مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ، وسقوط المطر والندى على جدثه »[٣٤] .

وتساوى محمد الثانى مع أبيه فى الثقافة والفتوحات والفطنة السياسية وطول الحكم ، وليس فى العدل ولا فى النبل . فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم فى مفاوضـــاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خططه فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتى عرفت لانتزعتها »(٣٥) . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع فى عديد من الآداب ، بارعا فى الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء فى فارس والهند . وجاء بعده فى المرتبة الثانية كنصير للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيده كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبو الأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت القسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان فى أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذى لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها : فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسى ، ولم تجد العقاقير نفعاً فى تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر فى عداد الأغوات . وقضى نحبه فى سن الواحدة والخمسين فى اللحظة التى بدأ فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامى .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولى بايزيد الثانى العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدت سيطرة الأتراك على شرقى البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعيه بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركى على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقـــد الصلح ومنحها بايزيد شروطاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يلبث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ؛ فإن الطباع والأشكال السائدة فى عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذى يليه ، والذى يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهفاً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذى يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدرى سليم الأول بسياسة السلم التى انتهجها والده . وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعا بالصيد والقنص وحياة المعسكر ، واستحق لقب « العبوس » لأنه شنق تسعة من ذوى قرباه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة اسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فقطع سليم على نفسه عهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة فى القدس ، وبودا وروما ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس[٣٦] . وإذ أثار النعرة الدينية فى شعبه إلى حد القتال . فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفى ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى المماليك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) ، وحمل من القاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دينى عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) .

وفى أوج مجد قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحى . فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فقضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقاً لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

٦ ـ الأدب الإسلامى

١٤٠٠ ـ ١٥٢٠

نظم سليم العبوس نفسه قصائد من الشعر المقفى ، وورّث ابنه سليمان القانونى ديواناً ملكياً ضم قصائده المجموعة ، مثل ما ورثه إمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب والنيل ، وإنك لترى اثنى عشر من السلاطين وكثيراً من الأمراء ، من بينهم الأمير جم الذى أجزل أخوه [illegible] الثانى العطاء للوك المسيحية وبابواتها ليحتجزوا الأمير فى معتقل لائق ، نقول إنك لترى هؤلاء السلاطين والأمراء بين ٢٢٠٠ شاعر عثمانى طبقت شهرتهم الآفاق فى القرون الستة الأخيرة(٣٧) . واقتبس معظم هؤلاء الشعراء من الفرس أشكال شعرهم وأفكاره ، وفى بعض الأحيان لغته ، وواصلوا ، فى معين من القصيد لا ينضب ، تمجيد عظمة الله ، وحكمة الشاه أو السلطان ، وارتعاد شجرة السرو حسداً عند ما يقع نظرها على السيقان النحيلة الناصعة البياض للحبيبة . وقد ألفنا الآن نحن فى الغرب هذه المفاتن إلى حد أننا لم نعد نهتز لهذه التشبيهات الماثلة . ولكن « الأتراك الفظعاء » الذين كانت نساؤهم متدثرات من الأنف إلى أخمص القدم بشكل كله إغراء ، اهتزوا إلى الأعماق بهذه الإيحاءات الشعرية ، وهذا الشعر الذى غيرت ترجمته من طبيعته ، والذى لا يؤثر فينا ولا يحرك فينا شعرة ، كان يحفزهم إلى التقى والورع وإلى تعدد الزوجات وإلى الحرب .

وإنا لنختار فى خيال ساذج ، من بين ألف من الموتى الخالدين ، ثلاثة أسماء لا تزال غريبة غير مألوفة لدى المجتمعات المحلية فى الغرب . من هؤلاء أحمدى ، وهو من سيواس (المتوفى ١٤١٣) الذى نهل أول ما نهل من الأستاذ الفارسى النظامى ، وقد كتب أحمدى « اسكندرنامه » أى كتاب الإسكندر ، وهو ملحمة ضخمة فى أسلوب قوى غير مصقول ، لم تتناول

قصة غزو الفرس للإسكندر فحسب ، ولكن تضمنت كذلك تاريخ الشرق الأدنى ودياناته وعلومه وفلسفته من أقدم العصور إلى عهد بايزيد الأول . ويجدر بنا أن نكف عن الاقتباس لأن الترجمة الإنجليزية أشبه شيء بكابوس يجثم على الصدر . أما شعر أحمد باشا (المتوفى ١٤٩٦) فقد ابتهج به السلطان محمد الثانى إلى حد أنه عين الشاعر وزيراً له . ولكن الشاعر وقع فى غرام خادم جميل من حاشية الإمبراطور الذى كان به مثل هذا الميل ، فما كان منه إلا أن أمر بإعدام الشاعر . وأرسل أحمد إلى مولاه قصيدة غنائية تفيض رقة ، حتى أن محمداً وهبه الغلام ، ولكنه نفى الاثنين إلى بروسه[٣٨] . وهناك آوى أحمد إلى داره شاعراً شاباً قدر له فى الحال أن يبزه ، ونظم نجاتى (المتوفى ١٥٠٨) ، وكان اسمه الحقيقى عيسى — نظم قصيدة غنائية

مدح محمد الثانى ، وربطها فى عمامة صفى السلطان وزميله فى لعبة الشطرنج ، ودفع فضول محمد الثانى به إلى الوقوع فى الشرك ، وفض اللفيفة وقرأ القصيدة ، واستدعى ناظمها وعينه موظفاً فى القصر الملكى . وأبقاه بايزيد الثانى ناعماً بالحظوة والثراء . وكتب نجاتى الذى انتصر بشكل بطولى على الازدهار والنجاح ، بعض القصائد الغنائية التى تستحق أعظم الثناء والتقدير فى الأدب العثمانى .

ومهما يكن من أمر ، فإن فطاحل الشعر الإسلامى كانوا لا يزالون من الفرس . وكان بلاط حسين ببقرة فى هراة يعج بالعنادل المغردة ، حتى أن وزيره مير على شيرنواى شكا قائلا : « لو أنك مددت قدميك لرفست بهما ظهر شاعر » : فرد عليــه شاعر آخر بقوله : « وكذلك تفعل أنت لو سحبتهما[٣٩] » . وكان مير على شير (المتوفى ١٥٠١) ، إلى جانب معاونته فى حكم خراسان ، ورعايته للأدب والفن ، وذيوع صيته فى رسم المنمنمات والتاجين — نقول كان شاعراً فحلا ، فكان ميسيناس وهوراس زمانه فى وقت معاً . ومن فيض رعايته المستنيرة استمد العون والسلوى المصوران بهزاد

وشاه مظفر ، والموسيقيون قول محمود وشائقى نائى وحسين يودى ، والشاعر الإسلامى الكبير فى القرن الخامس عشر ملا نور الدين عبد الرحمن جامى (المتوفى ١٤٩٢) .

ووجد جامى فى حياته الطويلة الهادئة فسحة من الوقت ليكتسب شهرته عالماً ومتصوفاً وشاعراً . فشرح باعتباره من رجال الصوفية ، فى نثر رقيق ، الفكرة الصوفية القديمة ، وهى أن الاتحاد البهيج بين النفس البشرية وبين الحبيب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لا يأتى إلا إذا أيقنت النفس أن الإنسان ليس إلا وهماً وسراباً ، وأن كل الأشياء فى الدنيا هى مجموع من الأشباح العابرة التى تتلاشى فى ضباب الفناء . ومعظم قصائد جامى عبارة عن تصوف منظوم شعراً ، ممزوج بشىء من الحسية الجذابة . ويقص علينا سلمان وأبسال حكاية طريفة تشير إلى أن الحب الإلهى يسمو على الحب الدنيوى . وسلمان هو ابن شاه يون (أيونيا) وقد ولد من غير أم (وهذا شىء أصعب بكثير من التوالد العذرى) وقد تولت تربيته الأميرة الجميلة أبسال التى افتتنت به حين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، وقد غزت قلبه وأسرته بما اصطنعت من أسباب التجميل والتطرية .

« أحاطت سواد عينيها بسواد الإثمد
حتى تحوله إلى ليل وهو فى وضح النهار ،
وزينت وزججت الحواجب فوقهما .
لتصيبه إذا ضل هناك ، وشعرها الذى يتضوع منه المسك
صففته فى لفائف أفعوانية كثيرة
كمن فيها « الإغراء » فوق خدها
الذى أضاءت ورده بندى قرمزى
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع فى الشرك طائر هذا القلب الحبيب

وقد تمر أحياناً فتطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفتيها اللتين تحفظان بينهما اللآلى
أو تنهض وكأنها على عجل ، فتقعقع خلاخيلها الذهبية ،
وعلى نداءاتها المفاجئة : تأتى
تحت قدميها الفضيتين بالتاج الذهبى »(٤٠) .

وهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع ، ويستسلم الأمير دون عناء لهذه المغريات ، ولبعض الوقت ينعم الاثنان — الولد والسيدة فى حب مشبوب . فيؤنب الملك هذا الشاب على مثل هذا العبث ، ويأمره أن ينجو بنفسه إلى الحرب والحكم . ولكن سلمان بدلا من ذلك يهرب مع أبسال على ظهر جمل ، « وكأنهما لوزتان حلوتان فى قشرة واحدة » ، حتى إذا وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به « شهراً » وأتيا إلى جزيرة مكسوة بالخضرة ، مليئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة ، والثمار والفاكهة التى تتساقط تحت قدميهما بكثرة . ولكن فى جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير فيؤنبه ، ويفكر فى مهام الملك التى أغفلها ، ويحث الأمير محبوبته أبسال على العودة معه إلى يون ، ويحاول أن يدرب نفسه على الاضطلاع بأعباء الملك ، ولكنه موزع بين الواجب والجمال ، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن يجن ، وانضم إلى أبسال فى محاولة للانتحار ، فبنيا محرقة ، وقفزا إليها ، ويد كل منهما فى يد الآخر ، وأتت النيران على أبسال ، ولكن سلمان يخرج سالماً ولم يحترق . والآن وقد تطهرت نفسه ، فإنه يرث العرش ويشرفه . وكل هذا مجاز يفسره جامى بأن الملك هو الله ، وسلمان هو النفس البشرية ، وأبسال هى نشوة الشهوة ، والجزيرة السعيدة هى جنة الشيطان التى تضل فيها النفس عن مصيرها الإلهى ، أما المحرقة فهى نار تجربة الحياة ، التى تتلاشى فيها الرغبات الشهوانية ، أما العرش الذى ترقى إليه النفس المطهرة فهو عرش الله . ومن العسير أن نعتقد أن شاعراً استطاع أن يصور مفاتن

المرأة بهذا الشكل الحساس ، يمكن أن يطالب إلينا اجتنابها اللهم إلا بين الفينة والفينة .

وفى جرأة عوض عنها ما تمخضت عنه تجاسر جامى فعالج ، شعراً ، من جديد ، الموضوعات الأثيرة لدى اثنى عشر من الشعراء قبله : يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون . وفى تصدير فصيح يعيد تقرير النظرية الصوفية : نظرية الجمال الإلهى والجمال الدنيوى :

فى « القفر البدائى » ، حيث لم تعط الحياة أية علامة على وجودها ، ورقد الكون مختبئاً منكراً نفسه ، كان ثمة شىء . إنه الجمال المطلق يظهر نفسه لنفسه فقط ، وبنوره هو وحده . مثل أجمل النساء فى غرفة زفافها المحفوفة بالأسرار ، كان ثوبها نقياً لا تشوبه أية شائبة ، ولم تعكس أية مرآة وجهها ، ولم يمر المشط قط بخصلات شعرها ، ولم يحرك النسيم العطر قط شعرة واحدة منها ، ولم يأو قط أى عندليب على صفحة خدها الوردى . . . ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولا . انظر إلى زهرة التوليب فوق قمة الجبل ، وهى تنفذ فى الصخر فرعها الغض لأول بسمة من بسمات الربيع . . . كذلك الجمال الأبدى أتى من الأماكن المقدسة للأسرار ليشع فى كل الآفاق وفى كل النفوس ، وثمة شعاع واحد انطلق من هذا الجمال الأبدى ، واخترق الأرض والسموات ، ومن ثم تكشف وظهر فى مرآة المخلوقات . . وأصبحت كل ذرات الكون بمثابة مرايا تعكس كل منها ناحية من نواحى العظمة الأبدية . وسقط شىء من تألقها على الوردة والعندليب ، فأصابهما شىء من جنون الحب البائس واتقدت حماستهما ناراً ، وجاء ألف من الفراشات لتهلك فى اللهب . . وهى التى أضفت على قمر كنعان لمعانه الساطع الذى أصاب زليخة بالجنون (٤١) .

إن جامى يهبط من علياء سمائه ليصف جمال الأميرة زليخة فى تكرار وإسهاب يتقدان حماسة ، حتى إلى حد وصف « حصن العفة والملمس الحرام فيها » .

> وكان نهداها بمثابة كرتين من نور بالغ النقاوة أو فقاعتين تقفزان حديثاً من نافورة كافور ، أو رمانتين صغيرتين تنموان على غصن واحد ، لا يستطيع أى طامع جرىء أن يمسهما بأصبعه(٤٢) .

إن زليخة ترى يوسف فى المنام ، فتقع فى غرامه لأول ظهوره . ولكن أباها يزوجها من وزيره بوتيفار . ثم ترى يوسف بشخصه رأى العين معروضاً للبيع فى سوق الرقيق فتشتريه وتغريه ، ولكنه يرفض صداقتها والتفاهم معها ، فيصيبها الهزال ، ويموت الوزير ، ويحل يوسف محله ، ويتزوج زليخة ، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين ، إلى حد الموت آخر الأمر . إن حب الله فقط هو الحقيقة وهو الحياة ، إنها قصة قديمة ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يركن إلى هذه المواعظ ؟

٧ — الفن فى آسيا الإسلامية

فى كل البقاع التى وصل إليها الإسلام من غرناطه إلى دلهى وسمرقند ، استخدم الملوك والنبلاء العباقرة والعبيد لبناء المساجد والمقابر ، والرسم على الآجر وإحراقه ، ونسج الحرائر والسجاجيد وصبغها ، وطرق المعادن ، والحفر على الخشب والعاج ، وزخرفة المخطوطات بالألوان المائية والخط . واستمسك الخانات والتيموريون والعثمانيون والمماليك ، وحتى الأسرات الصغيرة التى حكمت الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامى ، استمسكوا جميعاً بالتقليد الشرقى ، وهو تلطيف السلب بالشعر ، وتلطيف القتل بالفن .

وفى قرى الريف وفى قصـور المدن أخرجت الثروة جمالا ، ونعمت قلة محظوظة بقرب أشياء تغرى اليد بلمسها ، وتغرى العين بالنظر إليها .

وكان المسجد لا يزال مجمع الفن الإسلامى . فالطوب والقرميد أكسبا المئذنة جمالا شاعرياً ، وأبواب الخزف المزخرف جعلت من ضوء الشمس ألواناً براقة ، وأبرز المنـبر الأشكال المتعرجة المحفورة أو التطعيم المعقد فى الخشب ، ووجهت فخامة المحراب قلوب المصلين إلى مكة . وقدمت المصابيح والثريات مشكاتها المعدنية إجلالا وولاء لله . وجعل السجاد من الأرض البلاط مكاناً ليناً وهيأ لركبتى المصلى سجوداً وثيراً . وغلفت المصاحف المذهبة بالحرير الثمين . وعجب كلافيجو « من المساجد الجميلة المزدانة بالآجر الأزرق والذهبى[٤٣] » ، وفى أصفهان أقام أحد وزراء أولجايتو فى مسجد الجمعة محراباً بات فيه الجص العادى من مفاتن الزخرفة العربية والنقش . وشيد أولجايتو نفسه فى « سلطانية » ضريحا فخما (١٣١٣) أراد أن ينقل إليه رفات على والحسين (كان الخان أولجايتو شيعيا) . ولكن خطته أخفقت إخفاقاً محموداً ، فإن عظام الخان ووريت الترب فى هذا الضريح المهيب . وتتسم أطلال المسجد فى فارامين (١٣٢٦) بالضخامة والجلال .

وأولع تيمور بالبناء ، وسرق أفكار العمارة ، كما سرق الفضة والذهب من ضحايا أسلحته . وآثر الضخامة بوصفه فاتحاً ، وكأنما هى ترمز إلى إمبراطوريته وإلى إرادته ، ومثل محدثى الثراء أغرم باللون وأسرف فى الزخرفة . وافتتن بالآجر الأزرق المطلى فى هراة ، فاستقدم خزافين من فارس إلى سمرقند ليكسوا بالطوب اللامع واجهات المساجد والقصور فى عاصمته ، وسرعان ما أشرقت المدينة وتألقت بالخزف الفخم . ولحظ فى دمشق قبة بصلية الشكل تنبعج فوق القاعدة ثم يستدق طرفها إلى أعلى حتى يصبح مدببا ، فأمر مهندسيه أن يأخذوا تصميمها وأبعادها قبل أن

تسقط فى الحريق العام ، وتوج سمرقند بمثل هذه القباب ، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا ، حتى إنك لتراه سائداً من تاج محل إلى الميدان الأحمر . ولما عاد من الهند أحضر معه الفنانين والصناع المهرة : فأقاموا له فى ثلاثة أشهر مسجداً ضخماً هو « مسجد الملك » له بوابة ارتفاعها مائة قدم ، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر . وشيد لأخته « تشوشوك بيكا » ضريحاً لتدفن فيه ، أصبح تحفة العمارة فى عصره(٤٤) . وعندما أمر ببناء مسجد تخليداً لذكرى زوجته الأثيرة لديه ، بيبى خانون ، أشرف على البناء بنفسه ، وألقى باللحوم إلى العمال فى الحفائر ، ونفح الصناع المهرة المجتهدين بالنقود ، وحثهم أو أجبرهم على العمل ليل نهار ، حتى أقبل الشتاء وتوقف البناء ، وأخمدت حماسته .

وأنجز خلفاؤه فنا أكثر نضجا . ففى « مشهد » على الطريق بين طهران وسمرقند استخدمت « جوهر شاد » زوجة « شاه رخ » المغامرة ، المهندس المعمارى قوام الدين فى بناء المسجد الذى يحمل اسمها (١٤١٨) ، وهو أروع نتاج الهندسة الإسلامية الفارسية وأغناه بالألوان(٤٥) . وفيه تحيط المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه ، وتؤدى أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسى ، كسيت واجهة كل منها بآجر من الخزف المزخرف ، « لا مثيل لها من قبل ومن بعد »(٤٦) — تحفة الزمان — تتحدى اللون فى مائة شكل من الزخرفة العربية « الأرابسك » والرسوم الهندسية والحركات الزهرية والخط الكوفى الفخم ، وأضفت شمس فارس على هذا مزيداً من البريق والتألق . وفوق الجزء الجنوبى الغربى من الرواق ذى الأعمدة المؤدى إلى حرم المسجد ارتفعت مئذنة من الآجر الأزرق تناطح السماء ، وعلى الباب بحروف بيضاء على أرضية زرقاء نقش إهداء الملكة ، وهو إهداء يفيض فخراً وتقى :

« إن عظمتها العريقة فى المجد ، شمس سماء الطهارة والعفة ...

جوهر شاد ، خلد الله عظمتها وأدام طهارتها ! من مالها الخاص ، ولخير آخرتها ، ومن أجل اليوم الذى يحاسب فيه المرء على ما قدمت يداه ، تقرباً إلى الله وشكراً له سبحانه . . . شيدت هذا المسجد الجامع العظيم ، هذا البيت المقدس ، فى عهد السلطان المعظم ، سيد الحكام ، والد نائب الملك ، شاه رخ ، أدام الله ملكه وإمبراطوريته ! وزاد على أهل الأرض صلاحه وعدله وكرمه !(٤٧) .

ولم يكن مسجد جوهر شاد إلا واحداً من جملة مبان جعلت من مشهد رومة « المذهب الشيعى » ، وهناك على مدى ثلاثين جيلا ، شيد أتباع الإمام الرضا مجموعة كبيرة من العمائر تأخذ فخامتها بالألباب ، ذوات مآذن جميلة وقباب فاخرة ، ومداخل كسيت واجهاتها بالآجر اللامع أو بصفائح الفضة أو الذهب ، وساحات تعكس فسيفساؤها الزرقاء والبيضاء أو خزفها المزخرف أشعة الشمس . وهنا فى ها المنظر العريض الخلاب بأشكاله وألوانه ، استخدم الفن الفارسى كل سحره ليمجد أحد أولياء الله الصالحين ويرهب الحاج الزائر حتى يعمر قلبه بالتقوى والإيمان .

ومن أذربيجان إلى أفغانستان ارتفع فى هذا العصر فى أرض الإسلام ألف مسجد : ذلك أن بيوت العبادة لها من القيمة الكبيرة لدى الإنسان ما لفاكهة الأرض ، ولكن عندنا نحن أهل الغرب ، المحصورين فى خلايا العقل ، لا تعنى هذه الأضرحة إلا أسماء جوفاء ، بل قد يزعجنا أن نحبها ونكرمها بتلك الانحناءات الجافة المقتضبة . وماذا يعنينا أن جوهر شاد قد حصلت لرفاتها الطاهرة على مقبرة جميلة فى هراه ، وأن شيراز جددت عمارة مسجدها الجامع فى القرن الرابع عشر ، وأن يزد واصفهان قد أضافتا محرابين فاخرين إلى مسجدى الجمعة فيهما ؟ الحق أننا بعيدون جداً ، من حيث الزمان والمكان والتفكير ، إلى حد لا نشعر معه بهذه العظمة والجلال ،

كما أن هؤلاء الذين يقيمون الصلاة فى تلك المساجد لا يستهويهم كثيراً اجتراءاتنا القوطية أو الصور الحسية فى عصر النهضة ، على أنه جدير بنا مع ذلك أن نتأثر ونحن وقوف على أطلال الجامع الأزرق فى تبريز (١٤٣٧ — ١٤٦٧) ونستعيد فى الذاكرة الفخامة التى اشتهر بها يوماً خزفه الأزرق المزخرف وزخرفته العربية الذهبية ، كما لا يغيب عن أذهاننا أن محمد الثانى وبايزيد الثانى شيدا فى القسطنطينية (١٤٦٣ — ١٤٩٧) مساجد تكاد تنافس عظمة كنيسة أيا صوفيا . وقد اقتبس العثمانيون التصميمات البيزنطية والأبواب الفارسية والقباب الأرمينية وأفكار الزخرفة الصينية ، ليشكلوا مساجدهم فى بروسه ونيقيا ونيقوميديا وقونيه . لقد كان الفن الإسلامى لا يزال فى أوجه فى هندسة العمارة على الأقل .

وثمة فن واحد فحسب استطاع أن ينهض ويصمد أمام فن العمارة فى الإسلام : (كما صمد داود أمام جوليات — التوراة ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧ : ٤ ، ٤٩) . فربما حظى الخطاطون ورسامو المنمنمات الصابرون الذين زخرفوا الكتب بأصغر وأدق زخارف وصور وخطوط رمزية بالفرشاة أو القلم — ربما حظى هؤلاء بنصيب من التكريم والإجلال أكثر مما حظى به بناة المساجد . وقد رسمت الصور الحائطية ، ولكن لم يبق من نتاج هذه الفترة شيء منها . ورسمت صور الأشخاص ، ولم يبق منها إلا القليل . وامتثل العثمانيون علانية لتعاليم الكتاب المقدس والقرآن فى تحريم نحت الصور الشخصية ، ولكن محمد الثانى استقدم جنتيل بللينى من البندقية إلى القسطنطينية (١٤٨٠) ليرسم صورته ، وهى المعلقة الآن فى المتحف الوطنى فى لندن . كما توجد نسخ من صورة زعموا أنها لتيمور . على أن المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، بصفة عامة ، آثروا تقاليد الفن الصينى على المحظورات التى جاءت بها الشريعة الإسلامية . فأدخلوا من

الصين على الزخرفة الفارسية التنين والعنقاء وأشـكال السحاب وهالات القداسة والوجوه الشبيهة بالأقمار ، وزاوجوا بينها . بطريقة خلاقة ، وبين الأساليب الفارسية فى اللون الشفاف والخط الخالص . وكانت الأساليب المختلطة متماثلة إلى حد بعيد ، فإن رسامى المنمنمات الصينيين والفرس ، على حد سواء ، رسموا لطبقة الأرستقراطيين الذين يحتمل أن ذوقهم كان رفيعاً جداً ، والأرجح أنهم حاولوا إرضاء الخيال والحواس أكثر من تمثيل الأشكال الموضوعية .

وكانت المراكز العظمى للزخرفة الإسلامية فى هذا العصر هى تبريز وشيراز ، هراة . ويحتمل أنه قد جاء من تبريز فى عهد الأيلخانات ، الورقات الخمس والخمسون من كتاب « شاه نامه » ، (كتاب الملوك للفردوسى) — وهى من عمل رسامين مختلفين فى القرن الرابع عشر . ولكن رسم المنمنمات الفارسية بلغ الذروة فى هراة على عهد التيموريين ، وقد استخدم شاه رخ طائفة كبيرة من الفنانين ، وأسس ابنه بيسنقر ميرزا كلية خاصة بالخط والمنمنمات . ومن مدرسة هراة هذه جاءت الشاهنامة (١٤٢٩) وهى معجزة اللون البراق والجمال الدافق ، وهى الآن محفوظة بعناية فى مكتبة قصر جلستان فى طهران ، وتكاد لا يمسها أحد إلا إجلالا وتعظيماً . إن رؤيتها لأول مرة أشبه شىء باكتشاف قصائد كيتس (الشاعر الإنجليزى Keats) .

وكان كمال الدين بهزاد ، هو كيتس الزخرفة الحقيقى أو رافائيل الشرق ؟ لقد عركته تجارب الحياة ، وويلات الحرب وتقلباتها ، فعكس هذا كله بالفن ، ولد بهزاد فى هراة حوالى سنة ١٤٤٠ ، ودرس فى تبريز ، ثم عاد إلى هراة ليرسم للسلطان حسين بن بيقره ، ووزيره المتعدد الجوانب (شاعر وموسيقى ومصور) مير على شيرنوائى . وعندما أصبحت هراة مركزاً للأوزبك ولحملات الصفويين ، قصد بهزاد ثانية إلى تبريز . وكان من بين أوائل المصورين الفرس الذين وقعوا على أعمالهم ، ولكن بقايا فنه قليلة فعلا

ومتباعدة . وثمة منمنمتان فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تمثلان « بستان سعدى » وتعرضان حلقة لبعض رجال الدين يتدارسون فيها أسراره . وتحمل المخطوطة تاريخ سنة ١٤٨٩ ، أما العبارة المكتوبة فى نهايتها فتقول « رسمها العبد المذنب بهزاد » . ويضم متحف فرير فى واشنجطن صورة « شاب يرسم » ، وهى نسخة منقولة عن جنتيل بلليني وقعها بهزاد ، وفيها تكشف الأنامل الرقيقة عن الفنانين الرسام والمرسوم كليهما . وليس من المحقق كثيراً أنه هو الذى رسم المنمنمات الموجودة فى المتحف البريطانى ؛ وهى نسخة مخطوطة « المنظومات الخمس » للشاعر نظامى ، وفى نفس الخزانة توجد مخطوطة « ظفر نامه » أى سجل انتصارات تيمور .

ومن العسير أن تفسر هذه البقايا شهرة بهزاد المنقطعة النظير . إنها تنم على إدراك حسى للأشخاص والأشياء ، وعلى حرارة اللون ومداه ، وعلى حيوية فى التنفيذ تشملها جميعاً دقة رقيقة فى التخطيط . ولكنها لا تكاد توازن بالمنمنمات التى رسمت للدوق برى Berry ، قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً ، ومع ذلك فإن معاصرى بهزاد أحسوا بأنه كان قد أحدث انقلاباً فى الزخرفة بنماذجه الأصيلة فى التأليف ، ومناظره الطبيعية الزاهية وصور شخوصه المفصلة بعناية والتى تكاد تقفز إلى الحياة . وعنه قال المؤرخ الفارسى خواندمير الذى كان يقارب الخمسين من العمر حين مات بهزاد (حوالى ١٥٢٣) ، ربما بدافع التحيز لصداقته له : « إن براعته فى التصوير والتصميم قد طمست ذكرى غيره من مصورى العالم . إن أنامله الموهوبة بمزايا خارقة محت صور سائر الفنانين من بنى آدم »[٤٨] : وجدير بنا أن يهذب من ثقتنا أن نفكر ملياً فى أن هذا قد كتب قبل أن يرسم ليوناردو دافنسى « العشاء الأخير » ويرسم ميكلأنجلو « سقف كنيسة سستين » ، وقبل أن يرسم رافائيل « غرف الفاتيكان » . ومن المحتمل أن خواندمير لم يكن قد سمع بأسمائهم قط .

وانحط فن الخزف فى هذه الحقبة عما كان عليه فى عهد سلاجقة الرى وكاشان . أما مدينة الرى فقد تركتها الزلازل وغارات المغول أثراً بعد عين ، وأما كاشان فقد خصصت معظم أفرانها لصناعة الطوب : على أن مراكز جديدة للخزف قامت فى سلطانية ويزد وتبريز وهراة وأصفهان وشيراز وسمرقند ، وكان الخزف المزخرف الفسيفسائى آنذاك هو الإنتاج المفضل : فصنعت بلاطات صغيرة من الخزف ، رسمت كل منها بلون معدنى واحد ، وطليت فأصبحت ذات بريق يتطلب أشد العناية لبقائه . وحين كان حماة الفن فى يسر وثراء استخدم البناءون الفرس هذا الخزف المزخرف ، لا للمحاريب والزخرفة فحسب ، بل استخدموه كذلك فى تغطية سطوح كبيرة من أبواب المساجد أو جدرانها ، وثمة نموذج أخاذ فى محراب مسجد بابا قاسم (حوالى ١٣٥٤) فى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك .

واحتفظ صناع المعادن فى الإسلام بمهارتهم ، فصنعوا الأبواب والثريات البرونزية للمساجد من بخارى إلى المغرب (مراكش) ، ولو أن شيئاً منها لم يضارع تماماً « أبواب الجنة » التى صنعها جيبر Ghiberti (١٤٠١ — ١٤٥٢) فى بيت المعمودية بفلورنسه ، وقد صنعوا أحسن أسلحة العصر — الخوذات المخروطية الشكل لكى تجعل الضربات الهاوية تنحرف ، والدروع من الحديد البراق مطعمة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة بالنقوش الذهبية أو الأزهار المصنوعة من الذهب . كما صنعوا النقود الجميلة ، كما صنعوا الرسوم النافرة أو الميداليات الكبيرة مثل تلك التى عليها صورة جانبية لمحمد الفاتح البدين القصير ، وشمعدانات برونزية كبيرة حفر عليها الخط الكوفى الفاخر أو الأشكال الزهرية ، كما صبوا وزينوا المباخر ومحفظة الكتابة والمرايا وعلب الجواهر والمجمرات والقوارير والأباريق والطشوت والصوانى ، بل حتى المقص والفرجار كانوا يزينونها بالنقوش بطريقة فنية . ومثل هذا التفوق مشهود به للفنانين والصناع المهرة

المسلمين الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة : أو الذين حفروا العاج أو الخشب أو رصعوه . والنسيج الباقى للآن عبارة عن قطع أو أجزاء صغيرة . ولكن المنمنمات تصور لنا تشكيلة واسعة من المنتجات الجميلة من الكتان الرفيع فى القاهرة إلى الخيام الحريرية فى سمرقند . والحق أن الذى أثار بسرعة حسد أوربا ، هم أولئك المزخرفون الذين صمموا الأنماط والطرز المعقدة ولكنها مع ذلك منطقية : القماش المقصب (البروكار) والقطيفة والحرائر ، للمغول والتيموريين ، بل حتى البسط التركية . وفيما يسمونه الفنون الصغرى قاد الإسلام العالم .

٨ ــ الفكر الإسلامى

أفلت شمس العلم والفلسفة وضاع مجدهما ، لأن الدين كان قد كسب معركته ضدهما ، فى الوقت الذى كان فيه يتراجع ويستسلم فى الغرب المراهق . وكان الذين يحظون بالشرف الرفيع هم رجال الدين والدراويش والنساك والأولياء ، أما العلماء فقد قصدوا إلى استيعاب نتائج أبحاث أسلافهم ، أكثر مما قصدوا إلى إمعان النظر فى الطبيعة من جديد . وكان خر تقدم أو محاولة نشيطة فى الفلك الإسلامى فى سمرقند حين صاغ راصد النجوم فى مرصد أولوج بك فى سنة ١٤٣٧ الجداول الفلكية التى حظيت بأعظم التقدير فى أوربا حتى القرن الثامن عشر . وقاد ملاح عربى مزود بجداول وخريطة عربية ، فاسكودا جاما من أفريقية إلى الهند فى المرحلة التاريخية التى وضعت نهاية لسيطرة الإسلام الاقتصادية(٤٩) .

وفى الجغرافيا أنجب المسلمون شخصية عظيمة فذة فى هذا العصر . ففى سنة ١٣٠٤ ولد فى طنجة محمد أبو عبد الله بن بطوطة الذى طاف بدار الإسلام ــ العالم الإسلامى ــ لمدة أربع وعشرين سنة ثم عاد إلى المغرب

ليقضى نحبه فى فاس . وإن يوميات هذا الرحالة لتوحى بمدى انتشار الإسلام الواسع ، فهو يذهب إلى أنه قطع فى رحلاته ٧٥٫٠٠٠ ميل (أكثر من أى إنسان آخر قبل عصر البخار) . كما زعم أنه رأى غرناطة وشمال أفريقية وتمبكتو ومصر والشرقين الأدنى والأوسط وروسيا والهند وسيلان والصين . وأنه زار كل حاكم مسلم فى هذا العصر . وفى كل مدينة كان يقدم احتراماته أولا إلى العلماء ورجال الدين ثم بعد ذلك إلى الملوك والحكام : وإنا لنرى النزعة الإقليمية عندنا منعكسة عليه حين يعدد « الملوك السبعة العظام فى العالم » . وكلهم مسلمون فيما عدا واحدا صينيا(٥٠) . إنه لايصف الأشخاص والأماكن فحسب ، بل يصف كذلك حيوان كل منطقة ونباتها والمعادن والأطعمة والأشربة والأسعار فى مختلف البلاد . وكذلك المناخ ومظاهر الطبيعة والعادات . والأخلاق والطقوس الدينية والمعتقدات ، وهو يتحدث بكل إجلال عن السيد المسيح والسيدة العذراء : ولكنه يشعر ببعض الارتياح والرضا حين يشير إلى أن « كل حاج يزور كنيسة القيامة فى القدس يدفع رسوماً للمسلمين »(٥١) . وعندما عاد إلى فارس روى كل تجاربه ومشاهداته ، فأنزلة سامعوه منزلة القصاص . ولكن الوزير أمر أحد سكرتيريه بتدوين ما أملاه ابن بطوطه من مذكرات . وضاع الكتاب وكاد أن ينسى . حتى وجد أخيرا أثناء الاحتلال الفرنسى الحديث للجزائر .

وفيما بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٣٥٠ كان أعظم الكتاب إنتاجاً فى التاريخ الطبيعى من المسلمين . فكتب محمد الدميرى بالقاهرة كتاباً فى علم الحيوان يقع فى ١٥٠٠ صفحة وكان الطب لا يزال قلعة سامية ، (أى عاماً برز فيه الجنس السامى) . فكانت المستشفيات كثيرة فى العالم الإسلامى . وشرح طبيب من دمشق هو عــلاء الدين بن النفيس الدورة الدموية الرئوية (١٢٦٠) قبل سرفيتس (طبيب أسبانى : القرن ١٦) بنحو ٢٧٠سنة ،

ونسب طبيب من غرناطة هو ابن الخطيب « الموت الأسود » إلى مرض معد ، وأشار بالحجر الصحى للمصابين — معارضاً بذلك قول رجال الدين بأنه انتقام إلهى من خطايا الإنسان وآثامه . واشتمل بحثه « فى الطاعون » (حوالى ١٣٦٠ على هرطقة مشهورة : « يجب أن يكون من القواعد المقررة لدينا أن أى برهان مأخوذ من تقاليد « أتباع محمد » ينبغى أن يخضع للتعديل إذا تعارض تعارضاً واضحاً صريحاً مع الدليل الذى تأتى به الحواس(٥٣) » .

وكان العلماء والمؤرخون كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية وهى لغة الاسبرانتو فى العالم الإسلامى ، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسى والإدارى . ومثال ذلك أبو الفداء الدمشقى ، فقد اشترك فى اثنتى عشرة حملة حربية ؛ وكان وزيرا للملك الناصر فى القاهرة ، ثم عاد إلى سوريا حاكماً على حماه ، وجمع مكتبة ضخمة ، وألف مجموعة من الكتب تعتبر قمة مثيلاتها فى هاتيك الأيام . وفاق بحثه فى الجغرافيا « تقويم البلدان » فى اتساع مداه ، أى مؤلف أوربى من نوعه فى عصره ؛ وقد قدر فيه أن الماء يغطى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وأشار إلى أن السائح حول العالم يكسب أو يفقد يوماً فى مسيره غرباً أو شرقاً ؛ وكان كتابه « المختصر فى أخبار البشر » هو التاريخ الإسلامى الأساسى المعروف لدى الغرب .

ولكن الاسم اللامع فى كتابة التاريخ فى القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن ابن خلدون ؛ فهنا نجد رجلا ذا وزن وقيمة حتى فى أعين أهل الغرب رجلا عركته التجارب والسياحة وفن الحكم الذى مارسه عملياً ، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة فى عصره ، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية فى هذا كله فى « تاريخ للعالم » . وإن مولد مثل هذا الرجل فى تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك ، ليوحيان إلينا

بأن ثقافة شمالى أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام فى آسيا ، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها ، وتقول سيرة حياة ابن خلدون : « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته ... » .

وقضى الموت الأسود على أبويه وعلى كثير من المعلمين ، ولكنه تابع دراسته « إلى أن شددت بعض الشيء »[٥٤] ، وهذا ضرب من الوهم يتميز به الشباب . وعين فى العشرين من عمره سكرتيراً لسلطان تونس ، ثم لسلطان فاس فى الرابعة والعشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين دخل السجن . ثم انتقل إلى غرناطة وأرسل سفيراً لها لدى بطرس القاسى فى أشبيلية . وعندما عاد إلى أفريقية أصبح الوزير الأول للأمير أبى عبد الله فى « بجاية » ولكن كان لزاماً عليه أن يفر لينجو بنفسه عندما خلع سيده وقتل ، وأرسلته مدينة تلمسان فى سنة ١٣٧٠ مبعوثاً لها إلى غرناطة ، ولكن اعتقله فى الطريق إليها أحد أمراء المغرب العربى ، وبقى ابن خلدون أربع سنوات فى خدمة هذا الأمير ثم لجأ إلى حصن بالقرب من وهران ، وهناك (١٣٧٧) كتب « مقدمة تاريخه » وهى مقدمة « لتاريخ العمران » . ولما كان فى حاجة إلى كتب أكثر مما استطاعت وهران أن تمده بها فإنه عاد إلى تونس ، ولكن هناك تألب عليه أعداء من ذوى النفوذ فيها ، فانتقل إلى القاهرة (١٣٨٤) ، وكانت شهرته كعالم قد طبقت الآفاق ، وازدحم حوله الطلاب حين كان يحاضر فى الجامع الأزهر ، وأجرى عليه السلطان برقوق راتباً « كما كانت عادته مع العلماء »[٥٥] . وعين قاضياً للمالكية ، فطبق القوانين بصرامة شديدة وأغلق الملاهى مما أدى إلى هجوه وعزله من منصبه ، فاعتزل الحياة العامة ثانية . ثم أعيد إلى منصب قاضى القضاة ، وصحب السلطان ناصر الدين فرج فى حملة ضد تيمور ، وهزمت القوات المصرية ، فالتمس ابن خلدون ملجأ له فى دمشق ، وحاصرها تيمور ،

وكان مؤرخنا آنذاك فى سن الشيخوخة ، فرأس وفداً يلتمس من التترى المنتصر شروطاً لينة رفيقة وأحضر ــ مثل أى مؤرخ آخر ، مخطوطة تاريخه معه ، وقرأ على تيمور الجزء الخاص به وسأله أن يصحح له معلوماته . وربما كان قد تعمد مراجعة الصفحات قبل ذلك لهذا الغرض نفســه . ونجحت الخطــة . وأطلق تيمور سراحه ، وما لبث أن عاد ابن خلدون مرة أخرى قاضياً للقضاة فى القاهرة ، ومات وهو فى هذا المنصب ، فى سن الرابعة والسبعين (١٤٠٦) .

وألف ابن خلدون وسط هذه الحياة القلقة موجزاً عن فلسفة ابن رشد . وأبحاثاً فى المنطق والرياضيات ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ البربر ، وشعوب الشرق ، والكتب الثلاثة الأخيرة فقط هى الباقية . وهى تشكل فى مجموعها « تاريخ العالم » (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . والمقدمة واحدة من الروائع فى الأدب الإسلامى وفى فلسفة التاريخ . فهى إنتاج « حديث » إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت فى العصور الوسطى . ويرى ابن خلدون أن التاريخ « فرع هام من الفلسفة »(٥٦) ، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ :

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العــالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »(٥٧) . (ص ٣٣ من مقدمة ابن خلدون طبعة كتاب الشعب ــ القاهرة ١٩٦٩) .

واعتقاداً منه بأنه أول من كتب التاريخ بهذه الطريقة ، فإنه يسأل القارئ الصفح عن أية أخطاء لم يكن فى الإمكان تجنبها فيقول :

« وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء فى هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، فى النظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء ، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء . فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاة . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل »(٥٨) . (المصدر السابق ، ص ١٠) .

ثم هو يأمل فى أن يكون كتابه هذا عوناً على الأيام الحالكة التى تنبأ بها :

« وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره . وكأنه خلق جديد ونشأه مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها ، والعوائد والنحل لأهلها ، ويقفو مسلك المسعودى لعصره ، ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده(٥٩) » . (المصدر السابق ، ص ٣١) .

ويخصص ابن خلدون بعض صفحات يملؤها الزهو والفخر ، يشير فيها إلى أخطاء بعض المؤرخين . ويحس بأنهم ضلوا فى مجرد ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً ، وقل أن ارتفعوا إلى مستوى إيضاح الأسباب والنتائج . وتقبلوا الخرافة بمثل الارتياح الذى تقبلوا به الحقيقة تقريباً ، وقدموا إحصاءات مبالغ فيها ، وفسروا أشياء كثيرة جداً بقوى خارقة

للطبيعة ، أما بالنسبة له ، فهو يعتزم أن يعول كلية على العوامل الطبيعية فى تفسير الحوادث . ولسوف يحكم على ما يكتبه المؤرخون فى ضوء التجارب الراهنة للجنس البشرى ، ويرفض أى حدث مزعوم يعتبر الآن مستحيل الوقوع . فإن التجربة يجب أن تفصل فى صحة التقاليد أو فسادها(٦٠) . وكان منهجه فى « المقدمة » هو أن يعالج أولا فلسفة التاريخ ، ثم يتناول أشغال الناس ومهنهم وبراعاتهم ، وأخيراً يعرض لتاريخ العلوم والفنون ، وهو يدون فى مجلدات متعاقبة التاريخ السياسى لمختلف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، متعمداً التضحية بوحدة الزمان فى سبيل وحدة المكان . ويقول ابن خلدون إن الموضـــوع الحقيقى للتاريخ هو الحضارة ، كيف تنشأ ، وكيف يحتفظ بها وكيف تنمّى الآداب والعلوم والفنون ، ولماذا تبلى(٦١) ، فالإمبراطوريات — مثل الأفراد — لها حياة ولها مسارات خاصة بها . إنها تنشأ وتنضج وتضمحل(٦٢) فما هى أسباب هذا التعاقب ؟

والأحول الأساسية فى هـــذا التعاقب هى أحوال جغرافية . ذلك أن للمناخ تأثيراً عاماً ولكنه أساسى . فالشمال البارد ينتج آخر الأمر ، حتى فى أناس أصلهم من الجنوب ، جلداً أبيض اللون وشعرا خفيفاً ، وعيوناً زرقاء وميلا إلى الجدية . أما الأقاليم المدارية فتنتهى بمرور الزمن إلى الجلد الأسمر والشعر الأسود ، « وتغلب الروح الحيوانية » ، وخفة فى العقل والمرح وسرعة التنقل بين المسرات مما يؤدى إلى الغناء والرقص(٦٣) . ويؤثر الطعام فى الخلق . فالغذاء الثقيل المكون من اللحوم والتوابل والحبوب يسبب بلادة الجسم والعقل ، والاستسلام السريع للقحط أو العدوى . أما الغذاء الخفيف ، مثل هذا الذى تتناوله شعوب الصحراء ، فإنه يساعد على رشاقة الأجسام وصحتها ، وعلى سلامة العقول . وعلى مقاومة المرض(٦٤) . وليس ثمة تفاوت فطرى فى القدرة الكامنة بين شعوب الأرض : فإن تقدمهم

أو تأخرهم تحدده الأحوال الجغرافية ، ويمكن تغييره بتغيير هذه الأحوال ، أو بالهجرة إلى مكان آخر(٦٥) .

أما الأحوال الاقتصادية فهي أقل قوة فقط من الجغرافية . ويقسم ابن خلدون المجتمعات إلى رحل ومقيمة أو مستقرة تبعاً لوسائل الحصول على القوت ، ويعزو معظم الحروب إلى الرغبة فى الحصول على مصادر للغذاء أكثر وفرة . فالقبائل الرحل لابد أن تغزو إن عاجلا أو آجلا ، الجماعات المستقرة المتوطنة ، لأن هؤلاء الرحل مرغمون بحكم ظروف حياتهم على التمسك بالصفات الحربية مثل الشجاعة وقوة الاحتمال والجلد والتماسك . وقد يدمر الرحل حضارة ، ولكنهم لا يستطيعون إقامة حضارة قط . فإن الشعب المقهور يمتص دماء الرحل وثقافتهم . ولا يستثنى من ذلك العرب الرحل . والحرب أمر طبيعي طالما أن الشعب غير قانع أبدا لأمد طويل بما لديه من غذاء . إن الحرب هى التى تنشئ السلطان السياسى وتجدده ، ومن ثم كانت الملكية هى الشكل المألوف للحكومة . وقد سادت فى كل حقب التاريخ تقريباً(٦٦) . وقد تنشئ السياسة المالية مجتمعاً أو تهدمه ، فإن فرض الضرائب الباهظة أو دخول الحكومة إلى مجال الإنتاج والتوزيع ، يمكن أن يخمد أو يقضى على الحوافز والمغامرة والمنافسة ، ويقتل البقرة الحلوب التى تدر الدخل(٦٧) . ومن جهة أخرى فإن الإفراط فى تركيز الثروة قد يمزق المجتمع إرباً بإذكاء نار الثورة(٦٨) .

وثمة قوى معنوية فى التاريخ : وفى تماسك الناس تدعيم للإمبراطوريات ، وأفضل وسيلة لتأمين هذا هو غرس عقيدة واحدة وممارستها . ويتفق ابن خلدون مع البابوات ومحاكم التفتيش والمصلحين الدينيين البروتستانت على عقيدة واحدة .

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب . والتغلب إنما يكون

بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا ، حصل التنافس وفشا الخلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد ، واتسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة ، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبالله التوفيق ، لا رب سواه[٦٩] . (المصدر السابق ص ١٤٢) .

وليس الدين عوناً فى الحرب فحسب ، بل إنه كذلك خير عون على النظام فى المجتمع ، وعلى اطمئنان النفس وهدوء البال عند الناس فرادى ؛ ولا يتأتى هذا إلا بعقيدة دينية تتقرر بلا مساءلة ولا جدال . إن الفلاسفة ليبتدعون مئات الأساليب ، ولكن واحداً منهم لم يقع على بديل للدين ، كمرشد ومصدر إلهام للبشر فى حياتهم « وما دام أن الإنسان لا يستطيع فهم الدنيا ، فإن من الخير له أن يتقبل العقيدة التى ينقلها إليه مشرع ملهم تلقى الوحى ، يعرف ما فيه خيرنا ونفعنا أكثر مما نعرف نحن ، ويشرع لنا ما ينبغى علينا أن نؤمن به وما ينبغى علينا أن نفعل[٧٠] ، وبعد هذه المقدمة الرشيدة ينتقل مؤرخنا الفيلسوف إلى تفسير للتاريخ قائم على المذهب الطبيعى .

إن كل إمبراطورية تمر بأطوار متعاقبة :

١ — تحط قبيلة متنقلة منتصرة رحالها لتنعم بما أفاء الله به عليها من فتح رقعة من الأرض أو ولاية . « إن أقل الأقوام حضارة أعظمها فتوحاً »[٧١] .

٢ — وكلما ازدادت العلاقات الاجتماعية تعقيداً ، اقتضى الأمر سلطة أكثر تركيزاً بغية المحافظة على النظام ، فيصبح الرئيس القبلى ملكاً .

٣ — وفى هذا النظام المستتب ، تنمو الثروة ، وتتصاعد المدن ، ويرتقى التعليم والآداب ، وتجد الفنون من يرعاها ، وتبزغ شمس العلوم والفلسفة . ويؤذن التوسع فى سكنى المدن والحياة الناعمة بفضل الثراء ، ببداية الاضمحلال .

٤ — إن المجتمع الذى أثرى يبدأ فى إيثار المسرة والترف والدعة على العمل أو المغامرة أو الحرب ، ويفقد الدين سيطرته على خيال الإنسان وعقيدته ، وتنحط الأخلاق والسلوك ، وينتشر الشذوذ الجنسى ، كما تنحط الفضائل والأعمال الحربية ، ومن ثم يكون الاتجاه إلى استخدام الجنود المرتزقة للدفاع عن المجتمع ، ومثل هؤلاء تعوزهم حماسة الروح الوطنية والعقيدة الدينية ، وكأن الثروة التى لا يحسن الدفاع عنها تغرى بمهاجمتها ملايين الجياع المضطربين فيما وراء الحدود .

٥ — إن الحملات الخارجية أو الدسائس الداخلية ، أو كلتيهما معاً ، تسقط الدولة[٧٢] . تلك كانت دورة الزمن بالنسبة لروما ، والمرابطين والموحدين فى أسبانيا ، والإسلام فى مصر وسوريا والعراق وفارس ، وهى تجرى دائماً على هذا المنوال[٧٣] .

تلك هى قلة قليلة من آلاف الأفكار التى جعلت من « مقدمة ابن خلدون » أشهر نتاج فلسفى فى القرن الذى عاش فيه . وكان لابن خلدون أفكاره الخاصة به فى كل شىء تقريباً ، فيما عدا الدين الذى يرى أنه ليس من الحكمة أن يكون فيه مبتكراً . وعلى حين أنجز عملا ضخماً من أمهات الكتب فى الفلسفة يصرح بأن الفلسفة خطيرة ، وينصح قراءه بأن يتركوها وشأنها[٧٤] ، ويحتمل أنه قصد ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت ، أكثر مما قصد

الفلسفة بمعناها الأوسع ، كمحاولة لرؤية أحوال الإنسان من وجهة نظر أكثر شمولا . إنه يتحدث فى بعض الأحيان كما تتحدث أبسط امرأة عجوز فى السوق ، فيسلم بالمعجزات والسحر ، و « العين الشريرة » ، والخواص الغامضة لحروف الهجاء ، ونبوءات الأحلام ، والأمعاء ، أو طيران الطيور[٧٥] . وهو مع ذلك يعجب بالعلوم ، ويقر بتفوق اليونان على المسلمين فى هذا المضمار ، ويرثى لتدهور الدراسات العلمية فى الإسلام[٧٦] . ويستنكر الكيمياء القديمة — ويعترف بشىء من الإيمان بالفلك[٧٧] .

وثمة سقطات معينة أخرى يجدر إيرادها . ذلك أنه على الرغم من ابن خلدون كان رحب الأفق ، قدر رحابة الإسلام ، إلا أنه شاطر الإسلام كثيراً من تحديداته ، فلم يجد فى مجلدات ،قدمته الثلاثة إلا سبع صفحات للكلام عن المسيحية . ولم يورد ذكر اليونان والرومان وأوربا فى العصور الوسطى إلا عرضاً . وعندما دون تاريخ شمال أفريقية ومصر الإسلامية والشرقين الأدنى والأوسط ، اعتقد بذلك أنه قد روى « تاريخ الشعوب[٧٨] . وهو فى بعض الأحيان جاهل جهلا معيباً يؤاخذ عليه ، فيذهب إلى أن أرسطو كان يعلم من رواق وسقراط من دن[٧٩] . إن كتابته الفعلية فى التاريخ تتخلف كثيراً عن مقدمته النظرية ، ومجلداته عن البربر والشرق عبارة عن سجل جاف موحش لأنساب الأسرات وتسلسلها ، ودسائس القصر ، والحروب الصغيرة . ومن الواضح أنه قصد أن تكون هذه المجلدات تاريخاً سياسياً فحسب ، وكتب المقدمة بوصفها تاريخاً للثقافة ، ولو أنها على الأرجح نظرة عامة فى الثقافة .

ولكى نستعيد تقديرنا وإجلالنا لابن خلدون ، حرى بنا أن نتساءل فقط عن أى عمل مسيحى فلسفى فى القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع « المقدمة » . وربما كان بعض المؤلفين القدامى قد تناولوا جانباً من هذا الميدان الذى طرقه ابن خلدون . وكان أحد أبناء جلدته ، وهو المسعودى (المتوفى ٩٥٦) قد

عالج فى كتاب مفقود الآن ، تأثير الدين والاقتصاد والسلوك والبيئة على شخصية الشعب وقوانينه ، كما تناول أسباب الاضمحلال السياسى[٨٠] .
ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون ، وله بعض الحق ، أنه خالق علم الاجتماع . إننا لا نستطيع ، فى أى أدب كان قبل القرن الثامن عشر ، العثور على فلسفة للتاريخ ، أو على منهج لعلم الاجتماع ، يمكن أن يبارى فى قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون . إن رائد فلسفة التاريخ فى عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد فى أى زمان أو مكان[٨١] . وقد يقارن به كتاب هربرت سبنسر « مبادئ علم الاجتماع » ١٨٧٦ — ١٨٩٦ ، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون .
إننا على أية حال قد نتفق مع مؤلف ممتاز مشهور فى تاريخ العلوم « على أن أهم مؤلف تاريخى فى العصور الوسطى »[٨٢] هو مقدمة ابن خلدون .

الفصل الحادي والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ — ١٥٦٦

١ — الإسلام فى أفريقية : ١٢٠٠ — ١٥٦٦

إنه من العسير علينا ، نحن المحصورين فى العالم المسيحى ، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ، كان الإسلام متفوقاً على أوربا من النواحى الثقافية والسياسية والعسكرية . وحتى فى أيام اضمحلاله فى القرن السادس عشر ، ساد من دلهى وما وراءها حتى كازابلنكا ، ومن أدرنه إلى عدن ، ومن تونس إلى تمبكتو . ويحدثنا ابن بطوطة الذى زار السودان ١٣٥٣ أنه وجد هناك حضارة مشرقة تحت راية الإسلام ، وكتب بعد ذلك مؤرخ من السود هو عبد الرحمن السعدى (١٦٥٠) ، تاريخاً كشافاً بارعاً ، يصف مكتبات خاصة تضم ١٦٠٠ مجلد فى تمبكتو ، ويصف المساجد الضخمة التى تشهد أطلالها بمجد غابر .

وحققت أسرة المارينى (١١٩٥ — ١٢٧٠) الاستقلال لبلاد المغرب ونهضت بفاس ومراكش إلى مصاف المدن الكبرى ، وكان فى كل منهما مداخل جليلة ومساجد مهيبة ومكتبات عامرة بذخائر العلم والمعرفة ، ومدارس قائمة وسط أعمدة ظليلة ، وأسواق صاخبة يمكن أن يشترى المرء منها أى شىء بنصف الثمن . وكان يقطن فاس فى القرن الثالث عشر نحو ١٢٥٫٠٠٠ نسمة ، وربما كان هذا أكبر من سكان أية مدينة فى أوربا ، باستثناء القسطنطينية وروما وباريس . وفى مسجد القيروان وهو مقر أقدم جامعة فى المغرب درس الدين والعلوم جنباً إلى جنب ، وقد جذبت هذه الجامعة إليها الطلبة المتعطشين من كل بقاع الإسلام فى أفريقية ، والمعلمين

والمحامين ورجال الدين ورجال الحكم ، ليدرسوا مناهج شاقة لمدة تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة . وكان الأمير يعقوب الثانى الذى حكم بين ١٢٦٩ — ١٢٨٦ من فاس أو من مراكش ، من أكثر الأمراء استنارة فى قرن تقدمى . وكان حاكماً عادلا ومحسناً خيراً حكيماً ، لطف الدين بالفلسفة ، ونأى بنفسه عن التعصب الأعمى ، وشجع الاتصال الودى بالأوربيين . واستقبلت هاتان المدينتان كثيراً من اللاجئين من أسبانيا ، وأحضر هؤلاء معهم حوافز جديدة للاستزادة من العلوم والفنون والصناعة . وإن ابن بطوطة الذى كان قد رأى معظم العالم الإسلامى المترامى الأطراف ليسمى مراكش « جنة الدنيا » .

ويدهش السائح الحديث فى طريقه من فاس إلى وهران ، عندما يجد فى تلمسان بقايا متواضعة لما كان فى القرن الثالث عشر مدينـــة تضم ١٢٥٫٠٠٠ نسمة . وكان بها ٦٤ مسجدا بقى منها ثلاثة فقط : الجامع الكبير (١١٣٦) ، ومسجد أبى الحسن (١٢٩٨) ومسجد الحـــلاوى (١٣٥٣) وهى من أجمل المساجد فى العالم الإسلامى ، فيها أعمدة الرخام والفسيفساء المعقدة ، والمحاريب الرائعة ، الساحات ذوات العقود والخشب المحفور والمآذن السامقة ، وهى باقية لتكون شاهدا على العظمة الغابرة التى كادت أن تنسى . وهنا احتفظت أسرة عبد الواحد لمدة ثلاثة قرون (١٢٤٨ — ١٣٣٧ ، ١٣٥٩ — ١٥٥٣) بحكم كفل للمسيحيين واليهود الحرية الدينية ، كما رعت الآداب والفنون ، وبعد أن استولى الأتراك على المدينة ، فقدت أهميتها كمركز للتجارة ، واضمحلت وانزوت فى ظلال التاريخ .

وإلى الشرق من المغرب ، ازدهرت الجزائر بفضل مزيج من التجارة والقرصنة . وقام ثغر الجزائر الجميل ، نصف مختبئ فى خليج نصف دائرى تحف به الصخور ، المؤلف من طبقات بعضها فوق بعض من شقق

وقصور تمتد من البحر المتوسط إلى كسبه ، نقول هيأ هذا الثغر للقرصان ومراكبهم مخبأ آمناً مفضلا لديهم ؛ وحتى منذ أيام بومبى كان قرصان هذا الشاطئ يغيرون على المراكب العزل . ومنذ ١٤٩٢ أصبحت الجزائر ملجأ للمغاربة المسلمين الفارين من أسبانيا . وقد التحق كثير منهم بسفن القراصنة ، وانقضوا بسورة الانتقام على أية سفن مسيحية يتربصون لها . وتضاعف عدد القرصان واشتدت جرأتهم ، فكونوا أساطيل قوية فى مثل قوة الأساطيل الوطنية وأغاروا على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فردت أسبانيا على ذلك بحملات وقائية استولت على وهران والجزائر وطرابلس (١٥٠٩ — ١٥١٠) .

ودخل الميدان فى ١٥١٦ قرصان جبار نشيط ، أطلق عليه الإيطاليون لقب بربروسه ، بسبب لحيته الحمراء ، واسمه الحقيقى خير الدين خضر ؛ وكان يونانياً من لسبوس حضر مع أخيه هورش Horash لينخرط فى سلك القرصان . وعلى حين وصل بنفسه إلى مرتبة القيادة فى الأسطول ، قاد هورش جيشاً ضد الجزائر ، وطرد الحامية الأسبانية ونصب نفسه حاكماً على المدينة ، ومات أثناء القتال (١٥١٨) ، فاحتل خير الدين مكان أخيه ، وأدار شئون الحكم بقوة ومهارة ؛ وقصد خير الدين ، رغبة منه فى تثبيت مركزه ، إلى القسطنطينية حيث عرض على السلطان سليم الأول السيادة على طرابلس وتونس والجزائر فى مقابل قوة تركية كافية للاحتفاظ بسلطانه بوصفه حاكماً من قبل السلطان على هذه الأقاليم ؛ ووافق سليم ، وأكد سليمان هذه الاتفاقية . وفى ١٥٣٣ أصبح خير الدين بطل الإسلام فى الغرب بأن هيأ لسبعين ألفاً من المغاربة العبور إلى أفريقية من أسبانيا القاسية غير المضيافة ؛ ولما عين بربروسه أول قائد عام للأسطول التركى برمتــه ، أغار بأربع وثمانين سفينة تحت إمرته على المدينة تلو المدينة على شواطئ صقلية وإيطاليا ، وأسر آلافاً من المسيحيين بيعوا بيع الرقيق . ورسا بربروسه قرب نابلى ،

وكاد ينجح فى أسر جيوليا جنزوجا كواونا التى اشتهرت بأنها أجمل سيدة فى إيطاليا ، إلا أنها فرت شبه عارية ممتطية جواداً ، وبمعيتها فارس واحد بوصفه حارساً لها ، فلما وصلت إلى المكان المقصـــود أمرت بإعدامه لأسباب أغفلت ذكرها ويمكن استنتاجها .

ولكن بربروسه كان يهدف إلى غنيمة أبقى على الأيام من سيدة جميلة ، فأنزل إلى البر جنوده الانكشارية ، وتقدم نحو تونس (١٥٣٤) . وكانت أسرة بنى النفيس قد حكمت تلك المدينة حكماً صالحاً منذ ١٣٣٦ ، وازدهرت الآداب والفنون تحت رعايتهم ، ولكن مولى حسن الذى كان أميراً آنذاك ، كان قد باعد بينه وبين الأهالى بوحشيته وقساوته ، وما أن اقترب بربروسه حتى لاذ الأمير بالفرار فسقطت تونس دون إراقة الدماء . وضمت إلى ملك آل عثمان ، وأصبح بربروسه سيد البحر المتوسط .

ووقع العالم المسيحى فى محنة ثانية ، لأن الأسطول التركى كان يستطيع فى أية لحظة أن يهيئ للإسلام الدخول إلى جنوب إيطاليا . ومن الغريب حقاً أن فرانسوا الأول (ملك فرنسا) كان متحالفاً إذ ذاك مع تركيا ، كما كان البابا كليمنت السابع حليفاً لفرنسا . ومن حسن الحظ أن كليمنت قضى نحبه (٢٥ سبتمبر ١٥٣٤) فخلفه البابا بول الثالث الذى تعهد لشارل الخامس بالمال اللازم لمهاجمة بربروسه ، وعرض أندريه دوريا تعـــاون أسطول جنوه تعاوناً كاملا فى هذه الحملة . وفى ربيع ١٥٣٥ جمع شارل الخامس فى كاجلياری فى سردينيا ٤٠٠ سفينة وقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . وعبر البحر المتوسط ، وحاصر لاجولتا ، وهو حصن يسيطر على خليج تونس ، وسقط الحصن بعد قتال دام شهراً ، وتقدم الجيش الإمبراطورى نحو تونس . وحاول بربروسه وقف تقدمه ، ولكنه هزم ولاذ بالفرار . وحطم الأرقاء المسيحيون فى تونس أغلالهم وفتحوا الأبواب ، ودخل شارل المدينة دون مقاومة ، وأباح لجنـــوده السلب

والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فلقى آلاف من المسلمين حتفهم . ودمرت حصيلة قرون من الفنون فى يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون وسط مظاهر الابتهاج ، ووقع براثن العبودية من بقى من السكان المسلمين . وأعاد شارل الأمير مولى حسن كحاكم تابع يؤدى له الجزية ، وأبقى حامية فى كل من بونا ولاجولتا ، وعاد هو إلى أوربا .

فر بربروسه إلى القسطنطينية ، وبنى بأموال من سليمان أسطولا جديدا مكوناً من مائتى سفينة . وفى يولية ١٥٣٧ ألقت هذه القوات مراسيها فى تارنتو ، وضرب الحصار على العالم المسيحى ثانية . وتشكلت « العصبة المقدسة » من جديد من البندقية والبابوية والإمبراطورية ، وجمعت مائتى سفينة بعيدا عن كورفو ، وفى ٢٧ سبتمبر اشتبك الأسطولان المتصارعان فى القتال عند مدخل خليج أمبراسيا ، فى نفس المياه التى التقى فيها أنطونيوس وكليوباترة مع أكتافيوس فى معركة أكتيوم . وكانت الغلبة لبربروسه ، وأصبح مرة أخرى سيد البحار ، وسار شرقاً واستولى فى طريقه على ممتلكات البندقية فى بحر إيجه واليونان بعضها إثر بعض ، وأرغم البندقية على عقد اصلاح منفرد .

وحاول شارل أن يكسب بربروسه للالتحاق بخدمته بما أغدق عليه من هدايا ، وبما عرض عليه من أن يكون ملكاً تابعاً له على شمالى أفريقية ، ولكن خير الدين آثر جانب الإسلام وإغراءه . وفى أكتوبر ١٥٤١ قاد شارل ودوريا حملة ضد الجزائر ، ولكن جيش بربروسه أوقع بها الهزيمة فى البر كما هبت عليها عاصفة مدمرة فى البحر ، ورد بربروسه على العدوان بالمثل ، بالإغارة على كالابريا والنزول فى أوستيا ثغر مدينة رومه ، وارتعدت العاصمة الكبيرة فى عقر دارها فرقاً ، ولكن بول الثالث كان آنذاك على علاقات حسنة مع فرانسوا فعوض بربروسه ، ادعاء بمجاملة حليفه عن كل ما أخذه من أوستيا نقداً ، ورحل عنها فى سلام[1] : وأبحر إلى طولون ،

حيث لقى أسطوله ترحيباً ممن كانوا فى الواقع فرنسيين ، وطلب أن تكف أجراس الكنيسة عن القرع طالما كانت « سفن الله » فى الميناء لأن أصواتها تقض مضجعه ، وكان مطلبه قانوناً . واشترك مع أسطول فرنسى فى الاستيلاء على نيس وفيلفرانش من الإمبراطور . وفى سن السابعة والسبعين اعتزل القرصان المنتصر الظافر تحيط به كل مظاهر الإجلال والتكريم ، ليقضى نحبه فى فراشه ١٥٤٦ ، وقد بلغ الثمانين .

وسقطت بونا ولاجولتا ثانية فى أيدى المسلمين . ووصلت الإمبراطورية العثمانية من الجزائر إلى بغداد . ولم تجرؤ سوى دولة إسلامية واحدة على تحدى سيطرتها على العالم الإسلامى .

٢ — فارس تحت حكم الصفويين
١٥٠٢ — ١٥٧٦

إن بلاد فارس التى كانت قد نعمت بفترات كثيرة من الخصب الثقافى ، كانت الآن تمر بحقبة أخرى من الحيوية السياسية والابداع الفنى . وعندما أسس الشاه إسماعيل الأول الأسرة الصفوية (١٥٠٢ — ١٧٣٦) كانت فارس تعانى فوضى التمزق بين ملوك ضعاف ، فكان العراق ويزد وسافان وفيروزكه ودياربكر وكاشان وخراسان وقندهار وبلخ وكرمان وأذربيجان ، كلها ولايات مستقلة بعضها عن بعض . وفى حملات جبارة لا ترحم ، غزا إسماعيل أمير أذربيجان معظم هذه الإمارات واستولى على هراة وبغداد ، وجعل ثانية من تبريز عاصمة لمملكة قوية . ورحب الناس بهذه الأسرة من بنى جلدتهم ، تلك الأسرة التى تألق مجدها فيما أسبغت على البلاد من وحدة وقوة ، وعبروا عما يختلج فى نفوسهم ببعث جديد للفن الفارسى .

إن لارتقاء إسماعيل إلى الملك قصة لا تصدق ، ذلك أنه كان فى سن الثالثة عندما مات أبوه (١٤٩٠) ، وفى الثالثة عشرة شرع يكسب لنفسه عرشاً ، وفى نفس السن لبس التاج وصار شاه فارس . ويصفه المعاصرون

بأنه « شجاع مثل ديك المصارعة الصغير » ، « نشيط رشيق مثل الساطير » (من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس) ، قوى عريض المنكبين ، ذو شوارب رهيبة ، وشعر أحمر براق ، وكان يستخدم ببراعة سيفاً جباراً بيده اليسرى . وكان فى الرمى بالقوس أوديسيوس آخر ، يصيب بقوسه سبع تفاحات من عشر مرصوصة على صف واحد(٢). ويروى أنه كان « أنيساً لطيفاً كالبنت » ، ولكنه قتل أمه (أو زوجة أبيه) ، كما أمر بإعدام ٣٠٠ من المومسات فى تبريز ، وذبح الآلاف من الأعداء(٣). وقال سائح هندى إنه كان محبوباً لدى الشعب حتى « نسى اسم الله » فى فارس ولم يذكر إلا اسم إسماعيل وحده(٤) .

وكمن سر نجاح إسماعيل فى الدين والجرأة . وكان المذهب الشيعى هو السائد فى فارس ، أى « أشياع » على ، صهر محمد أو زوج ابنته ، ولم يعترف الشيعة بخلفاء شرعيين غير على وخلفائه الاثنى عشر وهم « الأئمة » ، ولما كان الدين والحكومة غير منفصلين فى الإسلام ، فإن لمثل هذا الخليفة ، طبقاً لهذه النظرية حقاً إلهياً فى الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . وكما اعتقد المسيحيون أن المسيح سوف يعود ليؤسس مملكته على الأرض ، كذلك اعتقد الشيعة أن الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن — لم يمت قط ، وأنه سوف يظهر من جديد فى يوم من الأيام ليقيم حكمه المبارك على الأرض . وكما أدان البروتستانت الكاثوليك بأنهم ارتضوا التقاليد جنباً إلى جنب مع الكتاب المقدس كدليل أو مرشد إلى العقيدة الصحيحة ، كذلك اتهم الشيعة أهل السنة — وهم الغالبية الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الذين وجدوا أن الطريق المستقيم ليس فى القرآن وحده بل كذلك فى كل ما أتى الرسول كما جاء فى تقاليد أصحابه وأتباعه . وكما ترك البروتستانت الصلاة على القديسين وأغلقوا الأديرة ، لم يشجع الشيعة التصوف وأغلقوا أروقة الدراويش ، التى كانت مثل أديار أوربا فى بدايتها ، مراكز لكرم الضيافة

والبر والإحسان ». وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم « الدين الحق » ، اتخذ الشيعة اسم « المؤمنين »(٥) (المعتقدون الحقيقيون) . ولا يؤاكل الشيعى المتمسك بمذهبه سنياً أبداً ، وإذا وقع ظل مسيحى على طعام شيعى وجب أن ينبذ الطعام على أنه دنس (*)(٦).

وادعى إسماعيل أنه من نسل الإمام السابع « صفى الدين » (نقاء العقيدة) ، وباسمه سميت الأسرة الجديدة . وأعلن إسماعيل أن المذهب الشيعى هو المذهب الوطنى والرسمى لفارس ، وأنه الراية المقدسة التى حارب فى ظلها ، ومن ثم وحد قومه فى إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنيين الذين طوقوا فارس — الأوزبك والأفغان فى الشرق ، والعرب والأتراك والمصريين فى الغرب . ونجحت خطته . وكان شعبه يعبده على أنه قديس (ولى من أولياء الله الصالحين) ، وكان رعاياه يثقون فى قوته الإلهية لحمايتهم ، إلى حد أن بعضهم رفض أن يلبس الدرع فى المعركة(٧) .

وما أن فاز إسماعيل بهذا السند الملتهب حماسة — وهو الشعب — حتى أحس أنه من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى جيرانه . وكان الأوزبك الذين حكموا بلاد ما وراء النهر ، قد بسطوا سلطانهم حتى خراسان ، فانتزع منهم هراة وطردهم من فارس ، ولما اطمأن إلى سلامته فى الشرق ولى وجهه شطر الغرب ضد العثمانيين . واضطهد كل من الطرفين الآخر آنذاك بقوة مقدسة . وقيل فى رواية غير موثوقة إن السلطان سليماً قتل أو سجن ، قبل الذهاب إلى القتال (١٥١٤) ، أربعين ألفاً من الشيعة فى نطاق مملكته ، وإن إسماعيل شنق بعض السنيين الذين كانوا يشكلون الغالبية فى تبريز ، وأمر الباقين بأن يرتلوا يومياً أدعية يلعنون فيها الخلفاء الثلاثة الأولين على

(*) تلك مبالغات من المؤلف ، أثبتناها لمجرد الأمانة فى النقل ، ولعل القارئ لا يعيرها التفاتاً . (المترجم)

اعتبار أنهم اغتصبوا حق على فى الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإن الفرس وجدوا الشيعة فى معركة جالديران عاجزين أمام مدفعية سليم العبوس وجنده الانكشارية . واستولى سلطان العثمانيين على تبريز ، وأخضع شمالى أرض الجزيرة (١٥١٦) ، ولكن جيوشه تمردت ، فتقهقر وعاد إسماعيل إلى عاصمة ملكه تحف به كل عظمة ومجد يمكن أن يحاط بهما ملك عسكرى . وانحط الأدب أثناء حكمه المضطرب القلق ، ولكن الفن ازدهر تحت رعايته ، فقد كان يرعى المصور بهزاد ، وقدر أنه يساوى نصف فارس[٨] . ومات إسماعيل فى سن الثامنة والثلاثين ، بعد أن قضى فى الحكم ٢٤ عاماً . وخلف عرشه لابنه البالغ من العمر عشر سنوات ١٥٢٤ .

وكان الشاه طهماسب الأول ضعيف الإيمان جباناً ، سوداوى المزاج كئيباً مترفاً منغمساً فى اللذات ، وقاضياً خشنا ، يرعى الفنون ويمارسها ، شيعيا تقيا ، كما كان معبود شعبه ، وربما تحلى ببعض فضائل أخفاها عن عيون التاريخ . إن التوكيد المستمر على الدين أرباك الحكومة كما قواها ، وذلك أنه من أجل الدين شنت الحرب اثنتى عشرة مرة ، وظل العالم الإسلامى فى الشرقين الأدنى والأوسط ممزقا متنابذاً من ١٥٠٨ إلى ١٦٣٨ ، وأفاد العالم المسيحى من هذه الفرقة ، حيث انقطع سليمان القانونى عن شن هجماته على الغرب ، ووجه حملاته نحو فارس . وفى ذلك كتب سفير فرديناند فى القسطنطينية يقول : « إن فارس هى التى تقف حائلا بيننا وبين الدمار »[٩] . وفى ١٥٣٣ قاد الوزير الأكبر إبراهيم باشا جيشا تركياً نحو أذربيجان ، واستولى فى طريقه على الحصون الواحد تلو الآخر ، بتقديم الرشوة إلى القواد الفرس ، وأخيراً استولى على تبريز وبغداد دون أن يضرب ضربة واحدة (١٥٣٤) . وبعد أربع عشرة سنة ، وفى أثناء هدنة مع فرديناند ، قاد سليمان جيشاً آخر ضد « الرءوس الحمراء الوضيعة » (وهو الاسم الذى أطلقه الاتراك على الفرس) ، وانتزع

إحدى وثلاثين مدينة ، ثم استأنف هجماته على العالم المسيحي . وفيما بين عامى ١٥٢٥ ، ١٥٤٥ ، عاود شارل المفاوضة مع فارس المرة بعد المرة ، بافتراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف فى وجه سليمان . وابتهج الغرب حين تولت فارس الهجوم وانتزعت أرضروم . ولكن سليمان عاد فى ١٥٥٤ واكتسح مساحات كبيرة من فارس ، وأرغم طهماسب على عقد صلح بقيت مقتضاه بغداد والقسم الأدنى من أرض الجزيرة تحت حكم الأتراك .

وثمة شىء أكثر إمتاعاً من هذه الصراعات الكئيبة تلك هى الرحلات الجريئة المغامرة التى قام بها أنطونى جنكنسون إلى بلاد ما وراء النهر وفارس ، بحثاً عن طريق برى إلى الهند والصين ، وكان مسلك إيفان الرهيب فى هذا الموضوع لطيفاً ودياً ، فقد رحب بجنكنسون فى موسكو ، وبعث به سفيراً له لدى حكام الأوزبك فى بخارى ، ووافق على السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى روسيا معفاة من الرسوم الجمركية ، ومرورها فى نهـــر الفولجا عبر بحر قزوين . وكتبت للرحالة النجاة من عاصفة هوجاء فى هذا البحر ، واصل بعدها الرحلة إلى فارس ووصل إلى قزوين سنة ١٥٦١ . وهناك سلم طهماسب رسائل التحية من ملكة بعيدة ، بدا للفرس أنها سيدة قليلة الشأن تحكم قوما من الهمج ، وكان الفرس ميالين إلى عقد اتفاقية تجارية ، ولكنهم عندما أعلن جنكنسون أنه مسيحى ، أمروه بمغادرة البلاد ، قائلين : « ليس بنا من حاجة إلى مصادقة الكفار » . وبعد أن انصرف من حضرة الشاه ، جاء أحد الخدم فغطى بالرمل المطهر آثار أقدام المسيحى التى دنست قصر الشيعة(١٠) .

وبموت طهماسب (١٥٧٦) انفضت أطول فترة حكم لأى من الحكام المسلمين عدا واحدا . ولكنها فترة من أشد الفترات امتلاء بالنكبات . ولم يتميز هذا العهد بأية آداب يعتز بها الفرس فى ذاكرتهم ، إذا لم تستثن

مذكرات بابر Babur الذى أبعد عن بلده . ولكن الفن على عهد الصفويين ، ولو أنه سيبلغ ذروته متأخرا عنهم ، بدأ فى هذين العهدين (عهد إسماعيل وابنه) ينتج أعمالا تتسم بالعظمة والتألق والنقاوة التى تميزت بها منتجات فارس الغنية لمدة اثنين وعشرين قرنا . وقد أبرزت مقبرة « هارون الولاية » فى اصفهان كل ما أودع فى الرسم الكلاسيكى الفارسى من دقة ورقة ، وأزهى الألوان ، وتقطيع الفسيفساء الخزفية المزخرفة . كما توج بوابة مسجد الجمعة الكبير نصف قبة معقدة . وأسس كذلك فى هذا العصر فى شيراز « مسجد جامع » آخر ، ولكن الزمن لم يبق على شىء منه .

وثمة أمثلة كثيرة دلت على أن أشغال التذهيب الدقيقة والخط صمدت على تعاقب الزمن أكثر مما صمدت آثار العمارة ، وبرزت العناية التى بذلها المسلمون فى إخراج الكتاب (المخطوطات) حتى كادت تجعل منه معبوداً يحوطه الإجلال والحب . إن العرب الذين كانوا فخورين بكل شىء افتتنوا افتتاناً مستساغاً مغفوراً لهم بحروف الهجاء عندهم ، تلك التى وهبت لهم من نفسها سطوراً من جمال حسى . فالفرس ، فوق كل شىء جعلوا من الخط فناً لتزيين محاريب مساجدهم وأبوابهم ، والمعادن التى يصنعون منها أسلحتهم ، والفخار الذين يصنعون منه أعمال الخزف ، ونسيج سجاجيدهم ، ثم المصاحف ودواوين الشعراء ، وكل أولئك تعتز به الأجيال على أنه متعة للعين وبهجة للنفس . أما خط « النستعليق(*) Nastaliq »

(*) للخط العربى أسلوبان رئيسيان هما الكوفى والنسخ . عرفهما المسلمون فى القرن السابع الميلادى وهو مبدأ التاريخ الإسلامى . وأدخل على هذين النوعين بعض التعديل على مر العصور فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى فى إيران نوع من الخط يعرف بالتعليق ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين إلى اليسار فى اتجاهها من أعلى إلى =

(أو الخط المائل) الذى كان قد ازدهر فى عهد التيموريين فى تبريز وهراة وسمرقند ، فقد عاد إلى تبريز على عهد الصفويين ، وذهب معهم إلى اصفهان . وكما ضم المسجد عديداً من الفنون بعضها إلى بعض ، كذلك جمع الكتاب بين الشاعر والخطاط ورسام المنمنمات والمجلد (الذى يقوم بالتجليد) فى تعاون يتسم بالتفانى والإخلاص والورع .

وظل فن التذهيب مزدهراً فى بخارى وهراة وشيراز وتبريز . ويضم متحف الفنون الجميلة فى بوسطن مخطوطة رائعة لشاهنامة الفردوسى ، بإمضاء عراجى محمد القوام الشيرازى (١٥٥٢) ، وفى متحف كليفلند نسخة أخرى من عمل مشهدى الكاتب (١٥٣٨) ، ويضم متحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك نموذجاً من أروع نماذج التذهيب والخط فى تبريز ، وهى صحيفة العنوان فى مخطوطة «المنظومات الخمس» لنظامى (١٥٢٥) . وانتقل مركز التذهيب الإسلامى إلى تبريز حين اختارها بهزاد مقراً له (١٥١٠) . وفى أثناء معركة جالديران خبأ الشاه إسماعيل الصفوى المصور بهزاد والخطاط محمود النيسابورى فى كهف ، بوصفهما أثمن ما يمكن أن يقتنى[11] . ورسم أقاميرك ، تلميذ بهزاد ، فى تبريز واحدة من أروع المنمنمات فى هذا العصر ، وهى صورة « تتويج خسرو وشيرين » (١٥٣٩) وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطـــانى . وعلم ميرك بدوره الفن لتميذه « سلطان محمد نور الذى ولد فى أسرة غنية ، ولكنه تجاهل حقيقة أن لديه من الوسائل ما يستطيع معها أن يكون لاهياً تافهاً ، فأصبح

= أسفل . وابتكر الخطاط مير على التبريزى فى القرن الخامس عشر « النستعليق » يحتفظ بمميزات النسخ والتعليق معاً . وهو نوع أكثر رشـــاقة من غيره من الخطوط » من كتاب الفنون الإسلامية لمؤلفه م . س ديماند ، ترجمة أحمد عيسى ص ٧٦ — ٨٦ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤ » . (المترجم)

« اللؤلؤة التى لا تقدر بثمن » فى بلاط شاه طهماسب لأنه فاق كل أهل زمانه فى الخط والتذهيب ، وفى تصميم أغلفة الكتب والسجاجيد ، وفيما بين عامى ١٥٣٩ و١٥٤٣ نسخ مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى ووضحها بالرسوم ، وثمة صفحة رائعة فى المتحف البريطانى تمثل الملك خسرو ممتطياً صهوة جواد قرنفلى اللون ، وهو ينعم النظر وسط نقوش النباتات والزهور ذوات اللون الأخضر والأسمر والذهب ، إلى شيرين وهى نصف عارية تستحم فى بركة فضية . وثمة صورة أروع وأزهى ألواناً ، للرسول وقد أسرى به فى السموات السبع على حصانه المجنح « البراق » (ليزور الجنة والنار ! هكذا فى النص الإنجليزى !) والأشكال عبارة عن جمال مجسم ، ولكن المصور تعمد لأسباب دينية ، ألا يكون بها تقاطيع مميزة فردية ، فقد كان الفنان مهتماً بالزخرفة أكثر منه بالتشخيص ، وبالجمال الذى يكون موضع التقدير والاحترام ، وهو جمال يمكن الوصول إليه أحياناً إذا كان ذاتياً أو شخصياً ، أيسر من الوصول إلى الحقيقة التى تفلت دائماً إذا كانت موضوعية . وقد بلغ التذهيب ذروته فى هذه المنمنمات .

وحظيت المنسوجات والسجاجيد بمثل هذه العناية المحببة إلى النفس . ولم يبق شيء من منسوجات هذه العهود ، ولكن المنمنمات تصورها . وتفوق مصممو السجاد وعماله المهرة فى عهد الصفويين : وبدا أن السجاد عنصر أساسى فى حضارة الإسلام . ولم يجلس المسلمون أو يأكلوا على الكراسى ، ولكن على الأرض المفروشة بالسجاد . وهناك سجادة خاصة للصلاة عليها فى العادة رموز دينية وآيات قرآنية ، يسجد عليها المسلمون فى صلواتهم . وكانت السجاجيد مفضلة كهدايا للأصدقاء أو الملوك أو المساجد ، ولذلك أهدى شاه طهماسب عشرين سجادة كبيرة وكثيراً من السجاجيد الصغيرة من الحرير والذهب إلى السلطان سليم الثانى عند ارتقائه عرش آل عثمان ١٥٦٦ . وثمة معالم مميزة من التصميم حددت سجاد هذا

العصر ، وكأنها بستان ، ففيها رسوم النباتات والأزهار ، ومناظر الصيد والزهريات والرسوم المضلعة والمشجرة أو الرسوم النافرة أو البارزة ، وحول هذه الأشكال الأساسية توجد الزخرفة العربية المتعرجة ، مع أشرطة السحب المستمدة من الفن الصينى ، ورموز ذات معان سرية لدى مبتكرها ، وحيوانات تمثل نمط الحياة ، ونباتات وزهور تعطى أريجاً ممثلا فى خيوط ، وطابعاً بهيجاً ، وسرى فى هذا الكل المعقد منطق فنى ، أو تناغم طباقى فى الخيوط أدق من موسيقى بالسترينا (ملحن موسيقى دينية فى إيطاليا فى القرن السادس عشر) وأجمل من شعر جوديفا(*) .

ويعود تاريخ بعض القطع المشهورة الباقية حتى الآن من السجاد الإيرانى إلى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر . وإحداها ذات رسوم بارزة ، وبها ثلاثون مليون عقدة من الصوف على سداة من الحرير (٣٨٠ عقدة فى البوصة المربعة) ، ظلت مفروشة لعدة قرون فى أحد مساجد أردبيل ، وهى الآن موزعة بين متحف فكتوريا وألبرت فى لندن ومتحف لوس أنجلوس . وفى أحد أطرافها خرطوشة كتب عليها بيت من شعر حافظ ، وتحته عبارة الفخر : « من صنع العبد . . . . مقصود الكاشانى فى سنة ٩٤٦ هجرية » ، أى ١٥٣٩ م(١٢) . كذلك يوجد فى متحف لوس أنجلوس « بساط التتويج » الهائل الذى استخدم فى تتويج إدوارد السابع ١٩٠١ . وكان من بين أعظم النفائس فى متحف بوالدى بتزوللى فى ميلان ، قبل تدميره فى الحرب العالمية الثانية ، سجادة بها مناظر صيد من صنع غياث الدين جامى من مدينة يزد ، وهو الذى يحتل فى رسوم السجاد مكانة بهزاد فى المنمنمات .

(*) تقول أسطورة إنجليزية إن **Godiva** طلبت من زوجها لورد كوفنترى فع الضرائب الباهظة التى يشكو منها الأهالى . فاشترط لتحقيق مطلبها أن تمتطى جوادا وتسير به فى سوق البلدة وهى عارية ، لا يغطى جسمها إلا شعرها . (دائرة المعارف البريطانية) (المترجم)

أما سجادة « دوق أنهالت » فى مجموعة دوفين فقد حظيت بشهرة عالميـة بأرضيتها الذهبية الصفراء : مع زخرفة عربية رائعة ذات الألوان القرمزى والوردى والأزرق الفيروزى . إن السجاد والكتاب من أعظم المميزات التى تميزت بها فارس على عهـد الصفويين وهى مميزات لا يستطيع أن يتحداها أو يمارى فيها أحد ، وهى تحتل فى ذاكرة الجنس البشرى مكانة رفيعة .

٣ — سليمان القانونى والغرب

خلف سليمان القانونى أباه سليم الأول فى ١٥٢٠ ، وهو إذ ذاك فى سن السادسة والعشرين . وقد كسب لنفسه شهرة لشجاعته فى القتال وكرمه فى صداقته ، وقدرته فى إدارة الولايات التركية . وهيأت له تقاطيعه المليحة وسلوكه المهذب أن يقابل بالترحيب فى القسطنطينية التى شقيت بسليم العبوس ، ووصفه إيطالى رآه عقب توليه العرش مباشرة بأنه طويل نحيل قوى ، ذو عنق طويل جداً ، وأنف متقوس جداً ولحية وشوارب خفيفة ، وبشرة شاحبة رقيقة ، ووجه صارم هادئ ، وبدا وكأنه طالب أكثر منه سلطان[١٣] . ووصفه إيطالى آخر بعد ثمانى سنوات بأنه « شاحب إلى حد رهيب . . . مكتئب ، زير نساء عجول ، ومع ذلك فهو فى بعض الأحيان وديع مهذب » . أما غسلين دى بوسبك Ghislain de Busbeq سفير آل هبسبرج لدى الباب العالى ، فقد وصف بطريقة تكاد تكون ودية رقيقة ألد أعداء آل هبسبرج فقال :

> « لقد كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل . وحتى فى بواكير أيامه ، حين كانت قواعد الحكم فى تركيا تجيز الصفح عن الخطايا ، لم يكن

في حياته ما يعاب عليه ، لأنه حتى في أيام شبابه لم يدمن على الخمر ، ولم يقترف أياً من الجرائم غير الطبيعية التي كانت شائعة بين الأتراك ، ولم يستطيع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه في حب زوجته . . . ومن الحقائق المعروفة جيداً أنه منذ اتخذ منها حليلة شرعية ، كان مخلصاً لها كل الإخلاص ، برغم أنه لا يوجد في القوانين ما يمنع من اتخاذ خليلات كذلك(١٤) » .

إنه وصف جدير بالملاحظة ، ولكنه يتسم بالملق الشديد . ولا ريب في أن سليمان كان أعظم وأنبل سلاطين آل عثمان ، وأنه كان يضارع أى حاكم في عصره من حيث الكفاية والحكمة والخلق ، ولكننا سوف نراه بين الحين والحين موصوماً بالقسوة والحقد والانتقام . ومهما يكن من أمر ، فلنبدأ على سبيل التجربة ، بالنظر إلى صراعه مع العالم المسيحي .

طال أمد الصراع العسكرى بين المسيحية والإسلام آنذاك نحو ٩٠٠ سنة . فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الإمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة : غزا فيها العرب المسلمون هذه الإمبراطورية ، كما غزا فيها المغاربة المسلمون أسبانيا . وثأر العالم المسيحى لهذا الغزو ، وفى الحروب الصليبية التى غطى فيها الطرفان أطماعهما الاقتصادية وجرائمهما السياسية بستار من شعارات دينية وحماس دينى ، انتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت أسبانيا المغاربة . ودعا البابوات الواحد تلو الآخر إلى شن حملات صليبية جديدة ضد الأتراك ، كما أقسم سليم الأول أن يشيد مسجداً فى قلب رومه . واقترح فرانسوا الأول على الدول

الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرماً ، وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها ، باعتبارها غنائم من الكفار[١٥] . وأحبط هذه الخطة انقسام ألمانيا فى الحروب الدينية ، وثورة الكوميونات (الوحدات الإدارية) الأسبانية ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد فى التماس العون من سليمان ضد شارل . وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان ، كما كانت اللوثرية مدينة له بفضل كبير .

إن كل حكومة تكافح لتوسيع رقعتها ، لتزيد من مواردها ودخولها من جهة ، وإيجاد أرض حاجزة حامية بين حدودها وعاصمتها من جهة أخرى . وارتأى سليمان أن أحسن وسيلة الدفاع هى الهجوم ، فاستولى على معاقل المجر فى ساباكس وبلغراد ، ولما سحر بالاطمئنان والأمن فى الغرب ، وجه قواته ضد رودس حيث احتفظ المسيحيون هناك تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، بقلعة منيعة تقع مباشرة على الطرق المؤدية من القسطنطينية إلى الإسكندرية وسوريا ، وبدا لسليمان أن هذا معقل خطير أجنبى فى بحر هو بدون هذا المعقل بحر تركى ، والحق أن سفن القرصنة عند الفرسان انقضت على تجارة المسلمين فى أحد طرفى البحر المتوسط[١٦] ، كما انقض قراصنة المسلمين على تجارة المسيحيين فى الطرف الآخر . وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسرهم الفرسان فى حملاتهم[١٧] . كما اعترض الفرسان طريق السفن التى تنقل الحجاج إلى مكة ، إذا ساورهم الشك فى أن لها أغراضاً عدائية . ويقول مؤرخ مسيحى : « على أى الأحوال لم يكن سليمان بحاجة إلى ما يبرر الهجوم على رودس »[١٨] . ويضيف مؤرخ إنجليزى مشهور إلى هذا قوله : « كان من مصلحة النظام العام أن تضم الجزيرة إلى مملكة الأتراك »[١٩] .

وشن سليمان هجومه ومعه ثلثمائة سفينة وثلثمائة ألف رجل . واستمر المدافعون عن الجزيرة بقيادة رئيسهم الأكبر العجوز فيليب دى فيليرز دى ليل — آدم (Phiiuppe de Villiers de L'ile-Adam) ، يقاتلون محاصريهم

لمدة ١٤٥ يوماً ، وأخيراً استسلموا بشروط مشرفة ، منها أن يغادر الفرسان وجنودهم الجزيرة فى أمان ، كما يكون ، فى مدى عشرة أيام ، للسكان الباقين الحرية الدينية الكاملة ، مع إعفائهم من الجزية لمدة خمس سنوات ، وفى يوم عيد الميلاد طلب سليمان أن يرى فيليب ، فواساه وامتدح دفاعه الباسل ونفحه هدايا ثمينة ، كما أبدى السلطان لوزيره إبراهيم : « أنه أسف أشد الأسف لاضطراره إلى إرغام هذا المسيحى على أن يغادر فى شيخوخته وطنه وممتلكاته(٢٠). وفى أول يناير ١٥٢٣ أبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة كريت ، ثم غادروها بعد ثمانى سنين إلى وطن أكثر دواماً فى مالطه . ولطخ سليمان انتصاره بإعدام ابن الأمير جم وحفدته الأطفال لأنهم اعتنقوا المسيحية ، وقد يستخدمون ، كما استخدم جم ، فى المطالبة بالعرش العثمانى .

وفى أوائل سنة ١٥٢٥ ، تلقى السلطان سليمان كتاباً من فرنسوا الأول ، كما استقبل أسيراً من لدن شارل الخامس ، يطلبان منه مهاجمة المجر ، والإسراع إلى نجدة ملك فرنسا . فأجاب السلطان : « إن جوادنا مسرج ، وسيفنا معلق به »(٢١) . إنه على أية حال كان عازماً على غزو المجر منذ زمن طويل . فسار فى أبريل ١٥٢٦ بجيش قوامه مائة ألف رجل وثلاثمائة مدفع . وحث البابا كليمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة الدولة المهددة ، على حين نصح لوثر الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم ؛ لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هى بمثابة مقاومة الله(٢٢) . وبقى شارل الخامس فى أسبانيا . وكان من نتيجة ذلك هزيمة المجر فى معركة موهاكز ، وكانت للعالم المسيحى هزيمة أدبية ومادية فى وقت معاً ، وكان من الممكن استرداد المجر لو تعاون الكاثوليك والبروتستانت ، والإمبراطور والبابا فى العمل معاً . ولكن الزعماء اللوثريين ابتهجوا بفوز الأتراك . ونهب جيش الإمبراطور رومة .

وفى ١٥٢٩ عاد سليمان فحاصر فيينا بمائتى ألف رجل . ومن برج

سانت ستيفن استطاع كونت نيقولا فون سالم الذى عهد إليه فرديناند بالدفاع عن المدينة – أن يرى السهول والتلال المحيطة بها مغطاة بخيام العثمانيين وجندهم وأسلحتهم . وفى هذه المرة دعا لوثر أتباعه ليشاركوا فى المقاومة ، لأن من الواضح أنه إذا سقطت فيينا ، ستكون ألمانيا هى الهدف الثانى لهجوم العثمانيين . وذاعت الأنباء فى كل أنحاء أوربا أن سليمان أقسم أن يخضع كل أوربا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهى الإسلام . وشق مهندسو الألغام الأتراك الخنادق ، الواحد بعد الآخر ، على أمل نسف الأسوار أو إحداث الانفجارات داخل المدينة ، ولكن المدافعين وضعوا أوعية من الماء فى مواطن الخطر(٢٣) ، وراقبوا الحركات التى قد تدل على العمليات الخفية تحت الأرض . وأقبل الشتاء وعجز خط مواصلات الأتراك الطويل عن توفير المؤن . وفى ١٤ أكتوبر أهاب السلطان برجاله أن يبذلوا محاولة أخيرة حاسمة . ووعد بجوائز ومكافآت سخية ، ولكن الأرواح والأجسام معاً كانت كارهة غير راغبة ، وصد الهجوم مع خسائر فادحة ، وأمر سليمان بالتقهقر ، وقد ملأه الحزن . وكانت أول هزيمة يلقاها ، ولو أنه احتفظ بنصف المجر ، وحمل معه إلى القسطنطينية تاج سانت ستيفن ، وفسر سليمان لشعبه أنه عاد دون أن ينتصر لأن فرديناند (الذى قبع طيلة الحصار آمناً فى براج) كان قد رفض أن يحارب ، ووعد السلطان بأنه قريباً جداً سوف يصيد شارل ذاته ، الذى تجاسر على أن يسمى نفسه إمبراطوراً ، وينتزع منه بالقوة السيادة على الغرب .

ونظر الغرب إلى السلطان ووعيده بعين الجد ، وساد الذعر رومه . وفرض البابا كليمنت السابع ، الذى كان وطيد العزم لأول مرة ، الضرائب حتى على الكرادلة ، لتوفير المال اللازم لتحصين أنكونا وسائر الثغور التى يمكن أن يدخل منها العثمانيون إلى إيطاليا .

وفى أول أبريل ١٥٣٢ تقدم سليمان نحو الغرب مرة أخرى . وكانت

مغادرته العاصمة مشهدا أحسن إخراجه ، فكان يتقدم المسيرة ١٢٠ مدفعاً ، يتبعها ٨٠٠٠ من الانكشارية وهم خيرة جنود المملكة ، وسار بعد ذلك ألف جمل تحمل المؤن ، وألفان من صفوة الخيالة لحراسة الراية المقدسة — نسر الرسول — يتبعهم آلاف من أبناء الأسرى المسيحيين يرتدون ملابس من ذهب ، وقبعات حمراء مزودة بالريش ، يلوحون مزهوين بالحراب في شجاعة بريئة ، أما حاشية الملك وحرسه فكانوا رجالا أشداء ذوى طلعة بهية ، وامتطى السلطان بينهم جواداً كستنائى اللون مرتدياً القطيفة القرمزية الموشاة بالذهب تحت عمامة بيضاء مرصعة بالأحجار الكريمة . وسار وراءه الجيش الذى يبلغ فى جملته نحو مائة ألف رجل . ومن ذا الذى يستطيع مقاومة مثل هذه الأبهة والقوة ؟ ليس إلا العناصر والزمن !

ولكى يقابل شارل هذا التيار الجارف ، تلقى ، بعد توسلات كثيرة ، منحة من مجلس الديت الإمبراطورى ليجند أربعين ألف رجل وبعد ثمانية آلاف جواد ، وقدم هو وفرديناند بالإضافة إلى ذلك ، ثلاثين ألف رجل على حسابهما الخاص . وبهذه القوة التى تجمعت فى فيينا وعدتها ٧٨٫٠٠٠ رجل . انتظرا الحصار . ولكن السلطان عوق فى جونز Güns ، وهى مدينة صغيرة محصنة تحصيناً شديداً . ولكن حاميتها لم تزد على ٧٠٠ رجل أحبطوا لمدة ثلاثة أسابيع كل محاولة بذلها الأتراك لاختراق الأسوار التى ثقبوها إحدى عشرة مرة ، وفى كل مرة كانت الحامية المدافعة تسد الثغرات بالمعادن والجثث والاستماتة فى الدفاع . وأخيراً أرسل سليمان جواز مرور وبعض الرهائن إلى القائد — نيقولا جوريشتز Jurischitz — يدعوه إلى عقد مؤتمر ، فحضر واستقبله الوزير الأكبر بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وقد امتدحوا شجاعته وقيادته ، مع شيء من الحزن والأسى ، وأهداه السلطان رداء الشرف ، وضمن له عدم القيام بأى هجوم آخر . وأعاده إلى قلعته برفقة حرس رائع من الضباط الأتراك ، وسار إلى فيينا هذا

« السيل الجارف » من الجيش الذى لا يقهر ، والذى أوقع به الهزيمة سبعمائة جل فحسب .

وهناك أيضاً لم يحظ سليمان بفريسته ، فإن شارل لم يكن ليخرج للقتال ، فقد كان من الحمق والغباء أن يضيع مزايا دفاعاته ليقامر بالقتال فى ميدان مكشوف . وقدر سليمان أنه لو كان قد أخفق فى الاستيلاء على فينا التى كان يسيطر عليها عشرون ألف جندى ليس لهم إمبراطور أو ملك ظاهر فى الميدان ، فإنه لا يكاد يحسن صنعاً أمام ٧٨٫٠٠٠ ينفخ فيهم روح الحماسة والحياة ملك كان قد أعلن صراحة وعلى رءوس الأشهاد أنه يرحب بالموت ويستعذبه فى هذا الصراع كخاتمة شريفة نبيلة لهذه الحيـــاة الدنيا ، وهى خاتمة يصبو إليها كل مسيحى . وانصرف السلطان ، وخرب ونهب فى طريقه ستيريا والقسم الأدنى من النمسا ، وأخذ كثيراً من الأسرى ليشرف بهم تقهقره . وربما كان من المزعج له أن يسمع أنه حين كان يتسكع جيئة وذهوباً دون جدوى عبر أراضى المجر ، كان أندريا دوريا قد طارد الأسطول التركى حتى اختفى ، واستولى على بتراس وكورون على شاطئ البلوبونيز .

ولما أرسل فرديناند إلى القسطنطينية مبعوثاً يطلب الصلح رحب به سليمان ، ل إنه سوف يعقد الصلح « لا لمدة سبع سنوات ، ولا لخمس وعشرين سنة ، ولا لمائة سنة ، ولا لقرنين من الزمان ، أو ثلاثة قرون ، ولكن فى الحق إلى الأبد ، إذا لم ينقضه فرديناند نفسه » ، وإنه سوف يعامل فرديناند كابن له(٢٤) . على أنه طلب ثمناً فادحاً ، وهو انه ينبغى على فرديناند أن يرسل إليه مفاتيح مدينة جترو Grau ، رمزاً للخضوع والولاء ، وكان فرديناند وشارل كلاهما متلهفين على تحرير أسلحتهما ضـــد المسيحيين ، إلى حد أنهما كانا مستعدين لتقديم بعض التنازلات للأتراك . وأرسل فرديناند مفاتيح المدينة

وأطلق على نفسه « ابن سليمان » ، واعترف بسيادة سليمان على معظم أراضى المجر (٢٢ يونية ١٥٣٣) ؛ ولم يعقد الصلح مع شارل ، واسترد السلطان بتراس وكورون ، وراوده حلم بسط سلطانه على فيينا وتبريز .

وفى ١٥٣٦ استولى على تبريز ، ثم عاد إلى الغرب . وطرح الدين جانباً ، وارتضى أن يتعاون مع فرانسوا الأول فى حملة أخرى ضد شارل . وعرض على الملك أحسن الشروط وهى أنه لا صلح مع شارل إلا عند تسليم جنوه وميلان وفلاندرز إلى فرنسا ، ثم السماح للتجار الفرنسيين بالإبحار والبيع والشراء داخل نطاق الإمبراطورية العثمانيـــة ، على أن يعامل الأتراك بالمثل ، ومنح قناصل فرنسا فى الإمبراطورية الولاية القضـــائية المدنيـــة والجنائية على الرعايا الفرنسيين فيها ، كما يتمتع هؤلاء الرعايا بالحرية الدينية الكاملة[٣٥] . وهكذا أصبحت « الامتيازات الأجنبية » كما وقعت فى هذه الاتفاقية ، نموذجاً يحتذى فيما جاء بعد ذلك من معاهدات بين الدول المسيحية ودول الشرق .

ورد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا . وانضم إليه فرديناند وهكذا أصبح قصير الأمد جداً ما كان مقدراً أن يكون أبدياً . وعانت البندقية وطأة الهجوم التركى وفقدت ممتلكاتها فى بحر إيجه وشاطئ دلماشيا ، ووقعت صلحاً منفرداً (١٥٤٠) . وبعد سنة واحدة توفى دمية سليمان أو تابعه الحاكم فى بودا ، وجعل سليمان من المجر ولاية عثمانية ، وأرسل فرديناند بعثة إلى تركيا تطلب الصلح ، وأخرى إلى فارس تحرض الشاه على مهاجمة الأتراك . فتقدم سليمان نحو الغرب (١٥٤٣) واستولى على جرو وستولوزنبرج ، وضم مزيداً من أراضى المجر إلى الباشا (الحاكم التركى) فى بودا . وفى ١٥٤٧ ، حين كان مشغولا بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها . حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثانى الذى

كان بابوياً أكثر من البابوات(٣٦) . وأطاق موت فرانسوا وشارل يدى فرديناند فى الوصول إلى الصلح . وفى صلح براج ١٥٦٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان فى المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوكات ، ووافق على دفع تسعين ألفاً كمتأخرات .

وبعد عامين آخرين لحق بأخيه . وهكذا بقى سليمان على قيد الحياة بعد موت ألد أعدائه ، وكم من البابوات لم يعمر هو بعـــدهم ؟ لقد بسط سلطانه على مصر وشمال أفريقية ، وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا ، والبلقان والمجر . وسيطرت البحرية التركية على البحر المتوسط . وأثبت الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقاً وغرباً وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها فى فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها . وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجه والمجر ، وعقدوا صلحاً ذليلا مهيناً . وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة فى أوربا وأفريقية ، إن لم يكن فى العالم كله .

٤ – الحضارة العثمانية

أولا – الحكومة :

هل كان العثمانيون متحضرين ؟ الحق أن الانطباع بأن العثمانيين كانوا متبربرين همجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهماً قصد به تقربة الذات . فإن أساليبهم فى الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب . فالأرض كان يفلحها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين كان عليهم فى كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان بطريقة مرضية ، فى الإدارة وفى الحرب . وباستثناء النسيج والخزف . وربما الأسلحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ، كما كان الحال فى فلورنسه وفى فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا مشهورين بمنتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظراؤهم فى أوروبا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً : وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجلد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخلت مصر وسوريا وفارس والبندقية طور اضمحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية والدراويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبذ فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى . وكان العلماء الذين فسروا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجموعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

قاض فى البلاد بعد السلطان والوزير الأكبر . ولما كان الموت حتما مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية فى الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضى ، فقد تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا فى ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أنه حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شئ فى هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تذمر أو شكوى . وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن فى تركيا الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود فى ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم فى الأمور التى لا يكون المسلمون طرفاً فيها(٢٧) . واحتضن محمد الثانى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك فى مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا فى حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان فى مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول فى الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت فى ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية ، وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

لزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية فى خدمة السلطان ».

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعى ومعه قواته المجندة ليشكلوا فوق الخيالة الذين بلغ عددهم فى عهد سليمان ١٣٠,٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المقصب) أو الحرير ذى اللون القرمزى أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التى تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياد رأتها عينا بوسبك Busbeq وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعى الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان فى قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شىء فى الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد . وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفذة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذى يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً — نحو عشرين ألفاً فى عهد سليمان . وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرماً عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقنون الروح العسكرية والمجد الحربى والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً فى الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميلشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهى والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضلة لا تزال هى القوس والنشاب والرماح ، وكانت الأسلحة النارية فى بداية استعمالها ، وفى الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هى المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما فى العالم من نوعهما فى ذلك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ؛ أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . ومهما يكن من أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لزاماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب . وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شيء — سادة على السلاطين .

وكان المجندون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكلون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحنون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر برج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على النقيض من ذلك ، فإن سليمان آثر هؤلاء المتحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر(٢٨) ، ولو كانت عرضة للرشوة بشكل يسيء إلى سمعتها ، وضم الديوان — وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية — كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة . وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان . وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام(٢٩) ؛ كما اعتقد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوربا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أندر»(٣٠) . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة فى شوارع القسطنطينية التى يحتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى(٣١) . وفضلت الأقاليم التى وقعت تحت الحكم الإسلامى — رودس ، اليونان ، البلقان — فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة فى ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج(٣٢) .

وكانت معظم مكاتب الإدارة فى الحكومة المركزية مستقرة فى « السراى » أى المساكن الإمبراطورية — وهى ليست قصراً ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحريمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذى يبلغ محيطه ثلاثة أميال ، باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالى » ، وهو اصطلاح حدث فى شىء من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء فى المقام الثانى بعد السلطان فى هذا التنظيم المركزى الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسى ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية فى أكثر الحكومات الأوربية ولعاً بالرسميات . وأما أشق التزامات الوزير فهى إرضاء السلطان فى كل هذه الأمور . حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم . وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكلمة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصيرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاماً كبيراً فى نجاحه . وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانيـــاً أسره قراصنة المسلمين وأحضروه إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الصلاحيات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بحديثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغـات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغى أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذى ينثر اللآلىء»(٢٢) . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى فى أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم – تلك هى أن يخفى زهوه الداخلى بتواضع خارجى أو ظاهرى . لقد كان لديه كثير من الأسباب التى تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذى سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذى أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى المجر ، بإصلاح المساوئ ومعاملة الجميع بالعدل والكياسة . وكذلك كان له العذر فى أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصلت على رقبته . وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع فى هذا السلب أن ينقذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره فى القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثرثرة الناس بامتهان القرآن . وأقام فى بعض الأحيان حفلات تفوق فى نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتاظت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ، ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفى ٣١ مارس ١٥٣٦ ، وجد إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكى وهذا عمل ينافس فى وحشيته إحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطوريين . وقد عبر عنه محمد الثانى صراحة فى سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش ، يكون لهم الحق إعدام إخوتهم تأميناً للسلام فى الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا »(٢٤) . وبهذا حكم محمد الفاتح ، فى هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثمانى ، وهى أن تؤول ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذى كان لذلك دائماً ، تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء . وعلى النقيض من مثل هذه المساوئ فى الحكم الفردى المطلق ، يمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة فى الحكومة العثمانية ، تلك هى أن الطريق إلى للرفعة والمكانة العالية ، فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام ومهما يكن من شىء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة الأرستقراطية وراثية حيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا المستوى العالى من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال فى العرش العثمانى .

يا — الأخلاق :

إن تباين الطرق والأساليب عنـد العثمانيين والمسيحيين أوضح بشكل صارخ التنوع الجغرافى والزمنى فى القوانين الأخلاقية . فقد ساد تعـدد الزوجات بهدوء حينما كانت المسيحية البيزنطية حديثاً جداً قد اقتضت رسمياً آحادية الزواج ، واختبأت المرأة فى أروقة الحريم أو وراء برقعها أو خمارها ، حينما كانت يوماً قد اعتلت عرش القياصرة . ولبى سـليمان فى إخلاص وتفان كل حاجيات حريمه دون شيء من وخزات الضمير التى ربما شوشت أو عززت المغامرات الجنسية الطائشة التى كان يقوم بها فرانسوا الأول أو شارل الخامس أو هنرى الثامن أو الإسكندر السادس . إن المدنيـة التركية ، مثل المدنية اليونانية ، احتفظت بالمرأة بعيـداً عن الأنظار والأضواء ، وأجازت قدراً كبيراً من حرية الانحراف الجنسى . إن اللواط عند العثمانيين ازدهر حينما كانت « الصداقة عند اليونان » قد كسبت يوماً المعارك وألهمت الفلاسفة .

أحل القرآن للأتراك الزواج من أربع بالإضافة إلى عدد من الجوارى (فى النص الإنجليزى خليلات) ، ولكن قلة من الناس تحتمل مثل هذا البذخ والتبذير . وكثيراً ما ابتعد العثمانيون المحاربون عن زوجاتهم اللائى ألفوا معاشرتهن ، واتخذوا زوجات أو خليلات من أرامل وبنات المسيحيين الذين قهروهم أو غزوا بلادهم ، ولم تتدخل فى سبيل ذلك أية حزازات عنصرية ، فكم لقى أحر الترحاب بأذرع مفتوحة نساء يونانيات أو صربيات أو ألبانيات أو مجريات أو ألمانيات أو إيطاليات أو روسيات أو مغوليات أو فارسيات أو عربيات ، وأصبحن أمهات لأطفال كانوا على قدم المساواة يعتبرون أبناء شرعيين عثمانيين ، وكاد الزنى أن يكون غير ضرورى فى مثل هذه الظروف ، وإذا حدث كانت عقوبته صارمة ،

فكانت المرأة الزانية تلزم بشراء حمار تركبه وتطوف به المدينة ، وكان الزانى يجلد مائة جلدة ، ثم يقبل جلاده ويكافئه . وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد الإعلان أو الإفصاح عن قصده (أو أن يقسم يمين الطلاق) ، أما الزوجة فلم تكن تستطيع أن تخلص نفسها إلا برفع دعوى معقدة معوقة .

وظل سليمان اعزب حتى سن الأربعين . فمنذ أسر تيمور زوجة بايزيد الأول — والمزعوم أنه هو وبنى عشيرته من التتار آذوها وأساءوا معاملتها — فإن سلاطين آل عثمان ، لتفادى أية مهانة أخرى مثل هذه ، استنوا قاعدة : ألا يتزوجوا ، وألا يشاركهم فراشهم إلا الجوارى(٣٥) . وضم حريم سليمان نحو ٣٠٠ جارية كلهن مشتريات فى السوق أو أسيرات فى الحرب وكلهن تقريباً من أصل مسيحى . وإذا توقع النسوة زيارة السلطان ارتدين أجمل ثيابهن ووقفن صفوفاً لتحيته ، وكان هو يسلم على أكبر عدد منهن ، قدر ما يسمح به وقته ؛ ويضع منديله على كتف من نالت إعجابه منهن بصفة خاصة . حتى إذا قضى وطره وانسحب فى ذاك المساء ، طلب إلى من تلقت المنديل أن تعيده إليه ، وفى صباح اليوم التالى كان يهدى إليها ثوب من قماش من ذهب ، وتزداد مخصصاتها . وقد يبقى السلطان فى الحريم ليلتين أو ثلاثاً ينثر هباته السخية ، ثم يعود إلى قصره ليقضى ليله ونهاره بين الرجال . وقلما ظهر النســاء فى قصره أو اشتركن فى الولائم أو الحفلات الرسمية . ومع ذلك اعتبر الانضمام إلى الحريم شرفاً عظيما . وإذا بلغت أى من نزيلات الحريم الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تحظى يوماً بالمنديل ، أعتقت . وكانت فى العــادة تجد زوجاً ذا مكانة عالية . ولم يؤد هذا النظام فى حالة سليمان إلى انحلال جثمانى ، لأنه كان يتميز فى معظم الأمور باعتدال رائع .

ولم يكن اختلاط الجنسين سائداً فى الحياة الاجتماعية لدى العثمانيين .

ومن ثم كانت تعوزها ما تشيعه فيها فتنة النساء والثرثرة الضاحكة من بهجة . ومع ذلك كان السلوك مهذباً قدر ما كان فى المسيحية . وربما كان أكثر تهذيباً من أية بقعة أخرى باستثناء الصين والهند وإيطاليا وفرنسا . وكان عدد الأرقاء المحليين كبيراً ، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية ، وكانت ثمة قوانين كثيرة لحمايتهم . وكان إعتاقهم أمراً ميسوراً(٣٦) . وعلى الرغم من أن العناية بالصحة العامة كانت قليلة ، فإن النظافة الشخصية كانت شائعة . وانتقل إلى تركيا نظام الحمامات العامة الذى يبدو أن الفرس أخذوه عن سوريا الهلينستية . وكانت هذه الحمامات فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الإمبراطورية العثمانية تبنى من الرخام وتزين بزخارف أخاذة . وكان بعض القديسين المسيحيين يفخرون بأنهم تجنبوا استعمال الماء ، على حين فرض على المسلمين الوضوء والتطهر قبل الدخول إلى المسجد أو أداء الصلاة . والحق أن للنظافة فى الإسلام كانت لاحقة للتدين والتقوى . ولم تكن آداب المائدة لديهم أفضل منها فى العالم المسيحى ، فكان الأكل بالأصابع فى أطباق خشبية حيث لم يكن ثمة شوك . ولم تتناول الخمر فى المنازل قط ، ولكن الكثير منها كان يحتسى فى الحانات ، ولكن الإدمان عليها كان أقل منه فى الغرب(٣٧) . واستعمل المسلمون القهوة فى القرن الرابع عشر ، ولقد سمعنا أول ما سمعنا عنها فى الحبشة ، ومنها انتقلت إلى شبه الجزيرة العربية ، ويقال إن المسلمين استخدموها فى الأصل بغية مساعدتهم على دوام اليقظة والتنبه أثناء تعبدهم(٣٨) . ولم يرد لها ذكر على لسان أى كاتب أوربى قبل سنة ١٥٩٢(٣٩) .

ومن الناحية الجثمانية كان التركى قوياً متين البنيان ، مشهوراً بالجلد وقوة الاحتمال . وكم دهش بوسبك عندما شهد بعض الأتراك يتلقون مائة جلدة على أخمص القدم أو على رسغ القدم ، « حتى لتنكسر عليهم أحياناً جملة عصى من خشب القرانيا دون أن تصدر عنهم أية صرخة(٤٠) . واحتفظ

التركى دوماً بمظهر الوقار ، تساعده ملابسه على إخفاء سخافات البدانة الناتجة عن البطنة . وارتدى عامة الشعب الطربوش ، ولف المتأنقون حوله عمامة ، وكان كلا الجنسين يهوى الأزهار . واشتهرت الحدائق التركية بتعدد الألوان فيها ، ومن هناك ، فيما يبدو ، انتقل إلى أوربا الغربية الليلك والتيولب ، والسنط ، والغار وغيرها . وكان ثمة ناحية جمالية عند الأتراك ، كان من العسير أن تكشف عنها حروبهم . وإنا لندهش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، « قساة بالطبيعة » ، ولكن طيعين ، وديعين . . . ، مهذبين ، أليفين » ، « شفوقين بصفة عامة » (٤١) . وشكا فرانسيس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقاً بالحيوان منهم بالإنسان(٤٢) . وما كانت القسوة لتنفجر إلا إذا تهددت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركى يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت تثور ثائرته .

وكان التشريع التركى صارماً فى الحرب بصفة خاصة . فلم يؤخذ أى عدو بأية رحمة أو هوادة ، وكانوا يبقون على حياة النساء والأطفال ، أما الأعداء القادرون الأشداء فقد يذبحون ، ولو لم يكونوا مسلحين أو لم يقاوموا ، وحتى دون أن يقترفوا إثماً(٤٣) . ومع ذلك فإن كثيراً من المدن التى استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التى استولى عليها المسيحيون . من ذلك أن إبراهيم عندما استولى على تبريز وبغداد ١٥٣٤ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إيذاء سكانهما ، كذلك ، عندما انتزع سليمان تبريز ثانية ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح ، ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يستطع دفع رواتب جنوده إلا بإباحة السلب والنهب . ومهما يكن من شىء فإن القانون التركى لافس القانون المسيحى فى العقوبات الوحشية ، فقطعت يد السارق حتى تقل قدرته على السرقة(٤٤) .

وكانت الأخلاق الرسمية تمثل ما كانت عليه فى العالم المسيحى ، فكان الأتراك يفخرون بوفائهم لكلمتهم وعهودهم ، وحافظوا على بنود الامتيازات التى منحوها لأعدائهم ، ولكن رقيب الآداب التركى ، مثل نظيره — سانت جون كابسترانو مثلا — كان يرى أنه ليس ثمة وعد أو عهد يلزم المؤمن بشىء يتعارض مع مصلحة أو واجبات دينه ، وأن السلطان يمكنه أن يبطل المعاهدات التى عقدها هو أو أسلافه(٤٥) ، وذكر السياح المسيحيون أن التركى العادى يتسم « بالأمانة وروح العدل . . . حب الخير والنزاهة والإحسان »(٤٦) . ولكن الأتراك أصحاب المناصب كانوا عادة يرتشون بسهولة ، ويضيف مؤرخ مسيحى ، أن معظم الموظفين الأتراك كانوا مسيحيين من قبل(٤٧) ، ولكن يجدر بنا أن نضيف شيئاً آخر ، وهو أنهم ربوا تربية إسلامية . فالباشا التركى فى ولايته ، مثل البروقنصل (حاكم الإقليم) ، الرومانى ، كان يبادر إلى جمع الثروة ، قبل أن تثور وساوس سيده فيستبدل به شخصاً غيره . إنه كان يتقاضى من رعاياه الثمن الذى كان قد دفعه لتعيينه . وكان بيع المناصب شائعاً فى القسطنطينية أو القاهرة ، قدر شيوعه فى باريس أو رومه .

ثالثاً — الآداب والفنون :

كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هى أضعف حلقة فى الحضارة العثمانية . وكان التعليم الشعبى مهملا بصفة عامة . وضآلة العلم والمعرفة أمر خطير . وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة التربية أو القانون أو الإدارة ، وكانت مناهجها طويلة قاسية ، وقضى محمد الثانى وسليمان وقتاً طويلا فى إعادة تنظيم المدارس وتحسينها ، ونافس الوزراء سادتهم السلاطين فى إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد . ونعم المدرسون فى هذه

المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم فى العالم المسيحى اللاتينى . وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن ، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة ، ولكن خريجهم ، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلا فى فروع الدين منهم فى العلوم ، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب فى الهندسة وفن الحكم .

وكانت قلة ضئيلة من السكان فقط تعرف القراءة ، ولكن كل هؤلاء تقريباً كانوا ينظمون الشعر ، ولا يستثنى من ذلك السلطان سليمان نفسه ، وكان الأتراك — مثل اليابانيين — يعقدون مسابقات عامة يتلو فيها الشعراء ما جادت به قرائحهم ، وكان السلطان سليمان يطيب له ، مجاملة وكياسة منه — أن يرأس مثل هذه المباريات الشعرية . ولقد كرم الأتراك مائة شاعر فى هذا العصر ، ولكن انغمارنا فى عظمتنا ومصطلحاتنا نحن ، تركنا جهلة ، لا نعلم شيئاً حتى من أمر شاعرهم الغنائى العظيم محمود عبد الباقى الذى شهد أربعة عهود ، لأنه وإن كان فى سن الأربعين عندما توفى سليمان ، فإنه عمر بعده أربعة وثلاثين عاماً . وقد تخلى عن مهنته القديمة ، وهى السراجة ليعيش على شعره . وكان من المحقق أن تعضه الحاجة بأنيابها لو لم يسعفه سليمان بوظيفة لا عمل فيها ، وجمع سليمان المدح إلى الكسب ، فنظم قصيدة يثنى فيها على تفوق شعر عبد الباقى ، ورد عبد الباقى الدَّيْن فكتب مرثية قوية يندب فيها موت سليمان ، وعلى الرغم من أن الترجمة تفقد رواءها بالتماس المحافظة على تعدد القوافى فى الأصل ، فقد يتكشف فيها بعض الانفعال والروعة :

أمير فوارس الحظ ، يا من لفرسه الجرىء المعد للقتال ،
حيثما كر أو فر أو كان مقيداً ، كانت له الأرض كلها ساحة نزال !
أنت يا من لبريق سيفه أحنى المجرى رأسه !

أنت يا من يعرف الفرنجة حق المعرفة وميض شارته المخيف !
مثل ورقة الورد الغضة وضع وجهه برفق فى التراب ،
فتلقته الأرض ، الخازن الأمين ، وأودعته كالجوهرة فى حرز .
الحق أنه كان إشعاعة المكانة الرفيعة والمجد العظيم ،
الشاه ، الاسكندر وعليه إكليل دولة دارا المسلحة ،
وأمام التراب الذى تحت قدميه أحنى الكون رأسه خفيضاً .
وبمثابة مقام العبادة على الأرض كان باب جناحه الملكى .
لقد جعلت أصغر هباته من أحقر متسول أميراً ،
فاق فى الندى والجود ، وفى الرحمة والرأفة أى ملك . . . . . .
لقد لاقى من هذا الكون الحزين المتقلب نصباً ، فلا تحسبه ،
وهو بجوار ربه قد تخلى عن مكانته وعن مجده .
أى عجب إذا لم تر أعيننا شيئاً من الحياة أو من الدنيا بعد ذلك !
إن جماله البارع ، مثل الشمس والقمر ، قد أفاض على الأرض نوراً . . .
فلتبك الآن سحب الدم قطرة قطرة ، ولتنحن خفيضة !
وبهذا الألم المبرح الحزين فلتمطر عيون النجوم دمعاً سخيناً مريراً ،
ودخان زفرات القلوب يظهر أن السماء الحالكة السواد تحترق . . .
إن الطائر ، أى روحه ، قد طار عالياً إلى السموات مثل الهامة ،
ولم يخلف وراءه سوى قليل من العظام على الأرض تحته . . .
وليكن خالداً مجد خسرو فى السموات العلى !
ولتنزل رحمة الله على نفس الملك وروحه — ووداعاً ![٤٨] .

وكان الأتراك فى شغل شاغل بغزو الدول القوية إلى حد أنهم لم يجدوا فسحة من الوقت للفنون الدقيقة التى كان الإسلام حتى الآن قد اشتهر وتميز بها . وقد أنتج الأتراك منمنمات تميزت ببساطة التصميم وسعة التفكير فى الأساليب . أما التصوير التشخيصى أو التمثيلى فقد ترك للمسيحيين المفترين

الذين ظلوا فى هـذا العصر يزينون جدران كنائسهم وأديارهم باللوحات الجصية ، فثرى مانويل بانسلينوس — الذى ربما استعار بعض الحوافز من الصور الحائطية الإيطالية فى عصر النهضة — قد زين بالجص كنيسة بروتاتون على جبـل آثوس (١٥٣٥ — ١٥٣٦) ، برسوم أكثر انطلاقاً وجرأة ورشاقة من رسوم العصور البيزنطية . واستقدم السلاطين فنانين من الغرب والشرق — جنتيل بلليني من البندقية ، وشاه فالى ، ووالى جان ، وهما من رسامى المنمنمات فى فارس الهرطوقية . وفى التربيعات المطلية لم يكن الأتراك فى حاجة إلى مساعدة خارجية ، فقد استخدموها إلى درجة تبهر الأبصار ، واشتهرت مدينة ازنيق (بآسيا الصغرى) بصناعة الخزف ، وتخصصت أشقودرة وبروسة ، وهيريك فى آسيا الصغرى فى المنسوجات ، فقد ترك البروكار (المقصبات) والقطيفة — بما فيهما من رسوم الأزهار فى اللونين القرمزى والذهبى — التى أخرجتها هذه المدن ، أثراً شديداً وانطباعاً قوياً فى رسامى البندقية والفلاندرز . وكان السجاد التركى يعوزه البريق الشاعرى الذى تميز به السجاد الفارسى ، ولكن طرزه الفخمة وألوانه الدافئة أثارت الإعجاب فى أوربا . وقد أغرى كلبير مليكه لويس الرابع عشر بأن يأمر النساجين الفرنسيين بتقليد بعض قطع السجاد فى القصر السلطانى فى تركيا . ولكن دون جدوى ، لأن تفوق المسلمين فى هذه الصناعة ظل بعيداً عن متناول المهارة الغربية .

وبلغ الفن التركى ذروته فى مساجد القسطنطينية (لم يطلق على المدينة سم اسطنبول رسمياً إلا فى سنة ١٩٣٠) ، ففى تاريخ فارس أو التاريخ الإسلامى ، لم يضارع عظمة عاصمة سليمان ، حتى ولا مدينة مشهد مع فخامة عمائرها المزدحمة ، ولا أصفهان فى عصر الشاه عباس ، ولكن ربما ضارعتها برسوبوليس على عهد كورش . فإن مساجد الآستانة اقتسمت مع الله غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وهى آثار تعبر ، فى وقت معاً ، عن

التقوى والزهو وعن تصميم السلاطين على إرهاب شعبهم بالفن قدر إرهابه بالأسلحة . ونافس سليمان جده محمد الفاتح فى تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها ، وهو الذى حمل اسمه (١٥٥٦) كنيسة أيا صوفيا فى جمالها ، حتى فى محاكاته إياها فى مجموعة القباب الصغرى المحيطة بالقبة الرئيسية الوسطى ، على أن المآذن هنا ، تلك التى ارتفعت مقصورات الآذان الثلاث فيها إلى ارتفاع رهيب ، كانت بمثابة إضافة متألقة تتطابق مع القاعدة الضخمة . أما الداخل فكان كنزاً مربكاً من الزخرفة : نقوش ذهبية على الرخام أو الخزف وأعمدة من الحجر السماق ، وعقود من الرخام الأبيض أو الأسود ، ونوافذ من الزجاج الملون فى إطار من حجر مشجر ، والمنبر المحفور وكأنه وقف على مدى الحياة . وربما كان بذخاً أكثر مما ينبغى إجلاله ، وتألقاً أكثر مما ينبغى لمقام الصلاة . إن الذى وضع تصميم هذا المسجد وسبعين مسجداً أخرى ألبانى اسمه سنان ، وقيل إنه عاش إلى سن العاشرة بعد المائة .

٥ ـ سليمان نفسه

إن الغرب هو الذى أطلق على سليمان لقب « العظيم » ، ولكن شعبه هو الذى سماه « القانونى » أى جامع القوانين ، بسبب مساهمته فى تدوين القانون العثمانى . ولم يكن مهيباً أو عظيماً فى مظهره ، ولكن فى حجم تجهيزات جيوشه ، وفى مدى اتساع حملاته ، وفى زينة عاصمته ، وفى تشييد المساجد والقصور ، والقناطر المائية المشهورة ، عظيماً فى روعة كل ما يحيط به وفى حاشيته ، ثم عظيماً بطبيعة الحال فى قوة حكمه ، وفى كل ما وصل إليه أو حققه . ووصلت إمبراطوريته من بغداد إلى مدى تسعين ميلاً من فيينا ، و ١٢٠ ميلاً من البندقية ملكة الأدرياتيك السابقة . وباستثناء فارس وإيطاليا ،

كانت كل المدن التى زخرت بألوان المعرفة اليهودية والمسيحية أو المعرفة القديمة ، داخلة فى نطاق ملكه : قرطاجه ، ممفيس، صور ، نينوى ، بابل ، تدمر ، الإسكندرية ، بيت المقدس ، أزمير ، دمشق ، أفسوس ، نيقية ، أثينا ، وطيبة المصرية وطيبة اليونانية . ولم يضم الهلال قط يوماً ، مثل هذه البقاع والبحار الكثيرة فى منحناه الأجوف .

وهل كان تفوق حكمه يتناسب مع اتساعه ؟ يحتمل أن يكون الجواب سلبياً ، ولكن ينبغى أن نقرر هذا عن أية مملكة مترامية الأطراف ، فيما عدا فارس فى عهد الأخيمينيين ، وروما فى عصر الأنطونيين . إن الرقعة المحكومة كانت شاسعة إلى حد يتعذر معه إدارتها من مركز واحد قبل ظهور وسائل المواصلات والنقل والطرق الحديثة . لقد دب الانحلال والفساد فى الحكومة ، ومع ذلك قال لوثر : « يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك »(٤٩) . وفى مجال التسامح الدينى كان سليمان أجرأ وأكرم من أنداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الدينى أمر ضرورى للقوة الوطنية . ولكن سليمان رخص للمسيحيين واليهود فى ممارسة ديانتهم فى حرية تامة ، وقال الكاردينال بول « إن الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق عقيدتهم ، ولهذا الذى لا يهاجم ديانتهم ، أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن »(٥٠) . وفى نوفمبر ١٥٦١ حين كانت إسكتلندة وإنجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، كما كانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحى ، « غير راغب فى تحويل أى فرد عن دينه بالقوة »(٥١) . لقد جعل من إمبراطوريته مأوى آمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش فى إسبانيا والبرتغال .

لقد اتضحت عيوبه فى علاقاته العائلية أكثر منها فى حكومته . والجميع متفقون على أنه — برغم حروبه التى بررها بأنها هجوم من أجل الدفاع — كان رجلا مهذباً ، رحيما ، كريما ، إنسانيا ، عادلا(٥٢) . ولم يعجب به

شعبه فحسب ، بل أحبه كذلك . وكان إذا ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ، لزم الناس الصمت التام عند مروره ، وانحنى هو تحية لهم جميعا — أيا كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين — وكان يقضى فى المسجد ساعتين . ولم نسمع عنه أنه كان يلازم الحريم إلى الحد الذى يضعف من صحته وقوته ، مثل ما حدث لبعض السلاطين من بعده ؛ ولكنا نجده شديد الإحساس سريع التأثر بانفعالات الحب ، حتى إنه لينسى ما تقتضيه مكانته من حكمة وحذر وعدل ، بل عاطفة الأبوة وحنانها .

وفى أوائل حكمه كانت محظيته الأثيرة لديه جارية شركسية تعرف باسم « وردة الربيع » اتسمت بهذا الجمال الأسمر المليح التقاطيع ، الذى تميزت به لعدة قرون نساء الأقاليم الواقعة حول الطرف الشرقى للبحر الأسود . وأنجبت له هذه المرأة طفلا ، وترعرع الطفل مصطفى حتى أصبح شابا جميلا قادراً محبوبا . وعهد إليه سليمان بعدة مناصب وتبعات هامة ، ودربه ليكون وريثا للعرش قدرما يكون جديراً به . ولكن فى أثناء هذا الحب ، ظهرت فى الأفق « خوريم » — « أى الضاحكة » — وهى أسيرة روسية أطلق عليها الغرب « روكسيلانا » كسبت قلب السلطان وانتزعته من محظيته الشركسية . وبقى السلطان ثملا بجمال خوريم ومرحها وإغوائها وخداعها حتى اكتملت فصول الرواية ووقعت المأساة . وكسر السلطان القاعدة التى استنها الحديثون من أسلافه ، واتخذها زوجة (١٥٣٤) ، وابتهج أيما ابتهاج بما أنجبت له من بنين وبنات . ولكن لما كبرت سن السلطان وبات متوقعا أن يعتلى مصطفى عرش أبيه ، أوجست خوريم خيفة على مصير أبنائها ، الذين يمكن أن يلقوا حتفهم ، قانونا ، على يد السلطان الجديد ؛ ونجحت فى تزويج ابنتها من رستم باشا الذى أصبح الوزير الأكبر فى ١٥٤٤ ، وكان عن طريق زوجته يشاطر خوريم مخاوفها من سطوة مصطفى فى المستقبل .

وكان مصطفى ، فى نفس الوقت ، قد أرسل لتولى حكم ديار بكر ،

واشتهر ببسالته ولباقته وكرمه ، واستخدمت خوريم كل مواهبها وتأثيرها فى تحطيمه ، وألقت فى روع سليمان أن مصطفى يحاول أن يكسب شعبية ، تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، واتهم رستم بشا الشاب بأنه يتودد سرا إلى الانكشارية ليقفوا إلى جانبه ، وساور الشك السلطان المنهوك الذى كان آنذاك فى التاسعة والخمسين من عمره ، وزاد ارتيابه ، ثم تولاه العجب ، وأخيرا آمن بصحة ما زعموا ، فذهب بنفسه إلى إرجلى Eregli ، ودعا مصطفى إلى خيمته ، وما أن ظهر حتى عاجله بضربة أودت بحياته (١٥٥٣) . عند ذاك وجدت خوريم ورستم باشا أن من اليسير إغراء السلطان بقتل ابن مصطفى لئلا يحاول الثأر لأبيه ، وعين سليم ابن خوريم أميرا ووريثا للعرش ، وماتت خوريم راضية مطمئنة (١٥٥٨) ، ولكن بايزيد ، وهو أخو سليم ، الذى وجد أن مصيره المحتوم هو الذبح ، أعد جيشا يتحدى به أخاه ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية ، وهزم بايزيد وفر إلى فارس (١٥٥٩) . ولكن الشاه طهماسب ، لقاء ثلاثمائة ألف دوكات من سليمان ومائة ألف من سليم ، سلم المناضل من أجل العرش ، وشنق بايزيد (١٥٦١) ، كما أعدم أبناؤه الخمسة محافظة على الأمن الاجتماعى . ويروى أن السلطان المتألم توجه إلى الله بالشكر والحمد على موت هذه الذرية المزعجة ، وعلى أنه يستطيع الآن أن يعيش فى سلام(٥٣) .

ولكن السلطان وجد السلام أمرا لا يحتمل ، وأطال التفكير فيما ترامى إليه من أنباء تقول بأن فرسان القديس يوحنا الذين اقتلعهم من رودس ، عادت إليهم قوتهم فى مالطة ، وأنهم كانوا ينافسون قراصنة الجزائر فى غاراتهم الضارية . وفكر السلطان مليا ، وهو آنذاك فى سن الحادية والسبعين ، هل فى الإمكان أن تصبح مالطة جزيرة إسلامية ، ومن ثم يكون البحر المتوسط حرما آمنا للمسلمين . وفى أبريل ١٥٦٤ أرسل أسطولا مكونا من ١٥٠ سفينة عليها عشرون ألف رجل ليستولوا

على الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي . وقاتل الفرسان ببسالتهم المعهودة تحت قيادة الداهية البارع جان دى لافالت ، واستطاع الأتراك الاستيلاء على حصن سانت إلمو بتضحية ستة آلاف رجل ، ولم يستولوا على شيء بعده ، وأرغمهم وصول الجيش الإسبانى على رفع الحصار .

وما كان السلطان العجوز المهيب ، سليمان القانونى ، ليختم حياته بهذه الخاتمة المرة . وكان مكسيمليان الثانى الذى خلف فرديناند على عرش الإمبراطورية قد منع الجزية التى تعهد الوالد بدفعها للسلطان ، وهاجم المخافر الأمامية التركية فى هنغاريا ، وقرر السلطان القيام بحملة أخرى فقط ، وصمم على أن يقودها بنفسه (١٥٦٦) . وسار بمائة ألف رجل عبر صوفيا ونيش وبلغراد . وفى ليلة ٥ — ٦ سبتمبر ، وفى أثناء حصار حصن زيجتفار ، أسلم السلطان الروح ، وهو منتصب فى خيمته . وكان مثل فاسبازيان ، مزهواً بنفسه إلى حد لا يرتضى معه أن يموت وهو راقد . وفى ٨ سبتمبر سقط الحصن ، ولكن الحصار كلف الأتراك حياة ٣٠ ألفاً من الرجال . وكان الصيف مدبرا ، فعقدت الهدنة ، وعاد الجيش أدراجه حزيناً مغموماً إلى القسطنطينية لا يحمل معه النصر بل جثمان الإمبراطور .

هل ينبغى لنا أن نصدر على سليمان حكماً ونضعه فى المرتبة التى يستحقها ؟ إننا إذا قارناه بنظرائه فى الغرب لوجدناه فى بعض الأحيان أكثر تمدناً وحضارة ، وفى أحيان أخرى أكثر همجية ووحشية . ومن بين الحكام الأربعة الكبار فى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر ، يستوقف نظرنا فرانسوا على أنه أكثرهم تمدناً وحضارة ، على الرغم من غروره المتهور واضطهاداته المترددة ، على أنه مع ذلك نظر إلى سليمان على اعتباره حاميه وحليفه الذى بدونه كان يمكن أن يحطم ، إن سليمان حالفه النصر فى صراعه الذى استمر طوال حياته مع الغرب . فالحق أن الإمبراطور مكسيمليان الثانى استأنف دفع الجزية للباب العالى ١٥٦٨ ؛ وأن شارل الخامس

كان قد أوقف تقدم السلطان عند فيينا ، ولكن أى جيش مسيحى جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيد البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومه ظلت مسيحية لأنه هو وبربروس سمحا بذلك .
إن السلطان حكم إمبراطوريته حكماً صالحا يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد تمزيق ألمانيا بين الأمراء ، وكان سليمان حاكما مطلقا مستبدا ، بحكم العرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبه ، فهل حظى استبداد هنرى الثامن فى انجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا الحب والثقة من الشعب ؟ وكان شارل لا يكاد يكون قادراً على إصدار حكم الإعدام على ابنه لمجرد الارتياب فى خيانته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل النصيحات مطالبا بدم الهراطقة ، واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه . أما التسامح الدينى عند سليمان ، ولو كان محدوداً ، فإنه بالمقارنة ، يصم مثل هذا الإعدام بوصمة الهمجية والوحشية .

لقد شن سليمان حروبا كثيرة ، وذبح نصف ذريته ، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة ، إنه ارتكب الأخطاء التى تلازم السلطة المطلقة غير المحدودة ، ولكنه كان أعظم وأقدر حكام عصره دون منازع .

الفصل الثاني والثلاثون

اليهــــود

١٣٠٠ — ١٥٦٤

١ — التائهون

روى روجر وندوفر R. Wendover فى كتابه Flores Historiarum (١٢٢٨) أن أحد رؤساء أساقفة أرمينيا كان يزور دير القديس ألبان فى أوائل القرن الثالث عشر، فسئل عن القصة التى تقول بأن يهودياً كان قد تحدث إلى السيد المسيح، لا يزال على قيد الحياة فى الشرق الأدنى. فأكد رئيس الأساقفة للرهبان أنها صحيحة. وأضاف المرافق أن رئيس الأساقفة كان قد تناول الغداء مع هذا الرجل الخالد قبل مغادرته أرمينيا بوقت قصير، وأن اسم هذا الرجل، على الطريقة اللاتينية «كارتوفيلس». وأنه لما هم السيد المسيح بمغادرة محكمة بلاطس البنطى، ضرب كارتوفيلس السيد المسيح على ظهره وقال له: «أسرع». وأن يسوع قال له: «إنى ذاهب، ولكنك سوف تبقى حتى أحضر». وكرر أرمنيون آخرون زاروا دير سانت ألبان فى سنة ١٢٥٢ نفس القصة، وزاد عليها القصص الشعبى، وبدل من اسم التائه، وروى كيف أنه فى كل مائة عام أو نحوها، يصاب بمرض عضال، ويروح فى سبات عميق يفيق منه شاباً يمتلىء رأسه بذكريات لا تزال حية عن محاكمة المسيح وموته وبعثه. وانقطع ورود القصة على الألسنة فترة، ولكنها ظهرت من جديد فى القرن السادس عشر. وادعى أوربيون غلب عليهم التأثر، أنهم رأوا «أحشويروش»(*) — وسمى الآن

(*) Ahasuerus . [illegible] . (المترجم)

اليهودى الخالد ، أو اليهودى التائه – رأوه فى همبرج (١٥٤٧ ، ١٥٦٤) وفى فيينا (١٥٩٩) ، وفى لوبك (١٦٠١) وفى باريس (١٦٤٤) ، وفى نيوكاسل (١٧٩٠) ، وأخيراً فى ولاية يوتا فى غرب الولايات المتحدة (١٨٦٨) . وتمت أوروبا التى كانت تفقد إيمانها ، بالترحاب هذه الأسطورة على أنها برهان يؤكد من جديد ألوهية المسيح وبعثه ، وضمان جديد لمجيئه ثانية . وعدها أن الأسطورة رمز كئيب لشعب فقد وطنه فى السنة الحادية والسبعين من بداية المسيحية ، وبات يتيه فى الأرض فى قارات أربع ، وعانى الاضطهاد والتعذيب مرة بعد المرة ، قبل أن يسترد موطنه القديم فى خضم زماننا المتقلب المزعج[1].

ولاقى يهود « الشتات » هؤلاء أقل العناء والشقاء فى ظل السلاطين الأتراك والبابوات فى فرنسا وإيطاليا . وعاشت الأقليات اليهودية آمنة فى القسطنطينية وسالونيك وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقية وأسبانيا تحت حكم العرب . وتسامح البربر معهم كارهين . على أن سيمون ديوران ترأس مستوطنة مزدهرة فى الجزائر ، وعاشت الجالية اليهودية فى الإسكندرية – كما وصفها الحبر أوباديا برتينورو فى ١٤٨٨ – حياة طيبة ، وشربوا الخمر بكثرة ، وتربعوا على البسط كما فعل المسلمون ، وخلعوا نعالهم عند دخول المعبد أو بيت أحد الأصدقاء[2] . وكتب اليهود الألمان الذين لجأوا إلى تركيا إلى أقربائهم وصفاً حماسياً للحياة الطيبة التى ينعمون بها هناك[3] . ورخص الباشا (الوالى) العثمانى فى فلسطين لليهود هناك فى أن يبنوا معبداً على جبل صهيون . وحج بعض اليهود الغربيين إلى فلسطين ، واعتقدوا أن من حسن حظهم أن تفيض أرواحهم فى الأرض المقدسة ، والأفضل منها فى أورشليم بالذات .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى كان يستأثر بتفكير اليهود ويستهوى قلوبهم فى هذا العصر تركز فى الغرب الذى لا يغفر ولا يصفح . فقد لاقوا

أقل الأحوال شقاء في إيطاليا المستنيرة : وفى نابلى سعدوا بصداقة روبرت ملك أنجو ، وازدهروا فى أنكونا وفيرارا وبادوا والبندقية وفيرونا ومانتوا وفلورنسه وبيزا وغيرها من خلايا النهضة . قال إرزم ١٥١٨ « يوجد فى إيطاليا كثير من اليهود ، ولكن لا يكاد يوجد فى أسبانيا مسيحيون[٤] » . وكانت إيطاليا تقدر التجارة والموارد المالية تقديراً عظيماً ، ومن ثم كان لليهود الذين تولوا هذه المرافق الضرورية فيها شأن كبير ، باعتبارهم دعامة حافزة منشطة فى الاقتصاد . أما ما كان يطلب من اليهود قديماً من وضع شارة أو ارتداء لباس مميز فقد تجاهله الإيطاليون فى شبه الجزيرة بصفة عامة ، وارتدى اليهود الموسرون زى الإيطاليين من مثل طبقتهم ، والتحق الشباب اليهودى بالجامعات ، وتزايد عدد المسيحيين الذين يدرسون العبرية .

وبين آونة وأخرى كان بعض رجال الدين المسيحى الذين يبغضون اليهود ، مثل القديس يوحنا أوف كابسترانو ، قد يهيج حفيظة سامعيه ، ليطالبوا بالتطبيق الكامل للقوانين الكنسية المتشددة الخاصة بالتجريد ضد اليهود : ولكن على الرغم من أن كابسترانو كان يلقى تأييداً من البابا يوجينيوس الرابع والبابا نيقولا الخامس ، فإن تأثير بلاغته كان تأثيراً عابراً فى إيطاليا . وهاجم راهب آخر من طائفة الفرنسيسكان هو برناردينو أوف فلتر ، اليهود مهاجمة صاخبة عنيفة ، إلى حد أن السلطات المدنية فى ميلان وفرارا وفلورنسه أمرته بالتزام الصمت أو الرحيل . ولما عثر على طفل فى سن الثالثة ميتاً بالقرب من بيت أحد اليهود فى ترنت (شمال إيطاليا) فى سنة ١٤٧٥ ، أعلن برناردينو أن اليهود قتلوه ، فألقى الأسقف بكل يهود ترنت فى السجن ، واعترف بعضهم تحت وطأة التعذيب بأنهم ذبحوه وشربوا من دمه ، باعتبار أن هذا من طقوس عيد الفصح عندهم . وأحرق كل يهود ترنت حتى الموت ، وحفظ جثمان الطفل « سيمون الصغير » ، وعرض على أنه « بقايا مقدسة » ، وحج آلاف من السذج المؤمنين إلى المزار الجديد

وانتشرت قصة الفظاعة المزعومة عبر جبال الألب إلى ألمانيا فزادت من حدة شعور العداء ضد « السامية » هناك . واتهم سناتو البندقية القصة بأنها كذوبة دينية ، وأمر كل السلطات فى نطاق الولاية القضائية للبندقية بحماية اليهود . وقدم من بادوا إلى ترنت اثنان من المحامين لفحص الأدلة ، ولكن الأهالى هناك مزقوهما تقريباً . واستحثوا البابا سكستس الرابع على ضم سيمون إلى قائمة القديسين ولكنه أبى ، وحرم تمجيد سيمون باعتباره قديساً(٥) . ومهما يكن من شىء ، فإن سيمون أعلن قديساً فى سنة ١٥٨٢ .

وفى رومه نعم اليهود لعدة قرون بظروف مواتية فى الحياة ، وبالحرية أكثر مما لاقوا فى أى مكان آخر فى العالم المسيحى ، من جهة لأن البابوات كانوا مثقفين ، ومن جهة أخرى لأن المدينة كان يحكمها ويتنازعها حزبا أورسينى وكولانا ، وكلتا الجماعتين كانت مشغولة بالقتـــال بينهما ، إلى حد يتعذر معه التفرغ لعداوة الآخرين ، وربما كان ثمة سبب آخر هو أن الرومان كانوا أوثق ارتباطاً بالجانب العملى فى المسيحية منهم بالتعصب لديانتهم . ولم يوجد آنذاك حى خاص باليهود فى رومة ، ولكن معظمهم عاش فى حى العبرانيين على الضفة اليسرى من نهر التيبر . ولم يكونوا ملزمين بذلك ، فقد قامت قصور الأرستقراطية الرومانية وسط مساكن اليهود ومعابدهم القريبة من كنائس المسيحيين(٦) . ولكن ظل بعض الظلم يقع عليهم ، فكانت بعض الضرائب تفرض عليهم من أجل الإنفاق على الألعاب الرياضية ، وكانوا يرغمون على إرسال ممثلين عنهم للاشتراك فيها وهم أنصاف عرايا ، وهذا أمر يتنافى مع أعراف اليهود وأذواقهم . وظلت العداوة العنصرية باقية ، فمثل اليهود فى رسوم كاريكاتورية فى المسرح الرومانى ، وفى الروايات الهزلية فى الملاهى ، ولكن اليهوديات كن يقدمن على أنهن مهذبات جميلات . لاحظ التناقض بين باراباس

وأبيجيل فى رواية مارلو « يهودى مالطة » ، وبين شيلوك وجسيكا فى رواية شيكسبير « تاجر البندقية » .

وعامل البابوات ، إجمالا ، اليهود معاملة كريمة بالقدر الذى ينتظر من رجال مجدوا المسيح على أنه المخلص ، وأنكروا عقيدة اليهود على أنه لم يأت بعد . وعندما أنشئت محاكم التفتيش أعفى البابوات من سلطتها القضائية اليهود الذين لم يتحولوا عن دينهم . وكانت المحكمة تستطيع أن تستدعى أمثال هؤلاء اليهود ، بسبب مهاجمتهم للمسيحية ، أو محاولتهم رد المسيحى إلى اليهودية فحسب . « إن اليهود الذين لم يكفوا قط عن إعلان إيمانهم باليهودية تركوا ، إجمالا ، دون إزعاج »[٧] . من الكنيسة ، ولكنهم لقوا الإزعاج من الدولة أو من الأهالى . وأصدر عدة بابوات مراسيم بقصد التخفيف عن حدة العداوة الشعبية . وبذل البابا كايمنت السادس جهداً شاقاً فى هذا السبيل ، فجعل مدينة أفنيون البابوية ملجأ رحيما لليهود الفارين من الحكومة الوحشية فى فرنسا[٨] . وفى ١٤١٩ أعلن مارتن الخامس إلى العالم الكاثوليكى :

> « من حيث أن اليهود خلقوا على صورة الرب ، وأن بقية منهم لابد يوماً أن تخلص . ومن حيث أنهم توسلوا إلينا لحمايتهم ، فإننا سيراً على نهج أسلافنا ، نأمر بألا يزعجهم أحد فى معابدهم ، وألا يهاجم أحد قوانينهم وحقوقهم وأعرافهم ، وألا يعمدوا قسراً ، وألا يكرهوا على حضور الأعياد المسيحية أو وضع شارات جديدة ، وألا يعترض سبيلهم فى إقامة علاقات العمل بينهم وبين المسيحيين[٩] .

وأصدر يوجينيوس الرابع ، ونيقولا ، كما سنرى ، تشريعاً مقيداً لليهود ، ولكن بالنسبة لسائر البابوات كما يقول جرايتز « من بين سادة إيطاليا كان البابوات أكثرهم وداً وصداقة لليهود »(١٠) . وكثير منهم : الإسكندر السادس ، يوليوس الثانى ، ليو العاشر — تجاهلوا المراسيم القديمة ، وعهدوا بحياتهم إلى أطباء يهود . وشاد كتاب يهود معاصرون ، شاكرين ، بالأمن الذى تمتع به قومهم فى ظل بابوات أسرة مديتشى(١١) . وكان أحدهم وهو كليمنت السابع ، « صديقاً كريماً لإسرائيل(١٢) » .

ويقول مؤرخ إسرائيلى عالم :

إن هذا كان ذروة عصر النهضة . واعتبر جماعة متعاقبة من البابوات المثقفين المهذبين المترفين المشهود لهم بالحكمة فى رومه أن تقدم الثقافة جزء هام من عملهم فى تعزيز المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية ؟ « ولذلك اتجهوا من أواسط القرن الخامس عشر ، فما بعده ، إلى التغاضى عن التفاصيل المزعجة فى القانون الكنسى . . . وإلى إظهار التسامح الكبير مع غير الكاثوليك . وكان رجال المصارف المقرضون اليهود يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الحركة الاقتصادية فى ممتلكاتهم ، على حين أن البابوات وهم رجال دنيا واسعو الآفاق ؛ قدروا كل التقدير مناقشتهم مع الأطباء اليهود وغيرهم ممن اتصلوا بهم . ومن ثم فإن هؤلاء البابوات أهملوا إهمالا يكاد يكون تاماً كل التعليمات والقواعد التى كان آباء الكنيسة قد أصدروها ، وصنفها فى عداد القوانين مجلسا لاتيران الثالث والرابع . ولما رأى سائر أمراء إيطاليا هذا المثل

الرائع أمام أعينهم — أمراء مديتشي في فلورنسه ، إستنسي في فيرارا ، جنزاجو في منتوا ، حذوا إلى حد كبير حذو البابوات . إن اليهود ، ولو أنهم قد أزعجتهم بين الحين والحين فترات من العنف أو التعصب — مثال ذلك عندما سيطر سافونا رولا على فلورنسه ١٤٩٧ — امتزجوا بجيرانهم وشاركوهم حياتهم ، بدرجة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل ؛ وقاموا بنصيب ممتاز في جوانب معينة في النهضة . . . عكسوها في حياتهم هم أنفسهم وفي أنشطتهم الأدبية باللغة العبرية ، وأسهموا بإضافات هامة في الفلسفة والموسيقى والمسرح . وكانوا شخصيات حبيبة في بلاط كثير من الأمراء الإيطاليين(١٣) .

إن بعضاً من الشخصيات التي كانت يوماً مشهورة لتكشف لنا عن هذه الفترة المشرقة في العلاقات بين المسيحيين واليهود . ولد إمانويل بن سواومون الحارومي (الرومي) وفي نفس السنة التي ولد فيها دانتي (١٢٦٥) وأصبح صديقاً له ، وكان رجلا من رجال النهضة قدر ما يستطيع يهودي مخلص أن يكونه : وكان يحترف الطب ، كما كان واعظاً ، وعالماً دينياً ، وعالماً من علماء النحو ، ومن المشتغلين بالعلوم ، ومن أصحاب المال والأعمال ، وشاعراً ، و « مؤلفاً لأغان ماجنة كثيراً ما جاوزت حدود الحشمة »(١٤) . ولما كان يتقن العبرية كل الإتقان : فإنه أدخل إلى هذه اللغة المقطوعة الشعرية ذات الأربعة عشر بيتاً (Sonnet) وكاد ينافس الإيطاليين في الفصاحة والسلاسة والروح ، ولم يظهر أي شاعر يهودي قط قبل « هين » مثل ما أظهر إمانويل من موهبة الهجاء والروعة والذكاء . وربما كان إمانويل قد تشرب بعض مبادئ مذهب ابن رشـد في الشك ،

الذى ساد فى ذاك العصر ، فإن إحدى قصائده تعبر عن نفوره من السموات بما فيها من أناس أطهار (ذهب إلى أن النساء الدميات الخلقة هن فقط الفضليات) ، وعن إيثاره للجحيم ، حيث توقع أن يجد فيها أكثر الجميلات إغراء فى كل الأزمان . وألف فى شيخوخته قصيدة ضعيفة يقلد فيها دانتى فى « السماء والجنة » . ولم يكن ثمة فى اليهودية مطهر ، مثلها فى ذلك مثل المذهب البروتستانتى . وكان إمانويل أكرم من دانتى ، فأفسح فى الجنـــة مجالا لكل «الأبرار فى العالم بأسره»[١٥] ، متبعاً فى ذلك نهج تقاليد أحبار اليهود . على أنه أدخل أرسطو إلى الجحيم لأنه انتهى إلى خلود الكون .

وثمة روح مرح جذل شبيه بهذا الذى أسلفنا ، أضفت سلاسة وحيوية على كتابات كالونيموس بن كالونيموس . وشاهد روبرت ملك نابلى فى إحدى زياراته لبروفانس هذا العالم الصغير ذا الاسم الجميل ، وأخذه معه إلى إيطاليا . وكان كالونيموس فى البداية متفرغاً إلى العلوم والفلسفة ، وترجم أرسطو وأرشميدس وبطلميوس وجالن والفارابى وابن رشد إلى العبرية ، وكتب بروح أخلاقية عالية . ولكنه وجد أنه من اليسير عليه أن يتمثل طباع المرح والبهجة فى نابولى ويتشربها . فلما انتقل إلى رومه أصـــبح هوراس اليهود (شاعر رومانى فى القرن الأول ق . م) يهجو هجاء لطيفاً أخطاء المسيحيين واليهود وأخطاءه هو نفسه ، ونقاط الضعف فيهم وفى شخصه . وندب حظه لأنه ولد رجلا ، فإنه لوكان امرأة ، لما كان عليه أن يطيل التنقيب والتفكير فى التوراة والتلمود ويحفظ مبادئ القانون البالغ عددها ٦١٣ . وسخرت روحه المرحة من التلمود . وتوحى الشعبية التى حظى بها هجاؤه لدى اليهود الرومان بأنهم لم يكونوا أتقياء متدينين بالقدر الذى كان عليه إخوانهم الأكثر شقاء فى سائر البلاد .

ولم تحى النهضة الدراسات اليونانية فحسب بل العبرية كذلك . ودعا الكاردينال أجديو دى فيتربو العالم اليهودى إيليا لفيتا من ألمانيا إلى رومه

(١٥٠٩) ، وبقى العالم اليهودى ثلاثة عشر عاماً ضيفاً مكرماً فى قصر الكاردينال يعلمه العبرية ، ويتلقى عنه اليونانية . وبفضل جهود إيلديو ، ورخلين ، وآخرين من التلامذة المسيحيين الذين يتلقون العلم عن المعلمين اليهود ، أنشئت كراسى اللغة العبرية ، فى كثير من الجامعات والأكاديميات فى إيطاليا . وحظى إيليا دل مديجو الذى كان يعلم العبرية فى بادوا بتقدير عظيم هناك ، رغم رفضه التحول عن دينه ، إلى حد أنه لما حدث خلاف عنيف بين الطلبة المسيحيين حول بعض الشئون الثقافية ، عينت السلطات الجامعية والسناتو فى البندقية دل مديجو لتحكيمه ، فعالج الموضوع بحزم ولباقة ، وخرج الجميع راضين . ودعاه بيكو دللا ميراندولا ليعلم العبرية فى فلورنسه ، وهناك انضم إيليا إلى الحلقة الإنسانية لأسرة مديتشى ، ولا زلنا نراه من بين الشخصيات التى رسمها بينوزو جوتزولى على جدران قصر مديتشى . ولم يشجع هذا العالم فكرة بيكو عن وجود بعض عقائد مسيحية فى « القبالة »(*) ، بل على النقيض من ذلك ، سخر من سفر الرؤيا على أنه مجموعة من سخافات حمقاء .

وكان اليهود القاطنون فى شمال جبال الألب أقل حظاً من اليهود فى إيطاليا . فقد طردوا من إنجلترا فى سنة ١٢٩٠ ، ومن فرنسا فى سنة ١٣٠٦ ، ومن فلاندرز فى سنة ١٣٧٠ . ودعوا إلى فرنسا ثانية فى ١٣١٥ شريطة أن يدفعوا الملك ثلثى أى مال يكونون قد جمعوه من ديونهم القروض التى عقدوها قبل طردهم[١٦] . وما أن انتهت مكاسب الملك من هذه العمليات حتى نفى اليهود ثانية فى سنة ١٣٢١ . وعادوا فى الوقت المناسب ليلقوا التأنيب على « الموت الأسود » ويحملوا مسئوليته ، ونفوا مرة أخرى (١٣٤٩) . وأعيدوا من

(*) Cabala فلسفة دينية سرية ابتدعها بعض أحبار اليهود ، قائمة على تفسيرات غامضة للكتاب المقدس . (المترجم)

جديد (١٣٦٠) ليقدموا قروضاً مالية ويسهموا بمهارتهم ، عوناً منهم على اقتداء ملك فرنسا الذى أمر فى إنجلترا . ولكن فى عام ١٣٩٤ اختفى فى ظروف غامضة إسرائيلى ارتد إلى المسيحية ، واتهم اليهود بقتله ، واعترف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب ، بأنهم كانوا قد نصحوا هذا المرتد بالعودة إلى اليهودية ، وثار الرأى العام ، وأمر شارل السادس كارهاً ، بنفى الجنس المنهوك ثانية .

وكان فى براغ جالية يهودية قوية ، ذهبوا إلى هناك ليستمعوا إلى عظات رائد « هس(*) » وهو ميلز Miliez ، لأنه أظهر اطلاعاً واسعاً وتقديراً كبيراً للتوراة . ودرس هس العبرية ، وقرأ التعليقات العبرية ، واقتبس عن راشى وموسى بن ميمون . وأطلق التابوريون الذين مضوا بإصلاحات هس أشواطاً حتى باتت قريبة من الشيوعية — على أنفسهم « الشعب المختار » وأطلقوا أسماء « إدوم ، وموآب ، وعماليق » ، على الولايات الجرمانية التى شنوا عليها الحرب . ولم تكن جيوش هس ، على أية حال ، تستنكف عن قتل اليهود ، عندما استولوا على براغ (١٤٢١) ، ولم يتركوا لهم الخيار : الارتداد أو الجزية ، مثل المسلمين ، بل إن أيسر خيار كان : الارتداد إلى المسيحية أو الموت(١٧) .

ومن كل الدول المسيحية تأتى بولندة فى المحل الثانى بعد إيطاليا فى حسن وفادتها اليهود ، وفى ١٠٩٨ ، ١١٤٦ ، ١١٩٦ هاجر يهود كثيرون من ألمانيا إلى بولندة ، فراراً من الموت على أيدى الصليبيين ، ولقوا ترحيباً وازدهرت أحوالهم هناك ، وفى ١٢٠٧ أصبح بعضهم يمتلك ضياعاً واسعة . وفى ١٢٦٤ منحهم الملك بوليسلاف التقى صكا بالحقوق المدنية . وبعد الموت

(*) Huss أحد رجال الإصلاح الدينى وأحد الشهداء فى بوهيميا (١٣٦٩ — ١٤١٥) .
(المترجم)

الأســـود انتقل عدد أكبر من الألمان إلى بولندة ، ورحبت بهم هناك الأرستقراطية الحاكمة ، بوصفهم خميرة تقدمية اقتصادية فى أمة لا زالت تفتقر إلى طبقة وسطى : وثبت كازيمير الثالث الأكبر (١٣٣٣ — ١٣٧٠) حقوق اليهود البولنديين ووسعها ، وضمن الدوق الأعظم فيتوفست Vitovst هذه الحقوق ليهود لتوانيا : ولكن فى ١٤٠٧ ، أبلغ أحد الكهنة شعب الكنيسة فى كراكاو أن اليهود قد قتلوا طفلا مسيحياً ، وأخذوا يمتعون أنظارهم بدمه . وحرض هذا الاتهام على وقوع المذابح . وجدد كازيمير الرابع حريات اليهود وزاد فيها (١٤٤٧) ، وقال : « نريد أن يشعر اليهود الذين نرغب فى أن نحميهم من أجل مصلحتنا ، ومصلحة خزانة الدولة — أن يشعروا بالراحة فى ظل حكمنا الخير »(١٨) . واتهم رجال الدين الملك ، وأنذره أولسنيكى رئيس الأساقفة بسوء المصير فى الجحيم ، وألقى يوحنا كابسترانو ، الذى جاء إلى بولندة ممثلا للبابا ، خطباً ملتهبة مثيرة فى سوق بلدة كراكاو (١٤٥٣) ، ولما هزم الملك فى الحرب ارتفعت الصيحات بأن عقاب الله قد نزل به لمساندته الكفار . ومذ كان فى حاجة إلى تأييد رجال الدين للدخول فى حرب أخرى ، فإنه ألغى صك حريات اليهود . ووقعت المذابح المنظمة فى ١٤٦٣ ، ١٤٩٤ ، وربما كان لمنع هذه الهجمات أن طلب إلى يهود كراكاو بعد ذلك أن يقطنوا ضاحية « كازيميريه » .

وفى تلك الضاحية وفى غيرها من المراكز فى بولندة ولتوانيا ، زاد اليهود عدداً وازدهاراً بعد أن ذللوا كل العقبات ، وفى عهد سجسمند الأول أعيدت لهم حرياتهم فيما عدا حرية الإقامة . وظلوا على علاقة طيبة مع سجسمند : وفى ١٥٥٦ اتهم ثلاثة من اليهود فى بلدة سوخاشيف ، بطعن « القربان المكرس » حتى أدمى ، وأعلنوا براءتهم ، ولكنهم أعدموا حرقاً بأمر من أسقف خلم Khelm . واستنكر سجسمند الثانى هذه العملية على أنها « أكذوبة دينية » قصد بها أن يثبت لليهود والبروستانت أن الخبز المقدس كان قد تحول

فعلا إلى جسد المسيح ودمه ، وقال الملك « لقد صعقت لهذه الجريمة البشعة ، وإنى لا يعوزنى حسن الإدراك إلى حد يجعلنى أومن بأنه يمكن أن يكون هناك دم فى القربان[١٩] ، ولكن بموت هذا الملك المتشكك ، انتهت فترة المشاعر الطيبة بين الحكومة واليهود فى بولندة .

وعاش اليهود حقبة من الزمن فى سلام فى ألمانيا فى العصور الوسطى . وعملوا بجد ونشاط على طول المنافذ التجارية النهرية الكثيرة ، وفى المدن الحرة والثغور ، وحتى رؤساء الأساقفة أنفسهم كانوا يطلبون ترخيصاً من الإمبراطور لإيواء اليهود وبمقتضى المرسوم البابوى (١٣٥٥) شارك الإمبراطور شارل الرابع الناخبين الإمبراطوريين امتيازهم فى الانتفاع باليهود ، أى حق الناخبين فى استقبال اليهود فى دوائرهم ، وحمايتهم واستخدامهم ، وابتزاز أموالهم . وفى ألمانيا ، كما كان الحال فى إيطاليا ، تلهف الطلاب على تفهم التوراة فى نصوصها الأصلية ومن ثم درسوا العبرية . وحفز النزاع بين رخلين وبفركورن إلى هذه الدراسة ، كما قوت طباعة التلمود كاملا لأول مرة (١٥٢٠) من هذا الحافز .

وبلغ تأثير اليهودية ذروته فى الإصلاح الدينى . ومن الوجهة الديلية ، كان هذا الإصلاح رجوعاً إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة فى صدر المسيحية اليهودية . فإن عداء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل ، كان عوداً إلى عداء السامية « للصور المنحوتة » . واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) . وإن إنكار عبادة العذراء ، وعبادة القديسين ليقترب كثيراً من التوحيد الصارم عند اليهود . كما أن ارتضاء القساوسة الجدد للزواج والجلس ، جعلهم أشبه بأحبار اليهود ، منهم بالكهنة الكاثوليك . إن نقاد رجال الإصلاح الدينى اتهموهم « بالتهود » ، وأسموهم « أشباه اليهود » أو « أنصاف اليهود »[٢٠] . وقال كارلستاد نفسه إن ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى فى ألمانيا) أراد أن يرجع إلى موسى

وشريعته : وضم كالفن تهمة « التهود » إلى آثام سرفيتس السيئة ، وسلم الأسبانى بأن دراساته العبرية أثرت عليه فى مناقشة لاهوت التثليث . وأعاد حكم كالفن فى جنيف إلى الأذهان تسلط الكهنة فى إسرائيل القديمة . واتهم زونجلى بأنه متهود لأنه درس العبرية مع اليهود ، وبنى كثيراً من عظاته وتعليقاته على النص العبرى للتوراة ، واعترف بأنه مفتون باللغة العبرية :

> لقد ألفيت « اللغة المقدسة » ، فوق كل ما يعتقده الناس ، لغة مهذبة رشيقة جليلة : وعلى الرغم من فقرها فى عدد الكلمات ، فإن أحداً لا يشعر بهذا النقص ، لأنها تستخدم حصيلتها من الألفاظ بأساليب شتى . والحق أنى قد أجرؤ على القول بأن الإنسان إذا أدرك جلالها ورشاقتها ، لوجد أنه ليس هناك لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن الكثير بمثل هذا العدد القليل من الألفاظ ، وبمثل هذه التعابير القوية : وليس ثمة لغة مثلها غنية بأساليب التصوير المتعـــددة الجوايب الزاخرة بالمعانى . وليس هناك لغة مثلها تبهج القلب وتنفذ إليه بسرعة(٢١) .

ولم يكن لوثر متحمساً إلى مثل هذا الحد . وقال شاكياً : « كيف أبغض قوماً يقحمون على الناس لغات كثيرة كما يفعل زونجلى ، فقد تحدث على المنبر باليونانية والعبرية فى همبرج »(٢٢) . وهاجم لوثر فى نزق شيخوخته وخرفه ، اليهود وكأنه لم يتعلم منهم شيئاً . وليس ثمة إنسان بطل فى رأى دائنه . وفى نشرة عن « اليهود وأكاذيبهم » (١٥٤٢) أفرغ لوثر وابلا من الحجج ضد اليهود ، على أنهم كانوا قد أبوا أن يرتضوا المسيح إلهاً ، وأن ما عانوا طوال حياتهم أثبت غضب الله عليهم ، وأنهم دخلاء على أراضى المسيحيين ، وأنهم كانوا وقحين فى ثرائهم القائم على الربا ، وأن التلمود أجاز الخداع والسرقة والسلب وقتل المسيحيين ، وأنهم سمموا العيون والآبار ، وذبحوا

أطفال المسيحيين ليستخدموا دماءهم فى الطقوس الإسرائيلية . وقد رأينا فى دراستنا له فى شيخوخته كيف أنه نصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم فى أعمال السخرة ، وأن يخير جميع اليهود بين اعتناق المسيحية أو قطع ألسنتهم . وفى عظة ألقاها قبل موته بوقت قصير ، أضاف أن الأطباء اليهود كانوا يتعمدون تسميم المسيحيين(٢٣) . وساعدت هذه التصريحات على أن تجعل البروتستانتية — وهى المدينة كثيراً لليهودية — أشـد عداوة للسامية من الكاثوليكية الرسمية ، ولو أنها ليست فى هذا المجال أكثر من جماهير الكاثوليك الذين أثروا على الناخبين فى سكسونيا وبراندنبرج ليطردوا اليهود من هذه البقاع(٢٤) . لقد أشاعوا هذه النغمة فى ألمانيا على مدى عدة قرون ، وأعدوا شعبها لإبادة الجنس حرقاً .

٢ — على السفود

لماذا كان المسيحيون واليهود يمقتون بعضهم بعضاً ؟ لاريب أنه كان هناك سبب يسود بينهم باستمرار ، ذلك هو الصراع الحاد بين العقائد الدينية ، حيث كان اليهود يشكلون تحدياً ثابتاً معمراً للمعتقدات المسيحية الأساسية .

وأدى العداء الدينى إلى فصل عنصرى جاء فى أول الأمر طوعاً ، ثم بات قسراً فيما بعد ، حيث انبثق فى إنشاء أول حى يهودى فى سنة ١٥١٦ . وأبرز هذا الفصل العنصرى الاختلافات فى اللباس وطرق الحياة والملامح والصلاة والكلام . وشجع هذا التباين على عدم الثقة والخوف المتبادلين بين الطرفين ؛ وولد هذا الخوف كراهية . وحول اليهود ما ألفوا من منع زواجهم من المسيحيين مفخرة لهم . وتمخض اعتزازهم بجنسهم عن تباهيهم بأنهم سلالة ملوك قد حكموا إسرائيل ألف سنة قبل ظهور المسـيح ؛ واحتقروا المسيحيين بوصفهم مشركين يؤمنون بالخرافات ، وأنهم يتصفون بشىء من

بطء الفهم ، ولكنهم يتشدقون بعبارات ملؤها الرياء المهذب على حين يأتون بأعمال وحشية لا يستشعرون فيها الرحمة ، ويعبدون « أمير سلام » على حين يشن الإخوة الحرب تلو الحرب ضد إخوتهم . كما احتقر المسيحيون اليهود على أنهم كفرة غرباء لا يؤلفون . ويروى توماس مور قصة سيدة تقية صعقت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلا يهودية ، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن « لأم الإله » ما كانت تكنه لها من حب من قبل[٢٥] .

وأصبحت قصة القربان المقدس مأساة لليهود . فقد طلب إلى المسيحيون أن يؤمنوا بأن الكاهن كان يحول رقائق الخبز غير الخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وقد ارتاب في هـــذا بعض المسيحيين ، مثل « طائفة المتمتمين(*) » ، وربما أمكن أن يقوى من هذا الاعتقاد ما روى من قصص عن بعض رقائق الخبز المكرس التى تقطر دماً عند أية وخزة من سكين أو دبوس . ولكن من ذا الذى يقدم على هذه الفعلة الشنيعة غير اليهود ؟ وفى القرون الأخيرة من العصور الوسطى كانت مثل هذه الأساطير التى تروى عن القربان الذى يقطر دماً كثيرة جداً . وفى حالات عديدة : فى نيوبرج (بالقرب من باسو) ١٣٣٨ ، وفى بروكســـل ١٣٦٩ ، أدت هذه المزاعم إلى ذبح اليهود وإحراق بيوتهم . وأقيم فى كاتدرائية سانت جود ول فى بروكسل مصلى خاص لتخليد ذكرى القربان الذى أدمى ١٣٦٩ ، واحتفل بهذه المعجزة سنوياً فى عيد يطلق عليه Flemish Kermess[٢٦] . واعترف أحد الكهنة فى نيوبرج بأنه كان قد غمس قرباناً غير مكرس فى الدم وخبأه فى إحدى الكنائس ثم اتهم

(*) Lollards جماعة من المصلحين السياسيين والدينيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهم فى انجلترا أتباع جون ويكلف الذى استقت نظرياته كثيرا من نقاط الإصلاح البروتستانتى الذى جاء فيما بعد . (الترجمة)

اليهود بطعنه(٢٧) . وينبغي أن نضيف إلى هذا أن رجال الكنيسة المستنيرين مثل نيقولا أوف كوزا دمغ أساطير هجمات اليهود على القربان بأنها ضروب من القسوة مخزية .

واستمرت المنافسات الاقتصادية وراء العداء الديني . فعلى حين امتثل المسيحيون لأمر البابا بتحريم الفوائد الربوية ، حصل اليهود على ما كاد يكون احتكاراً لإقراض النقود في العالم المسيحي . ولما تجاهل بعض أصحاب المصارف المسيحيين هذا التحريم ، هبت شركات مثل Bordi ، Pitti ، Strozzi في فلورنسه ، وولزرز Welsers ، Hochstetters ، Fuggers في أوجزبرج ، هبت تتحدى هذا الاحتكار ، ومن ثم تركزت هنا إثارة جديدة للخواطر ، وتقاضى الطرفان ، المسيحيون واليهود ، كلاهما نسبة عالية من فوائد القروض ، مما يعكس المغامرة بإقراض النقود في اقتصاد غير مستقر ، زاد من زعزعته ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة العملة . وغامر المقرضون اليهود أكثر مما فعل منافسوهم . وباتت ديون اليهود على المسيحيين غير محققة وغير مأمونة تكتنفها مخاطرة كبيرة ، فقد تعلن السلطات الكنسية تأجيل الدفع ، كما حدث في الحروب الصليبية ، وربما فرض الملوك ، وقد فرضوا بالفعل ، على اليهود ضرائب يصادرون بها أموالهم ، أو ابتزوا القروض منهم قسراً وإلا طردوهم وأحلوا مدينيهم من ديونهم أو تقاضوا نصيباً من المسموح بجمعه من الأموال . وفي شمال الألب ظلت كل الطبقات تقريباً ، فيما عدا رجال الأعمال ، تعتبر الفائدة رباً ، ودمغوا بالإجرام أصحاب المصارف اليهود ، وخاصة من يقترضون منهم . ولما كان اليهود بصفة عامة أكثر رجال المال خبرة وتجربة ، فقد استخدمهم الملوك في كثير من الأقطار لإدارة الشئون المالية في الدولة . وكانت رؤية اليهود الأثرياء يتقلدون مناصب مربحة ويجمعون الضرائب من الناس تثير استياء الشعب وسخطه .

ومع هذا كله ، رحبت بعض المجتمعات المسيحية بأصحاب المصارف من اليهود : وقدمت لهم فرنكفورت امتيازات خاصة شريطة تقاضيهم نسبة ٣٢½٪ فقط ، على حين تقاضوا من آخرين ٤٣ ٪ [٢٨] ، وقد نرى فى هذا ما يثير نفورنا الشديد ، ولكنا نسمع عن مقرضى نقود مسيحيين بلغ ما تقاضوه ٢٦٦ ٪ ، وتقاضى آل هولز هيرز فى نورمبرج ٢٢٠ ٪ فى ١٣٠٤ ، وتقاضى المقرضون المسيحيون فى برانديزى ٢٤٠ ٪ [٢٩] . كما نسمع عن مدن طالبت بعودة أصحاب المصارف اليهود باعتبارهم أكثر تساهلا ورفقاً من نظرائهم المسيحيين . واشترطت رافنا : فى معاهدة مع البندقية ، وجوب إرسال ماليين يهود إليها لفتح حسابات مصرفية للنهوض بالزراعة والصناعة [٣٠] .

وأضافت الروح القومية نغمة جديدة إلى أنشودة البغض والكراهية : وذهبت كل أمة إلى أنها بحاجة إلى وحدة عرقية ودينية . وطالبت بامتصاص اليهود فيها أو تحولهم عن دينهم . وكانت عـدة مجالس كنسية ، كما كان بعض البابوات يكرهون اليهود بشكل يتسم بالعدوان . وحرم مجلس فيينا (١٣١١) أى تعامل بين المسيحيين واليهود . واستن مجلس زمورا (١٣١٣) قاعدة بأن يبقوا فى حالة خضوع وعبودية صارمة . وجدد مجلس بال (١٤٣١ — ١٤٣٣) القوانين الكنسية التى تحرم على المسيحيين معاشرة اليهود ، أو خدمتهم ، أو استخدامهم كأطباء ، وأصدرت التعليمات إلى السلطات المدنية بعزل اليهود فى أحياء مستقلة ، وإلزامهم بوضع شارة مميزة ، والتحقق من حضورهم عظات تهدف إلى تحويلهم عن دينهم [٣١] . ولم يطق البابا يوجينيوس الرابع ، الذى كان فى نزاع مرير مع مجلس بال ، أن يتفوق عليه هذا المجلس فى إزعاج اليهود ، فأكد التجريد من الحقوق الذى وضعه هـذا المجلس ، وأضاف أنه يجب ألا يكون اليهود مؤهلين لأية وظيفة عامة ، وألا يرثوا أية ممتلكات مسيحية ، وألا يشيدوا مزيداً من المعابد ، وأن يقبعوا فى دورهم خلف الأبواب والنوافذ المغلقة

فى أسبوع الآلام ، (احتياط حكيم ضد عنف المسيحيين) ، أضف إلى ذلك أنه لا يعتد قانوناً بشهادة اليهود ضد المسيحى . وشكا يوجينيوس من أن بعض اليهود افتروا على يسوع ومريم فى أحاديثهم . ويحتمل أن هذا كان صحيحاً[٣٢] ، فإن الكراهية تولد الكراهية . وأصدر يوجينيوس بعد ذلك موسوماً آخر يقضى بأنه إذا وجد يهودى يقرأ التلمود ، فلا بد من مصادرة أملاكه . وفوض البابا نيقولا الخامس القديس يوحنا كابسترانو (١٤٤٧) ليراقب أن كل مادة فى هذا التشريع المذل توضع موضع التنفيذ ، وليضع يده على ممتلكات أى طبيب يهودى تولى علاج فرد مسيحى[٣٣] .

وعلى الرغم من كل هذه المراسيم كان سلوك جمهور المسيحيين مع اليهود يتسم بتلك الروح الطيبة التى تسيطر على كل الناس تقريباً ، رجالا ونساء . بل وعلى الحيوانات ، إذا لم يعترض سبيلهم أو يمس مصالحهم شىء . ولكن من الجائز أن يوجد فى معظم الجماعات أقلية لا تتورع عن ممارسة أعمال القسوة إذا أمكن القيام بها مع الإفلات من العقوبة بصفة جماعية . ومن هذا القبيل جماعة « الباستير » ، وقد نشأوا كرعاة مرتبطين بالأرض المقدسة ، وجذبوا أنظار الدهماء من الناس لدى مرورهم بفرنسا (١٣٢٠) ، فقد عقدوا العزم على قتل كل من يصادفهم من اليهود الذين رفضوا التعميد . وفى تولوز اعتصم نحو ٥٠٠ من اليهود بأحد الأبراج ، فحاصرهم حشد هائج من الغوغاء ، وخيروهم بين التعميد أو الموت ، وحاول محافظ المدينة عبثاً إنقاذهم . ولما أدرك اللاجئون أن المقاومة ضرب من المحال ، أمروا نفراً من الأقوياء فيهم بأن يذبحوهم . وقيل إنهم جميعاً بهذه الطريقة لقوا حتفهم فيما عدا واحداً ، عرض الإبقاء على حياته ، مع الإذعان للتعميد ، ولكن الحشد الثائر مزقه إرباً . وبمثل هذه الطريقة استؤصل نحو ١٢٠ جالية يهودية فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا ولم يخلفوا وراءهم إلا بقية معدمة[٣٤] . وفى ١٣٢١ أحرق فى شينون

١٢٠ يهوديا بتهمة تسميم الآبار[٣٥] ، وفى ١٣٣٦ أعلن أحد المتعصبيين الألمان أنه تلقى الوحى من عند الله يأمره بقتل اليهود ثأراً لموت المسيح ، فجمع حوله نحو خمسة آلاف من الفلاحين ، أطلقوا على أنفسهم اسم Armleder نسبة لشريط من الجلد ربطوه حول أذرعهم ، وجاسوا خلال الألزاس وأراضى الراين ، وقتلوا كل يهودى عثروا عليه ؛ واجتاحت حمى القتل بافاريا وبوهيميا ومورافيا والنمسا (١٣٣٧) وحاول البابا بندكت الثانى عشر وقفها دون جدوى ، ولكن فى راتسبون وفيينا فقط أمكن حماية اليهود بطريقة فعالة ، أما فى الأماكن الأخرى فقد عذب الآلاف من اليهود وقتلوا[٣٦] .

وكان الموت الأسود كارثة خاصة حلت باليهود فى العالم المسيحى . لقد أودى الطاعون نفسه بحياة المغول والمسلمين واليهود فى آسيا ، وهناك لم يفكر أحد فى إلقاء اللوم على اليهود ، ولكن فى أوربا الغربية حيث جن جنون الأهالى لهول الوباء وما أحدثه من دمار ، اتهم اليهود بتسميم الآبار فى محاولة لاستئصال المسيحيين . ونسج الخيال المسعور كثيراً من التفاصيل . فقيل بأن يهود طليطلة أرسلوا رسلهم بصناديق ملأى بالسم الذى صنعوه من السحالى والعظاءات (نوع من الزواحف) وقلوب المسيحيين ، إلى جميع الجاليات اليهودية فى أوربا ، مع توجيهات بإلقاء هذه السموم المركزة فى الآبار والعيون ؛ ودمغ الإمبراطور شارل الرابع هذا الاتهام بالسخف الذى لا يعقل ، وكذلك فعل البابا كليمنت السادس[٣٧] ، وأيد كثيرون من عمد المدن والمجالس البلدية هذا الرأى ، ولكن ذلك كله لم يأت بنتيجة تذكر ، وساد بين المسيحيين اعتقاد باطل بأن الطاعون لم يكن يمس اليهود بسوء ؛ وربما كانت الحمى فى بعض المدن أقل فتكاً باليهود منها بالمسيحيين . تبعاً لاختلاف القوانين الصحية والرعاية الطبية[٣٨] ، ولكن فى بعض الأماكن مثل فيينا ، راتسبون ، أفنيون ، رومه ، عانى اليهود من الطاعون قدر ما عانى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسيحيون[٣٩] ، ومع ذلك عذب اليهود حتى اعترفوا بتوزيع السم[٤٠] . وأغلق المسيحيون آبارهم وعيونهم ، وشربوا ماء المطر أو الثلج المذاب ، وانتشرت المذابح الرهيبة فى فرنسا وأسبانيا وألمانيا .وفى إحدى المدن فى جنوب فرنسا ألقيت الجالية اليهودية بأسرها فى النار . وأحرق كل اليهود فى سافوى ، وحول بحيرة ليمان وفى برن وفريبورج وبروكسل . ومرة أخرى استنكر كليمنت السادس هذا الإرهاب وهذه التهمة ، وأعلن براءة اليهود ، وأشار إلى أن الطاعون كان شديداً حيث لا يوجد يهود ، قدر شدته فى أى مكان آخر ، وحث رجال الدين على أن يكبحوا جماح الناس فى أبرشياتهم ، وحرم من الكنيسة كل من قتل اليهود أو اتهمهم ظلماً وافتراء ، ولكن فى ستراسبورج ، على أية حال ، شارك الأسقف فى توجيه الاتهام ، وحرض المجلس البلدى ، على كره من المجلس ، على أن ينفى كل اليهود . ورأى الجمهور أن هذا الإجراء معتدل ، فطرد المجلس وعين مجلساً غيره ، أمر بالقبض على كل اليهود فى المدينة ، وهرب بعض هؤلاء إلى الريف ولكنهم لقوا حتفهم بأيدى الفلاحين . وبقى ألفان من اليهود فى المدينة فأودعوا السجون ، وفرض عليهم التعميد ، فأذعن نصفهم ، ورفض الباقون فأحرقوا (١٤ فبراير ١٤٣٩) . وبلغ مجموع من أبيدوا نحو ٥١٠ جاليات يهودية فى أوربا المسيحية نتيجة هذه المذابح[٤١] ، وهلك عدد أكبر من ذلك ، ففى سرقسطه على سبيل المثال ، عاش واحد من بين كل خمسة من اليهود بعد الموت الأسود وما صحبه من اضطهادات[٤٢] وقدر لى Lea أن ٣٠٠٠ من اليهود قتلوا فى أرفورت ، ١٢٠٠٠ فى بافاريا[٤٣] . وفى فيينا بناء على نصيحة الحبر جونة Jonah تجمع كل اليهود فى المعبد وقتلوا أنفسهم بأيديهم ، وحدث مثل هذا الانتحار الجماعى فى ورمز ، أوبنهايم ، كرمز Krems ، فرانكفورت[٤٤] . وحمل الذعر آلافاً من اليهود على الفرار من أوربا الغربية إلى بولندة أو تركيا . وقد يكون من

العسير أن نعثر ، قبل زماننا أو فى سجلات للوحشية ، على أية أعمال أشد وحشية من قتل اليهود بالجملة فى الموت الأسود .

وزحف اليهود الذين عمروا بعد الموت الأسود ، وئيداً إلى المدن التى كانت قد سلبتهم ، وأعادوا بناء معابدهم ، ولكن اشتد شعور الكراهية نحوهم ، حيث نسب الخطأ إليهم . وفى ١٣٨٥ أودع السجون كل اليهود فى مدن « العصبة السوابية » وعددها ٣٦ مدينة ، ثم أطلقوا سراحهم على شريطة إلغاء كل الديون التى لليهود ، ونال هذا الإجراء كل الرضا فى نورمبرج بصفة خاصة لأنها كانت قد اقترضت منهم ما يعادل نحو ٧٠٠,٠٠٠ دولار[٤٥] . وفى ١٣٨٩ ذبح عدد من اليهود بتهمة أنهم كانوا قد انتهكوا قدسية قربان مكرس . وبنفس التهمة أحرق ١٤ يهودياً فى ابوتزن (١٣٩٩)[٤٦] . ولأسباب مختلفة طرد اليهود من كولون (١٤٢٤) ، ومن سبير Speyer (١٤٣٥) ، ومن ستراسبورج وأوجزبرج (١٤٣٩) ، ومن ورزبرج (١٤٥٣) ، وأرفورت (١٤٥٨) ، ومانيز (١٤٧٠) ، ونورمبرج (١٤٩٨) ، ومن أولم (١٤٩٩) . وأقر مكسيمليان الأول طردهم من نورمبرج على أساس أنهم « قد كثر عددهم وأنهم بفضل معاملاتهم الربوية وضعوا أيديهم على ممتلكات كثير من أفاضـــل المواطنين ، وجروهم إلى مهاوى البؤس والعار »[٤٧] . وفى ١٤٤٦ أودع كل اليهود فى نطاق براندنبرج السجون وصودرت بضائعهم باتهامات دمغها ستيفن أسقف المدينة بأنها تخفى وراءها الجشع والطمع ، « لقد تصرف تصرفاً جائراً أولئك الأمراء الذين دفعهم جشعهم المفرط إلى القبض على نفر معين من اليهود وإلقائهم فى غياهب السجون دون مبرر عادل . وهم يرفضون أن يعوضوهم عما ابتزوا منهم »[٤٨] . وفى ١٤٥١ فرض نيقولا كاردينال كوزا ، وهو من أكثر الرجال استنارة فى القرن الخامس عشر ، على اليهود المقيمين فى حدود ولايته وضع الشارة . وبعد ذلك بعامين بدأ يوحنا كابسترانو بوصفه ممثلا للبابا نيقولا الخامس ،

مهمته فى ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسيليزيا وبولندة . واتهم فى عظاته الملتهبة اليهود بقتل الأطفال وتدنيس القربان ، وهى اتهامات كان قد دمغها البابوات بأنها خرافات قتالة . وأخرج أدواق بافاريا كل العبرانيين من دوقيتهم بعد أن ألهبهم « سوط اليهود » . هذا . أما جودفرى أسقف ورزبرج الذى كان قد منح اليهود امتيازاتهم كاملة فى فرانكونيا ، فإنه عاد الآن فنفاهم ، وفى المدينة تلو المدينة قبض عليهم وألغيت كل الديون التى كانت لهم . وفى برسلاو سجن عدد من اليهود بناء على طلب كابسترانو ، وأشرف هو بنفسه على التعذيب الذى انتزع من بعضهم أى اعتراف أمر كابسترانو بالإدلاء به ، وعلى أساس هذا الاعتراف أعدم أربعون منهم حرقاً (٢ يونيه ١٤٥٣) . ونفى اليهود الباقون ، ولكن أطفالهم انتزعوا منهم وعمدوا بالقـــوة(٤٩) . وضم كابسترانو إلى قائمة القديسين ١٦٩٠ .

وإن محنة اليهود فى راتسبون لتوضح حقيقة هذا العصر . فقد زعم هانز فوجل ، وهو يهودى تنصر أن أحد الأحبار واسمه إسرائيل برونا ، فى الخامسة والسبعين من العمر كان قد ابتاع منه طفلا مسيحياً وقتله ، ليستخدم دمه فى أحد الطقوس اليهودية . وآمن الناس بصحة الاتهام ، وتعالت صيحاتهم مطالبين بعقوبة الموت للحبر العجوز . وألقى مجلس المدينة بالشيخ العجوز فى السجن إنقاذاً له من أيدى الجمهور . وأمر الإمبراطور فريدريك الثالث بالإفراج عنه . ولم يجرؤ المجلس على الامتثال للأمر ، ولكنه قبض على فوجل ، وأبلغه أنه لا مناص من موته ، وطلب إليه أن يعترف بخطاياه . فأقر أن برونا برىء ، وأفرج عن الحبر . ولكن ترامت الأنباء إلى راتسبون عن اعتراف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب بقتل طفل مسيحى فى ترنت . وهنا نشأ من جديد الاعتقاد بصحة اتهام فوجل ، فأمر المجلس باعتقال كل يهود راتسبون ومصادرة بضائعهم . وتدخل فردريك ، وفرض على المدينة غرامة قدرها ثمانية آلاف جيلدر ، ووافق المجلس على إطلاق سراح اليهود

إذا دفعوا هــذه الغرامة ، وفوقها مبلغ ١٠ آلاف جيلدر بصفة كفالة (٢٥٠,٠٠٠ دولار ؟) . فأجاب اليهود بأن هذا المبلغ (١٨,٠٠٠ جيلدر) يزيد على كل ما تبقى لهم من ممتلكات ، ومن ثم يتعذر عليهم دفعه . وقضوا فى السجن عامين آخرين . ثم أطلق سراحهم بعــد أن أقسموا اليمين بألا يغادروا راتسبون وألا يحاولوا الانتقام . على أن رجال الدين أهاجوا الشعور لطردهم وهددوا بالحرمان من الكنيسة كل تاجر يبيع اليهود شيئاً ؛ ولم يبق فى سنة ١٥٠٠ سوى ٢٤ أسرة يهودية ، وطرد هؤلاء فى ١٥١٩(٥٠) ؛

ووصف طرد اليهود من أسبانيا ، فيما أسلفنا من قبل ، بأنه عملية مهمة بالنسبة لتاريخ تلك البلاد . وتجدد فى البرتغال اضطهادهم عندما سمح البابا كليمنت السابع ، بتحريض من شارل الخامس ، للأساقفة البرتغاليين بإنشاء محكمة التفتيش (١٥٣١) بقصد فرض الشعائر المسيحية على « المسيحيين الجدد » ، ومعظمهم من اليهود الذين كانوا قد عمدوا رغم إرادتهم ؛ وطبق قانون توركيمادا الصارم ، وبثت العيون والأرصاد لملاحقة ارتداد أى من المتنصرين إلى شىء من الطقوس الدينية اليهودية ، وسجن الألوف من اليهود ، وحرمت عليهم الهجرة ، لأن مهامهم الاقتصادية كانت لا تزال ضرورية للاقتصاد البرتغالى . وحرم على المسيحيين شراء شىء من أملاك اليهود منعاً لهم من الهرب ، وأرسل مئات من هؤلاء إلى المحرقة لمحاولتهم مغادرة البلاد . وصعق كليمنت لهذه الإجراءات ، وربما أثرت فيه هدايا اليهود ، فأبطل سلطة محكمة التفتيش البرتغالية ، وأمر بإطلاق سراح كل من أمرت بسجنهم ، وإعادة بضائعهم المصادرة . ونص مرسومه الصادر فى ١٧ أكتوبر ١٥٣٢ على بعض مبادىء إنسانية للتعامل مع المرتدين عن المسيحية .

لما كانوا قد سيقوا إلى التعميد قسراً ، فلا يجوز أن يعتبروا أعضاء فى الكنيسة . وإن فى معاقبتهم على الهرطقــة والانتكاس إلى شعائرهم الأولى ، خرقاً لمبادىء الإنصاف والمساواة ،

والأمر يختلف فيما يتعلق بأبناء وبنات الموارنة الأولين فإنهم يتبعون الكنيسة كأعضاء مختارين غير مكرهين . وبما أنهم نشأوا فى أحضان أقرباء لهم من اليهود ، وشاهدوا هذا النموذج ماثلا دوماً تحت بصرهم ، فإنه من القسوة أن نعاقبهم بمقتضى قانون الكنيسة ، بتهمة التردى فى أساليب اليهود ومعتقداتهم . إنهم يجب أن يظلوا فى أحضان الكنيسة بالمعاملة الحسنة(٥١) .

ويتبين أن كليمنت كان مخلصاً من رسالة بعث بها عند ما شعر بدنو أجله ، إلى القاصد الرسولى فى البرتغال فى ٢٦ يوليو ١٥٣٤ ، يأمره بالإسراع بإطلاق سراح المسجونين المرتدين(٥٢) .

وتابع البابا بول الثالث بذل الجهد لمعاونة اليهود البرتغاليين ، وأطلق سراح ١٨٠٠ من المسجونين ، ولكن عند ما عاد شارل من حملته التى كانت فى ظاهرها ناجحة ضد تونس ، طالب ، مكافأة له ، بإعادة محكمة التفتيش فى البرتغال . ووافق بول على كره منه (١٥٣٦) ، ولكن بشروط بدا للملك جون الثالث أنها تنسخ موافقته — منها ضرورة مواجهة المتهم بمن اتهمه . وإثبات حق المحكوم عليه فى استئناف الحكم أمام البابا . وساعد مرتد متعصب المحققين بأن علق على جدران كاتدرائية لشبونة إعلاناً جريئاً جاء فيه : « أن المسيح المخلص لم يظهر بعد ، وأن يسوع ليس هو المخلص ، وأن المسيحية محض افتراء »(٥٣) . ولما كان من الواضح أن مثل هذه العبارات قصد بها إيذاء اليهود ، فإن لنا أن نرتاب بحق فى أحد العملاء المحرضين . وعين بول لجنة من الكاردينالات لفحص إجراءات محكمة التفتيش البرتغالية . وقد جاء فى تقريرها :

إذا اتهم مسيحى زائف — وغالباً ما يكون ذلك عن طريق شهود مفترين — ساقه المحققون إلى منعزل موحش لا يرى

فيــه أرضاً ولا سماء ، وأقل ما يقال إنه لا يخاطب فيه صديقاً يواسيه أو يسعفه . ويتهمونه بمقتضى شهادة غامضة ولا ينبئونه بالزمان أو المكان الذى اقترف فيه الجريمة التى يحاكم من أجلها . ويسمح له فيما بعد باختيار محام عنه غالباً ما يقوده إلى طريق المحرقة ، بدلا من الوقوف إلى جانبه والدفاع عن قضيته . دع مخلوقاً منكود الحظ يقر بأنه مسيحى مؤمن حقاً ، وينكر إنكاراً قاطعاً الخطايا التى سيقت لاتهامه ، فإنهم يسلمونه إلى النار ، ويصادرون بضاعته . أو دعه يدفع بأنه مذنب فى كذا وكذا من الأعمال ، ولو أنها ارتكبت عن غير قصد ، فإنهم يعاملونه بالطريقة نفسها ، مدعين بأنه ينكر عناداً نياته ومقاصــده السيئة . أو دعه يعترف اعترافاً كاملا صريحاً بصحة ما اتهم به ، فإنهم يسومونه أشد ضروب الحرمان ، ويحكمون عليه بالبقاء فى زنزانة كئيبة مظلمة لا يرى فيها النور ، ويسمون هــذا « معاملة المتهم بالرحمة والرأفة والبر المسيحى » ! وحتى الذين يفلحون فى إثبات براءتهم يحكم عليهم بدفع غرامة ، حتى لا يقال إنه قبض عليهم بلا سبب . أما المتهمون المودعون فى السجون فإنهم يعذبون بكل آلات التعذيب حتى يقروا بما وجه إليهم من اتهامات . وكثيرون يقضون نحبهم فى السجن . أما الذين يطلق سراحهم . فإنهم هم وذوى قرباهم يدمغون بالعار الأبدى(٥٤) .

لقد أرهقت التطورات السياسية البابا بول ، وأقض مضجعه خطر فقدان أسبانيا والبرتغال ، كما كان البابا ليو قد فقد ألمانيا ، والبابا كليمنت إنجلترا ، ولكن بول على الرغم من ذلك بذل قصارى جهده للتخفيف من حدة محاكم

التفتيش ، ولكن الإرهاب كان يستشرى يوماً بعد يوم ، حتى وجد يهود البرتغال ، بكل وسيلة يائسة ، مهرباً من مضيفيهم ، وانضموا إلى إخوانهم فى أسبانيا سعياً وراء ركن يقبعون فيه بالعالم المسيحى أو أرض الإسلام ، ويمكن أن يحتفظوا فيه بشريعتهم مع الإبقاء على حياتهم .

٣ ـ الشتات الثانى

إلى أين يذهب اليهود ؟ إن جزيرتى سردينيا وصقلية اللتين كانوا قد قطنوا فيهما لمدة ألف سنة من قبل ، قد شملهما ، بالإضافة إلى أسبانيا ، المرسوم الذى أصدره فرديناند بطردهم . وما جاءت ١٤٩٣ حتى كان آخر يهودى قد غادر بالرمو . وفى نابولى استقبل فرانت الأول والإخوان الدومينيكان والجالية اليهودية المحلية ، آلاف اللاجئين بالترحاب . ولكن شارل الخامس أصدر فى سنة ١٥٤٠ مرسوماً بطرد اليهود من نابولى .

وكان فى جنوه لزمن طويل قانون يحدد دخول أعداد إضافية من اليهود . ولما وصل المرتدون من أسبانيا ١٤٩٢ ، لم يسمح لهم بالبقاء لأكثر من بضعة أيام قليلة . ولقد وصفهم مؤرخ جنوى بأنهم أشباح بالغة الهزال والشحوب والنحول ، عيونهم غائرة ، ولا يفرقهم عن الموتى سوى قدرتهم على الحركة »(٥٥) . ومات الكثير منهم جوعاً ، وحملت الأمهات أطفالا موتى ، وباع بعض الآباء أبناءهم ليدفعوا أجر الانتقال من جنوة . واستقبل نفر قليل من المنفيين فى فيرارا ، ولكن طلب إليهم أن يضعوا شارات صفراء(٥٦) وربما كان هذا بمثابة احتياط ضد انتشار المرض .

وكانت البندقية لعهد طويل مأوى لليهود . وكم من محاولات كانت قد بذلت لإخراجهم منها (١٣٩٥ ـ ١٤٨٧) ولكن السناتو تولى حمايتهم لأنهم كانوا يسهمون إسهاماً هاماً فى الاقتصاد والمال ، ويتولون الجزء الأكبر من تجارة الصادرات فى البندقية ، وكانوا نشيطين فى استيراد الصوف

والحرير من أسبانيا ، والتوابل واللؤلؤ من الهند[٥٧] . ولفترة طويلة كانوا يقطنون ، بمحض اختيارهم الحى الذى سمى باسمهم (حى اليهود) . وفى ١٥١٦ وبعد تشاور مع زعماء اليهود ، قضى السناتو بأن يقطن كل اليهود ، فيما عدا نفر قليل مرخص لهم بصفة خاصة ، فى قطاع من المدينة عرف باسم Ghetto أى حى خاص ، والظاهر أن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة getto ، أو مسبك كان هناك[٥٨] . وأمر السناتو كل اليهود المرتدين بمغادرة البندقية ، وقد شجع المسيحيون المنافسون هذا الإجراء . على أن بعض التجار المسيحيين عارضوه لأنه يهدد بفقدان أسواق معينة ، وخاصة فى العالم الإسلامى ، ولكن شارل الخامس استخدم كل نفوذه فى الموضوع ، ونفذ مرسوم الطرد[٥٩] . على أنه لم يمض وقت طويل حتى زحف التجار اليهود إلى البندقية ثانية ، وحل المنفيون من البرتغال محل اليهود المتنصرين الذين طردوا ، وأصبحت اللغة البرتغالية لبعض الوقت هى لغة اليهود البنادقة .

واستقبل البابا الإسكندر السادس استقبالا كريماً فى رومه كثيراً من المنفيين من شبه جزيرة إيبيريا ، وازدهرت أحوالهم فى عهد جوليوس الثانى ، وليو العاشر ، وكليمنت السابع ، وبول الثالث . وأباح كليمنت للمرتدين ممارسة الطقوس اليهودية فى حرية تامة ، مؤمناً بأنهم غير ملزمين بأى تعميد إجبارى[٦٠] . وفى أنكونا ، ثغر الولايات البابوية على الأدرياتيك ، حيث كان اليهود عنصراً نشيطاً فى التجارة الدولية ، أنشأ كليمنت مأوى لليهود الذين أعلنوا عن ديانتهم وضمن لهم عدم التحرش بهم . أما بالنسبة للبابا بول الثالث فيقول الكاردينال سادوليتو : « لم يغدق أى من البابوات على المسيحيين من التكريم والحفاوة والامتيازات والمنح مثل ما أغدق بول الثالث على اليهود . إنهم لم يحظوا بالمساعدة فقط بل إنهم تزودوا كذلك عملياً بالمنافع والامتيازات[٦١] » . وشكا

أحد الأساقفة من أن اليهود المرتدين عند دخولهم الى إيطاليا أسرعوا بالعودة إلى ممارسة الطقوس اليهودية وختان أطفالهم المعمدين ، تحت بصر البابا والأهالى ، فى الغالب . وتحت ضغط هذه الانتقادات أعاد بول محاكم التفتيش فى رومه (١٥٤٢) ، ولكنه ، وقف إلى جانب المرتدين طوال حياته(٦٢) .

وتحول خلفاؤه — وقد ضيقت عليهم الخناق انتكاسة عن أساليب الرفق واللين التى سادت عصر النهضة — تحولوا إلى سياسة إزعاج اليهود وإقلاق بالهم . وطبقت المراسيم البابوية القديمة . وفرض بول الرابع (١٥٥٥ — ١٥٥٩) على كل معبد أن يسهم بعشرة دوكات (٢٥٠ دولاراً ؟) فى إقامة دار للمتنصرين ليتلقى فيها اليهود تعاليم المسيحية . وحرم على اليهود استخدام خدام أوممرضات مسيحيات أو علاج مرضى مسيحيين ، أو أن يبيعوا المسيحيين شيئاً غير الملابس القديمة ، أو أن يقيموا مع المسيحيين أية معاملات أو علاقات ممنوعة . وما كان لهم أن يستعملوا إلا التقويم المسيحى . وهدمت كل معابد اليهود فى رومه إلا واحداً ، وحرم على اليهودى أن يمتلك عقاراً ، وإذا كان لأحد منهم أى عقار فعليه أن يبيعه فى بحر ستة شهور ، وبهذه الطريقة استطاع المسيحيون أن يشتروا بما يعادل ٥٠٠,٠٠٠ كراون (١٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار) من أملاك اليهود بخمس قيمته الفعلية(٦٣) . وانحصر كل اليهود الذين بقوا آنذاك فى رومه (١٥٥٥) فى حى منعزل عاش فيه عشرة آلاف شخص فى كيلو متر مربع فقط ، وشغلت عدة أسرات حجرة واحدة . وتعرض الحى ، بسبب انخفاض مستواه ، للفيضان الدورى لنهر التيبر ، حتى جعل من هذه البقعة مستنقعاً ملوثاً بالطاعون(٦٤) . وأحيط الحى بأسوار كئيبة تغلق أبوابها فى منتصف الليل وتفتح عند الفجر ، فيما عدا أيام الآحاد والعطلات المسيحية فإنها تظل مغلقة طوال اليوم . وألزم اليهود بأن يلبسوا خارج هذا المعزل زياً مميزاً — للرجال

قبعة صفراء ، للنسوة خمار أو شارة صفراء . — وأقيمت أحياء منعزلة مثل هذا في فلورنسا وسيينا ؛ وبمرسوم من البابا في أنكونا وبولونيا ، وكانت تسمى هناك Enferno[٦٥](الجحيم) . وأصدر بول الرابع أمراً سرياً بوضع كل المرتدين في أنكونا في سجون محكمة التفتيش ويمصادرة بضائعهم . وأحرق هناك أربعة وعشرون رجلا وامرأة واحدة أحياء بتهمة أنهم هراطقة مرتدون(١٥٥٦)[٦٦] وأرسل سبعة وعشرون يهودياً للتجديف على السفن الشراعية إلى الأبد[٦٧] . وكان هذا بالنسبة ليهود إيطاليا انتقالا من عصر ذهبي إلى شفق شاحب .

وتسللت حفنة من اللاجئين اليهود إلى فرنسا وإنجلترا على الرغم من القوانين التي تنص على إبعادهم . وكانت ألمانيا كلها تقريباً مغلقة في وجوههم . وقصد كثيرون إلى أنتورب ، ولكن سمح لنفر قليل منهم فقط بالإقامة لمدة تزيد على شهر . وأسس ديوجومنديس — وهو برتغالي مرتد — في أنتورب فرعاً للبنك الذي كانت أسرته قد أسسته في لشبونه . وفي ١٥٣٢ لاقى من النجاح ما حدا بمجلس أنتورب على القبض عليه مع خمسة عشر آخرين بتهمة ممارسة اليهودية . وتدخل هنري الثامن الذي استخدم منديس وكيلا مالياً ، وأطلق سراح ثلاثة عشر ، بعد دفع غرامة فادحة ، وهـذا هو « الغرض الأسمى » من كل حالات القبض . وانتقل اليهود الآخرون إلى أمستردام حيث كان من الممكن أن تنتعش أحوالهم بعد تحرر هولندة من نير أسبانيا سنة ١٥٨٩ .

أما هؤلاء اللاجئون الذين التمسوا مأوى في الأراضي الإسلامية التي لا تخضع مباشرة لسيطرة سلطان تركيا ، فقد صاروا إلى حالة أحسن بقليل منها في العالم المسيحي . وأطلق المغاربة النار على اليهود الذين حاولوا أن يحطوا رحالهم في أوران والجزائر وبوجيا ، ولقي عدد وفير منهم حتفهم . ولما منعوا من الدخول إلى المدن أقاموا معزلا مرتجلا من الأكواخ من خشب الأشجار ، وشبت النيران في أحد الأكواخ ، فالتهمت المستوطنة عن آخرها

مع كثير من اليهود ، أما الذين قصدوا إلى فاس فقد وجدوا الأبواب موصدة دونهم ، فاحتالوا بعض الحقول وعاشوا على الأعشاب وجذور الشجر ، وقتل الأمهات أطفالهن خيراً من أن يرينهم يموتون جوعاً . وباع الآباء أبناءهم فى مقابل قطعة من الخبز . وأتى الطاعون على مئات من الأطفال والشبان . وهاجم القراصنة المعسكر وسرقوا الأطفال ليبيعوهم بيع الرقيق(٦٨). ومزق القتلة أجسام اليهود عساهم يعثرون على مجوهرات اعتقدوا أن اليهود قد ابتلعوها(٦٩) . وبعد كل هذه المصائب والكوارث ، أنشأ الذين عمروا بعدها ، فى شجاعة لا تصدق ، فى ظل ألوان من الضعف والعجز لا نهاية لها ، جاليات يهودية جديدة فى المغرب العربى . وفى الجزائر ، خاطر سيمون ديوران الثانى بحياته المرة بعد المرة ، لحماية المنفيين ، وتنظيمهم بشكل يوفر لهم شيئاً من الأمن . وفى فاس أصبح يعقوب بيراب أشهر علماء التلمود فى زمانه .

ولقى المنفيون من إسبانيا ، استقبالا إنسانياً فى القاهرة تحت حكم سلاطين المماليك والعثمانيين ، وسرعان ما سموا إلى زعامة الجالية اليهودية . وألغى سليم الأول وظيفة Nagid « الأمير » وفيها كان يتولى أحد الأحبار تعيين سائر الأحبار ، ويشرف على شئون كل اليهود فى مصر ، وبعد ذلك أصبح لكل جالية يهودية أن تختار حبراً لها وأن تتولى شئونها الداخلية بنفسها وأنهى حبر القاهرة الجديد وهو داود بن أبى زمرة وهو مهاجر أسبانى — استخدام التقويم البابلى القائم على تقسيم الزمن إلى فترات — الذى كان يهود آسيا وأفريقية يستعملونه — وحثهم على اقتباس تقويم آخر (كما فعل يهود أوربا فى القرن الحادى عشر) وهو تقويم قائم على حساب السنين منذ بدء الخليقة الذى حدد مؤقتاً بعام ٣٧٦١ قبل الميلاد .

وحينما ذهب يهود أيبيريا (Sephardic) حظوا بالزعامة الثقافية ، والسياسية

فى الغالب ، على اليهود المحليين . ففى سالونيك أصبحوا ، وظلوا حتى ١٩١٨ ، غالبية عددية بين السكان ، حتى أن اليهود غير الإسبان الذين جاءوا ليعيشوا فى هذه المدينة ، كان لزاماً عليهم أن يتعلموا اللغة الإسبانية . وفى ظل هذه السيطرة اليهودية ، كانت سالونيك لفترة من الزمن أكثر المراكز التجارية ازدهاراً فى شرق البحر المتوسط .

ورحب السلطان بايزيد الثانى فى تركيا باليهود المنفيين ، لأنهم أحضروا معهم ، على وجه الدقة ، تلك المهارات اللازمة للحرف والصناعات اليدوية والتجارة والطب . مما لم تكن تركيا قد توسعت فيه وطورته إلا فى أقل الحدود . وقال بايزيد عن فرديناند الكاثوليكى : « إنكم تقولون إن فرديناد ملك حكيم عاقل ذلك الذى أفقر بلاده وأغنى بلادنا »(٧٠) . وخضع اليهود ، شأنهم شأن غير المسلمين فى أرض الإسلام ، لضريبة الرأس ، ولكن هذه الضريبة أعفتهم من الخدمة العسكرية . وبقى معظم يهود تركيا فقراء ، ولكن كثيراً منهم أثرى وسما إلى مراكز النفوذ . وسرعان ما أصبح كل أطباء القسطنطينية تقريباً من اليهود . وكان طبيب سليمان من ذوى الحظوة لديه ، إلى درجة أنه أعفاه وأعفى أسرته من كل الضرائب وبرز اليهود فى المناصب الدبلوماسية فى عهد سليمان ، حتى أن السفراء المسيحيين كان لزاماً عليهم أن يتوددوا إليهم تقرباً إلى السلطان . وكان لأنباء اضطهاد اليهود فى أنكونا على يد بول الرابع وقع شديد فى نفس سليمان ، واحتج عليها لدى البابا (٩ مارس ١٥٥٦) وطلب الإفراج عن رعايا تركيا من اليهود فى أنكونا ، وفعلا أطلق سراحهم(٧١) . وآوى جراسيا منديزيا ، وهو أحد أفراد أسرة منديس الذين اشتغلوا بالأعمال المصرفية ، إلى اسطنبول ليجد فيها أخيراً الأمن والطمأنينة ، بعد أن أتى كثيراً من أعمال البر

والخير فى أنتورب وفيرارا والبندقية ، ولقى جزاء سنمار من الإساءة والأذى :

وفى عهد الأتراك استقبلت الأرض المقدسة مرة أخرى ، القوم الذين كانوا قد أضفوا عليها القداسة أول الأمر . ولما كانت القدس مقدسة لدى المسيحيين والمسلمين ، قدر ما هى مقدسة لدى اليهود ، فإنه لم يسمح بالإقامة فيها إلا لعدد محدود من العبرانيين . أما فى صفد فى الجليل الأعلى ، فقد ازداد عدد اليهود وارتفعت مكانتهم الثقافية بسرعة ، حتى أن يعقوب بيراب حاول أن ينشئ هناك جمعية Sonhedrin(*) ، تكون بمثابة هيئة عليا تتولى الحكم بين جميع اليهود . وكانت تلك فكرة جريئة . ولكن اليهود كانوا موزعين فى شتى البلاد متباينين فى اللغة وطرق الحياة ، إلى حد لا يسمح بتوحيد الحكم . وعلى الرغم من ذلك فإن اليهود فى أرض الإسلام وفى العالم المسيحى ، كانوا فى صلواتهم يتضرعون إلى الرب « ليجمع شتاتهم ويلم شملهم من أركان الأرض الأربعة » . وفى يوم الكفارة Yom Kippur ، وفى يوم عيد الفصح يجتمع اليهود فى كل مكان فى العالم حول الأمل الذى تشبثوا به فأبقى عليهم وسط المحن ، ويرددون : « سنكون فى العام القادم فى فلسطين »(٧٢) :

٤ – فن البقاء

إن قدرة اليهود على الإفاقة من كبوتهم وتخطى المحن التى حلت بهم ، هى إحدى عجائب التاريخ التى تترك فى النفس انطباعاً ، وهى جزء من المرونة البطولية التى أظهرها البشر عامة بعد كوارث الحياة :

(*) **Sanhedrin** : جمعية هى بمثابة المحكمة العليا والمجلس الأعلى لشعب اليهود القديم ، جمعت بين المهام الدينية والمدنية ، وتكونت من ٧١ عضواً تحت رئاسة الكاهن الأعظم . ألغيت بعد تدمير أورشليم فى سنة ٧٠ م . (الترجمة)

ولم يكن التمييز العنصرى أسوأ إهانة لحقتهم ؛ فقـد كانوا أكثر أمناً وسعادة فيما بينهم ، منهم وسط الجمهور الذى يضمر لهم العداء ، والفقر أمكنهم أن يتحملوه لأنهم كانوا قد ألفوه لعدة قرون ، ولم يكن خاصاً بهم ، والحق أن فخرهم بالثراء العارض كان أقرب احتمالا من شعورهم بالفقر الذى عانوه منذ أزمان سحيقة . أما أنكى الجراح ، مهما كان الباعث عليه ، فهى الشارة أو الزى المميز الذى دمغهم بأنهم محتقرون منبوذون بين الناس . وكتب مؤرخ اليهود العظيم فى مرارة يقول :

إن شارة اليهودى كانت بمثابة إغراء للصبية المتشردين بإهانة حامليها وقذفهم بالأوحال ، وإيحاء لجموع الرعاع الحمقى بالانقضاض عليهم وإساءة معاملتهم ، بل حتى قتلهم ، كما هيأت للطبقة العليا فرصة نبذ اليهود ونهبهم أو نفيهم . وأسوأ من هذا العار الخارجى ، أثر الشارة فى اليهود أنفسهم . فقد اعتادوا أكثر فأكثر على مركزهم الحقير المذل ، وفقدوا كل إحساس باحترام الذات : فأهملوا مظهرهم الخارجى : ... وأصبحوا أكثر فأكثر لا يعنون بحديثهم لأنهم لم يسمح لهم بارتياد دوائر الثقافة ، أما فيما بينهم فكانوا يفهمون بعضهم بعضاً برطانة غامضة » وفقدوا كل تذوق للجمال وإحساس به . وأصبحوا إلى حد ما حقراء كما أرادهم أعداؤهم أن يكونوا(٧٣) .

إن هذا وصف يتسم بالمبالغة والتعميم أكثر مما ينبغى ، فكم من اليهود احتفظوا بكبريائهم وتألقوا فى ملابسهم الفاخرة ، وإنا لنسمع المرة بعد المرة عن بنات يهوديات اشتهرن بجمالهن ، وعن Judisch التى تطورت فى القرن السادس عشر إلى لغة ألمانية فيها اقتباسات عبرية وسلافية . كانت تنتج أدباً قوياً متنوعاً حينما كتب جرايتز كتابه « تاريخ اليهود » . وعلى

بأية حال ، فإن أكبر جريمة ارتكبت فى تلك القرون هى الحط عمداً من قدر شعب بأسره ، وقتل النفس بلا شفقة أو رحمة :

وكان الجزء الذى لا يتجزأ من هذه الجريمة وأساسها ، استبعاد اليهود من كل الأعمال والأشغال تقريباً ، فيما عدا التجارة والشئون المالية . ولأسباب سبق إيجازها(٧٤) ، ولأن الكنيسة كانت تطالب بعشر غلة الأرض المزروعة ، تراجع اليهود أكثر فأكثر عن زراعة الأرض ، وأخيراً حرم عليهم امتلاك الأراضى(٧٥) : ولما كان محرماً عليهم الانضمام إلى النقابات (التى كانت رسمياً منظمات مسيحية دينية) فإنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى عالم الصناعة ، وطوقت الاحتكارات المسيحية عملياتهم التجارية : وعلى الجملة وجدوا أنفسهم ، فى معاملاتهم مع المسيحيين ، محدودين بنطاق ضيق من الصناعة والتجارة وتسليف النقود . وفى بعض البقاع كان محرماً عليهم أن يبيعوا للمسيحيين شيئاً سوى البضائع القديمة المستعملة ، وفقدوا ، بعد القرن الثالث عشر ، تفوقهم السابق فى عالم المال ، ذلك التفوق الذى كان يثير حقد الآخرين وحسدهم ، ولكن رأسمالهم السائل ، ومعرفتهم بلغات العالم ، واتصالاتهم الدولية عن طريق أقربائهم المنتشرين فى كل مكان ، كل أولئك مكنهم من تحقيق مركز عال فى التجارة الأجنبية للدول المسيحية . وكان دور اليهود فى هذا المجال هائلا إلى حد أن الدول التى طردتهم ، خسرت الكثير من حجم تجارتها الدولية . أما تلك التى رحبت بهم فكسبت هذا المجال : وهذا سبب واحد ، وليس السبب الرئيسى ، فى أن أسبانيا والبرتغال اضمحلتا ، على حين انتعشت هولنده ، وفى أن أنتورب أسلمت زعامتها التجارية إلى أمستردام :

وكان لليهود عزاء وإنقاذ فى أن تحكمهم ، فى شئونهم الداخلية ، قوانينهم وأعرافهم وأحبارهم ومجالسهم الدينية . ففى اليهودية ، كما هو الحال فى

الإسلام ، نجد الدين والقانون والأخلاقيات شيئاً واحداً لا يتجزأ . فقد اعتقدوا أن الدين يتمشى مع الحياة على طول الخط . وفى ١٣١٠ صاغ الحبر يعقوب بن أشر القانون والطقوس والأخلاقيات اليهودية فى « أربعة لوائح » ، حلت محل « تعاليم الأحبار » التى وضعها ابن ميمون (١١٧٠) ، مع سجل وضعت فيه كل تشريعات التلمود وأحكام الجيونيم im G ، وأصبحت كلها ملزمة لجميع اليهود فى كل مكان . وأصبح كتاب « الجداول الأربعة » المرشد المتفق عليه فى أية قوانين حبرية أو أحكام حتى ١٥٦٥ .

وقوضت مصائب القرنين الرابع عشر والخامس عشر أركان التنظيم الاجتماعى لدى اليهود . ومات من الأحبار ، كما مات من القساوسة ، عدد كبير جداً ، فى الموت الأسود ، ووضعت عمليات الاضطهاد والطرد وحياة اللاجئين ، خاتمة للقانون اليهودى . ووجد يهود أيبريا من العسير عليهم أن يتقبلوا لغات وأعراف الجاليات اليهودية التى عرضت انضمامها إليهم ، فأقاموا معابد خاصة بهم واحتفظوا بلغتهم الإسبانية أو البرتغالية . ووجدت فى كثير من المدن تجمعات منفصلة من اليهود الإسبانيين أو البرتغاليين أو الإيطاليين أو اليونانيين أو الألمان ، ولكل طائفـــة حبرها وعاداتها وصـــدقاتها وأحقادها(٧٦) . وفى وسط هذه الأزمة أنقذت الأسرة اليهودية شعب اليهود ، فإن الإخلاص المتبادل بين الآباء والأبناء ، وبين الإخوة والأخوات هيأ جواً من الاستقرار والأمن . وانتهت قرون الفوضى فى الأعراف والعادات اليهودية عندما أصدر الحبر يوسف كارو من صفد كتاب « تنسيق الشريعة » Shulchan Aruch (البندقية ١٥٦٤ — ١٥٦٥) ، سجل فيه الدين والقانون والأعراف اليهودية مرة أخرى ، ولكن مذ بنى كارو تشريعه على اليهودية الإسبانية أساساً ، فإن يهود ألمانيا وبولندة أحسوا بأنه لم يول إلا عناية يسيرة لتقاليدهم وتفسيراتهم للقانون . وأضاف الحبر موسى إسرل Esserles من كراكاو إلى « تنسيق الشريعة » « تنسيق التنسيق » (١٥٧١) صاغ فيه

خلافات الأشكنازى مع قانون كارو الذى كان فى معظمه أسبانيا . وبهذا التنقيح بقى كتاب « تنسيق الشريعة » حتى وقتنا هذا مرجع اليهود ذوى العقيدة الصحيحة ، وكأنه « جستنيان أو بلاكستون » فإذا قلت عن يهودى إنه امتثل لكل التعاليم التى وردت فى « تنسيق الشريعة » فهـذا ذروة المديح والثناء .

ولما كانت كل صياغة جرت للقانون اليهودى مبنية على التلمود ، فيمكن — أو هل يمكن ؟ — أن نتصور الذعر الذى تابع به اليهود تقلبات كتابهم المقدس الثانى . وفى القسم الأدبى من التلمود ، وهو قسم أقل وثوقاً ، ويسمى « هجادة Haggada » ، توجد بعض أجزاء تهزأ ببعض معتقدات مسيحية معينة ، وقد مهد اليهود المتحولون إلى المسيحية طريقهم إليها بسخريتهم من هذه الأجزاء . ووقف العمل بالتلمود بأسره . وعلى الرغم من هذه الحركات التى بلغت ذروتها فى حملة بفركورن على رخلين ؛ شجع ليو الثالث طبع التلمود لأول مرة (البندقية ١٥٢٠) ؛ ولكن جوليوس الثالث دلل على انتهاء عصر النهضة بأن أمر محكمة التفتيش بإحراق نسخ التلمود الموجودة فى إيطاليا (١٥٥٣) ، واقتحمت بيوت اليهود ، وأخذت آلاف من النسخ ، واشتعلت النيران فى الهواء الطاق فى الكتب اليهودية فى رومه وبولونيا ورافنا وفيرارا وبادوا والبندقية ومانتوا . على أن ميلان رفضت الإذعان لمرسوم الإحراق[٧٧] . وناشدت الجمعيات اليهودية البابا أن يلغى مرسومه ، وظل هو يماطل والكتب تحرق . ولكن بيوس الرابع حكم بأنه يمكن طبع التلمود بعد إخضاعه للرقابة . وبعد ذلك راقب اليهود المنشورات والمطبوعات الخاصة بهم[٧٨] .

وبقى « الزهار Zahar » وهو نص « القبالة » اليهودية . سليما لم يمس بسوء لأن بعض العلماء الكاثوليك ذهبوا إلى أنهم وجدوا فيه أدلة على ألوهية المسيح : وكان الزهار قد كتب قبل ١٢٩٥ بقليل ، بوصفه حلقة من سلسلة

من المؤلفات التى تنقل القبالة أى « التقاليد السرية » لليهود الذين وجدوا أماناً من الفقر والاضطهاد والاضطراب العقلى فى التأمل فى الرموز الخفية الدينية للأرقام والحروف والقراءة العكسية للألفاظ والاسم الذى يفوق الوصف للرب ، وهكذا . وتجمع اليهود المحزونون فى حلقات خاصة يلتمسون ، بالصوم والبكاء وبالتقشف الصارم وبتفسير القبالة ، أن ينزل عليهم وحى جديد ، فيما يتعلق ، فوق كل شىء ، بمجىء « المخلص » الذى قد يخلص إسرائيل من كل أحزانها :

إن الذين حاولوا أن يستشعروا العمق الذى لم يسبق له مثيل للآلام التى عاناها اليهود فى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، يمكنهم أن يدركوا مثل هذا اللجوء — الذى يمكن أن يغتفر ، إلى التصوف الذى يجدون فيه السلوى والعزاء ، وخداع النفس المتكرر الذى يلجأ إليه هؤلاء اليهود البائسون ، باعتقادهم أن « المخلص » كان قد جاء بالفعل . وفى ١٥٢٤ امتطى شاب يهودى عربى وسيم أطلق على نفسه اسم داود روبينى ، جواداً أبيض عبر شوارع رومه إلى الفاتيكان ، وقدم نفسه إلى البابا كليمنت السابع على أنه شقيق ورسول ملك يهودى قال إنه يحكم فى بلاد العرب قبيلة يهودية قديمة تدعى قبيلة روبين . وقال داود إن مليكه لديه ٣٠٠٠٠٠ جندى غير كاملى العتاد ، وإذا أمدهم البابا وأمراء أوربا بالسلاح ، فإن القبيلة تستطيع عندئذ أن تطرد المسلمين من فلسطين . واهتم كليمنت بالأمر وعامل داود بالحفاوة التى تليق بمقامه بوصفه سفيراً . وسر يهود روما أن يروا يهوديا يلقى مثل هذا التكريم . وأمدوه بكل ما يحافظ به على صفته الدبلوماسية السامية . ولما تلقى دعوة من جون الثالث ملك البرتغال أبحر مع حاشية كبيرة على سفينة تحمل العلم اليهودى .

وسحر جون بمقترحات داود إلى حد أنه أوقف اضطهاد المتنصرين وجن من الفرح جنون يهود البرتغال الذين عمد معظمهم ضد إرادتهم ،

وأعلن كثيرون منهم عن اعتقادهم بأن داود كان هو « المخلص » ، وأجرى ديوجو بيرز – وكان قد تنصر وأصبح سكرتيراً للملك ، أجرى لنفسه عملية الختان ، ليثبت يهوديته ، وغير اسمه إلى سليمان مولخو ، وأخذ طريقه إلى تركيا وأعلن أن داود هو البشير « المخلص » الذى سوف يصل هو بشخصه فى سنة ١٥٤٠ . ولم يكن روبينى قد ادعى أنه المخلص أو البشير بمجيئه ، وإنما كان دجالا حالما ، أراد مالا وسفنا وأسلحة : وأثار هرب بيرز (مولخو) شكوك الملك جون ، فأمر روبينى بمغادرة البلاد ، ورحل داود ، وأوقف على شاطئ أسبانيا وقبضت عليه محكمة التفتيش . وأمر شارل الخامس ، بإطلاق سراح روبينى ، مرضاة للبابا كليمنت على ما يبدو . وقصد روبينى إلى البندقية (١٥٣٠) ، واقترح على السناتو وجوب تسليح أوربا ، للقيام بهجوم ضد الأتراك .

وفى الوقت نفسه جاء مولخو إلى أنكونا ، وحصل على جواز مرور من البابا ، وتجول فى إيطاليا ، وبشر باليهودية بحرارة وحماس فى روما . ولما سعت محكمة التفتيش إلى القبض عليه ، بوصفه متنصراً مرتداً ، أنقذه كليمنت وأخرجه سالما من المدينة . وعلى الرغم من أن ملخو كان قد فقد آنذاك إيمانه بداود روبينى ، فإنه انضم إليه فى مهمة طائشة إلى راتسبون ، حيث توسلا إلى شارل الخامس أن يمد المتنصرين بالسلاح ليحاربوا المسلمين . ولكن شارل قبض عليهما وأحضرهما معه إلى مانتوا . وهناك حكم على ملخو بالإعدام حرقا . وفى اللحظة الأخيرة صدر عنه عفو إمبراطورى شريطة عودته إلى المسيحية ، فأبى ورحب بالاستشهاد (١٥٣٢) . وأرسل روبينى إلى أسبانيا وهناك ألقت به محكمة التفتيش فى غيابة السجن ، ومات حوالى ١٥٣٦ ، والظاهر أنه مات مسموما ، وزحف يهود أوربا كسيرى القلوب إلى معازلهم وتصوفهم ويأسهم .

٥ – الفكر اليهودى

ما كان لنا أن نتوقع من عهد « الشتات الثانى » أن ينتج أية ثقافة رفيعة بين اليهود . فقد استنزفت طاقتهم المهمة الوحشية التى واجهوها ، مهمة البقاء على قيد الحياة : وتعطل التعليم الذى كانوا قد برزوا فيه وأتقنوه نتيجة للتنقل وانعدام الأمن فى الحياة . وعلى حين شقت أوربا المسيحية طريقها إلى النهضة فرحة متعشة ، انصرف يهود أوربا إلى المعزل و « القبالة » وحرمت عليهم « الوصية الثانية » الإسهام فى حركة إحياء الفنون : وكان بين اليهود عدد كبير من العلماء ، ولكنهم انهمكوا فى التلمود . وكان منهم النحويون مثل بروفيات دوران وأبراهام دى بالم ؛ والمترجمون مثل إسحق بن بولكار ، الذى نقل مؤلفات الغزالى إلى العبرية ، ويعقوب مارتن الذى ترجم ابن سيناء وابن رشد وابن ميمون وليفى بن جرسون إلى اللاتينية . وأزعج إيليا لفيتا اليهود المتدينين بإقناعهم بشكل حاسم (١٥٣٨) بأن التوراة المزودة بالملاحظات وعلامات الحركة وإشارات الوقف (المازورة Masoretic) ، لم تكن أقدم من القرن الخامس الميلادى .

وتوضح ملحمة آل أبرابانل Abrobanels تقلبات الفكر اليهودى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر : وقد ولد دون إسحق أبرابانل فى لشبونه ١٤٣٧ ، واستخدمه ألفونسو الخامس ملك البرتغال وزيراً للمالية . ولكنه جمع بين مشاغله الرسمية والدراسات الدينية والتاريخية ؛ وجعل من داره الرحيبة صالونا للعلماء ورجال العلم ورجال الأعمال . ولما توفى ألفونسو فقد أبرابانل الحظوة الملكية ، وهرب إلى أسبانيا

(١٤٨٤) ، وهناك تفرغ إلى كتابة تعليقات على ما دون عن تاريخ الكتاب المقدس ، حتى دعاه فرديناند الكاثوليكي ليتولى منصباً . وقضى إسحق ثماني سنوات في تدبير الشئون المالية في قشتاله . وكافح لدرء الكارثة التي حلت باليهود في سنة ١٤٩٢ ، فلما أخفق في ذلك ، انضم إليهم في خروجهم المحزن . وفي نابلي استخدمته الحكومة . ولكن الغزاة الفرنسيين (١٤٩٥) نهبوا داره ، ودمروا مكتبته الحافلة بنفائس الكتب المنتقاة ، وأجبروه على الفرار إلى كورفو . وهناك كتب ، ما كان لا بد لأى يهودى أن يكتب في هذه السنوات : « إن زوجتي وأولادى وكتبي بعيدة عني ، ولقد تركت وحيداً غريباً في بلد غريب »(٧٩) . واتخذ طريقه إلى البندقية ، وهناك عين في منصب دبلوماسي (١٥٠٣) . وفي غمرة تقلبات الحظ هذه ، وجد فسحة من الوقت ليؤلف بعض أعمال فلسفية ولاهوتية ، ليس لها الآن قيمة تذكر . ولكنه وضع المبدأ الذى يقول بأن الأحداث والأفكار التي وردت في الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضوء الحياة الاجتماعية والسياسية في عصرها . وسمح له بأن يقضي السنوات الست الأخيرة من عمره في أمن وسلام غير مألوفين .

وكان أبناؤه زينة لحياته . فتألق صموئيل أبرابانل في سالونيك وعين وزيراً للمالية في نابلي ، وحظى بحب قومه لكثرة ما أتى من أعمال البر والخير . أما يهوذا ليون أبرابانل — ليو العبرى — فقد زها وسما قدره كطبيب في جنوه ونابلي حتى أصبح مشهوراً مثل شهرة « ليون مديجو » . ودرس علوماً كثيرة ، وكتب الشعر ، وغامر بدراسة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) . وعين في ١٥٠٥ طبيباً لجنرالو أمير قرطبة ، ولكن بعد ذلك بعامين اختلف « الكابتن الأعظم » مع فرديناند ، ولحق ليون بأبيه في البندقية . ولقى كتابه « حوار الحب » (كتب ١٥٠٢ ، ونشر في ١٥٣٥) جمهوراً كبيراً من القراء بين الإيطاليين في عصر النهضة ، الذين كان التحليل الفلسفي للحب عندهم

بمثابة مقدمة أولحن مصاحب لانتصارات الحب . إن الجمال الفكرى : جمال النظام والتخطيط والاتساق ، يسمو على الجمال المادى أو جمال الجسم ، هذا ما حاول « الحوار » أن يدلل عليه . إن أسمى الجمال هو النظام والتخطيط والاتساق فى الكون ، وهذا هو المظهر الخارجى للجمال الإلهى . وينشأ الحب على مراحل : من الإعجاب والسعى وراء الجمال المادى فالجمال الفكرى فالجمال الإلهى ، ويبلغ ذروته فى حب الله فكراً وعقلا ، أى فهم النظام الكونى وتقديره حق قدره ، والرغبة فى الاتحاد مع الله ، وربما كانت مخطوطة هذا الكتاب معروفة لدى كاستليانو الذى أجرى على لسان « بمبو Bembo » حديثاً يهدف إلى مثل هذه الغاية ، فى « البلاط Cortigiono » (١٥٢٨) أما الكتاب المطبوع فربما وجد سبيله عبر قرن من الزمان إلى يدى سبينوزا ليتأثر بفكرته عن « الحب العقلى لله »(٨٠) .

وفضل يهود البرتغال المشتتون على هذا الحب السماوى ، الشعر المنثور المشبوب العاطفة باللغة البرتغالية ، فى قصيدة أوسك Usque : « عزاء لأحزان إسرائيل » (فيرارا ١٥٥٣) . فقد صور تعاقب الانتصارات والكوارث على الشعب اليهودى ، وواساه بأنه لا يزال « شعب الله المختار » . فقد عاقبهم الله على آثامهم ، ولكن آلامهم طهرتهم ، ومهما أوتى الإنسان من قوة رهيبة وحشية ، فلن يستطيع أحد أن يخدعهم ويصرفهم عن مصيرهم الإلهى إلى السعادة والمجد .

وتراخى اليهود عن الإسهام فى حركة العلوم تراخياً لم يكن منه مناص ، بسبب الأحداث والتقلبات التى عاناها الشعب ، والتى طال أمدها . ولم يكن التعرض للخطر والفقر وعدم الاستقرار ، هى وحدها التى عوقت الجهود العلمية ، ولكن واحداً من أجل الأحبار وأعظمهم نفوذاً ، هو سليمان بن إبراهام بن أدريت ، فى برشلونه ، كان فى بداية هذه الفترة ، قد حرم — تحت طائلة « الحرم » أو الحرمان الدينى » — تدريس العلوم أو الفلسفة لأى

يهودى دون الخامسة والعشرين من العمر ، على أساس أن مثل هذا التعليم يفسد العقيدة الدينية . وعلى الرغم من ذلك لخص إسحق إسرائيلى الأصغر ، من طليطلة ، علم الفلك فى عصره (١٣٢٠) ، ووضح التقويم اليهودى ، التسلسل الزمنى لتواريخ الأحداث . ووضع عمانويل بونفيس من تاراسكون ، جداول فلكية قيمة ، واستبق التفاضل والتكامل الأسى والعشرى . كذلك فإن إبراهام كرسكاس ، من ميورقه ، وهو « رئيس الخرائط والبوصلات لحكومة أراجون » ، وضع فى ١٣٧٧ خريطة للعالم ، اعترف فى جميع الأنحاء بأنها أحسن خريطة من نوعها حتى ذاك العهد ، إلى حد أن أراجون أرسلتها هدية ثمينة إلى شارل السادس ملك فرنسا ، وهى الآن من أثمن ما تقتنيه المكتبة الوطنية هناك . وكان يهوذا كرسكاس ، وهو ابن إبراهام سالف الذكر ، أول مدير لمرصد هنرى الملاح البحرى فى سجر **Sagres** ، وساعد فى رسم خريطة لمكتشفاته . ومهد كتاب بدرو نونز « رسالة عن الكرة الأرضية » الطريق أمام العالم الجغرافى مركيتور **Mercator** وفن رسم الخرائط الحديث . وحدد كتاب جراسيا دى أورتا عن « العقاقير الطبية » مرحلة متميزة فى علم النبات ، وأسس طب المناطق الحارة .

وكان أبراهام زاكوتو شخصية عظيمة فذة فى مجال العلم عند اليهود فى القرن الخامس عشر . وجمع عند ما كان يقوم بالتدريس فى سلمنقه (١٤٧٣ — ١٤٧٨) كتابه « التقويم الدائم » وقد استعملت جداوله الفلكية ، كدليل للملاحة فى رحـــلات فاسكو دا جاما وكابرال وألبوكيرك ثم فى رحلات كولمبس بعد ١٤٩٦ . وكان زاكوتو من بين اللاجئين من أسبانيا (١٤٩٢) ، ووجد ملجأ مؤقتاً فى البرتغال ، وقد استشاره البلاط فى الإعداد لرحلة فاسكو دا جاما إلى الهند ، وكانت السفن مزودة بالإسطرلاب الذى أدخل عليه هو تحسينات . ولكن فى سنة ١٤٩٧ لم يمهله الاضطهاد وقذف به خارج البرتغال كذلك . وأخذ يضرب فى الأرض فقيراً معدماً لعدة سنوات حتى

انتهى به المطاف فى تونس ، وهناك تعزى فى أخريات حياته بكتابة تاريخ قومه . أما تلميذه يوسف فسنهو Vecinho ، طبيب جون الثانى ملك البرتغال ، فقد أرسل ليرسم خطوط العرض وانحراف الشمس على ساحل غينيا . وأثبتت الخرائط التى أعدت أنها ذات قيمة كبيرة لفاسكو دا جاما . وكان فسنهو عضواً فى اللجنة التى أحال إليها جون الثانى مقترحات كولمبس للبحث عن طريق من الغرب إلى جزر الهند (١٤٨٤) وشارك فى قرار الرفض(٨١) .

وظل الأطباء اليهود أفضل من يجد الناس فى البحث عنهم ويلتمسون عندهم البرء فى كل أوربا . وعلى الرغم من إزعاجهم بالإدانات والاتهامات الدينية والقيود الرسمية والمخاطرة بحياتهم فى معالجة ذوى الشأن من المسيحيين ، كانوا ذوى حظوة لدى البابوات والملوك . ولم تكن إضافاتهم آنذاك إلى علم الطب بارزة ، باستثناء إضافات دى أورتا إلى طب المناطق الحارة ، ولكن أماتوس لوسيتانوس ضرب مثلا لتقاليد مهنته وتقاليد قومه . وأخرجته محكمة التفتيش من البرتغال التى كان قد أخذ منها اسمه اللاتينى ، فعاش متنقلا من أنتورب إلى فيرارا إلى رومه ، ثم استقر به المقام فى أنكونا (١٥٩٤) حيث كان كثيراً ما يستدعى لعلاج نفس البابا جوليوس الثالث الذى ناضل من أجل تحطيم التلمود . وكان ، حتى آخر حياته ، يستطيع أن يقسم أنه لم يكن يهتم قط بالمكافأة ولم يقبل قط أية هدية قيمة ، وأنه كان يخدم الفقراء بلا أجر ، وأنه لم يكن يفرق فى ممارسة مهنته بين مسيحى أو يهودى أو تركى ، وأن أية صعاب ، مثل بعد المكان أو عدم ملاءمة الوقت ، لم تكن لتثنيه عن تلبية أى نداء . وكشفت سجلات عمله (١٥٦٣) عن سبعمائة حالة كان قد عالجها ، وكان الأطباء فى كل أوربا يدرسون هذه المذكرات ويقتنونها ، ودعا ملك بولندة أماتوس ليكون طبيباً خاصاً له ، ولكنه آثر أن يبقى فى أنكونا . ولكنه أرغم فى ١٥٥٦ على استئناف تجواله ، عندما طالب بول الرابع كل يهود إيطاليا بالتحول إلى المسيحية أو الإلقاء فى السجون .

وكان للقرار الذى أصدره الحبر ابن أدريت بتأجيل تدريس العلوم والفلسفة لليهود إلى سن الخامسة والعشرين ، أثر أقل على الفلسفة منه على العلم ، وفى فرنسا أقل منه فى أسبانيا . وكان أثر ابن ميمون لا يزال قوياً على اليهود الذين احتالوا على البقاء فى جنوب فرنسا وتجاسر يوسف كاسبى على كتابة رسائل فى المنطق وعلم الأخلاق لتوجيه ابنه ، ودافع عن التقليد الفلسفى المتحرر الذى كان ابن ميمون قد عرضه لأول مرة فى مؤلفه « دلالة الحائرين » وقد أنجب هذا الضرب من التقليد المتحرر مفكراً يهودياً عظيماً هو لیفی بن جرسون Ben Gerson الذى يعرف عنـــد المسيحيين باسم جرسونيدس ، الذى عاش ، كما عاش معظم الفلاسفة اليهود ، على « الطبابة » أى مهنة الطب ، وحقق المثل الأعلى الذى قصـــده أبقراط فى الطبيب الفيلسوف . ولد ابن جرسون فى باجنول ١٢٨٨ ، فى أسرة من العلماء ، وعاش معظم سنى حياته فى أراجون وبربينان وأفنيون ، وانصرف إلى عمله آمناً مطمئناً فى ظل حماية البابوات ، ولا يكاد يوجد علم من العلوم لم يعالجه أو مسألة فلسفية لم يعرض لها . وكان على علم واسع بالتلمود ، وأسهم فى رياضيات الموسيقى ، ونظم الشعر .

وكان ابن جرسون من علماء عصره اللامعين فى الرياضيات والفلك ، وفى ١٣٢١ استبق الطريقة التى اتبعها فيما بعد موروليكو (١٥٧٥) وباسكال (١٦٥٤) فى إيجاد عدد التباديل البسيطة لعديد من الأشـــياء بالاستنتاج الرياضى ، ومهدت رسالته فى حساب « المثلثات » الطريق أمام رجيومونتانوس ، ولقيت تقديراً واسعاً إلى حد أن البابا كليمنت السادس أصدر تكليفاً بترجمتها إلى اللاتينية ، مثـــل de Sinibus ، Chordis و Arcubus (١٣٤٢) . وقد اخترع ، أو فى الواقع أدخل تحسيناً على العصا التصالبية لقياس ارتفاع النجوم ، وبقى هذا طوال قرنين من الزمان نعمة كبرى للملاحة ؛ وقد أجرى ملاحظاته الفلكية الخاصة به ، وأظهر

مقدرة كبيرة فى نقده لطريقة بطلميوس : وبحث ، ولكنه رفض ، الفرضية القائلة بأن الشمس هى مركز الكون بطريقة توحى بأن قلة قليلة من الناس كانت تشايعه فى عصره . وهذب آلة التصوير القاتمة واستخدمها مع العصا التصالبية ليحدد ، بشكل أدق ، الاختلافات فى القطر الظاهر للشمس والقمر .

وكما أن علوم بن جرسون نبعت عن الرياضيين والفلكيين العرب ، كذلك كانت فلسفته مبنية على دراسة نقدية دقيقة للتعليقات التى وضعها ابن رشد فى شروحه لفلسفة أرسطو . ودون ليفى فيما بين عامى ١٣١٩ — ١٣٢١ تعليقاته هو نفسه على تعليقات ابن رشد ، استوعب فيها رسائل أرسطو فى المنطق والفيزياء والفلك والأرصاد الجوية وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم النفس والميتافيزيقا ، وأضاف إلى هـــذه الدراسات بطبيعة الحال قراءاته العديدة المتكررة لابن ميمون . وجمعت فلسفته ومعظم دراساته فى العلوم فى مؤلف بالعبرية وضع عنوانه بأسلوب عصره « معارك الله » Battles of the Lord (١٣١٧ — ١٣٢٩) ، وهو يأتى فى المحل الثانى بعد كتاب ابن ميمون « دلالة الحائرين » فى الفلسفة اليهودية فى العصور الوسطى ، ويتابع محاولة ابن ميمون فى التوفيق بين الفكر اليونانى والعقيدة اليهودية . فإذا تدبرنا الجهود المشابهة التى قام بها ابن رشد وتوماس الأكوينى للتوفيق بين الإسلام والمسيحية وبين أرسطو ، لكدنا نقول بأن أثر أرسطو على لاهوتيات العصور الوسطى كان فاتحة انحلالها وتفسخها ، وبداية الانتقال من عصر الإيمان إلى عصر العقل . وسعى جرسونيدس إلى التخفيف من امتعاض المتدينين بالإعلان عن استعداده للتخلى عن أفكاره وآرائه إذا ثبت أنها مناقضة للكتاب المقدس — وتلك حيلة أو مراوغة يلجأ إليها العلماء . على أنه استخدم العقل إلى مدى بعيد ، فى أبحاثه عن الله والكون وأبدية العالم وخلود النفس ، ولما تعارضت نتائجه مع الكتاب

المقدس ، فسره بعنف أدى بنقاده إلى تغيير اسم مؤلفه إلى « معارك ضد الله »[٨٢] . وقال ليفى إنه يجدر بنا ألا نأخذ بالمعنى الحرفى قصصاً مثل قصة يوشع الذى أوقف الشمس ، فهذه القصة وأشباهها من « المعجزات » ، ربما كانت أحداثا طبيعية نسيت أو لم تعرف أسبابها[٨٣] . وأخيراً أفصح عن مذهبه العقلانى دون قناع ، « إن التوراة لا يمكن أن تمنعنا من أن نعتبر حقاً ما يلح علينا عقلنا فى الإيمان به »[٨٤] .

واشتق جرسونيدس وجود الله مما قد يسميه هولباخ الملحد « نظـام الطبيعة » فإن قانون الكون ونظامه يكشفان عن « عقل كونى » ، ويضيف هو إلى هذا ، الحجة الغائية : وهى أن معظم الأشياء فى الطبيعة الحيـة تبدو مخصصة كوسيلة إلى غاية . وتزود العناية الإلهية كل كائن حى بوسائل حماية الذات والتطور والتكاثر . والعالم بوصفه كوناً أو نظاماً ، خلق فى الوقت المناسب ، ولكن ليس من العدم . فقد سبق أن وجدت منذ الأزل كتلة جامدة هامدة لا شكل لها ، وزودها الكون بالحياة وبالشكل . وهناك بين الله وبين الأشكال المخلوقة قوة وسيطة سماها جرسونيدس ، وهو فى هذا يحذو حذو أرسطو ، « عقلا نشـيطاً أو خلاقاً » . ويوجه انبثاق الذكاء الإلهى كل الأشياء ، ويصبح النفس التى يحملها الإنسان بين جنبيه . ولما كانت النفس تعتمد على أحاسيس الإنسان فهى فانية . وبما أنها أى النفس ، تفهم الكليات وتعى نظام العالم ووحدته فإنها تصبح قصلاً جزءاً من « العقل » النشيط الذى هو خالد .

ورفض اليهود فلسفة جرسونيدس على أساس أنها فى جوهرها شكل من فلسفة ابن رشد ، عقلانية قد تودى فى النهاية بالعقيدة الدينية . ودرس المفكرون المسيحيون فلسفته ، وتأثر بها اسبينوزا . ولكن قلوب المفكرين اليهود وعقولهم ، عبر عنها فى إخلاص أكبر ، حسداى بن أبراهام كرسكاس

الذى كان قد تغذى بلبان « المحافظة » عند سليمان بن أدريت ، وقد ولد كرسكاس ١٣٤٠ فى برشلونه ، وعاش فى فترة اتسمت بالعداء الشديد للسامية ، وقبض عليه بتهمة تدنيس القربان ، وما لبث أن أطلق سراحه ، ولكن ابنه قتل ، وهو على وشك الزواج فى مذابح ١٣٩١ . وقوى الاضطهاد من عقيدة حسداى ، لأنه بفضل الإيمان بإله عادل وسماء تعوض عن كل أذى وشر ، استطاع أن يحتمل حياة ممتلئة بالجور والآلام . وبعد انقضاء سبع سنوات على استشهاد ابنه ، نشر بالأسبانية رسالة حاول فيها أن يفسر للمسيحيين لماذا ينبغى ألا يطلب إلى يهودى أن يتقبل المسيحية . وحاول فى كياسة واعتـدال أن يدلل على أن مبادئ المسيحية فى الخطيئة والتثليث والحبل بلا دنس والتجسد والكفارة وتحول دم القربان إلى دم المسيح ولحمه ، تنطوى على تناقضات لا يمكن تجاوزها واستحالات سخيفة مضحكة . ومع ذلك فإنه حين كتب مؤلفه العظيم « نور الرب » (١٤١٠) اتخذ فيه موقفاً كان يمكن أن يدافع المسيحيون من خلاله عن هذه النظريات : ذلك أنه أنكر العقل وألح فى إخضاعه للإيمان . ولم يكن حسداى حبراً رسميا ولكنه شارك الأحبار رأيهم بأن الاضطهادات المتكررة كانت عقابا إلهيا لتعريض الديانه التى جاءت عن طريق الوحى لحاخة عقلانية . وإذا كان قد كتب فى الفلسفة ، فلم يكن ذلك إعجابا منه بها ، بل لإثبات ضعف الفلسفة والعقل ، وتوكيد الحاجة إلى الإيمان والعقيدة . وأنكر محاولات ابن ميمون وجرسون فى التوفيق بين اليهودية وأرسطو ، وتساءل : من هو ذلك الإغريقى الذي كان على الرب أن يتفق معه ؟ واعترض على فكرة أرسطو بأن أسمى صفات الله هى المعرفة ، بل هى الحب على الأرجح ، لأن الله هو الخير المطلق . وسلم كرسكاس بأن العقل لا يستطيع أن يوفق بين سـابق علم الله وحرية الإنسان ، ومن ثم يجب ألا نرفض الحرية

بل نرفض العقـــل : وينبغى أن نؤمن بالله ، وبالإرادة الحرة والخلود ، من أجل طمأنينة نفوسنا وهدوء بالنا وسلامة معنوياتنا ، وليس بنا من حاجة إلى الادعاء بإثبات هذه المعتقدات عن طريق العقل . ويجب أن نختار بين عقلنا الفخور الضعيف الذى يزعزع الإيمان ويورث اليأس ، وبين إيماننا المتواضع بكلمة الله : التى يمكن عن طريقها وحدها أن نحتمل ألوان المهانة والظلم فى الحياة .

وكان كرسكاس آخر هذه الصفوة اللامعة من فلاسفة اليهود فى العصور الوسطى ، ولم يقدره قومه حق قدره بين عشية أو ضحاها ، لأن تلميذه يوسف ألبو لفت أنظار قراء الفلسفة بكتابه الأكثر إمتاعاً « المبادئ الأساسية » ، الذى جمع بين ابن ميمون وكرسكاس عن طريق الانتقاء ، مما جعله أكثر انسجاماً من أى من الرجلين ، مع اليهودية الصحيحة التى لم تكن مستعدة للتسليم بعدم عقلانية الإيمان : وبعد موت ألبو اعتزل اليهود الفلسفة ، والتاريخ تقريباً ، حتى جاء سبينوزا . إن المذابح ، والاضطرابات ، والفقر المدقع ، وقيود الإقامة والمناصب ، كانت قد حطمت روحهم وأنقصت عددهم إلى أدنى مستوى منذ سقوط أورشليم سنة ٧٠ م(٨٥) . ووجد الشعب المحتقر المنبوذ له ملجأ فى الأغانى الحزينة ، وفى رفاق المعبـــد المواسين ، يراودهم الأمل فى مغفرة من عند الله ، وفى معذرة من أهل الأرض ، وفى الجنة التى فى السماء . وعكف العلماء بكليتهم على التلمود ، وحصروا تفكيرهم فى شرح قانون الخلاص ، على حـــين اتبع بعضهم تعاليم « القبالة » فانصرفوا إلى التصوف الذى سما بالبؤس إلى

حد التوهم بأنهم يرقون به إلى السماء . وأحجم الشعر اليهودى عن الغناء ، ورفعت أثارة منه رأسها بين الحين والحين تتحدى العاصفة ، أو تلطف من سخرية القدر ، بالمرح الموسوم بالمرارة واللهفة والذكاء المشوب بالالتواء . وما كان لليهود أن يصحوا من سباتهم الطويل الناجع ، ويستعيدوا مكانهم فى ذهن عالم لا يحده زمان ، ولا مكان فيه للعنصرية ، حتى جسر يهودى أمستردام المتواضع أن يوحد بين اليهودية والسكولاستية (الفلسفة المدرسية) والديكارتية فى إدماج رفيع سام للدين والعلم :

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

١ - الاقتصاد

إن مسرحية الصراع الدينى والسياسى والحربى الذى ملأ جبهة القرن السادس عشر ، كانت من بعض النواحى سطحية : ذلك أنها لم تظهر إلا انطلاقاً من مسرحية أعمق ، مثلت خلف مشاهد التاريخ أو تحت المسرح الفخم – أعنى معركة الإنسان اليومية الأبدية مع التربة والعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) والفقر والموت . وماذا كانت ، فوق كل شيء هبات ومراسيم البابوات والبروتستانت ، والسخافات المتزاحمة فى الأساطير القتالة ، وزهو الملوك والأباطرة وتعاقبهم ، وما كان ينتابهم من أمراض مثل النقرس والزهرى ، إذا قورن كل أولئك بالكفاح المرير من أجل الغذاء والمأوى والكساء والصحة والزوجة والولد والحياة ؟

إن قرى أوربا فى تلك الحقبة ، كان لا بد لها ليلا ونهاراً أن تحذر وتحترس من الذئاب والخنازير البرية ، أو أى خطر آخر يتهدد قطعانهم

ومساكنهم . لقد عمّرت مرحلة الصيد داخل عصر الزراعة ، وكان لزاماً على الإنسان أن يَقتل أو يُقتل ، ويسرت أسلحة الدفاع طريقة (روتين) الكدح والعمل . وكانت آلاف الحشرات ووحوش الغابة وطيور السماء تنافس الفلاح فى ثمار غرسه وكده ونصبه ، والأمراض الخفية تهلك القسم الأكبر من ماشيته . وربما أصبحت الأمطار سيولا جارفة أو فيضانات غامرة ، وربما انقطعت حتى تذبل الحياة كلها . وكان الجوع دائماً يتربص بالناس ، ولم يفارق الخوف من الحريق مخيلتهم قط . وكثيراً ما انتابتهم الأمراض ، والأطباء على مسافات بعيدة منهم . وفى كل عشر سنين تقريباً ربما اختطف الطاعون من الأسرة فرداً عزيزاً عليها أو له قيمته عند تعرض الأرض للخطر . وكان يموت فى سن الطفولة طفلان من بين كل خمسة أطفال ، ويموت ثالث قبل البلوغ(١) ، ومرة واحدة على الأقل فى كل جيل كان ضابط التجنيد يأخذ أحد الأبناء للجيش ، وكانت الجيوش تحرق القرى وتنهب الحقول ، وكان عشر المحصول بعد الحصاد يذهب إلى مالك الأرض ، وعشر ثان إلى الكنيسة . وكانت الحياة على الأرض تصبح جحيما لا يحتمله الجسم أو الروح ، لولا أن شيئاً من السعادة يتخلل ابتهاج الأطفال وألعاب المساء فى البيت ، وإطلاق الأغانى ولعب الخمر بالرءوس فى الحانات ، والأمل نصف المصدق ونصف المشكوك فيه حياة أخرى أكثر رحمة وشفقة . هكذا كان إنتاج الغذاء الذى أطعم البارونات فى الحصون والملوك فى قصورهم والكهنة فى محاريبهم ، والتجار والصناع فى المدن ، والأطباء والمعلمين والفنانين والشعراء ورجال العلم والفلاسفة ، وأخيراً ، وأقلهم شأناً ، رقيق الأرض أنفسهم . فالمدنية عالة على الإنسان الذى يحمل آلة العزق .

وكان علم الزراعة من خصائص هذا الزمان . ونشأ تقـــدم الإنتاجية أساساً من استبدال الملكية الكبيرة بالملكية الصغيرة . وأدخل مالكو الأرض

الجدد من التجار والرأسماليين إلى البقاع الريفية الراكدة لهفة شـديدة على الربح الذى زاد الإنتاج والبؤس كليهما معاً . وأدخل المستوردون المغامرون إلى أوربا مخصباً أو سماداً جديداً غنياً بالفوسفات والنتروجين - وهو روث الطيور الذى يجتمع على شـواطىء بيرو . وتأقلمت فى تربة أوربا نباتات وشجيرات من آسيا أو أمريكا ، مثل البطاطس وشجرة المغنولية (نبات جميل الزهر) ، والأغاف الأمريكى ، والفلفل والدهلية (زهر جميل) ، والكبوسين (أبو خنجر) . . . وأحضر التبغ من المكسيك إلى أسبانيا ١٥٥٨ . وبعد ذلك بسنة واحدة أرسل جان نيكوت السفير الفرنسى فى لشبونه بعض بذوره إلى كاترين دى مديتشى ، وقد جزى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم .

ونمت صناعة صيد السمك بازدياد السكان ، ولكن الإصلاح الدينى سدد ضربة قاضية إلى تجار السردين بإباحة اللحوم يوم الجمعة ، وتقدم التعدين بالتنظيم الرأسمالى . وكانت نيوكاسل تصدر الفحم فى ١٥٤٩ ، وضاعف أصحاب المناجم إنتاجها بحث العمال على بذل جهود أعظم وأكثر نظاماً ، وتحسين وسائل تنقية المعدن الخام . وفى هذه السطور ينقلنا جورج أجريكولا إلى منجم فى القرن السادس عشر :

إن أهم أنواع العمال هم المعدنون ، الجرافون ، الرافعون ، الحمالون ، الفرازون ، الغسالون ، الصاهرون . . . وكانت ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ، تنقسم إلى ثلاث نوبات كل منها سبع ساعات ، والساعات الثلاث الباقية تتوسط النوبات ، ليدخل العمال فى أثنائها إلى المنجم أو يغادروه . وتبدأ النوبة الأولى الساعة الرابعة صباحاً ، وتنتهى فى الحادية عشرة . وتبدأ الثانية فى الساعة الثانية عشرة وتنتهى فى السابعة مساء . وهاتان نوبتان نهاريتان فى الصباح وبعد الظهر . أما الثالثة ، وهى النوبة الليلية ، فتبدأ فى

الثامنة مساء وتنتهى فى الثالثة صباحاً . ولا تفرض هـذه النوبة الثالثة على العمال إلا إذا دعت الضرورة إليها : وفى هذه الحالة . . كانوا يسهرون على ضوء المصابيح الليلية ، وحتى لا يغلبهم النعاس فى هذه الساعات المتأخرة ، أو لشدة التعب ، كانوا يخففون من وطأة هذا العمل الطويل الشاق بالغناء الذى كانوا مدربين عليه ، أو لم يكن غير سار لهم كلية . ولم يكن يباح فى بعض المناجم لأى من العمال العمل نوبتين متعاقبتين ، لأنه كان كثيراً ما يغلب عليه النعاس فى المنجم من شدة الإجهاد من كثرة العمل إلى حد مفرط : وكان يباح ذلك فى أماكن أخرى لأن العامل لا يستطيع العيش على أجر نوبة واحدة ، وخاصة إذا ارتفع ثمن الحاجيات .

ولا يشتغل العمال أيام السبت ، لأنهم يبتاعون فيها كل ما يلزمهم من ضرورات الحياة ، كذلك لا يعملون أيام الآحاد والأعياد السنوية . ولكنهم فى هـذه المناسبات يخصصون ساعات النوبة للأغراض الدينية . ومهما يكن من أمر فإن العمال لا يستريحون : : : إذا اقتضت الظروف أن يعملوا ، فقد يجبرهم عليه أحياناً اندفاع الماء أو انهيار وشيك الوقوع . وفى مثل هذه الحالات لا يعتبر العمل فى أيام العطلة أمراً لا يتفق مع الدين : وفوق ذلك ، فإن العمال من هذه الفئة أقوياء أشداء ألفوا هذا الكدح والمشقة منذ ولادتهم(٢) .

وفى ١٥٢٧ عين جوج أجريكولا طبيباً لمدينة جوتشمستال Goochimsthal . وفى مدينة التعدين انصرف جورج بين الحين والحين إلى التعدين ، وهناك ، وفى أماكن أخرى تحمس جورج وافتتن بدراسة تاريخ التعدين وعملياته وعلم المعادن ، وعكف على البحث عشرين عاماً ، أكمل بعدها (١٥٥٠) « رسالته عن المعادن » وهي رسالة ممتازة فى موضوعها بالنسبة لعصرها ، لها من القيمة

مثل ما لروائع كوبرنيكس وفيساليوس التى ظهرت فى نفس العقدين من السنين ، ولقد وصف فى تفصيل دقيق آلات التعدين والصهر وتقنياتهما وعملياتهما ، واستخدم الفنانين فى توضيحها بالرسوم . وهو أول من جزم بأن البزموت و لأنتيمون معدنان أوليان حقيقيان ، وميز نحو عشرين صنفاً من المعادن لم تكن معروفة من قبل . وكان أول من شرح تركيب عروق الخام فى طبقات الصخور من رواسب معدنية خلفتها مجارى المياه التى تنساب فى الأرض وتحت الأرض(*)(٣) .

وحظى التعدين وعلم المعادن والمنسوجات بأكبر نصيب من التحسينات الآلية (الميكانيكية) التى ينسب الفضل فيها لهذا العصر . وإن أول سكاك حديدية لهى تلك التى كانت تجر أو تدفع عليها العربات التى تحمل الخام . وفى عام ١٥٣٣ أضاف جوهان جورحن إلى عجلة الغزل — التى كانت تدار حتى ذلك العهد باليد — ذراعا (دواسة) تدار بواسطة القـدم ، ومن ثم تكون يد الغزال طليقة ، وسرعان ما ضوعف الإنتاج بهذه الطريقة : وازداد الوثوق بدقة الساعات وصغر حجمها ، وزينت بالحفر والنقوش والجواهر وطليت بالمينا . واقتنى هنرى الثامن ساعة دقيقة الحجم ، تملأ مرة واحدة كل أسبوع . على أن أحسنّ ساعات العصر كان معدل الخطأ فيها نحو ١٥ دقيقة فى كل يوم (٤) .

وتعثرت المواصلات والنقل خلف التجارة والصناعة . وتوسعت الخدمات البريدية إلى حد نقل المراسلات الخاصة خلال القرن السادس عشر ، وحث الانقلاب التجارى على بناء السفن وصارت السفن أرفع وأعمق ، فساعد

(*) نبذ أجريكولا « عصا الاستنباء » أو الغصن المتشعب » (وهى التى كانت غالباً ما تستعمل آنذاك للتعرف على وجود المعادن تحت الأرض) باعتبارها غير ذات نفع . ولكن عادات جيجر تميل إلى تقدير هذه العصى المشجعة .

ذلك على ثباتها وازدياد سرعتها . وزاد عدد الصوارى من واحد إلى ثلاثة ، والأشرعة إلى خمسة أو ستة(٥) . ولم يقتصر السباق بين فرانسوا الأول وهنرى الثامن ، على الحرب والحب واللباس ، بل تعداه إلى ابتناء السفن ، وكان لكل منهما مركب فخم بنى بناء على طلبه لإشباع نزواته ، به دور علوى ، يرفرف عليه فى زهو واعتزاز علم البطولة الذى أرضى غرور كل منهما . وكانت سفينة أوائل القرن السادس عشر تستطيع أن تقطع فى البحر المتوسط عشرة أميال فى الساعة فى الطقس المعتدل ، ولكن السفن الثقيلة المصممة للمحيط الأطلسى كانت أسعد حظاً ، حيث كانت تقطع ١٢٥ ميلا فى اليوم . وكانت أسرع رحلة برية هى رحلة حامل البريد ، الذى كان يركب لمسافة خمسة وثمانين ميلا فى اليوم . ومع ذلك فإن الأنباء الهامة كانت عادة تصل من البندقية إلى باريس أو مدريد فى عشرة أيام أو أحد عشر يوماً . ولعل أحداً لم يقدر آنذاك أية راحة ينعم بها نتيجة لوصول الأنباء متأخرة إلى حد يتعذر معه اتخاذ أى إجراء بشأنها . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، ومن هنا جاءت الحلقة الحديدية الثقيلة المثبتة فى باب مدخل كل بيت ، يشد إليها حبل تقيد به الدابة . وتضاعف عدد العربات ، ولكن الطرق بلغت من الرخاوة حداً لا يصلح كثيراً لمرور العجلات ، ومن ثم كان لزاماً تزويد العربات بستة من الجياد أو أكثر لتجرها فى الأوحال التى يتعذر تفاديها ، وما كان يتوقع من العربات أن تقطع أكثر من عشرين ميلا فى اليوم ، وظلت المحفات التى يحملها الخدم تستعملها السيدات ذوات اليسار فى تنقلهن ، أما عامة الشعب فكانوا يسيرون على الأقدام عبر القارة .

وكان السفر مألوفاً رغم الطرق والخانات . وذهب إرزم إلى أن خانات فرنسا كانت مقبولة محتملة ، وعلى الأخص لأن النادلات الصغيرات « يقهقهن ويقمن بحيل وألعاب مرحة ، وإذا غادرت المكان كن يحيينك بالعناق » ،

« كل ذلك مقابل أجر زهيد » ولكنه رمى أصحاب الخانات الألمان بالفظاظة وغلظة الطباع والبطء والقذارة :

إذا فرغت من تدبير أمر جوادك تدخل إلى غرفة المدفأة ، بالحذاء العالى الساقين ، والأمتعة والأوحال وغيرها ، لأن هذه حجرة عامة لجميع القادمين . وفى غرفة المدفأة تخلع حذاءك ، وتلبس نعليك وتبدل قميصك إذا شئت . وهناك ترى رجلا يمشط رأسه وآخر . . . يتجشأ الثوم . . . وإنك لتسمع من فوضى اللغات واللهجات، كما لوكنت فى مبنى برج بابل . . . وفى رأيى أنه ليس ثمة شىء أخطر من التنفس فى مثل هذ الجو الخانق ، وخاصة إذا كانت أجسام الناس مفتحة بفعل الحرارة . . . وثمة شىء لا أرى ذكره . . . ثم النساء والأنفاس الكريهة المنتنة . . . ولا ريب أن كثيرين مصابون بالجدرى أو الزهرى الأسبانى ، أو كما يسمونه الفرنسى . ولو أنها أمراض منتشرة فى كل بلد(٦) .

إذا جرت الأمور على هذا النحو ، حقاً ، فى بعض الخانات ، فيمكن أن نغتفر خطأ أو اثنين للتجار المتجولين الذين يحطون رحالهم فى هذه الخانات ويحتماون متاعبها فى عملية ربط القرية بالقرية ، والأمة بالأمة ، فى نسيج اقتصادى دائم الاتساع والانتشار . فقد فتح فى كل عقد من السنين طريق جديد ، براً كما فعل تشانسلر فى روسيا ، وبحراً كما تم فى آلاف الرحلات البحرية المغامرة . وقد اتجر (شيلوك شكسبير) أى اليهود مع إنجلترا ولشبونة وطرابلس ومصر والهند والمكسيك(٧) . وكان لجنوة مستعمرات تجارية فى البحر الأسود وأرمينيه وسوريه وفلسطين وأسبانيا . فلقد عقدت الصلح مع الباب العالى ، وباعت الأسلحة إلى تركيا التى كانت فى حرب ضد العالم المسيحي . والتقطت فرنسا هذه الفكرة ، وعقدت اتفاقات خاصة بها مع

سلاطين تركيا . وبعد ١٥٦٠ سيطرت على تجارة البحر المتوسط ، وكانت أنتورب تتلقى البضائع فى كل لحظة ، وتنقلها بالسفن إلى كل مكان فى العالم .

ولمواجهة متطلبات هذا الاقتصاد المتوسع ، حسن رجال المصارف من خدماتهم وأساليبهم . ولما ارتفعت نفقات الحرب بالانتقال من فرق الإقطاع المجندة الذين أحضروا معهم أقواسهم وسهامهم ورماحهم وسيوفهم ، إلى جيوش وطنية أو جنود مرتزقة مزودين بالأسلحة النارية والمدافع ، وتدفع الدولة رواتبهم وأجورهم — اقترضت الحكومات مبالغ لم يسبق لها مثيل من أصحاب المصارف . وكانت الفائدة التى تدفعها الحكومات أو تعجز عن دفعها ، تقيم مؤسسة مالية ، أو تقوض أركان أخرى . وكان أصحاب المصارف يقترضون مدخرات الشعب نظير فائدة ، ليمولوا بها الصفقات الضخمة فى التجارة والصناعة . وكانت صكوك التبادل تحل محل الشحنات الثقيلة المرهقة من العملة المتداولة أو البضائع . واختلفت معدلات فوائد القروض ولم يكن هذا الاختلاف نتيجة لجشع المقرضين ، بقدر ما هو نتيجة للثقة فى المقترضين . ومن ثم كانت المدن الحرة الألمانية التى سيطر عليها تجار يتميزون بالدفع الفورى العاجل ، تستطيع أن تقترض بفائدة قدرها ٥٪ ، على حين أن فرنسوا الأول اقترض بفائدة قدرها ١٠٪ ، وشارل الخامس بفائدة قدرها ٢٠٪ . وانخفض سعر الفائدة تبعاً للاستقرار الاقتصادى :

وسكت مقادير وفيرة من العملة السائلة من معدنى الذهب والفضة اللذين استخرجا من مناجم ألمانيا والمجر وأسبانيا والمكسيك وبيرو ، وجاء المدد الجديد من المعادن النفيسة فى الوقت المناسب ، لأن البضائع كانت قد تزايدت أسرع مما تزايدت العملة . وكان جزء من ثمن واردات آسيا يدفع فى صورة صادرات ، والجزء الباقى نقداً من الذهب أو الفضة ، ومن ثم هبطت

الأسعار فى غضون السنين التى سبقت قيام كولمبس برحلاته ، إلى حد تعويق المغامرات والتجارة : وبعد تطوير المناجم فى أوربا واستيراد الذهب والفضة من أفريقية وأمريكا ، فاقت كميات المعادن النفيسة إنتاج السلع ، فارتفعت الأسعار ، وانتعشت الأعمال وابتهج أصحابها ، وزحزح الاقتصاد الجديد القائم على النقود المتحركة الاقتصاد القديم الذى تركز فى امتلاك الأرض أو سيطرة النقابات على الصناعة ، واحتل مكانه .

وكانت النقابات فى دور الانحلال : وكانت قد نشأت وقويت فى عهد تحكم المجالس البلدية وحماية الإنتاج المحلى ، ولم تكن على درجة من التنظيم تسمح لها بتقديم رأس المال ، أو بالشراء بالجملة من الموارد النائية ، أو باستخدام أساليب المصانع وتقسيم العمل ، أو الوصول بمنتجاتها إلى الأسواق البعيدة . وكانت منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد ضربت حولها نطاقاً من العزلة الأرستقراطية وسوأت ظروف العمل ، حتى بات من اليسير سوق العمال المهرة إلى أحضان رب العمل صاحب رأس المال ، وكان عامل الربح هو الذى يحركه ويزوده بالحيوية والنشاط ، ولكنه عرف كيف يجمع المدخرات إلى رأس المال ، وكيف ومن أين يشترى الآلات والمواد الخام ويدير المناجم ، ويؤسس المصانع ، ويجند لها العمال ، ويقسم العمل ، ويخصص العمال لكل فرع منه ، ويفتح الأسواق الأجنبية ويصل إليها ، ويمول الانتخابات ويسيطر على الحكومات . وكانت الإمدادات الجديدة من الذهب والفضة تدعو بصوت عال إلى استثمارات تدر الربح الوفير : وبات الذهب الأمريكى رأس مال أوربا . وخلقت الرأسمالية «سحر المنافسة» ، وحفزت إلى المغامرة ، وأنتجت السعى المحموم وراء المزيد من الطرق الاقتصادية للإنتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة مفر من أن تخلف وراءها القناعة الذاتيـــة التى اتسم بها رجال النقابات . وتركهم يتهادون فى أساليبهم النمطية الرئيسية القديمة : ولقد فاق النظام

الجديد فى إنتاجه النظام القديم كماً لا كيفاً ، لأن التجار كانوا ينادون بإنتاج كميات كبيرة ليسددوا بصادراتهم الصناعية ثمن الواردات من الشرق .

وكانت الثروة الجديدة محصورة إلى حد كبير ، فى أيدى التجار وأصحاب رءوس الأموال وأصحاب المصانع ، وحلفائهم فى الحكومة ، وظل بعض النبلاء يجمعون الثروة عن طريق الضياع الواسعة التى يستأجرها مئات المستأجرين ، أو الحظائر التى تمد صناعة النسيج بالصوف . على أن الغالبية من ملاك الأرض الأرستقراطيين وجدوا أنفسهم محصورين بين شقى الرحى : الملوك من جهة ، والمدن التى سيطر عليها رجال الأعمال من جهة أخرى ، وانحطت قوتهم السياسية : وكان عليهم أن يقنعوا بكرم المحتد وشرف الأرومة . وشاركت الطبقة الكادحة النبلاء مصائب التضخم ، فمن سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ارتفع ثمن القمح الذى صنع منه الفقراء رغيف الخبز إلى ١٥٠ ٪ فى انجلترا ، و ٢٠٠ ٪ فى فرنسا ٣٠٠ ٪ فى ألمانيا : وفى سنة ١٣٠٠ كان سعر البيض فى انجلترا ٤ بنسات لكل ١٢٠ بيضة ، وارتفع ثمن المقدار نفسه إلى ٥ بنسات فى سنة ١٤٠٠ ، وإلى ٧ بنسات فى سنة ١٥٠٠ ، وإلى ٤٢ بنسا فى سنة ١٥٧٠[٨] . وارتفعت الأجور ، ولكن فى بطء أكثر ، لأن الحكومات كانت تتولى تنظيمها . وحدد قانون ١٥٦٣ فى انجلترا الأجر السنوى للفلاح المستأجر بمبلغ قدره ١٢ دولاراً ، ولعامل المزرعة ٩٫٥٠ ، وللخادم الرجل ٧٫٢٥ ، علماً بأن القوة الشرائية لهذه المبالغ فى سنة ١٥٦٣ تفوق مثيلتها فى ١٩٥٤ خمساً وعشرين مرة ، فوصلت الأجور إلى نحو ١٨٠ دولاراً سنوياً . على أننا يجب أن نلاحظ أن الطعام والإقامة كانتا تضافان إلى هذه الأجور ، وجملة القول أن التغييرات الاقتصادية فى القرن السادس عشر تركت الطبقات العاملة أفقر نسبياً

وأضعف سياسياً ، من ذى قبل . فقد أنتج العمال السلع التى كانت تصدر ثمناً للكماليات المستوردة التى جعلت حياة نفر قليل من الناس مشرقة باسمة ناعمة .

واتسم الصراع بين الطبقات بحرارة ، قل أن عرف لها مثيل منذ عهد سبارتاكوس (زعيم ثورة العبيد ٧١ ق . م .) وخير شاهد على ذلك ثورة الأهالى فى أسبانيا ، وحرب الفلاحين فى ألمانيا ، وثورة كت Ket فى انجلترا . وكثرت الإضرابات ، ولكنها كانت تخمد بائتلاف أرباب العمل مع الحكومة . وفى ١٥٥٨ قررت نقابة عمال النسيج التى كان يسيطر عليها السادة أن أى عامل يرفض العمل بمقتضى الشروط التى يضعها رب العمل يسجن لأول مخالفة ، ثم يضرب بالسياط ويوصم بالعار فى الثانية . وكانت قوانين التشرد فى عهد هنرى الثامن وإدوارد السادس من القسوة والوحشية إلى حد أن قلة قليلة من العمال تجاسروا على أن يوجدوا متعطلين بلا عمل . ونص قانون ١٥٤٧ على أن أى عامل قادر من الناحية الجسمانية يترك عمله ليتسكع فى البلاد كالمتشردين ، يجب أن يدمغ صدره بحرف "V" (الحرف الأول من Vagabond متشرد) ، ويدفع به بوصفه عبداً رقيقاً إلى أحد المواطنين فى الجهات المجاورة ، لمدة عامين ، ليعيش على « الخبز والماء وقليل من الشراب وحثالة اللحم » ، فإذا لم يرتدع وتكرر منه التشرد ، دمغ على خده أو جبهته بحرف "S" (Slave عبد) وحكم عليه بالاسترقاق طيلة حياته(٩) . وبفضل الشعب الإنجليزى ، وكان فخراً وشرفاً له ، أنه لم يمكن تطبيق هذه الإجراءات وسرعان ما أبطلت ، ولكنها تكشف عن طباع حكومات القرن السادس عشر . وأصدر جورج دوق سكسونيا قراراً بألا ترفع أجور عمال المناجم فى منطقته ، وألا يسمح لعامل بترك عمله للبحث عن عمل فى مكان آخر ، وألا يستخدم رب العمل عاملا كان قد أثار الاستياء فى منجم

آخر ، وأجاز القانون صراحة أو ضمنا تشغيل الأطفال : وقام الأطفال فى فلاندرز بصناعة المخرمات برمتها ، وحرم القانون اشتغال البنات فوق سن الثانية عشرة فى هذه المهنة(١٠) . أما قوانين الاحتكارات والمضاربات والربا فكان مصيرها التجاهل أو المراوغة فى التنفيذ .

وتصادف ظهور الإصلاح الدينى مع قيام الاقتصاد الجديد . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تناهض « الأعمال والمشروعات والتجارة » فى حساسية بالغة . فلم يتفق كل هذا مع مزاج الكنيسة . وكانت قد أدانت فوائد القروض ، وأجازت من الناحية الدينية قيام النقابات ، وقدست الفقر وانتقدت الثراء ، وأعفت العمال من العمل أيام الآحاد والعطلات التى كانت كثيرة ، إلى حد أنه فى ١٥٥٠ بلغ عدد الأيام التى لا عمل فيها ١١٥ يوماً فى السنة فى الأقطار الكاثوليكية(١١) . وربما كان لهذا أثره فى الإبطاء بالتصنيع والإثراء فى هذه البلاد . ودافع رجال اللاهوت ، بموافقة الكنيسة ، عن فكرة تحديد « أسعار عادلة » لضرورات الحياة بمقتضى القانون ، وكان توماس الأكوينى قد وصم السعى إلى المال ، بعد الوفاء بحاجيات الإنسان ، بأنه « جشع آثم » ، وحكم بأن أية مقتنيات أو مدخرات فائضة عن الحاجة ، « تخصص بمقتضى القانون الطبيعى لإغاثة الفقراء واسعافهم »(١٢) . وشارك لوثر فى هذه الآراء ، ولكن التطور العام للبروتستانتية تعاون ، دون وعى ، مع الانقلاب الرأسمالى . وألغيت عطلات القديسين ، وكان من نتيجة ذلك زيادة العمل ورأس المال معاً . ولقى المذهب الدينى الجديد تأييداً ودعما من رجال الأعمال ، وجزاء مجاملة مجاملة مثلها ، فنظر البروتستانت إلى الثروة بعين الإجلال والإكبار ، وأثنوا على التدبير والاقتصاد ، وشجعوا العمل على أنه فضيلة ، وارتضوا الفائدة على أنها مكافأة مشروعة لمخاطرة المرء بمدخراته .

٢ ـ القانون

لقد كان عصراً قاسياً رهيباً ، انسجمت قوانينه مع اقتصاد لا يرحم ، وإملاق مخزٍ وفن كئيب ، ولاهوت تخلى ربه عن المسيح وتبرأ منه .

وكانت الجريمة أمراً طبيعياً ، بين سكان كتب على معظمهم الفقر والفاقة في الدنيا ، واللعنة في الآخرة . وكان القتل منتشراً بكثرة في كل الطبقات . وتدلى الخنجر من حزام أي رجل ذي وزن ، أما الضعفاء فقد اعتمدوا على القانون في إصلاح أخطائهم . وكانت جرائم الهوى والانفعال كثيرة جداً قدر كثرتها في روايات شكسبير . فلم يكن بعد في زمرة الرجال أي « عطيل » أخفق في ذبح زوجته التي اشتبه في سلوكها . واعتبر المسافرون قطع الطرق أمراً مفروغاً منه أو قضية مسلماً بها ، فساروا في جماعات . وكان عدد اللصوص في المدن التي لم تزل غير مضاءة ليلا ، وفيراً قدر وفرة العاهرات . وكان لزاماً أن يكون بيت الرجل حصناً منيعاً . وفي أوج عظمة فرنسوا الأول ، أعملت السلب والنهب في باريس في وضح النهار عصابة من اللصوص أطلق عليها اسم « الأولاد الأشرار » . ويروى لنا برانتوم ، رواية غير موثوقة كما تعودنا منه ، كيف أن شارل التاسع رغب في أن يعرف كيف ينفذ النشالون أفانينهم ، « فأمر شرطته بدعوة بعضهم إلى حفلة راقصة ملكية ، وطلب بعد انتهاء الحفل أن يرى غنائمهم ، فوجد أن ما جمعوه من نقود وحلى وملابس بلغ دون تباه أو تفاخر ، في هذا المساء ، ما قيمته عدة آلاف من الدولارات ، مما ظن معه أن الملك سيموت من كثرة الضحك » . ورخص لهم في الاحتفاظ بحصيلة فنهم ودراستهم ، ولكنه ضمهم إلى الجيش لأن مماتهم خير من بقائهم على قيد الحياة[١٣] . فإذا صنفنا ، باعتبارها جرائم ، الغش في السلع ، والمغالطة التي تتسم بها حيل رجال الأعمال ، وتفشي الرشوة في المحاكم ، والاستيلاء على أملاك الكنيسة ، وتوسيع الحدود بالغزو

والفتح ، نقول إذا صنفنا هذه كلها فى عداد الجرائم ، لوجدنا أن واحداً من بين كل اثنين فى أوربا لص ، وقد نضفى على بعضهم الحصانة الأكليريكية ، وقد نسلم بوجود حرفى أمين هنا أو هناك . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً من إحراق المبانى عمداً ، وبعضاً من حوادث اغتصاب الفتيات ، وقليلا من الخيانة ، لبـدأنا ندرك المشاكل التى تواجهها قوات النظام وحماة القانون .

وقد نظمت قوات النظام والقانون هذه ، لتوقيع العقاب ، أكثر منها لمنع الجرائم ، وكان رجال الشرطة فى بعض المدن الكبرى ، مثل باريس ، هم حفظة الأمن ، وكان لكل قسم فى المدينة مراقبوه وحراسه ، ولكل أبرشية شرطتها . ولكن ضبط الأمن والنظام كان فى المدن سيئاً إجمالا . وأجهد رجال الحكم أنفسهم فى مكافحة الطبيعة البشرية ، وأخيراً قدروا أنه من الأفضل والأقل تكلفة ، الحد من الجرائم بفرض عقوبات بالغة الشدة وتنفيذها علنا أمام أعين الناس . . وكان هناك عشرات من الجرائم الرئيسية : القتل ، الخيانة ، الهرطقة ، تدنيس المقدسات والمعابد ، السحر ، السلب ، التزوير ، التزييف ، التهريب ، الإحراق عمداً ، الحنث بالقسم ، الزنى ، اغتصاب الفتيات (إذا لم يسو بالزواج) ، اللواط ، « الانغماس فى الشهوات البهيمية » ، غش الموازين والمقاييس ، إفساد الطعام ، تخريب الممتلكات ليلا ، الهروب من السجن ، الإخفاق فى محاولة الانتحار ، وقد تكون العقوبة ضرب العنق بدون ألم أو تعذيب نسبياً ، وهذا امتياز اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال ، أما من هم أقل مكانة فكانوا يشنقون . أما الهراطقة وقتلة الأزواج فكانوا يحرقون . أما السفاحون البارزون فكانوا يشدون أطراف الواحد منهم (يديه ورجليه) إلى أربعة خيول يجرى كل منها فى اتجاه مضاد حتى يتمزق جسم المجرم . وأصدر هنرى الثامن فى ١٥٣١ قانوناً يعاقب من يدس السم ، بالغلى حياً(١٤) ، كما نفعل نحن الأكثر وداعة ورقة بالمحار أو السمك .

ولص قانون محلى فى سالزبرج بأن يحرق المزور أو يغلى حتى الموت . وأن يقطع لسان الحانث فى اليمين من رقبته . أما الخادم الذى يضاجع زوجة سيده أو ابنته أو شقيقته فيضرب عنقه أو يشنق[١٥] ؛ وأحرقت جولين رابو فى آنجرز (١٥٣١) لأنها كانت قد قتلت طفلها أثر ولادة مؤلمة[١٦] . وهناك أيضاً ، إذا صدقنا ما رواه بودن ، عدة أفراد أحرقوا أحياء لتناولهم اللحم يوم الجمعة ، ورفضهم الندم على ما فعلوا ، أما الذين أظهروا الندم فكانت عقوبتهم مجرد الشنق[١٧] ؛ وكانت العادة أن تترك جثة المشنوق معلقة حتى تنهش الغربان لحمها ، ليكون عظة وعبرة للأحياء ، وفى الجرائم الصغرى كان يجلد الرجل أو المرأة أو تقطع إحدى يديه أو قدميه أو أذنيه ، أو أنفه ، أو تفقأ إحدى عينيه أو كلتاهما ، أو يكوى بالحديد المحمى ؛ وهناك جنح أخف كان عقابها السجن الذى تختلف فيه ظروف المعاملة بين المجاملة والخشونة ، أو تعذيب المذنب بآلة خشبية ذات ثقوب تقيد فيها رجلاه ويداه ، أو إدخال أيدى المذنب ورأسه فى آلة خشبية تسمى « المشهرة » ، أو الجلد ، أو التعذيب على كرسى التغطيس . وكان السجن وفاء للدين معروفاً شائعاً فى جميع أنحاء أوربا . وبصفة عامة كان قانون العقوبات فى القرن السادس عشر أشد قساوة منه فى العصور الوسطى ، ولقد عكس الفوضى الأخلاقية فى ذاك العصر .

ولم يكن الناس يستاءون من هذه العقوبات الصارمة ، بل لقد أحسوا ببعض السرور والابتهاج فى مشاهدة تنفيذها وساعدوا فى بعض الأحيان فى التنفيذ . ولما اعترف مونتكوكولى تحت وطأة التعذيب ، بأنه كان قد سمم ، أو حاول أن يسمم ، فرانسيس ، الابن العزيز المحبوب لفرانسوا الأول ، مزقت أوصاله حياً ، بربط أطرافه إلى أربعة خيول جرت فى أربعة اتجاهات ، (ليون ١٥٣٦) وقيل إن الجمهور مزق بقايا جسمه إلى قطع

صغيرة ، وفقئت أنفه ، واقتلع عينيه ، وحطم فكيه ، ومزغ رأسه فى الوحل ، وجعله يموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة[١٨] .

وهناك إلى جانب القوانين التى شرعت للجرائم ، وضعت « القوانين الزرقاء أو قوانين المتطهرين » ضد اللهو والتسلية التى يظن أنها تجافى التقى والورع ، أو الدع التى تنافى العرف بشكل حاد ، فقد اقتضى القانون العرفى فى العالم الكاثوليكى أكل السمك فى أيام الجمعة ، كما اقتضته قوانين الدولة فى انجلترا البروتستانتية فى عهد إدوارد السادس دعماً لصناعة صيد الأسماك ، وتدريباً للرجال على ركوب البحر من أجل الأسطول[١٩] . وكان الميسر دائماً غير مشروع ، ودائماً شائعاً مرغوباً فيه . وأمر فرانسوا ، الذى عرف أساليب اللهو والتسلية ، بالقبض على من يلعبون الورق أو النرد فى الحانات أو نوادى الألعاب (١٥٢٦) ولكنه أباح إقامة « يانصيب » عام (١٥٣٩) . وقلما كان القانون يعاقب على إدمان الخمر ، على حين اعتبر البطالة والخمول جريمة رئيسية تقريباً . أما قوانين التبذير أو الإنفاق بسخاء — وهى التى وضعت لضبط الأغنياء الجدد الذين ينفقون إنفاقاً مريباً يدعو إلى الاشتباه ، والمحافظة على فوارق الطبقات ، فقد حددت هذه القوانين ، الأزياء والزينة والأثاث ووجبات الطعام وواجبات الضيافة . ويقول لوثر « عندما كنت صبياً كانت الألعاب محرمة ، حتى أن صانعى أوراق اللعب ، والعازفين على المزمار والممثلين لم يكن يسمح لهم بشهود الأسرار المقدسة . أما من كانوا قد اشتركوا فى الألعاب ، أو حضروا حفلات الألعاب أو الروايات ، فكانوا يجعلون هذا موضوع اعتراف أمام القسيس »[٢٠] . وعاشت هذه المحرمات بعد الإصلاح الدينى . وبلغت ذروتها فى أخريات القرن السادس عشر .

وثمة بعض العزاء فى أن التطبيق قل أن كان على قدر صرامة القانون ،

وكان التهرب أمراً ميسوراً : وكم من قاض أو محلف ، بدافع الشفقة أو التخويف أو بفضل الرشوة — أطلق سراح كثير من الأوغاد مقابل عقوبة يسيرة أو غرامة . وكانت قوانين اللجوء إلى الكنيسة لا يزال معمولا بها فى عهد هنرى الثامن ؛ وكانت المرونة فى التطبيق ، على أية حال ، تتوازن مع استعمال التعذيب لانتزاع الاعترافات أو البيانات . وهناك كانت قوانين هنرى الثامن ، على الرغم من كونها أقسى القوانين فى تاريخ انجلترا — نقول كانت متقدمة عن زمانها[٢١] ، لأنها حرمت التعذيب إلا إذا روعى أن الجريمة علاقة بالأمن القومى[٢٢] ، ويمكن أن يكون الإبطاء فى محاكمة المتهم تعذيباً أيضاً . فقد شكا كورتيز الأسبانى إلى شارل الخامس من أن المتهمين ، حتى بأخطاء يسيرة ، طال بقاؤهم فى السجن عشر سنين أو نحوها ، قبل أن يحاكموا ، وأن المحاكمات قد تتلكأ لمدة عشرين عاماً[٢٣] .

وترعرع المحامون وتضاعف عددهم مع اضمحلال جماعة الكهنة ، وملأوا مناصب السلطة القضائية والبيروقراطية العالية ، ومثلوا الطبقات الوسطى فى الجمعيات الوطنيـــة والبرلمانات الإقليمية ، وحتى الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين اعتمدوا على المحامين فى القضايا المدنية ، وتكونت منهم فى فرنسا طبقة جديدة : « نبلاء الرداء — الروب » ، أو على حد قول رابليه الهجاء الفرنسى « القطط ذوات الفراء » . واختفى القانون الكنسى فى الأقطار البروتستانتية . وحلت فلسفة التشريع محل اللاهوت « كأداة للمقاومة » فى الجامعات . وعاد القانون الرومانى إلى الحياة فى الأقطار اللاتينية ، وسيطر على ألمانيا فى القرن السادس عشر ، وعاش القانون المحلى معه جنبا إلى جنب فى فرنسا . أما فى انجلترا فقد فضلوا عملية « القانون العرفى » . ولكن كان لقوانين جستنيان بعض الأثر فى تشكيل وتدعيم الحكم المطلق الذى أقامه هنرى الثامن . على أنه فى

بلاط هنرى الثامن نفسه ، ألف قسيسه الخاص توماس ستاركى (١٥٣٧) « حواراً » كانت الفكرة الأساسية فيه أن القوانين يجب أن تفرض إرادة الملك ، وأن الملوك يجب أن يخضعوا للانتخاب والعزل .

لا يمكن أن يطول حكم هذه البلاد حكماً صالحاً ، أو الاحتفاظ فيها بسياسة حكيمة ، طالما أنها تحكم بإرادة فرد لم يتم اختياره بطريق الانتخاب ، بل أتى إلى العرش بالتعاقب الطبيعى . فقلما شهدنا أن الذين يأتون إلى العرش أو الممالك عن طريق هذا التعاقب ، كانوا جديرين بتولى هذه المناصب السامية والسلطات العالية .... وأى شىء أبغض إلى الطبيعة من أن تحكم أمة بأمرها وفق إرادة أمير ؟؟ وأى شىء أكثر تنافياً مع العقل من أن شعباً برمته يحكمه من يعوزه العقل عموماً ؟؟ ... وليس ثمة إنسان يستطيع أن يخلق أميراً حكيماً عاقلا ممن ينقصه الذكاء والحصافة بالطبيعة .... ولكن فى مقدور الإنسان أن ينتخب ويختار من يتوفر فيه العقل والعدالة معاً ، فينصبه أميراً ، ومن ثم يخلع الطاغية المستبد[٢٤] .

وكان موضع العجب والغرابة أن يموت ستاركى موتاً طبيعياً بعد عام واحد من كتابة « حواره » الذى لم يطبع إلا بعد ٣٣٤ سنة من تدوينه .

٣ - الأخلاق

كيف كان سلوك الناس فى العالم المسيحى اللاتينى ؟ إنه لجدير بنا ألا يضللنا جهرهم بالإيمان بالدين ، حيث لم يكن ذلك فى الغالب إلا ولعاً بالشقاق والمشاكسة ، أكثر منه ورعاً وتقوى . فإن نفس الشخص العنيد الذى يستطيع أن يتشدد فى إيمانه يستطيع أن يكون عنيفاً كذلك فى تجديفه ، وإن البنات اللائى ينحنين متظاهرات بالرزانة والاحتشام أمام تماثيل العذراء ،

أيام الأحد ، ليصبغن وجناتهن بالحمرة ويتجملن طيلة الأسبوع يحدوهن الأمل ، وكثيرات منهن انزلقن تحت تأثير الإغراء والغواية ، لمجرد عرض فكرة الزواج . وما كان من الميسور حماية العذارى وعذرتهن وبتولتهن إلا بالتمسك بكل أهداب العرف والأخلاق والقانون والدين وسلطة الوالدين والتعليم ، و « حدود للشرف » . ولكن ما كان أكثر الاحتيال على الانزلاق . إن الجنود الذين عادوا من الحملات التي كان الخمر والنساء فيها عزاءهم وتسليتهم الأساسية ، وجدوا من المؤلم لهم ومن العسير عليهم أن يروضوا أنفسهم على العفة والامتناع عن شرب الخمر . وانغمس الطلبة في الفسق والفجور ، واحتجوا بأن الزنى خطيئة عرضية تغتفر»[٢٥] ، ويمكن أن يتجاوز عنها المشرعون المستنيرون . ولقد أعلن روبرت جرين أنه في كمبردج كان قد « أفنى زهرة شبابه بين أوغاد فاجرين لا يقلون عنه دعارة »[٢٦] . وكثيراً ما ظهر الراقصات على المسرح ، أو في أي مكان آخر ، « عاريات تماماً »[٢٧] . ومن الواضح أن هذه بدعة من أقدم البدع في الدنيا — ولقد نظر الفنانون بازدراء إلى قواعد السلوك الجنسي ونظمه[٢٨] ، واتفق اللوردات والسيدات مع الفنانين في ذلك . وكتب برانتوم : « إن الطبقات العليا استخفت بقواعد السلوك عند العذارى وما يحوم حولهن من شكوك ، وكم من آنسات أعرفهن في دنيا العظماء ، لم يأخذن معهن بكارتهن إلى فراش الزوجية »[٢٩] . ولقد لحظنا نوع القصة التي بدا أن مرجريت نافار الجميلة سمعتها دون أن تحمر وجنتاها خجلا . وكم زخرت المكتبات بكتب الأدب الخليع المكشوف ، التي تدفع فيها أثمان عالية في نهم شديد[٣٠] . وكان لأرتينو (هجاء لاذع في إيطاليا في القرن الخامس عشر) في باريس شعبية قدر شعبيته في روما ، ولم يحس رابليه ، الكاهن بأنه من الجائز أن ينقص المبيع من ملحمته « جارجنتوان **Gargantuan** » بحشوها بكلام جعل أرتينو يسارع لإخفائه . ووجد

الفنانون سوقاً رائجة للصور الجنسية ، بل حتى للانحرافات المصورة[٣١] ، وكان الباعة المتجولون فى الشوارع ، وحماة البريد واللاعبون الجوالون يبيعون روائع الصور التى من هذا القبيل ، حتى فى المعارض والأسواق الخيرية الكبرى[٣٢] : لقد وجدت كل ألوان الابتذال والانحراف لها مكاناً فسيحاً فى تلك الحقبة[٣٣] ، مثلما وجدته فى الصفحات التى دونها برانتوم والتى تتسم بالأرستقراطية[٣٤] .

وزاد الدخل من البغاء وارتفع شأنه . وحدث فى هذا العصر أن أطلق على من يمارسنه « سيدات البلاط » — (فى مقابل رجال البلاط) : وقدم بعض القواد البغايا إلى جيوشهم ، حرصاً منهم على حماية سيدات البلاد التى يحتلونها[٣٥] . ولكن نسبة الأمراض السرية ارتفعت إلى حد الوباء تقريباً . وكم أصدرت الحكومة تلو الحكومة من تشريعات ضد « بنات الهوى » التعيسات . وعلى حين أكد لوثر أن الرغبة الجنسية أمر طبيعى ، نراه قد كافح للإقلال من البغاء ، وبتحريض منه حرمته كثير من مدن ألمانيا اللوثرية[٣٦] . وفى ١٥٦٠ جدد ميشيل دى لوبيتال مستشار فرنسا قوانين لويس التاسع ضد هذه الرذيلة ، والظاهر أن أوامره نفذت .

وفى الوقت نفسه نجد أن الشهوة الحمقاء للجسد من أجل الجسد ، أورثت ظمأ النفس إلى النفس ، وإلى كل ما كان يزدان به التودد والحب الرومانتيكى من رقة وكياسة ، وتدفقت الدماء التى تغلى فى العروق فى النظرات المختلسة والرسائل الغرامية والقصائد الغنائية والمقطوعات الشعرية والأناشيد والقطع الغزلية والهدايا المشجعة واللقاءات السرية . ورحبت بعض الشخصيات المهذبة أو السيدات اللعوبات من إيطاليا وكاستايونى ، بالتسلى بحب أفلاطونى تكون فيه السيدة والرفيق المتودد إليها صديقين حميمين ، ولكن محافظين على الطهارة والعفة ، ولكن مثل هذا اللون من كبح جماح النفس لم يكن من شيمة هذا العصر . فقد كان الرجال شهوانيين بطريقة مكشوفة ، وأحب النساء هذه

الحلة فيهم ، وكثر شعر الغرام ، ولكنه كان مقدمة لافتناص النساء .

وبالنسبة للزواج ، بقى الآباء واقعيين إلى حد عدم السماح للمحب باختيار رفيقة الحياة ، فقد كان الزواج فى شريعتهم زفافاً إلى الضيعة أو الثروة أو المكانة الاجتماعية (زواج المصلحة) ، ونصح إرزم الذى كان شديد الإحساس بمفاتن المرأة ، لا بالزواج ، نصح الصغار بالزواج ممن يختاره الكبار ، على أن يتركوا الحب ينمو بالزاملة والمرافقة أفضل من أن يذبل ويذوى بإشباع الشهوة(٣٧) ، واتفق رابليه معه فى هذا الرأى(٣٨) . وعلى الرغم من هؤلاء الثقاة ، ثار عدد متزايد من الشباب ، مثل جان د ألبرت ، على الزيجات المبنية على الثروات والعقارات الثابتة . ونعى روجر أسكام معلم الملكة اليصابات : « أن عهدنا بعيد جداً عن النظام والامتثال القديمين ، حتى أن الشبان ، بل والبنات أنفسهن — أصبح الجميع يجروئون على الزواج رغم أنف الأب والأم والرب والنظام السليم وكل شىء(٣٩) . وفزع لوثر حين علم بأن ابن ميلانكتون خطب لنفسه عروساً دون استشارة أبيه ، وأن أحد صغار القضاة فى وتنبرج أعلن صحة هذه الخطبة ، ورأى المصلح الدينى (لوثر) أن هذا سيسىء حتما إلى سمعة وتنبرج . وفى ٢٢ يناير ١٥٤٤ كتب فى الجامعة :—

> إن لدينا عدداً وفيراً من الشبان من مختلف البلاد ، وان سباق البنات ليشتد ، وانهن ليجرين وراء الرفاق فى حجراتهم وقاعاتهم ، وحيثما استطعن إليهم سبيلا ، ليعرضن عليهم حبهن الطليق . ولقد سمعت أن كثيراً من الآباء أمروا أبناءهم بالعودة إلى بيوتهم . . . قائلين إننا نعلق الزوجات حول رقاب أبنائهم . . . وفى يوم الأحد التالى ألقيت عظة قوية أدعو الرجال إلى اتباع السبيل القويم والقاعدة اللتين وجدتا منذ بدء الخليقة . . . أعنى أن يزوج الآباء أبناءهم بعضهم من بعض بروية وحسن نية ، دون أن يرتبط الأبناء بارتباط

تمهيدى . . فإن مثل هذه الارتباطات من ابتداع البابا الممقوت ، أوحى بها إليه الشيطان ليحطم ويمزق سلطة الآباء التى منحها الله إياهم وأوصى بها لهم بصفة جدية(٤٠) .

وكان يمكن تنظيم عقود الزواج للأولاد والبنات ابتداء من سن الثالثة ، ولكن كان من الميسور فسخها إذا لم تتحقق . وكانت السن الشرعية للزواج الرابعة عشرة الولد والثانية عشرة البنت . وكان من المستطاع التجاوز عن العلاقات الجنسية بعد الخطبة وقبل الزفاف ، وحتى قبل الخطبة ، في السويد وفى ويلز ، كما كان فى بعض المستعمرات الأمريكية فيما بعد ، وكان يسمح للحبيبين بالاشتراك فى فراش واحد دون أن يخلعا ملابسهما ، ولكنهما كانا يذكران بالاحتفاظ بملاءة بينهما حتى لا يلتصق جسماهما(٤١). ولم يعد الزواج فى البلاد البروتستانتية سراً مقدساً ، وما حل عام ١٥٨٠ حتى بات الزواج المدنى يزاحم الزواج على يدى الكاهن . وارتأى لوثر وهنرى الثامن وارزم والبابا كليمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص فيه تحت شروط معينة ، وخاصة إذا كان بديلا للطلاق . واتجه رجال الدين من البروتستانت شيئاً فشيئاً إلى إباحة الطلاق ، وكان ذلك فى أول الأمر بسبب الزنى فحسب ، وكانت هذه الجريمة أكثر شيوعاً فى فرنسا ، على الرغم من عادة قتل الزوجة الزانية هناك . وكان الحب غير المشروع جزءاً من الحياة العادية للسيدات الفرنسيات ذوات المركز الاجتماعى المرموق(٤٢) . وكان البيت الذى يضم زوجاً وزوجتين أمراً مألوفاً كثيراً فى فرنسا ، مثال ذلك البيت الذى كان يضم هنرى الثالث وكاترين دى مديتشى وديان دى بواتييه ، وكانت الزوجة الشرعية (المعقود عليها) ترتضى هذا الوضع فى كياسة مرة ساخرة ، كما يحدث أحياناً فى فرنسا اليوم .

وباستثناء الطبقة الأرستقراطية ، كانت المرأة قبل الزواج معبودة

و إلهة ، وبعده خادمة . وكانت الزوجة تقوم بواجبات الأمومة خير قيام أدون صعوبة أو تردد ، وتبتهج وتفاخر بكثرة الأولاد ، وتحتال على أن تسوس رب البيت . وكان النساء قويات معتادات على العمل الشاق من طلوع الشمس إلى مغربها ، ويقمن بحياكة معظم الملابس اللازمة لأسراتهن . وكن فى بعض الأحيان يعملن مع المقاولين الرأسماليين . وكان النول جزءاً أساسياً من البيت ؛ وفى إنجلترا كان معظم النساء غير المتزوجات غزّالات ، أما سيدات البلاط الفرنسى فكن شيئاً آخر ، ولقد شجعهن فرانسوا الأول على تجميل أجسامهن وملابسهن ؛ واستطعن فى بعض الأحيان تحويل السياسة الوطنية بفعل « القذائف الموجهة » التى تطلقها مفاتنهن . وورد من إيطاليا على فرنسا ، حركة نسائية ، ولكنها لم تلبث أن خمدت ، لأن النساء أدركن أن قوتهن وشهرتهن شىء مستقل عن السياسة والقانون . وكان كثير من نساء الطبقة العليا على درجة عالية من الثقافة . وفى باريس ، وفى غيرها ، بدأ الصالون الفرنسى آنذاك يتشكل ، حيث جعلت السيدات المثقفات ذوات اليسار من بيوتهن ملتقى رجال الدولة والشعراء والفنانين والعلماء والأساقفة والفلاسفة ، وثمة مجموعة أخرى من السيدات الفرنسيات بقين متمسكات بأهداب الفضيلة ، فى هدوء ، وسط العاصفة الهوجاء – عاصفة الجنس – مثل آن أوف فرانس ، وآن أوف برتياني ، وكلود ، ورينيه . وبصفة عامة ، فإن الإصلاح الدينى الذى نبت فى تربة تيوتونية (ألمانيا وشمال أوربا) عمل على تدعيم فكرة المجتمع الأبوى وسلطان الأب على المرأة والأسرة . كما وضع الإصلاح حداً لتمجيد المرأة فى عصر النهضة ، بوصفها نموذجاً للجمال وعاملة على تمدين الرجل ، كما أدان الكنيسة بالتساهل فى الانحرافات الجنسية ، ومهد الطريق بعد موت لوثر لخلفاء المتطهرين (الحركة البيوريتانية) .

وتدهورت الأخلاق الاجتماعية بنشوء الروح التجارية وشدة الاهتمام بالربح ، والإحجام المؤقت عن أعمال البر والإحسان والصدقات ؛ ووجد

الخداع والتضليل والخيانة — وهي أمور طبيعية في الإنسان — أساليب وفرصاً جديدة ، منذ حلت اقتصاديات المال محل النظام الإقطاعي ، ومنذ تملك الأغنياء الجدد السندات المالية أكثر مما تملكوا الأرض ، وكانوا قليلا ما يرون الأفراد الذين أفادوا من كدهم وعرقهم ، فإن هؤلاء الأغنياء لم يكن لديهم من تقاليد المسئولية والكرم ما كان قد ذهب وولى مع الثروة القائمة على امتلاك الأرض[٤٣] . وكانت التجارة والصناعة في العصور الوسطى قد ارتضتا الضوابط الأخلاقية المتمثلة في توجيهات النقابات والمجالس المحلية والكنيسة ، ولكن الرأسمالية الجديدة رفضت كل هذه القيود ، وجرت الناس إلى منافسة عنيفة طوحت بالقوانين القديمة عرض الحائط[٤٤] ؛ وحلت الحيل التجارية محل الحيل الموسومة بالتقى والورع . وضجت نشرات الإعلان في ذاك الزمان بالتحذيرات من غش الأطعمة وسائر المنتجات بالجملة . وشكا مجلس الديت في انسبروك ١٥١٨ ، من أن المستوردين « يضيفون الآجر المسحوق إلى الزنجبيل ، ويخلطون الفلفل بمواد غير صحية »[٤٥]. ولحظ لوثر أن التجار « عرفوا كيف يحتالون على زيادة وزن التوابل — مثل الفلفل والزنجبيل والزعفران — بوضعها في أقبية رطبة ، وأنه ليس ثمة سلعة واحدة لا يستطيعون أن يجنوا من ورائها أرباحاً طائلة بالغش في الكيل أو العد أو الوزن أو استحداث ألوان مصطنعة . . . وليس ثمة نهاية لحيلهم »[٤٦] . ووصم سناتو البندقية حمولة سفينة من الأصواف الإنجليزية بأنها مغشوشة من حيث الوزن والصنع والحجم[٤٧] .

وكان الناس في الأقطار اللاتينية لا يزالون يقبلون على أعمال البر والإحسان والصدقات بصدور منشرحة ، كما كان الحال في العصور الوسطى ، وأنفقت الأسرات النبيلة جزءاً كبيراً من دخولها في الهبات والصدقات[٤٨] . وورثت ليون عن القرن الخامس عشر منظمة ضخمة للصدقات المحلية أمدها المواطنون بالأموال بسخاء عن طيب خاطر[٤٩] . أما

فى ألمانيا وانجلترا فلم تكن الأيدى مبسوطة إلى هذا الحد . وبذل لوثر كل ما فى وسعه ليعيد لظام الصدقات الذى كان قد اختل بمصادرة الأمراء لأملاك الأديرة ، ولكنه اعترف بأن جهوده لم تكلل بالنجاح . ورثى « لأن الناس فى عهد البابوية كانوا محسنين وتصدقوا عن طيب خاطر [٥٠] ، ولكنهم فى ظل شريعة الإنجيل لم يعودوا يعطون شيئاً ، وبات كل فرد يسلب الآخر . . . . ولن يتصدق أحد بفلس واحد »[٥١] ؛ ونقل إلينا لاتيمر (من رجال الإصلاح الدينى البروتستانتى فى انجلترا فى القرن السادس عشر) رواية مشابهة : « لم يقس قلب لندن قط كما هو حالها الآن ، فإذا مات أحد الأغنياء فى الأزمنة الغابرة ، كان ذووه يرصدون مبالغ كبيرة من المال لإغاثة الفقراء . . . أما الآن فقد تجمدت المروءة وانقضى عهدها[٥٢] . وأبلغ الكاردينال بول لندن ، أن مدينتين فى إيطاليا تصدقتا بأكثر مما تصدقت به انجلترا بأسرها[٥٣] . وانتهى فرود إلى أنه « لما انتشر الصدق ، تقلص البر والعدل فى انجلترا »[٥٤] ؛ ويحتمل أنها ليست البروتستانتية ، ولكنها الروح التجارية والكفر هما اللذان أنقصا الصدقات والإحسان .

واشتد الفقر حتى أصبح يشكل أزمة اجتماعية ، فإن المستأجرين المطرودين والعمال المهرة العاطلين والجنود المسرحين هاموا على وجوههم فى الطرقات أو الأكواخ المصنوعة من القش يسألون الناس أو يسلبونهم ليعيشوا ؛ وقدر عدد المعوزين فى أوجزبرج بسدس السكان وفى همبرج بخمسهم ، وفى لندن بربعهم[٥٥] ؛ وصاح المصلح الدينى توماس لفر يوما « يا رب يا رحيم ! ما هذا العدد الضخم من الفقراء والضعفاء والعرج والعمى والمقعدين والمرضى . . . والذين يرقدون أو يزحفون فى الشوارع الموحلة ! »[٥٦] وكان لوثر الذى امتلأ قلبه بالرحمة قدر ما اتسم لسانه بالقسوة ، من أول من أدركوا أن الدولة يجب أن تتولى عن الكنيسة رعاية المعوزين وإنقاذهم . وفى حديثه « إلى أشراف المسيحية فى الأمة الألمانية » (١٥٢٠) اقترح

أن تتكفل كل مدينة بالمعوزين فيها . وفى أثناء تغيبه فى ورتبرج ، نظم أتباعه المتطرفون فى وتنبرج — صندوقاً جماعياً لرعاية الأيتام ، ودفع مهور البنات الفقيرات ، وترتيب منح دراسية للطلبة المحتاجين ، وإقراض الأموال للأسرات التى أخنى عليها الدهر ، وفى سنة ١٥٢٥ أصدر لوثر توجيهاً بإنشاء صندوق عام . حث فيه المواطنين ورجال الدين فى كل قسم على أن يفرضوا على أنفسهم ضريبة يسهمون بها فى تكوين رصيد يقدمون منه قروضاً بدون فائدة للمحتاجين أو غير القادرين على العمل[٥٧] . وفى ١٥٢٢ عينت أوجزبرج ستة « حماة الفقراء » ليشرفوا على توزيع المساعدات عليهم ، وتبعتها نورمبرج فى الحال ، ثم ستراسبورج وبرسلاو (١٥٢٣) ، وراتسبون ومجدبرج (١٥٢٤) .

وفى تلك السنة كتب أسبانى من دعاة الحركة الإنسانية ، جوان لويس فيفز لمجلس مدينة بروجز نشرة عنوانها : « إعانة الفقراء » . وقد لحظ انتشار الفقر وسط نمو الثروة ، وأنذر بأن الإفراط فى عدم المساواة فى الملكية قد يولد ثورة مدمرة ، وكتب يقول : « كما أنه من الخزى والعار على رب الأسرة فى بيته الهانئ أن يسمح لفرد فيـــه أن يعانى مهانة العرى أو الأسمال البالية ، فإنه كذلك ليس من اللائق بولاة الأمور فى المدينة أن يحتملوا حالة مواطنين يتضورون جوعاً وبؤساً »[٥٨] . ووافق فيفز على أن يجبر على العمل كل قادر عليه ، وألا يسمح لأحد بالتسول ، ولكن ما دام كثيرون غير قادرين على العمل فعلا ، فيجب أن يدبر لهم مأوى فى الملاجئ أو المستشفيات أو المدارس التى تنفق عليها البلديات « على أن يقدم لهم الطعام والرعاية الطبية والتعليم الابتدائى مجاناً ، ويجب أن تتخذ تدابير خاصة للمتخلفين عقلياً . وجمع ايبر Ypres بين أفكار فيفز والسوابق الألمانية فى هذا المجال ، ونظم فى ١٥٢٥ صندوقاً جماعياً وحد أموال

الصدقات فى رصيد واحد ووكل توزيعها إلى رياسة واحدة . وطاب شارل الخامس (١٥٣١) نسخة من خطة ابر . وأرسل هنرى الثامن توجيهاً مماثلا إلى أبرشيات انجلترا (١٥٣٦) . واحتفظت الكنيسة فى البلاد الكاثوليكية بإدارة أموال الصدقات .

وبقى الخلق السياسى مطبوعا بالمكيافللية : واعتبر نظام الجاسوسية أمراً مسلما به . وكان من المتوقع أن يبلغ جواسيس هنرى الثامن فى رومه عن أخطر محادثات الفاتيكان وأكثرها سرية[٥٩] . وكانت الرشوة عملية تقليدية ، وتدفقت فى سخاء أكثر بعد تدفق الذهب من أمريكا . وتسابقت الحكومات على نقض المعاهدات . ونافست الأساطيل المسيحية والتركية بعضها بعضا فى أعمال القرصنة . وبعد تدهور نظام الفروسية انحطت أخلاقيات الحرب إلى ما يشبه الهمجية ونهبت أو أحرقت المدن التى كانت قد أخفقت فى مقاومة الحصار ، وذبح الجنود المستسلمون أو استعبدوا حتى تدفع عنهم الفدية . أما القوانين والمجاملات الدولية التى كانت سائدة فى حالة خضوع الملوك أحياناً لتحكيم البابوات ، فقد اختفت فى فوضى التوسع القومى والعداء الدينى . واعترف المسيحيون ببعض الضوابط الخلقية تجاه غير المسيحيين ، وبادلهم الأتراك نفس المعاملة . وأسر البرتغاليون زنوج أفريقية واستعبدوهم . ونهب الغزاة الأسبان المواطنين الأمريكيين واستعبدوهم وقتلوهم ، دون أن يخفوا عزمهم الأكيد على تحويل الدنيا الجديدة إلى المسيحية ، وكانت حياة الهنود الحمر فى أمريكا فى ظل الحكم الأسبانى مريرة تعيسة إلى حد انتحار الآلاف منهم[٦٠] ، بل حتى فى العالم المسيحى نفسه فى ذاك العصر كثرت حوادث الانتحار إلى درجة مروعة[٦١] . واغتفر بعض دعاة الحركة الإنسانية إهلاك النفس . ولكن الكنيسة حكمت بأنه يؤدى إلى الجحيم مباشرة ، ومن ثم يكون المنتحر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إن كل ما فى الاصلاح الدينى ، ولو أنه فى نهاية الأمر أصلح من

الأخلاق فى أوربا — دمر الفضائل العلمانية . ولقد نعى بيركهيمر وهانز ساكس — وكلاهما متعاطف مع لوثر — أن فوضى السلوك العشوائى غير المنظم قد سادت بعد انهيار السلطة الدينية[٦٢] : وكان لوثر كعادته ، صريحا جداً فى هذه النقطة :

كلما تقدمنا إلى الأمام ، ازداد العالم سوءاً . . . . فمن الواضح جداً كيف أن الناس أصبحوا نهمين قساة بذيئين وقحين شريرين أكثر بكثير مما كانوا عليه فى ظل البابوية[٦٣] ... فنحن الألمان اليوم موضع سخرية كل الأقوام والشعوب ووصمة عار لهم ، ونحن نعتبر قطيعا مخزيا كئيبا من الخنازير . . . . نحن نكذب ونسرق ، ونفرط فى الطعام والشراب ، وننغمس فى كل رذيلة[٦٤] . . . . وإن الشكوى عامة من أن شبان اليوم منحلون فوضويون تماما ، وأنهم لا يستبيحون لأنفسهم أن يزدادوا علما ومعرفة . ويروح نساء وتتبرج وبناتها ويجئن فى كل مكان عاريت ، وليس هناك من يعاقبهن أو يصحح أخطاءهن ، ساخرات من « كلمة الرب » هازئات بها[٦٥] .

ووصف واعظ لوثرى ، أندريا مسكولوس ، عصره (١٥٦٠) بأنه فاسق غير أخلاقى ، إذا قورن بالألمان فى القرن الخامس عشر[٦٦] . واتفق معه فى ذلك كثير من زعماء البروتستانت[٦٧] . وتأوه كلفن قائلا « إن المستقبل يفزعنى ، ولست أجرؤ على التفكير فيه . إن الهمجية سوف تجرفنا إلا إذا هبط الرب من السماء[٦٨] » . وأننا لنسمع شيئاً من هذا القبيل عن اسكتلندة وإنجلترا[٦٩] . ولخص فرود ، وهو النصير المتحمس لهنرى الثامن ، الموضوع باعتدال وإنصاف ، فقال :

إن الحركة التى بدأها هنرى الثامن ، بالحكم عليها بنتائجها الحالية

(١٥٥٠) أسلمت البلاد آخر الأمر إلى مجرد مغامرين . إن الناس استبدلوا بخرافة من أكبر مساوئها أنها فرضت ظلا من الاحترام والطاعة ، خرافة أخرى ، مزجت الطاعة بإيمان متسم بطابع المضاربة . وتحت هذا التأثير المميت ، بدأت تختفي ، لا أسمى فضائل التضحية بالنفس فحسب ، بل أبسط واجبات الاستقامة والأمانة والفضيلة والأخلاق . وأصيبت الحياة الخاصة بدنس بدا لخلاعة رجال الدين الكاثوليك أنه البراءة والطهر . . . . ومن بين الفئة الصالحة التي لم يمسها الدنس ، لا يزال من الممكن العثور على أفاضلهم في جانب الإصلاح(٧٠) .

وقد لا يكون من اليسير أن تنسب هذا الانحطاط الخلقي في ألمانيا وإنجلترا ، إلى فلك لوثر لقيود الجنس ، وازدرائه « للأعمال الصالحة » ، أو إلى المثل السيئ الذي ضربه هنري الثامن بانغماسه في المغامرات الجنسية وقسوته البالغة ، لقد ساد فسوق مشابه — ومن بعض النواحي أكثر انطلاقاً — في إيطاليا البابوية في ظل البابوات في عصر النهضة ، وفي فرنسا الكاثوليكية تحت حكم فرانسوا الأول . وربما كان السبب الرئيسي في انحلال الخلق في أوربا الغربية هو نمو الثروة . وثمة سبب أصيل يدعم هذا ، هو تزعزع الإيمان ، لا في المبادئ الكاثوليكية فحسب ، بل في أساسيات وأصول العقيدة المسيحية كذلك . فقد رثى أندريا مسكولوس « أنه ليس هناك من يعبأ بالجنة أو الجحيم ، ولا يفكر أحد في الله أو في الشيطان »(٧١) . وينبغي في مثل هذه التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين ، أن نتجاوز عن مبالغات المصلحين اليائسين من ضآلة التحسينات التي أدخلتها إصلاحاتهم الدينية على الحياة الأخلاقية . وإذا كان لنا أن نصدق الوعاظ ، فإن الناس لم يكونوا أفضل بكثير فيما مضى ، وقد لا يكونون أفضل بكثير في القرون التالية . في مقدورنا أن نتبين في عصرنا هذا كل خطايا القرن السادس عشر وآثامه ؛

وأن نتبين خطايانا وآثامنا فى كل ما اقترفه الناس فى ذاك القرن ، طبقاً لما تيسر لديهم من وسائل وأساليب .

وإنا لنجد فى نفس الوقت أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلتيهما ، كانتا قد أقامتا ودعمتا أساسين لانبعاث الروح المعنوية والأخلاقية : تهذيب سلوك رجال الإكليروس بالزواج أو بالزهد والتعفف ، والتوكيد على أن البيت هو الملاذ الأخير للإيمان والحشمة واللياقة . وقد يؤتى الإصلاح حقاً ثماره على مدى الأيام ، حتى إلى حد التطرف ، وقد يأتى اليوم حين يرجع الرجال والنساء بأبصارهم إلى الوراء ، فى حسد خفى ، إلى القرن السادس عشر ، حيث كان أسلافهم أشراراً وأحراراً إلى الحد الذى كانوا عليه يومذاك .

٤ — آداب السلوك

كان الحكم على الناس آنذاك ، مثل ما هو حادث اليوم ، بعاداتهم أكثر منه بأخلاقهم . لقد تجاوز الناس ، بقدر أكبر من طيب النفس ، عن الخطايا التى ارتكبت بأقل قدر من الوحشية : وأعظم قدر من الكياسة . وفى هذا المجال كانت إيطاليا هى الرائدة ، شأنها فى كل شىء باستثناء المدفعيـــة واللاهوت . وكان الناس شمال جبال الألب ، فيما عدا القشرة الرقيقة الخارجية فى سكان فرنسا وإنجلترا ، أفظاظاً غلاظاً ، إذا قورنوا بالإيطاليين ، بل كان هؤلاء يسمون الأولين متبربرين همجيين : واتفق مع الإيطاليين فى هذا ، كثير من الفرنسيين الذين سحرت ألبابهم فتوحاتهم فى إيطاليا فى ميادين الحرب وآداب السلوك ، ولكن المتبربرين الهمجيين كانوا يتوقون إلى التمدن وارتقاء سلم الحضارة : وحذا رجال البلاط وسيداته والشعراء والمفسدون فى الأرض من الفرنسيين حذو الإيطاليين ونهجوا نهجهم : وسار الإنجليز الهوينا خلفهم : وترجم كتاب كاستليونى « رجل البلاط » (١٥٢٨) إلى الفرنسية فى ١٥٣٧ ، وإلى الإنجليزية فى ١٥٦١ ، واختلفت الدوائر الأدبية

على تعريف الرجل المهذب : ولقيت كتيبات آداب السلوك رواجاً كبيراً . ولقد ألف إرزم واحداً منها : وأصبح الحديث فناً فى فرنسا ، كما كان فيما بعد فى حانة مرميد فى لندن (كان يجتمع فيها بن جونسون وشكسبير وغيرهما من الكتاب . فى عصر اليزابيث) : وعبرت مباريات الأجوبة البارعة السريعة جبال الألب من إيطاليا حول الوقت الذى انتقل فيه كذلك فن المبارزة بالسيف . وكان الحديث أكثر صقلا وتهذيباً فى فرنسا عنه فى ألمانيا . وكان الألمان يسحقون الرجل بالفكاهة ، أما الفرنسيون فكانوا يخزونه فى ذكاء وفطنة . وكانت حرية الكلام وسيطاً أساسياً فى ذاك العصر .

ومنذ كان تحسين المظهر الخارجى أيسر من تهذيب النفس ، فإن الطبقات الصاعدة فى المدنيات الناشئة فى الشمال أولت ملابسها قسطاً أكبر من العناية . وارتدى عامة الناس ملابس بسيطة للغاية — كما نرى فى جماهير بروجل (مصور فلمنكى) : قبعات على شكل الفنجان ، وبلوزات فضفاضة ذوات أكمام منتفخة ، وسراويل (بنطلونات) ضيقة تصل إلى الأحذية المريحة ، ويتركز هذا التشكيل البشع على حقيبة قبيحة ، مزدانة بزخارف براقة ، تتدلى أمام انفراج ساقى الرجل . أما الرجال الموسرون فى ألمانيا فقد غلفوا أجسامهم الجبارة فى طيات كثيرة فضفاضة من القماش ، تعلوها قبعات عريضة تبدو فوق الرأس وكأنها فطيرة ذات مصاطب أو طبقات . أما نساء ألمانيا ، فالظاهر أنه كان محرماً عليهن أن يلبسن إلا زى مديرات النزل أو الطباخات . وفى إنجلترا أيضاً كانت ملابس الرجال أجمل وأكثر بهجة من ملابس النساء ، حتى جاءت الملكة اليزابيث فبزتهم بما ارتدته من أزياء لا يحصيها العد . وجرى هنرى الثامن شوطاً بعيداً فى الإسراف فى ملابسه ، وكان يجملها ويزينها بالألوان والحلى والأنسجة الثمينة . ويقول هولنشد إن دوق بكنجهام كان يرتدى — فى زواج الأمير آرثر من كاترين أوف أراجون — عباءة

من شغل الإبرة ، مغطاة بفراء السمور ، قدرت بنحو ١٥٠٠ جنيه (١٥٠٫٠٠٠ دولار؟) ، وحرمت القوانين على أى رجل دون رتبة فارس ، أن يقلد فخامة الملابس التى يرتديها من هم أعلى منه مكانة . وغطت الإنجليزيات أجسامهن بالملابس الضيقة من العنق إلى أخمص القدم ، ذات أكمام تصل إلى المعصم ، مع زركشة بالفراء على حروف الثياب ، وأحزمة مثبتة بحلى معدنية ، وقلادة أو مسبحة ، وكانت النساء بصفة عامة تلبس من الجوهرات أقل مما يلبس الرجال :

وفى عهد فرانسوا الأول الذى كان يقدر الشيء حق قدره ، فتحت النساء الفرنسيات الجزء الأعلى من ثيابهن وكشفن عن صدورهن المنتفخة ، وشققن أرديتهن إلى آخر فقرة من ظهورهن . وإذا لم ينتفخ الصدر الطبيعى إلى حد كاف ، وضعن عليه مشداً يجعله عاليا منتفخا[٧٢] ، وضيقت الملابس وأحكمت فيما تحت الثديين ، وضغطت على الخصر[٧٣] ، مع أكمام منتفخة ، وانتشرت من التنورة أسلاك من الخلف وعلى الحافة . واضطرتهن الأحذية العالية الكعوب إلى المشية المتبخترة الرشيقة . وكان يباح للمرأة ذات المكانة العالية — وليس لغيرها — أن يكون لثوبها ذيل ، وكلما ارتفع قدرها زاد طول الذيل . وقد يطول الذيل ، إذا سمحت مرتبة الشرف ، إلى سبع ياردات ، وكان يمشى وراء السيدة وصيفة أو خادم ليمسك به ويرفعه عن الأرض . وفى طراز آخر الأزياء قد تغطى السيدة رقبتها بطوق أحكم شده بأسلاك ، وعذب الرجال أنفسهم بشيء غريب مماثل فى المناسبات الرسمية ، وفى ١٥٣٥ لحظ سرفيتس « أنه لنساء أسبانيا عادة قد يظن فى فرنسا أنها همجية ، تلك هى أنهن كن يثقبن آذانهن ويعلقن فيها أقراطا ذهبية غالباً ما تكون مرصعة بالأحجار الكريمة »[٧٤] . وما جاءت سنة ١٥٥٠ حتى كانت نساء فرنسا تلبس الأقراط ، بل حتى الرجال كذلك[٧٥] . واستمرت الجواهر والحلى

محتفظة بسلطانها منذ زمن سحيق . وارتدى الرجال فى فرنسا قمصانا من الحرير مع صدارات من القطيفة ، وحشوا أكتافهم ، وكسوا أرجلهم بسراويل قصيرة ضيقة ، وحافظوا على رجولتهم بحقيبة منضدة بالأشرطة أو الجواهر أحيانا . وعلى النقيض من عادات القرن الخامس عشر قصروا شعر الرأس وأرخوا لحاهم . أما النساء فقد احتفظن بشعرهن فى تصفيفات متنوعة لا تشجع على وصفها . فكان مضفراً معقوصاً ملفوفاً فى شباك ، مليئاً بالضفائر العارية ، مزداناً بالأزهار ، براقاً بالجواهر ، مضمخا بالزيوت العطرية ، مصبوغا ليتمشى مع الأناقة وأسلوب العصر ، ومرفوعاً على شكل أبراج أو أهرام فوق الرأس ؛ وكان من غير الممكن أن تستغنى السيدة الأنيقة عن الحلاق فى هذا الزمان ، فإن تقدم العمر بدا آنذاك قدراً محتوما أسوأ من الموت .

وإلى أى حد كانت الأجسام نظيفة تحت هذه اللفائف والزخارف ؟ لقد تحدث كتاب من القرن السادس عشر عنوانه « مقدمة للسيدات الشابات » عن « نساء لم يعنين قط بنظافة أجسامهن ، اللهم إلا الأجزاء التى يمكن أن تقع عليها العين . . . أما ماتحت قمصانهن الكتانية فقد بقى قذراً »[٧٦] . وثمة مثل ساخر يقول بأن العاهرات هن الوحيدات اللائى غسلن أكثر من وجوههن وأيديهن[٧٧] . وربما ازدادت النظافة بازدياد الفسق والفجور . فقد كشفت النساء من أجسامهن عن أجزاء أكثر من ذى قبل ، وجعلنها نهباً لأنظار الكثير من الناس . ومن ثم اتسع نطاق النظافة ؛ وأصبحت آنذاك كثرة الاستحمام ، مع تفضيل الماء المعطر ، وخاصة فى فرنسا ، جزءاً من العادات الطيبة ؛ وقل عدد الحمامات العامة بتضاعف عدد الحمامات الخاصة ، ولم تكن هذه عادة مزودة بالمياه الجارية ، بل اعتمد فيها على السلطانية (الكوز) والحوض . وظلت شائعـــة مستحبة فى القرن

السادس عشر ، حمامات البخار التى كانت قد جاءت إلى أوربا الغربية بعودة الصليبيين إليها فى القرن الثالث عشر .

وفى البلاد البروتستانتية حل البيت تقريبا محل الكنيسة ، كمركز العبادة والصلوات . وأدى الوالد مهمة الكاهن فى الصلوات اليومية وتلاوة الإنجيل والترانيم ، وعلمت الأم أبناءها مبادئ العقيدة الدينية . وفى الطبقات المتوسطة سارت الرفاهية جنبا إلى جنب مع التقوى والتدين . فهذا هو العصر الذى تطورت فيه المنضدة ذات الحوامل والألواح الخشبية الملتحمة بعضها ببعض إلى وحدة ذات أرجل متينة ، وتطور المقعد الخشبى والوسائد إلى كرسى مريح « منجد » وسرير منقوش ذى أربعة قوائم ، فوقه ظلة — وأصبح كل أولئك رمزا للاستقرار الأدبى واليسار المالى . وصنع الأثاث والأطباق والمدافئ وأدوات المطبخ لتحتمل بل وتحتفظ ببريقها لعدة أجيال . وحلت الأطباق المعدنية محل الأطباق الخشبية ، كما حلت الملاعق المصنوعة من القصدير أو الفضة محل تلك المصنوعة من الخشب . وكانت البيوت واسعة فسيحة لأن الأسرات كانت كبيرة ، لأن النساء كن يلدن فى كل عام تقريبا ، ولكن دون جدوى ، لأن نسبة الوفيات بين الأطفال كانت عالية ؛ وكان جون كولت أكبر اثنين وعشرين طفلا . وحين بلغ سن الثانية والثلاثين ، كان كل إخوته قد ماتوا . وكان لأنطون كوبرجر صاحب المطبعة فى نورمبرج — خمسة وعشرون طفلا ، وقد عمر هو بعــد موت اثنى عشر منهم ، وكان ديرر واحداً من ثمانية عشر طفلا ، يبدو أن ثلاثة منهم فقط بلغوا سن الرشد(٧٨) . واستكمالا للأسرة كانت هناك حيوانات منزلية مدللة كثيرة قدر كثرة عدد الأولاد تقريبا . وكانت الببغاوات قد جاءت من جزر الهند الغربية . وكانت القردة التى أحضرت من الهند أليفة أثيرة فى البيت(٧٩) . وكان هناك كثير من الكتب التى تعلم النساء والأطفال طرق العناية بالكلاب والطيور وتربيتها .

وكانت وجبات الطعام هائلة . ولم تكن الخضروات مستساغة ، بل كان الناس يزدرونها ، ثم أقبلوا عليها شيئاً فشيئاً . وشاع آنذاك أكل الكرنب والجزر والخس والراوند والبطاطس والفول والفريز . وكانت الأكلة الرئيسية فى الساعة الحادية عشرة صباحاً وتأخر العشاء إلى السابعة مساء ، وكلما سمت الطبقة تأخرت ساعة تناول العشاء . وكانت الجعة والنبيذ هما المشروبان الرئيسيان فى كل وجبات الطعام حتى الإفطار . وكان من طرق توماس مور إلى الشهرة أنه تناول الماء بديلا عنهما . وحوالى ١٥٥٠ استحضر الأسبان الشكولاته (الكاكاو) من المكسيك ، ولم يكن البن قد تقاطر بعد من بلاد العرب إلى أوربا الغربية . وفى ١٥١٢ حددت أسرة دوق نورثمبرلاند ربع جالون من الجعة لكل فرد فيها فى كل وجبة طعام حتى للأولاد فى سن الثامنة . وكان استهلاك الجعة فى كوفنترى فى القرن السادس عشر ربع جالون يومياً لكل رجل وامرأة وولد(٨٠) . وقد اشتهرت مصانع الجعة فى ميونيخ منذ القرن الرابع عشر(٨١) . وكان شرب الخمر شائعاً فى انجلترا حتى جاءت « مارى اللعينة » (مارى تيودور ١٥١٦ – ١٥٥٨) فاستهجنته . ولكنه ظل مألوفاً فى ألمانيا ، وتناول الفرنسيون الخمر فى اتزان أكثر ، لأن الجو عندهم لم يكن بارداً إلى هذا الحد .

وعلى الرغم من الفقر والظلم ، استمر الناس يتمتعون بكثير من نعم الحياة ، وحتى الفقراء أنفسهم كان لهم حدائق ، وأصبحت زهرة التيوليب هواية وطنية فى هولندة ، وكان قد أحضرها لأول مرة حوالى ١٥٥٠ بوسبك سفير الإمبراطور فى القسطنطينية . وكانت البيوت الريفية نمطاً سارا فى انجلترا وفرنسا . وظل القرويون يحتفلون بأعيادهم الموسمية فى عيد الربيع (أول مايو) ، عيد الحصاد ، عيد كل القديسين ، وغيرها كثير ، واحتفل الملوك بعيد الربيع وتوجوا أنفسهم بأكاليل

الزهور ، وكان فيما يتسـلى به سراة القوم أحياناً مهرجانات مثيرة للفقراء ، من ذلك عندما دخل هنرى الثامن ليون فى احتفال مهيب فى ١٥٤٨ ، وربما كان جمهور الشعب يشهد على مسافة معقولة ، اللوردات فى مباريات السيوف — وقد بطلت هذه الرياضة بعد موت هنرى الثانى . وأصبحت المواكب الدينية أكثر وثنية ، عند اقتراب عهد هنرى الثامن من عصر إليزابث ، وفى القارة أباحت الأخلاقيات المتساهلة للنساء العرايا أن يمثلن بعض الشخصيات التاريخية أو الأسطورية ، واعترف ديرر بأنه هو نفسه افتتن بمثل هذا العرض فى أنتورب ١٥٢١[٨٢] .

وكانت هناك الألعاب ، وقد أفرد رابليه فصلا لتسجيلها ، فعلية أو خيالية . وصور بروجل نحو مائة منها فى إحدى لوحاته . وكان فى تعذيب الدببة ومصارعة الثيران ومصارعة الديكة تسلية للجمهور ، وروضت كرة القدم ولعبة الكرات الخشبية والملاكمة والمصارعة شباب العامة ، وطردت عنهم الأرواح الشريرة ، وكان فى باريس وحدها ، للطبقة الأرستقراطية ، فيها ١٥٠٢ من الملاعب للتنس ، فى القرن السادس عشر[٨٣] . ومارست كل الطبقات الصيد ، ولعبت الميسر ولعبت بعض السيدات النرد ، ولعب بعض الأساقفة الورق بنقود[٨٤] . وتجول الممثلون المهرجون والبهلوانات واللاعبون فى الريف ، وعرضوا أفانينهم وألعابهم على اللوردات نظير جعل يتقاضونه . وفى داخل البيوت لعب الناس الورق والشطرنج والنرد وعشرات من الألعاب غيرها ، وكان الرقص أحب أنواع التسلية . ويقول رابليه « وذهب الجميع بعد العشاء إلى الأيكة ، الممتلئة بالصفصاف ، يلاحق بعضهم بعضاً ، وهناك على العشب الأخضر ، على الأنغام الشجية من المزمار وموسيقى القرب رقص الجميع برشاقة ، فكانت رياضة لطيفة سماوية يلذ للإنسان مشاهدتها[٨٥] ، وفى يوم عيد الربيع فى إنجلترا كان أهل القرية يتجمعون حول « عمود مايو »

المزين بالأزهار والأشرطة بشكل بهيج ، ورقصوا رقصاتهم الساذجة المتأثلة حيوية ، ويبدو أنهم بعد ذلك راحوا يقبلون ويعانقون بعضهم بعضاً مما يذكر بعيد فلورا إلهة الزهور عند الرومان . وكانت ألعاب عيد مايو فى عهد هنرى الثامن تشمل « الرقص العربى » الذى كان قد جاء من عرب أسبانيا عن طريق الرقصة الإسبانية « فندنجو » بالصنوج . ورقص الطلبة فى أكسفورد وكمبردج فى مرج بالغ الصخب ، إلى درجة أنه كان لا بد من أن يحرم وليم ويكهام هذا العبث بالقرب من تماثيل الكنيسة : وأقر لوثر الرقص ، واستساغ بنوع خاص « الرقصة التربيعية ، مع الانحناءات الودية والعناق والتمايل الرقيق ، بين المشتركين فى الحلبة »[٨٦] ورقص ملانكتون الوقور . وفى ليبزج فى القرن السادس عشر أقام الآباء فى المدينة بانتظام حفلات راقصة حتى يتمكن الطلبة من التعرف على « أشرف وأجمل بنات ذوى المكانة وأعضاء السناتو والمواطنين »[٨٧] . وكثيراً ما ترأس شارل السادس حفلة الرقص فى البلاط الفرنسى : واستقدمت كاترين دى مديتشى إلى فرنسا راقصات إيطاليات ، وهناك فى أخريات أيام الملكة الأم التعسة ظهرت رقصات أرستقراطية جديدة . وقال جان تابورو ، فى كتاب من أقدم الكتب عن فن من أقدم الفنون : « إن الناس كانوا يمارسون الرقص ليروا هل يتمتع الحبيبان بصحة جيدة ، وهل يناسب كل منهما الآخر ، وفى نهاية الرقص كان يسمح للشاب أن يقبل خطيبته ليستوثق من أن رائحة أنفاسها طيبة . . . . وبهذه الطريقة يصبح الرقص ضرورياً لبساس المجتمع سياسة حسنة[٨٨] ؛ وتطورت الموسيقى بفضل مصاحبة الرقص ، من الأشكال الصوتية وجوقة المنشدين إلى استخدام الآلات وتأليف الألحان ، مما جعلها فناً بارزاً ذا شأن فى عصرنا :

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ — ١٥٦٤

١ — الآلات

إن شعبية الموسيقى فى تلك القرون لتصحح وتلطف من النغمة الكئيبة الحزينة التى يميل التاريخ إلى أن يضفيها على تلك الحقبة ويقرنها بها . وإنا لنسمع الناس ، من آن لآن ، يغنون فى غمرة الثورة الدينية وما اتسمت به من إثارة ومرارة : وكتب صاحب المطبعة العاطفى اتيين دوليه « إنى لا أعبأ بشىء من ملذات الطعام والألعاب ، والحب ، ولكن الموسيقى وحدها . . . تأسرنى وتأخذ بمجامع قلبى ، وتذيبنى فى نشوتها »[1] . ومن النغمات الصافية المنبعثة من صوت إحدى الآنسات أو مزمار جيد ، إلى فن مزج الألحان المتعددة الأصوات عند ديبريه Deprés أو بالسترينا ، عوضت كل الأمم وكل الطبقات بالموسيقى عن الروح التجارية وعن اللاهوت فى ذاك العصر . ولم يغن كل فرد فحسب ، ولكن فرانسيسكو لانديبو شكا من أن كل فرد لحن وألف[2] . وبين الأغانى الشعبية البهيجة أو الحزينة فى القرية إلى القداسات الكبيرة المهيبة فى الكنيسة ، ظهرت مئات الأشكال الموسيقية التى استخدمت إيقاعاتها فى الرقص والحفلات والولائم والمغازلات والبلاط والمواكب والمهرجانات والصلوات . لقد غنى العالم بأسره .

وكان يواكب تجار أنتورب كل يوم إلى السوق المالية فرقة موسيقية ، ودرس الملوك الموسيقى ، لا باعتبارها امتيازاً لطيفاً أو ميكانيكياً ، بل لأنها

سمة المدنية ومنبع من منابعها . وتحمس ألفونسو العاشر ملك أسبانيا وثابر على جمع الأغانى للسيدة العذراء ، وتودد جيمس الرابع ملك اسكتلنده إلى مارجريت تيودور بموترة المفاتيح (آلة موسيقية تعتبر الأصل الذى تطور عنه البيانو Clavichord) والمزهر (العود) . واصطحب شارل الثامن ملك فرنسا معه فرقة المنشدين الملكية فى حملاته على إيطاليا . وغنى شارل الثانى عشر بأعلى صوته مع فرقة المنشدين فى البلاط ؛ وألف ليو العاشر بعض الأغانى الفرنسية[٣] . أما هنرى الثامن وفرانسوا الأول فقد تودد كل منهما إلى الآخر وتحداه باستخدام فرق المنشدين المتنافسة فى ساحة Cloth of Gold . ووصف لويس ميلان البرتغال فى ١٥٤٠ بأنها « بحر حقيقى من الموسيقى »[٤] . وكان لبلاط ماتياس كورفينوس فى بودا فرقة منشدين قدروا أنها تعادل فرقة البابا ، وكان فى كراكاو على عهد سجسمند الثانى مدرسة عظيمة للموسيقى ، وكانت ألمانيا تعج بالغناء عندما كان لوثر شاباً ؛ كتب الإسكندر أجريكولا ١٤٨٤ يقول : « إن عندنا هنا فى هيدلبرج مغنين يرأسهم رجل يستطيع أن يلحن لثمانية أصوات أو اثنى عشر صوتاً »[٥] . وفى ماينز ونورمبرج وأجزبورج وغيرها من المدن ظل « راعى الشعر والموسيقى » يزين الأغانى الشعبية والقطع الإنجيلية بأبهة المتحذلقين وزخارف فن مزج الألحان ، وربما كانت الأغانى الشعبية الألمانية أفضل مثيلاتها فى أوربا . وكانت الموسيقى فى كل مكان مهماز التقى وشرك الحب .

وعلى الرغم من أن كل الموسيقى تقريباً كانت فى هذا العصر صوتية ، فإن الآلات المصاحبة كانت متنوعة قدر تنوعها فى الفرق الموسيقية الحديثة . وكانت هناك آلات وترية مثل الشنطير (آلة موسيقية قديمة تشبه القانون) ، والقيثار ، والقانون ، والشوم (آلة موسيقية خشبية قديمة) ، والعود ، والفيول (وهو نوع من الكمان) . ثم آلات النفخ مثل الناى ، والمزمار ،

والزمخر (مزمار ذو أنبوبة خشبية مز دوجةوفم معدنى ملتو) ، والبوق ، والمترددة (الترومبون) والبوق (شكل قديم آخر) ومزمار القرب ، ثم آلات النقر مثل الطبل والجرس ، والمصفقة والمخشخشة والصنوج بأنواعها ، ثم الآلات ذات المفاتيح مثل الأرغن ، وموترة المفاتيح ، والبيان المنيشارى ، والسبينت (تشبه البيان) ، والعذراوية (شبيهة ببيان صغير ليس له قوائم) ، وكانت هناك أنواع أخرى كثيرة ، وكان للعديد منها متنوعات فاتنة شتى اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وكان فى كل بيت مثقف واحدة أو أكثر من الآلات الموسيقية . وكان فى بعض البيوت خزائن خاصة لحفظها : وكثيراً ما كانت هذه الآلات تحفاً فنية منقوشة نقشاً محببا يرضى الخيال والذوق ، تتوارثها الأسرات جيلا بعد جيل بوصفها ذخائر وتذكارات ثمينة ؛ وكانت بعض الأراغين مصنوعة بشكل بارع محكم ، قدر البراعة والإحكام فى واجهات الكاتدرائيات القوطية . وخلد ذكر الرجال الذين صنعوا الأراغين لبعض الأسرات الحاكمة الألمانية فى نورمبرج لمدة قرن من الزمان ؛ وكان الأرغن هو الآلة الموسيقية الرئيسية المستخدمة فى الكنيسة ، وإن لم تكن الوحيدة ، بل كان هناك أيضـــا المزمار ، وموسيقى القرب والطبول والمترددة (الترومبون) ، بل حتى الطبلة النقارية ، وكلها تدعو بأدواتها المتنافرة إلى الصلاة والعبادة .

وكان العود هو الآلة المفضلة لمصاحبة مغن واحد ، وهو من أصل آسيوى ، شأنه فى ذلك شأن كل الآلات الوترية ، جاء مع المغاربة إلى أسبانيا ، وهناك ، مثل الفهيولا ، (نوع من الكمان) ارتفع شأنه حتى صار الآلة الوحيدة المستعملة ، التى ألفت من أجلها أقدم موسيقى آلية خالصة معروفة . وصنع جسمه عادة من الخشب والعاج ، على شكل الكمثرى ، وزود تجويفه بثقوب على شكل وردة ، وكان له ستة ،

وفى بعض الأحيان اثنا عشر زوجا من الأوتار تنقر بواسطة الأصابع ، وكان عنقه مقسما بعتبات من النحاس إلى سلم مدرج ، وملواه منحرف إلى الخلف من العنق . وإذا أمسكت غادة حسناء بالعود فى حضنها وداعبت أوتاره بأناملها وأضافت صوتها إلى أنغامه لاستطاع كيوبيد أن يوفر سهماً . ومهما يكن من أمر فقد كان من العسير الاحتفاظ فى العود بدرجة النغم الصحيحة لأن استمرار شد الأوتار يسبب التواءها وتشوهها . وقال أحد الظرفاء إن عازف عود عجوز بلغ من العمر ثمانين عاماً ، قضى منها ستين عاماً فى ضبط النغم فى عوده(٦) .

واختلف الكمان (الفيول) عن العود فى امتداد أوتاره على مشط ، وأن العزف عليه بواسطة قوس ، ولكن القاعدة الأساسية واحدة فيهما — ذلك أن ذبذبات الشد ترتطم بالأوتار فوق صندوق ذى ثقوب لتعميق الصوت . وصنعت الفيول على ثلاثة أحجام : الكبير وهو باس فيولا داجامبا » ، وكانوا يمسكون به بين الأرجل مثل البديل الحديث له — الفيولونسيل Violoncello ، والصغير وهو الفيول العالى النغم (فيولا دابراكسيو) ، ويمسكون به على الذراع . وأخيراً الفيول المثلث ، وفى القرن السادس عشر تطور النوع الثانى (فيولادابراكسيو) إلى الكمان . وفى القرن الثامن عشر يطل استعمال الفيولا .

وكان الاختراع الأوربى الوحيد فى الآلات الموسيقية هو لوحة المفاتيح التى تطرق بواسطتها الأوتار بطريق غير مباشر ، بدلا من نقرها أو حنيها مباشرة ، وأقدم الأشكال المعروفة ، وهى موترة المفاتيح Clavichord ظهرت لأول مرة فى القرن الثانى عشر ، وقد عمرت حتى عدلها جوهان سباستيان باخ : وأقدم نموذج باق لها (١٥٣٧) محفوظ فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك ، وصنع فى القرن الخامس عشر نوع أقوى هو

البيان القيثارى harpsichord ، وقد مكن من تعديل الأنغام باختلافات الضغط ، وأضيف فى بعض الأحيان لوحة ثانية للمفاتيح ، لتوسيع سلم النغم ؛ وساعدت الوقفات والتفرقات على إبداع معجزات الصوت ، وكان الأسبينت Spinet والعذراوية Virginal — والأول إيطالى والثانية شبه إنجليزية شكلين مختلفين من البيان القيثارى ، وكانت الآلات ذات المفاتيح مثل الفيول والعود ، تحظى بأعظم التقدير لجمالها ونغماتها معاً . وكانت تشكل عنصراً جميلا من عناصر البهجة والزينة فى بيوت الأغنياء .

ولما تقدمت الآلات من حيث مدى النغم ونوعيته ، ومن حيث تعقد عملها ، تطلب النجاح فى العزف عليها المزيد من المران والمهارة ، وازداد عدد الجمهور فى الحفلات التى يكون العزف فيها على آلة واحدة أو أكثر ، دون أن يكون فيها غناء ، وبرز عازفون على الأرغن والعود . وارتحل كونراد بومان Paumann (المتوفى ١٤٧٣) عازف الأرغن الضرير فى نورمبرج من بلاط إلى بلاط ، وأقام حفلات موسيقية ، استحق لبراعته وامتيازه فيها لقب فارس . وشجعت أمثال هذه التطورات على تأليف الموسيقى من أجل الآلات وحدها . ومن الواضح حتى القرن الخامس عشر ، أن كل الموسيقى الآلية تقريباً كان قد قصد بها أن تصاحب الغناء أو الرقص ، ولكن هناك فى هذا القرن عدة لوحات تعرض بعض الموسيقيين يعزفون دون أن يرى فيها أثر لغناء أو رقص ، وأقدم ما بقى من الموسيقى للآلات وحدها هى « جاميساندى Gamisandi » (١٤٥٢) ، وهى لكنراد بومان ، وقد ألفت فى الأصل لتوجيه العزف على الأرغن ، ولكنها شملت أيضاً عدداً من القطع للعزف المنفرد ، وأنقص تطبيق أوتافيانو دى بتروسكى للحروف المعدنية المتحركة فى طبع الموسيقى (١٥٠١) تكاليف نشر تآليف الموسيقى الآلية وغيرها ، واقتصرت الموسيقى الموضوعة للرقص على عروض مستقلة ، ومن ثم كان تأثير أشكال الرقصات على الموسيقى الآلية . وأدت ألحان « الحركات »

المؤلفة لسلسلة متعاقبة من الرقصات إلى ظهور السيمفونية والموسيقى الرباعية ، التى احتفظت أجزاؤها أحياناً بأسماء الرقصات ، وفضل العود والفيول والأرغن والبيان القيثارى للعزف المنفرد أو عزف الأوركستر ، وتمتع ألبرتو داريبا فى بلاط فرنسوا الأول وهنرى الثانى بشهرة عظيمة كعازف على العود ، إلى حد أنه عندما توفى أنشد شعراء فرنسا التراتيم الحزينة على قبره .

٢ ــ سيطرة الموسيقى الفلمنكية

١٤٣٠ — ١٥٩٠

كانت الأغانى والرقصات الشعبية هى المعين الذى لا ينضب الذى اشتقت منه أشكال الموسيقى غير الكنسية أصولها وصيغها وموضوعاتها الرئيسية ، حتى القداسات ، ربما اشتقت منها بعض الأغانى القصيرة مثل « وداعاً يا أحبائى » ، وتنوعت الأغانى الفرنسية من الأغانى التوقيعية للمغنين فى الشوارع ، وأغانى الشعراء الغنائيين البسيطة (التروبادور) إلى أغانى غليوم دى ماشو وجوسكوين دبريه المعقدة المتعددة الأصوات .

وكان ماشو (١٣٠٠ — ١٣٧٧) سيد ذلك « الفن الجديد » الذى كان قد بسطه وشرحه فيليب دى فيترى فى ١٣٢٥ — وهو عبارة عن موسيقى استخدمت الإيقاع الثنائى بالإضافة إلى الإيقاع الثلاثى ، وهو ما أقره « الفن القديم » والكنيسة . وكان ماشو شاعراً وعالماً وموسيقياً وكاهناً فى كاتدرائية ريمس ، وربما كان كذلك رجلا مماوءاً حماسة وغيرة ، لأنه كتب بعض قصائد الحب الغنائية التى لم تهدأ حرارتها بعد . وبرع فى اثنى عشر شكلا موسيقياً من الأغانى الراقصة والعاطفية ، والقصائد الغنائية ذات اللازمة المتكررة والقصائد الغزلية ، والقصائد الدينية ، وموسيقى القداس ، ويعزى إليه أقدم قداس متعدد الأصوات ــ لحنه رجل واحد . وأسهم ، ولو أنه من

رجال الكنيسة ، فى حركة صبغ الموسيقى المتعددة الأصوات بالصبغة العلمانية وإخراجها من حيز إيقاع القصائد الدينية والقداس إلى الإيقاع الأكثر انطلاقاً ومرونة فى موسيقى الأغانى العلمانية .

وفى تلك القرون كان الإنجليز موسيقيين ، ولكنهم لم ينافسوا الإيطاليين فى اتساق الأصوات فى اللحن (ومن ذا الذى ينافسهم ؟) ، ولا الفلمنكيين فى تعدد الأصوات ، ولكن أغانيهم ، بين الحين والحين ، بلغت من العذرية والرقة حداً لا يضارعهم فيه إلا أعمق الأغانى الفرنسية . وقوبل المغنون الإنجليز فى مجالس كنستانس بالتهليل والهتاف ، وفى هذا الجيل ألف هنرى الخامس بطل أجنكورت ، قداساً لا يزال يحتفظ بعظمته وقداسته . وكانت المقطوعات التى ألفها جون دنستابل (١٣٧٠ — ١٤٥٣) تعزف فى كل البقاع من اسكتلانده إلى رومه . ولعبت دورا فى تشكيل أسلوب المدرسة الفلمنكية .

وكما كانت الفلاندر قد استهلت فن التصوير فى القرن الخامس عشر ، كذلك شهدت الموسيقى فيها عصراً من أبهى وأعظم عصورها ، فى وسط النبلاء والمواطنين الأثرياء المحبين للفنون . وكتب جوهانس فروير Johannes Verwere حوالى ١٤٩٠ يقول : « عندنا اليوم — إلى جانب العدد الكبير من مشاهير المغنين ، يظهر إلى الوجود ، عدد لا حصر له تقريباً ، من الملحنين الذين تتميز أعمالهم بعذوبة الصوت ، وما سمعت أو نظرت إلى تآليفهم إلا ابتهج قلبى[٧] » . وربما وضع المعاصرون دوفاى وأوكيجم ودبريه فى مرتبة سواء من سلم العبقرية والخير ، مع جان فان إيك وكلاو سلوتر وروجيير فان درويدن ، وهنا فى تعدد الأصوات فى المدرسة الفلمنكية ، عاشت أوربا الغربية آخر طور من أطوار الروح القوطية فى الفن : الورع الدينى الذى لطفه المرح الدنيوى والأشكال المتينة فى قاعدتها وتركيبها ،

الغضة الرقيقة فى تطويرها وزخرفتها . وحتى إيطاليا التى كانت معادية للفن القوطى ، انضمت إلى أوربا الغربية فى الاعتراف بتفوق الموسيقى الفلمنكية وسموها ، وفى الاسترشاد بالفلاندرز فى تحسين موسيقى فرق المرتلين الأسقفية ، وفرق بلاط الأمراء . وألف الإمبراطور مكسيميليان الأول ، وقد سحرته موسيقى بروكسل ، فرقة للمرتلين فى فيينا ، على نسق الفرق الفلمنكية ، وأخذ شارل الخامس موسيقيين فلمنكيين إلى أسبانيا ، وأخذ الأرشيدوق فرديناند نفرا منهم إلى النمسا ، وأخذ كريستيان الثانى مجموعة أخرى منهم إلى الدنمرك . وقال كافللى البندقى « إن منبع الموسيقى فى فى الأراضى المنخفضة »(٨) . وبهذه السيطرة الفلمنكية اجتازت الموسيقى الاحترافية الحدود الضيقة التى وضعتها القومية فى ذاك العصر .

وقاد الطريق غليوم دوفاى ، الذى ولد فى هينوت Hainaut (١٣٩٩) وتدرب كتلميذ منشد فى كاتدرائية كمبراى ، وسما بفرقتها إلى مراتب الشهرة العالمية : وكانت القداسات التى أنشدها هناك ، تنشدها كل الأوساط الموسيقية فى جميع أنحاء العـــالم المسيحى اللاتينى . وقد تبدو الألحان الباقية منها ثقيلة بطيئة فى الآذان المرهفة الإحساس بخفة الحياة الحديثة وسرعتها ، ولكنها ربما كانت صالحة فى الكاتدرائيات الضخمة وفرق المنشدين البابوية المهيبة . وهناك أغنية أكثر التئاماً مع ذوقنا ، وهى أغنية متعددة الأصوات تنساب أنغامها الحزينة انسياباً رقيقاً « ولى النهار » The Day is going to sleep وقد نتخيل فرقة بملابسها الرسمية تغنى مثل هذه الأغنية فى الأروقة القوطية فى كمبراى ، أو إيبر أو بروكسل ، أو بروجز أو غنت أو ديجون ، ونحس أن العمارة والتصوير والملابس والموسيقى وآداب السلوك فى ذاك العصر الحماسى الزاهى النابض بالحياة ، شكلت جميعها كلا متراكبا فنيا متسقا ، على حين أنها جميعها متنوعات تنتشر فيها فكرة رئيسية واحدة .

وتطورت أساليب درفاى وأذاعها فى كل أنحاء أوربا أعظم معلمى الموسيقى أثراً ، وربما فى أى عصر من العصور ، جوهانس أوكيجم ، الذى ولد فى فلاندرز (١٤٣٠) ، وقضى معظم سنى حياته يقدم الموسيقى ويعلمها فى بلاط فرنسا . وكان يهيم شغفاً بمقطوعة اسمها « canon » وهى شكل من أشكال الفوجة ، يشكل فيه الصوت (المغنى) الأول الكلمات واللحن ، ويتلوه بعض الفواصل ، ثم يكرره الصوت الثانى ، ويتلوه فاصل ، ثم الصوت الثالث وهكذا ، فى طباق مناسب ، تحدى تعقيده الجهد المغنين ، وسحر الملحنين ، وقد هرع إليه هؤلاء وأولئك من كل أقطار العالم الكاثوليكى لينهلوا من فيض مهارته الفنية وينقلوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وكتب مؤرخ قديم : « لقد نقل عن طريق تلاميذه إلى جميع الأقطار فن تعدد الأصوات الطباقى وشكل الفوجه سالف الذكر Canon وينبغى أن يعتبر أوكيجم — لأن ذلك يمكن إثباته بالتسلسل « الأسلوبى » — يعتبر مؤسس كل المدارس ابتداء من مدرسته إلى مدارس العصر الحالى(٩) . ولكن منذ كتب هذا فى ١٨٣٣ ، فإن أوكيجم لا يعتبر مسئولا عن موسيقى القرن العشرين ، وعند وفاته ١٤٩٥ ألف موسيقيو أوربا مقطوعات حزينة تخليداً لذكراه ، وكتب له إرزم مرثية . إن الأسماء ، حتى أسماء الخالدين ، مكتوبة على الماء :

وأصبح تلاميذ أوكيجم زعماء الموسيقى فى الجيل التالى ، وقد قدم جوسكين دبريه من هينوت إلى باريس ، وتتلمذ لعدة سنوات على أوكيجم ، ثم اشتغل « رئيس فرقة الكنيسة » فى فلورنسه وميلان وفيرارا ، وكتب للدوق أركول الأول مقطوعة اسمها Miserere سرعان ما دوى صيتها فى كل أوربا الغربية ، وبعد سنوات ست قضاها فى فرقة كنيسة سستين عاد إلى باريس (١٤٩٤) ليعمل رئيساً لفرقة لويس الثانى عشر . ومن أنبل أعماله « الحزن على جوهانس أوكيجم » وهى رثاء لأستاذه المتوفى ، وقد حذا

حذوه لبعض الوقت فى تلحين القداسات والقصائد الدينية فى شكل الفوجه التى أسلفنا ذكرها ، وهو يجمع الصوت على الصوت ، فيما يشبه المسائل الرياضية من حيث التتابع والاتساق . فلما اكتملت مهارته ، واستتبت له السيادة فى « فن الموسيقى » بلا منازع ، ترك التقنية ، وكتب قصائد وتراتيل دينية وأغنيات علمانية فى طراز من الألحان أكثر بساطة ، أعقبت فيه الموسيقى الكلمات وزينتها ، بدلاً من إرهاقها ، فى فوجه سريعة التغير ، أو بدلا من مد المقطع إلى أغنية ، ولما قضى المعلم وتلميذه نحبهما ، أصبح من العادة أن يسمى أوكيجم « دوناتللو » ، وأن يسمى دبريه « ميكلأنجو » الفن الموسيقى .

ورعى البلاط الفرنسى الموسيقى وشجعها باعتبارها زهرة الثروة والقوة ، ولقد صورت سجادة قديمة يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ١٥٠٠ ، وهى الآن محفوظة فى متحف جوباين فى باريس ، أربعا من السيدات وثلاثة من الشبان وراهباً أصلع ، مجتمعين فى بستان حول نافورة ، وكان أحد الصبية يعزف على العود ، وإحدى البنات على القيثار ، وكانت سيدة وقورة تعزف على أرغن سهل الحمل ، ولقد قصد الشعراء الفرنسيون أن تكون قصائدهم صالحة للغناء . وخصصت « أكاديمية القصر » لإحكام الاتحاد بين الموسيقى والشعر ، وحتى فى عصرنا هذا ، لا يبدو الواحد منهما كاملا بدون الآخر ، وتفوق كليمنت جانكين — وهو أحد تلاميذ دبريه — فى الأغانى الوصفية . ولا تزال أغنيته « أغنية القُبَّرة » (١٥٢١) تصدح فوق عدة قارات ؟

وعكست الموسيقى الأسبانية تقوى الشعب وبسالته ، لقد تراوح هذا الفن — بعد تهجينه وإخصابه بما دخل عليه من مؤثرات عربية وإيطالية وبروفانسية وفرنسية وفلمنكية — تراوح بين القصائد الأندلسية الحزينة التى ينشدها صوت واحد (المونودية) ، والقـداسات العظيمة المتعددة الأصوات بالأسلوب الفلمنكى ؟ وسما واحد من أعظم ملحنى القرن السادس عشر ،

هو كريستوبال مورال بفن تعدد الأصوات إلى درجة عالية ، ونقل فنه إلى تلميذه الأكثر شهرة توماس لويس دى فكتوريا . وساركل في اتجاه مضاد ، فأنتج التراث العربي الألحان الصالحة للعود ، ولحن لويس دى ميلان وميجول دى فونللانا Miguel de Fuenllana ، للكمان ، وعزف عليها أغنيات زاحمت الأغانى الألمانية فى مداها وقوتها .

واستمر الموسيقيون الفلمنكيون يقتحمون إيطاليا حتى ظهر بالسترينا ؛ واستقدم لورنزو دى مديتشى إلى فلورنسه هنريخ إيزاك بعد أن استوعب فن الطباق الموسيقى فى الفلاندرز ، ليعلم أبناء العظماء ، ومكث هناك أربع سنوات ، وألف موسيقى لأغانى لورنزو . ولما أقض مضجعه الغزو الفرنسى لإيطاليا ، انتقل إلى خدمة مكسيمليان الأول فى أنسبروك ، حيث ساهم فى تشكيل الأغنية الألمانية ، وعاد إلى إيطاليا فى عام ١٥٠٢ ، وخصص له الإمبراطور ليو العاشر تلميذه السابق معاشاً ، ووضعت قداساته وقصائده الدينية وأغانيه فى مرتبة أعظم موسيقى العصر ، وعلى الأخص ثمان وخمسين مقطوعة ذات أربعة أجزاء ، لاحتفالات القداس طوال السنة الدينية .

وسما أورلاندو دى لاسو بالمدرسة الفلمنكية إلى الذروة ، وضرب بتوفيقه فى مهنته وحياته أروع الأمثال ، لاتساع مجال الموسيقيين فى عصر النهضة وارتفاع مستواهم الاجتماعى ؛ وعندما كان تلميذاً فى فرقة المنشدين فى موطنه هينوت سحر سامعيه ، إلى حد أن خطفه مرتين أولئك الذين تمنوا أن يستفيدوا من صوته ، وأخيراً ، وهو فى سن الخامسة عشرة (١٥٤٥ ؟) ؛ سمح أبواه لفرديناند جونزاجا أن يصحبه معه إلى إيطاليا ؛ وفى سن الرابعة والعشرين أصبح رئيس فرقة المنشدين فى كنيسة سانت جون لاتيران فى رومه . وفى ١٥٥٥ استقر به المقام فى أنتورب ، ونشر « أول كتاب فى القصائد الغزلية الإيطالية » ، وهى قصائد غنائية علمانية أضفى عليها كل

زخارف فن مزج الألحان الفلمنكى . وفى نفس العام أصدر مجموعة من أغان من أصل نابوليتانى (من مدينة نابلى) ومن الأغانى الفرنسية ، وأربع قصائد دينية قصيرة ، ولقد عكست هذه المجموعة التقلب المتسم بالحكمة فى حياة دى لاسو ، بين المتعة الدنيوية والقوة الشجية ، وإنا لنجد لمحة عن بيئته فى أنتورب فى إهدائه إحدى قصائده إلى الكاردينال بول ، وأخرى إلى الكاردينال جرانفيل وزير فيليب الثانى فى الأراضى المنخفضة . وربما كان جرانفيل هو الذى هيأ للملحن الشاب العمل فى إدارة فرقة المنشدين للدوق فى ميونخ (١٥٥٦) . وأحب أورلاندو بافاريا قدر حبه لإيطاليا ، واتخذ له زوجة من أحد البلدين ، كما اتخذ اسمه من البلد الآخر ، وعمل لدى أدواق بافاريا حتى الممات .

وضاعف أورلاندو السعيد ، موزار القرن السادس عشر ، الألحان الستمائة والستة والعشرين التى ألفها نظيره ؛ ودرس سلم النغم فى كل الأشكال الموسيقية السائدة ، وأحرز فى كل منها شهرة فائقة فى كل أنحاء أوربا ؛ وبدا أنه على نفس القدر من المعرفة والبراعة فى غزليات الحب النقى ، وأغانى الحب الطائش ، وقداسات الورع الصوفى . وعين فى ١٥٦٣ رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة ، وألف آنذاك لألبرت الخامس لحناً موسيقياً لمزامير التوبة السبعة ، وأعجب الدوق بهذه الموسيقى حتى أنه كلف الفنانين بتسجيلها على الورق « البرشمان » وزخرفتها بالمنمنمات ، وتجليدها بجلد الماعز الأحمر الفاخر فى مجلدين من القطع الكبير ، محفوظين الآن ضمن أثمن مقتنيات مكتبة الدولة فى مدينة ميونيخ المحبة للفنون .

واجتذبت أوربا كلها النجم الجديد ؛ وعندما زار دى لاسو باريس (١٥٧١) عرض عليه شارل التاسع ١٢٠٠ جنيه سنوياً (٣٠,٠٠٠ دولار ؟) سنوياً ، ليبقى عنده ، فرفض ، ولكنه أهدى شارل وكاترين دى مديتشى

كتاباً في الأغاني الفرنسية ، يقول عنه برانتوم إنه من أعذب ما سمعت باريس ، وقد روت إحدى الأغنيات مناقب العاصمة الفرنسية في حبها للعدالة والسلام — وكان هذا قبل مذبحة سانت برثلميو بعام واحد . ولما عاد دى لاسو إلى ميونيخ أهدى إلى آل « uggers » مجموعة من القصائد اللاتينية القصيرة والغزليات الإيطالية والأغاني الألمانية والأغاني الفرنسية ، إن هذا الملحن لم يكن صعلوكاً رومانتيكياً ، بل كان خبيراً بأساليب الحياة في الدنيا . وفي عام ١٥٧٤ سافر إلى رومه على نفقة الدوق ألبرت ، وأهدى جريجورى الثالث عشر مجلداً من القداسات ، وتسلم منه « وسام المهماز الذهبي » بل إن الله خص أعمال دى لاسو بأعظم التقدير ، ذلك أنه في يوم عيد الجسد (١٥٨٤) هبت عاصفة هوجاء هددت بإلغاء الموكب الديني الذي اعتاد اجتياز شوارع ميونيخ ، وعندما عزفت فرقة المنشدين مقطوعة أورلاندو « تأمل وانظر كيف أن الله كريم » ، انقطع المطر وأشرقت الشمس . وفي مثل هذا اليوم ، فيما بعد ، كانت تلك المقطوعة تعزف ، لتضمن سماحة السموات .

وفي ١٥٨٥ عندما كبرت سن دى لاسو ، وثاب إلى التوبة ، نشر « كتابه الخامس في الغزليات » الذي طبق فيه الشكل على الموضـــوعات الروحية ، وهي من أعظم ألحانه إثارة للمشاعر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، انتاب عقله وغاب عنه وعيه ، فلم يعد يعرف زوجته . وكاد لا يتحدث في شيء إلا الموت ، ويوم الحساب الأخير ، وزيادة الراتب : وحظى بهذه الزيادة ، ومات (١٥٩٤) فائزاً ظافراً مخبولا :

٣ — الموسيقى والإصلاح الديني

كان الإصلاح الديني ثورة في الموسيقى ، قدر ما كان ثورة في اللاهوت والطقوس وعلم الأخلاق والفن : لقد كانت الطقوس الكاثوليكية

أرستقراطية ، أو شعائر فخمة متأصلة فى تقاليد منيعة لا تنتهك حرمتها ، متعالية تعالياً صريحاً عن الشعب ، فى اللغة والملابس والرموز والموسيقى ؟ وبهذه الروح ، عرّف رجال الدين أنفسهم بأنهم الكنيسة ، وذهبوا إلى أن الناس قطيع يساق إلى حسن الخلق والخلاص بالخرافات والأساطير والعظات والمسرحيات وكل الفنون . وبهذه الروح كان القداس سراً خفياً مقصوراً فهمه على فئة قليلة ، واتصالا خارقاً بين الكاهن والرب . وكان الكاهن يرتل القداس ، ومعه فرقة المنشدين من الذكور ، منعزلة عن المصلين . ولكن فى الإصلاح الدينى فرضت الطبقات الوسطى وجودها وحقوقها ، وأصبح الشعب هو الكنيسة ، ورجال الدين ممثليه ، والقداس باللغة الوطنية ، وكان لا بد أن تكون الموسيقى واضحة مفهومة ، يمكن أن تقوم فيها جماعة المصلين بدور فعال ، أصبح فى آخر الأمر قيادياً ؟

وأحب لوثر الموسيقى ، وقدر فن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى ، وفى ١٥٣٨ كتب متحمساً يقول :

« إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها يبدأ الإنسان يدرك فى عجب ودهشة حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال ، فى موسيقاه الرائعة ، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط ، ويغنى حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى ، تثب وتنطلق هنا وهناك ، تزين الدور البسيط ، وكأنها رقصة تربيعية فى السماء إن هذا الذى لا يجد فى هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله ، ليس إلا غبياً حقيراً لا يستحق أن يعتبر إنساناً »(١٠) .

وكان لوثر فى نفس الوقت تواقاً إلى موسيقى دينية يمكن أن تحرك مشاعر الناس ، بالتحام الإيمان بالغناء عن طريق الموسيقى : وفى ١٥٢٤ تعاون مع جوهان والتر ، رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة لدى الأمير

فردريك الحكيم لإنتاج أولى التراتيل البروتستانتية التى وسعت وأدخل عليها تحسينات كثيرة فى الطبعات المتعددة . وكان جزء من كلماتها مأخوذا من الترانيم الكاثوليكية ، وجزء آخر مقتبساً من أغانى رئيس فرقة المنشدين ، وجزء ثالث مكتوباً بقلم لوثر الشاعرى تقريبا ، وجزء آخر مأخوذاً من الأغانى الشعبية بعد نقلها إلى موضوعات دينية . ويقول لوثر « ليس للشيطان حق فى كل الألحان الجيدة »[11] : وألف لوثر بعض الموسيقى ، وألف والتر جزءاً آخر ، واقتبس قسم ثالث من المقطوعات الكاثوليكية المعروفة آنذاك ؛ واستمرت الكنائس اللوثرية لمدة قرن تقريبا ، تدخل القداسات المتعددة الأصوات فى طقوسها ، ولكن حلت اللغة الوطنية محل اللاتينية شيئا فشيئا ، ونقص دور القداس ، وزاد غناء المصلين ، وانتقلت أغانى فرقة المنشدين من الطباق إلى شكل إيقاعى متناسق أيسر ، سعت فيه الموسيقى إلى متابعة الكلمات وتفسيرها ، ومن موسيقى فرقة المنشدين التى ألفها لوثر ومعاونوه لمصاحبة تلاوة قصص الإنجيل ، جاءت الموسيقى العظيمة فى الكنيسة البروتستانتية فى القرن الثامن عشر ، وبلغت الذروة فى موشحات هاندل وقداساته وموشحات جوهان سباستيان باخ وتراتيله .

ولم يكن كل مؤسسى البروتستانتية يحبون الموسيقى مثلما أحبها لوثر ، فإن زونجلى ، ولو أنه هو نفسه موسيقار ، استبعد الموسيقى كلية من الصلوات الدينية ، وحرم كلفن كل الموسيقى الكنسية ، فيما عدا غناء المصلين المتساوى النغمات . ولكنه أباح الغناء الطباقى المتعدد الأصوات فى البيت ، فاستمد أتباعه الهيجونوت فى فرنسا جزءاً من قوتهم وشجاعتهم من إنشاد المزامير والترانيم على أنغام الموسيقى بأصوات متعددة . ولما ترجم كليمنت مارو المزامير إلى اللغة الفرنسية شعراً ، أعجب بها كلفن إلى حد أنه تجاوز عن المقطوعات الطباقية التى وضعها كلود جوديمل ، وقد أضفت حقيقة أن هذا الملحن البروتستانتى لقى حتفه فى مذبحة سانت برثلميو ،

مزيداً من القدسية على كتاب مزاميره المقدس . وبعد مارو بعام ، لم يخف أسقف كاثوليكى حسده للدور الذى كانت قد لعبته هذه الترجمات والمقطوعات فى الإصلاح الدينى الفرنسى : « وكان حفظ المزامير عن ظهر قلب ، لدى الهيجونوت سمة الطائفة التى ينتمون إليها ، وفى المدن التى يكثر عديدهم فيها ، يمكن أن تسمع النغمات المنبعثة من أفواه للعمال ، وفى القرى من أفواه الكادحين الذين يفلحون الأرض[١٢] » . لقد ميزت الصبغة الديمقراطية التى صبغت بها الموسيقى الدينية البلاد التى عم فيها الإصلاح الدينى حيث سترت هذه الصبغة الديموقراطية قتام العقيدة ببهجة الموسيقى التى تسرى عن النفس .

٤ ـ بالسترينا : ١٥٢٦ ـ ١٥٩٤

ظلت الكنيسة الكاثوليكية الراعى الرئيسى للموسيقى مثل غيرها من الفنون ، وتقدمت الموسيقى الكاثوليكية ، شمال جبال الألب ، على الأسس التى وضعتها المدرسة الفلمنكية ، وثبت هذا التقليد إيزاك فى النمسا ودى لاسو فى بافاريا . ووجه لوثر فى ١٥٥٠ خطاباً من أكرم خطاباته إلى لودفيج سنفل يحييه فيه ويطرى موسيقاه التى كان يؤلفها فى ميونيخ ، ويثنى على الأدواق الكاثوليك هناك لأنهم « يرعون الموسيقى ويجاونها »[١٣] .

وكان فريق المنشدين بكنيسة سستين هو النموذج الذى احتذاه الملوك والأمراء فى تأسيس كنائسهم طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وحتى بين البروتستانت كان أروع شكل للتأليف الموسيقى هو القداس . وكانت فرقة المنشدين البابوية هى التى تقوم بالقداس فى أروع أشكاله . وكان أعظم ما يطمع فيه أى مغن هو أن يلتحق بهذه الفرقة ، التى كانت لذلك قادرة على أن تضم إليها أحسن أصوات الذكور فى أوربا الغربية .

وكان الكاستراتى ، الذين كانوا يسمون آنذاك « الخصيان » — أول من أدخلوا إلى فرقة سستين ، حوالى ١٥٥٠ ، وسرعان ما ظهر بعد ذلك غيرهم فى البلاط البافارى ، وكانوا يخصون الأولاد بموافقتهم ، وكانوا يغرونهم بأن أصواتهم العذبة الندية ستكون أكبر نعمة وتعويض لهم عن الإنجاب والإخصاب — تلك ميزة وحشية كانت فى متناول كل من يطلبها بصفة عامة .

وكانت الكنيسة — مثل أى نظام قديم معقد ، لا بد أن يخسر كثيراً بأية بدعة غير موفقة — كانت تتسم بروح المحافظة فى الطقوس والشعائر ، حتى أكثر منها فيما يتعلق بالعقيدة . أما المؤلفون فكانوا على النقيض من ذلك ، يضيقون ذرعاً بالأساليب القديمة ، كما كانوا كذلك فى كل العصور ، وكان التجريب فى نظرهم هو حياة فنهم . وكافحت الكنيسة فى كل هذه القرون ، لمنع التكلف فى الفنون الجديدة ، ورقة الطباق الفلمنكى ، من أن يضعفا وقار القداس الكبير وعظمته . وفى سنة ١٣٢٢ أصدر البابا جون الثانى والعشرين قراراً صارماً ضد البدع الموسيقية والزخرفة ، وأمر بأن تلتزم موسيقى القداس بالأغنية البسيطة الوحيدة ، أى الأغنية الجريجورية ، كأساس لها ، ولا تبيح إلا التناغم الذى يمكن أن يكون مفهوماً للمصلين ، ويعمق التقوى فى نفوسهم أكثر مما يلهيهم عنها . وظل الأمر مطاعاً لمدة قرن من الزمان ، ثم جاءت المراوغة فى تنفيذه من أن بعض المنشدين كانوا ينشدون الجهير (الصوت العميق الخفيض) أعلى من المكتوب بجواب واحد . وأصبح هذا الجهير الزائف هو الخدعة المفضلة فى فرنسا . وظهرت التعقيدات من جديد فى موسيقى القداس ، وبدأ إنشاد خمسة أو ستة أو ثمانية أجزاء بالفوجه والطباق ، جرت فيها كلمات الطقوس الدينية الواحدة عقب الأخرى فى فوضى احترافية ، أو غرقت فى زخارف موسيقية وضعها المغنون وفق أهوائهم . وأدى تكييف أنغام شعبية للقداس ، حتى إلى إقحام كلمات بذيئة على النص المقدس . واتفق أن عرفت بعض القداسات بمصادرها العلمانية مثل قداس

« وداعاً يا أحبائى » أو قداس « فى ظل الشجرة »(١٤) : واستاء إرزم المتحرر نفسه من زيف « فن القداس » حتى أنه احتج على ذلك فى ملاحظة دونها فى طبعته التى نشرها « للعهد الجديد » :

إن الموسيقى الكنسية الحديثة ألفت بحيث لا يستطيع أحد من جماعة المصلين أن يتبين كلمة واحدة متميزة . إن المنشدين أنفسهم لا يفهمون ما ينشدون . . . لم يكن ثمة موسيقى (كنسية) أيام القديس بولص ، حيث كانت الكلمات تنطق بوضوح : إن الكلمات اليوم لا تعنى شيئاً . إن الناس يذرون أعمالهم ويقصدون إلى الكنيسة ليستمعوا إلى جلبة وضجيج لم يكن لهم بهما عهد فى المسارح اليونانية والرومانية . ينبغى أن تسلك النقود لشراء الأراغين وتدريب الأولاد على إطلاق الصيحات والصرخات(١٥) :

واتفقت جماعة الإصلاح فى الكنيسة مع إرزم فى هذه المسألة : فمنع جيبرتى أسقف فيرونا استعمال أغانى الحب أو الألحان الشعبية فى أبرشيته ، كما حرم مورون أسقف مودينا كل الموسيقى « المصورة » أى المزخرفة بكل تفاصيل الإثارات والأفكار الرئيسية . وحث المصلحون الكاثوليك فى مجلس ترنت على استبعاد كل الموسيقى المتعددة الأصوات من كل حفلات الكنيسة ، وعلى العودة إلى الإنشاد الجريجورى ذى الصوت الواحد ، ولكن ربما كان من الممكن أن يساعد ميل البابا بيوس الرابع إلى قداسات بالسترينا ، على إنقاذ « تعدد الأصوات » فى الكنيسة الكاثوليكية .

لقد اشتق جيوفنى لويجى بالسترينا اسمه من اسم مدينة صغيرة فى الريف الرومانى كانت قد دخلت التاريخ فى العصور القديمة تحت اسم « برانيستى » ؛ وإنا لنجده فى ١٥٣٧ ، وهو إذ ذاك فى الحادية عشرة من عمره ، بين تلاميذ فرقة المنشدين فى سانتا ماريا مجيورى فى رومه ، ولم يكن قد بلغ

الحادية والعشرين حين عين رئيساً للفرقة فى كاتدرائية مسقط رأسه . فلما توطد مركزه على هذا النحو ، تزوج من لوكريشيا دى جوريس ، وكانت على شىء من اليسار ، وعندما تقلد أسقف بالسترينا منصب البابوية تحت اسم جوليوس الثالث ، اصطحب معه رئيس فرقته إلى رومه ، وعينه رئيس معبد جوليا فى كنيسة القديس بطرس ، الذى كان يتدرب فيه المنشدون لكنيسة سستين . وأهدى الملحن الشاب إلى البابا الجديد أول كتاب له فى « القداسات » (١٥٥٤) عرض أحدها معزوفة ثلاثية الألحان بمصاحبة ملشد واحد لأغنية بسيطة ، وأحب البابا هذه القداسات إلى حد أنه منح بالسترينا عضوية فرقة المنشدين فى كنيسة سستين ؛ وبدا موقف جيوفنى شـــاذاً ، بوصفه رجلا متزوجاً ، وسط هذه الجماعة التى كان أفرادها مترهبين عادة ، مما أثار بعض المعارضة . وكان بالسترينا على وشك أن يهدى البابا كتاباً فى الغزليات ، لولا أن جوليوس عاجله الموت (١٥٥٥) .

ولم يعمر مارسلس الثانى أكثر من ثلاثة أسابيع بعد ارتقائه عرش البابوية . وأهدى الملحن إلى ذكراه (١٥٥٥) مقطوعته الشهيرة « قداس البابا مارسلس » التى لم تنشر ، أو هكذا كانت تسمى حتى ١٥٦٧ : وطرد البابا بول الرابع ذو المبادئ البيوريتانية الجامدة الثلاثة الأعضاء المتزوجين فى فرقة منشدى سستين ، وخصص لكل منهم معاشاً ضئيلا . وما لبث بالسترينا أن عين رئيساً لفرقة المنشدين فى كنيسة سان جون لاتيران ، ولكن هذه الوظيفة ، ولو أنها سدت رمقه ، لم توفر له نفقات نشر تآليفه الموسيقية : وعاد العطف البابوى يظلله بارتقاء بيوس الرابع عرش البابوية (١٥٥٩) . وتأثر بيوس أيما تأثر بمقطوعة Improperia التى أعدها بالسترينا لاحتفال « الجمعة الحزينة » ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المقطوعة جزءاً لا يتجزأ من الطقوس فى كنيسة سستين ؛ وظل زواج

بالسترينا يحول بينه وبين فرقة سستين ، ولكن ارتفع شأنه بتعيينه (١٥٦١) رئيساً لفرقة سانتا ماريا مجيورى :

وبعد ذلك بعام واحد بحث مجلس ترنت الذى انعقد ثانية ، مشكلة تنظيم الموسيقى الكنسية ، لتتسق مع روح الإصلاح الجديدة ؛ ورفض الاقتراح القائل بمنع « تعدد الأصوات » منعاً باتاً ؛ وأقر حل وسط يحث السلطات الدينية « على أن تستبعد من الكنائس كل موسيقى ؛؛؛ تقدم شيئاً من الدنس أو الفجور ، حتى يظل بيت الله مشهوداً له بأنه بيت التعبد والصلاة(*) ، وعين بيوس الرابع لجنة قوامها ثمانية من الكاردينالات لتنفيذ هذا القرار فى أبرشية رومه . وتروى قصة لطيفة أن اللجنة كانت على وشك تحريم الموسيقى المتعددة الأصوات ، حيث توسل أحد الأعضاء وهو الكاردينال شارل بوروميو ، إلى بالسترينا أن يؤلف قداساً يمكن أن يظهر الانسجام الكامل بين تعدد الأصوات والتقى والتدين ، واستجاب بالسترينا وألف ، وأنشدت الفرقة ثلاثة قداسات أمام اللجنة ، أحدها « قداس البابا مرسلس » . ولم ينقذ « تعدد الأصوات » من الحكم عليه بالفناء إلا الاتحاد الوثيق بين السمو الدينى والبراعة الفنية المهذبة فى الموسيقى فى هذه القـــداسات . على أن قداس البابا مرسلس كان قد مضى على تأليفه آنذاك عشر سنوات . ومهما يكن من أمر فإن العلاقة الوحيدة المعروفة بين بالسترينا وهذه اللجنة ، هى أنها زادت من راتبه(١٦) : على أننا مع ذلك قد نؤمن بأن الموسيقى التى كان بالسترينا قد قدمها فى فرق روما ، بفضل إخلاصها للكلمات ، وتجنبها للمثيرات الدنيوية وإخضاعها الفن الموسيقى للمقاصد الدينية ، قد لعبت دوراً كبيراً فى توجيه اللجنة إلى إجازة الموسيقى المتعددة الأصوات(١٧) : وثمة حجة أخرى تضاف تأييداً « لتعدد الأصوات » تلك هى أن تآليف بالسترينا الدينية استغنت ، بشكل طبيعى ،

(*) أحس بيوس العاشر (١٩٠٣) ، وبيوس الثانى عشر (١٩٥٥) أنه من الضرورى تكرار هذه التعليمات .

عن « زخارف الآلات » ، وكانت مكتوبة دائماً تقريباً بالأسلوب الكنسى ، أى الأصوات فقط .

وفى ١٥٧١ أعيد تعيين بالسترينا رئيساً لفرقة كنيسة جوليا ، وبقى فى هذا المركز حتى موته : وفى نفس الوقت كان إنتاجه غزيراً بلا حدود بلغ فى جملته ٩٣ قداساً ، و٤٢٦ ترنيمة تجاوبية ، وتقدمه للذبيحة الإلهية ، وأغنية دينية ومزموراً وعدداً كبيراً من الغزليات : وكان بعض هذه مبنياً على موضوعات علمانية . ولكن بالسترينا لما تقدمت به السنون ، حول حتى هذا الشكل إلى أغراض دينية . وتضمن « كتابه الأول فى الغزليات الروحية » (١٥٨١) بعضاً من أجمل مقطوعاته . وربما لونت المآسى الشخصية موسيقاه أو شوهتها ، فقد توفى ابنه أنجلو فى ١٥٧٦ ، تاركاً فى رعايته حفيدين عزيزين ، ماتا بعد ذلك بسنوات قليلة . وتوفى ابن آخر له حوالى ١٥٧٩ . ولكن موت زوجته فى ١٥٨٠ دفعه إلى التفكير فى أن يترهب . على أنه تزوج ثانية فى بحر سنة واحدة .

إن وفرة إنتاج بالسترينا ونوعيته المذهلتين رفعتاه إلى مرتبة الزعامة على الموسيقى الإيطالية ، إن لم تكن الأوربية بأسرها : إن وضعه نشيد الإنشاد Song of Solomon فى تسع وعشرين قصيدة دينية (١٥٨٤) ، و « مراثى أرمياء » ١٥٨٨ ، و Stabat Mater and Magificat ١٥٩٠ ، ثبتت شهرته وقوته الصامدة . وفى ١٥٩٢ اشترك منافسوه الإيطاليون فى إهدائه « مجموعة من مزامير المساء » : وكرموه بأنه « الأب المشترك لكل الموسيقيين » : وفى أول يناير ١٥٩٤ أهدى كريستينا دوقة تسكانيا العظيمة « الكتاب الثانى من الغزليات الروحية » التى جمع فيها ثانية بين الإخلاص الدينى والبراعة الموسيقية : وبعد ذلك بشهر واحد قضى نحبه وهو فى التاسعة والستين من العمر ، ونقش على قبره تحت اسمه « أمير الموسيقى » :

وينبغى ألا نتوقع أن نقدر بالسترينا اليوم حق قدره ، إلا إذا كانت

نفوسنا نحن متشبعة بالروح الدينية . وإننا لنسمع اليوم موسيقاه فى وضعها السليم بوصفها جزءاً من طقوس مهيبة ، وحتى فى هذه الطقوس قد تتركنا جوانبنا الفنية مشدوهين أكثر منا متأثرين . وبالمعنى الحرفى ، أى فى واقع الأمر ، إن الوضع الصحيح لا يمكن أن يعود أبداً ، لأن موسيقى بالسترينا كانت موسيقى الإصلاح الكاثوليكى ، فهى النغمة الكئيبة للنكسة الصارمة ضد الابتهاج الحسى فى النهضة الوثنية ، أو قل هى ميكلأنجلو باقياً على قيد الحياة بعد رافائيل ، أو بول الرابع يحل محل ليو العاشر ، أو ليولا يحل مكان بمبو ، أو كلفن يخالف لوثر . إن ترجيحاتنا المعاصرة ليست إلا معياراً عابراً غير معصوم من الخطأ ، وذوق الفرد — وخاصة إذا أعوزته القدرة الفنية والتصرف والإحساس بالخطيئة — إنما هو أساس واه نقيم عليه مقياساً للحكم فى الموسيقى واللاهوت . ولكن نستطيع أن نتفق جميعاً على أن بالسترينا ، بلغ بفن « تعدد الأصوات » الدينى درجة الكمال ، فى عصره . وأنه ، مثل معظم كبار الفنانين ، وقف على قمة حد من التطور فى الإحساس والتقنية ، وتسلم تقاليداً فأتمه وأكمله ، لقد ارتضى النظام ، وعن طريقه زود موسيقاه بتركيب وبنية ، أو رسوخاً معمارياً فى وجه أعاصير التغيير الهوجاء . ومن يدرى ، فربما جاء عصر ليس ببعيد ، أرهقته أصوات الأوركسترا العالية الطنانة ورومانسيات الأوبرا — ليجد فى موسيقى مثل موسيقى بالسترينا عمقاً فى الإحساس ، وانسياباً عميقاً هادئاً فى الألحان ، يصلحان بطريقة أفضل للتعبير عن النفس الإنسانية المتطهرة من غرور العقل والقوة ، رابضة مرة ثانية ، فى تواضع وخشوع وخشية ، أمام الوجود الأبدى الغامر الذى يطبق عليها ؟

المراجع

NOTES

CHAPTER XXIX

1. Waliszewski, *Ivan the Terrible*, 95.
2. Rambaud, *Hy of Russia*, I, 286.
3. Waliszewski, *Ivan*, 68.
4. Eckhardt, Russia, 29.
5. Réau, *L'art russe*, I, 244.
6. Kluchevsky, *Hy of Russia*, 275.
7. Pokrovsky, *Hy of Russia*, 104.
8. Vernadseky, *Hy of Russia*, 55.
9. Rambaud, I, 253.
10. Kluchevsky, I, 75, 95.
11. Pokrovsky, 144.
12. Rambaud, I, 266; Waliszewski, *Ivan*, 267.
13. Ibid., 268, 272.
14. Pokrovsky, 157.
15. Waliszewski, 258.
16. Rambaud, I, 300.
17. Réau, I, 272.
18. Waliszewski, 374.
19. Roeder, *Catherine de' Medici*, 495.
20. Waliszewski, 381.

CHAPTER XXX

1. Browne, E. G., *Literary Hy of Persia*, III, 43.
2. Lamb, H., *Tamerlane*, 293.
3. Clavijo, *Embassy to Tamerlane*, 153.
4. *Bulletin of the American Institute for Iranian Art*, *June*, 1938, 248-52.
5. Arnold, M, W., *Painting in Islam*, 93.
6. Browne, III, 289.
7. Ibid., 277.
8. Hafiz, tr. Streit, 80.
9. In Gottheil, ed., *Literature of Persia*, I, 408.
10. Hafiz, tr. Streit, stanzas 10, 11, 19, 21, 49.
11. Bell, G., *Poems from the Divan of Hafiz*, xxiii.
12. Ouseley, G., *Biographical Notices of Persian Poets*, 23 f.
13. In Grousset, R., *Civilizations of the East*, I, 338-9.
14. Hafiz, tr. Streit, 65.
15. Ibid., stanza 38.
16. Bell, stanza xliii.
17. Clavijo, 181.
18. Ibid., 137.
19. Browne, III, 185. Some assign Timur's lameness to a later period; so Clavijo, 210, and Sykes, P., *History of Persia*, II, 121.
20. Timur, *Mulfuzat*, v, 26.
21. Browne, III, 186.
22. Ibid., 178; Lamb, 150.
23. Browne, III, 189.
24. Ibid., 190.
25. Clavijo, 132.
26. Ibid., 151, 278.

27. Ibid., 249.
28. Pope, A, U,, *Masterpieces of Persian Art*, 149.
29. Dawlatshah in Browne, III, 501.
30. Ibn Khaldun, *Les Prolegomènes*, I, p, lxxii.
31. Lane-Poole, S., *Cairo*, 50.
32. Gibbons, H, A., *Foundation of the Ottoman Empire*, 150.
33. Freissart, J., *Cbronicles*, iv, 90.
34 Lane-Poole, S., *Story of Tutkey*, 97.
35. *Cambridge Modern History*, IV, 705.
36. Vambery, A,, *Story of Hungary*, 282.
37. Gibb, E., J., *Ottoman Literature*, 3.
38. Ibid., 209 f.
39. Browne, III, 455.
40. *Jami*, *Mulla Nuru d-Din*, tr, E. Fitzgerald, 69.
41. Pope. *Masterpieces*, 146.
42. Davise, F, H., *Persian Mystics : Jami*, 71.
43. Clavijo, 153.
44. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'ort musulmane*, I, 357.
45. Cf. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, IV, 428 f.
46. Ibid., III, 1324.
47. Sykes, II, 155.
48. In Dimand, M, S., *Handbook of Muhommadan Art*, 42.
49. Arnold, T., and Guillaume, A., *Legacy, of Islam*, 96.
50. Ibn Battuta, M., *Travels*, tr. H. A., Gibb, 148.
51. Ibid., 57.
52. Sarton, G., *Introd, to the History of Science*, II-2, 1100.
53. Arnold, *Legacy of Islam*, 340.
54. Ibn Khaldun, *Prolegomènes*, I, p. xxx.
55. Ibid., lxxiii.
56. Ibid., 4.
57. 71.
58. 12.
59. 67.
60. Boer, T., *History of Philosophy in l' Islam*, 203.
61. Ibid., 205.
62. De Vaux, C., *Les penseurs de'lIslam*, I, 288.
63. Ibn Khaldun, I, 175.
64. Ibid., 176 f.
65. 170 f.
66. Ibid., Introd., xxxii.
67. Ibid., 95.
68. Introd., xxxii.
69. Ibid,, 324.
70. Ibid., III, 44.
71. I, 303.
72. I, 345; III, 300-5.
73. I, 333, 354.
74. III, 227, 233, 240.
75. III, 115-20, 184, 188; I, 218.
76. De Vaux, I, 282.
77. Ibn Khaldun, III, 249; I, 347.
78. III, 456.
79. III, 125.
80. Issawi, C., *An Arab Philosophy of History*, 21.
81. Toynbee, A., *A Study of History*, III, 321.
82. Sarton, III-2, 1770.

CHAPTER XXXI

1. *Cambridge Mod, Hy*, III, 112.
2. Sykes, II, 164; Browne, IV, 21.
3. Browne, IV, 62.
4. Ibid., 51.
5. Hughes, T. P., *Dictionary of Islam*, 572.
6. Doughty, Chas., *Arabia Deserta*, I, 59.
7. Sykes, II, 163.
8. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 224.
9. Browne, IV, 93.
10. Sykes, II, 168-9.
11. Dimand, M. S., *Guide to an Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 34.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 39.
13. Merriman, R. B, *Suleiman the Magnificent*, 33.
14. Ibid., 190.
15. *Camb. Mod. Hy*, I. 92.
16. Guicciardini, F., *History of the Wars in Italy*, VIII, 12; Schevill, F., *History of the Balkan Peninsula*, 217; *Camb. Mod.* Hy I, 93.
17. Merriman, 60.
18. Ibid., 61.
19. Bury, J, B., in *Camb, Mod*, H*y*, I, 93.
20. Merriman, 72.
21. *Camb, Mod.* H*y*, 94-5.
22. Ibid., 95,
23. Ranke, L. von, H*istory of the Reformation in Germany*, 579.
24. Merriman, 124.
25. Ibid., 141-2.
26. *Camb, Mod*, H*y*, III, 123.
27. Gibbons, *Foundation of the Ottoman Empire*, 81; Schevill, 240.
28. Schevill, 233.
29. Merriman, 171.
30. Bury in *Camb, Mod, Hy*, I, 101.
31. Merriman, 202.
32. Ibid., 165.
33. *Camb, Mod*, H*y*, I, 101.
34. Creasy E, S., H*istory of the Ottoman Turks*, 113; Merriman, 148.
35. Robertson, Wm., H*istory of the Reign of Charles V*, II 367,
36. Schevill, 238.
37. Creasy, 109.
38. Lane-Poole, S., *Saladin*, 36.
39. Hitti, P, K, H*istory of the Arabs*, 19.
40. Merriman, 203.
41. Gibbons, 74; Creasy, 106.
42. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, ed Robertson, 749.
43. Creasy, 113.
44. Gibb, *Ottoman Literature*, 233.
45. *Camb, Mod*, H*y*, VI, 420.
46. Creasy, 108.
47. Ibid., 109.
48. Gibb, 123-8.
49. Luther, *To the Christian Nobility*, in *Works*, II, 149.
50. Froude, J, A., *The Reign of* H*enry VIII*, II, 184n,
51. Lang. A., H*istory of Scotland*, II, 78.

52. Gibb, 218.
53. Merriman, 185-93; Robertson, *Charles V*, II, 365-73

CHAPTER XXXII

1. Percy, Thos., *Reliques of Ancient English Poetry*, II, 116; Jewish Encyc, XII, 462.
2. Marcus, J., *The Jew in tbe Medieval World*, 395-7,
3. Graetz, H., *History of the Jews*, IV, 272.
4. Erasmus, Letter to Capito, March, 13, 1518.
5. Graetz, IV, 296; Abbott, G, F., *Israel in Europe*, 198-9.
6. Abott, 203.
7. Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 58 f.
8. Sarton, *Introduction to the History of Science*, III-1, 57.
9. Graetz, IV, 220.
10. Ibid., 407.
11. Pasror, L., *History of the Popes*, VIII, 444.
12. Id., X, 372.
13. Roth, C., in Finkelsetein, L., ed., *The Jews*, 239.
14. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, II, 66.
15. Roth, C., *Tbe Jewish Contribution to Civilization*, 92.
16. Thompseo, J, W., *Economic and Social History of Europe in tbe Later Middle Ages*, 30.
17. Newman, L, J., *Jemish Influence in Christian Reform Movements*, 436-50.
18. Dubnow, S. M, *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 61
19. Ibid, 85-7,
20. Abrahams, Israel, *Jewish Life in tbe Middle Ages*, 403.
21. Newman, 483.
22. Ibid., 473.
23. Graetz, IV, 549 51.
24. Finkelstein, 241.
25. Coulton, G., *Medieval Panorama*, 185.
26. Sarton, III-2, 1059.
27. Coulton, G, G., *From St. Francis to Dante*, 110.
28. Janssen, J, *History of the German People at the Middle Ages*, II, 73.
29. Roth, *Jewish Contribution* 25.
30. Graetz, IV, 286.
31. Ibid., 245.
32. Cf, e.g., Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 147.
33. Graetz, IV, 253.
34. Ibid, 55-7; Baron, II, 29.
35. Monmarché, M, ed., *Châteaux of the Loire*, 190.
36. Graetz, IV, 98.
37. Lea, *Inquisition in Spain*, I, 101; Abbott, 103; Graetz, 103.
38. Ibid, 101.
39. Abrahams, *Jewisb Life*, 331.
40. Marcus, 44.
41. *Cambridge Medieval History*, VII, 657.
42. Baron, II, 29.
43. Lea, *Inquisition in the Middle Ages*, II, 379.
44. Graetz, 109.10.

45. Thompson, *Economic and Social History*, 214.
46. Kastein, J., *History and Destiny of tbe Jews*, 321.
47. Janssen, II, 78.
48. Ibid, 76.
49. Jew, Encyc, III, 554.
50. Graetz, 302-7.
51. Ibid., 513.
52. Ibid, 515.
53. Ibid., 520-1.
54. Ibid., 523,
55. Prescott, W, H., *History of the Reign of Ferdinand and Isabella*, I, 517; Abbott, 191.
56. Burckhardt, J., *Civilization of the Renaissance in Italy*, 488.
57. Sombart, W., *The Jews and Modren Capitalism*, 17.
58. Finkelstein, 240.
59. Roth, *Jewish Contribution*, 210.
60. Graetz, 500.
61. Ibid., 515
62. Ibid., 525-7.
63. Ibid., 567. Pator, XIV, 271.4.
64. Abbott, 103; Abarhams, *Jewish Life*, 67.
65. Pastor, XIV, 274.
66. Abbott, 204; Robertson, W., *History of the Reign of Charles V*, I, 206-7,
67. Pastor, i.c.
68. Graetz, 361-2.
69. Ibid.,
70. Ibid., 356.
71. Robertson, W, *Charles V*, I, 207.
72. Burton, R, F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 65.
73. Graetz, III, 511,
74. Durant, W., *Age of Faith*, 374.
75. Finkelstein, 229.
76. Abrahams, *Jewish Life*, 160.
77. Abbott, 202.
78. Marcus, 170 f.
79. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 226.
80. Waxman, II, 258.
81. Jew, Encyc, XII 404.
82. Baron, II, 132.
83 Husik, I, *History of Medieval Jewish Philosophy*, 360; Waxman, 256.
84. Jew, Encyc., VIII, 29.
85. Baron, 85.

CHAPTER XXXIII

1. Mattingly, G., *Catherine of Aragon*, 109.
2. Agricola, *De re metallica*, 99, 100.
3. Ibid., xiii, 46-7, 52.
4. Usher, 274.
5. Toynbee, A., *A Study of History*, IX, 365-6.
6. Erasmus, "Diversoria", in *Colloquies*, I, 288 f.
7. *Merchant of Venice* III, iv, 271.
8. Smith, *Reformation*, 473.
9. Froude, *Edward VI*, 41-2; Marx, *Capital*, 808.
10. Smith, *Reformation*, 554-5,
11. Ibid, 469.
12. Thomas Aquinas, *Summa theologica*, II, IIae, lxvi, 7; cxviii, 1.
13 Lacroix, *Manners, Customs and Dress during the Middle Ages*, 479.

14. *Camb Mod Hy*, II, 436.
15. Kesten, *Copernicus*, 33.
16. Coulton, *Medieval Village*, 338.
17. Lecky, *Rationalism*, II, 113.
18. Hackett, *Francis, I*, 406.
19. Smith, *Reformation*, 483.
20. Beard, *Luther*, 126.
21 Froude, *Edward VI*, 2.
22. Pollard, *Henry VIII*, 432.
23. Armstrong, *Chales V*, I, 59.
24. Starkey, Thos, *Dialogue between Reginald Pole and Thomas Lupset*, London, 1871, in Allen, *Political Thought*, 149.
25. Smith, *Erasmus*, 27.
26 Bakeless, *Tragicall Hy of Christopber Marlowe*, 50.
27. Friedländer, *Roman Life and Manners*, II, 93.
28. Janssen, XI, 239.
29 Brantôme, *Lives of Gallant Ladies*, 65, 68.
30. Maulde, 391.
31. Lacroix, *Prostitution*, II, 1151.
32. Janssen, XI, 233.
33. Lacroix, Prostitution II, 1151f.
34. Brantôme, 133.
35. Lacroix, II, 1189.
36. Smith, *Reformation*, 321.
37. Erasmus, *Colloquies*, I, 342.
38. Rabelais, iii, 48.
39. Ascham' *The Scholemaster*, 50.
40. In Smith, *Reformation*, 412.
41. Turner, *Hy of Courting*, 45-7; Briffault, *The Mothers*, III, 415 ; Smith, *Modern Culture*, I, 531.
42. Sichel, *Catherine de' Medici*, 6.
43. Cf, Lippmann, W, *The Public Philosophy*, 117.
44. Cf, O'Brien, *Enonomic Effects of tbe Reformation*, 75.
45. Schapiro, *Social Reform*, 31.
46. Ibid ,
47. Froude, *Edward VI*, 166,
48. Maulde, 66.
49. Sichel, *Women*, 230.
50. O'Brien, 55.
51. Janssen, III, 367.
52. Froude, *Edward VI*, 69.
53. Prescott, *Mary Tudor*, 327.
54. Froude, l·c.
55. Smith, *Reformation*, 559.
56. Ashley, II, 369.
57. Ibid., 342.
58. Watson, F., *Luis Vives*, 61.
59. Froude, *Henry VIII*, II, 372,
60. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
61. Ibid., 55.
62. Janssen, IV, 60 f.
63. *Werke* (Erlangen), I, 14, in Maritain, *Three Reformers*, 186.
64. O'Brien, 51, transposed.
65. Janssen, VI, 275; Smith, *Lutber*, 416.
66. Janssen, VII, 301.
67. Lea, *Auricular Confession*, III, 428.
68. Calvin, Preface to the Geneva Catechism.
69. Lang, *Hy of Scotland*, II, 402.
70. Froude, *Edward VI*, 265.
71. Trail, III, 160,

72. Lacroix, *Prostitution*, II, 1213-4.
73. Maulde, 217.
74. Sch ff, *Swiss Reformation*, 722.
75. Wright, Thos, *Womankind in Western Europe*, 325.
76. Lacroix, *Prostitution*, II, 1205.
77. Ibid., 1204.
78. Allen, P, S., *Age of Erasmus*, 203-4; *Smith Reformation*, 510.
79. Wright, Thos., *Domestic Manners*, 491.
80. Coulton, *Social Life*, 376; *Medieval Panorama*, 313
81. Baedeker, *Munich*, 12.
82. Huizinga, *Waning of Middle Ages*, 289.
83. Smith *Reformation*, 500,
84. Wright, *Domestic Manners*, 485-8.
85. In Nock & Wilson, *Rabelais*, 41.
86. In Bainton, *Here I Stand*, 343.
87. Rashdall, *Universities*, III, 422.
88. In Lacroix, *Manners*, 241.

CHAPER XXXIV

1. Sichel, *Women*, 246.
2. Lang, *Music in Western Civilization*, 300.
3. Einstein, A., *The Italian Madrigal*, I, 7.
4. Grove, *Dictionary of Music and Musicians*, III, 459.
5. Whitcomb, *Literary Source Book of the German Renaissance*, 22.
6. Grove, III, 254.
7. Mc Kinney and Anderson, *Music in History*, 210.
8. Blok, II, 377.
9. Kiesewetter, *Hy of Music*, in Grove, III, 684.
10. Bainton, *Here I Stand*, 343.
11. McKinney, 303.
12. Guizot, *Hy of France*, III, 123.
13. Bainton, *Here I Stand*, 344.
14. Janelle, *Catholic Reformation*, 218.
15. Froude, *Erasmus*, 122.
16. Grove, IV, 20 f.
17. Cf. *Oxford Hy of Music*, II, 243.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

